





ي. به رود در دخود مروت دار الکتاب النائي ميروت دار ا بين وت بار الكتاب الثنائق بين وت بار الكتاب اللبنائق بين وت بين وت بار الكتاب اللبنائق بين وت بار الكتاب اللبنائق بين وت بار الكتاب اللبنائق بين وت بين وت بار الكتاب اللبنائق بين وت حديد مرود در الصنب سعيد ميرود من صحب مهمود مرود در صحب ميرود من الكتاب اللغائم ميرود ما راكتاب اللبغائم عيرود ماللبغائم عيرود ما راكتاب اللبغائم عيرود ما راكتاب اللبغائم عيرود ما راكتاب اللبغائم عيرود اللبغائم عيرود على البغائم عيرود ما راكتاب اللبغائم عيرود عيرود عيرود عيرود عيرود عيرود عيرود عيرود اللبغائم عيرود عاب الليناني مع وت بال الكتاب اللياني ميروث وال الكتاب اللياني مع وت مار الكتاب اللياني مع وت مع رالكتاب اللغلي بيروث بأرالكتاب اللبتاني ميروث مارالكتاب اللغاني ميروث بارالكتاب اللباني ميروث مارالكتاب اللباني ميروث بارالكتاب اللباني ميروث وارالكتاب اللباني ـ ال الكتاب اللخابي . مع وت ما را الكتاب اللبخابي - مع وت ما را الكتاب اللبخابي . مع وت ما را الكتاب اللبخب عبر وت ما را الكتاب عبر وت اللبخب عبر وت اللبخب عبر وتعلق عبر وتعل وتُ مارالكناب الشابح. تبروت مارالكتاب الشابح. تبروت بارالكتاب السابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت باللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت باللبابح. تبروت بالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت باللبابح. تبروت باللبابح. تبروت باللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت باللبابح. تبروت باللبابح. تبروت باللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت باراكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابع بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابح. تبروت بارالكتاب اللبابع اللبابع ا يروت برار الكتاب اللياني معروت براز الكتاب اللبياني معروت بار الكتاب اللباني معروت بار الكتاب اللباني معروت والمساني معروت والمساني معروت والمساني معروت والمساني والم تجربروت بارالكتاب اللباني بروت بارالكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني بهروت والاكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني بارالكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني بارالكتاب اللباني بارالكتاب اللباني بارالكتاب اللباني بارالكتاب اللباني بارالكتاب الكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني ا الماحي موروث مار الكتاب اللماحي موروث مار الكتاب اللماحي موروث مار الكتاب اللماحي موروث مار الكتاب اللماح وموروث مار الكتاب اللماح وموروث مار الكتاب اللماح وموروث مار الكتاب اللماح وموروث مار الكتاب اللماح ومرود مرود مار الكتاب اللماح ومرود مرود مار الكتاب اللماح ومرود ومرود اللماح ومرود ومرود ومرود مار الكتاب اللماح ومرود لمني مروت مار الكتاب اللبائي ميروث مار الكتاب السابح ميروث مار الكتاب الساني ميروث مار الكتاب اللباني ميروث مار الكتاب السابح ميروث مار الكتاب الساني ميروث مار الكتاب الساني ميروث كتاب اللياني - بيروت دار الكتاب اللياني - بيروت دار الكتاب الليانج - بيروت دار الكتاب الليانج - بيروت و دار الكتاب الليانج - بيروت و دار الكتاب الليانج - ال ر الكتاب المثاني - مروت بار الكتاب السنامج - مروت بار الكتاب السامح - ميروت بار الكتاب السام روت مارائكتاب اللنائع. ميروت مار الكتاب اللبائع. نج. محوث دار الكتاب اللناب غيروث دار الكتاب اللناب عبروث دار الكتاب اللناب عروث دار الكتاب اللناب عبروث دار الكتاب اللناب عبروث والكتاب اللناب عبروث والكتاب اللناب عبروث والكتاب اللناب ويتوث لاغاني ميروث مارالكتاب الساني ميروث مارالكتاب اللباني ميروث مارالكتاب اللماني ميروث مارالكتاب اللباني ميروث مارالكتاب اللباني ميروث مارالكتاب اللماني ميروث كتاب الليناني مروث مار الكتاب اللياني مروث مار الكتاب اللياني مبروث مار الكتاب اللياني مبروث بار الكتاب اللياني مبروث والكتاب اللياني ار الكتاب اللماني محوث مار الكتاب اللماني محروث مار الكتاب ت بار الكتاب البياني مورث مار الكتاب البياني ميروت مار الكتاب اللياني ميروت تبروت بارالكتاب البخاب بيروت مارالكتاب البماني ببروت بارالكتاب اللماني بيروت بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بيروت بارالكتاب الماني بيروت بارالكتاب الماني بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بارالكتاب اللماني بيروت بيروت بيروت بيروت بيروت بارالكتاب الماني بيروت بيروت بارالكتاب الماني بيروت اني ميروت بار الكتاب اللباني اللباني ميروت بار الكتاب اللباني ميروت اللباني اللباني الكتاب اللباني اللباني اللباني اللباني الكتاب اللباني اللباني الكتاب اللباني الكتاب اللباني اللباني الكتاب اللباني الكتاب اللباني اللباني الكتاب اللباني ال اللغاني بيروت بارالكتاباللغاني بيروت بارالكتاب اللغاي بيروت بارالكتاب اللعاب ميروت بارالكتاب اللعاب ميروت بارالكتاب اللعاب ييروت ناب اللخابي بهروت دار الكتاب اللخاني عبروت دار الكتاب اللخاني عبروث مار الكتاب اللحاني عبروث دار الكتاب اللحاني عبروث مار الكتاب اللخاني عبروث عار الكتاب اللخاني عبروث كتاب اللخانب ميروث ما رالكتاب اللحاني. ميروث ما رالكتاب اللباني ميروث ما رالكتاب اللحان ميروث ما رالكتاب اللحاني ميروث ما رالكتاب اللحاني ميروث من الكتاب اللحاني ميروث من اللحاني ميروث من الكتاب اللحاني ميروث من اللحاني ميروث من اللحاني ميروث من اللحاني ميروث من الكتاب اللحاني ميروث من اللحاني ميروث ميروث من اللحاني ميروث من المراني ميروث ميروث من المراني ميروث من اللحاني ميروث من المراني ميروث من المرو ـار الكتاب اللخاني ـ بيروث دار الكتاب اللخاني . بيروث دار الكتاب الكتاب اللخاني . بيروث دار الكتاب ت دار الكناب اللحائب ُ تيروتُ مار الكناب اللحائب. بيروتُ مار الكتاب اللحائب. ميروتُ مار الكتاب الكتاب اللحائب. ميروتُ مار الكتاب الكتاب اللحائب. ميروتُ مار الكتاب الك بروت دار الكتاب اللحاني . مروت دار الكتاب اللحاني . مبروت دار الكتاب اللحاني . يبيج وت دار الكتاب اللمائيج بيروث دار الكتاب اللبنائيج بيروث دار الكتاب اللمائيج بيروث ماران على بيروت دارالكتاب اللياني بيروت دارالكتاب اللياني بيروت بارالكتاب اللياني بيروت بارالكتاب اللياني بيروت دارالكتاب اللياني بيروت والكتاب اللياني والكتاب والكتاب اللياني والكتاب الكتاب اللياني والكتاب والكتاب اللياني والكتاب ي ميروت بارالكتاباللماني بيروت مارالكتاباللماني ميروت بارالكتاب اللماني ويروت بارالكتاب الماني ويروت بارالكتاب الماني ويروت بارالكتاب الماني ويروت بارالكتاب الماني ويروت باراكتاب ويروت بارالكتاب ويروت بارالكتاب ويروت بارالكتاب ويروت بارالكتاب ويروت بارالكتاب ويروت باراكتاب ويروت با ... سعب جبروت در الصناب البياني ، مبروت در الصناب السعادي عبروت دار الكتاب الليانية عبروت دار الكتاب اللياني ، مبروت دار الكتاب اللياني ، مبروت دار الكتاب الليانية ، مبروت دار الكتاب ، الكتاب اللبناني بروث باز الكتاب اللبناني ببروث باز الكتاب اللباني ببروث باز الكتاب اللبناني ءت دار الکتاب الليماني ميروت دار الکتاب اللينانې ميروت دار الکتاب اللينانی ميروت دار الکتاب الله وارالكتاب اللياني عيروت مارالكتاب اللياني عيروت وارالكتاب اللياني ميروت ت دارالكتاب اللبناني بيروت دارالكتاب اللماني بيروت دارالكتاب اللبناني بيروت دارالكتاب ď ت دارالكتاباللغاني تبروت دارالكتاباللغاني ببروت دارالكتاباللغاني ببروت دارالكتاباللغاني ببروت دارالك وت دار الکتاب اللخانی خبروت دار الکتاب اللخانی خبروت دار الکتاب اللحام خبروت حاراً يحيروت دارالكتاب اللحائج حبروت دارالكتاب اللخاني عروت بارالكناء تيروب دارالكناب الليانية. تيروت دارالكناب الليانية. تيروت دارالكناب اللياني " تيروب د باني بيروت دارالكناداللباني بيروت دارالكناداللباني بيروت دارال ـ بروت بارالكتاب اللناني. بيروت بارالكتاب الليابي. بم وت بارالكتاب الليناني ـ بيروت اللحاني . نَيْرُوت دَارِ الكتاب اللحاني . نَيْرُوت دَارِ الكتاب اللجاني . بَيْرُوت دَا، مرود داراتگاب التعافق مرود داراتگاب التعافق من التعافق من التعافق من التعافق من التعافق من التعافق من التعافق ناب اللباني أنبروت برار الكتاب اللباني أبيروت برار الكتاب اللباني أبيروت اللبناني ميروث دار الكتاب اللبنانم ميروث باز الكتاب اللبناني ميروث دار الكتاب اللبناني كتاب اللبناني أجروت رار الكتاب اللبناني . بحروث مار الكتاب اللبناني . بحرو عُنابِ اللَّمَانِي . بيروت دار الكنابِ اللَّمَانِي بيروت دار الكنابِ اللَّمَانِي . بيروت دار الكناب ـ ار الكتاب اللبياني - نيروت بالرالكتاب اللبياني . نيروت بار الكتاب اللبناني - ب دار الكتاب اللياني . بيروت دار الكتاب اللبياني . بيروت دار الكتاب اللياني . بيروت - دار الكتاب تُ مارِ الكتاب اللباني ُ سُبروتُ مار الكتاب اللباني ُ سِروتُ ما، الكتاب اللباني روت دار الکناب اللحانی تیروت دار الکتاب اللبانی تیروت دار الکتاب اللحانی تیروب بدار الخ مروت بارالکتاباللنانم تَمروت بارالکتاباللنانم تمروت بارالکتاباللنام مى ميروت دار الكتاب اللمائم عمروت دار الكتاب اللمائم أثيروت دار الكتاب اللمائم أثير وس و. تجروت ما رالکناب اللباني صروت برار الکناب اللبانی میروث برار الکناب اللہ تناب اللياني ببروت بار الكناب اللبناني ببروت بار الكناب اللياني ببروت بار الكناب اللياني وبيروت عاني بم وت بار الكتاب اللبياني محروث بار الكتاب اللبناني عجروث بار الكتاب اللباني . دار الکتاب اللسانی . بیروث دار الکتاب اللبنانی . بیروت دار الکتاب اللبنانی . بیروث دار الکتاب اللبنانی - میرو . اللماني أحيروت حار الكتاب اللمائم أخيروت جار الكتاب اللماني أخيروت مار الكتاب اللمائم عبرو ناب اللغاني. تبروت دار الكتاب اللبعات بيروث دار الكتاب اللبعاني عيروث دار الكتاب اللبعاني بيروث دار الكتاب اللبعاني بيروث دار الكتاب اللبعاني بيروث بار الكتاب اللبعاني بيروث بيروث بار الكتاب اللبعاني بيروث باروث الكتاب النتائج . بيروث بار الكتاب اللبنانج . اللبنانج . بيروث بار الكتاب اللبنانج . بيروث بار مارالكناب اللماني مبروت مارالكتاب اللغايم عبروث بارالكتاب اللماني بهروت بارالكتاب اللبناني مبروث بارالكتاب اللبناني بهروث بارالكتاب اللبناني مبروث بالكتاب اللبناني مبروث بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني اللبناني بارالكتاب الكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني بارالكتاب اللبناني ال بت دار الكتاب اللحامة . محروت دار الكتاب اللحامج . محروت دار الكتاب اللحامج . محروت دار الكتاب اللجامج . محروت و دار الكتاب اللجامج . مروث دار الكتاب اللحام عمروت دار الكتاب اللبائي مبروت دار الكتاب اللحام عمروت دار الكتاب اللخام مبروت دار الكتاب اللجائي مبروث دار الكتاب اللجائي مبروث دار الكتاب اللحام عمروت والكتاب اللحام عمروت والكتاب اللحام والكتاب الكتاب اللحام والكتاب اللحام والكتاب الكتاب الكتاب الكتاب اللحام والكتاب الكتاب ه عبروث بار الكناب اللياني غيروت مار الكتاب اللياني غيروت بار الكتاب اللياني غيروت بار الكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني وت بياني تبروت دار الكتاب اللباني تبروت دار الكتاب اللبناني تبروت دار الكتاب اللبناني تبروت دار الكتاب اللبناني تبروت و دار الكتاب اللبناني تبروت دار الكتاب اللبناني دارك داركتاب اللبناني دار الكتاب اللبناني داركتاب اللبناني داركتاب داركتاب اللبناني داركتاب داركتاب اللبناني داركتاب داركتاب اللبناني داركتاب ـ اللخانگ. محروث دار الکتاب اللحانی ـ محروث دار الکتاب اللخانی ـ محروث دار الکتاب اللحانی ـ محروث ـ دار الکتاب الاحروث ـ محروث ـ دار الکتاب اللحانی ـ دار الکتاب اللحانی ـ محروث ـ دار الکتاب اللحانی ـ دار اللحانی ـ دار الکتاب اللحانی ـ دار الکتاب اللحانی ـ دار اللحانی ـ دا قناب السابح. تيروت دار الكناب اللبنايج عيروت دار الكناب السانح عيروت دار الكتاب اللبنايج عيروت دارات الكتاب اللبنايج عيروت دارات الكتاب اللبنايج عيروت دارات الكتاب اللبنايج عيروت دارات دارات الكتاب اللبنايج عيروت دارات الكتاب اللبنايج عيروت دارات دارات دارات الكتاب اللبنايج عيروت دارات اللبنايج عيروت دارات دارات اللبنايج عيروت د الكناب اللحاث تربيروت مار الكتاب اللحائي تعبروت بار الكتاب اللحائم تعبروت بار الكتاب اللحاب تعبروت بار الكتاب اللحاث تبروت والكتاب اللحائم تعبروت والاستاني ويروت والاستاني ويروت واللحتاب اللحات والكتاب اللحائم واللحائم والكتاب اللحائم والكتاب وال بار الكتاب الشائي . ميروث بار الكتاب الليناني . ميروث بالكتاب . ميروث بالكتاب الليناني . ميروث بالكتاب . ميرو وئت بارالكتاب اللماني ميروث بارالكتاب اللماني بيروث بارالكتاب اللماني ميروث باللماني ميروث بارالكتاب اللماني ميروث بالكتاب اللماني ميروث بالماني ميروث بالكتاب اللماني ميروث بالكتاب الماني ميروث بالكتاب اللماني ميروث بالكتاب اللماني ميروث بالكتاب الماني ميروث بالكتاب اللماني ميروث بالكتاب الماني ميروث بالكتاب الكتاب الماني ميروث بالكتاب الماني ميروث بالكتاب الكتاب الماني ميروث بالكتاب الماني ميروث بالكتاب الكتاب الماني ميروث بالكتاب الكتاب الماني ميروث بالكتاب الماني ميروث بالكتاب الكتاب الكتا مروت مار الكتاب المنابي. مروت مار الكتاب اللبابي. مروت مار الكتاب اللباني مروت مار الكتاب اللباني ميروت ميروت ميروت ميروت ميروت مار الكتاب اللباني ميروت م ى ميروت بارالكتاب اللعام ميروت بارالكتاب اللبناني ميروث باللبناني ميروث بارالكتاب اللبناني ميروث بارالكتاب اللبناني الكتاب اللبناني اللب حد ميروت در الكتاب النبانج ديروت در الكتاب النبانج ديروت در الكتاب النبانج ويروت ويروت ويروت ويروت ويروت ويروت در الكتاب النبانج ويروت در الكتاب النبانج ويروت وي من عمد ميرود در است. سيعت ميرود ميروسين استخد ميرود در استخدار المنظمة المنظم ـ دار الکناب اللياني عروث دار الکتاب الليانی عروث بار الکتاب الليانی الليانی بار الکتاب الليانی الليانی بار الکتاب روت دار الكناب اللمايح . تمروت دار الكناب الكناب اللمايح . تمروت دار الكناب المايح . تمروت دار الكناب الكناب المايح . تمروت دار الكناب المايح . تمروت دار الكناب المايح . تمروت دار الكناب الما ـ بيروت دارالكتاب الليناند ـ بيروت دارالكتاب اللياني بيروث دارالكتاب اللبناني بيروث دارالكتاب اللبناني بيروت دارالكتاب اللبناني بيروت دارالكتاب اللبناني بيروت ويد فارا الكتاب اللبائد مروت دارالكتاب اللماني بيروث مارالكتاب اللباني ميروث مارالكتاب اللباني ميروت مارالكتاب اللباني ميروت والالكتاب اللباني ميروت مارالكتاب اللباني ميروت مارالكتاب اللباني للمانى ميروت دارالكتاب اللمامد ميروث دارالكتاب اللماني ميروث دارالكتاب اللباني ميروث دارالكتاب اللباني ميروث دارالكتاب اللباني ميروث دارالكتاب اللباني الماللماني مروث مار الكتاب الليناني متروث بار الكتاب الليناني باروث بار الكتاب الليناني باروث بار الكتاب الليناني باروث با ار الكتاب اللبائد صروت بار الكتاب اللبابي مجروت بار الكتاب اللبائي عروت بار الكتاب اللبائي عروت بار الكتاب اللبائية عربي وتروت بار الكتاب اللبائية باللبائية باللبائية باللبائية باللبائية باللبائية بالكتاب اللبائية باللبائية بائية باللبائية باللبائية باللبائية باللبائية باللبائية باللبائية ت بار الكتاب الليناني حيروت مراز الكتاب الليناني حيروت بار الكتاب الليناني حيروت مار الكتاب الليناني حيروت مار الكتاب الليناني حيروت مار الكتاب الليناني حيروت والكتاب الليناني حيروت والكتاب الليناني حيروت والكتاب الليناني حيروت والكتاب الليناني عروت والكتاب الليناني والكتاب والكتاب الليناني والكتاب والكتاب الليناني والليناني والليناني والليناني والكتاب الليناني والليناني والكتاب الليناني والليناني والكتاب الليناني والكتاب الليناني والليناني والكتاب الليناني والليناني و بروث دار الكتاب اللحائم. تعروت دار الكتاب اللحائي. تعروت دار الكتاب اللحائم. تعروت دار الكتاب اللجائم. تعروت مار الكتاب اللجائم. تعروت دار الكتاب اللجائم. تعروت دار الكتاب اللجائم. تعروت دار الكتاب اللجائم. . ميروت دارالکناب الليانم. ميروت دارالکناب اللياني. تيروت دارالکناب الليانی. تيروت دارالکتاب الان دارالکتاب الليانی. تيروت دارالکتاب الليانی. تيروت دارالکتاب الان دارالکتاب الليانی. تيروت دارالکتاب الان دارالکتاب الا اللحانج تجروت بارالكتاب اللحاني بروث بارالكتاب اللحاني بمروث بارالكتاب اللحاني بيروث بارالكتاب اللجاني بالكتاب اللجاني بجروث بارالكتاب اللحاني بيروث بارالكتاب اللحاني بالروث بالاث بالروث ب غلام محروث دار الكناب اللحناب سيروث دار الكتاب اللبغاب محروث دار الكتاب اللبغاب سيروث والرالكتاب اللبغاب اللبغاب اللبغاب سيروث والكتاب اللبغاب المناب اللبغاب اللبغاب اللبغاب المناب المناب المناب اللبغاب اللبغاب المناب المناب اللبغاب اللبغاب اللبغاب المناب المناب المناب المناب ا اكتاب اللخاني غيروث مار الكتاب اللبنانم محروث مار الكتاب اللخانم أعبروت مار الكتاب اللبخاني عبروت مار الكتاب اللبخاني عبروت مار الكتاب اللبخاني عبروت مار الكتاب اللبخاني عبروت والكتاب اللبخاني اللبخاني عبروت والكتاب اللبخاني المتحاليات والمتحاليات والمتحاليا دار الكتاب اللعابم . بيروت دار الكتاب اللعام . بيروت دار الكتاب اللعام ، بيروت دار الكتاب اللبناني . بيروت دار الكتاب . اللبناني . اللبناني . اللبناني . بيروت دار الكتاب . اللبناني . بيروت دار الكتاب . اللبناني . ال در انتظام المحمد ميروت دار انتظام المحمد ميروت دار انتظام الساعة ميروت المحمد ميروت دار انتظام المحمد ميروت در ت دار الكاب الباحد ميروت مار الكاب الشاعد ميروت دار الكتاب الشاعد ميروت ميروت دار الكتاب الشاعد ميروت دار الكتاب المحمد ميروت الماركية والمحمد ميروت المراكبة المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد ميروت المراكبة المحمد ميروت المراكبة المحمد ميروت المراكبة المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد المحمد ميروت المراكبة المحمد ميروت المراكبة المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد ميروت المحمد المح عروت دار اكتاب اللبناني عبروت دار اكتاب الشاخف مروت دار اكتاب الشاخف ميروت دار اكتاب الشاخف عبروت الكتاب البناخف ميروت دار اكتاب البناخف ميروت دار اكتاب الناخف ميروت دار اكتاب البناخف ميروت دار اكتاب البناخف ميروت دار اكتاب البناخف ميروت دار اكتاب اللبناخف ميروت دار الكتاب اللبناخف ميروت دار اكتاب اللبناخف ميروت دار الكتاب اللبناخف دار اكتاب اللبناخف داروت داروت

جرون والكتاب الليغابي درورت دار الكتاب اللياني درورت دار الكتاب الليغابي ديروت دار الكتاب الليغاب الليغابي ديروت دار الكتاب الليغاب الليغابي ديروت دار الكتاب اليغاب الليغاب الليغاب اليغاب اليغاب اليغاب الليغاب اليغاب اليغ

سموت بار الكتاب السائع . بيروت دار الكتاب السائم . بيروت دار الكتاب السائع . بيروت دار الكتاب السائم . - بعد المناد الصانح ميروت مار الكتاب اللغاني ميروت مار الكتاب اللبغاني ميروت ميرو اب اللبناني. ميروث دار الكتاب اللباني. ميروث دار الكتاب اللبناني ميروث دار الكتاب اللبناني. ب سيدي ميروت من مستون عبر سنب عن ميروت در بصديستين ميروت من سنب سنبي ميروت من مستعني ميروت من مستعني ميروت من گنام الليناني ميروت مار الكتام الليناني ميروت دار الكتام الليناني ميروت مار الكتام الليناني ميروت بار الكتام الليناني ميروت مار الكتام الليناني ميروت مي - مار الكتاب اللياني. ميروت مار الكتاب اللباني عيروت مار الكتاب اللباني عيروت مار الكتاب اللباني أمروت أمرو روت بار الکتاب الليناني ، مح وت بار الکتاب اللياني . مح وت بار الکتاب الليناني . مح وت بار الکتاب الليناني ، مح وت بار الکتاب الليناني . محروث مار الكتاب اللماني محروث مار الكتاب اللمناب محروث مار الكتاب اللمنابي محروث مار الكتاب اللماني محروث مار الكتاب اللمناني محروث مار انج عروت بار الكتاب اللعابي بعروث بار الكتاب النعاني عروث بار الكتاب النعائي بغروث بار الكتاب اللعاني بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بار الكتاب اللعاني بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بار الكتاب اللعاني بغروث بالإنجاب اللعاني بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بالإنجاب اللعاني بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بغروث بغروث بغروث بالكتاب اللعاني بغروث بغروث بغروث بالكتاب اللعاني بغروث نج مروث دار الكتاب اللماني مروث دار الكتاب اللماني مروث دار الكتاب اللماني مبروث دار الكتاب اللماني مروث دار الكتاب اللماني دروث دار الكتاب الماني دروث داروث دارو سحب ميروت در مصوف ميروت در مصوف عبروت در مصوف عبروت در مصوف عبروت در مصوف عبروت در الكتاب اللماني عبروت در الكتاب اللماني عبروت دار الكتاب الماني عبروت دارك دارك الماني عبروت دارك دارك الكتاب الماني عبروت دارك دارك الماني عبروت دارك دارك دارك ار الكتاب اللغانج عبروت دار الكتاب اللبغنج عبروت باز الكتاب اللبغنج عبروت براز الكتاب اللبغاج عبروت باز الكتاب اللبغنج عبروت باز الكتاب اللبغن عبروت باز الكتاب اللبغنج عبروت اللبغنج عبروت باز الكتاب اللبغنج عبروت اللبغنج عبروت باز الكتاب اللبغنج عبروت باز الكتاب اللبغنج عبروت اللبغنج اللبغنج عبروت اللبغن البغنج عبروت اللبغن اللبغنج عبروت اللبغن اللبغن اللبغن اللبغن اللبغ _ارالكتاب اللباني. بمروت مارالكتاب اللباني. مروت بار الكتاب السابع . بيروث بار الكتاب اللبابع . بيروث بار الكتاب الكتاب اللبابع . بيروث بار الكتاب البابع . بيروث بار الكتاب اللبابع . بيروث بار الكتاب ي مروث بار الكتاب البناني. مروث بار الكتاب الماني. مروث بار الكتاب اللماني. غلي مي وت دار الكتاب اللماني مي وت دار الكتاب الماني مي وت دار الكتاب اللماني مي وت دار الكتاب الماني مي وت دار الكتاب اللماني مي وت دار الكتاب الماني مي وت دار الكتاب الكتاب اللماني مي وت دار الكتاب الماني مي دار الكتاب الماني مي وت دار الكتاب الماني مي وت دار الكتاب الماني مي دار الكتاب الماني مي وت دار الكتاب الماني مي دار ال اللنامي مجروت بارالكتاب اللناني محروث بارالكتاب الساني بهجروث بارالكتاب اللباني مجروث بارالكتاب اللباني محروث باللباني باللبان و مروت در الکناد اللجائي برروت دار الکتاد الا غانج مروت دار الکتاد اللجائي ، بروت دار الکتاب اللجائي ، بروت دار الکتاب اللجائي . بروت دار الکتاب اللجائي ، بروت دار الکتاب ، بروت د .III .b.a اكتاب السانج. مح وت دار الكتاب السانح. مح وت دار الكتاب اللبانح. دارالكتاب اللماني مروث دارالكتاب اللماني مروث دارالكتاب اللماني مروث دارالكتاب اللماني ميروث دارالكتاب اللماني ميروث والكتاب اللماني واللماني والكتاب اللماني والكتاب الكتاب اللماني والكتاب اللماني والكتاب والكتاب اللماني والكتاب والكتاب والكتاب والكتاب والكتاب اللماني والكتاب و يروت دار الكتاب اللحاني محروث مار الكتاب اللحائي مبروت دار الكتاب اللحائي مبروت بار الكتاب اللحاني مبروت بار الكتاب اللحاني مبروت والكتاب اللحاني مبروت والكتاب اللحاني مبروت والكتاب اللحاني مبروت والكتاب اللحاني واللحاني والكتاب اللحاني والكتاب اللحاني والكتاب اللحاني والكتاب اللحاني واللحاني واللحاني والكتاب اللحاني والكتاب اللحاني واللحاني واللحاني والكتاب اللحاني واللحاني والل جـ مروت مار الكتاب السانج معروت معروت معروت معروت معروت معروت معروت و حار عاني . بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بار الكتاب اللباني تبروت بار الكتاب اللباني ، بيروت _اللباني ـ تروت دار الکتاباللغاني ـ تيروت دار الکتاب اللمائي ـ تيروت دار الکتاب الکتاب اللمائي ـ تيروت دار الکتاب المائي ـ تيروت دار الکتاب اللمائي ـ تيروت دار الکتاب اللمائي ـ تيروت ـ كتاب اللنائع. ببروت دار الكتاب اللبنائع. ميروت دار الكتاب اللمائح. ميروت دار الكتاب اللمائح. ميروت دار الكتاب اللمائع. ميروت دار الكتاب اللمائع. راكتاب اللجاني مجوث مارالكتاب اللخاني مروث مارالكتاب اللخاني مجروث مارالكتاب اللجاني مجروث مارالكتاب اللجاني مجروث مارالكتاب اللجاني مجروث مارالكتاب اللجاني دار الکتاب اللخاني محروت مار الکتاب اللخاني محروت مار الکتاب اللخاني محروت مار الکتاب اللخاني محروت بار الکتاب اللخاني محروت مار الکتاب اللخاني محروت مار الکتاب _ار الكتاب اللحاني ، مح وت دار الكتاب اللخاني . مح وت دار الكتاب اللحاني . يروت بار الكتاب الليناني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب الليناني بيروت بيروت بار الكتاب الليناني بيروت باروت باروت باروت بيروت باروت با ني مروت دار الكتاب النائع مروت دار الكتاب اللماني مروت دار الكتاب اللمام مروت دار الكتاب اللماني مروت النابي مروث بار الكتاب النتائي محروث بار الكتاب النبائي محروث اسالتمام عروت بار الكتاب اللمائع عيروت بار الكتاب اللمائع عيروت بار الكتاب اللمائع عيروت وارالكتاب اللمائع عيروت والكتاب اللمائع عيروت والكتاب اللمائع عروت والكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب الكتاب اللمائع والكتاب اللمائع والكتاب الكتاب الك كتاب اللبغاني عروت دار الكتاب اللماني عبروت دار الكتاب الاعاني عبروت دار الكتاب اللماني عبروت دار الكتاب اللماني عبروت والكتاب اللماني واللماني والكتاب الكتاب اللماني والكتاب اللماني والكتاب اللماني والكتاب الكتاب الكتاب اللماني والكتاب الماني والكتاب الكتاب اللماني والكتاب والكتاب اللماني والكتاب اللماني والكتاب الماني والكتاب الماني والكتاب الماني والكتاب الماني والكتاب والكتاب الماني والكتاب والكتاب الماني والكتاب و ار الكتاب اللمائي. ميروت دار الكتاب اللبائي. ميروت دار الكتاب اللبائي . - رار الكتاب اللينامج ـ مروث بار الكتاب اللينامج ـ مروث بار الكتاب اللينامج ـ م - ١٠ از الكتاب اللينامج ـ مروث بار الكتاب اللينامج ـ مروث "كتاب اللخاني ميروت بارالكتاب اللجاني. بيروث بار الكتاب اللجاني. بيروث بارالك روت دار الكتاب اللثاني ـ تبروت دار الكتاب اللثاني . تبروت دار الكتاب اللباني ـ تبروث دار الكتاب محتاب اللسابي . سروت بار الكتاب اللبياني . سروت بيار الكتاب اللبياني . سروت بيار ا 60, بروتُ دارُ الكتابِ اللبانيُ . تبروتُ دار الكتاب اللباني . تبروتُ دار الكتاب اللباني . تبروتُ با كتاب اللساني ـ نبروت بار الكتاب اللباني ـ نبروت بار الكتاب اللبناني ـ نبروت اني ميروب بازالكنات الليناني ميروت بازالكنات اللياني بيروث بازالكنات الليناني ، نج الكنابالليناني . بيروت بال الكناب الليناني . بيروت بال الكتاب الليناني . بيرون اللساني . بيروث دار الكتاب اللبناني . بيروث دار الكتاب اللباني . تيروث دار الكتاب اللبناني ارالكتاب اللسائم صروت دارالكتاب اللسائم عمروث ندار الكتاب اللب ستهان مرزود با. ۱۲ با ع در من دار الکتاب اللمانی صروت دار الکتاب اللمانی صروت دار الکتاب اللہ لکتاب اللمانی صروت دار الکتاب اللمانی صروت دار الکتاب اللمانی صروت دار الکتاب دار الكتاب اللحاني ـ شيروت عار الكتاب اللحاني ـ تييروت على الكتاب اللحاتي وت دار الکتاب الليانی تحبروت باز الکتاب الليانی تجروت باز الکتاب اللہ إر الكتاب اللحاء يُحروبُ جار الكتاب اللحاني حروبُ جار الكتاب اللحاني حروبُ جار الد بروت دار الكتاب اللجاني ـ برروث دار الكتاب اللجاني ـ بيروت دار الكتاب رار الكتاب اللثاني ُ يُبروتُ دار الكتاب اللباني ، بيروث بار الكتاب اللباني ميروث بار علم ميروت دارالكتاب الليناني ببروت مار الكتاب اللبناني ميروت دارالك دار الكتاب اللياسي . بيروت بدار الكتاب اللياني . بيروت بدار الكتاب اللياني . بيروت ب اللحاني . بيروت بار الكتاب اللحاني . بيروث برار الكتاب اللبتاني . بيروث ب ا 2. بيروتُ دار الكتاب اللسانيُ . بيروتُ دار الكتاب اللسانع . بيروت ما را الكتاب اللساني . بيروم الكتاب اللباني ميروث بار الكتاب اللباني تبروث بار الكتاب اللباني عيروت عانم ُ تَبْرُوبُ دَارُ الْكِتَابُ اللَّمَانِي أَنْبِرُونُ دَارُ الْكِتَابُ اللَّمَانِي بَيْرُونُ قَارُ الْكِتَابُ اللَّمَانِي أَنْبُرُو، روب دار الکتاب اللينامي ، بيروت دار الکتاب اللينامي - بيروت دار الکتاب اللبنامي - ميرم . اللحايي أبي وت أدار الكتاب اللحايم أحير وت بدار الكتاب اللحايج ، بيروت بدار الكتاب اللحايي . مح . ميروث دار الكتاب اللماني . ميروث دار الكتاب اللماني . ميروث دار الكتاب اللماني عَابِ اللَّهِ الدُّرُوتُ دار الكتاب اللَّماني - تبروتُ دار الكتاب اللَّماني - تبروتُ دار الكتاب اللَّماني ار الكناب اللياني عبروت مار الكناب الليابي عبروت مار الكناب اللياني عبروت مار الكناب اللينا الكتاب الليباني يُم وت ماء الكتاب الليباني عمروت مار الكتاب الليباني عبروت مار الكتاب الليباني عبروب دار الكتاب اللحلم أحيروث مار الكتاب اللحائم عبروت مار الكتاب اللحائم عبروت عار الكتاب اللحائم أحيروت أحيروت اللحائم أحيروت أحي بار الكتاب اللماني مجروت ببار الكتاب اللماني مجروت مار المحروت مجروت مار الكتاب اللماني مجروت مار الكتاب المحروت الكتاب اللماني مجروت مار الكتاب الكتاب اللماني مجروت مار الكتاب اللماني مجروت المحروت المحروت الكتاب اللماني مجروت المحروت الكتاب الكتاب المحروت الكتاب الكتاب المحروت المحروت الكتاب الكتاب المحروت الكتاب الكتاب المحروت الكتاب المحروت المح يروب دار الكتاب الليابي . مروث دار الكتاب اللياني . ميروث دار الكتاب الليابي . ميروث دار الكتاب ع حروت بار الكتاب اللحابي محروث مار الكتاب اللحابي حروت باز الكتاب اللحابي حجروت باز الكتاب اللحابي حجروت باز الكتاب اللحابي عجروت باز الكتاب اللحابي محروت باز الكتاب اللحاب الإسلام على المحروت باز الكتاب اللحاب المحروت باز الكتاب اللحاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب اللحاب الإسلام باز الكتاب اللحاب الكتاب اللحاب الإسلام باز الكتاب اللحاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الكتاب الإسلام باز الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الإسلام باز الإسلام باز الإسلام باز الكتاب الكتاب الإسلام باز الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الكتاب الإسلام باز الإسلام على تبروت دار الكتاب اللملي تعيروت دار الكتاب اللماند تعروت دار الكتاب اللماند تعروت دار الكتاب اللماند تعروت أدار الكتاب اللباني تعروت دار الكتاب اللماند تعروت والراكتاب اللماند تعروت والرابكتاب اللماني تعرروت . اللماني . تتروت دار الكتاب اللماني . تيروت دار الكتاب اللماني - تيروت دار الكتاب اللماني - تيروت دار الكتاب اللناني - تيروت دار الكتاب اللماني - تيروت دار الكتاب الماني - تيروت دار الكتاب الماني - تيروت دار الكتاب - تيرو غام اللخاني تبروت بارالگنام النخام تبروت بارالكتاب النحاب بيروت بارالكتاب اللحاني تبروت مارالكتاب اللحاني تبروت بارالكتاب اللحاني تبروت و الكتاب اللحاني رالكتاب اللحاني ميروث دارالكتاب اللحام ميروت دارالكتاب اللحامي ميروث بارالكتاب اللحاني بيروث بارالكتاب اللحاني ميروث دارالكتاب اللحاني ميروث بارالكتاب اللحاني مار الكتاب الشاني. مح وث مار الكتاب الشاعب مبروث مار الكتاب اللباحج مبروث مار الكتاب الساعب مبروث مار الكتاب الشاني مبروث مار الكتاب الساعب مبروث مار الكتاب الساعب مبروث مار الكتاب الساعب مبروث مار الكتاب التابع مبروث مار الكتاب الساعب مبروث مار الكتاب التابع مبروث مار الكتاب التابع مبروث مبر بار الكتاب اللماني ميروث مار الكتاب اللبتاني ميروث مار الكتاب اللماني ميروث مي تق بيروت دار الكتاب اللياني بيروث دار الكتاب اللياني بيروث دار الكتاب اللياني بيروث دار الكتاب اللياني بيروث والكتاب اللياني بيروث والكتاب اللياني بيروث والكتاب اللياني بيروث والكتاب اللياني والكتاب والكتاب والكتاب اللياني والكتاب والكتاب والكتاب والكتاب اللياني والكتاب للغاني. مبروت مار الكتاب البغاني. مبروت مار الكتاب اللغانج. مبروت مار الكتاب اللغانج. مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مار الكتاب اللغاني مبروت مبر ا اللماني تيروت دارالكتاب اللماني تيروت دارالكتاب اللماني تيروت مارالكتاب اللماني تيروث دارالكتاب اللماني تيروث والكتاب اللماني تيروث والكتاب اللماني وتروث والكتاب اللماني وتروث والالكتاب اللماني وتروث وت كتاب اللخاني مروث مار الكتاب اللخاني مبروث مار الكتاب اللحامي ار الكتاب اللجاني تبروت مار الكتاب اللجائب مروت مار الكتاب اللجائب المجاهر على أن الكتاب اللجائب البحاني تبروت مار الكتاب اللجائب مروت مار الكتاب اللجائب الكتاب اللجائب الكتاب اللجائب المسائب المسائ بار الكتاب النابي شروت بار الكتاب النابي عيروت بار الكتاب النظي ميروت بار الكتاب النابي النا وب دار الکتاب اللبنایی میروث دار الکتاب اللبایی میروث دار الکتاب اللبای مار الكتاب اللبناني ميروث مار الكتاب اللماني ميروث من الماني ميروث مار الكتاب اللماني ميروث من اللماني ميروث من الكتاب اللماني ميروث من الكتاب اللماني ميروث من اللماني ميروث من الكتاب اللماني ميروث من الماني ميروث من الكتاب اللماني ميروث من الكتاب اللماني ميروث من المناب الكتاب اللماني ميروث من المناب الكتاب اللماني ميروث من المناب اللماني ميروث من المناب الماني ميروث من المناب الكتاب المناب در مصورت دار الكتاب اللبائي ميروت دار الكتاب الشخي عروت دار الكتاب اللبائي ميروت دار الكتاب اللبائي دار الكتاب اللبائي داروت دارا الكتاب اللبائي داروت دارا الكتاب اللبائي داروت دارا الكتاب اللبائي داروت دارا الكتاب البائي داروت دارا الكتاب البائي دارا الكتاب اللبائي داروت دارا الكتاب اللبائي داروت دارا الكتاب البائي داروت دارا الكتاب داروت دارا الكتاب البائي داروت دارا الكتاب البائي داروت دارا الكتاب داروت داروت دارا الكتاب داروت دارات دارات دارات دارات دارات دارات دارات دارات دارات داروت دارات دارات دارات داروت دارات دارات دارات داروت دارات دارات داروت دارات دارات داروت دارات دارا اب الساند . بيروت دار الكتاب الساني عبروت دار الكتاب الساني . ميروب دار الكتاب الساني كناب اللبناني ميروت بار الكتاب اللبناني ميروث بأر الكتاب اللباني ميروث بار الكتاب اللباني ميروث بار الكتاب اللبناني ار الكتاب اللماني . بيروت دار الكتاب اللماني . بار الکتاب اللخانی تیروث دار الکتاب اللحانی تیروث بار الکتاب اللحامی تیروث بار الکتاب اللحانی تیروث بار الکتاب الادانی بار الکتاب الادانی تیروث بار الادانی تیروث بارد الادانی بارد الادانی تیروث بارد الادانی بارد الادانی بارد الادانی بارد الادانی بارد الاد دار الكتاب اللخاني تبروث دار الكتاب اللحاني تبروث دار الكتاب اللحاني تبروث بدار الكتاب اللحاني تبروث بار الكتاب اللحاني تبروث بدار الكتاب اللحاني بدارات الكتاب اللحاني بدار الكتاب الكتاب اللحاني بدارات الكتاب الحاني بدارات الكتاب اللحاني بدارات الكتاب الحاني بدارات الكتاب الكتاب الحاني بدارات الكتاب الكتاب الحاني بدارات الكتاب الكتاب الكتاب الحاني بدارات الكتاب الحاني الكتاب الكتاب الحاني الكتاب الحاني الكتاب الكتاب الحاني الكتاب الحاني الكتاب الكتاب الكتاب الحاني الكتاب الكتاب الكتاب الكتاب الحاني الكتاب ــار الكتاب اللبنائي. معروت مار الكتاب اللبنائي. معروت مار الكتاب اللبائي. معروت مار الكتاب اللبائي . معروت معر اللماند تبروت بازالكتاب اللماني فتاب اللخانف مبروث دار الكتاب اللحائف ببروث دار الكتاب اللجائي مبروث دار الكتاب اللخانف مبروث دار الكتاب اللحائف مبروث والكتاب اللحائف مبروث والكتاب اللحائف والكتاب الكتاب اللحائم ببروت مارالكتاب اللخاني ببروت مارالكتاب اللحائي ببروت مارالكتاب اللخاني مبروت مارالكتاب اللحائي مبروت مارالكتاب اللحائم ببروت والاكتاب اللحائم والكتاب الكتاب الكتاب اللحائم والكتاب اللحائم والكتاب اللحائم والكتاب والكتاب الكتاب الكتاب اللحائم والكتاب والكتاب الكتاب والكتاب والكت مار الكتاب اللباني بيروت من الكتاب اللباني بيروت من الكتاب اللباني بيروت من الكتاب اللباني بيروت من اللباني بيروت من اللباني بيروت بيروت من الكتاب اللباني بيروت من اللباني بيروت بيروت من اللباني بيروت ب دار الکتاب اللبنانی صروت دار الکتاب اللبنانی صروت دار الکتاب اللبنانی صروت دار الکتاب اللبنانی سروت دار الکتاب اللبنانی صروت داران در دار الکتاب داران صريحيد والكتاب اللباني ميروت دار الكتاب الباني ميروت دار الكتاب اللباني ديروت دار الكتاب الكتاب اللباني ديروت دار الكتاب ديروت ديروت دار الكتاب ديروت داروت ديروت داروت ديروت ديروت داروت داروت ديروت داروت ديروت داروت ديروت ديروت ديروت داروت ديروت ماند ، بيروت مارالكتاب اللغاند ، بيروت مارالكتاب اللماند ، بيروت مارالكتاب الماند ، بيروت ، بيروت مارالكتاب الماند ، بيروت ، بيروت مارالكتاب الماند ، بيروت ، بيروت مارالكتاب اللماند ، بيروت ، بيرو فتاب اللبنائي تمرروت دار الكتاب اللبناني تمروت دار الكتاب اللبنائي تمروت دار الكتاب اللبائي تمروت دار الكتاب اللبنائي تمروت دار الكتاب اللبنائي الكناب اللينانج عبروت مارالكتاب اللياني عبروت مارالكتاب اللياني عبروت دارالكتاب اللياني عبروت دارالكتاب اللياني عبروت دارالكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني عبروت والكتاب اللياني والكتاب الكتاب اللياني والكتاب اللياني والكتاب الكتاب اللياني والكتاب الكتاب الكتاب الكتاب اللياني والكتاب الكتاب اللياني والكتاب الكتاب اللياني والكتاب اللياني والكتاب الكتاب ال بار الكتاب النخاني محروث برار الكتاب اللخابي عمروت برار الكتاب اللجابي عبروت بار الكتاب اللجابي مروث بار الكتاب اللجاني محروث بار الكتاب اللجاني الكتاب اللجاني محروث بار الكتاب اللجاني اللجاني الكتاب اللجاني الكتاب اللجاني اللجاني اللجاني اللجاني الكتاب اللجاني الكتاب الكتاب اللجاني الكتاب الكتاب اللجاني الكتاب الكتاب اللجاني الكتاب الكتاب اللجاني الكتاب الكت

ولمجلروك ين هير تزايير كوستي ين المرادي المرا المجب مُوعة الكاميلة لمؤلفات الأسيتًاذِ عَبّاسُحُهُود يحَـ توِيعَلى

دارالكتاباللبنانى دارالكتاباللصرك دارالكتاباللامرة بيروت القاهرة

رقم الإيداع ١٩٩٠ / ٤٥٦٢ I.S.B.N. 977 - 238 - 101 - X

دارالكتاب اللبنانى

ستارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول ت : ۸۲۰۷۹۲ م الكيلي : ۸۲۰۷۹۳ ما ۱۱/۸۳۳ م ص . ب ۱/۸۳۳ أو ۱۳۵۳۵ - بيروت ـ لبنان برنيا و الطبان خ الم 2018 ما 2018 ما 2018 محتال المحتال ال جـــميع حقــون العلبنيع والنشر محفوظة للناشرين

دارالكتاباللصرك

۳۳ سشارع فعسرالمنيل - القاهرة ج.م.ع ۲۳ ستارع فعسرالمنيل - القاهرة ج.م.ع ۲۰۱۲-۱۳۹۲ فکسميلي ۱۵۱۰ برقيا کنامصر حس.ب ۱۵۱ - الومزالبرديي ۱۵۵۱ - ۱۵۵۱ برقيا کنامصر TELEK No. 2001 - 22101 ATT: MR HASSAM EL - ZEM FAX: (2003) 1824487

الطبعة الشاينية الاالم

Second Edition
1991 A.D — H 1411

عَنِاسُجُهُ وَ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالِ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالِ الْمُحْتَالِ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالِ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالِ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتِلْ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتَالُ الْمُحْتِلُ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِي الْمُحْتَلِقِي الْمُحْتَلِ الْمُحْتَلِلْ الْمُحْتَلِلُ الْمُحْتَلِي الْمُحْتَلِي الْمُحْتَلِي الْمُحْتَلِي الْمُحْتَلِي الْمُحْتَلِي الْمُحْتِل

سَعِهُ د زغالوك

عهيد

الصديق والمؤرخ في الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو يتقاربان ، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره الحقيقة أن يكتب المؤرخ ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم ، لأن الترجمة فهم حياة ، وفهم الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور ، ولأن يكون الكاتب مؤرخا وصديقا خير للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخاً وكنى ! ولاسيما حين تستوي الحقيقة والمجاملة في ميزان الإعمال والصفات .

و آنا في هذه السيرة — أوهذه السيرة والتحية — قد أنطقت المؤرخ ولم أحاول قط أن أسكت الصديق ، لأن الصديق هنا جدير بأن يتكلم ، فما أثبت حرفاً في هذه السطور إلا الذي أعلم أنه صحيح لاشبهة عليه ، وما تميل في الصداقة إلى الاعجاب بل الاعجاب هو الذي مال بي إلى الصداقة في الحياة وبعد المهات . وحسبك من إنصاف أنك لاتقول إلا ما يقره العدو في الجملة وإن ناقشه في التفصيل بدليل قاطع أو برأي جميل .

وكل مافي هذا الكتاب من وصف أوترجمة أو تاريخ فالمقصود به بادي. الأمر هو جلاء الحقيقة عن حياة سعد زغلول أو «نفس» سعد زغلول ، فأكبر الحوادث مالم تكن لها يد في جلاء الحقيقة عن تلك النفس لا يحل لها في هذا الكتاب ، وأصغر الحوادث التي تزيدنا علمًا بها ونفاذاً إلى سريرتها لها المحل الأول فيه ، وما ذكرناه فيه عن مصر أو عن الجيل أو عن هذا الرجل أو تلك الطائفة فا بما نذكره بمقدار ما نتأدى منه إلى تلك الغاية ، ولشرح الحوادث بعد ذاك معرض غير هذا المعرض وسياق غير هذا السياق ولشرح الحوادث بعد ذاك معرض غير هذا المعرض وسياق غير هذا السياق و

ولقد تدعو الضرورات إلى التغاضي عن بعض الأمور والاجتزاء بمثل واحد يغني عن عدة أمثال · فان حدث هذا في قليل من مواضع الكتاب فاليقين الذي لا ريب فيه أنه لن يحجب سراً من تلك السريرة الواضحة ولن يطوي جانبًا من ذلك السجل الممدود ، ولن يزيدنا ذكره وتفصيله علماً بما أردناه بهذا الكتاب ، وهو استجلا الحقيقة عن نفس سعد زغلول ، وغاية ما هنالك أنه يضع الظلال حيث ينبغي أن يوضع الظل ولا يوضع النور ، وقد يكون ذلك أقرب إلى المثال وأعون على الجال .

وخير ما أرجوه لهذا الكتاب أن يكون تفصيلاً وافياً لتلك التحية المجملة التي نطق بها المصريون كثيراً ولا يزالون ينطقون بهما في كل عام وكل مقام ، وهي تحيتهم إذ يهتفون « لتحي ذكرى سعد زغلول »

عباس محمود العقاد

الطبيعة المصرية في أوهام الناس

طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة ، جنسية ونفسية ، واجتماعية وسياسية ، يقوم كثير منها على الاشاعة والغرض، وقليل منها على التحقيق والانصاف.

وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها ، فان هذه الطبيعة واضحة سهلة ، ليس في الامم العربقة كافة — فيها نعتقد — أمة أوضح منها وأسلس ولكنها قد احتجبت طويلاً لما أحاط بها من أقاويل الامم المنافسة لها أو الموتورة منها ، وقدطال عهدمصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين ، وطال اعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتى وقر في الاذهان وأصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لاتبدو على تلك الاقاويل المفتراة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لاتبدو على تلك الاقاويل المفتراة

ونحن نرجع إلى الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الآمم الناقة أو الآمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع أو ينني عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الآذهان من ناحية الاقناع ، ولا نعجب لشيء عجبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلى الآذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالأخلاد ،حتى إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الاخلاد التي استقبلت الأوهام بالأذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلى التصعب والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب . . . أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له و تثور عليه و الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له و تثور عليه و

ورأس الآكاذيب على الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبالي غارة الاجنبي عليها . فمن من أعداء المصريين يشك في هذه الآكذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الحلة بينهم وبين أبناء الأمم الآخرى ؟

على أنها كما قلنا رأس الأكاذيب وأيسرها تفنيداً عنـــد النظر القريب ، فضلاً عن النظر البعيد .

فليس شأن المصريين في هذه الخلة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة ، إذ هي كلما مزيج من غالب ومغلوب وأصلا. وغرباء ، لا تدري من أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضى عليهم جيلان أو بضعة أجيال .

ولقد كانت هـــذه الامم جميعاً لاتبالي من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد ، لانها كانت منهوبة مظلومة على كلتا الحالتين . وكانت تطبق الحاكم حتى يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتماليء أعداءه سواء كان من الاجانب أو من المواطنين العريقين فيها ، ولم تنشأ الفكرة الوطنية بمعناها الحديث إلا حين نشأت فكرة الحكم بالحق والحكم لمصلحة الحكومين وبطلت فكرة الحكم للغالب القاهر بقوة المال والسلاح ، فقد أبطأت « الانسانية » طويلاً قبل أن تخترع الديمقراطية أوالفكرة الوطنية البطاء الذي وقد أصيبت جميع الامم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الابطاء الذي لاذب فيه على أحد ، فلو أننا استعرضنا تواريخ انجلترا أو فرنسا أو المانيا وايطاليا أو تواريخ الفرس والهند والصين ومابين أولئك من شعوب المشرق والمغرب التي استقرت فيها الدول وقامت فيها العروش لما استطعنا أن نعثر والمغرب التي استقرت فيها الدول وقامت فيها العروش لما استطعنا أن نعثر أولئرب التي استقرت فيها الدول وقامت فيها العروش لما استطعنا أن نعثر أسرة من الواغلين الطارئين عليه في عنف المقتحم تارة وفي رفق المتودد تارة أضرى . وربما كانت مزية الامة المصرية على أمم كثيرة في هذه الحلة أن

الحاكم الأجنبي كان ينتحل دينها ويتخذ عاداتها ومراسمها ويحفظ ماله في أرضها ولا ينقله إلى عاصمة بعيدة منها . فان جرى على هذه السنة في سياستها طالت أيامه فيها وتمهدت حكومته بين أكنافها ، وان خالف هذه السنة لم يأمن انتقاضها ولم يزل على خطر منها ، وحذر من جموحها وانقلابها .

وانما شاع اتهام المصريين بالخضوع للسطوة الأجنبية ولم يشع ذلك كثيراً عن الامم الاخرى لأن المصريين أمة لها تاريخ قديم متصل بالعالم في شرقه وغربه وقديمه وحديثه ، فالأخبار عنها متصلة وذاكرة الشعوب بأخبارها مشغولة ، ولأن العالم القديم والعالم الحديث كليهما قد تلقياً تاريخ هذه الامة من أفواه الاعداء والمغرضين ، ولم تحفل هذه الامة بتصحيح ما يقال عنها لأن تصحيح التواريخ القومية بدعة جديدة ، لم يُعرف لهاخطرها ومبلغ الحاجة اليها قبل عصرنا الاخير .

فاليونان في العالم القديم كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم واعتبارهم الاغريق جميعًا في الحضيض الأدنى من مراتب الشعوب ، وكانوا يشعرون بنفور المصريين منهم لأنهم أعانوا الفراعنة الغاصبين عليهم ، ودخلوا زرافات زرافات في الجيوش المرتزقة التي كان أولئك الفراعنة يستعينون بها على حراسة عروشهم واخضاع رعاياهم ، وكان اليونان يزعمون بطبيعة الحال أن الفراعنة يتخذون الجيوش المرتزقة من الأجانب ومن اليونان خاصة لأن أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضائك الجندية الما الحقيقة فهي أن الفراعنة الغاصبين علموا بغض الرعية لهم وتربصها بهم وتحفزها للثورة عليهم فخافوا أن يسلموا زمام القوة العسكرية إلى تلك الرعية ، واصطنعوا الجندالا جانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبوادر الفتنة ، وبلغ الخوف واصطنعوا الجندالا جانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبوادر الفتنة ، وبلغ الخوف بهم أشده في عصر الغزوة الفارسية فأ كثروا من جند اليونان وأقلوا من التعويل على جند البلاد ، وقد عرضنا لهذا المبحث في رسالتنا عن « رواية قمبين التثيلية » فقلنا ان اليونان مغرضون إذ يتكلمون عن الجنود الوطنيين . « وقد

كان ضلعهم ظاهرامع الملوك الفراعنة المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنية فيكثرون من استخدام الجنود اليونانية ، وكان أولئك الفراعنة يحابون اليونان ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير هياكلهم في بلادهم واقامة الهياكل لهم في جوار المعابد المصرية ، وكان أبناء البلاد يمقتون فراعنتهم مرجرا. هذا ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر ، وينعتون هؤلاء بأقبح النعوت ويحرمون الأكل من أيديهم والتنزل إلى معاشرتهم ، ويقدحون فيشجاعتهم وأمانتهم بكل لسان على أن استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية ، لانهم كانوا "يستخدمون في جيش فارس وساموس في هذه الفترة بعينها ، فليس من الانصاف أن يتخذ وجودهم في الجيش المصرى برهانًا على نقص في كفاءة المصريين للجندية والقتال . وكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين فيذلك العهد إنماكان حديث موتور ودفاع دخيل ممقوت ، وماكان هذا ليخني على أحد له بصيرة وفطنة وله إلمام بمواقع الاغراض والدعايات ، فما كان يجمل بمؤرخ باحث - ولا بمصري على الخصوص - أن يتخذ شهادة الكتاب اليونان دليلاً على جبن آبائه الغابرين . ولو صفر التاريخ من الادلة النافية لهذه الفرية لكان للمصري شبه عذر في الاصغاء اليها والاهتمام بشأنها ، أما والتاريخ حافل بالدلائل النافية لها فلن ينساق مع أكاذيب اليونان. الأقدمين إلا رجل تعوزه الغيرة أو يجنح به الغرض إلى تصديق تلك الأكاذيب و إلى القراء بعض الدلائل التي حفل بها التاريخ حتى في رواية أولئك المؤرخين المغرضين.

« فنها ان الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة في كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة الى فرد راية . فلما خطر لـ « وهاب رع» أن يشد ازر «ذكران» الزعيم اللوبي في حربه للمستعمرة الاغريقية ببرقة ـ رأى من الحكمة أن لا يرسل في هذه الغزوة جنود المرتزقة مخافة أن يتمردوا ولا تطيب نفوسهم

لنصرة ذكران وهزيمة إخوانهم الاغريق ، وعلم ان الفرقة المصرية تبغض الاغريق وتصدق في قتالهم فأرسلها إلى الحدود . ولكن حسابه ما لبث أن التوى عليه فكر"ت الفرقة المصرية راجعة إلى حربه حين أحست اجتماع الكلمة ووحدة القيادة ، فجزع « وهاب رع » واستعان بجميع جنوده الاغريق وخرج بهم لقتال الثائرين فهزمه هؤلاء شر هزيمة ورفعوا قائدهم « أحمس » الى العرش شريكاً لذلك الفرعون ، ولولا ان علو « أحمس » على زملائه قد أثار في نفوسهم حسد الند للند فخاف اجتماع كلمتهم عليه لما عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنيين إلى مشايعة الأجانب والمرتزقين .

« هذا ما حدث في الوقعة الأولى بين المصريين والاغريق ، فلما التقى الفريقان بعد ذلك مرتين كان الغلب الحاسم في المرتين للمصريين.

« وأدل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها ان كورش مؤسس دولة الفرس وفاتح الامصار شوقاً وغرباً قد تهييّب أن يقدم على غزوها فتركها وشأنها كما قال مسيو « جستاف جكفيه » في كتابه تاريخ الحضارة المصرية مع أن كورش كان يعلم اشتراكها في الحلف الذي تألب عليه مع البابليين والليديين والسبرطيين والمصريين ، فحارب بابل وليدية وسوّف في محاربة مصر إلى أن مات.

« ومن الدلائل على كذب الأقاويل على هذه الفترة أن قبيز — مع تهجمه وفتوّته — لم يجسر على غزو مصر الا بعد أن استوثق من خيانة فانيس اليوناني واطلع منه على أسرار الهجوم وفوّض اليه رشوة البدو الصاربين في صحرا سيناء ، ثم لم يكفه هذا حتى الب الاسيويين على المصريين وأعد للم ستة أضعاف قوتهم من الفرسان ، وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد غير قليل ، وأسلحة لا عهد لهم بها في ذلك الزمان ، وأسطولاً لبولكرات الطاغية الساموسي مال الى فارس بعد أن كان في حلف المصريين .

« و لقد مخلبت مصر وملكها الفرس وما انكسرت قلوب أهلها

ولا خنعت رقابهم لنير الفاتح القوي المعتز ببأسه وسلطانه ، فمابر حوايتحينون الفرص ويثبون على غالبيهم مرة بعد مرة حتى قلق « دارا » الأول وحضر إلى مصر وقتل « ارياند » والي الفرس الذي كان يتغطرس على المصريين ويستنفرهم الى الغضب والثورة ، وبالغ في تمليق الشعب والكهان حتى بنى معبداً لأمون واشترك في موكب الحزن على العجل « ها بي » واكتب بما يعدل اثنين أو ثلاثة وعشرين ألف جنيه من نقود هذه الأيام ، مكافأة لمن يعشر بعجل جديد تجتمع فيه الشروط المفروضة في أسفار الكهان .

« وظهر شمم الكهان المصريين على أتمه يوم اقترح « دارا » عليهم أن يقيموا تمثاله إلى جانب تمثال « رعمسو الثاني » في معبد فتاح ، فلم يبال أحدهم أن يجبه بتفضيل رعمسو عليه وان يقول له في غير مواربة ولا دهان : انك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تُبل مثل بلائه ، فتلقّ الجواب كاظاً وقال في حلم واناة : سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش ، وعدل عن اقامة التمثال اذعانا لكبرياء رعاياه المغلوبين.

« شم استرجعت مصر استقلالها وكافحت حوله كفاح المستميت ، ولا محل هنا لتفصيل الوقائع التالية لأنها خارجة عما نحن فيه .

« فالحوادث التي انتقلت إلينا من مؤرخي اليونان أنفسهم تنفي ما تخلل رواياتهم من سوء الشهادة للشجاعة المصرية وسائر الخلائق الكريمة ، ويجب على المؤرخ المصري أن يفطن لهذا ولا يجاري الآحاديث المشاعة التي لن تخلو من الهوى ولن ترتكز إلى سند صحيح .»

وفيها تقدم مثال صالح يقاس عليه في التعريف بتاريخ الامة المصرية على جليته في كثير من أدواره وأطواره .

* * *

وأخطر من هذه الدعاية اليونانية كثيراً دعاية أخرى تحدرت من العالم القديم وشاعت بين الشعوب التي أخذت بقبس من مأثورات بني إسرائيل ، ونعني بهـا نبوءة السخط والنقمة التي فاه بها بعض كهان اليهود وتوارثها الاعقاب عن الاسلاف ،كانها وحي سماوي تنزّل من عند الله.

فقد كان الاسرائيليون الأفدمون يبغضون المصريين لآنهم سخروهم في أرضهم تسخير العبيد ، فهجروا الأرض كارهين إلى صحراء سيناء ثم إلى تخوم فلسطين ، وظلوا يتمنون الهزيمة للدولة المصرية ويتلقون بالقبول والترحيب كل مايبشرهم بزوال بجدها وأفول نجمها ، وزادهم بغضاً على بغض أنهم استنجدوا مصر على البابليين فأبت أن تنجدهم وكرهت أن تخوض أهوال الحرب مع بابل من أجلهم ، فلما هزمتهم بابل وأسرت قبائلهم وهدمت أركان دولتهم الصغيرة في فلسطين راحوا يتمنون لمصر مشل هذا المصير وينذرونها سوء العاقبة إلى أمد مديد ، كما يفعل الكهان حين يقذفون باللعنة على الأعداء الأقوياء ؛ وزعموا أن المعتمد على مصر لا يعتمد على سند باللعنة على الأوي إلى ركن ركين ، لانها صانت دماء أبنائها عن حرب متين ولا يأوي إلى ركن ركين ، لانها صانت دماء أبنائها عن حرب لامصلحة لها فيها ، ولا داعى عندها لاقتحامها .

وما من دولة كبرى في العصر الحديث أو في العصر القديم إلا تعلق بها رجاء أمة ضعيفة في طلب الحرية والانصاف ثم خاب ذلك الرجاء ، فماذا فعلت مصر غير ما فعلته قديماً و تفعله حديثاً كل دولة يراد منها اقتحام الحروب في غير طائل ؟ ؟ وقد تسخط الامم الضعاف على تلك الدول الكبار فيكون سخطها معقولاً مفهوماً ، ولكنها لاتكون على حق فيها تدعيه أو فيها تتمناه ، ومن واجب الناس أن يأخذوا كلماتها ولعناتها مأخذ الريبة والمراجعة لا أن يصغوا إليها إصغاءهم إلى الوحي المنزل والقضاء الدامغ ، فاذا تسهل أناس في قبولها و تصديقها لانها لا تضيرهم ولا تغض من سمعتهم فلنحن المقذوفين بها أولى أن نتفهم أسبابها و نفطن لبواعثها ومراميها ، وقد تيسر لنا الآن أن نفهم أسبابها كما نفهم كل شيء في هذه العصور ، فلا سلطان لتلك اللعنات على عقائدنا في أنفسنا ، ولا على ماضينا أو حاضرنا الذي نحن فيه .

أما قبل اليوم فقدكان أناس من أبناء مصر يحسبون الايمان باستعبادها وإخلادها إلى المذلة فرضاً عليهم، ويحسبون الشك في تلك اللعنات خروجاً على قضاء الله فيهم ، ولهذا قلنا إن دعاية بني إسرائيل في العهد القديم كانت. أخطر من دعاية الاغريق ، وظلت كذلك إلى زمن غير بعيد.

وأخطر من الدعايتين معاً خلط العامة من المسلمين بين اسم الفراعنة واسم قدماء المصريين ، أو ظنهم أن كل « فرعون هو فرعون موسى الموسوم بالكفر والطغيان في سور القرآن . فأصبح اسم قدماء المصريين مرادفاً عندهم لاسم فرعون المنبوذ في كتاب الله ، وأصبحت سلالة هذا الجنس في وهمهم رجساً مذالاً غير مستغرب فيه قدح قادح ولا منتظر فيه دفاع مدافع ، ومن ذا الذي يدافع عن فرعون وآل فرعون ؟ 1

ومن أدباء المصريين أو متأديبهم من قرأوا هجاء المتنبيء فأثر فيهم بعض. الآثر ، وخيل إليهم أن الشعر والتاريخ والواقع والنبوءات قد تضافرت على تصديق ذلك الهجاء من أقدم العهود . وأتى على الآدباء زمان كان البؤس فيه وسماً لمكل شاعر وكانت شكوى الشاعر فيه من ظلم قومه وغفلتهم عن حقه موضوعاً قلما خلا منه ديوان ، فكان الشعراء الذين يحفظون أبيات المتنبي يستريحون إلى ترديدها ويجدور فيها مصداقاً لشكاياتهم ومتنفساً لمضاضة نفوسهم ، وشهادة لهم بالآدب ومحاكاتهم لاعسلامه الآفذاذ المضاضة نفوسهم ، وشهادة لهم بالآدب ومحاكاتهم لاعسلامه الآفذاذ المضاضة نفوسهم ، وشهادة في والناية ، وماكان في وزنها صعوبة عليهم لولا وصرفهم ذلك عن وزن الآبيات بميزان التاريخ والبواعث النفسية ، فبلغوا بها فوق مبلغها من التصديق والعناية ، وماكان في وزنها صعوبة عليهم لولا شهوة الشكوى والبؤس أو « التباؤس » التي أشرنا إليها ، وإلا فهلكان الزمان ؟ شهوة الشكوى والبؤس أو « التباؤس مصر أغرب من سيادة إحدى البغايا وهل وصول الحصي كافور إلى عرش مصر أغرب من سيادة إحدى البغايا على دولة الروم لوكان المتنبي على علم بتاريخ الروم القديم ؟ وهلكانت أمة

الفرس ملعونة على ألسنة الكهان أو مقضيًا عليها بالاستسلام حين تولاها مسلطان خصي بعد زمن المتنبي بعهد طويل ؟ وهل الخصيان والبغايا هم شرالناس أو هل سيرتهم في الحركم أقبح السير التي عرفتها شعوب العالم ؟

فأبيات المتنبي ان هي إلا صبيحة حنق تنفعنا إذا أردنا أن نفهم نفسه ومضامين شعره ، ولكنها لا تنفعنا إذا أردنا أن نفهم بها نفس أمة أو نقابل بها بين جيل وجيل ، ولو أننا أحصينا كل ما ادعاه شاعر أو متشاعر على رجل أو قبيلة أو وطن أو عنصر لخرج بنو الانسان جميعاً وليس فيهم فريق حقيق بكلمة ثنا.

**

ثم جاءت العصور الآخيرة والمصريون لا يسمعون عن أنفسهم إلا التشهير بهم وسوء القالة عليهم وتفسير التاريخ على الوجه الذي يريده لهم أعداؤهم والطامعون فيهم . فالأوربيون نظروا إلى الشرق نظر المستعمر الطامع إلى الغنيمة المطموع فيها ، فوصفوه في ماضيه وحاضره بالصفة التي يجبونها ويتمنون دوامها ، وهم لا يحبونه مستقلا ولا أهلا للاستقلال ، ولا يحبون لانفسهم أن يكونوا ظالمين مغتالين يقتلون روح الحرية ويحكمون بالذل على أناس يستحقون العزة والكرامة ، فليس بما يشبع مطامعهم أو يريح ضهائرهم أن يتصف الشرق بصفات الشعوب التي تشسبه الأوربيين في الفطرة وتساويهم أو تقرب منهم في نعمة الحرية والسيادة ، وإنما يشبع مطامعهم ويريح ضهائرهم معا أن يتخيلوا الشرق مفطوراً على الخضوع مطبوعاً على الاستسلام ، لا يغيرون من أمره شيئاً إذا أخضعوه وسيطروا عليه واستمتعوا بخيراته الضائعة وثمراته المهملة واصقاعه الفسيحة ،

وهكذا دونوا لنسا تاريخنا ولقنوه لنا في المدارس والكتب حتى رأينا منا من يصدقه ولا يتحرج من تلقينه علىهذه الصورة لصغار الابناء ، كا نه يحافظ على أمانة الدرس ويتحرج من التصرف في لوح العلم المحفوظ! ونشأت في ابان ذلك بدعة الآرية والسامية وهي تلك البدعة التي تقضي للا رين بالسبق و الرجحان في كل فضيلة من فضائل الآم أو فضائل الآفراد ، وقد ظهر بطلانها الآن أو ظهر على الأقل ان الحاجز الذي أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا و ثلمة ضعف هناك ، بل هو ينعكس في أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم للآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناساً كثيرين في ابان نشأتها فتحدثوا بها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تجني على الأفكار حتى أوغل فيها بعض الغلاة من دعاتها فاستخرجوا منها دليلاً على رجحان بعض الامم الأوربية على بعض واستثنار جماعة من تلك الامم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الاخرى ، بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الاخرى ، بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الاخرى ، بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الاحمة بعد أن كانوا يتفقون على ترويحها والاغضاء عنها حين كانت معرتها لاصقة بالشرق وحده ، موقوفة عليه دون غيره .

وقد رأينابين الانجليز — ولاسيا الذين عاشوا في مصر والسودان — فئة تقرر المسبة الباطلة للمصريين وبين يديها ما ينقض تلك المسبة نقضاً لو أنها عنيت بالالتفات اليه أو لم تعن بالتعاي عنه ، ومن هؤلاء جاكسون صاحب كتاب « عثمان دقنة » زعيم الدراويش المشهور ، فانك تقرأ الكتاب فلا ترى أحب إلى صاحبه من اتهام المصريين بالجبن والاستشهاد بالنوادر التي يتندر بها الدراويش عن الجنود المصريين المسوقين إلى قتالهم في أوائل الحملة السودانية ، ويعلم جاكسون مع هذا — ويروي في الكتاب نفسه — أن هؤلاء الجنور تأنوا فلولاً من اللصوص والشطار المسجونين المعاقبين بالشغل المؤبد أو الموت العاجل ، قذفت بهم الحكومة المصرية يومئذ الى أحشاء السودان لتستريح منهم أو تستريح من الدراويش . فكا نما كانت تجريدة السودان طريقة مرب طرائق تنفيذ العقوبات في ذلك الحين ، ولو شاء السودان طريقة مرب طرائق تنفيذ العقوبات في ذلك الحين ، ولو شاء

جاكسون لفهم أن اللص الذي يساق لتنفيذ العقوبة مزوداً بعار الجريمة غير الجندي الذي يساق الحرب مزوداً بنخوة الوطنية والحمية العسكرية ، أو لوشاء لقارن بين هؤلاء السجناء والجنود الذين فتحوا السودان بعد ذلك أو اشستركوا قبل ذلك في حروب الروس واليونان والترك والعرب ، ولكن من له بأن يشاء هذه المشسيئة العصية وهي على خلاف ما يموى ونقيض ما يريد ؟

على أن كتابًا انجليز ينصفون الشجاعة المصرية أو الجندية المصرية في بعض مايكتبون ، ومن ذلك ماقر أنا أخيراً لواحد من هؤلاء المنصفين وهو مستر جريفز الذي كان مندوباً خاصاً لصحيفة التيمس في بداية المفاوضات مع الجبهة الوطنية المؤتلفة — فانه يقول بعد استعراض تاريخ الجيش المصري من عهد محمد علي إلى العصر الحاضر : « ولا ريب أن المغامرين الأوربيين والترك احتكروا القيادة ، وأنه كان هناك جنود الهجوم من الترك والألبان في الحروب الأولى التي دارت في سورية ومن المسلمين والسودان في الحروب التي دارت بعد ذاك ، ولكن صفار الضباط — ومعظمهم من المصريين — كانوا هم الجزء الأكبر من الجيش الذي هزم ومعظمهم من المصريين — كانوا هم الجزء الأكبر من الجيش الذي هزم فله البريطانية في سنة ١٨٠٧ وفتح معظم السودان وأحرز النصر المبين فغلب صحراء العرب وأعي مراس الوهايين وكاد يقضي على السلطنة العثمانية لولا الدول الأوربية.»

وخلافاً لما يقال عن ضعف الطبيعة الحربية في المصريين رأينا ضابطاً يابانياً يشهد لهم بأنهم أمة مقاتلين ، ويقول بعد أن قضى شهراً في بور سعيد عقب الحرب العظمى : « ووافق ذلك ابتداء الجد في حركة الاستقلال فسنحت لي فرص شتى للتحدث إلى المصريين والعرب والاصغاء إلى آرائهم

راجع كتاب لا بد لليابان من حرب بريطانيا لمؤلفه الضابط توتا اشيارو

Japan must fight Britain, by Tota Ishimaro

وعقائدهم. وعجبت لما وجدته بينهم من فرط الشغف بالاستقلال وحسن المودة لنا نحن اليابانيين باغتبارنا اخوانًا مشرقيين . والمصريون أمة مقاتلة كالعرب . يبدو عليهم الاقدام والجسارة ، وإذا حسنت القيادة نشأ منهم جيش حسن.»

وهـذا كلام رجل حربي منأمة حربية ، أقل ما فيه أن تجرد المصريين من الطبيعة العسكرية ليس من الظهور بحيث لا يجوز فيه مثل هــــذا الحلاف المعد .

* * *

وابتلي المصريون إلى جانب المنكرين المستعمرين بطبقة من الترك أوالمتتركين ترفعوا عن « الفلاح المصري » وحسبوا أنفسهم جنساً أكرم وأعظم من جنسه العريق في المدنية ، فشاعت هذه النزعة بين المترفين وأصحاب المناصب ، وكان لها أثر ليس بالهين ولا بالمحمود في تربية الأمة وعقيدتها القومية .

ثم بدأت النهضة الوطنية فلم تخل من طائفة متعجلة ساخطة تستحث الجماهير الغافلة ويملكها الحزن أن لا تسرع الجماهير الى مجاوبتها والنهوض معها ، فتتهمها في سليقتها واستعدادها على سبيل الزجر والحض والاهابة ، ويخطي السامعون معنى الزواجر والتهم فيزعمونها حجة على صدق ما يقال في الطبيعة المصرية ، يزكيها أنها تصدر من أفواه « الوطنيين الغيورين » وانها شاهد من أهلها المقربين !

على أن هذا وأشباهه قد حدث في أوائل النهضات في كل أمة شرقية أو غربية قديمة أو حديثة ، وهـذه المانيا — وهي في طليعة الامم الكبرى — قد عابها بعضل أبنائها النابهين في أوائل نهضتها العصرية بما لو صدقه السامع لنفض منها يد اليأس وسجل عليها الجود والتخلف إلى آخر الزمان ، ولكننا نقرأ اليوم زواجر نيتشه وشوبنهور وهيني وجيتي وغيرهم وغيرهم فلا نفهمها

الاكما ينبغي أن تفهم صيحة النصيح الامين في غضبة التذمر ، أو غضبة الرجاء المعتاق وهو على مقربة من الفلاح .

**

تلك هي عناصر الأوهام التي أحاطت بالطبيعة المصرية في أدوارها السابقة واللاحقة :

وهيكا يرى القراء كثيرة ومليئة أن تحدث ما قدأحدثت من أثر عميق، نعود اليها لنتبين من استعراضها كيف تشيع أمثال هذه الاوهام مع بطلانها وسخفها وقلة ثباتها على النقد حين نلحظها قريبًا أو نرجع بها إلى أسبابها المعقولة ، فان الرجوع بتلك الاوهام إلى أسبابها لكاف وحده لابطالها وتفنيدها والعلم بمداها من الصدق والرجاحة ، ولن يتسنى لباحث أن يضع مقده الامة في مكانها أو يضع بطلاً من ابطالها في مكانه قبل أن يجلو عنها غاشية الاوهام التي أحاطت بها وكادت أن تلصق بتاريخها ، ثم ينظر اليها في جو مغزة عن كذب الاجحاف وكذب المحاباة .

الطبيعة المصرية

في حقيقتها

قصدنا من الفصل السابق أن ننني الأباطيل عن تاريخ الأمة المصرية ولم نقصد أن نتأدى منه إلى تقديسها، على النحو الذي ينحوه بعض المتعصبين في الزمن الأخير كلما كتبوا عن أوطانهم في معرض المنافسة والمنافرة ، فليست الأمة المصرية أمة معصومة من العيوب والمآخذ، وليس من دأب الأمم العريقة أن تحتاج إلى هذا الضرب الرخيص من التقديس والتنزيه ، لتحصر المناقب كلها فيها وحدها وترجم الأمم الآخرى كلها بالنقائص والمثالب ، فربما كان هذا الضرب الرخيص من التقديس والتنزيه حاجة يشعر بها دعاة الأمم الحدثة التي يعيبها أن تضع نفسها في موضعها بين أجناس العالم بغير هذا الادعاء الملفق والامتياز المصطنع ، وشأنها في ذلك شأن حديث النعمة أن كان وحيث كان ، يلفق نسبته إلى الأصول العريقة والأحساب الباذخة فيأتي بها كلها على الطراز الأول بين الأعراق والأحساب ، في حين يقنع العريق الصادق العراقة بالنسب الصحيح على ما يشو به من العثار والتقلب ، ومن الفضائح والمضحكات في بعض الأحيان .

كلا اليس من همنا أن نتادى مر. تبرئة الامة المصرية إلى تقديسها والاغراق في تمييزها على غيرها ، وإنما همنا ــ بل كل همنا ــ أن ندفع عنها الغواشي التي تحجب حقيقتها وتضلل الصديق والعدو في قياسها وسبر أغوارها ، ولن تخرجها هذه الحقيقــة عن أن تكون أمة لها محاسنها وعيومها ولها أخلاقها وعاداتها ، ولها خصائصها ولوازمها التي ليست بمحاسن ولا عيوب ، ولكنها أوصاف تنفرد بها لاسباب لم تعرض للامم غيرها . ولملنا لا نلخص الامة المصرية في كلمة هي أوجزوأصدق وأجمع من

وصفها بصفتها الجغرافية التاريخية المتفق عليها ، وهي أنها أمة طويلة التاريخ قدعة عهد بالمدنية في أرض زراعية .

فهذا الوصف الوجيز البين يجمع من أوصافها كل شيء ولا يندّ عنه شيء، وإذا توسعنا في تفصيله واستنباط دخائله كان كفيلاً أن يفسر لنا أخلاقها وعاداتها ويوضح لنا غرائبها ونقائضها ، ويردكل خصلة من خصالها وكل طور من أطوارها إلى النصاب المحكم والوضع الصحيح .

فالأمة المصرية ليست أمة بداوة تتو أب إلى الحرب لأنها باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعتدي أو الجار المخيف ، ولكنها أمة حضارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ اليها لأنها ضرورة لامحيص عنها ونكبة لاتستهين بها إلااتقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة من عاقبتها .

وهي لا تطبيع حكامها كما يطبيع البدوي زعيمه أوكما يطبع العسكر قائده : إلى الحرب يارجال فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال !

وإنما هي أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلاً بعد جيل وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ، ثم هي أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحارض والسها، والعوارض والأجواء ، فاذا دعاها الحاكم إلى حرب لا تعنيها فذلك شأنه وليس بشأنها وتلك خسارته وليست بخسارتها ، أما إذا أصيبت في عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصي قيادها كأشد ما يستعصي قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها ، ولسعد رحمه الله كلمة بايغة في هذا المعنى قالها الأنجليز فلمست من نفوس أذكيائهم جانب الحصافة وجانب الفكاهة في لمحة واحدة ، وجاءت في موقعها وأوانها لأنها قيلت على آثار الحرب العظمى أيام كان تحضير الأرواح

شغلاً شاغلاً لـكل من فقد عزيزاً أو شك في دين ، قال رحمه الله : « إننا لو استحضرنا اليوم روح يوليوس قيصر وسألناه عن الامتين اللتين جشمتاه أكبر العنا. وحرمتا عليه الراحة لقال لنا إنهما هما المصريون والانجليز! »

و تلك كلمة حق منكلماته التي تقرب البعيد وتجمع الأطراف المتفرقات في حروف معدودات.

ولا شك في أن هذا الخلق الذي امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعاً إلى مجاملة الامة في عقائدها والحذر من المساس بموروثاتها ومألوفاتها ؛ فمن لم يفطن من الحاكمين لهــــذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها في سياسة أخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الامر عليه فساداً لاصلاح بعده ، وكثيراً ما انتهت المجاملة بالحاكمين إلى التدين بالدين المصري والتخلق بالاخلاق المصرية ، إذا كانوا من الغرباء .

وقد حارب المصريون في جيوشهم المنظمة ولقوا في حروبهم أعدا. ذوي بأسكالترك والعرب والروس ، فكانوا مثلاً فيالشجاعة والنظام ولم يقل عدوقتال ولا عدو جنس أنهم نكاوا عن مواقف الثبات والاقدام .

ولو أحصيت الثورات في تاريخ مصر القريب لما كانت في عددها دون ثورات الأمم التي اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام، فقد ثار المصريون على الفرنسيين وثاروا على الترك والمتتركين؛ وثاروا على الانجليز في نحو قرن واحد، وكان للعقيدة والموروثات في معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القومية أو الفردية ·

وقدم العهد بالمدنية يتلخص في حب الاسرة واستقرار النظام البيتي على أساس بعيد القرار.

فنحن لانستطيع أن نفهم كيف يكون المصري محافظاً شديداً في المحافظة ثائراً متأهباً للتمرد _ إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحب من أجل ذلك

للمورو ثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على النراث مستعد للثورة أبداً لصيانة مورو ثاته وتقاليده . وقد يبدو غير معقول في ثورته وهياجه لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين ، ويزيدهم استغراباً لها أن لا يجدوا تفسيراً لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الاطلاق ؟ والواقع أن الذي يثور هذه الثورة غالباً هو المحافظ المغرق في المحافظة ، لانه لفرط محافظته ينسى المصلحة في سبيل العادات .

ولطول الكبت أثر في هذا الجنوح إلى التمرد كلما سنحت الفرصة التي تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيها على القيود .

فالمصري يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها إلى أمد بعيد ، لأن كبت العدادات وكبت الخضوع الأعمى أمران لايطاقان إلى زمن طويل ، فاذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذي تعانيه النفس من العدادات الطويلة سبباً من أسباب التمرد والشذوذ ، وتلك نقيضة في النفس الانسانية تظهر أبداً مع كل إفراط وكل استغراق .

* * 6

راقبت هذا الخلق في نفوس العلية والسفلة ، وفي نفوس الشرفاء والمجرمين ، فوجدته على قرار مكين في جميع هؤلاء .

وأردت ـــ وأنا في السجن ـــ أن لايفوتني سبر هذا الخلق في طبائع

اللصوس والفتاك والمخاتلين والانذال ومدمني الحمر والسموم فاذاهم كلهم « بيتيون » في طوية النفس ، يتمردون على القانون والفضائل والعظات ، ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التي تأصلت بين الاعمار والاسنان على حكم الابوة والنبوة والآخا. والقرابة في الادهار بعد الادهار ، فقلما يخطو التمرد خطوة ورا. تلك الحدود .

رأيت مرة طفلاً صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث في الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقران في سنه ينتظرون الترحيل في فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين في سنه ينتظرون الترحيل في فناء السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه في لهجة المسكنة الطبيعية التي يشعر بها الصغير في غيبة أهله ، « جوعان » افتمهل اللص العائد وقال له : وماذا أصنع لك يابني ؟ وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك في الطفل المستغيث ، ولكنه مالبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من المخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نضفه واستبق لنفسه النصف الآخر ، ولو ضبطوه وهو يسرق الحبر لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد .

ورأيت رجلاً شيخاً نازلاً من درج المستشنى وهو لايقوى على الحركة ولا يجد الممرض الموكل به من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشرة لايدل مرآه على ضلاعة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر في خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم إليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله ، دون أن يكلفه الممرض ذلك أو يخطر له انه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله .

وتلاحى شيخ فان وفتى عارم مشهور بالشر والعربدة في السجن وفي الحي الذي يعيش فيه ، فسبه الشيخ سبّاً لايطيقه من أنداده ولا يأمن من يسبه به أن يستهدف لضربة قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب إلا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ثم هزرأسه وقال لمن حوله: « أنظروا إلى الرجل الشائب يعيب ولا يخجل ، وقال للرجل الشائب: «لوغيرك قالها لقتلته يولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبى ؟ ه

ومن المشاهدات المألوفة في طرقات مصر أن ترى بائعًا فقيرًا يصطحب ولده الصغير ليأنس بصحبته ويخفف أعباء السعي والكدح برؤيته ومناغاته ومن سائتي مركبات النقل من لا يخرج لشغله إلا ومعه وليده يجلسه في مكان القيادة ويتعجل الفرح بنموه وقيامه مقام الرجال في أشغال معاشه ، وأذكر أنني رأيت في بعض المنازل التي سكنتها طفلًا لا يتجاوز الخامسة يقيم عند أبيه الخادم في المنزل بمعزل عن أمه التي تقيم في بلدتها مغضبة من زوجها ، فرثيت لطفل في هـنده السن يفارق أمه ويحرم حنان الأنوثة وهو في أشد الحاجة اليه ، ولكني لم ألبث ان رأيته موضع عناية الخدم والباعة في الشارع كله : يلاطفه كل خادم أو بائع يعبر الطريق ويسألون عنه ليضاحكوه الشارع كله : يلاطفه كل خادم أو بائع يعبر الطريق ويسألون عنه ليضاحكوه ويلا عبوه ، حتى أصبح « مدلل » الشارع والعوبته الحية ، وحتى ألف المقام وطابت له هذه الغربة ، وطفق بعض أصحابه الكبار يضايقونه بذكر البلد والسفر اليه فينفر أيما نفور .

وقد أنكر الغربيون ما أنكروا من مقام المرأة في الحياة الشرقية وقاسوا كلامهم عنها بمقياس الحقوق المدنية أو الحقوق السياسية التي كثرت حولها الجعجعة بينهم على غير طائل، ولكن الذي نعرفه نحن ويعرفه كل مطلع على أحوال البيئة المصرية ان مقام الأمومة فيها مكلوء الجانب مرعي المكانة في البيوت كافة والبيئات قاطبة، وإن الأم المصرية تنجم بين أبنائها وآلها بمنزلة يغبطها عليها الأمهات في بلدان المغرب والمشرق.

فالاسرة عظيمة الشأن في آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ، ولن يتجرد المصري من عواطف الارحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانية أو قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعي في أخلاقه وعلاقاته ، وهو أيضا قوام ه المحافظة المصرية » التي تحب الالفة وتعرض عن البدع والخوارق .

والوصايا باتخاذ الاسرة معروفة في الأدب المصرى منذ آلاف السنين. ففي وصايا « فتاح حوتب » التي كتبت قبل أكثر من ستة وأربعين قرنًا يقول الوزير لتليذه : « إذا كنت رجلًا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل . وأطعمها واكسها وطيب أوصالها ، وأدخل السرور على قلها طول حياتها.»

ولم تُنس الوصية بتوقير الاسرة وصلة الارحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا في العهد القديم ، فني نسخة من وصية «عاني » محفوظة في مخطوطات الاسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : « اتخذ لك زوجة في شبابك لتنجب لك ولداً تربيه وأنت في صباك ، وتعيش حتى تراه في عداد الرجال ، وما أسعد الرجل إلذي له عشيرة كبيرة ا ان الناس يوقرونه من أجل بنيه.»

وفي هذه الوصايا يقول الحكيم 1 « ضاعف لأمك خبزها واحملها كما حلتك ، لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك ، وظل ثديها ثلاث سنوات في فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ، ووقفت لك بالخبز والشراب كل يهم تنتظرك . واذكر إذا تزوجت وانفردت . بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة ، عسى أن لا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك ، ولا يستمع الله منها الى شكابة »

فهذه الرحمة « البيتية » قديمة لم تتغير في الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم إلى ثلات سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وأن الرأفة في تلك الاجيال السحيقة لغريبة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين ،

ومن الأخلاق التي تلازم حب الآسرة ومتانة الوشائج البيتية غيرة الزوجية وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب واتقاء سطوة ، فيروض المصري نفسه على الصنك والرهبة ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت ، وينبغي هنا التفريق بين عرض وعرض والتميز بين غيرة وغيرة . فإن البدوي مثلاً ليأبي أن يبذل عرضه ويثور على من ينتهك حرمه ، ولكنه يأبي ذلك كما يأبي أن يبدل عرضه ويثور على من ينتهك حرمه ، لازوجة وكأنه يغضب في منافرة أو مصاولة ، لأن اعتداء المغير على زوجته على عرضه من نوع آخر ولعلة أخرى : إذ هو يغار على الزوجة اعتزازاً على عرضه من نوع آخر ولعلة أخرى : إذ هو يغار على الزوجة اعتزازاً بصداقة متينة وأرحام أمينة ، وضناً بملاذ ألفة وسكينة ومأوى سعادة وطا يننة ، وهذا بعضب للزوجة وكا نه يغضب لقرابة تقطع أو محراب بهان ، وهذا هو الفرق بين الغيرة التي منشؤها أدب الاسرة والغيرة التي منشؤها أدب

فالمصري اجتماعي من ناحية الاسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أواجتماعي من ناحية انتظام العادات والعلاقات مند أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ماير بطه بالمجتمع أو يربطه بالامة والحياة القومية ، وهو ارتباط أقوى في نفسه جداً من ارتباط النظام السياسي والمراسم الحكومية . فلم تكن الحكومة في تلك الازمان الطويلة لتمتزج بنفسه قطامتزاج الالفة والطواعية والمعاملة المشكورة . بل ربماكان صدوده عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على الاسرة وحصر عواطفه الانسانية في علاقاته البيتية ، لانها ملجاً خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم ، وغاية ما يخامره من أمر الحكومة أنها شيء يدارى ما استطاع له المداراة ، ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس بارضائها بالهدايا والمجاملات في غير وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس بارضائها بالهدايا والمجاملات في غير

حفيظة ولا استكراه ، ولاعجب في هذا الشعور المبهم في زمن كان الناس فيه يعبدون آلهة الشر ويتزلفون اليها بالصلوات والقرابين 1

فعلاقته بالحكومة على الأغلب الاعم هي علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة ، لم تبلغ ان تكون علاقة ود يحرص عليه أوضهان يحميه الا في الندرة التي لا يقاس عليها . ومن ثم كان محافظاً ومتحفزاً للتغيير في وقت واحد ، أو كان محافظاً في مسلكه الذي يدور على أصول الاسرة وعلاقات الرحم ، متمرداً في مسلكه من ناحية الشئون السياسية والمسائل الحكومية ، ومتى جد عليه جديد الاصلاح فلن يفلح عنده ولن يظفر منه بالترحيب والموافقة الا ساعة يمتزج بنظام البيت والاسرة ويتسرب إلى جياته من باب عواطف الارحام ومناظرات المنازل ، والافلا أمل لاصلاح في توفيق .

لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن المصري ضعيف الاهتمام بالسياسة أو أنه مصدوف عن تتبعها واستطلاع أخبارها وماجرياتها ، أو أنه قليل البصر بمداخلها ومخارجها ، فإن الواقع قد كان على خلاف ذلك بل على نقيضه في عصور كثيرة ، والمشهور عن المصريين أنهم من أشد الامم شغفاً بأحاديث الدول وعناية باستطلاع أحوال الحكومات، وقد يسري بينهم شعو و ملهم بدخائل الاغراض الخفية واتجاه الخير واتجاه الشر في الخصومات السياسية ، لما تعاقب عليهم من التجارب وتوالى على أسهاعهم من أحاديث الصاعدين والهابطين والمقبلين والمدبرين ، فإذا قيل إنهم اجتماعيون من قبل الاسرة وليسوا باجتماعيين من قبل الحكومة فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون وليسوا باجتماعيين من قبل الحكومة فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون بالسياسة ولاياً بهون لحديثها ، وإنما معناه أن اشتغالهم بها في العصور القديمة بالسياسة ولاياً بهون لحديثها ، وإنما معناه أن اشتغالهم بها في العصور القديمة بم يكن يتعدى جانب التحري والاستطلاع إلى جانب الخلق والتكوين .

وإذا بدا على المصري أحياناً أنه ينقاد في السياسة فليس معنى ذلك أنه لا يفهم . بل معناه أنه ينقاد لآن الطاعة أشبه بنظام الاسرة من جهة ، ولان أزمنة الركودالطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها ان تبعث روح الابتداء

والاقتحام، فالمقاء في الصفوفأيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق، وهو حتى في ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يريد أن يمتسف الطريق وحده، وكلما غلبت فيه نزعة الابتداء والاقتحام بغلبة الحرية والاستقلال ـــ قلّت فيه عادة الانقياد الاجتماعي أوقل فيه النفور من المخاطرة والانفراد.

ومما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت منذ عهد عهيد حضارتين متجاورتين: إحداهما لاصحاب السيادة والاخرى للمسودين الخاضعين، وقد زعم بعض المؤرخين أن السادة والمسودين كانا جنسين مختلفين وعنصرين مستقلين ، وحديثاً رأينا أن ذوي السيادة بين المصريين كانوا من بلاد شتى وأجناس عديدة ، بعضهم ترك وبعضهم عرب وبعضهم غرباء من صنائع الفريقين ، وبعضهم مصريون من أصحاب النباهة واليسار ، ويجب أن يحسب لذلك حسابه في اختلاف المشارب والاخلاق و تباين الميول والملكات ، إلى أن يتم مع الزمن امتزاج هذه العناصر كما امتزجت عناصر غيرها ، في كل فترة من فترات التاريخ .

والذهن المصري العريق ذهن عملي واقعي سهل المنطق واضحه في نظرته إلى الدنيا وحكمه على الأشياء والناس ، شأنه في ذلك شأن أبناء الأمم الزراعية عامة .

فالآرض والغلة والنيل والفيضان كلها من الوقائع المحسوسة المطردة في قياس العقل بغير َ تَوْتب في خيال ولا جماح من خاطر ، وهي تتصل بعالم الغيب اتصالاً بسيطاً لا يحوج صاحبه إلى التخيل والتغلغل ، وأنما يحوجه إلى التدين والايمان والانتظار في شيء من التسليم . ثم يتوطد الايمان والتسليم مع توطد الكهانة وتوطد الموروثات والعادات ، فيسلس ماجمح و يستقر ما اضطرب ويجري على نمط هادي، من التفكير والنظر المحسوس . ولهذا خلق المصري القديم عالمه السهاوي فحلقه عالماً أرضياً آخر على غرار هذا

العالم الأرضي المشاهد بالعيان ، يأكل فيه الانسان ويشرب ويستعد له بزاد من طعام هذه الدنيا وبمتاع وآنية من متاعها وآنيتها ، ويجتفظ له بجسده من. العطب لانه سيعيش هناك كما عاش هنا ، ويكون بعد الموت كما كان في الجياة.

ولهدو العقيدة المصرية واستوائها وحضارة الامة التي تعتقدها وعذوبة طبعها وإيناس عشرتها قد سلم الدين في مصر من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء ، وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية والضغائن الدينية ، إلا أن يتسلل اليها ذلك من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة ، وقد سلم الدين المصري من لوثة الضحايا البشرية كما سلم من لوثة التعصب والضغينة ، فلم تؤثر عن المصريين في أقدم عهودهم شعائر التضحية بالآدميين ومناسك التعطش إلى الدماء . وكل ما حدث من التضحية الآدمية في عهود التاريخ القديم فانما هو الفتك ببعض الآسرى قبل أن تفرض حماية الاسرى في آداب الحروب ، الفتك ببعض الأسرى قبل أن تفرض حماية الاسرى في آداب الحروب ، ولا يحسب هذا من الشعائر أو المناسك التي يفرضها الدين ويحري عليها عرف المعابد والكهان ،

**

والمصرى عامل في حياته كما هو عملي في النظر إلى الحياة ، يخطى، كنهه من يقرفه بالكسل، ويجهله كل الجهل من يعزو اليه الركود وبغض الحركة ، نعم أنه يألف أرضه ويسكن إلى تربة وطنه ولا يخف إلى هجرتها كما يخف إلى المجرة سكان البلاد التي لاصلة فيها بين المر، وتربة وطنه ومعاهد بلاده الله أن عذره في ذلك هو عذر جميع الأمم التي تعيش من الزراعة وتتصل العلاقة بينها وبين أرضها ونباتها ، فأما أنه يعمل ويصبر على العمل فتلك خصلة مشهودة يراها فيه رأي العين كل من شاهد الفلاح ينهض من الفجر للحرث والسيق والبذر والجني فلا يفرغ من عمله قبل الغروب ، إلا أن تكون غفوة القيلولة في حارة القيظ ، وهو يفعل هذا ويدمنه في مواقيته ولو كان هومالك الرضه وزارعها ، بلا تكليف من سيد أو مستأجر ...

ولقد صبر المصري على العمل والمشقة ، ولقد عودته المواسم الزراعية أن ينتظرهاكل شيء في أوانه ، ويربطكل أمل بأجله ، فهو من ثم صبور طويل البال ، فيه اثارة من « القدرية » وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير ، وله في هـذا المعنى أمثال وحكم يتفق فيها عصر الفراعنة وعصر البخار والكهرباء ، أو يتفق فيها عصر الآناة وعصر السرعة والوثوب .

وشعار المصري في الخصومة: « اصبر على جار السوء يرحل أو تجيء له داهية » فهو صبور مسالم لا يعجل بالشر ولا يتفزز إلى الانتقام ، يبد أنه يصبر لينتقم ويصبر على المكايدة والنكاية كما يصبر ليرى عدوه راحلا عنه أو مصاباً بداهية على يد غيره ، ومن الصبر وكتمان الغيظ ذلك اللدد الذي لا ينسي الخصومة ولا يقنع في الثأر بما دون الإصهاء والايجاع ، وشأن الاسرة في خصوماته كشأنها في جميع عاداته . فان عداوات الاسرة ومنافساتها لهي التي تدفع به إلى القتل وحرق الزرع و تسميم الماشية دون العداوات التي تغلب عليها الصبغة الفردية أو الصبغة العامة ، فيندر أن يقع انتقام فاجع في الريف خاصة إلا لمحت فيه أن « ابن فلان » يثأر من ذلك الفرد ابن فلان » وقلما يحدث أن هـذا الفرد على حدة يثأر من ذلك الفرد على حدة ، بغير نظر إلى القرابات والمنافسات .

وهنا أيضامجال نتبين منه الفرق بين تأصل الاخلاق الاجتماعية من ناحية الاسرة و تأصل الاخلاق الاجتماعية من ناحية النظام السياسي في نفوس المصريين ، فالمصري لا يحجم عن خطر في سبيل الخصومات الآهلية من بذل المال إلى بذل الحياة ، فاذا احتمل من الحكومة ما ليس يحتمله من غيرها فليس انصافاً ولا تمحيصاً أن ينسب ذلك إلى الجبن والفتور ، وأنما الفرق الصحيح أو الفرق الأهم أنه لا يشعر بالنظام السياسي كما يشعر بالاسرة ، ولا يعيبه الخضوع لحضوع لخصم ولا يعيبه الخضوع لخصم

يبته وأقربائه ، وما لم يتساو الأمران عنده لا يحق للمنصف أن ينسب احتماله إلى جبن أو فتور .

* * *

وقد اشتهرت « النكتة المصرية » بين جيران مصر وعرف المصريون « بالتنكيت » في الزمن القديم كما عرفوا به في الزمن الحديث ، حتى قيل إن الرومان حرموا عليهم المحاماة في محاكم الاسكندرية ، لانهم كانوا يغضون من هيبة القضاء الروماني بالمزاح والدعابة ، في أثناء الدفاع وشرح القضايا 1

وليست اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال المستغربة في أمة قديمة الحضارة عريقة الآداب منصرفة في أكثر الاحيان إلى السلم والمعيشة الوادعة ، وأخلق بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعًا فياضاً للنكتة ولباقة التعبير في الجد والهزل على السواء ، فاذا أضيفت اليها عبر الايام ونقائض التاريخ وأطوار الحوادث المتعاقبة فني ذلك مددللفكاهة لا ينضب ، وإغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها الى التبسط والمزاح

لذلك كان المصري مزاحاً بحكم لباقته المستفادة من قدم الحضارة ، ومزاحاً بحكم الحوادث التي تلجئه إلى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه في جميع الاحوال متسم بالصبغة المصرية ، مطبوع بطابع إقليمه و تاريخه ، بحيث ينم على خصائصه الفكرية والنفسية ويميزه نمطاً وحده قليل النظائر بين أنماط الفكاهة والتنكيت .

والنكتة كما يعلم القراء إما نكتة دعابة أو نكتة تهكم ، وفي كلتا الحالتين. تتميز للمصرى دعابة تشبهه ، وتهكم يناسب طبيعته وتاريخ بلاده .

فأما الدعابة فهي تقوم في الغالب على إدراك النقائض وملاحظة المفارقات ويختلف فيها الناس باختلافهم في التفكير والشعور والنظرة إلى الحياة .

فالعمليون الحسيون يدركون النقائض بين الإشكال والصور وتوجهون

التفاتهم إلى المشابهات اللفظية والتجنيسات المعنوية ، التي لا تمعن في التعمق ولا في التفتيش الحنى عن الأسرار

والخياليون المتعمقون على خلاف ذلك ينصر فون عن الأشكال والصور إلى ما وراءها من نقائض الاسرار ودخائل الاحساس والعاطفة الخفية ي فيقلٌ في نكاتهم جناس اللفظ والالتفات إلى المحسوسات ، ويكثر فيه جناس البداءة البعيدة ، والالتفات إلى الإسرار العويصة.

ومن البديه أن النكتة المصرية لن تكون في جملتها إلا نكتة محسوسات لاتتمادى في الخيال ولا تتعلق بالغوامض، لان أصحابها قوم عمليون حسيون يقيسون الأمور بمقياس الوقائع والتجارب العيانية.

أما التهكم فأنت خليق أن تعرف أخلاق الآمة بحذافيرها من عرفانك بأسلوبها في تهكمها وسخريتها.

فانك إذا عرفت ماتسخربه الأمة عرفت ماتجله وتحوطه بالهيبة والكرامة. وتهكم المصريين كله مصبوب على الجلافة والغفلة ، فثال الرجل الكامل عندهم هو اللبق اليقظ الذي يتجنب الخشونة ويفطن للخداع والمراوغة فلا تجوز عليه حيلة ، وأي شيء هو أدنى إلى الطبيعة المصرية وأشبه بالتاريخ المصري من التهكم على هذا الاسلوب!

فالجلافة في القول أو في التصرف هي أول شي. يضحك منه أبناء أمة قديمة الحضارة مصقولة الحاشية تأنقت في الكلام حتى جعلته فتأكثير اللحون والاشارات ، وتأنقت في الكياسة وآداب المعاملة والمعاشرة حتى جعلتها فتاً كثير المراسم والاصول ، لا يتقنه إلا من نشأوا عليه بالتربية والمرانة.

أما الغفلة فالمصري يزدريها ويزدري من يقع فيها، لأن الحوادث والمظالم قد أحوجته إلى الحيلة وحسن التخلص، واضطرته إلى الحيلة وحسن التخلص، واضطرته إلى المرتزقة من الناس على حذر وكياسة توافق مصلحته وتليق بأديه، وجاءه المرتزقة من أيناء الأمم المشتغلة بالتجارة وترويج السلع الغريبة فأحوجوه مرة أخرى إلى

الحيطة واليقظة واجتناب الغفلة ، لانهم كانوا جميعا قنَّاص كسب لا يتورعون عن خطفه واختلاسه بكل وسيلة ميسورة ، ولا يزالون محميين مرعيين وهو بينهم فريسة مباحة الذمار ، لا تأوي إلى حماية ولا تمدل على رعاية .

وقد زار مصر رجل انجليزي هو روبرب كرزون صاحب كتاب «الآديرة والمعابد» في شرق بحر الروم قبل قرن على التقريب، فوصف أخلاق بعض الباعة المخادعين الذين إبتلي بهم المصريون في ذلك الحين، فقال إنهم على الجملة أنذال يتفاخرون بالحتل والاحتيال، وان هناك بيانًا صحيحًا لنصيب كل طائفة مر القدرة على الغش والسرقة يدل عليه هذا التقدير « فلا بد من أربعة أتراك لخداع أفرنجي واحد، ولا بد من أفرنجيين متعاونين لخداع اغريقي واحد، ولا بد من اغريقيين مشتركين لخداع يهودي واحد، ولا بد من ستة يهود معًا لخداع أرمني واحد،»

وهؤلاء كلهم كانوا في العصور الوسطى وما بعدها مسلطين على المصري الاعزل، يزيفون له البضائع الغريبة ويخدعونه عن قيمتها وعن درجتها وعن ثمنها وعن حاجته اليها ، بعد أن قضى العصور وراء العصور محتاجاً إلى الحيلة والكياسة لاتقاء ظلم الظالمين وغصب الغاصبين ودسيسة الدساسين. فليس بعجيب بعد ذلك كله أن يزدري الغفلة وأن يجعلها هدفاً لتهكمه وغرضاً « لقوافيه » وقفشاته .

ولقد يكون ولعه بالكناية ببل إفراطه في حب التورية والجناسات اللفظية بناجمًا من هذه الحاجة إلى الكياسة في التعبير واللباقة في إبلاغ الإشارات والتلميحات إلى المعنيين بها من السامعين.

ولم يظهر حب اليقظة والزراية بالغفلة في النكتة المصرية وحدها ، بل ظهر في جميع الآثار الفنية التي تعبر عن معاملات الشعب ومعايشاته ، فامتلائت القصص والنوادر بكلمة « الملاعيب والمغارز » وازد حمت بأفانين الشطار والعجائز الماكرات في نصب الفخاخ والإشراك كما اذد حمت بأفانين

الآذكيا. والظرفا. في اجتناب ماينصبنه من فحاخهن واشراكهن. فكان مدار القصة والنكتة معاً على الغفلة واليقظة أو على الجلافة واللباقة ، وكان في هذه و تلك مجال واسع للانتقام من الحكام ، الذين يصولون بالسلاح والبأس وهم فيا ورا. ذلك أجلاف مغفلون إ

ويخيل الينا أن النكتة المصرية والنسك المصري أخوان توأمان أو صنوان يتجاوران ، فالنفس المصرية التي أرهفتها الحضارة ودمثتها المؤانسة وصقلتها المعيشة المنتظمة لن تستغني عن ملاذ تسكن اليه كلما اشتد عليها الجور وضاقت بها مفاسد الحياة العامة ، فاذا غلبت على المصري محبة المتعة والنعمة الرخية فملاذه النكتة والفكاهة ، يروّح بها عن نفسه ويفرغ فيها جعبة ضميره . وإذا غلبت عليه الصرامة وقلة الصبر على الفساد جنح إلى النسك والزهادة وعمد إلى الرهبانية أو الدروشة كما فعل مرات كثيرات في عهود الديانتين المسيحية والاسلامية ، أما إذا سنحت فرصة التمرد والانتقاض فالثورة ملاذ لايأباه صاحب المتعة ولا صاحب الصرامة .

وقد رجحنا أن النسك المصري والمزاح المصرى أخوان توأمان، لأنهما يدوران معاً على الاستخفاف بسوء الحال واليأس من صلاح الامور، وإنما يستخف أحدها بحاله فيهجره ويعزف عنه ، ويستخف به الآخر فيأخذه على هينة ويسخر به لكيلا يجهد نفسه بهجره وكفاحه ، فليس المصري بناسك على طراز ذلك النسك اليابس العقيم الذي يجهل الحياة ويقابلها بالنني والانكار، ولكنه ناسك حين يكون النسك حملاً إيجابياً » ويقابلها بالنني والانكار، ولكنه ناسك حين يكون النسك حملاً إيجابياً » يقاوم الشر ويود صاحبه لو يقرر الخير في هذه الحياة ، وليس بالمستطيع ،

وأشبه بهذا أن يضاف إليه ماكتبناه في مقال « معبد ايزيس » عن الطبيعة المصرية حيث قلنا منذ بضع عشرة سنة : «كلمااقتربالموكبالضاحك

من جيرة المعبد بدا لنا منظر عجب: ههنا شعب يطير حول السرور طيران الفراش حول النور ، وههنا معابد تسكن فيها حركات النفس وتركد فيها نسمات الحياة . وهذه المعابد نقيض ذلك الشعب وعلى خلاف سمته وسنته ومن واد غير واديه الذي يهيم فيه ، فكيف مع هذا كانت معابده التي يذكر فيها ربه ويعكس عليها ظل العالم في نظره ؟ ويشكو لديها ما يلقاه من أمور دنياه وحظوظ حياته ؟؟ أليس هذا من التناقض الحقيق بالعجب ؟؟ أليس هذا الشعب المستبشر قد كان أولى بغير هذه المعابد الكاسفة الواجمة ؟؟

أما التناقض فلاشك أنه ملحوظ لكل ناظر ولكن في ظاهر الآمر لا في باطنه . فالحقيقة التي يهتدي اليها المتأمل ان هذه المعابد خلقت لهذا الشعب ، وان هذه الجهامة لازمة لتلك الطلاقة ، وأن الشعب الذي يملك حسه بالسرور ويسهل استخفافه للطرب وانتقاله إلى المجانة ليس يصلح له معبد فيه أثر من الطرب والبهجة ، وليس ينقله من عالم اللهو الى العالم الالحمي منظر عليه مسحة من الطلاوة والبشاشة . فلا بدله إذن من جهامة تخيم حوله على كل شيء حتى يثوب إلى مقام الخشوع والضراعة ، ولا بد أن ينسى كل مايذ كره بالهزل والحفة ساعة يغشى بحراب العبادة ، كالطفل اللعوب لاتعلمه مايذ كره بالهزل والحفة ساعة يغشى بحراب العبادة ، كالطفل اللعوب لاتعلمه أن يهابك ويتحامى التأديب منك باللعب معه والتطلق في كلامك له ، وانما يتعلم ذلك بالاحتجاز والجد أو بالقطوب والجفوة .

من مثـــل هذا جاءت الصرامة البادية على معابد المصريين و تطرقت الشدة إلى شعائرهم الدينية ، وبلغ من حاجتهم أومن رغبتهم فيها يذكر بالحزن ساعة الصفو والرغد انهم كانوا إذا اجتمعوا في ولا تمهم وظهر السرور على وجوههم وأخذا في الرقص والمعاقرة وأمعنوا في القصف والمسامرة خرج عليهم العبيد بجثة محنطة في ناووسها فمروا بها بين الموائد وعرضوها على الضيوف والندماء لينظروا اليها ويعتبروا بها ، ويذكروا مصير ما هم فيه من نعيم زائل ولذة عاجلة .

ولا يفوتنا أن نقول إن المصري إذا سر فانما يملك السرور حسه ولا يغمر نفسه ، فهو لا يألف السرور الصامت القرير ولا يعرف إلا التهليل والابتهاج أو السكون والحنواء . لا تسر نفسه وجسمه ساكن ولا يسكن جسمه وأمامه محرك للسرور أو مذكر به ، وكيف يطيق من كان هذا طبعه أن يجمع بين التعبد وشيء من بوادر الصفو وبشائر الحياة في أماكن عبادته ومناسك دينه ؟ ثم إنك أن أردت أن ترد المصري إلى طبعه وترى حقيقة المناسبة بينه وبين معابده فانظر اليه حين يفرغ من سروره الذي يستحوذ على حواسه ويستخف أعضاء جسمه ، فانك تراه واجماً مقفر النفس بادي الظلمة هامد العاطفة ، و يذكرك أول شي ، بالمعبد المصري القديم الذي نستغربه ونعجب أن يكون محل صلاته وباب دنياه الآخرة . فاذا هو هو فيا يغيم على ظاهره من الكاتبة والخوف ، ويرين على باطنه من الظلام والتسلم .

ولنعلم أن المعبد المصرى في العصور الأولى هو قرين المقبرة وصنو الموت ودهليز العالم الأخير ، ثم لنعلم بعد ان الموت عند قدماء المصريين هو هجعة الحس إلى حين وراحة الجسم إلى أجل ، ثم تعود الروح إلى هذا الجسد الأولكما كانت قبل بعثها من عالم الأموات .

ومرادنا بذلك أن نقول: إن الجسد جزء من الانسان لم يكن يستغني عنه في هذه الحياة ولا فيها بعدها ولا يجوزأن يهمل في حالة من الحالات أبداً. فما كانت متعرف للنفس حياة بغير هذا الجسد ولاكان ميفهم لها سكون أو حركة بغير سكون الجسد او حركته ، فاذا أرادوا أن يحملوا النفس على الحشوع والتطامن فسبيلهم أن يتقدموا إلى ذلك باستئسار الحس وإحاطة الاعضاء بما يكف من نشاطها ويغل من حراكها وينسيها أبراً مرخصات الحياة وأبعد موحيات الطرب، وأن يدخلوا العابد المصلي في برزخ بين الحياة والموت وجسر بين الدار والقبر. . . وما ذاك إلا الهيكل القديم كما بناه

المصريون لأنفسهم أوكما بنته لهم الطبيعة التي لاتخطي. لها هندسة ، ولو بنت بأيدى الخاطئين.»

تلك خطوط عاجلة لخصائص «النفس المصرية » كما ترى بعين الواقع لا كما ترى بعين الغرض والخرافة ، وهي خصائص إنسانية تقترن بالقوة فتعدمن أقوم وأفضل ماعرف عن أخلاق الشعوب ، وتقترن بالضعف فتسوم وتنغل . ولكن نظيرها في مساوي. الضعف بين شعوب العالم ليس بقليل .

أصبل سعد

بعد الاوهام التي شاعت عرب الطبيعة المصرية وناقشناها في الفصلين السابقين يسهل علينا أن نفهم لماذا يشك بعض الناس في انتساب سعد إلى الامة المصرية ، لانهم يستكثرون أن ينبغ رجل كسعد في مضاء عزيمته وعلو همته وصراحة رأيه ، في أمة شاع عنها ماشاع من تلك الاوهام .

ومن عجائب العظمة — والعظمة كاما عجائب — أن يتناول الخلاف في أمر زعيم الوطنية المصرية كل شيء حتى نسبته إلى تلك الوطنية ، ولعله لو لم يتبوأ مكان الزعامة منها لاصبح في نظر المتقولين مصريًا لا نزاع فيه إ

وسيرى القراء من الفصول الآخيرة في هذا الكتاب أن مزايا سعد جميعها كانت مزايا « المصري القوي » بلا استثناء خصلة من الخصال ولا خلة من الخلال ولا عمل من الاعمال . فهو في خلائقه العملية وفكاهته الحاضرة واعتداده بالاسرة وكراهته للغفلة وإيمانه بالغيب مصري فلاح من طينة المصريين الفلاحين : طبيعته هي طبيعـــة الفلاح في صورة واسعة وأطار كبير ، وطبيعة الفلاح هي طبيعة سعد في صورة ضيقة وأطار صغير أو منحرف بعض الانحراف ، ولكنهما على نموذج واحد في الوضع والصناعة .

وإن شئت التقريب بتشبيه « فلاحي » فقل إن كلفلاح في مصر إن هو إلا جدول صغير إلى جانب ذلك النيل الكبير ، يخالفه في طوله وعرضه وعمقه واتجاهه ؛ وقد يخالقه في الركود والحركة والتغير والنقاء ، ولكنه لايخالفه في أصل المورد ولا في عنصر الما.

يبد أننا نلتفت إلى الأقاويل التي قيلت عن أصل سعد لأنهـا جز. من تاريخه ، ومن الواجب علينا أن نعرف منشأها وسبب ورودها على بعض الخواط ، وأن نعرف مبلغها من الصدق والشبهة ، لتاخذ حقها من العناية . وقد اتسعت مسافة الخلف بين أقوال المتقولين وفروض الفارضين اتساعاً يدل على ضعف الاسانيد والظنون التى يعتمدون عليها . فبعضهم ينسبه إلى المغول أو الترك وآخرون ينسبونه الى البدو أو العرب ، وغير هؤلاء وهؤلاء ينسبونه إلى المغرب أو إلى القبائل البدوية التي ذهبت من مصر إلى المغرب في الفتوح الاسلامية الأولى ثم قفلت راجعة بعد جيل أو

جيلين ، بعضها إلى الصعيد وبعضها الى اقليم البحيرة وما جاوره من أقاليم

مصر الشمالية .

والأجانب هم الذين ينسبونه إلى المغول ومن يدخل فيهم من العناصر التركية ، وقد لمحت « التيمس » إلى ذلك تلميحاً عارضاً في خلال كلامها عنه بعد وفاته ، فقالت : « إنه كان طويل القامة نحيل البنية عريض المنكبين أسخر اللون مع شيء من الصفرة وعظها خديه بارزان ، وعيناه ضيقتان ، فكان له في ذلك مسحة من سهاء المغول.»

ونعتقد نحن أن أبعد شيء عن الحقيقة هو هذا الفرض الذي لا يستند إلى غير هذا « الشبه » المزعوم ، وليس هو مع ذلك بالشبه الصحيح .

فان ملامح سعد لا تذكر أحداً بالملامح التركية ولا سيما شكل الجمعة المستطيل والانف المنفرج، وأسماء الاسرة كلها ليس فيها اسم واحد يشبه أسماء البيئة التركية التي لا يعقل أن تنسى أسماءها و تنديج في عنصر الفلاح كل هذا الاندماج بعد جيلين أو ثلاثة. فسعد الله وفتح الله وفرج الله وشلبي وستهم والشناوي وشعث واسم زغلول نفسه هي من الاسماء التي لا تمت إلى البيئة التركية ولو بعد أحقاب. وقد تكون فيها مشاركة للتسمية البدوية ولكنها لا تشارك الاسماء التركية من قريب ولا بعيد.

أما الذين ردوا أصله الى البدو والعرب فشبهتهم في ذلك هذه الأسها. ، وأن أباه كان يلبس الطربوش البدوي والنطاق البدوي ويحمل السلاح كما يحمله زعماء البدو على خلاف عادة الفلاحين . ومن البديه أن هذه الأسماء شائعة بين الفلاحين كشيوعها بين العرب ، فليس فيها دليل ولا مظنة دليل . أما لبس الطربوش والنطاق فلم يكن هولبس القبائل البدوية الاصيل وانما لبسوه لانهم كانوا يقلدون حكام العمانيين ، كاكان يلبسه سروات البلاد جميعاً ومنهم كبراء القبط الذين لايشك في نسبتهم الى العنصر المصري العربق ، والذين يحتفظ أبناؤهم واحفادهم الى الآن بصور لهم ظهروا فيها بالطربوش والنطاق والسروال كاكان يظهر الامراء والحكام .

وقد عثرت على نسبة قديمــة لبيت من بيوت اقليم الغربية يسمى بيت الدباوية دلني عليها السري المعروف السيدعبد الهادي القصي واهتدي اليها هو في مراجعة بعض التركات . هذه النسبة تصعد إلى رجل يسمى السيد جبير « الـكانن مقامه بمحلة الأمير باقليم البحيرة بالبحر الغربي بناحية رشيد » وتصعد من ثم الى على بنأ بي طالب رضي الله عنه . ومن فروعها رجل هو كما جاء فيها بنصه همن جملة عصبة البطل الهام سيدي محمد الخشوعي الكائن مقامه بالبرلس بحارة الهزالان من أقارب أقاربه من جملة المائة ثمانين الشريف الذين توجهوا صحبته من مدينة فاس الى أن أتوا معه بأرض مصر وكانت النصرة على أيديهم وهما محبين للبطل الهمام بايعين أنفسهم في الحرب والقتال » ويقرل كاتب هذه النسة : « وليرجع القول المفصل في نسب السيد يوسف بنالسيدعز الدين المذكور أعلاه أنهعقب ولده لصلبه السيديوسف والسيد يوسف عقب السيد منصور والسيد منصور والسيد شاهين والسيد حسين. فأما السيد حسين عقب السيد محمد الأشعث وعقب السيد زغلول وتوجهوا ونزلوا بناحية مطوبس. فأما السيد محمد قطني بقرية تسمى القني وأما السيد زغلول قطن بعد مطوبس بالبيانات وكل منهم عقب رجالًا. وأما السيد منصور والسيد شاهين توجهوا من البهنسة الغرّي ونزلوا باقليم الغربية وقطنوا بقرية تسمى سنباط الخ.» وأقوى مافي هذه النسبة أنها لم توضع لأسرة زغلول ولا لأسرة تدعي القرابة منها في الزمن الحديث حى يقال إنها وضعت لمصلحة الأسرة ، ولكن الاتصال « بزغلول » جاء فيها عرضًا ، وجاء موافقاً للمعروف من أن جد الزغلولين نزل في « إبيانة » أو في البيانات كما كانت تعرف فى ذلك الحين .

كذلك يتفق مافي هذه النسبة وما هو معروف من طريق القبائل العربية التي رحلت إلى المغرب وعادت منه إلى الصعيد الآدنى في المنيا وبني سويف والفيوم أو إلى الاقاليم الشمالية في البحيرة وما جاورها · ومن قديم الزمن — إلى أبعد عصور الفراعنة — كان إقليم البحيرة مرتاد القبائل البادية التي تتردد في أفريقية الشمالية بين مصر وأقصى المغرب ·

فهذا أقوى مافي هذه النسبة من مظنة ، ولكسنا لابدلنا من الاشارة إلى بعض مزاعمها ليقف القاريء على حظها من التحقيق في شتى المسائل . فمن كرامات بعض سلالتها : « أنه أرسل نقيبه إلى مدينة فوة وقال له تتوجه إلى أفندي فوة و تأخذ منه إذن على الحجرالذي في الوكالة الذي عليه الطلاسم وتخلي الافندي السكائن بمدينة فوة يرسل معك رجالاً من أتباعه ينزلون لك ذلك الحجر في المركب فان أجابوا بذلك ياولدي فخذه وأحضر لنا به وإن أبوا وتخلفوا ولم يسمعوا السكلام ويمتثلوا إلى الفقير ولربه الجبير والا يا ولدى ترجع من عنده إلى الحجر و تقف عند طرفه الهين و تشير بيدك ياولدي و تقول له ياولدي إن الشيخ يدعوك إلى منزله أيها الجاد وهو يعضر لنا في ذلك فاذا كان البحر ياولدي فاجلس فيه فانه يحضر لنا بك وقالو اله لانسلم لك في ذلك السكلام . فان على الحر المؤن الوكالة تخرب ، ولكن قل يافقير إن كان أستاذك له كرامة فتقل له يأخذ الحجر بشرط لايؤذي وإلا لا يكون هذا السكلام . وإحنا لا نمنع من ذلك ، فما كان أمر النقيب إلا أن توجه إلى الحجر حكم ما أشار له أستاذه من ذلك ، فما كان أمر النقيب إلا أن توجه إلى الحجر حكم ما أشار له أستاذه ودعاه فما تم كلامه حتى انتقل الحجر من مكانه ولم يأذ البنا ونزل في البحر

وجلس النقيب عليه وتوجه إلى ناحية القبلة والناس بحموعين عنده ينظرون. الح الح ..»

وفي موضع آخر من النسبة « أما من كرامات السيد الشريف جبيركان يطوي كل ثلاث سنين طيا صيام ومن جملة كراماته أنه كان يناغي الطير في جو السما. والسمك في قرار البحار والوحوش من الأقفار وتتكاثر عليه السباع وكل منهم ينخ لحضرة الاستاذ أن يركب عليه . . . »

وفيما بيناه من جانبي القوة والضعف في هذه النسبةالكفاية ، ولولا أن اعتقاد هذه الكرامات لأصحابها لا يمنع وجود أولئك الإصحاب في تلك البلاد لما تكلفنا الاشارة البها .

قال لي الاستاذ محمد زيد الاياني رحمه الله وهو من الثقاة : « إن إيانة تنقسم إلى ساحل وبرية . وفي هذه البرية ـ وهي الآن تابعة لكفر الشيخ ـ ضريح ولي اسمه زغلول على قرب من سيدي غازي » قال الشيخ زيد : وقد حضرت بجاساً فيه أشقاء سعد قدم اليه نقيب ذلك الولي وقال لهم : «تعالوا خذوا نسبتكم من عندي » • فلم يحفلوا بأمره ·

ومن هذا نعلمأن أسرة سعد لم تكن تعتد بذلك النسب ولم تكن تحتفظ به من باب أولى. على أنه لو صح على علاته لأثبت أن لسعد سلفاً في مصر عاشوا بين أهلها وصاهروهم مصاهرة طويلة يرجع تاريخها إلى مئات السنين، فله بذلك عراقة في بيئة الفلاح لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى في بيئة قومه ، إذ ليس بين كبراء الأنجليز أو الفرنسيين أو الايطاليين أو الألمان من هو أعرق في الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية أو الألمانية من سعد في السلالة المصرية .

وقد خطر لي أن أسأل سعداً في صحة مايقال عن نسبته المغربية فقال لي وهو يضحك : « إن القصة كلها من وضع محام عتيق كان من أصحاب الحيل الدفاعية والاساليب المستظرفة في « تخليص القضايا » على طريقة تلك الايام

قال رحمه الله: « قبض علينا في بدء عهد الاحتلال ولبثنا في السجن زمناً بعد وضوح براء تنا وإبداء المحققين رأيهم الصريح بهذه البراءة ، وألح علينا بعض الصحاب أن نبلغ الآمر إلى الانجليز طلباً للافراج عنا فرفضنا ، فكان من الحيل التي لجأ اليها محامينا الآريب أنه التمس لنا أصلاً أجنبياً وكتب لنا نسبة مسلسلة كنا نحن اول المستغربين لها الضاحكين منها حين اطلعنا عليها بعد الافراج عنا ، وإنما ألجاء إلى هذه الحيلة أن فرنساكانت قد استولت على تونس وأخذت في ضم التونسيين المقيمين بمصر إلى رعاياها ، وكان بعض الناقمين منا يريد عقابنا و تلفيق الشهادات التي تلصق التهمة بنا ، ثم أرادوا أن ينفو نا إلى السودان بعد تهافت التهمة وظهور بطلانها ، ولم تكن النسبة المغربية سبب نجاتناكم أراد محامينا جزاه الله ، ولكنها بقيت فكاهة تتذاكرها ويتحدث بها أصدقاؤنا ، وتخلفت منها تلك الاثارة التي سمعت بها ، ولا منشأ لها غير تلك النسبة الموضوعة .»

ذلك هو رأي سعد في أصل النسبة المغربية ، وكل ماقاله سعد عن أصله يدل على أنه كان يعتبر نفسه فلاحاً مصريًا ولا يرضى بأن يسلكه أحد في غير زمرة الفلاحين المصريين .

والعجيب أن الذين نعتوا سعداً بالفلاح لم يكونوا كلهم من أنصاره ، بلكان فيهم فئة من أعدائه لم ينسبوه إلى الفلاحين اعترافاً بزعامته أو تصحيحاً لنسبه ، ولكنهم جروا على عادة فريق من المتتركين ظلوا يترفعون عن طبقة الزراع ويحرصون على نسبتهم التركية ، حتى استقرت النهضة الوطنية في قرارها فغيرت شيئاً من تلك العادة .

ويشبه ذلك في العجب أن الذين شكوا في نشأة سعد من سلالة مصرية صميمة لم يكونوا كلهم أعداء له أو أعداء لهذه الآمة ، بلكان فيهم فئة مصرية خالصة النسب صادقة الغييرة داخلها الحزن على أحوال بلادها والريب في غيرة اخوانها ، فضعف رجاؤها في مصيرهم ، ويتست على مضض أو كادت أن تيأس من فلاحهم ، وأصبحت وكأنها لاتصدق أن واحداً منها يرتفع إلى ذلك الأوج الذي ارتفع اليه زعيم مصر في نهضتها ، وينطوي على مثل تلك العزيمة الماضية والهمة الرفيعة والقدرة الراجحة ، فهي تشك في نسبة سعد إلى طبقة الفلاحين من فرط الاعجاب به وفرط الاسى على وطنها ، وتبدي ذلك الشك وبين جوانحها شعور الاب الذي يقول لابنه « إنه لن يفلح » وما يتمنى له من ورا ، قوله إلا الفلاح .

وقد شاع بين الفلاحين أنفسهم المثل القائل: « إن الفلاح إذا تمدن يجر على أهله داهية » وهو فيما يلوح لنا من وضعهم لامن وضع الاجانب المتمصرين ، لأنه أدنى إلى السليقة المصرية بما فيه من روح الفكاهة والتهكم ، وإنه لدليل على ما صارت اليه حالة الامة من الظل بنفسها قبل النهضة الاخيرة التي عاودت بها ثقتها وكبرياءها ، وإن كان المثل في مغزاه لا يدل على تجرد الفلاح من القدرة وخلوه من دوافع الطموح .

وينبغي للذين يستريبون هذه الريبة ويحسبون الفلاح مخلوقاً للضم والاستكانة أن يذكروا ثورة الفلاحين على الحكم التركي وثورتهم على الحماية البريطانية ، كلتاهما نشبت في جيل سعد بين شبابه وشيبه ، وكلتاهما كانت ثورة قومية في سبيل الوطنية المصرية والسيادة المصرية ، وكلتاهما قادها فلاح ابن فلاح وهما احمد عرابي وسعد زغلول ، وقد انتسب عرابي إلى السلالة النبوية كاكان يفعل كثير من المسلمين ، ولكنه على كل حال أعرق في بيئته المصرية من أكثر زعماء العالم في بيئتهم القومية ، ولم يكن في وسعه أن يصنع المصرية من أكثر زعماء العالم في بيئتهم القومية ، ولم يكن في وسعه أن يصنع شيئاً بغير طبقة الفلاح ، حامل الفأس ولابس الجلباب الازرق .

جيل سعد

جيل سعد هو الجيل الذي نشأ وترعرع فيه ، وهو,أقرب الأجيال إلى جيلنا الحاضر ، لأن أبناء الجيل الحاضر قد شهدوا بعض سنواته وعاشروا بعض أبنائه ، وانساقوا لبعض عوامله وتأثروا ببعض مؤثراته ، فهو من ثم أصعب علينا فهماً من الأجيال التي بيننا وبينها فجوة بعيدة .

لانك ترى رأي العين ما يشبه جيلك وما يخالفه في وقت واحد . فلا تقول هوشبيه بحيلنا حتى تعود فتقول: هو على خلافه ، وتشك في المشابهة التي لمحتها بيننا وبينه . ولا تحاول ان تحصر الخلاف في مواضعه حتى تلتبس عليك وتمتزج أمامك بمواضع المشابهة والمقاربة . وكثيراً ما يكون الفرق بين جيلك والجيل الذي قبله فرقاً بين ابتداء المرحلة وانتها تمالا فرقاً بين نحوين مختلفين أو مذهبين متعارضين . فأنت محتاج إلى مقياس واحد ومحتاج كذلك الممقياسين لاغنى لاحدهما عن الآخر . وهنا يكون التبلبل والتردد والضلال .

وليس هذا كل ما يعترضنا من الصعوبة عندما نحاول الحكم على جيل متقدم علينا ، إذ نحر لاننسى ان الامم الشرقية قضت ردحاً من الزمن تعجب بكل ما مضى وتنكر كل ما حضر ، وأنها تحولت من ذلك رويدا رويدا في أيامنا حتى انعكس الامر فأصبح الغالب على الناس أن ينكروا كل ما مضى وينقلوا الاعجاب كله إلى الحاضر تارة وإلى المستقبل تارة أخرى . فقبل خمسين سنة كان الحكم على الاجيال السابقة من أسهل الامور عن كل انسان ، لان الاجيال السابقة كانت هي الفضلي في كل شيء ، والمقتدى بها في كل غاية ، أما اليوم فلا خوف من محاباة الماضي و تفضيله في غير مدعاة لتفضيل ، وإنما الخوف أن نجور عليه ونستصغره ونمسخ مزاياه مدعاة لتفضيل ، وإنما الخوف أن نجور عليه ونستصغره ونمسخ مزاياه ونرى غريباً فيه ما لم يكن بغريب ،

ومحل الصعوبة هنا أن أعداء الماضي وأنصاره لا يزالون كلهم في قيد الحياة ، وأن منهم من هو عدو للماضي في ناحية وصديق له في ناحية ، فاذا تناولنا المقياس لنقيس به جيلاً سبقنا ولم يعزب عنا بجميع مزاياه وجميع عيوبه، فهنا لك أيضا تبلبل وتردد وضلال .

* * *

والذي ننتهي اليه بعد طول المقابلة بين جيل سعد وما بعــده إن ذلك الجيل ــ على نقص نصيبه من التعليم والتقدم ـــ لم يخل من مزايا خاصة برجح بهــا ما بعده رجحانًا كان له شأن كبير في نشأة سعد وأعماله .

فهو قبل كل شيء جيل ثقة ويقين متفقعليه ، سيان في ذلك عقائد الدين وأفكار العصر الحديث .

اليوم لا يعرف الناس عقيدة من العقائد ولا مذهبًا من المذاهب الا قد عرضوها مرات على محك النقد والتحليل.

فما هو الحنير وما هو الشر؟ وما هو الحسن وما هو القبح؟ وما هو الشرف؟ وما هو الانصاف؟ كل أولئك قد تعددت فيه الأقوال و تناقضت فيه الحجج و تصادمت فيه العقول ، فمزقته الشكوك و تعذر فيه اليقين المتفق عليه ،

أما قبل ستين سنة فقد كان العرف من هذه الجهة على صراط مستقيم لا حيرة فيه: فالحلال بين والحرام بين ، وما يستحق النقد والتشهير من أعمال العلية الحاكمين أو غير العلية الحاكمين أمر مفروغ منه لا يقبل الشك والمناقشة ، وربما وقع الحلاف على الرجل هل هو خير أو شرير ولكن لن يقع الحلاف على الحير أو الشر ما هو وما علاماته وما اشراطه ، ومرجع الرأي في هــــذا وذاك الى القانون الديني الذي كان ساريًا بين المتدينين .

ولم يكن ذلك شأن القانور الديني وحسب ، بلكان شأن المذاهب

العصرية والدعاية الشائعة يومئــــــذ عن الحرية وحقوق الشعب ، وحقوق الشعب ، وحقوق الحكومة .

فكانت الثورة الفرنسية في جدتها ، ومبادي الحرية والآخا والمساواة على أشدها ، وكانت في أذهان المستنيرين كا نها تنزيل لا يجوز فيه جدال ، بل لم تكن أطوار الاجتماع وفلسفة الدراسات النفسية قد أخرجت للناس تلك الدعاوى التي يستند اليها من يجادل الآن في مبادى الحرية والاخام والمساواة ، فكانت حقوق الشعوب ومعايير الرجال والامم قسطاساً لانزاع فيسه من جانب الدين ، ولا من جانب الفلسفة الحديثة ، والمذاهب الاجتماعية السارية .

وفي أجيال الثقة واليقين التي من هــذا القبيل يسهّل تـكوين العزيمة وتعريف الحقوق التي تطلبها الآمة ، وتثور من أجلها وتدين من يخالفها .

* * *

هذا وقد اجتمع لأبناء ذلك الجيلسببان لطلب الاصلاح: أحدهما من داخل الامة والثانى من خارجها .

فأما السبب الداخلي فهو استفاضة المظالم واستفحال الخطوب ، وشيوع الخراب والفساد في أعمال الحكومة ومرافق الرعية ، وتمادي الشر في ذلك كله إلى مدى لا يطاق الصبر عليه فوق ما صبر الصابرون .

وأما السبب الخارجي فهوانتشار دعوة الحرية في الغرب وتعاقب الانباء بالثورات على الطغاة ، انتصافاً للشعوب وذوداً عن حقوق الافراد .

هذا وذاك — مع الثقة بالحق وانتباه العقول في طورالنهضة الاولى — قدكان لها جميعًا أثر في تـكوين جيل سعد وتزويده بالحمية والصرامة اللتين لا غنى عنهما في عصور الوثوب والاصلاح .

أضف إلى ما تقدم أن جيل سعدكان بمشيئته وبغير مشيئته _ أقرب الىالوطنية المصرية الصحيحة منالجيل الذي لحق به فيأوائل عهد الاحتلال البريطاني . فقد كان جيل سعد يحارب طائفة منالترك والمتتركين ، ويناضل في ميدان مشتبك بين عنصر الفلاح وعنصر الحكام المستأثرين بالمناصب المترفعين على سواد الامة ، فكان من الطبيعي أن يناضل لمصر دون غيرها ويجعل شعاره في الوطنية ان « مصر للصرين » وأن البلاد لابنا. البلاد ولمن لا يبرأون من النسبة إلى البلاد ، ولم يكن الجيل الذي لحق بالاحتلال ينحو هذا النحو في دعوته الوطنية ، لأنه كان يصطنع الحكمة ويختصر المسافة فيما يحسب حين يضرب الاحتلال البريطاني بالسيادة التركية إفكان يصر على اتباع الدولة العثمانية اصرارًا لا معنى له في دعوة ترمي إلى تحرير الامة وتحقيق الاستقلال ، ولم يزل يمضى في طريقه الخاطئة حتى جاء سعد مرة أخرى في أعقاب الحرب العظمي فرد الامة إلى وجهة قويمة . وجعل شعارها من جــديد أن « مصر للمصريين » وأن البلاد لأبناء البلاد ، وتمكنت الروح الوطنية الصادقة بعد اضطرابها زمناً طويلاً حتى أصبحت السيادة العثمانية والسيادة البريطانية بمنزلة واحدة عند طلاب الاستقلال ودعاة الحرية ، فغنمت مصر غنيمة نفسية لا تقوُّم ولا تنحصر فوائدها في النتائج المحسوسة،، ويكنى لتقويم بعض قيمتها أن نسأل أنفسنا : كيف تنهض من رقدتها وتنطلق إلى حريتها أمة تتخذ من سيادة الآخرين عليها مثلاً أعلمه وغاية موموقة ؟ وتتطلع بعينيها فلا ترتفع إلى مرتبة الآحرار المستقلين ولا تعدو مرتبة الخدم التابعين ؟ فمصر قــــد استفادت في عالم الروح هنا أضعاف ما استفادته في عالم الاوضاع السياسية والمراسم الدولية .

* * *

وقد يُتمم تقدير الجيل الذي نحن بصدده أن نذكر ـ إلى جانب ما أسلفنا ـ أنه كان جيلاً لم تنتشر فيه الطباعة هذا الانتشار ، ولم يعم فيه « التخصص »

هذا العموم ، وكلاهما مما يجور على الشخصيات ولا سيما في الخطابة ويكلفها في سبيل الظهور مشقات جساماً لا تصمد لها الا بقوة خارقة وعدة ممتازة.

فالطباعة لا تحوج الزعيم أو المصلح إلى استخدام مهابته الشخصية وبلاغته اللسانية لأنه يتصل بتلاميذه من طريق الكتب والصحف فلا يعنيهم شخصه كما تعنيهم افكاره وبراهينه ، ومن ثم يصعب ظهور « الشخصيات » أو يقل ظهورها بقلة الحاجة اليها .

والتخصص يحيل الناس أجزاء من رجال بدلاً من الرجال الكاملين الذين يستعدون بكل عدة في المسائل المتفرقة ، وان لم يبلغوا في كل مسألة على حدتها مبلغ الاخصائيين المتفرغين للدقائق والتفصيلات ، وفي هذا ما في الطباعة من الجور على الشخصيات وتصعيب ظهورها وتقليل الحاجة الها.

فيل سعد كان أوفق لظهور «الشخصية الممتازة» من الجيل الذي تلاه، وهي مزية قـــد نفسر بها رجحان الجيل الماضي بالقوى النفسية. ورجحان الجيل الحاضر بالقوى الفكرية، على أننا لم نعن بهذه المقابلة ان الشخصيات في جيلنا هذا أقل عددًا من مثيلانها في الجيل المتقدم عليه، ولكننا عنينا ان المصاعب في طريقها أكبر وان الحاجة اليها أخنى وأندر. ولهذا مُحدَّتُ بيننا بحدود لم تكن معهودة قبل أيام الثورة العرابية.

* * *

فمن حقنا إذا نظرنا الى تقدم جيلنا في المعارف والصناعات ان نغتبط بما وصلنا اليه ، ومن واجبنا اذا نظرنا الى الجيل السابق أن لا نغمط حقه وان لا ننسى عذره ، وأنه لم يخل من مزايا قيمة يوازن بها مزايا العصر التي أتينا بها أوأتى بها العصر ، فلا فضل لنا فيها .

بيئة سعد ونشأته

التوفيقات التاريخية في تراجم النوابغ مشهورة متواترة ، والعظاء الذين سبقتهم أسبابهم قبل وصولهم إلى الدنيا غير قليلين في تاريخ العالم . فقديتفق أحياناً أن تتهيأ الاسباب لنبوغ العظيم كما يتفق التحضير المرتب الذي ينتهى إلى غاية مقصودة ، فان لم يتفق هذا فأيسر ما يلاحظ في تراجمهم من التوفيقات والتمهيدات أنهم ينبغون في أوانهم الذي لا عائق فيه لنبوغهم ، وأن تكون العوائق نفسها كانها رياضة لهم وامتحان لقوتهم ، فلا بد في حياة كل عظيم من تمهيد أو توفيق ، ولا بد من الابتداء بترجمة العظيم قبل ولادته بسنوات .

وسعد زغلول من عظاء العالم الذين تتجلى توفيقات التاريخ في بيئتهم ونشأتهم تجليها في حوادث زمانهم ، فهو ابن زمانه في طفولته وصباه وفتوته وكهولته وهرمه ، لم يولد قبل حينه ولم يولد بعده كما يحدث أحيانًا في نشوء بعض العظاء ، ولم تكن رسالته متقدمة ولا متأخرة عن الرسالة المطلوبة منه ، بلجاء كل عمل من أعماله بتقدير و تدبير ، يخيل الى من يراجعه أنه منقول من برنامج مرسوم .

نشأ سعد بين الفلاحين ، ولكن لم ينشأ من فقرا. الفلاحين . فاستطاع أن يحس شقاءهم ولكن لم يستطع أن يصير عليه كما يصير الزراع المساكين في كل أرض منيت بالظلم وابتليت بالفاقة ، وفسدت فيها النخوة وبطلت فيها الغيرة على المظلومين ، لطول ماشكل الناس بمصائبهم عن مصائب الآخرين ، ولطول ما أحسوا من الضعف عن مغالبة القوة متفرقين .

كان أبوه « ابراهيم زغلول » عميد بلدته ومن أكبر أصحاب الثراء فيها ، يملك نيفاً ومائتي فدان فيها يسمى بالجزائر ، وبيتاً فسيحاً له منظرة تتسع لا كثر من مائة زائر ، وكان يتحدى الحـكام الترك في مظهره وأبهة مسيره ومقامه ، فكان يمشي في ركب من العبيد الذين يلازمونه ويقيمون معه ويعتمدعليهم في نضال خصومه ، لقلة أبنائه في أيام شبابه ، وكان يجرىعلى سنة « العصور الاقطاعية » فيزعامته على أبناء بلده . فهو بهم كفيل وبحمل مغارمهم زعيم ، يؤدي عنهم الضرائب إذا أجدبوا ويدفع عنهم المظالم اذا وقعت الثبوة بينهم وبين الحكام ، يركب الخبل ويتقلد السيف ، ويُرى كأنه مستعد فى كل لحظة لنضال .

ووالدة سعد السيدة « مريم » بنت الشيخ عبده بركات من أسرة عريقة إتصل آباؤها بالولاة منذ عهد محمد علي الكبير ، وجمعتهم المصاهرة بأعرق البيوت في اقليمي الغربية والبحيرة ، وتولى أخوها « نظارة القسم » بمركز دسوق في زمن كانت فيه هذه الوظيفة وأمثالها وقفاً على الترك والشراكسة.

والمألوف في تاريخ العالم كله أن يبدأ إنصاف الفقراء من غير الفقراء أو أن يبدأ بين أناس يحسون إحساسهم ولايصبرون صبرهم ويجهلون جهلهم .

فلم يعرف في تاريخ الأمم المظلومة ان الفقراء المستضعفين أنصفوا أنفسهم بأيديهم ، ولم يعرف كذلك أن الطبقات الغنية التي تحكم وتستأثر بمنافع الحسكم تقبل إنصاف الفقراء طواعية من عند نفسها ، بغير دعوة صادعة ووثبة مزعجة ، تأتيها من غيرها وتضطرهي اضطراراً إلى مجاراتها .

وإنما عرف أن الدعوة إلى الانصاف وكف الطغيان تأتَّى من طبقة لا هي بالمهضومة المكسورة ولا هي بالهاضمة الكاسرة ، أي أنها تأتي من طبقة قريبة إلى الفريقين ، تشبه الطبقة التي نشأ فيها سعد زغلول .

والطبقة الوسطى ليست على نسق واحد في التحفز لرفع الظلم والقدرة على إنكاره والتفكير في كبحه ، فلا بد فيها من تفاوت بين موقعوموقع وأسرة وأسرة وحالة ، ولا بد من أسسباب ترفع بعضها على بعض في هـذه

الخصلة ، وتتيح لأناس منها مالايتاح لغيرهم على اختلاف الموطن والتربية والحالة النفسية أو الاجتماعية .

ولقـدكانتهذه الاسباب كلها في الجانب الذي يوافق عظمة سعد من طفو لته الاولى ، ويرشحه من مهده لكراهة الظلم والتمرد عليه ، ويجعله بالنشأة والوراثة ذلك الزعيم المدخر لقيادة النهضة الوطنية .

ولد في قرية « ابيانة » في أظراف بعيدة من العواصم التي تستقر فيهـا هيبة الحـكام وسطوة الرؤساء، ولكنها ليست بعيــدة من آثار عسفهم وجرائر فسادهم، وسوء القالة فيهم.

وولد في أسرة عزيزة أبية من ناحية أبيه وناحية أمه ، فكل أب من آبائه بقيت له سيرة مذكورة لم تخل سيرته من حادثة اصطدام وقعت بينه وبين حاكم مرهوب ، ذي سطوة تملك الغنى والفقر أو تملك الحياة والموت في بعض الأحايين.

وقد كان جزاء من يعتمدي على حاكم بالقول الحشن — بله الضرب والاثخان فيه — أن يسجن حتى يبلى في السجن أو بجلد حتى يتهرأ جلده أو يموت، وربما أمروا به فيشنق ثم يبقى جسده في الهواء أياماً للعبرة والمبالغة في الارهاب، وحدث فعلاً باقليم الغربية أن عمدة فلاحًا اجترأ على ناظر القسم التركي بالاهانة فجوزي بالموت شنقاً وأمروا بتعليق جثته ثلاثة أيام في ساحة الديوان زجراً لغيره. في تلك الآيام مر ناظر القسم بأرض الشيخ ابراهيم زغلول على ساحل النيسل فأبى أن يعبرها دون أن يثبت مروره كما يليق بالحاكم الآمرالناهي الفعال لما يريد! وعلم أنه في نجوة من كل سوء يصيبه من أنفة الشيخ ابراهيم بعد العبرة الماثلة في أذهان الفلاحين من حادث العمدة المشنوق. فاجترأ على الشيخ ابراهيم بالتأنيب والاستخفاف، وكبر على الشيخ أن يساء اليه هذه الاساءة لمحض الغطرسة وإظهار القدرة على الاذلال

والتحقير ، فمد يده إلى الحاكم المخيف وهو على متن جواده فأهوى به إلى الارض وأوجعه ضرباً وانصرف إلى سبيله كأنه لم يأت أمراً يقوده إلى المهوت . وسرى الحبر في جوار القرية فهرول اليه صهره « عبد الله افندي بركات ، فزعاً متوجساً من العاقبة يلومه على مافعل ويذكره مصير ذلك العمدة الذي اجترأ على أمر هو دون ما اجترأ عليه . فلم يتحرك ولم يفكر في عمل يعتذر به أو يصلح به ما فعل ، وعلم صهره أن لاحيلة له وللاسرة إلا أن يدبر الأمر بنفسه لمن لايشاء أن يدبره لانقاذ حياته ، ولحق بالناظر فما زال به يسترضيه ويبذل له المال حتى قنع بمائة مجر ، وسكت عن المسألة فا ذال به يسترضيه ويبذل له المال حتى قنع بمائة مجر ، وسكت عن المسألة فا نقضت بسلام .

وكان الشيخ عبده بركات _ جدسعد لامه _ من أغنى الاغنيا في أقليمه ، يعتز بمكانه أشد من اعتزازه بماله ، فحق عليه المدير التركى ونوى أن يحمع وجهاء البلد إلى سافية هناك ثم يرسل في استدعاء الشيخ عبده ليلقاه بينهم لقاء مهيناً ويغض من كبريائه وبسطة جاهه ، وأمر في أثناء ذلك برجل مغضوب عليه فشده إلى ثور الساقية وترك الثور يدور فيها ويجره وراءه ا وإنه لكذلك إذ أقبل الشيخ عبده على متن جواده ورأى المسكين المشدود على السافية فلم يحفل بشي. وهو قادم على حاكم البلد بين جنده وحاشيته إلا أن يبادر إلى ذلك الرجل فيحل و ثاقه ولا يبالي بما هو صانع وظن الحاضرون أن الشيخ عبده مقضي عليه لا يحالة اوان الحاكم سيغضب عليه و يتخذ من عمله ذريعة إلى التنكيل به وإذ لاله ، وكان الحاكم خليقاً أن يفعل ذلك لولا أن حكام تلك الأيام كانت تعاورهم نوبات يصطنعونها وغرائب يفاجئون بها من حكام تلك الأيام كانت تعاورهم نوبات يصطنعونها وغرائب يفاجئون بها من في ساعة الرضى والرضى في ساعة الغضب ، وإذ يفاجئونهم بالعقاب حيث في ساعة الرضى والرحسان حيث لا ينتظر العقاب وبالاحسان حيث لا ينتظر العقاب وبالاحسان حيث لا ينتظر العقاب وبالاحسان حيث المنته به واقفاً وحياه مرحباً وقال الشيخ عبده ولم يعاقبه على اجترائه ، بل نهض له واقفاً وحياه مرحباً وقال الشيخ عبده ولم يعاقبه على اجترائه ، بل نهض له واقفاً وحياه مرحباً وقال الشيخ عبده ولم يعاقبه على اجترائه ، بل نهض له واقفاً وحياه مرحباً وقال

للوجهاء الحاضرين « إن هذا الرجل الذي جلستم تنتظرون له المهالة لأشرف منكم جميعًا ١٠٠١. »

ولد سعد في هذه البيئة التي تحس الظلم با ثاره و لا تحسه بهيبته واقتداره .
ولد في أسرة تشاهد الظلم في غيرها ولا تشاهده في نفسها ، والبلدة التي ولد فيها — ونعني بها إبيانة — بلدة أكبر من القرية الصئيلة وأصغر من المدينة الكبيرة ، وأمثال هذه البلدان من أصلح البيئات منمو العظمة الفطرية لأنها تعلو على خمول القرية الصئيلة التي تركد فيها الحياة و تضعف فيها الحوافز والمنشطات ، ولأنها تنجو من ضجة المدينة العامرة التي تشغل الأذهان بالجلبة والمنظاهر الفخمة ، فتأخذها الظواهر الحلابة وبضيق فيها بحال الدهن الباطني فلا يستوفي حظه من النمو والتثقيف والمراجعة المفيدة ، ويقال ان بلدة إبيانة هذه كانت أول مصيف التفت اليه طلاب الاصطياف في القطر المصرى بعد هذه كانت أول مصيف التفت اليه طلاب الاصطياف في القطر المصرى بعد المفتح العثماني ، إذ كان يؤمها وكلاء الدول وكبار الإجانب صيفاً لترويح الفيح ، النفس بهوائها المعتدل وجوها الندي ، على مقربة من البحر والمروج الفيح ، فهي بلدة ذات تاريخ ينجو بها من إهمال الخول .

وكان لسعد أخوان شقيقان من أبيه وأمه هما فتح الله وفرج الله وأخت هي ستهسم ، أما إخوته الآخرون ـــ وهم شلبي والشناوي واحمد ومحمد وعبدالرحمن وفرحانة وستهم فهم إخوته لأبيه من غير أمه .

ويلوح لنا أننا أمام أسرة مطبوعة بطابع الاستثناء في بنية التركيب لأن الأب على صلابته وقوة نفسه قد ماث ولما يقارب الشيخوخة ، ولأن أخًا صغيرًا وهو فرج الله قد مات في سن الطفولة. وقد عاش الأخوان سعد الله « فتحي » حتى بلغا سن الشيخوخة وامتازا بالنبوغ والألمعية ، ولكنهما لم يعقبا ولداً في السنين الطويلة التي قضياها في المعيشة الزوجية ، ولم يولد لفتحي إلا بنت واحدة ماتت بعد شهرين ، ولسنا نجزم بصواب جميع الملاحظات التي استعرضها « لمبروزو » في مذهبه المعروف

عن أسر النوابغ والعبقريين وما يشاهد فيها من العقم تارة والموت العاجل تارة ، والحصائص الغريبة في المرض والصحة والضعفوالقوه تارات ، إلا أننا نعتقد أن المترجم الذي يمر بظاهرة كهذه الظاهرة في أسرة زغلول دون أن يسجلها ويعرضها للملاحظة يقع في تقصير .

* * *

ولا نعلم من سجلات المواليد تاريخ ميلاد سعد. فلا غنى لنا في إثباته عن الترجيح دور. التحقيق. والأرجح أنه ولد في ذي الحجة سنة ١٢٧٤ هجرية (أي في يوليو سنة ١٨٥٧ ميلادية) لأنه التاريخ الذي ذكره سعد لبعض سائليه عن ميلاده. أما التاريخ المكتوب على شهادة « الليسانس » التي حصل عليها من باريس فيقال إنه هو أول يونية سنة ١٨٦٠.

ولد سعد في تلك السنة او بعدها بقليل، وهي بيئة زمانية صالحة لميلاد الزعيم الذي قدر له أن يحارب الظلم كصلاح البيئة البيتيةالتي نشأ منها، والبيئة المكانية التي نبت فيها.

فقبل الثورة العرابية بعشرين سنة كان تذمر الرعية المهضومة يختمر في أرجاء القطر كله ، وكان الشعور بحق الشعب وحق الفرد يتنبه ويتعاظم سنة بعد سنة ، وكان حق الحاكم المستبد قد أخذ في التزعزع والتراجع ، لأن العصر كله في الأقطار كلها امتلا ً بالثورات ومطالب الاصلاح وحركات العصيان ، أما على الحاكمين الأجانب أو الحاكمين من ملوك البلاد .

فالطفل الذي يولد في هـذه البيئة الزمانيـــة ، مزوداً بميراث الانفة والجرأة والعطف على الضعفاء ، خليق أن يبلغ مدى استعداده ، ويترقى إلى أوج اقتداره .

وقد ورث سعد من أبويه بنية الفلاح وصلابة الخلق وصدق العزيمة ، وعوجل بموت أبيه وهو في نحو السادسة من عمره فحرم عطف الابوة وحمايتها ، ولكنه حرمان لم يصادف ضعفًا في مزاج نفسه فينهكها ويمحقها

وهي في نواتها ، بل صادف منه قوة أصيلة فأعان ما ركب فيه من ميراث الجد والشعور «بالذات» والاعتماد على النفس في تذليل المصاعب ومواجهة الناس ، حتى قيل إنه كان يتأتى على اللعب ولا يطيل المرانة عليه ، فكان « يخيب » في ألعابه إذا أغراه باللعب داع من دواعي الطفولة الغالبة مهوسماه رفاقه من أجل ذلك « بالخيبة » كما روى بعض أتباعه الذين شهدوه في طفولته وعاشه العده

وكان يعرض عنأخيه الصغير وأقاربه الآخرين حين يمعنون فيألعابهم كما يمعن جميع الصغار ، ويقول في لهجة الرجل الكبير المترفع : « هؤلاء صبية مدللون ١ » لأنه راض نفسه على سمت الرجولة من صباه الأول ، وطفق من عهد الصبا ينظر إلى اللعب نظرة الرجال لا نظرة الإطفال.

ولايفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن اللعب لم يكن في ذلك العصر رياضة سائغة للصغار والكباركما عرفناه نحن في العصر الحاضر ، ولكنه كان اسفافاً لا يليق بغير الطفل المدلل الكسلان ، فلما زينت خليقة الجد لسعد أن يكون رجلاً قبل أوانه علم أنه لا يستطيع الجمع بين الطفولة والرجولة في وقت واحد فأعرض عن اللعب وأبى أن ينزل نفسه منزلة الصغار المدللين ويتخلى عن وقار الرجال المحنكين .

على أنه كان أفكه طبعاً وأعذب خلقاً وأروح سجية من أن تستغرقه الصرامة العابسة وتقتل فيه الأريحية الضاحكة ، لآن الصرامة العابسة لن تستغرق إلا نفساً يؤودها حمل الجسد فلا يدع لها فضلاً من القوة تمرح به وتطرب ، ولم يكن سعد بالذي تستغرقه الصرامة في الشيخوخة المحوطة بالأزمات والخطوب بله الطفولة الدارجة في مهاد اللعب والمراح ، فانك لتعرف له في الشيخوخة طرائف من الفكاهة والعبث بالخصوم لم تفارقها خفة الصبا وجدة الطفولة ، ولكنه علم في نشأته أن اللعب ليس من شأنه فتجافى عنه وقصر في ميادينه ، ولعله لو نشأ في العصر الحاضر لكان له شوط فتجافى عنه وقصر في ميادينه ، ولعله لو نشأ في العصر الحاضر لكان له شوط

سابق في الألِعاب إن لم يكن من كبار اللاعبين . وقد كان يألف ركوب الخيل وهو يافع لأنه لعبة تليق بالرجال ! وظل يركبها في القاهرة ويفضلها على المركبات إلى ما بعد اشتغاله بالمحاماة .

تربى سعد بعد موت أبيه في كفالة أخيه الآكبر وزوج خالته الشناوي. أفندي ، وهو رجل حازم كريم القلب جمّ المروءة ، شملت مروءته الآتباع والحدم فضلاً عن الآخوة والآقارب ، ومما يروى عنه أنه تجشم السفر من بلدته إلى القاهرة ليعود خادماً مريضاً سافر اليها في صحبة سعد يوم قصد إلى الجامح الآزهر . وهي مبرة انسانية ، وهمة من هم الرآسة تزيدنا علماً بشما ثل هذا البيت وبما يفهمونه من معنى الوجاهة . وقد ورث الشناوي أفندي وجاهة أبيه من بعده وتولى رئاسة بجلس القضاء في مركز دسوق ثم في مركز زقتى . ورأى الآخ الكبير في أخيه الصغير نجابة مرجوة ومخائل ذكاء ضن بها على الفلاحة والزراعة ، فعول على توجيهه إلى العلم وترشيحه للرآسة الدينية ، وأدخله المكتب ليتعلم القراءة ومبادي الدراسة الميسورة في المكاتب ، ويحفظ القرآن تميداً لأشخاصه مع بعض أفراد الآسرة إلى الجامع الآزهر ومحفظ القرآن تميداً لأشخاصه مع بعض أفراد الآسرة إلى الجامع الآزهر

ولعل من حسن الشهادة لطفولة سعد أنه برم بالمكتب في بداية عهده كما ينتظر من كل طفل مستقيم الطبع قوي الشكيمة يمتحن بتلك الاساليب العوجاء التي كان يجرى عليها التعليم قبل ثمانين سنة · فاشتد عليه أخوه مرة بعد مرة حتى اطمأن إلى المكتب ، وشاءت الاقدار أن توقر للصبي اليتيم كل ما يعين فيه عزيمة الجد وينجو به من وخامة التدليل التي يبتلي بها الايتام الصغار في حضانة الامهات الشواب ، فكانت أمه تشتد عليه كاشتداد أخيه كلما أنست منه تقصيراً أو شعرت بحاجته إلى تقويم ، وكانت تشكوه إلى الفقيه ليضربه ويؤدبه كلما استوجب العقوبة . وكان الضرب إذ ذاك مصاباً على الجسم ولم يكن مصاباً على النفس ، لان ضرب التعليم بركة وحسنة ١ على الجسم ولم يكن مصاباً على النفس ، لان ضرب التعليم بركة وحسنة ١

والسعيد السعيد من الاطفال من تلتى العلم صعباً شديداً تتضاعف فيه المثوبة والأجر بمقدار ما تضاعفت الصعوبة والشدة ، حتى لاوشكت السلامة من الضرب أن تعاب وأن تحسب نقصاناً من حسنات الجهاد في سبيل العلم والدين اوهــذه هي العقيدة التي شاعت بين الآباء والابناء وبين المعلمين والمتعلمين فطهرت الضرب من هوانه ، وجعلته ألماً لا تتبعه ذلة أو شهاتة .

ان الذي يعلم عن أمهات العظاء المصريين في القرن الماضى لقليل جد قليل ، ولكنا لا نحتاج إلى غير ما نعله لنعلم ان السيدة « مريم » رحمها الله كانت أمّاً جديرة بنجلها العظيم . فهي في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها عرفت كيف يكون الحنو الرشيد على الصغير اليتيم ، وعرفت كيف تحنو بالقسوة كما تحنو بالرحمة ، وعرفت كيف تغض عنه كما تهش له و تقبل عليه و تبتلت وهي في عنفوان الشباب لتعكف على تربية بنيها الصغار في غير شاغل يشغلها عن هذه الفريضة النبيلة . ولا شك أن سعداً قد ورث عنها كثيراً من مواهبه العقلية والنفسية ، واستمد هنها كثيراً من البأس والإصالة ، وقد سئل في شيخو خته عن بعض ما بلاحظ عليه من التراوح بين الحماسة والاناة والثورة والحكمة فقال : « ان خلق والدي هو الذي يتجلى في حينها والمدرة على ضبط النفس ، فكانوا يحتكمون اليها فيا بينهم من خلاف والقدرة على ضبط النفس ، فكانوا يحتكمون اليها فيا بينهم من خلاف ويرجعون إليها في القضايا والمشاكل . فذاك هو خلق والدتي الذي يتجلى في عند ما ترونني أشير بالتريث والاناة . »

ومن كمال عقل هذه الأم ولا ريب أنها ، وهي بنت الريف في ذلك العصر المتخلف ، كانت تنزل في بيت ولدها العظيم بالقاهرة بين عقائل الأسر اللواتي نشأن على التربية العصرية والمعيشة التركية فلا تشعر بينهن بغرابة ولايشعرن منها بغرابة ، لأنها رزقت من رجاحة العقل وكرامة النفس ما يبوثها مكانة التوقير في كل بيئة وعند كل طبقة . وقد عاشرت كنتها الناشئة

على أحدث ماتكون ثقافة العصر الحديث فاتصلت بينهما صلة الرعاية والمحبة وماتت بين يديها ودفنت في مدفن أبيها ، بعد مرض طال عليها وأضناها وصبرت عليه صبرها المأثور من صباها، وقيل انه هو السرطان .

لقد كانت ولا ريب ذات قسط عظيم من مجد ولدها العظيم ، وكانت ذكر اه لها شهادة من قرارة نفسه بفضلها ، فقد كان يذكرها الى أخريات أيامه كلما عرضت مناسبة للكلام عنها ، ومن ذاك أنه عزى صحفياً مشهوراً في فقد أمه فجاءه الصحفي يشكر له عزاءه ، فأطرق متأسياً وقال له : « يا فلان . هذا مصاب عرفته قبلك . ان فقد الأمهات خطب وجيع ، وانهن حقيقات منا بكل حب ومبرة ، لأنهن يخلصن لنا الحب ويقبلن مناكل شي. »

وليس حب الآبناء للأمهات بغريب ، ولكننا لا نحسب القلب الكبير يصون فيه حبًا طويلاً لانسان دون أن يكون ذلك الانسان مستحقًا له بالعدل وحسن التقدير ، ولو كان من الأمهات .

دخل سعد المكتب في نحو السادسة وانتهى منه في نحو الحادية عشرة . ووضحت عليه في تلك السن الغضيرة خصلتاه اللتان امتاز بهما في جميع أدوار حياته – وهما الفهم والعزم – فكان يصحح كتابة اللوح من قراءة واحدة ، ويفرض على نفسه من الواجبات فوق مايفرضه المعلم ، فيعيد في كل يوم ثلاثة أرباع المصحف وهو لايطالب بأكثر من إعادة ربعين ، حق حفظ القرآن حفظاً جيداً ولم يبق له ما يتعلمه في مكتب البلدة ، فتردد سنتين أو ثلاثاً بين رشيد ومطوبس يحضر على الشيخ احمد أبي رأس الذي توفي أخيراً وهو شيخ معهد دسوق ، ويدرس النحو والفقه ويتلق أحياناً أصول التجويد بالجامع الدسوقي والقراءة على الشيخ عبد الله عبد العظيم المقريء المشهور فيه ، ثم صحت النية على إرساله من هذه الجوامع العظيم المقريء المشهور فيه ، ثم صحت النية على إرساله من هذه الجوامع الصغيرة إلى الجامع الازهر الكبير ، وهو قبلة طلاب المعارف الاسلامية الصغيرة إلى الجامع الازهر الكبير ، وهو قبلة طلاب المعارف الاسلامية

في مشارق الأرض ومغاربها ، وغاية ما يطمح إليه الفتى المتطلع إلى مقام الأمامة الدينية .

طرب ســـعد لهذه الرحلة كما يطرب كل ناشيء إلى رؤية الجديد من البلدان والجديد من الناس ، ولا سيما القاهرة التي اجتمع لها من سحر السمعة وخلابة الأوصاف كل ما يشوق نفس الريني المتشوف الطموح.

وكان للأزهر في الاسماع سحر كسحر القاهرة أو يزيد ، فهو مجتمع السادة علماء الاسلام الذين تروى عنهم الكرامات و تضرب بتقواهم الأمشال ، ينتهي إليهم فخر السلف الصالح وتراثه من العلم اللدني والعلم المنقول ، ويتوافد عليهم الطلاب من تخوم الصين إلى عبر الإطلس ، فما أسعد الناشيء الذي يتاح له أن يشهد عجيبة القاهرة وعجيبة الأزهر في رحلة واحدة . وما أحق سعداً على ما فيه من تشوف وطموح أن يطرب لذلك النأ السعد .

وينبغي أن ننسى الآن كثيراً وأن نذكر كثيراً لنقدر الأزهركما كان يقدره أبنا مصر قبل مائة سنة .

فعندنا الآن مدارس ابتدائية في معظم البلدان الصغيرة ، وعندنا مدارس ثانوية فى معظم عواصم الأقاليم ، وعندنا مدارس عليا وعلماء مشهورون فيها ، وعندنا أقدار رفيعة ومراتب شريفة لأولئك العلماء المشهورين ، وعندنا ألوف من التلاميذ يتزاحمون على أيواب المدارس ويغبطون أنفسهم على نعمة الظفر بالقبول ، ويستطيعون أن يتدرجوا في طلب العلوم العصرية من مكتب القرية إلى الجامعة المصرية ، أو جامعات أوربا الكبيرة .

عندنا ذلك كله الآن فينبغي أن ننساه كله لنفهم الباعث الذي أوحى إلى آل سعد أن يرسلوه إلى الازهر دون غيره ، وأوحى إلى نفس سعد أن تغتبط بهذه القسمة وترتاح إلى هذه الامنية .

فلم يكن في إقليم الغربية على إتساعه مدرسة ابتدائية واحدة على النظام

الحديث يوم ان دخل سعد مكتب القرية ، ولم يكن في القطر من المدارس الثانوية غير اثنتين إحداهما في القاهرة وهي المدرسة التجهيزية بالعباسية التي أسست في سنة ١٨٦٣ وسميت بعد ذلك بالمدرسة الحديوية ، والآخرى في الاسكندرية وهي مدرسة رأس التين التي أسست في السنة بعينها .

ولم تنشأ دار العلوم ، التي تشبه الأزهر في بعض دروسه الا بعد قدوم سعد إلى القاهرة بسنة .

ولم يكن على أبواب المدارس القلائل طلاب يتزاحمون ، بل كان الطلاب وآباؤهم يصدفون عن أبوابها ويهربون من واد الحكومة وهم يجوسون القرى لاختيار النجاء من الاطفال وإلحاقهم بالمدارس والبعثات . إذ كانت الحكومة متهمة في قلوب الرعية لا تؤتمن على شيء بله الانتهان على الابناء ، وكان متهمة في قلوب الرعية لا تؤتمن على شيء بله الانتهان على الابناء ، وكان به الى البلدان السحيقة بلاأجر ولاعناية ، وكان من الناس من يخاف المدرسة الحديثة على دين ابنه كما كان يخافها على حياته وسلامته ، لانها كانت موضع ريبة بين جماعة الفقهاء الجامدين وجهرة الامة على الاجمال ، ولما تبددت هذه الأوهام لم تتبدد الا على بطء وكراهية ومقاومة ، ولم تكن الفئة المحدودة التي عرفت حقيقة التعليم الحديث وشاهدت بعض فوائده الفكرية والدنيوية بقادرة على اعداد الابناء له من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية إلى العالية ، لندرة المدارس في أنحاء الريف وصعوبة إرسال الابناء الصغار إلى الحواضر البعيدة فاختيار السحد للتربية الازهرية ليس بغريب في ذلك الزمن بل هو الاختيار القريب المعقول ، نعم انه لم يكن بالاختيار الوحيد المستطاع ولكنه كذلك لم يكن أقل من غيره في النفع والسداد .

وكاتما جا. سعد والاصلاح إلى الازهر على موعد .

فقد جاءه في سنة ١٨٧١ ، وهي السنة التي تولاه فيها الشيخ محمد العباسي المهدي وشرعفي تنظيمه وتجديده ، فانشأ فيه بعدولايته المشيخة بسنةواحدة لجنة لامتحان الطلاب وإعطائهم اجازة العالمية ، ولم يكن لهذه الاجازة نظام قبل ذلك .

وفي هذه السنة أيضاً قدم السيد جمال الدين الأفغاني إلى القاهرة ، وقدمت معه تلك الدعوة الجريئة الميمونة التيكانت تسير معه حيث سار.

لقد كان التعليم في الأزهر يومذاك تعليمين ، وكان الجاورونفيه فريقين ;

فريق المحافظين على القديم ، وفريق النازعين الى الجديد ، أو فريق الماضين على ما وجدوا عليهم آباءهم . وفريق المختارين لانفسهم بهدايتهم وحسن توفيقهم .

وكان على سَعد أن يختار لنفسه بين الفريقين، فالى أيهما جنح ؟ ومع من منهما التي بمصيره ومستقبل حياته؟

إن الفصل في هذه المسألة التي تتناول فيا تناولته مذاهب السلف والخلف معضلة كثيرة الشعاب تحتاج إلى عقل أوسع وأعلم من عقل يافع في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على أكبر تقدير ، ولكنها لا تحتاج إلى طبع أكبر من ذلك الطبع ولا بديهة أعلم من تلك البديهة ، فحسب اليافعان يكون ذا طبع يختار لنفسه وينفر من الاملاء عليه ليهجر الفريق الذي يمضي في طريقه مغمض العينين ويجنح إلى الفريق الذي يفتح عينيه ، ويعتمد على رأيه في الاختيار .

وهكذاكان سعد ، وهكذا اختار .

لقد تهدَّى إلى طريقه بوحي من البديهة في تلك السن الباكرة ، ولكن عقله فسر لنا بداهته بعد خمسين سنة ، فقال في خطبة القاها بالأزهر بعد عودته من أوربا فى سنة ١٩٢١ :

« جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة ، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة ، تلقيت فيه مبادي. الاستقلال لآن طريقته في التعليم تربى ملكة

الاستقلال في النفوس ، فالتلميذ يختار شيخه ، والاستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ . الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه . ومتأهل له : يوجه اليه كل منهم الاسئلة التي يراها . فان أجاب الاستاذ وخرج — التلميذ — ناجحاً من هذا الامتحان كان أهلاً لأن يجلس مجلس التدريس ، وهذه الطريقة في الاستقلال التي تسمى الآن خللاً في النظام جعلتني أتحول من مالكي الى شافعي حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفاً من غيرهم.»

* * *

وامتحن سعد أساتذته كما قال فعرف الأساتذة الناجحيين الكفيلين بالنجاح ، وما نظن أستاذاً أنصف في امتحان تلاميذه كما أنصف هذا التلميذ الصغير في امتحان أساتذته الكبار ، وأي امتحان للأساتذة وزملاء الدراسة كان يؤدي إلى انتقاء معلمين أفضل من مجهد عبده وجمال الدين ؟؟ أو انتقاء زملاء في الأزهر وخارجه أفضل من اللقاني وأبي خطوة وعبد الكريم سلمان وأديب اسحق ؟

ومن ذلك الحين التي سعد بسهمه على سهام دعاة الاصلاح غير مبال بالعواقب ، واشترك في حركة الاصلاح بالقسط الذي استطاعه في أثناء الدرس والطلب ، فألف جماعة من إخوانه الطلاب لاصلاح الآزهر وكتب منشوراً علقه في سواد الليل على أعمدة الجامع يبين فيه مواضع الحلل ووسائل العلاج التي تنجع في إصلاحه ، وثابر على حضور الدروس بين يدي الشيوخ النافعين من أنصار الجديد . فحضر « القطب على الشمسية » وبعض كتب التوحيد على الشيخ محمد عبده ، واختلف إلى مجلس السيد جمال الدين في داره بخان أبي طاقية حيث كان يجلس لتعليم تلاميذه بعد أن ولي مرة « هذا بغيتي ! » وان السيد جمال الدين استكتب تلاميذه موضوعًا كول مرة « هذا بغيتي ! » وان السيد جمال الدين استكتب تلاميذه موضوعًا عن الحرية فأجاد سعد في كتابته إجادة فاق بها أقرانه وأعجب بها أستاذه

فقال السيد « مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر أن يحيد في الكتابة عنها هذا الناشي..»

وخير ما استفاده سعد من جمال الدين — فيا نعتقد — هو هدايته إلى معرفة نفسه وهدايته إلى التعبير عن تلك النفس في صور الخطابة والبيان. فقد كان جمال الدين زعيم حركة إصلاحية لابد لها من دعاية بالقول والكتابة ، فكان هو يدعو ويحب أن ينشر الدعوة على السنة تلامية ومريديه ، ومن ثم اتجه سعد إلى الخطابة والكتابة ، وسبر غور نفسه حين اشتغل بالتعبير عنها في كلام مسموع أو مقرو ، وأقبل على المطالعة إقبال من يريد أن يفهم و يفهم . فما هو إلا أن قرأ كتاب ابن مسكويه « في تهديب الأخلاق » حتى تجرد لتلخيصه — وهو دون العشرين — ونشط للكتابة في الصحف والخطابة بين الاخوان ، فكان ذلك خير تعريف له لمكتابة في الصحف والخطابة بين الاخوان ، فكان ذلك خير تعريف له بملكاته العقلية وملكاته البيانية ، أو خير هداية له إلى « معرفة الذات » بملكاته العقلية وملكاته البيانية ، أو خير هداية له إلى « معرفة الذات » والتعبير عنها بالاقوال والإعمال .

وقد كان على رأس الوزارة في ذلك العهد وزير خطيبير من رجال الأريحية والهمة الذين يبرزون في عهود الظلم والاستبداد لأن الاستبداد مملك سلطان الخير والنية الحسنة كما يملك سلطان الشر والنية السيئة وكان رياض يبجل جمال الدين ويحتنى به ويرجو النفع لهذا البلد من أعماله وأعمال مريديه . فرتب له عشرة جنيهات مشاهرة ، واستعان بمريده الأكبر الشيخ محمد عبده على تحرير «الوقائع المضرية » صحيفة الحكومة . فاحتاج الاستاذ إلى مساعدين له في عمله ، ولم يحمد بين تلاميذه من هو أقدر من سعد على المساعدة في هدفه المهمة . فسعى في تعيينه لتحرير القسم الادبي بالصحيفة المساعدة في هدفه المتعين في خامس اكتوبر سنة ١٨٨٠ بمرتب شهري الحكومية . وتم هدذا التعيين في خامس اكتوبر سنة ١٨٨٠ بمرتب شهري رجل ظهر له امتياز نادر في علم أو صناعة ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية رجل ظهر له امتياز نادر في علم أو صناعة ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية

حجيفة الثورة الفكرية ، تنطق بمبادئها ، وتنحي على الاستبداد ، وتبشر بالحرية والشورى !

لقد كان محمد عبده أستاذاً لسعد في الدرس وقدوة له في الخلق ، وكان سعد بدن له بالاستاذية ويكتب إليه بعد نفيه إلى سورية في أعقاب الثورة العرابية كتابة التليذ الأمين المخلص إلى الاستاذ الموقد المحبوب المعترف له بالفضل والتقدم . فاذا قابلنا في هذا المقام بين أسلوب محمد عبده وأسلوب سعد في أوائل عصر النهضة الكتابية فليس من همنا أن نفاضل ونعادل ، وإيما نريد أن نبين مكان سعد من استقلال الطبع وقدرته اللدنية على الاتجاه بفكره إلى قصده على استواء لا يعوقه زخرف اللفظ وقبوده . فانظر مثلاً إلى الاستاذ الامام وهو يقول في مقدمة رسالة الواردات « الحمد لله الواجب وجوده ، العام جوده ، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكما. العالم ، ومن هو لأساطين الألهيين خاتم ، أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله ، الناشي. باقليم مصر بقرية تسمى محلة نصر ، خادم خدمة الحـكمة، المعرض عن نحو الـكلام والكلمة ، المتخلى عن قيد لباس الطوائف ، إلى فضاء اقتناص صيد المعارف ، إني كنت مُشتغلًا بطلب العلوم ، فبينها أنا حول الرياض أحوم ، إذ عثرت با~ثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبًّا ولكن لم أجد من هي له طوية ، فحرت في أمرى ، وأخذت أجيل فكري ، وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام ، أو قد نهى عنها علمــــا. الكلام وبينها أناكذلك إذ أشرقت شمس الحقائق فوضحت لنا بها رقاق الدقائق ، بوفود حضرة الحكم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد جمال الدين الافغاني لازال لثمار العلوم جانية. ه

إلى آخر المقدمة ، وكلما على هذا النمط الذي يـكاد يلتزم السجع في كل جملة ، وفى كل فقرة من جملة . فهذا أسلوب كان شائعاً في ذلك العصر ، وكان الشيخ محمد عبده يلتزمه في المقدمات أحياناً وفي الفصول من بدايتها إلى نهايتها أحياناً أخرى ، ولعل عذره مر ذلك أنه كان أقدم أصحابه عهداً بالدراسة العتيقة ، فان كان هذا عذراً له فليس هو بعذر للكتّاب الآخرين الذين لم يطيلوا الدراسة على النظام العتيق وكانوا يلتزمون ذلك الإسلوب في غير المقدمات ، وظلوا على النزامه إلى مابعد الثورة العرابية بسنين .

أنظر إلى هذا النحو من الكتابة في أول مقدم جمال الدين وانظر معه إلى النحو الذي نحاه سعد حوالي ذلك الوقت في فصوله بالوقائع المصرية ، ومنها فصل عن الشورى يقول فيه :

ه المستبد عرفاً من يفعل مايشا، غير مسئول ، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه ، ناسب السنة أو نابذها . ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو مايضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم به وكثرة ماجلب على الامم والشعوب من الاضرار ، وحق لحم النفور والاشمئزاز . إذ لم ينالوا من جرائه إلا وبالاً ، ولم يلقوا من أحكامه إلا نكالاً . بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلماً وتؤكل فيه الاموال أكلاً لماً . وتسفك الدما، زوراً وتدمر البلد تدميراً ، فلا تثريب عليهم إذا كرهوا سوقه في سياق المدح ، ولو يراد به غير ماعرفوه .

« ولقــد تبين لك بما قدمناه أن الشريعة لا تبيحه ؛ وإنها توجب تقيــد الحاكم بالسنة والقانون.

ر ومن البديهي الواضح أن نصوص الشريعة لا تقيدالحاكم بنفسها فانها ليست إلا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها ، أو مدلولاً عليها بنقوش مرقومة في الكتب. ولا يكني في تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد في ذلك من وجود أناس يتخلقون ممانيها ويظهرون بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عها ويحضّونه على

ملازمتها ويحثونه على السير في طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضي الله عنه الناس في خطبته إلى تقويم ماعساه يكون منه من الاعوجاج فى تنفيذ أحكام الشرع الشريف . وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) إذ لا ينفي أن هسنده الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم إلى الخير ، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده ، عالم كان أو محكوماً ، وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم ، بل للوجوب والفرض على ماصر ح به العلماء ، وقد فرض على الأمة الاسلامية أن تقوم منها أمة أي طائفة و وظيفتها الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ حفظاً للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتسدون وصو نا كلاحكامها من أن يتعالى علمها ذو و الشهوات.»

** *

همذه فقرة من فصل « الشورى » تعمدنا أن تكون أكثر الفقرات سجعًا وتقفية في فصول سعد عامة ، فن يقرأها لا يسعه إلا أن يعجب لقلة النزام السجع فيها على النحو الشائع بين كتاب ذلك الزمان ، ومنهم استاذه ورئيسه في تحرير الوقائع المصرية ، فأن السجع فيها يعرض نفسه عرضا ويؤدي معناه كأداء الترسل المطلق بغير تكلف ولا تصيد ، وهو انطلاق من قيود العرف له دلالة بعيدة المدى لا تتحصر في الملكة اللغوية أو البيانية ، بل تدل على العقل والخلق وملكة التعبير في وقت واحد ، وتنبيء عن نفس يتمكن منها معناها فتتجه اليه قدماً بغير التفات إلى الحواشي والنوافل ، وان استلزمها العرف وفرضتها العادة بغير التفات إلى الحواشي والنوافل ، وان استلزمها العرف وفرضتها العادة

* ***** *

لقدكان لقاء سعد لجمال الدين مرحلة في حياته ، لأنه وجهه إلى وجهته وأقامه في مقامه بين طلاب الاصلاح .

ولقد كان اشتغاله بالوقائع المصرية مرحلة أخرى ذات شأن عظيم في تاريخ حيائه كله ، لأن العمل فيها لم يقتصر على تصحيح العبارات وكتابة المقالات الأدية ، بل تناول نقد أحكام المجالس الملغاة وتلخيصها والتعقيب عليها ، فتفتحت أمام سعد أبواب الدفاع القانوني والدراسة القانونية ، وأبواب الدفاع السياسي والأعمال السياسية ، وهي الوجهة التي صمد عليها بقية حياته ، وتم عليها تكوينه و تثبيت مواهب عقله ، ولم يلبث على الاشتغال بها غير قليل حتى ظهرت كفاءته في نقد الاحكام وفهم مباحث القانون وما يقابلها من الشريعة ، فانتقل إلى وظيفة معاون بوزارة الداخلية مرتبها في الشهر خمسة عشر جنيها ، ثم انتقل إلى وظيفة ناظر لقلم قضايا الجيزة في ديسمبر سنة ١٨٨٨ عشر جنيها ، ثم انتقل إلى وظيفة ناظر لقلم قضايا الجيزة في ديسمبر سنة ١٨٨٨ وهي كا قال في خطبة ألقاها عند اختياره لمنصب القضاء : « أشبه بوظيفة القاضي ، إذ كان من خصائصه أن يصدر الاحكام في كثير من المواد الجزئية » .

وشاءت المصادفات أو التوفيقات التي أشرنا اليها في مستهل هذا الفصل أن تكون هـذه الآيام فاصلاً بين عهدين في حياة سعد ، وفي حيـاة الأمة المصر بة .

فنقلته الوظيفة من الآزهر إلى الحكومة ، ومن العامة إلى الطربوش ، ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية .

ونشبت الثورة العرابية في تلك الا يام، فانتقلت مصر بأسرها من حال إلى حال ، وانطوت في تاريخها صفحة معلومة وبدأت فيه صفحة مجمولة وقدر لهذه الصفحة المجهولة أن تعود فتلتق بتاريخ سعد في صفحة واحدة .

سعد من الثورة العرابية إلى الوزارة

أخذ القرن التاسع عشر حصته من مصر كما أخذها من أمم كثيرة ، فثارت مصر في أواخر القرنكما ثارت أمم البحر الأبيض المتوسط في بعض سنواته الاولى أو الانخيرة ، ولم تثر إلا كعادتها في كل ثورة : أي حين أزعجها الخطر في عقائدها كما أزعجها في مصالحها ، وخولفت أحكام دينها كما خولفت أحكام العقل في سياستها ، فهانت الاثرواح وضاعت الحرمات وكسدت الأعمال وغاض معين الأرزاق ، واستنزفت الحكومة أموال الرعية جباية ونهباً واحتيالاً حتى لم يبق لها ما يستنزف . فكان الفلاح عاجزًا عن سداد الضرائب المنوعة مرة في العام وهي تجيمنه مرات لتنفقفي البذخ والسفاهة ، أو ليؤدَّى بها بعضربا الديون الآجنبية التي أنفقت قبل ذلك في البـذخ والسفاهة : ظلم وإسراف وربا وفجور ومخالفـــــة دين من جميع الوجوه.... وكان الحكام الذين جنواكل هذا وجروا علىالناس الخراب والضياع يتيهون كبرأ واختيالًا كانهم أحسنوا الحكومة كل الاحسان وأسبغوا على الرعية نعمة الرغد والأمان . ويستكبرون على المصرى أن يشكو ويستنصف لأنه فلاح مخلوق للسخرة والشقاء 1 إ وما بهم في حقيقة الامرمن كبرعنصري ولا كراهية لعنصر الفلاح المصري ، ولكنها الجهالة تسول لهم ما استمراوه من المظالم وتعميهم عما يجرونه على أنفسهم وعلى غيرهم من الضنك والبلاء ، فلو أنهم كانوا حكامًا في بلادالترك أو الجركس أو الإرمن أو مقدونية لظلموا إخوتهم وأبناء عمومتهم هذا الظلمو تصلفوا هذا الصلف: كما كان أمثالهم يصنعون هناك في ذلك الاوان ، ولكنهم لسخفهم وغبائهم أبو إلا أن يصبغوا الظلم بصبغة الحزازة العنصرية والاهانة القومية ، وان الظلم وحده لـكاف للتنفير والتخريب .

هبت الثورة العراية كما تهب العاصفة بعد طول السكينة ، فاشتركت فيها من الأمة كل قوة فكرية أو عسكرية ، وشايعها الجامدون والمصلحون على السواء ، لأن المظالم والمفاسد لم تدع للمصريين سلوة يتعزون بها أو مهرباً يثوبون اليه ، فمستهم مستاً عنيفاً في إيمانهم الديني وفي مصلحتهم الوطنية وفي نخوتهم القومية وفي أرزاق الإفراد وما يغارون عليه من حرمة مصونة ، ومن خصائص الطبيعة المصرية في هذه الثورة ان رجال الدين والأزهريين جملة كانوا على رأسها وفي طليعة دعاتها ، خلافاً لرجال الدين في كل ثورة داخلية ، فان الطبيعة المصرية على ما نظن لم تكن لتسيغ ثورة ليس فيها داخلية ، فان الطبيعة المصرية على ما نظن لم تكن لتسيغ ثورة ليس فيها داخلية ، مكان .

لم تفلح الثورة العرابية لآنها أحيطت بدواعي الحبوط من الدسائس الخارجية ، ومن خطل الزعامة ، وعبث الدولة العثمانية،

ولولا ذلك لسارت في طريق أقوم من طريقها وانتهت إلى مصير خير من مصيرها ، ولكنها تعرضت لذلك جميعه فانتهى أمرها إلى الهزيمة ، وكانت نهايتها بداية احتلال أجنى للبلاد .

واعقب الثورة ما أعقبها من نكال وانتقام ، ومن تجسس وسعاية ، ومن خيانة الأصحاب ومكائدالاعداء . فنكصت الاخلاق شرنكوص ، وران اليأس على الضمائر ، فمات فيها رجاء الحير أو كرب أن يموت .

* * *

اشترك سعد في الثورة كما اشترك فيها أساتذته وبمضرملائه ، وناله من أذى الاعتقال بلاء غير يسير ، وخسر وظيفته وبات في مرصد الشبهة من أنظار الحكام ، أعداء العرايين .

وكان في وسعه — لو رضي ضميره — ان يعتذر ويتزلف كما اعتذر وتزلف مئات وألوف ، وان ينفض يده من أصدقائه المهزومين ويتراى في أحضان أعدائهم الغالبين ، ولكنه أبي لرجولته ان يسومها هذا السوم ، وكره لخلائقه ان توصم هذه الوصمة ، وظل على وفائه لأصدقائه المبعدين يراسلهم ويراسلونه ، ويعتمدون عليه في قضاء شئونهم فيقضيها لهم جهد مايستطيع ، وفي تاريخ الاستاذ الامام رسائل كتبها سعد إلى الاستاذ بمنفاه يتبين منها ألمه وعزاؤه وحالة النفوس والضهائر يومذاك ، وفي إحداها وهي مكتوبة في أواخر سنة ١٨٨٨ يقول :

« توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسألته اعارته ، فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يرده اليه ، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام ويقول إنه مستعد لحدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسيًّا كان أو معنويًا ، وسأتحرى هذا الكتاب في كتب سامي عند بيعها فاذا وجدته فيها اشتريته في الحال وأرسلته إلى حضر تكم أو أحضر تهمعي إن وافق ذلك استجاعي لوسائل السفر . والحال العمومية على ما تركتها ، غيرأن الناس أخذوا في نسيان مافات من الحوادث وأهو الها ، وقلت قالتهم فيها ، وخفت شهاتة الشامتين منهم ، وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم . وبالعكس . والكثير يتوقع انقلاباً أصليًا والله أعلم بما يكون ،

وفي رسالة أخرى يقول — ويعني الشيخ عبدالكريم سلمان — « أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبدالكريم الفاضل ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين . ولوبلا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ومن وثوقه بي فيما أدويه لكان الاسف مضاعفاً .

« أني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا للشيخ ، وماسمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خـبر الاعتراف باليمين المعروف » الا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف »

ومن هاتين العبارتين يبدو لنا مبلغ وفاه سعد ومبلغ الثقة به في نفس الاستاذ الامام ، حتى أنه كان يرجع اليه في عتبه على خلصانه المقربين اليه ، ويبدو لناكذلك أنسعداً فكر في كل شيء بعدنني أصحابه ــ حتى الهجرة من مصر ــ ولم يفكر في التقلب ومصانعة الاحوال ، ونسيان الاصدقاء .

وقد خطر له أن يستعيد وظيفته أو وظيفة غيرها في الحكومة فاذا بهم يسومونه من التزلف والتنكر ما لا يطيق، فعدل عن التوظف وقبِل أن يحترف المحاماة ، وفضل هذه الصناعة على انتظار الوظيفة بالتشفع إلى هذا واستعطاف ذاك .

ونقول « قبل أن يحترف المحاماة » لأن المحاماة يومئذ لم تكن بالصناعة الشريفة التي نعرفها اليوم » وإنما كانت صنايجة وضيعة مبندلة يشتغل بها من لا يحسب « المرافعة » إلا مجالاً للبذاء وطول اللسان » ومن لا يحسب النجاح في القضايا إلا ضرباً من الاحتيال و « الشطارة » يغش به القاضي و يغش به الحصم و يغش به الموكل ، و يعتمد فيه على الكذب والمراوغة والاختلاس ، ولم تكن للمحامي منزلة في نظر القضاء ولا في نظر العلية ولا السواد ، بل كانت كلمة من القاضي تمكني لفصله ، وكان كل رجل « مستور » الحالة يأنف من معاملته فضلاً عن مزاملته ومصاهرته ، وكان اسم المحامي مساوياً لاسم المزور كما قال سعد . فا تصل بهذه الصناعة « والحنجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها » وقال في خطبته التي شكر بها من كرموه لتعيينه في مناصب القضاء قال : « اني اشتغلت بالمحاماة متنكراً عن أهلي وأصحابي . مناصب القضاء قال : « اني اشتغلت بالمحاماة متنكراً عن أهلي وأصحابي . خاسرين اوجلة القول أنني كنت أجتهد أن لا يعرفني إلا أرباب القضايا وان خاسرين اوجلة القول أنني كنت أجتهد أن لا يعرفني إلا أرباب القضايا وان كنت أجهل ماذا تكون العاقبة . »

رضي سعد أن ينتمي إلى طائفة مزدراة ولم يرض أن يكون هو نفسه أهلاً للازدراء ، بالتنكر لاصحابه والترامي على إقدام أعدائه .

ولم يخف موقفه هذا على أناس من أعدا، الثورة العرابية كانوا لايفرقون في العداوة بين الملوم والمعذور والمدين والبري، الانهم كانوا بمرصد لكل مابتي من آثارها وآثار دعايتها ؛ وكان الثائرون أو المتهمون بالثورة بين منني أو سجين أو قتيل ، وكانت الدولة البريطانية قابضة على ناصية الامور ، ومع هذا لم تزل الرجفة في قلوب أعدائهم يخافون ولا يهدأون ويظا ون الى الانتقام ولا يرتوون . وغاظهم مر سعد وبعض إخوانه أنهم لم يتزلفوا ولم يستغفروا ، واستكبروا مافي ذلك من التحدي لهم وقلة المبالاة بانتصارهم ، وما فيه من الانذار بعواقب هذا الاصرار ، وما عسى أن يختبي وراء من النيات والافكار ، فظلوا يترقبون الفرصة السانحة أو يترقبون خلقها إذا هي لم تسنح كما مرومون .

ونمي اليهم — أو زين لهم الوهم — أن سعداً وزميله في مكتب المحاماة حسين افندي صقر قد ألفا جماعة سرية سمياها « جماعة الانتقام » لقتل الشهود والجو اسيس الذين خانوا الثورة العرابية والرؤساء الذير نكلوا بالعرابيين ، فألقوا القبض عليهما وأحالوهما إلى المحاكمة ، وشكلت للنظر في قضيتهما لجنة مختلطة أسندت رئاستها إلى القاضي البلجيكي فلمنكس «Flaminx» واشترك فيها حسين بك واصف و حامد بك محمود و محمود بك سالم و مسيو دي هولتز Deholtz الذي زامل سعداً بعد ذلك في دوائر محكمة الاستئناف و ندبه المستشارون للخطابة في الاحتفال الذي أقاموه لتوديع سعد عند اختياره للوزارة . وكان فلمنكس ودي هولتز من القضاة الإجانب المندوبين اختياره للوزارة . وكان فلمنكس ودي هولتز من القضاة الإجانب المندوبين اختياره للوزارة . وكان فلمنكس ودي هولتز من القضاة الإجانب المندوبين الحسلاح النظام القضائي و تنظيم الحاكم الأهلية .

فلما نظرت اللجنة في التهمة لم تعثر بدليــل ولا شبه دليل ، ولم تجــد بدّاً من تبرئة المحاميّين المتهمّين .

ولكنهما بقيا معتقلين بعد إعلان البراءة أكثر من ثلاثة أشهر ، لأن الحكومة عزمت على نفيهما إلى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشك

محافظ العاصمة أن يكتب المذكرة بطلب نفيهما لعرضها على مجلس النظار، وأوشك الآمر بالنفي أن يصدر لولا أن وزير الحقانية في ذلك العهد حسين فحري باشا عارض فيه، وقال ان صدوره بعد حكم البراءة يعد تحديًا للقضاة الأجانب الذين جيء بهم لتنظيم القضاء في البلد.

فتأخر النغي وبتي السجينان معتقلين ، ولبثا في السجن إلى أن اتصل خبر القضية بالمستر ماكسويل النائب العام فعجب لهذا التصرف المريب ، وأمر بالافراج عنهما على الفور .

* * *

عاد سعدالى المحاماة بعدخروجه من السجن. عادالى الصناعة المكروهة التي لا محيص عنها ؛ فاذا أردنا أن نعرف كيف تكون « الكرامة الشخصية» كافية وحدها لتكريم صاحبها على الرغم من ضعة الصناعة التي ينتمي اليها وشيوع العرف باحتقارها بين علية الناس وسوادهم. فسعد زغلول في صناعة المحاماة هو المثل البارز لتلك «الكرامة الشخصية» أو تلك الكفاءة القوية ، التي لا تحتاج إلى سند من غيرها لتعلو وتنبه وتستكمل قسطها من المبالاة والتجلة والعرفان

فبالكرامة الشخصية وحدها أصبح المحاي سعد زغلول أهلاً لمعــاشرة الامراء والاميرات على سنة المساواة ، في زمن كانت فيه حدود الطبقــات كمحارم الدين التي لا تأذن بسماح ولا هوادة .

وبالكرامة الشخصية وحـــدها اصبح المحامي سعد زغلول أهلاً لو لاية القضاء. في زمن كان فيه المحامي كالخادم عند القضاة ، وكانت كلمة واحــدة من القاضي تكنى لحرمانه حق الاشتغال بهذه الصناعة .

لم تهبط صناعة المحاماة بسعد زغلول كماكان يخشى ، بلكان سعد زغلول هو الذي ارتفع بصناعة المحاماة ، وهي معجزة خارقة لما اعتاده الناس ،

ولكنه لم يتكلف لهــا إلا ما تعو د من عادة الجد والامانة والعزة ، أو من طبيعة الجد والامانة والعزة التي طبع عليها .

كل ما صنعه لتقرير مكانته وتقرير مكانة المحاماة من أجله أنه كان سعد زغلول ولا زيادة. وقد سأله أحمـــد بليغ باشا في لجنة الامتحان : ما هي واجبات المحامي ؟ فقال : درس القضية جيداً ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضـــا.

وهذا كان كلامه وهذا كان عمله من يوم أن اشتغل بهذه الصناعة ، فلم يقبل قط الدفاع عن باطل ، ولم يرفض قط الدفاع عن حق ، ولم يحضر قط في جلسة إلا وقددر سجميع القضا يا التي حضر للمدافعة فيها ، دراسة لا يستدرك عليها القضاة ولا وكلاء النيابة ولا الخصوم نقصاً أو اهمالاً في موضع من المواضع . وكان من عادته إذا عرضت فرصة للصلح أن ينتهزها و يشجع موكله عليها برد « مقدم الا تعاب إليه » . فكان يقيد « مقدم الا تعاب » في باب الموارد ليتي نفسه ضعف نفسه كما كان يقول . حتى إذا الرد الموكل الصلح رد إليه ماله وقال له : هذه أمانتك ردت إليك .

واشتهرت أمانته وإخلاصه في عمله بعد فترة وجيزة ، فملات شهرته القطر من أقصاه إلى أقصاه ، وأصبح توكيله في قضية مدنية أو جنائية ضماناً لكسبها وخذلان خصومه فيها ، وو ثق به القضاة فأصبح قبوله القضية بمثابة حكم قاطع فيها ، وحرص كل صاحب دعوى على أن يكون سعد معه ولا يكون عليه . ومن المتقاضين من كان يوكله و يبذل له الآجر الوافر لارهاب خصومه باسمه ، ولو كان حقه أظهر من أن يحتاج إلى دفاع .

جاءه رجل من القليوبية يستحق عند آخر دينــا يبلغ الخسة والثلاثين جنيهاً بوثيقة مكتوبة . وكان المدين ينكر الدين ويستند في انكاره إلى ه مخالصة » مزورة بامضاء الدائن . فقال سعد لصاحب القضية : إن الامر لايحتاج إلى

محام، وإنك إذا اعتمدت على وثيقتك وطعنت بالتزوير في المخالصة الباطلة ضمنت الحكم بغير حاجة إلى توكيل يكلفك كثيراً أو قليلاً من المال. فأبي الرجل إلا وكالة سعد، ودفع له خمسة وعشرين جنيهاً مقدماً وهو يعد بدفع خمسة وعشرين أخرى عند انتهاء القضية ؛ وصدر الحكم كما كان ينتظر بالزام المدين مبلغ الدين كله والمصاريف ، وماهي إلا أيام حتى جاءه الرجل بالمبلغ المتأخر . . . فعجب سعد الأمره وسأله عن سر هذه الحكاية وهو الايصدق أن تاجراً رشيداً يكلف نفسه خمسين جنيها من أجل خمسة وثلاثين مضمونة كل الضان ، فقال الرجل : « إنني رجل كثير المعاملات ، وبين عملائي كثير المعاملات ، وبين عملائي كثير من المماطلين ، فاذا علموا أنك وكيلي استرحت من شرور كثيرة ، وخاف منم من يماطل ويطمع في الروغان أن يضطر الامحالة إلى سداد الدين ومعه مصاريف القضية ومصاريف المحامي سعد زغلول . فأنا الا أبذل المنسين بذالاً ولكني أفتدي الألوف بهذه الحنسين ! »

فسر سعد بهذه الثقة ، وأقسم على صاحب الدعوى ليردن إليـه مقدم أتعابه ، فقبله بعد تشديد طويل .

وجاءه وجيمه من اقليم المنوفية متهم بتزوير عقد يدعي به امتلاك ثمانية عشر فداناً لبعض أقربائه ، ورجاه أن يقبل الدفاع عنه فأبى كل الآباء ، ولم يقبل رجاءه إلا بعد اعترافه بالتزوير ، وكتابته إشهاداً على نفسه بالنزول عن الأرض لأصحابها ، يحفظه عنده ليسلمهم هذا الاشهاد بعد صدور الحكم بالبراءة ، وقذكان ما أراد .

كان هذا المثل القليل النظير – بل المثل الوحيد – كافياً للسمو بصناعة المحاماة عن مهانة الابتذال ، وتطهيرها شيئاً فشيئاً من أدعياتها الذين عرضوا للناس من صناعتهم أسوأ الامثال . فهذا محام يقيم الحجة ويكسب القضايا دون أن يشتم ودون أن يخون ودون أن يشتط على الموكلين ، فلا محل في الصناعة – مع هذا المشل – إلا لمن سار على هذه السنة وتخلق بهذه

الخليقة ، ولا رواج لمحام غير مستقيم بعدأن وجد أمام الناس مثل الاستقامة النافعة ، سواء عند المستقيمين وغير المستقيمين ، ماداموا من طلاب المصالح وأصحاب الحقوق.

ومن طرائف سعد ماحدثني به في هذا الباب ليقيم الدليـل على أن الاستقامة تبعث الثقة بصاحبها بين أهلها وغير أهلها ، وكنت قد دخلت عليه بعد ظهور نتائج الانتخاب سنة ١٩٢٦ أهنئه بفوزه . فسألني سؤاله المعتاد : ما أخبارك؟ أو ماقولك اليوم؟

قلت كلها أخبار خير يادولة الرئيس . شيء لم يكن في الحسبان . قال متهللاً أو ليس كذلك ؟ ثمم أبدى ثقته بعناية الله . وقال : إنها نتيجة لو توسلنا إليها بغير وسيلة القصد الصريح لما بلغناها .

وتبسط للـكلام كعادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الـكبيرة فقــــال :

« إن استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم . أذكر انني كنت في مكتبي أيام المحاماة وإذا بسيدة في زي نساء البيو تات تدخل المكتب وتحييني تحية الآدب والاحتشام ، فأشرت إليها بالجلوس والتفت إليها بعد أن فرغت من عمل الحاضرين أسألها : من السيدة التي شرفتني بهذه الزيارة ؟ قالت : محسوبتك ع . اسكندر اسم امرأة من صواحب البيوت المريبة المشهورة في ذلك الحين . فما سمعت ذلك الاسم حتى ثارت ثائرتي وعجبت الموكيل كيف سمح لها بالدخول وكيف اختار تني هي لقضيتها أو للمسألة التي قصد تني لاجلها . وخاطبتها بكلام قارص لم أرع فيه حق الانوثة . فلم تحر جواباً وتركتني أقول ماأريد . حتى إذا هدأت ثائرتي وسكت قالت لي : جواباً وتركتني أقول ماأريد . حتى إذا هدأت ثائرتي وسكت قالت لي : أتسمح لي بكلمة ؟ قلت تفضلي 1 قالت : إن الناس إذا رأوني عندك في قضية أتسمح لي بكلمة ؟ قلت تفضلي 1 قالت : إن الناس إذا رأوني عندك في قضية كان هذا شهادة الك لاعليك ، إذ لوكنت أنت من معارفي لما صدقوا انني أثق

بك وأثنمنك على المصالح ، ولولا انك مستقيم لما جئتك اليوم ، و إلا فان زواري المحامين كثيرون لم أفكر في واحد منهم لأنني أعرفهم ، وفكرت فيك لانني لاأعرفك ولا أراك فيمن أراهم كل يوم ... »

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أربياً ولباقة معجبة ، وسرتني هذه الشهادة بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة !

杂杂杂

وهنا يحق لنا أن نسأل:

ترى لو لم تلجي الضرورة سعداً إلى مراس هذه الصناعة المكروهة على مضض ــــــ أما كان من الجائز أن يتغير تاريخه كل التغير، وأن تحتجب فيه المزايا البيانية التي رشحته لزعامة الامة المصرية ؟

إنه كان على التحقيق سيغدو عظيماً نافعاً حيث كان ، ولكننا لا نعرف لزعامة سعد طريقاً كان أقرب إليها وأشبه بها من المحاماة . لأنها مجال كل مزية كبيرة في طبعه وفكره ولسانه : هي هيأت له وسائل النمو على منبته وفوق جدوره ، وهي التي أتاحت له فرصـــة طويلة لتفتيق ذهنه وتجويد ملكاته ، وهي شحدت فيه بديهة المنطق وقريحة البيان ، وصانت قدرة الحطابة فيه عن التعطل والركود ، ولم تحرمه تلك الفضيلة الأصيلة التي ورثها عن آل أيه وآل أمه ، وهي فضيلة النجدة والدفاع عن المظلوم .

ه عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم مم... ومصداق هذه الآية الحكيمة يمر بنا في كل ترجمة معروفة ، ويستطيع كل امري. أن يراجع سيرته وسير معارفه فيرى مصداقها يتكرر في حياته وحياة غيره : كم أمنية يتلهف عليها المرء ثم يهني. نفسه بفواتها ؟ وكم نكبة يتشاءم بها ويجتهد لا تقائها ثم تنقلب يمناً عليه وهداية له في الحيرة ؟ يتفق ذلك في حياة العظيم كما يتفق في حياة الصغير ، ويشاهد مع النجاح كما يشاهد مع الاخفاق ، وفي ترجمة سعد

مواقف عدة يتمثل فيها المتمثل بتلك الآية الحكيمة ، وفي مقدمتها على مانعتقد موقفه من المحاماة .

لقد خسر سعد وظيفته على كره ، وقبل المحاماة على كره ، وعدها صناعة لا يحمع بينه وبينها إلا عثرة الجد و نكد الدنيا وخيبة الرجا. ، ولكنه لو فكر بعد ذلك بعشرين سنة و فكرت معه هذه الامة لما اختار لنفسه ولا اختارت له الامة غيرها صناعة . فكم يكره الانسان من تجربة وهي خير مأمون ا وكم يحب الانسان من أمل وهو شر و خيم ا

* * *

بعد ثماني سنوات أو تسع من اشتغال سعدبالمحاماة عرضت عليه وظيفة « نائب قاض » بمحكمة الاستئناف في سنة ١٨٩٢ فقبلها على ضا له مرتبها بالقياس إلى ما كان يربحه من المحاماة . إذكان هذا المرتب خمسة وأربعين جنبها ولم يكن ربحه من مكتبه يقل عن خمسهائة جنيه في الشهر ، أي أكثر من عشرة أضعاف مرتب القضاء .

وقد تبع في ولاية القضاء خطوات استاذه الشيخ محمد عبده كما تبعه في الدراسة الأزهرية وفي مصاحبة جمال الدين وفي تحرير الوقائع المصرية ، وكان الشيخ محمد عبده هو صاحب الاقتراح في تعيينه ، لا مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء كما تبادر إلى أو هام بعض الناس بعد ذلك ، لحسبانهم أن مصاهرة رئيس الحكومة هي السر في تمييز سعد بتلك الوظيفة 1

والحقيقة ان سعداً لم يصاهر مصطفى باشا الا بعد تعيينه في القضاء بأربع سنوات ، ولم يستفد درهماً واحدًا علاوة على مرتبه بفضل تلك المصاهرة ، إذكانت الترتيب في مناصب القضاء العليا لا تجري لذلك العهد الا بترتيب مقدور ونظام محسوب لا استثناء فيه .

وكان سعد أول محام أسندت اليه وظيفة القضاء ، فكان هذا التعيين خليقاً أن يقع من الناس موقع الأمر المستغرب المفاجيء ، ولكنه على نقيض ذلك قوبل بالتأمين والموافقة البدهية كأنه أمر منتظر لاغرابة فيه . وابتهج به المحامون كما ابتهج به القضاة ، فأقاموا له حفلاً كبيراً أعربوا فيه عن شكرهم لهذا الاختيار واغتباطهم بهذا التعيين ، قال فيه وكيل المحكمة ــ اسماعيل صبري (بك) الشاعر المعروف ــ « ان تعيين حضرة سعد أفندي زغلول عضواً في محكمة الاستئناف دليل على أن المحاماة والقضاء شيئان ضريعان » . .

وألق بعض المحامين كلامًا يدل على حقيقة العلاقة بين القضاء والمحاماة في تلك الآيام ، لعل أصرحه وأقربه إلى الغرض كلمة حسن أفندي الشمسي وابراهيم أفندي اللقاني لانهماقدعمدا الى الهدف في تلك المناسبة دون الاطناب في التحية والمجاملة ، فقال حسن أفندي الشمسي : « أنت أيها الفاضل أدرى باحساساتنا من جهة القضاة ، وكثيراً ما كنت معنا حينها كنا نكيل في ذكر كل واحد منهم بالكيل الذي يستحقه ، وقدعلمت أن في القضاة من يتغالى في حب الاستقامة حتى ارتاب أن يكون في طائفتنا مستقيم . فبك اليوم نأمن على أنفسنا من مثل هذه الافكار . فكن واسطة بيننا وبين حضرات القضاة لتوفيق ما بين الاحساسين ، ان كان ثم اختلاف.»

وقال اللقاني: « ياسعد . وفي هذا اللفظ من معاني الاجلال والتعظيم ما يكفيني كلفة المقال . فياسعد قد عز على القول في هذا المقام مع مالي من الاثرة والاختصاص بك ، والاحتفاظ على جليل فضلك ، الى حد يحتبس معه لساني في البيان فأقتصر الآن على أن أهنئك من قلب يخالطه الاسف على انسلالك من بيننا وقد كنت واسطة عقدنا ، وبقدر هذا الاسف نهنئك على اتصالك بخطة القضاء . ولكن علام ؟ هل انتقلت الى مقام تكون أثرى وأوسع دنيًا عما كنت فيه ؟ كلا . بل إلى مقام يحبس فيه رزقك على راتب زهيد . . . فعلام نهنئك ؟ هل انتقلت الى مقام تزاول فيه علماً لم تكن تزاوله ، أو تزداد سعة منه وقد كنت فيه قصير الباع ! كلا . اللهم الا أن يكون علم أو تزداد سعة منه وقد كنت فيه قصير الباع ! كلا . اللهم الا أن يكون علم الاقتصاد! ! فبأي شيء نهنئك ! نهنئك لانك كنت تناضل عن الحق ،

وتحارب للانصاف ، وتجاهد للعدل ولم يكن بيدك ، فأصبحت والعدل بيدك يطلب منك الحق . . . »

«سادتي. تعلمون ان الحق صعب الاكتشاف، وأن الحقيقة إذ تكون ضالة تتشعب طرق نشدانها على الباحث، ويعلم الله كم من ليال مضت ما كان أمرها عندي. لا لأبي كنت في عيش ضنك ولا لأنني قليل الميسرة، ولكن لأن الحقيقة ضائعة لا أجدها في طريق نشداني لها، بين أناس عهدت اليهم أمانة ولا من يؤديها منهم إلى أهلها. كنت أرى القانون يكرهني على احترام القضاة وضميري يأبي الامتثال لاحترام كثير منهم، فكنت أجمع بين الاحترام والتحقير، ولا استطيع التوفيق بين الظاهر والباطن، فأعجبوا أيها الأفاضل من مطيع غير مطيع 1 ولا جناح علي لأن القوانين لاحكم لها على الأسرار والضهائر. أقول الحق إني كنت أسأل من القاضي حقا ومن النيابة واجباً فلا أجد هذا ولا ذاك. أما الآن فكلنا بعترف في سره وعلنه بأن القضاء ارتق، والحق عنده مسئول.»

ان سعداً الصريح في كل مقام ، وسعداً المطبوع على اعتبار الحقائق الواقعية والمقاييس العملية ، وسعدا المزدري بالمال في سبيل كرامته أو في سبيل فرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين ، لهو سعد الذي يتجلى لنا في هذا الموقف أوضح جلا.

لقد استطاع الرجل أن يصبح علماً في الشرفوالكفاءة بين طائفة كانت محرومة من الشرف والكفاءة . ولكن هل استطاع أن يخرس الالسنة التي تتمحل الاسباب لانكار الفضل كلما وجدت ذريعة الانكار ؟ وهل استطاع

أن يمنع النفوس الحاسدة أن تسف وتلؤم وتبحث عن الاسارة بما في وسعها من غمز و تعريض وتجاهل واضطغان؟ هؤلاء لا يثنيهم عليهم بفضل المحسود عن الكيد له والاستطالة عليه . بل فضل المحسود وشهادة النياس به هما باعث الكيد والاستطالة وعلة البغض والدسيسة ، وأنهم ليزيدهم ضراوة بالا يذاران يعتصم المحسود بأنفته ويغار على حوزته ، وأن يعرف قدره ولا يفرط في حقوقه ، فذلك قين أن يهيج حفائظهم ويببط بهم إلى مادور مضيضهم ، ويخيل الينا أن سعداً قد لتي الكثير من سفساف هؤلاء الحاسدين الصغار من أصحاب المنياصب والمراسم ، ولو شاء لاعرض عنهم واكتنى عمل يعرفه النياس من قدره وأقدارهم ، ولكنه رجل علي لا يرضيه من الاقناع بما يعرفه النياس من قدره وأقدارهم ، ولكنه رجل علي لا يرضيه من الاقناع والملاحاة ، فجوابه على من يستطيل عليه بمنزله أن يحتل هو تلك المنزلة ، والملاحاة ، فجوابه على من يستطيل عليه بمنزله أن يحتل هو تلك المنزلة ، ويريخ نفسه من « عناء التوفيق بين الباطن والظاهر و بين الضمير والقانون » كا والنه و تلك طبيعة فيه لا نظنه كان قادراً في يوم من الايام على الاعضاء عها والتهاون فيها ، سوا. في أيام المحاماة أو القضاء أو الوزارة أو الزعامة .

وشبيه بقبوله القضاء اجتهاده في تحصيل إجازة الحقوق وهو في نحو الأربعين، قاضكثير الأعمال، وزوج حديث عهد بالزواج.

فقد أبدى رأياً في إحدى المسائل الفقهية فعجب رئيس الجلسة الانجليزي لصدور هذا الرأي منه ، أو تظاهر بالعجبوهو يقول له : إن هذا الرأي لحقيق من درسوا العلوم التشريعية وأحرزوا فيها الاجازات من أمثال فلان وفلان، ولا ندري لماذا خاطبه رئيس الجلسة بهذه العبارة . فلعله أراد أن يغض من عزته ويسيء اليه ، ولعله لم يفطن لموقع العبارة من نفسه ولم يتجاوز بها عادته من الصراحة والحشونة . ولكن سعدا أحس منها أنها تصغير له واستطالة عليه بالشهادات بين زملائه ، فكان جوابه عليها ثلاث سنوات في دراسة الفرنسية والعلوم التشريعية ! والحصول على الاجازة « في سنة

١٨٩٧ » بدرجة متفوقة ، وهذا جواب بالعمل لاموضع بعده لمكابرة ولاً حاجة معه إلى كلام !

ومن ثم تتجلى لنا البواعث الكبرى في نفس سعد إلى العمل في كل ميدان لا في القضاء وحده و لا في المحاماة وحدها ، وهي العزة والكرامة وفرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين كلما وجب أن تفرض ، وفي هذا السبيل يهون المال ، ويهون العناء ، ويهون كل شيء .

بيد أننا حريون أن ننظر اليوم إلى التعيين في مناصب الحكومة بغير العين التي كانوا ينظرون بها اليه قبل أربعين سنة ، فان وظائف الحسكومة اليوم فائضة بحاملي الشهادات المستجمعين لشرائط الاستخدام ، لا يكون التهافت عليها إلاعلامة عجز عن أعباء الحياة ورغبة في التواكل والخول ، أما قبل أربعين سنة فقد كان البحث عن الموظف الكفث ... ولا سيا في القضاء ... مشكلة قومية من أعسر المشكلات ، وكان مل الوظائف بذوي الكفاءة والنزاهة علا وطنياً جليلاً يساوي الاشتغال اليوم ببناء المصانع و تأسيس الشركات ، وكانت قلة الموظفين الاكفاء الامناء حجة للانجليز على المصريين في دوام وكانت قلة الموظفين الاكفاء الامناء حجة للانجليز على المصريين في دوام الحتلال . ثم كان سعد أول محام انتقل من المحاماة إلى القضاء وأثبت أن المحامي لا يقل عن القاضي في فضله أو في مكانته الرسمية والاجتماعية ، وهي مرحلة ذات بال في تاريخ الوظائف و تاريخ المحاماة و تاريخ سعد و تاريخ المحمود . وإذا التقديرات الاجتماعية ليس الاعراض عنها بمعقول ولا بمحمود . وإذا كان الاقبال على الوظائف الحكومية اليوم دليل المجز عن أعباء الحياة الحرة في ذا الذي يقول إن سعداً قبل الوظيفة لعجز عن تلك الاعباء ؟ بعد أن نال من الصيت والكسب في عالم المحاماة ما نال ؟

لقد أنصف سعد صناعته وأنصف كرامته ولم يظلم إلا نفسه بقبوله تلك الوظيفة التي تحد من رزقه على قول زميله . بل أنصف القضاء والقضاة كدأبه في تعظيم كل عمل يتولاه : وقلما صان كرامته أحد إلاسرى الصيان

الى العمل الذي هو فيه ، وهكذا أصبح من العسير بعد أن أصبح سعد قاضياً أن يعامل القضاة بغير مايجمل ويليق بحرمة القضاء ، وأول مابدا من ذلك أنه استنكر من وزارة الحقانية أن تعلن خطأ القاضي في رسائل رسمية تذاع على جميع المحاكم ببيان الخطأ وتصحيحه حسيا تراه الوزارة ! فعدلوا عن الاعلان الصريح شيئًا فشيئاً إلى توجيه الرسالة سرآ إلى صاحبها المقصود ، وكتمان اسمه في الرسائل التي تذاع على جميع القضاة ، وقس على ذلك نظائر شتى معاملات كل ساعة ومناسبات كل حالة ، مما يحدث و يتكرريوماً بعد يوم ، ويكون له أبلغ الأثر في ترقية القضاء ، ولكنه لا يدخل في إحصاء .

سمعت من السيدة الجليلة صفية زغلول أن سعداً كان ينذر في أو اثل عهده بالمحاماة لثن أربى دخله على ستين جنيها في الشهر ليدافعن عن الفقراء الذين يقصدونه بغير جزاء . . وسمعنا كثيراً عن قضايا الفقراء الني كان يهتم بها كاهتمامه بالقضايا التي يتناول عنها أحسن الأجور ، بل سمعنا عن دستوره المشهور الذي فرض به على نفسه أن لا يطلب في قضية أكثر من خسمائة جنيه بالغاً ما بلغ شأنها من الصخامة وكائناً ماكان أصحابها من اليسار . وقد ظل يذكر نذره للفقراء أيام المحاماة إلى ما بعد قيامته بالنهضة الوطنية الأخيرة . فقال لقرينته الجليلة : « الآن نوفي كل مافاتنا من دفاع عن المظلومين · فهذه قضية المصريين جميعاً ، والغنى منهم في طلب الاستقلال فقير .»

لكننا نعتقد أن المظلومين والضعفاء الذين أنصفهم سعد بالحمكم لهم أضعاف المظلومين والضعفاء الذين استطاع أوكان يستطيع أن ينصفهم بالدفاع عنهم ، فني كل قضية نظرها مظلوم على الأقل قد أمن الجور أو استرد حقه المضيع ، واشتهرت معدلة القاضي سعد في أنحاء البلاد فاستطاعت كل مدينة أو بلدة أن تتحدث عن مأثرة من مآثره في فض المشكلات وجلاء الحفايا والضرب على أيدي أصحاب المطامع والألاعيب · ومن هذه المدن مدينة في أقصى صعيد مصر هي اسوان بلدة كاتب هذه السطور . ففيها أيضا سمعنا قبل

نيف و ثلاثين سنة بحكم من أحكامه في قضية و لا كالقضايا . تقلبت بين المحاكم من اسوان إلى قنا ومن قنا إلى القاهرة زهاء عشر سنوات ، ولم يكتب لهـــا الفصل الأخير إلا على يدي سعد زغلول .

كان صاحب الدعوى فقيراً لا يملك شيئاً لأن ما يملك كله قد استولى عليه خصمه وهو غائب منقطع في السودان أيام الثورة المهدية ، وكان خصمه رجارً غنياً مفرط الذكاء شديد العناد واسع العلم بالحيل القانونية التي تعوق تنفيذا لأحكام أو تؤجلها من موعد إلى موعد ، ملها بمداخل الدواوين ومخارجها وطرائق النفاذ إلى الموظفين بالشفاعة تارة وبالهدية تارة أخرى ، وكان قد استولى على ملك غريمه فأصلح فيه وبدل أيام كان هذا الغريم مهاجراً في السودان على عهد الدراويش ، لا ترجى له عودة أويظن أنه فارق الحياة · فلما فتح السودان وأبيح النزول منه وعاد صاحب الملك إلى بلده يطلب حقه لم يحد سميعاً ولا مجيباً . وأصبح — وهو الغني — فقيراً حائرا لا يعرف كيف السبيل إلى القضاء ، ولا يكافي خصمه في المال ولا في الحيلة ولا في المعرفة بلجاج المقاضاة ، أو أصبح كاكان يقول لمن يلقاه وهو في حيرته لا يدرى من وسيلة غير الشكاية والتشهير : « غني أي نهبني — الدراويش في الغربة وغنمني هذا الرجل في بلدي . . . »

وطالت السنوات بالقضية ولا جدوى ، فكلما دنت من الحـكم احتال الخصم الغني الذكي في تأجيلها إلى أمد بعيد ، وكلما صدر حكم فيها احتال في تعويقه بالتماس أو اشكال أو ما شابه ذلك من أحاييل التنفيذ ، وأيسر حيله في ذلك أن يعمد إلى علم أجنبي يرفعه على الدور والدكاكين ، ويقيم إلى جانبه يونانيًا أو إيطاليًا فقيراً يتصيده من أنحاء أسوان بابخس الأجور .

ويرُّ س صاحب المال من رد ماله فهم أن ينزل عن بعضه وفاتح خصمه في الأمر فأبى وأعرض عنه ، لاعتزازه بمكانته ويقينه من غلبته ووصول الخلاف في القضية إلى أقصى مداه ، فانقسمت أسوان إلى معسكرين متناظرين

علىماجرت به العادة بين أهل الريف في أمثال هذه القضايا . . . واشتهرت القضية بين الظرفاء من قراء الصحف « بقضية « دريفوس » 1

ثم انتهت إلى مرحلتها الاخيرة في القاهرة ، فاجتمع أحد أنصار الخصم الغني الذكي بأحد أنصارالغريم الفقير ، وكان الأول ثملا لا يضبط لسانه فزين له السكر أن يغيظ صاحبه فراح يهزأ به ويقول له : « عوضكم الله في القضية خيراً . إن المال قدلعب فيها لعبه الذي لا يخيب ، وإن فلاناً قدد فع إلى فلان الف جنيه ووثق من النتيجة ، فلم يبق لـكم إلا أن تنطحوا الجبل 1 »

وأسرع من سمع هذا السكلام الى نائب أسوان في مجلس الشورى ، وأسرع هذا إلى الاستاذ الامام في عين شمس ومعه الرجل المنكوب وهو يكاد يجن من الفزع واليأس بعد أن أصبح على مقربة من النهاية ، وكان نائب أسوان يزور الاستاذ الامام لزمالة له في المجلس ، فقص على الاستاذ ماسمع وترك الرجل يقص عليه ماجرى له من السودان إلى القاهرة ، فأدركت الاستاذ تلك النجدة التي اشتهر بها واشتهر بها أشباهه من تلاميذه ومريديه ، وسعى إلى الاطلاع على القضية بحسندافيرها فأجيب في وزارة الحقانية إلى طلبه لما كان له من المنزلة وعلو السكلمة ، وما هو إلا أن استوعب أوراقها حتى علم صدق الرجل وأحس ما أصابه من الحيف والكمد والحيرة في السنوات الطوال التي قضاها بين انتظار يتلوه انتظار إلى غير قرار ، فتارة ينتظر مناقشة الخبراء وتارة ينتظر حكم القضاء ، وتارة ينتظر التنفيذ أو الفصل في التهاس أو إشكال أو استثناف ، وهال الاستاذ أن النوساء في وزارة الحقانية فأفضى اليهم بشكوكه واقترح عليهم أن يدفعوا الربية باحالة القضية إلى دائرة يرأسها سعد زغلول ، فقبلوا اقتراحه .

وجا. يوم الجلسة (التاسع من شهرمايوسـنة ١٩٠٥) والخصوم لا يعلمون بشي. مما حدث ، واذا بهم يجدون دائرة نمير الدائرة ، ويباغت الغني الذكي فيلغى توكيل محاميه و يتحيل بذلك لتأجيل القضية إلى جلسة أخرى ، فحبطت جميع حيله ، ومضى الفقير المظلوم يشرح مصائبه ومتاعبه و يقول على عادته في ختام كل شكوى : « الدراويش غذموني في السودان وهذا الرجل غنمني في أسوان» . . . والتبست العبارة على سعد زغلول وسأل عن معناها ففسرها له بعض الاسوانيين الحاضرين في الجلسة . فقال للرجل مبتسما : « دراويش ورا ، لك ودراويش أمامك يامسكين » . . . وفطن محامي الخصم لمعنى مارأى وما سمع فجمع أوراقه والتفت إلى صاحبه يقول له : « لا فائدة 1 » . . . وقد صدق حدسه وصدر الحكم على أثر ذلك بتأييد حق الفقير المظلوم .

* * *

فاذاكانت إغاثة المهضومين في المحاكم على هذا النمط فليس لهم أن يأسفوا لانتقال سعد من الدفاع عنهم إلى الحكم لهم ، وليس لسعد أن يأسف على الندر الذي كان قد نذره أيام المحاماة ، فان قضاءه أوفى بذلك النذر من الدفاع بغير أجر عن صاحب الحق الضعيف .

**

ترقى سعد في الوظائف القضائية من مرتب خمسهائة وأربعين جنيهًا إلى الف جنيه في السنة ، وأحرز رتبة المتهايز بعد سبع سنوات ، وأنعم عليه بعدها بالنوط المجيدي الثالث . وبتي في هذه الوظائف أربعة عشر عاما من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٠٦ التي دعي فيها للوزارة . وأوجز ما يقال عن تاريخه في تلك الوظائف ــ وهو في الوقت نفسه أو في ما يقال ــ إنه لم تكن قط في سجل القضاء صفحة أنتى و لا أجمل من صفحة سعد زغلول .

في طريق الوزارة

انتقلت مصر بعد هزيمة الثورة العرابية إلى شيء من الذهول.

فأما الجيل العرابي فقد تفرق زعماؤه بين النفي والسجن والاضطهاد والاعتزال ، ولو أنهم تركوا أحراراً لما استطاعوا القيام بعمل يذكر في الأحوال الجديدة . لأن الجيل الواحد قلما يقوى على النهوض بدورين متعاقبين ، ولا سيما بعد الهزيمة الصريحة ، واما الجيل الجديد فلم يكبر بعد ، ولا بد من انتظاره بضع سنوات .

ولبثت مصر زمناً في حالة من الحنود والاعياء، ولعل الاصح انهاكانت في حالة الترقب والانتظار ، ريثها تنجلي الأيام عن مصائر الامور .

فلم يدر النماس في مبدأ الأمر مآذا يصنع الانجليز؟ وماذا ينوون أن يصنعوا ؟ أغلب الظن انهم باقون في مصر إلى زمن لاتعرف له نهماية 1 ولكن ماذا تصنع أوربا ؟ وماذا تصنع فرنسا على الخصوص ؟ وماذا تصنع الدولة البريطانية في ايمان الشرف التي أقسم بها رجالها ؟ وماذا تصنع بالوعود التي صرحت فيها بأنها لم تقدم إلى مصر إلا لتوطيد عرش الامارة ؟

لم ينجل ذلك كله في بادى الأمر ، ولكنه أخذ ينجلي رويدا رويدا حين أخذت الدولة البريطانية في انتحال الأعذار عاماً بعد عام لتطويل أجل الاحتلال . فبعد ان كان قدومها إلى مصر لتوطيد عرش الامارة أصبح لها غرض آخروهو تنظيم الادارة المصرية تنظيماً يكفل سداد الديون الاجنبية . . . ثم أخذت تزعم انها ستعنى بتريسة المصريين وتدريبهم على حكم أنفسهم واستلام مقاليد الاعمال في بلادهم ، وعرضت على السلطان عبد الحميد مرة أن تغداد رمصر على أن تعود إليها لتوطيد النظام إذا طرأ فيها ما يدعو إلى ذلك ، فأنى السلطان أن يبرم مع الدولة البريطانية معاهدة به للعنى ، لأنه اعتراف لها بحق الحماية أو ما يشبه الحماية ، وشجعته فرنسا وروسيا

على الرفض لانهما حسبتا أن انجلترا لم تقترح هذا الاقتراح إلا وهي تشعر بتزعزع مركزها في مصر وتنوي أن تعود إليها بحجة أثبت وأوضح ، فعن لهما أن ترك انجلترا حتى تجلو في زمن قريب خير من جلائها بمشل هذه المعاهدة ثم عودتها بحجة مشروعة لاتقدر الدول على مناقشتها .

وبعد أن جاء مختار باشا الغازي إلى مصر — سنة ١٨٨٥ — للبحث في المعاهدة المقترحة سكنت المسألة وعدل الانجليز عن متابعة البحث فيها . وفي ذلك دليل على اتجاه الافكاريومئذ بين المصريين والإنجليز والدول الأوربية والدولة العثمانية فيما يتعلق بمركز الاحتلال وما ميقدر له من الدوام ، وفيه دليل على الاسباب التي كانت تملى للمصريين في حالة الترقب والانتظار ، مع ماهم فيه من الاعياء الذي لاتسهل معه الحركة ، ولاسيما الحركة إلى غير اتجاه معروف .

وكان الانجليز عقب الاحتلال يتقربون الى الناس بالعدل و تنظيم الشؤن الحكومية ، ويحسبون أنهم يحتـذبون اليهم قلوب المصريين بهذه السياسة ويصرفونهم عن الاستقلال والحرية الوطنية ، ثم انكشفت حقيقة مطامعهم و تمينت نية البقاء الطويل من أعمالهم و تميداتهم ، وقد كان جيل الثورة يذكر دسائس الحكومة البريطانية قبل الاحتلال و يعلم أنها هي التي أحبطت الثورة وتوسلت بها إلى دخول مصر وتحقيق مطامعها القديمة في الاستيلاء على طريق الهند ومفتاحها من قناة السويس ، فلم يؤخذ بتلك المظاهر وساءت ظنو نه بكل غرض من الاصلاح ، ثم نبت جيل جديد يشعر بالنفور الطبيعي من الحكم الأجني ولا يسمع من دعاوى الاستعار البريطاني إلا كل مايريب و شير.

فانبثقت ينابيع الحركة الوطنية هنا وهناك ، وكان انبثاقها كما رأيت من مصادر شتى بين بقايا الجيل الماضي وبواكير الجيل الحاضر ، فلم تكن على اتفاق في غير الشعور بالنزعة الوطنية ، وحتى هذا لم يكن متفقاً منسجماً في معناه ومرماه ، لأنه كان يمتزج أحياناً بالعلاقة العثمانية والصبغة الدينية ، وكان يمتزج

أحيانا أخرى بسوء فهم للمصلحة المصرية والسبيل الأقوم لنجاح القضية القومية .

و تغلغل سوء الظن عند جميع المصريين فدأبوا على تزييف كل دعوى يدعيها الأنجليز وكل حجة يتذرعون بها إلى إطالة أيام الاحتلال ، ولما كانت حجة توطيد العرش قد انتهى زمانها وانتهى معها زمان الحجج التي من قبيلها فقد أصبحت دعواهم محصورة في تربية الامةواعدادها لحكم نفسها وأصبحت هذه الدعوى هدف الحملة الكبرى من كل جانب بعد أن سلك الانجليز مسلكهم المعيب في وزارة (۱) المعارف وأهملوا التعليم الصحيح إهمالاً ظاهراً مقصوداً لاتجدى فيه المغالطة ، وحصروا همهم كله في المدارس على تخريج الموظفين ومن لا يحسنون ابتغاء الرزق من غير الوظيفة ، فصار على التعلم » هو الراية التي يحارب حولها دعاة الوطنية من جميع الصفوف.

والآن نحن نعرف الأحزاب السياسية والانتخابات الحزية، ونحسب أن مصرلم تخل قط من هذه الأوضاع والمراسم في عهد من العهود، فيجب أن نذكر أن أحزابنا كلها مانتي منها وما انقرض لم تكن معروفة قبل ثلاثين سنة، ولم يكر في مصر كلها حزب واحد له اسم وبرنامج ورئيس وأعضاء على النحو المعهود بيننا اليوم . وأن القرن التاسع عشر كله قد انتهى ولما تبدأ الاحزاب المصرية في الظهور ، وأن المرحوم مصطفى كاملاً زعيم الجيل الجديد بعد الثورة العرابية لم يظهر له اسم في السياسة المصرية قبل سنة ١٨٩٥. وأنه لم ينشىء صحيفة اللواء إلا بعد ذلك بخمس سنوات ... يجب أن يذكر الناشيء في جيلنا الحاضر كل هذا ليفهم كيف إن رجلاً كسعد زغلول يكون عامياً في بعض تلك الفترة ثم لا يكون زعياً لحزب ولا داعياً في حركة وطنية ، كاينبغي لرجل رشحته الحوادث في الشيخوخة لزعامة الامة بأسرها ،

 ⁽١) كانت الوزارات تسمى يومثذ مالنظارات ولكننا آثرنا اسم الوزارة لتوحيد التسمية فيجميع نصول
 الكتاب.

فجهد ما كان يصنعه المصري الراغب في خدمة بلاده يو مذاك أن يساعد على إيقاظ الحمية الوطنية ورفع صوتها من جهة ، وأن يعمل ما استطاع لتعميم التهذيب والتعليم والثقافة من الجهة الآخرى ، وذلك ما كان سعد يعمله في الوظيفة وقبل الوظيفة ، فأمد الشيخ علي يوسف بالمال لاستبقاء صحيفته التي لم يكن للبلاد صحيفة وطنية غيرها ، وبذل له مائة جنيه وهي في ذلك الوقت مبلغ غير قليل سريكه الشيخ ماضي وينقذ الصحيفة من الآحتجاب ، وفي ندوة سحمد وصحابته كان مصطفى كامل يتلق التشجيع والتحييذ يوم أن برز على مسرح السياسة المصرية للمرة الأولى .

وكانت الدعوة الوطنية كما أسلفنا شُعَباً محتلفات في المقصد والنتيجة المأمولة ، فمنها ماكان يتجه إلى الدولة العثمانية ، ومنها ماكان يتجه إلى فرنسا لانها أكبر الدول الأوربية التي كانت تناوي انجلترا في مطامعها الشرقية ، ولم يشترك مع هؤلا ولا هؤلا . حصفاء الثورة العرابية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال . فقد رأى رجال هذا الفريق ماهو حسبهم وزيادة من هذه الإمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة . فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد الممهد لهم وهو طريق النهضة المصرية الصميمة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال في رأيهم أنجع من وسيلة واليقظة والمثابرة ، لانه مامن وسيلة إلى الاستقلال في رأيهم أنجع من وسيلة فهمه ، والاستعداد له ، والاصرار على طلبه ، ومن هذا الفريق كان أناس فهمه ، والاستعداد له ، والاصرار على طلبه ، ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول .

وكانت خطة سعد أن يساعد مخالفية فيها من شأنه إيقاظ الشعور وبث الحمية الوطنية ، ولكنه يقف عند هذا فلاير جو الاستقلال من الدولة العثمانية ولامن الدولة الفرنسية ولا يعول فيه إلا على التربية الوطنية واستقلال الامتبالمطالبة ، وكل أولئك هو مستطيعه من حيث عمل في المحاماة ومن حيث كان يعمل في القضاء فلم تسنع له فرصة لخدمة الدعوة الوطنية على حسب اعتقاده إلا انتهزها وعمل فلم

فيها كلماهو قادر عليه ؛ أيد مصطفى كاملاً وعلي يوسف وغيرهما من كتاب الصحافة فيما تكفلوا به من إيقاظ روح الامة وتكوين رأيها ورفع صوتها وإن لم يؤيدهم في توجيه الامل إلى العثمانيين أو الفرنسيين، وأيد قاسم أمين في تحرير المرأة وإصلاح الحياة الاجتماعية فلم يجدقاسم من يهدي اليه كتابه غسيره.

ولما هبت في البلاد تلك الدعوة المباركة إلى إنشا. الجامعة المصرية كان هو على رأسها و تبرع لها مع المتبرعين بمائة جنيه ، ومن منزله صدر منشورها الأول إلى الامة في الثاني عشر من اكتوبر سنة ١٩٠٦ . وفيه يقول بلسان المجتمعين :

« في هذه السنة هب في الرأي العام تيار من نفسه لتحقيق هذه الامنية لأن الامة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة ودائرته ضيقة تقف وتنتهي بالطالب قبل بلوغ الغاية ، وان من وراء الحدود التي انحصر فيها معارف سامية وحقائق عالية وقضايا جليلة ومشكلات غامضة تشتاق النفوس إلى حلها ، واختراعات جديدة وتجارب بديعة واختبارات كثيراً ما شغلت وتشغل عقول كبار العلماء في أوربا ولا يصل الينا منها إلا صداها الضعيف . فنها ما يختص بالوجود وما يتعلق بالهيئة الاجتهاعية وما يبحث فيه عن لغة الانسان وعن الآداب والفلسفة والشرائع والتربية وكل مايهم ماضي الانسان وحاضره ومستقبله ، وهو موضوع علوم شتى لا يعرف مايهم ماضي الانسان وحاضره ومستقبله ، وهو موضوع علوم شتى لا يعرف فاحد شيئاً منها ولا يهتم بما كمل منها ولا بما هو سائر نحو الكمال ، وأبلغ من دلك أنه لا يوجد لدينا درس نعرف منه قيمة المؤلفات العربية في الآداب والفلسفة والعلوم ولا قيمة من اشتهروا من مؤلفها عند الاورباويين الذين بحثوا عنهم وعرفوهم ووفوهم حقهم من الاجلال والاحترام .

« ان جميع الذين يشعرون منا بنقص تربيتهم العقلية يرون من الواجب أن يتقدم التعليم في بلادنا خطوة نحو الامام وأن أمتنا لا يمكنها أن تعد في صف الأمم الراقية لمجرد أن يعرف أغلب أفرادها القراءة والكتابة أو أن يتعلم بعضهم شيئًا من الفنون والصناعات كالطب والهندسة والمحاماة . بل يلزم أكثر من ذلك : يلزم أن شباننا الذين يجدون في أوقاتهم سعة ومن نفوسهم استعداداً يصعدون بعقو لهم ومداركهم إلى حيث ارتقى علماء تلك الأمم ه

وفي المنشور إفاضة في هذا المعنى ، ولكن ما تقدم كاف لبيان الغرض الذي توخاه سعد وأصحابه من إقامة جامعة كبيرة في مصر ، وحاول فيأخريات أيامه أن يعود بالجامعة اليه ، لأنه كان يعتقد أن قيام المدارس العليا في بناء واحسد لا يحقق الدراسة الجامعية التي تشعر الامة بالنقص فيها والحاجة إلى استكما لها .

سنة ١٩٠٦

من حق هذه السنة التي صدر فيها مرسوم الجامعة أن نتريث عندها قليلاً لانها أول سنة ذات بال في تاريخ الحركة الوطنية بعد الاحتلال .

فقد علم الانجليز لأول مرة أن «أعيان المصريين» الذين حسبوهم بمعزل عن حركة الحرية الناشئة يؤازرون هذه الحركة بقلوبهم ولا يحجمون عن التصريح بتأييدها في الآونة المناسبة . فلما حضر ولي عهد انجلترا إلى مصر كتب اليه جماعة من الاعيان يذكرونه وعود الجلاء ويومئون إلى خطة انجلترا في معاملة البوير بالحسنى بعد هزيمتهم في ميدان القتال ، ويعلنون رغبتهم في استقلال الحكومة المصرية راجين من حكومة الاحرار في انجلترا أن تكون على مبادئها فلا تنكر على مصرحقها في الحرية. »

وفي هذه السنة وقع الحادث الآكبر الذي علم الانجليز منه حقيقة الشعور الذي يشعر به الفلاحون الصغار لابسي « الجلاليب الزرقاء » نحو الاحتلال البريطاني ، بعد ما حسبوهم زمناً طويلاً من أنصارهم الراغبين في حمايتهم لهم من ظلم الباشوات ومفاسد الحكومة الوطنية . . . ونعني به ذلك الحادث الفاجع الذي اشتهر باسم قضية دنشواي ، والذي كان له من الاثر في إيقاظ هذه الامة ما لم يبلغه حادث سواه في الجيل كله . إذ ليس في مقدور المؤرخ أن يذكر قبل الحرب المظمى حادثاً جمع قلوب المصريين كما جمعتها قضية دنشواي ، وآلم نفوسهم كما آلمتهم ، وأحيا شعور التضامن القومي كما أحيته بينهم ، وينبئنا عن ذلك بعض النبأ ماكتبه قاسم أمين في مذكر اته حيث يقول: « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى مذكر اته حيث يقول: « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق: المرة الاولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي . رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً

مخنوقاً ودهشة عصبية بادية في الآيدي وفي الأصوات .كان الحزن على جميع الوجوه: حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول وترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دارميّت ،كا نما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة.»

والواقع أن قضية دنشواي كانت نقمة في طيها رحمة . لأن مستعمري الانجليز آمنوا بعدهابالقومية المصرية إيماناً لايجدي فيه التجاهل ، وعلموا أن الفلاح وابن المدينة المتعلم في الشعور الوطني سواء ، وإن إصطناع المودة للفلاحين لا يجعلهم انجليزاً ولا ينسيهم أنهم مصريون ، ورأوارأي العين نفور أصحاب « الجلاليب الزرقاء » من الرداء الاحمر المغير على أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم . فخفضوا قليلاً من جهارة النغمة التي كانوا يرنمون بها حب الفلاحين لهم وحبهم هم للفلاحين . . . وذهبوا يلتمسون العلل من ناحية التعصب الديني تارة والدسائس الاجنبية تارة أخرى ، لهذا النفور الذي كانوا يستغربونه أو يعلنون استغرابه . . . وليس فيه غريب .

خلاصة هذا الحادث أن بعض الضباط الأنجليز خرجوا في رحلة لهم إلى الأسكندرية يصطادون الحمام على مقر بةمن أبراج فرية دنشواي ، فعلو اذلك على الرغم من تنبيهم كثيراً إلى إجتناب الصيد في جو ارالقرى، فجرحوا امرأة وأحرقوا جريناً واحتدم بينهم وبين الفلاحين شجار أصيب فيه جماعة من الفلاحين و ثلاثة من الضباط ، وجرى أحد هؤ لاء وهو مجروح - إلى المحطة القريبة يلتمس النجدة فسقط ميتاً بالرسّعن (ضربة الشمس) بعد مسافة غير قصيرة ، لآن القيظ كان على أشده في الثالث عشر من شهر يونيو ، فلم يقو الضابط الانجليزي على احتماله بعد ماأصابه من جهد الصيد و الجرح و العدّو الطويل .

حدث هذا والموظفون الأنجليز الذين أقلقتهم بوادرالو ثبةالوطنية يتوقون إلى مناسبة يضربون فيها الضربة المصمية ويبثون فيها رهبة الدولة البريطانية، فلم يترددوا في إغتنام هــــــذه المناسبة، وأصدروا الآوامر بارسال المشنقة وأدوات التعذيب إلى دنشواي قبل انتقال المحكمة , وبعد يومين اثنين من وقوع الحادث كانت المحكمة قد انعقدت ، وكان الحكم قد صدر ، وكان المستشار الأنجليزي ينفذه بين الجند المسلحين على مرأى من الآباء والأبناء والاقارب والآزواج ، وهو يقضي على أربعة من الفلاحين بالشنق واثنين بالسجن مدى الحياة ، وثلاثة بالسجن سنة وجلدهم خمسين جلدة .

وازدادت شناعة الحكم بشناعة التنفيذ ، فكان المشنوق ينظر إلى الجمهور والجمهور ينظرون إلى المشنوق ، والشيوخ والاطفال والنساء ينظرون من قريب إلى المشنوقين والمجلودين بين صفوف الجند المحدقين بهم ، وهم يقعقعون بالبنادق والسيوف ، والمستشار في خيلائه يجول بينهم ويصول .

إن القاري. ليتخيل الآن وقع هذا الحادث الآليم في نفوس المصريين ، ويعينه على تخيله ذلك الوصف الوجيز الذي وصفه به قاسم أمين في مذكر اته ، ويزيده قدرة على التخيل أن يعلم أن قاسماً كان يكتب لنفسه ولم يكن على إتصاله بالأصلاح الاجتماعي - من المغموسين في الحوادث السياسية ، لكن كلام قاسم وكل كلام موجز أو مسهب يقصر عن تمثيل ذلك الوجوم المرهوب الذي خيم على الامة المصرية يوم تسامعت بأنباء الحكم وأنباء تنفيذه ، ولقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ في اسوان ، فأغني على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات .

وحسب القاري. من هذا الحادث أن يعلم أن غضب الأمة قـــد هال الوزراء الأنجليز أنفسهم وزعزع بينهم سمعة كرومر بعد طول الأعجاب به والاعتماد عليه ، ودق المسامير الأخيرة في نعش سياسته المصرية ، فعاد إلى القاهرة مقسوراً على إتباع سياسة جديدة غير سياسته الأولى من التجاهل والكبرياء ، ولم يكن يدري أنها سنته الاخيرة التي عزل بعـــدها وأذيع خبر عزله قبل أن يعلم به ا ولو لا عادة الحكومة البريطانية أن تداري هزيمة رجالها لعزلته في أعقاب الحادث ، بغير إبطاء ، لفرط ما فاجأها من سخط رجالها لمعرية وسخط الذين سمموا به في أور با والبلاد الانجليزية .

وزارة المعارف

عاد اللورد كرومر إلى القاهرة في ختام السنة - أوفى مطلع السنة السياسية بخطة جديدة تميل الى الاعتراف بالوطنية المصرية وتخو ها حقاً في حكومة البلاد أكبر من حق الاصغاء والتسليم ، وتحاول ما وسعها أن تنني التهم الكثيرة التي أحاطت بنيات الدولة البريطانية وفي مقدمتها إهمال التعليم عمداً وحرمان الشبان المصريين حظ التربية الصالحة والتثقيف النافع . فكان أول ما بدا من دلائل هذه الخطة الجديدة دعوة سعد زغلول بك ليتولى وزارة المعارف العمومية ، وهو الرجل الذي تصدى قبيل ذلك لنقد التعليم في مصر ، المعارف العمومية ، وهو الرجل الذي تصدى قبيل ذلك لنقد التعليم في مصر ، وإنشاء جامعة كبرى تستدرك مافيه من نقص وخلل .

ولم تكن هذه أول مرة عرض فيها اسم سعد لولاية الوزارة مع فئة من أبناء الفلاحين المعروفين بالنزاهة والحصافة ، فقد كان ترشيحه للوزارة من المطالب التي اشترك في طلبها مستر بلنت الشاعر الارلندي المستشرق والشيخ محمد عبده و محمد المويلحي بك منذ سنة ١٨٩١ . وكتبوا بذلك خطابا إلى لورد كروم ذكروا فيه اسمه مع أسماء تسعة آخرين .

وكان لوردكرومر يعرف سعداً من زياراته لنادي الأميرة نازلي فاضل، ويسمع عنه من أحاديث الاستاذ الامام، ويعلم ما اشتهر به في القضاء من الجدوالنزاهة وحسن الدراية، ويتبين فيه تلك الصفات التي جعلته يقول في خطبة الوداع بعد ذلك بنحو سنة: « إن هذا الرجل قديرشجاع في عقيدته. وقد علمني كيف أحترمه » وهي كلمة كبيرة من عميد بريطاني، شديد الاعتداد بنفسه وبحنسه كاللورد كرومر، لم يقلها عن مصري ولا نذكر أنه قالها عن صاحب من أصحابه الانجليز أو الاوربين.

ومن المحقق أن لورد كرومر عرف من اللحظة الأولى بعد لقاء سعد في

نادى الأميرة ناذلي أنه يرى رجلاً لا كالرجال وموظفاً مصرياً لا يعد من أحلاس الوظائف المتملقين. فقد جلس معه ساعة فأدهشه أن لا يسمع منه ملقاً أو وصية أو رجاء كما تعود أن يسمع من رواد النادي ومن طلاب الحاجات الذين يلقاهم في كل مكان ، فسأله بين المزح والجدد والاستطلاع : « والآرب ياسعد بك اليست لك حاجة ؟ » أو قال له في عبارة أخرى : « وأنت اليست لك حاحة أيضاً ٩ » فامتعض سعد لهذا السؤال ، وأحس فيه تعريضاً به و بغيره من أبناء وطنه فقال له : « شكراً! ولكن لم أسألك أنت قضاء الحاجات ؟ ١ » فلما عاد كرومر إلى مصر على أثر فاجعة دنشواي مزوداً من وزارة الأحرار بسياسة الهوادة والتسامح مع الوطنية المصرية ، والتقرب إلى المصريين الفلاحين بعد ما أصابهم من حيف في تلك الفاجعة ، علم أن هذا الفلاح أصلح الناس لأن يكون رمزاً واضحاً للأعتراف الجديد والتقرب المقصود ، فتم الاتفاق على تعيينه وزيراً للمعارف العمومية ، وأعلن هذا التعيين في الثامن والعشرين من شهر اكتوبر ، أو في مستهل السنة السياسية التعيين في الثامن والعشرين من شهر اكتوبر ، أو في مستهل السنة السياسية التعيين في الثامن والعشرين من شهر اكتوبر ، أو في مستهل السنة السياسية

تلقت الأمة وزارة سعد على هذا الاعتبار ، وفهمت منها أنها ابتداء خطة جديدة في السياسة البريطانية ، فيها معنى العدول عن التجربة الماضية وفيها معنى الترضية والاعتذار ، فقال المؤيد في يوم تعيينه : « مضت إحدى عشرة سنة وبضعة شهور على الوزارة المصرية وهيئتها على حالة واحدة لم يحصل فيها تغيير ولا تعديل بفضل سكونها وعدم حركتها حتى كادت تنسى الأمة المصرية أن لها وزارة من كبار رجالها وصار كل عمل في الدواوين للمستشارين وكل ظلامة ترفع لهم وكل اعتراض يوجه اليهم ، وبينها نحن كذلك في هذا القنوط من وزرائنا إذا برنة جرس قوية صلت على الآذان فنبهت الأذهان إلى حركة جسديدة في الوزارة : حركة تعديل تبعث في فنبهت الأذهان إلى حركة جسديدة في الوزارة : حركة تعديل تبعث في النفس أملأ جديداً من جانبها ، لأننا لانفهم بهذا التعديل الجديد معنى إلا أن ولي الأمر ومستشاريه من أصحاب النفوذ رأوا أن يعيدوا النظار شيئاً من

سلطتهم فلا يكونوا مع المستشارين كما هم قبل اليوم ، ولعل هنــاك تعليمات من قبل خارجية انكلترا قضت بذلك بعد الذي جرى من الحوادث في مصر وأساء المصريين.»

ثم قال: « وسعد بك زغلول يعرفه المصريون قاطبة بالعلم والفضل وعلو المبادي. واستقلال الرأي كما يعرفونه بالمقدرة الفائقة . فيوم كان محامياً اشتهر بقوة عارضته وقوة بيانه وقوة استقامته ، وإذا اجتمعت هذه القوى في شخص رقت به لا محالة إلى ذروة الاحترام.»

« ومنذ تولى القضاء في الاستئناف كان راية للعدل ومثالًا للنزاهة واستقلال الرأي ، فكم أنقدذ أرواحًا كانت ضائعة بغش التحقيق وغرور القضاء الابتدائي ؟ وقد عرف في كل أدوار حياته بالنشاط وحب المزيد من العلم والتضلع فيه حتى أنه وهو حوالي الأربعين من عمره تعلم الفرنساوية حتى برع فيها وأدى بها امتحاناً نهائيًّا في الحقوق .»

ثم قال: « وهو القائل بالأمس إن الأمة المصرية ينقصها العلم الصحيح وهو الداعي إلى الجامعة المصرية. فما يطلب منه في نظارة المعارف أضعاف ما ميطلب من سواه.»

أما « اللواء » وهو لسان حال المتطرفين فقـــد كتب في التعقيب على تعيينه : « ان ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولاً وفى القضاء ، ثانيًا يحملهم جميعًا على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصريًا مشهورًا بالكفاءة والدراية والعـلم الغزير وحب الانصاف والعدل .

« ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصبًا لاعمل فيه وكان المستشارون الانكليز أصحاب السيطرة الثابتة في النظارات ، حق للناس أن يتسالموا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول في نظارة المعارف : هل سيكون

كبقية الوزرا. أمره وأمر المعارف بيد دانلوب؟ أم يكون وزيراً اسمًا وعملاً ويحيي سلطة الوزرا. المصريين ؟

« اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً باستقلاله وحقوقه وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً ، فاذا بقي سعد بك في وظيفته كما هو وكماكان _ وهو مانعتقد _ أملنا خيراً كبيراً للمعارف ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية إلى الوزارة.

« على انه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيراً للمعارف تقديراً لعلمه وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية واتباع لسياسة جديدة قاضية باعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة - فان هذه السياسة تقضي قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيراً حقيقة وأن يكون العبامل عاملاً مؤدياً لوظيفته متمتعاً بكل حقوقه ، لا أن يكون آلة في يد الموظف الانكليزي ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير والمحقق لآمال الامة في نظارة خابت فها مع المستر دنلوب كل الآمال .

ه فنحن لانبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زعلول وزيراً للعدارف إلا بأمل أن يكون كما كان على باشا مبارك والفلكي باشا وأمثالهما عن خدموا العلم في هذا القطر خدمات خالدة ، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة والرأي المتبع ، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كون كذلك وأن يكون في مستقبله كماهو في حاضره وكماكان في ماضيه ، الرجل المستقل الذي لا يخدعه منصب ولا مال.»

ولم تكتم التيمس غرض السياسة الجديدة من هذا التعيين فقال مراسلها في القاهرة « إن الناظر الجديد الذي كانت له منزلة ممتازة في المحاماة والقضاء

هو من شيعة المرحوم محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والتهذيب ، وهم الذين سياهم اللورد كرومر فريق الجيروندفي النهضة الوطنية المصرية وشارة إلى الحزب الجيروندي في الثورة الفرنسية - وهو مصري عريق في وطنيته أجمع الناس على اكرامه والاعجاب به نظراً لما اشتهرعنه من الاستقامة والاستقلال . اما تعيينه لمنصه الحالي فسوف يعزز مركز الوزارة المصرية وهي تجربة جمعت بين الاقدام والتوسع ، ومن شأمها انقد تدحض الانتقادات التي ترمى بها الحكومة من أنها مهملة التعليم .»

وقال الماركيز زتلاند Zetland الذي ألف كتابًا فى تاريخ اللورد كرومر بصدد هذا التعيين .

«ان كرومرنفسه قد خطا في سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة الى الامام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصري معروف بنزعته الوطنيــــة وزيراً للمعارف ونعني به سعد زغلول ، وقد أوصى بهذا التعيين على أن يكون تجربة تلاحظ بالدقة الواجبة قبل تكرارها.»

فما تقدم نرى ان تعيين سعدوزيراً للمعارف انماكان تسلمًا من الاحتلال للوطنية المصرية ولم يكن تسلمًا من الوطنية المصرية للاحتلالكما زعم خصوم سعد بعد ذلك في لجاج العداوة الحزبية المشوبة بالترات الشخصية .

وأنه لمن لغوالقول ان يعزى تعيينه الى مصاهرة رئيس الوزراء وهو الرجل الذي يعتد بنفسه ويعتد به الناس هذا الاعتداد، ولم يشتهر بشيء في حياته كلما كما اشتهر بالشخصية المستقلة والارادة الحديدية ، فمثل هذا الرجل لايقع عليه الاختيار حين يكون المقصود رعاية غيره أو ارضاء صهره، وانما يقع على رجل ماشعة لا خطر له ولا يذكر الا بالاضافة الى أقربائه .

وقد كان منصبه يرشحه للوزارة بغير محاباة بعد أن أصبح في طليعـة المستشارين بمحكمة الاستئناف، تضاف الى ذلك مزاياه الشخصية، وتقدمه

بين شيعة الشيخ محمد عبده إمام المصلحين ، وتاريخه الماضي في الحركة الوطنية ، وانتقاده سياسة التعليم قبيل عرض الوزارة عليه ، والرغبة في ترشيح وزير من عنصر الفلاحين يكون انتقاؤة ترضية متفقاً عليها للنهضة الوطنية ، فكل أولئك يخصصه ويكاد يسميه تسمية ولا يجعل له مزاحمًا واحدًا بين زملائه ، عند البحث عن الوزير الذي يفتتح بوزارته عهد الساسة الجديدة .

وكل أولئك يدل على أن جلوس سعد على كرسي الوزارة كجلوسه بعد ذلك على كرسي الرئاسة إنماكان ترشيحاً «قوميّاً » يراد به وجه الامـــة المصرية ، وإنماكان خطة لازمـة لم يجد الانجليز محيصاً عن السـير فيها ، إذعاناً لمجرى الحوادث واعترافاً بمشيئة الامة .

ذلك إجماع الحوادث والآراء السياسية من كل جانب على استحقاق سعد لذلك الاختيار والتمييز، وعلى مطابقة تعيينه لجميع الدواعي والمناسبات في تلك الآيام. وبما يلحق بهذا الباب أن نضيف إلى الاجماع المتقدم إجماع القضاة والمحامين الذين احتفلوابتو ديعه يوم ترك القضاء لولاية الوزارة.... فالمسيو « دي هولتز » الذي ناب عن المستشارين لانه أكبرهم سنا يقول: « سألتزم الاختصار لان المحكمة متنورة وهي تعمل مقدما ماسأقول ، لانها في همذا الموضوع متفقة معي في الرأي والشعور ، ولا أطيل عليك ياعزيزي سعد في تفصيل ما أنت عليه من صفات الكمال القلبية والعقلية . بل اكتنى بأن أقول: إنه ربما خطر يبالك عند ماتركت المحاماة والعقلية . بل اكتنى بأن أقول: إنه ربما خطر يبالك عند ماتركت المحاماة إلى القضاء إن ذلك كان شرفاً لك . نعم إنه كان شرفاً ولكنه شرف لنا معشر المقضاة . شعرنا به عقب وجودك بيننا إذ تمكنا من أن ننظر عن كثب إلى القضاة . شعرنا به عقب وجودك بيننا إذ تمكنا من أن ننظر عن كثب إلى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك . إنك من بعض الوجوه قد تربيت في حجر عكمة الاستثناف ، فهي تنظر اليك الآن وقد تركتها و دخلت في عمل جديد

نظر آسفة على فراقك ، آمنة عليك ، لأنها على يقين من نجاحك فيهكل النجاح. ومن المصادفات الطريفة أن القاضي الذي شهد له هـذه الشهادة العالية هو القاضي الذي حكم له بالبراءة في شبابه على مايذكر القراء .

أما المحامون فقد قال كبيرهم الاستاذ عمر لطني بك بلسانهم «... نحن معشر المحامين قد تلقينا هذا النبأ بمزيد الفرح والسرور وبغيير استغراب. لاننا عرفناك محامياً وخبرناك قاضياً ، فكنت في كلتا الحالتين محل ثقتنا واحترامنا وإعجابنا ، وكل منا يعتقد أنك أهل لان تسند اليك المناصب السامية التي يصح أن يتو لاها من امتاز بالفضل مثلكم . ولا حاجة بنا أيها الزملاء الى أن نشرح مآثر المحتفل به لماكان محامياً فانكم تعلمون — أو يعلم أكثركم كيف كان يدافع عن الحق بقدرة ونزاهة واستقلال ، مع ماكان يلاقيه المحامي الشريف من الصعو بات للذود عن مصالح موكله ، في عصر يلاقيه المحامي الشريف من الصعو بات للذود عن مصالح موكله ، في عصر على يكن نظام المحاكم الجديدة فيه مألو فا لدى القضاة والمتقاضين .

« . . . وقد خبرناك ياسعادة « الناظر » قاضيًا فكان لك من الحدمات النافعة مثل ما كان لك في المحاماة أو أكثر . وقد شهد بفضلك زملاؤك القضاة يوم احتفالهم بك فلم يتركوا لنا مجالاً للقول ، إلا أننا لانستطيع أن نغفل ما كان لك من الصبر والجلد في جلسات المحاكم ، استقراء للحقيقة وحبا للعدل ، ولا ما كان لك من المشاركة في تكوين الاحكام ذات المباديء القانونية الجليلة التي تشرف اليوم القضاء الاهلى . . . »

وهو كلام موزون تدل عباراته على أن قائله يعني ما يقول ولا يرسل القول على عواهنه ، فاذا أردنا أن نلتفت إلى مزاعم الخصوم بعد ما تقدم فانما نلتفت اليها لانها تستعق الالتفات لما فيها من العسبرة التي هي أنفس مايستفاد من تراجم العظاء ، والعبرة هنا أن لا يحاول أحد من العاملين اتقاء عزاعم الحصوم ، لان الخصوم يحدون ما يقال حتى في رجـــل اجتمعت له كل هذه المناسبات ، وحتى في تعيين اجتمعت له كل هذه المناسبات

سعد الوزير

من الواضح أن الواجب الأول على سعد حين دعي الى الوزارة أن يقبلها ولا يتردد في قبولها، لأنه يطلب اصلاح التعليم وهذه فرصة سانحة لاصلاحه يبديه. ولأن المصريين يريدون ان يقرروا كفاءتهم لتدبير شؤنهم ولا وسيلة لهم الى ذلك غير الاضطلاع باعباء المناصب.

الا ان المعارضين لسعد بعد ولايته الوزارة وجدوا لهم سببًا كان يقضي عليه برفض الوزارة فيما زعموا ، وقالوا إنه تخلي عن اتمام الجامعة المصرية حبًا للوظيفة ، وأن تخليه عنهاكان وشيكا أن يميت الفكرة في مهدها ، وأوغلوا في الظنالسي. حتى الساعوا أن الانجليز وسعدًا تواطئوا على اهمال هالمشروع هو الظنالسي. حتى الساعوا أن الانجليز وسعدًا تواطئوا على اهمال هالمجنة القائمة وصرف الانظار عنه ، ولم يتحرجوا من دعوة الناس الى مقاطعة اللجنة القائمة به والكف عن التبرع للجامعة المنشودة ، واتخذوا من تبرع الحكومة لها به والكف عن التبرع للجامعة المنشودة ، واتخذوا من تبرع الحكومة لها بلال حجة يستدلون بها على وجوب مقاطعتها ، ولم يشاموا أن يعتبروا هذا التبرع أول خدمة نافعة خدم بها سعد مشروع الجامعة وهو وزير للمعارف ، التبرع أول خدمة نافعة خدم بها سعد مشروع الجامعة وهو وزير للمعارف ، ولعله لم يكن مستطيعًا أن يخدمها هذه الحدمة أوغيرها لو لم يقبل الوزارة .

ولما كثر اللغظ في هذه الفرية المجحفة تعمدت أن أسأل سعداً عنها ليسمع الناس جوابه فيها . فقصدت اليه في شهر مايو من سنة ١٩٠٨ يوم كنت أكتب في صحيفة الدستور . وسألته عن شأن الجامعة وبعض الشئون الأخرى فقال :

« إننا لم نبحث إذ ذاك في التفصيلات ولكن الذي كنا نرمي اليـه من إنشاء الجامعة وأعلناه للأمة أنها تعلم التلاميـذ ما لا يتعلمونه في المدارس العالية ، وآداب اللغتين الانجليزية والفرنسية بمـا يدخل في هذا الباب. ولكن لجنة الجامعة لاتكتني بذلك إلاني أول الامر ، وقد أشرت عليها

باضافة آداب اللغة العربية إلى هاتين المادتين ، وهي تتناقش في ذلك الآن،

« وقد علمت أن حضرات أعضاء اللجنة يبدّلون كل الجهد في ابلاغ هذه الجامعة أقصى ماتبلغ اليه . وكل من يعلم من هم أعضاء هدّه اللجنة يثق ثقة تامة بنجاح المشروع على أيديهم ، وأن من الغريب أن يكون في الناس من يثبط همم العاملين والمكتبين لهذا العمل الجليل .

« أن الهمم فاترة من طبيعتها فليست هي في حاجة إلى من يثبطها ولكن هذه الأقوال ربمـا دفعت الخجول الذي تحمله الغيرة على الاقتداء بأمثاله الى قبض يده عن الاكتتاب ، فان فيها مسوغاً يبرر عمله ويظهره في أعين الناس بمظهر الوطني الغيور على مصلحة بلاده .

ه يقولون أن الجامعة وقعت في أيدي الموظفين فانتشلوها منهم، ولكن ألا يتدبرون في عاقبة ذلك؟ من يقوم مقام رشدي باشا وزكي بك وعلوي باشا والمسيو بيرو من غير الموظفين إذا عولنا على إنقاذ الجامعة من يد هؤلا، وتسليمها إلى غيرهم؟ لست أنكر أن الجامعة كما هي الآن ليست كجامعات أوربا ولكن الحالة الحاضرة تقضي علينا بالابتداء بالبدا. قلا بالغاية، فاذا كانت لنا اليوم جامعة صغيرة فغداً تكون كبيرة، ولا يبعثنا كونها كذلك على احتقارها ونفض آيدينا منها، لأبن في ذلك جناية كبرى ونحن في حاجة إلى ماهو دون الجامعة بكثير.

« أذكر أنه لما انشئت الجمعية الخيرية الاسلامية قام بعضهم واستضعف شأنها لانها نشأت صغيرة كما ستنشأ الجامعة ، فما هي الاسنوات قلائل حتى اتسعت دائرتها وأخصب موردها وكثرعدد مدارسها حتى بلغ ماتراه . ولو أن القائمين بها جبنوا أمام الانتقادات لقبرت في المهد ولم تبلغ ما بلغته الآن .

« وفضلاً عن ذلك ان المال الذي جمع الآن لايني بالحاجة ، لأن ستة وعشرين ألف جنيه لا تكني لانشاء جامعة كبرى كجامعات أوربا . هذا لو

دفع كل مكتتب ما تبرع به ولم يقتصر الأمر على العشرة الآلاف التي دفعت حتى الآن. ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ بأجمعه في السنة لما زاد عن ألف جنيه مصرى وهو مالا يكني للانفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة . كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قديجهلون أنها دفعه مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصري بأجمعه ، وليس هذا كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلى الاقبال عليها اقبالاً لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع عليها اقبالاً لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع ماديًا . فرفضهم الآن إشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ماطلبوه منها يعد من الغرابة بمكان ، و يدل على تناقض لا يمكن الجمع بين أطرافه .

« وهب أن اشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون أفهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟ لاأظن ذلك . لأن انقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الآن من الممكنات وليس من المستحيلات ، وانما يكون ممكناً بكثرة المال والمتبرعين، فهي في هذه الحالة أحوج الى المال منها وهي بعيدة من الحكومة ، ومهما يكن من مخامرة اليأس النفوس فان يبلغ الى درجة يجزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة الى الأبد . فن العبث على كل حال العمل على اسقاطها وحرمان البلاد منها .

« أقول هذا وأنا على يقين أن الحكومة لا تقصد سوءًا بهذه الجامعة ولم تفكر في اعاقة سيرها ، وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تتيسر بغير ذلك . وأود لو نفيت كل ريبة بشأنها ، فانها(على أي صورة ظهرت معهد علميّ يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجابه »

هذا جواب سعد عن المسألة الوحيدة التي قال المعارضون إنها كانت

تقضي عليه برفض الوزارة . وأبلغ منه في الاقناع جواب الحوادث الواقعة كما ظهرت في ذلك العهد ثم ظهرت في السنوات التالية . فان الجامعة لم تمت بعمله وانماكانت تموت لو أحجمت الحكومة والشعب عن التبرع لها كاكنوا يريدون ، وأن الحكومة المصرية لم تخسر بولاية سعد هنصب الوزارة فيها بل كانت وزارته أول خطوة عملية في طريق استقلالها وإثبات وجودها بعد انفراد المستشارين والمفتشين الانجليز بتصريف شؤينها وتوجيه سياستها . وفيا يلى بيان وجيز لما عمله سعد في هذا السبيل :

كانت الشرعة التي شرعها الاحتلال في سياسة الحكومة المصرية ، وجرى عليها بالعمل ، وأعلنها اللورد كرومر بالقول الصريح أن الانجليزي رئيس ولو كان مرؤساً ، وان المشورة منه أمر نافذ وان جاءت في قالب النصحة .

وكان كل شيء فيذلك العهد يتفق -- بل يتاكمر - على اعتبار الحكومة المصرية «كما مهملاً » وآلة مسخرة ، بلا استثناء الحكومة نفسها ولاالذين تقع عليهم قبل غيرهم مسبة الاهمال والسخرة .

وكانت وزارة المعارف خاصة عنوان « النكم المهمل » والآلة المسخرة في وزارات الحكومة المصرية ، فلم تكن وزارة مستقلة بوزيرها بل كانت ذيلاً ملحقاً بوزارة الاشغال العمومية يحضر اليها الوزير مر تين في الاسبوع ، يوم الاثنين ويوم الحنيس ، لتوقيع الاوامر والمنشورات المجهزة التي يعرضها عليه المستشار في خلال ساعة أو أقل من ساعة فيمضيها بغير مراجعة ولا مناقشة ، فأصبح هذا المستشار سيد الديوان بغير منازع ، وكان رجلاً عنيداً ضيق الذهن شديد التعصب من أثر البيئة التي نشأ فيها ، لا يعرف من النظام ضيق الذهن شديد التعصب من أثر البيئة التي نشأ فيها ، لا يعرف من النظام ولا نظام الآلات ولا يرضى من المرءوس إلا بالاسراع إلى الطاعة والتنفيذ، ولا قيمة للتعليم عند — على قلة قيمته في ذلك العهد — إلى جانب النظام على الوجه الذي يفهمه ويرضاه ، والوجه الذي يفهمه ويرضاه ، ينحصر في سرعة

الحركة واتخاذ الطاعة العسكرية قدوة في التفكير والسلوك. والاستعداد الدائم لاظهارالموافقة والأذعان بلاكلام ولا تريث. وكلها أمور لا تعدو عنده الظواهر ، ولا عبرة فيها بالنتيجة بل العبرة كلها بالحركة المتعجلة والنشاط العقم والنظافة السطحية!

زار مدرسة أسوان — وأنا بعد تليذ بها — فا هو إلا أرب نمي إلى المدرسة خبر قدومه حتى تأهب الناظر والمدرسون والفراشون غاية الآهبة ونشطوا لاستكال كل نقص واستبعاد كل نقد ، وملاحظة كل ما يخافون أن يلاحظه المستشار المرهوب فا تركوا زاوية في المدرسة ولا في الحديقة إلا تعقبوها يوماً بعد يوم بالتنظيف والتنظيم ، ثم وصل المستشار بعد طول الانتظار . فزار الفصول في خلال الدروس وسمع الاساتذة والتلاميذ ، وأبدى ملاحظاته وتعلياته فماذا لاحظ وماذا علم ؟ في الزيارة الاولى لاحظ وأبدى ملاحظاته وتعلياته فماذا لاحظ وماذا علم ؟ في الزيارة الاولى لاحظ فعلقت به مسحة منه إ . . . وفي الزيارة الثانية لاحظ أن الخيط الذي يمسك فعلقت به مسحة منه إ . . . وفي الزيارة الثانية لاحظ أن الخيط الذي يمسك الحرائط الجغرافية لم يمنعها أن تنحرف بعض الانحراف . . . وكان الوقت شتاء والهواء يتخلل الغرفة ، ولا بد أن يتخللها . وإلا حاق بالمدرسة سوء الجزاء!

جلس سعد في كرسي وزارة المعارف وهي في يدي هـذا المستشار وفي أيدي أعوانه من الانجليز والفرنسيين ، ثم في أيدي صائع له من المصريين . شبوا في كنفه وانطبعوا على غراره ، وهابوه على القرب والبعد لانهم علموا أنه يعزل مرس يشاه بكلمة ، ويرقي من يشاه بكلمة ، ويقضي في الديوان وفروعه بما يشاه ولا راد عندهم لقضائه .

ومن لم يكن منهم صنيعة له فهو لا يرى أمامه سابقة واحدة توسوس له بان ينضوي إلى « الوزير » ولا ينضوي إلى المستشار ، بل يرى أمامه سابقة لا تنسى ولا تحتاج إلى إعادة ، وهي أن أمير البلاد يومئذخالف قائد الجيش ونقد النظام في بعض الفرق فأوشك أن يفقد عرشه واضطر إلى أن يرجع في كلامه ويسجل اعتذاره قبل أن يعود إلى عاصمة ملكه .

ومن الموظفين المصريين من كان يسوءه أن يؤتى للوزارة التي نشأوا فيها وترقوا على درجاتها برجل غريب عنها . وانهم لاحق عند أنفسهم بالترقي إلى مكانه ، وأكفأ لاصلاحها من قاض لم يكابد صناعة التعليم في حياته 1

وعمل الموظفون الانجليزكل مافي وسعهم لاقامة العراقيل حول الوزير الجديد وتأليب العناصر المتفرقة عليه ، ومن ورائهم دار الوكالة البريطانية تحميهم وترحب ولا شك بفشل هذه « التجربة » وقيام الدليل من جديد على قصور الطبيعة المصرية وضرورة الوصاية البريطانية ، بعد ما كشف الساسة البريطان عن حسن نياتهم وسماحة نفوسهم واستعدادهم لاعانة المصريين على ولاية شئونهم 11

وانكا من هـذا أن الوزراء الآخرين نقموا من سعد أن يكون معقد الرجاء ومثار الضجة وهم خاملون مزويون في مكاتب الدواوين ، وأحسوا أن هــــذا الطاريء الجديد يقتضيهم عنتاً ويكلفهم ما لا يطيقون عمله ولا يطيقون تركه .

فعزيز عليهم أن يستكينوا وبينهم زميل أصغر منهم يحفظ حقه و يبرم أمره ويسيطر على ديوانه .

وعزيز عليهم أن يتمردواولاقدرة لهم على التمرد ، وقديماً ألفوا الاستكانة ووطنوا ضمائرهم على الاغضا. والججاراة ، وليس من اليسير على وزير أن يستغني عن مؤازرة زملائه ويشعر بخذلانهم لاعماله وآرائه ،

فكانكل شي. في يد المستشار العتيق ، ولم يكن شي. قط في يد الوزير الجــــديد .

ومع هذا لم بمض اسبوعان حتى كانت كل ورقة من أوراق الوزارة الهامة

تعرض على الوزير ، وكل أمر من أمورها يظل معلقاً حتى يؤخذ فيه رأي الوزير . وكل موظف يعلم أن عهداً انتهى وعهداً بدأ ، وان الوزير هور ثيس الديوان ، وأن المستشار مستشار يقول ما يعن له والرأي الاعلى في قوله لرثيســـه .

هذا يسير في الكلام ولكنه في العمل والانفاذ جد عسير .

وماعمد سعد في انفاذه إلا إلى وسيلة بسيطة قريبة . ولكنها على بساطتها وقربها لا تفلح وحدها ولا غنى لها عن المهابة الشخصية والعارضة القوية لتفعل فعلها وتوحى إلى المعنيين بها أنهم أمام حتم مطاع لا بد من نفاذه ، وأن من يعصيه يقع في مخالفة صريحة لايسوغها أحد ، ولا يحميه المستشار من مغبتها كائناً ما كانسلطانه وعناده ، ولا سيها وهو كاأسلفنا صاحب النظام وفارض الطاعة العمياء للا صول .

ذاك أن الناظر الجديد كان يستدعي اليه الموظف الصغير، أو الكبير، فيلقي اليه بالامر في سكينة الرئيس الذي لا ينتظر غير الطاعة ولا يشك فيها... فاذا الموظف أطاع فذاك. وأن لم يطع فالعقاب أو الانذار بالعقاب في حدود السلطان المخول للوزير بحكم القانون ، وكثيراً ما اعتمد في العقوبة ما يهون ضرره ويشتد ألمه وتشيع العبرة به في وقته ، كالنقل أو تغيير العمل تغييراً يفيد معنى التأخير والغض من المكانة ، ولا يمتد أذاه إلى الرزق والمعيشة

ومن أمثلة ذلك أنه كان في وزارة المعارف رجل فرنسي اسمه « برنار » منوط بتحضير الميزانية وتقييد « تعليمات » المستشار عن أبوابها وأقسامها في خلال السنة ، وهو عمل جليل متغلغل في جميع أعمال الوزارة ترتبط به الترقية والعلاه ة والعقوبة والمثوبة ، ويجري في الحفاء والكتمان فلا يطلع عليه أحد غير المستشار ومن يرتضيه ، حتى يقر الرأي على طبع الميزانية وتوزيعها فيعلم بها الوزير بعد ذلك كما يعلم بها أصغر صغير ا

فدعا سعد مسيو « برنار » هـــــــذا وآمره أن يوافيه بجميع ما عنده من بيانات الميزانية وحساباتها ، وصرفه دون أن يزيد على ذلك كلمة .

وخرج برنار وهو يعجب لهــــذا الأمر الذي لم يسمعه من أحد غير دنلوب 1 ومضت أيام ولم يرجع للوزير بالبيانات والحسابات ، فأرسل اليه سعد ولم يمهله حتى يتكلم بل فاجأه بلهجة حازمة يقول له :

— انني أمرتك يامسيو برنار أن توافيني بالبيانات والحسابات التي عندك من الميزانية ، فلماذا لم تصدع بالامر ؟

فتلعثم الرجل ولم يدر بماذا يجيب انه في محضر مهيب ، وبين يدي رئيس لا يستهان بكلامه ولا يجترأ على غضبه ، ومهما يكن من الامر فليس في وسعه أن يقول لمثل هذا الرئيس أن رغيبه لا تطاع وأنه يطلب شيئًا لا يحق له طلبه ، فحار هنيهة ثم استمهل سعداً إلى أجل قريب . فلم يغير سعد لهجته في خطابه وقال له بذلك الحزم الصارم :

- حسناً اني أمهلك إلى ذلك الأجل، ولكني أعاقبك إن تأخرت عنه وخرج مسيو برنار مرة أخرى وهو لا يصدق أذنيه ، وذهب تواً إلى المستشار فقص عليه ما سمع في الأولى والثانية ، وانتظر ما يقول المستشار فاذا به لا يمنعه أن يطيع ولا يطمعه في حماية ، وإذا بالمسيو برنار يتسلل من الحجرة إلى مكتبه ثم يعود إلى سعد في الأجل المضروب بجميع البيانات وللحسابات ويقول في ضراعة واعجاب .

« إليك يا مولاي ما طلبت ، واني من الساعة رهين أمرك ، أعلم أن في الديوان وزيراً مطاعاً بين مرءوسيه ، فان لم أكن علمت ذلك قبل اليوم فليس الذنب ذني ، وقد يكون لي بعض المعذرة.»

* * *

وعلى هذه الوتيرة سار سعـــد في تقرير وجوده وتدعيم نفوذه واقناع الموظفين بتغير العهد وتحول الاحوال ، سواء كانوا من الوجلين المستسلمين

أو من المتصلفين المكابرين، فهو لا يطلب من احدهم إلا ما يحق له طلبه ويجب على الموظف تنفيذه. ومن ركب رأسه جهار أو عنادا أو استخفافا برئيسه الاكبر فهو لا يغضي عن استخفافه ولا يعامله إلا بما في يده من حقوق الرئاسة المسطورة في قوانين الوظائف: تعززها الهيبة الفطرية والثقة بالنفس والمعرفة بأنجع الوسائل في التنفيذ والنطويع، ولا نجاء لمن يأبى منهم أن يشعر بالتغير أو يروض نفسه على أدب العهد الجديد، فانه ملاق جزاءه لا محالة، ومكره على قبول الجزاء بقدر ما في خلده من التحدي والثقة بالجاية والنجاة من القصاص.

حدث أن سيدة انجليزية كانت ناظرة لمدرسة البنات السنية ، خطر لها أن تتحدى هذا الوزير المصري الذي يأبى أن «بلزم حدوده » فأصرت على فصل تليذة لم تستحق الفصل ولم ير الوزير بعد البحث في شكواها أنها استوجبت هذه العقوبة . فلما أمر باعادتها إلى المدرسة رفضتها الناظرة ثم أعادتها مع حرمانها من دخول الفصول مع التلميذات ، وأمرت بحجزها في حجرة قريبة من باب المدرسة . تتناول فيها طعامها وتقرأ فيها دروسها ولاتخرج منها إلا باذنها ، واتصل الخبر بالصحف المصرية فكتبت إحداها مقالا بعنوان (النفوذ الوهمي في نظار المعارف) شرحت فيه هذه المعاملة ودعت الوزير إلى التحقق منها ليعلم — إن كان لا يعلم — أن أوامره لا تنفذ في مدارس القاهرة على مقربة من ديوان الوزارة !! فبكر سعد في اليوم التالى في مدارس القاهرة على مقربة من ديوان الوزارة !! فبكر سعد في اليوم التالى بالذهاب إلى المدرسة ، ورأى بنفسه صدق ما كتبته الصحيفة في جميع تفصيلاته . فأمر بوقف الناظرة وإحالتها إلى مجلس التأديب ، وأدخل التلميذة في الحال إلى الفصل مع سائر التلميذات .

وعلم « الترف كاوب » نادي الموظفين الأنجليز بالقصة فشارت ثائرة أعضائه ونسوا أن المسألة مسألة رئيس على الحق ومرؤسة مستخفة بحقه علانية ولم يذكروا إلا أنها مسألة رجل صارم وسيدة من الجنس اللطيف... وأخذت الصحف الانجليزية المحلية تحمل على الوزير ومن ورائها الجالية الانجليزية كلها تتوعد وتتألب وتسعى هنا وهناك لألغاء الامر باحالة الناظرة إلى مجلس التأديب ، وكان لابد لسعد من تنفيذ أمره أو الاستقالة ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فالبقاء في المنصب كالرسم المعطل لايملك رجع تلميذة إلى مدرستها وهي لاتستحق الفصل ولا العقاب .

والتفتت مصركلها تنظر ماذا يكون من وراء هذا الصراع الغريب الذي لم يسبق له مثيل ، وخيل إلى « الترفكلوب » أنه روع هذا الوزيرالمجازف وجفله واضطره إلى الاحجام والتردد، ولكنه لم يرع ولم يتجفل ومضى في قراره فأعلن موعد المحاكمة وانعقد المجلس واتفق على الادانة . ولكن الضجة التي لم ترع سعداً راعت المجلس وضاعفت عناد الموظفين الأنجليز ـــ ومنهم كثرة الأعضاء ــ فصدر الحكم على الناظرة بجزاء طفيف لايعدو لفت النظر والتحذير ، وهو جزاء علىخفته كان فيه مخرج كاف من الورطة لوزيرآخر ، أوكانت فيه ذريعة إلى طي هذه المسألة والاستراحة من ضوضاتُها ، ولكن الوزير المجازف كما كانوا يسمونه لم يشأ أن يختمها هذا الختام وأعقب ذلك الحكم الضعيف بنقل الناظرة من المدرسة السنية إلى مدرسة المعلمات الأولية في وُلاق ، وهو أيضاً حق من حقوقه لاشك فيه . فكا مُمَّا صب النفط على شـــعلة الغضب الأنجليزية في جميع الدواوين ، وسرى هذا الغضب إلى لندن فسألأحدالنواب في البرلمان ه عن الاجراءات التي اتخذت ضدالوزير المصري الذي أهار الناظرة الأنجلبزية » . . . فلم يغن شيء من ذلك عن الناظرة المعاقبة ، لأن الوزيرأصر على إبقائها في المدرسة التي نقلت اليها حتى اعتزلت خدمة الحكومة المصرية

وكان لدار الكتب الأميرية مدير ألماني له شأن خاص في العلاقات الدولية التي تدور حول مناصب الأجانب في الحكومة ، لأن الانجلير أحبوا أن يزدلفوا إلى بعض الدول على أثر الاحتسلال باحتكار بعض المناصب

المصرية لأبنائها . فنفاهموا على أن يحفظوا رئاسة دار الكتب للألمان ، وشاءت سياسة الامبراطور غليوم أن يعظم من شأن هذا المنصب في عاصمة الشرق العربي فاختار له عالماً من صحبه المقربين الذين كان يعتمد عليهم في ترويج الثقافة الإلمانية بين العرب والمسلبين .

ولم يكن عجيباً من رجل كهذا أن يعتز بشأنه ، ولا كان عسيراً عليه ان يغلو في ذلك الاعتزاز الذي لا يكلفه مشقة ولا يعرضه لحسارة . فلما أراد سعد أن يوجهه إلى نظام جديد في دار الكتبتهاون برأيه وأسرف في تهاونه وتجاهل و جود هذا الوزير كما كان يتجاهل من قبله ، فلم يزد سعد على أن أمر ادارة المستخدمين بارسال « إنذار » اليه كالنذر التي ترسل إلى صغار الموظفين ، وهو يعلم أن الانذار سيقيمه ويقعده ويبلغ من نفسه ما يبلغه العقاب الجسم.

وقد قام الرجل فعلاً وقعد ، وقامت معه وقعدت دار الوكالة البريطانية ، فخاطبت ســــعداً فيه ورجت منه أن يردف الانذار بخطاب يمحو أثره ويفسره على وجه يسوغ مذاقه ، فكان جوابسعد انالتفسير الوحيدالذي عندي هو « أنني أنذرت هذا الموظف لانني أنذرته » وعليه هو أن يصدع بالامر أو يستقيل .

وكان الدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب رجلاً لا يقل في الصلف والاندفاع عن مستر دنلوب المستشار . فدخل يوماً على سعد دون أن يستأذن ، فأبي سعد أن يصغي اليه فيما حضر من أجله قبل أن ينهه إلى خطئه ووجوب الاعتذار منه ، فلم يجد الرجل مناصاً من الاعتذار الآنه واجب يفرضه عليه أدب اللياقة وأدب الوظيفة ، ولم يعد الى ذلك الخطأ مرة أخرى ومن أعاجيب الدكتور كيتنج هذا ، بل من الدلائل على الغطرسة التي كان يفرضها بعض الموظفين الانكليز يومئذ على الحكومة المصرية ، أنه كتب تقريراً يسجل فيه على المصرين أنهم لا يصلحون لتدريس العلوم الطبية . . 1

لأن سعدا اقترح أن يوفد إلى أوربا بعثة من الطلاب المصريين لدراسة هذه العلوم و تدريسها بعد عودتهم إلى مصر بدلاً من الاساتذة الاجانب... وقد أراد من سعد أن يعدل عن اقتراحه عملاً بذلك التقرير ... فقال له سعد : ألم يخطر لك ياد كتور كبتنج أن تبحث عن وزير « غير مصري » يسجل على أبناء جلدته هذا العجز السرمدي ١٢ ، و بلغت المسألة إلى اللورد كروم فلم يسعه إلا أن يوافق سعداً و يعترف بأنها غلطة ا

وكما كان سعد يعتمد في تقرير وجوده على حفوق سلطته القانونية كذلك كان يعتمد فيما يطلبه أو يأمر به على نصوع الحجة ، والشجاعة في ابداء تلك الحجة لمن يخالفه كائناً ماكان شأنه . فمن ذلك أنه بحث في تحسين مرتبات الموظفين المصريين فلم تسعفه الميزانية في مبدأ الآمر ، فظل يترقب الفرصة حتى أذنت وزارة المالية لوزارة المعارف باعتماد يبلغ ألفاً وأربعائة جنيه أو نحو ذلك ، فخصص منها أربعمائة للزيادة المطلوبة وأبي دنلوب أن تجي الزيادة لموظف في الوزارة من غير طريقه . ! فهرول إلى دار العميد يبالغ في وصف العواقب الوخيمة التي تنذر الوزارة من معامرات سعد في شئونها المالية . وقال اللورد كرومر لسعد في أول لقاء بعد هذه الشكاية : « إنك باسعد باشا تعرف القانون ولكنك لا تعرف الشئون الاقتصادية ! ! . . يأجانه سعد : إنني أعرف من هذه الشئون ما يكني للتصرف فيما نحن بصدده . المقتصدين في العالم . وأعرف أن وزارة المالية لا يحق لها أن تدخل في حسابي المقتصدين في العالم . وأعرف أن وزارة المالية لا يحق لها أن تدخل في حسابي المنا وتعمائة فقط فلا حساب لها عندي »

قال لورد كرومر: أو هذه هي المسألة ؟ قال نعم . فقال اللورد: أنت على صواب ، وقد أخطأ دنلوب .

وبهذه الحجة الحاضرة وأمثالها كان يلق مخالفيه فلا يجدون لهم مناصاً من موافقته أو من تـكليفه أن يعمــل الخطأ وهو عالم بخطئه ، وذلك ما لا يستبيحه رجل مهذب يخاطب رجلاً مثل سعد في صراحته وشجاعته واقتداره على توضيح رأيه .

ومما يدل على مصدر نفوذه في وزارته وانه كان يعتمد فيه على نفسه لاعلى صداقته للورد كرومر أو غيره انه احتفظ بهذا النفوذ بعد أيام كرومر في عهد السير الدون غورست الذيكان يجري على سياسة الوفاق مع الخديوعباس الثاني، ولا يحمل أن سعداً لم يكن من أصحاب الحظوة عند سموه . فني عهد غورست كان سعد يستقل برأيه حتى في تعيين الموظفين الذين توصي بهم دار العميدويوصي بهم غورست نفسه : كان في مصلحة المباني مفتش انجليزي لا يحسن الاشراف عليها ، وكانت المباني الحكومية تتهدم أحيانا قبل استلامها . فارادوا إقصاء خلك المفتش عنها والتخلص منه بنقله إلى وظيفة أخرى . فطلبوا من وزارة المعارف أن تعينه أستاذاً في مدرسة الهندسة فرفض سعد . وتحدث غورست المعارف أن تعينه أستاذاً في مدرسة الهندسة فرفض سعد . وتحدث غورست ولا نريد أناساً يعلمون الطلاب البناء ، ولا نريد أناساً يعلمون الطلاب البناء ، ولا نريد أناساً يعلمون الطلاب البناء ،

قال غورست : ولكنه رجل طيب .

فسأله سعد : لو كنت أنت في مركزي هل تعينه 1

فلم يسع غورست إلا أن يقول « لا » . . . ويعدل عن طلبه .

وعلى هـذا النحو استقامت لسعد السلطة التي تليق بوزير في ديوانه ، وشعر دنلوب أن العراك في هذا الميـدان ليس بالسهل ولا بالمفيد . فانحرف بالحنلاف معه من الصراع إلى المراوغة ، ولجأ إلى خطة جديدة في تنفيذ مايريده ويرفضه سعد أو يتوقع منه رفضه . وهي الانتظار إلى أن يسافر سعد بالاجازة الصيفية في أو اخر السنة الدراسية ، وعندئذ يسرع إلى مطالبه المطوية

فيظهرها وإلى الوظائف التي يرشح لها أعوانه فيشغلها ، ويعود سعد وهو لايملك تغييراً لما حدث ، إلابعد جهد جهيد وانتظار قد يطول إلى زمن بعيد.

وقد تمت في زم هذه الفترات مكيدة من المكائد التي كانت لها ضجة في ذلك الحين استغلما خصوم سعد في الحملة عليه وهم يعلمون أنه لم يحضرها ولم يكن يجيزها لوحدثت في حضوره. فقد سافر سعد للاصطياف في شهر مايو سنة ١٩٠٧ وناب عنه محمد عباني باشا وزير الحربية ، فما هو إلا أن غادر الديوان حتى عمد دنلوب إلى ناظر مدرسة الحقوق الفرنسي الاستاذ لامبير الديوان حتى عمد دنلوب إلى ناظر مدرسة الحقوق الفرنسي الاستاذ لامبير فتعنت في مضايقته بالاعيب صبيانية لا تخفى فيها نية الاحراج والنكاية . ثم ألغى أجازته بعد الترخيص له بها وأمره بالبقاء في المدرسة إلى أن تصدر له أوامر أخرى فعز على الرجل أن يخضع لهذا الاحراج فاستقال وغادر البلاد .

وكان دنلوب ينتظر هذه الاستقالة بفارغ الصبر فبادر إلى قبولها وتعيين مستر هل الانجليزى في مكانه ، ومن هنا ثارت الضجة التي أشرنا اليها واشتركت فيها الصحافة الفرنسية والمصرية بلسان واحد الآن مستر هل لايحمل من الشهادات غير شهادة الليسانس التي يحملها كل طالب يتخرج من المدرسة ، ولانه أول ناظر إنجليزي لمدرسة تنتظم فيها الدراسة على أصول القوانين الفرنسية ، وتم ذلك كله في غياب سعد كما يتم الكمين المختلس في جنح الظلام .

هذه الحادثة التي استغلها بعض الخصوم ليس فيها ما يعاب على سعد أو يغض من قدره ، بل هي تدل على أن الرجل قد أو فى على الغاية من القيام بواجبه والاحتفاظ بحقه ، ولم يدع للمستشار صاحب الحول والطول في الوزارات الآخرى إلا أن يتحين الفرص ويترقب أوقات غيابه ليعمل ماهو عاجز عنه في حضوره . وأي شهادة للوزير المصري أكبر من هذه الشهادة ؟ وأي دليل على قدرته الشخصية أكبر من بلوغه هذه القدرة وهو

يحارب المستشار الأنجليزي بغير سندمن الحاشية الحديوية ؛ ولامن الصحافة التي تحمل عليه بالباطل؟

إننا اذ نقول انه أدرك ماأدرك من تلك المكانة في ديوانه بحسن التصرف وقوة الحجة لا نفسر السركله بهذه المكلمة ، فهي لا تفسر إلا الظواهر العرضية ، وانما تحيلنا الى قسدرة كبرى لا يغني حسن التصرف ولا قوة الحجة بغيرها. وهي القوة الكامنة التي يلوذ بها الرجل العظيم في طوية نفسه. فالأسلوب الذي توسل به سسعد إلى غرضه هو من أسهل الاساليب على المتصرف القادر عليه ، ولكنه من أصعها وأعضلها على غير أهله ، فاذا أقدم عليه رجل مستباح الهيبسة قليل الدراية فقد يتعثر به في بداية الطريق أو يتراجع به دون الغاية .

ثم لاتكنى الهيبة والدراية وحدهما لضمان النجاح في مثل ذلك التصرف؛ إذ لابد معهما من شجاعة على احتمال التبعة ، وقلة المبالاة بما تجر اليه ، وفي مقدمته إعتزال المنصب .

ثم لا تكفي الشجاعة أيضاً حتى يكون الرجل الذي يشغل المنصب ذا قدرة يحسب حسابها وتخشى عواقبها إذا هو انتقل من الحكومة إلى الحياة العامة، وينبغي أن يكون اعتزال المنصب خطراً يخشاه محرجوه أكثر مما يخشاه هو على نفسه، وهذه هي القدرة التي إعتصم بها سعد وتغلب بها على عقبات شتى ودسائس لاتحصى .

أقام سعد في وزارة المعارف أربع سنوات عمل فيهاكل مافي الطاقة عمله مع هذه المعارك الدائمة التي كان لايفرغ منها لتوطيد سلطته الوزارية ، بل لاختراع سلطة لاوجود لها من قبله . وكان عليه أن يدبر المالوالمال في وزارة أخرى بيدالمستشار المالي الذي يقول وقوله الفصل في جميع المصروفات ، وأن يدبر الأنصاروهم قليلون في ديوانه وفي الدواوين الأخرى وفي قصر الأمير

وفي دار العميد وفي الصحافة بل قليلون حتى بين الموظفين الذين كان يخدمهم ويسهر على مصالحهم ويناضل الأقويا بجيعاً لانصافهم وتحسين أحوالهم فن عمله بين تلك المعارك والمحاولات انه وجه عنايته إلى تعليم الأخصائيين وتعليم الشعب في وقت واحد . فأعان الجامعة المصرية بما استطاع من مال وتضحية . ورأى أن انتظار ثمراتها يطول قبل أن تنتفع البلاد منها بتخريج الاخصائيين المطلوبين في فروع الدراسة العالية ، فاستأنف إرسال البعثات إلى المعاهد الأوربية ، وأشرف بنفسه على إنتقاء الطلبة النجباء متحرياً في ذلك الاخلاق كماكان يتحرى الذكاء والكفاءة . . . ومن ملاحظاته في هذا الصدد أنه استعرض الطلبة المرشحين لاحدى البعثات يوماً فسأل أحدهم — وقد السكبر سنه — هل تزوجت ؟

قال الطالب: نعم

قال: وكيف تصنع بزوجتك وأنت مقدم على سفر قد يعتاقك في أوربا بضع سنوات؟

قال الطالب: إنني طلقتها ياسعادة الباشا ١

فأمر بحذف اسمه وقال: مثل هذا لايؤتمن على تعليم .

أما تعليم الشعب لمحاربة الأمية — أو الوصمة الرائنة على سمعة مصركا كان يسميها — فقد اتخذ العدة له بالاكثار من المكاتب في القرى الصغيرة، وتولى بنفسه الطواف بالوجهين البحري والقبلي للحض على انشائها وتوسيعها وتشجيع الفقهاء والمعلمين على خدمتها ، وقد رفع الاعانة المخصصة لها إلى أكثر من ضعفها ، وزاد عدد المدارس التي يتخرج منها معلمو المكاتب لسد الحاجة إلى المعلمين المدربين الذين يستلزمهم شيوع هذا النوع من التعليم ، ولم يسمع برجل له همة ماضية في نشر هذه المكاتب إلا قربه وكافأه ولوكان في وزارة أخرى . فنقل القاضي عبد الرحيم احمد بك من وزارة الحقانية إلى وزارة المعارف ، واتصل بالمديرين في الاقاليم يحضهم على تشجيع الفقهاء وزارة المعارف ، واتصل بالمديرين في الاقاليم يحضهم على تشجيع الفقهاء

والوجهاء على إنشاء المكاتب ويوصيهم أن يحتفلوا بتوزيع جوائزها احتفالاً يغرى الطامعين في جاه الحكومة والزلني اليها . وعني بانشاء الاقسام الليلية للذين جاوزوا سن التعليم في المكاتب والمدارس ، ليحارب الامية بين الكباركما يحاربها بين الصغار بالمسكاتب النهارية .

وكان في بعض طوفاته بمكاتب الصعيد إذ التفت إلى تلميذ صغير حسن الأجابة بيّنِ الذكاء ، فأمر لساعته بنقله إلى المدرسة الامـــيرية بغير مصروفات ... وهنا قامت القيامة في ديوان الوزارة وغضب مستر دنلوب غضبته العسكرية لمخالفة القوانين ماذا؟ أتلميذ بغير مصروفات وليس في الميزانية باب للحانية ؟ إن النظام إذن لني أشد الأخطار . وماذا يصنع مستر دنلُوب في الديوان إلا أن يحافظ على النظّام ويضيع التعليم ؟ ... فلما عاد سعد إلى القاهرة كان مستر دنلوب قد نفيخ في المشكلة حتى أوشكت أن تنقلب إلى أزمة وزارية ، وسمع لورد كروم بالخلاف المستحكم مسأل سعداً فيه وقال له : ألا تعترف أن تعليم هذا التلميذ بالمجان مخالف لنظام الوزارة؟ فقال سعد نعم هو مخالف ، ولكنه ليس بالمخالفة الوحيــدة التي اقترفتها الوزارة فيما سبق . وسرد له مسائل كثيرة كلها مخالف للقوانين وكلها في غير مصلحة التعليم . ثم قال : فلماذا لا نخالف القوانين مرة واحدة في مصلحة التعليم ؟ وأصر سعدعلى بقاء التلبيذ في مكانه ، وسوع بقا.ه بمــا كان في أبواب الميزانية من « الأوقاف» المحبوسة على تعليم الفقرا. وقد أضيفت إلى وزارة المعارف منذ عهد طويل، ثم أصر على فتح باب المجانية ليكون تعليم الفقراء بغير مصروفات مطابقاً للقوانين. وفتح باب المحانية فعلاً في المدارس الثانوية فأصاب به غرضين : أحدهما تسهيل الدراسة على الفقير ، وثانيهما ترغيب الطلاب في دخول مدرسة المعلمين ، لأنه اشترط على التلميذ الذي يتعلم بالمجان في المدارس الثانوية أن يشتغل بالتدريس بضع سنوات.

ومن الما آثر التي تلحق بهذا الباب ولا يجوز ﴿ لَاسُوانِي ﴾ أن ينساها في ترجمة سعد أنه استكثر المصروفات المدرسية على أهل الصعيد الاعلى

فأمر بتنزيلها الى ثلاث جنبهات في المدارس الابتدائية باسنا وادفوواسوان ه*م

ومن أجل الأعمال التي قام بها سمعد في وزارة المعارف وجازف من أجلها بمنصبه وبحسن العلاقة بينه وبين الأقويا. عملان : أحدهماكان مغضباً للخديو وأتباعه من الشيوخ الازهريين .

نقل التعليم من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية فأغضب الانجليز أشد الغضب ، واحتاج إلى تذليل عقبات أخرى غير عقبات المقاومة السياسية ، وهي تحضير الكتب وتحضير المدرسين وتهيئة الجو للتدرج من نظام متغلغل متشعب مضت عليه خمس وعشرون سنة إلى نظام طاري ً لايزال في دور التميد ، محتاجًا إلى المعدات والمنقذين .

وأنشأ مدرسة القضاء الشرعي وهي تغضب الحديو واناسًا يتبعونه من شيوخ الآزهر الذين كانوا يكرهون الاصلاح في معهدهم ويحبون في الوقت نفسه أن يستأثروا وحدهم بمناصب القضاء الشرعي والمحاماة الشرعية وما اليها من المناصب . وكان إصلاح المحاكم الشرعية أمرًا لايدخل في برنامج وزارة المعارف العمومية ، فلا موجب لاهتمام سعد به ومغاضبة الحديو من أجله إلا اهتمامه بالاصلاح حيثما استطاع وجهد ما استطاع .

كان الحديو حريصاً على استبقاء الأزهر في قبضت لاطلاق يديه في الحتيار القضاة الشرعيين والاشراف على المجالس الحسيبة وما يعهد اليها من محاسبه الأوصياء على التركات والنظار على الأوقاف، ولكنه كان يعارض في اصلاح الازهر وتمكينه من اعداد القضاة والمعلمين والمحامين على الوجه المطلوب. وقد تعب الشيخ محمد عبده في علاج هذا الاصلاح العسير حتى نفض يديه آخر الأمر واضطر إلى اعتزال منصبه في مجلس الازهر الأعلى. فلما تصدى سعد لهذه المعضلة العصيبة هاجمته الاغراض والسعايات والعراقيل من كل جانب، فعزم عزمته و « نكب عن ذكر العواقب جانباً » كعادته من كل جانب، فعزم عزمته و « نكب عن ذكر العواقب جانباً » كعادته

حين يتصدى لأمر هو على يقين من صلاحه ومن وجه الحق فيه ، وجاء إلى. مجلس الوزراء الذي سينظر في المشروع وهو معول على أمر من أمرين : إما مدرسة القضاء ، وإما الاستقالة وهو غير آسف .

قال سعد في بعض أحاديثه لنا عما جرى في تلك الجلسة بينه وبين الحديو: أن الأقاويل اختلفت في المناقشة التي دارت بينى وبين الحديو في ذلك اليوم. فقال أناس إنني ضربت على المنضدة بيدي وقلت في وجه الحديو: دعني أدافع عن مشروعي! وإن الحديوي أجابني حينذاك ساخراً: يظهر أن الباشا لم ينس بعد صناعته القديمة ... يعني المحاماة ، وقال أناس غير ذلك مما يحري مجراه ، والصحيح أنني لم أضرب على المنضدة بيدي ولم يعرض الحديو بسابق عملي في المحاماة . وأنما شاهدت من سموه في تلك الجلسة ميلاً ظاهراً إلى رفض المشروع بعد ماشجعني على المضي فيه ، ورأيته يأبي علي المناقشة والشرح أمام زملائي الوزراه

قال رحمه الله بفكاهته المعهودة: وكنت قد انتقلت من القضاء إلى الوزارة « بعبلى ». فد أبت على الشرح والاستدلال وقلت: انني أفهم أن المناقشة حرة ، وأود أن أعرف المانع من تنفيذ المشروع ولا أدري أن هسندا الكلام يغضب الحنديو ويثقل وقعه على سمعه . فاحمر وجهه كلون طربوشه ، وسمع أصحابنا الوزراء مني هذه اللهجة فأيقنوا أنني لاأقدم عليها إلا وأنا مؤيد بقوة خفية ، ووهموا أن لورد كرومر يريد إنشاء المدرسة على الرغم من جميع العقبات ، فأجازوا المشروع بالاجماع وبتي الحنديو وحده معارضًا فيه ! والحقيقة أن لورد كرومر لم يفاتحني في المسألة إلا بعد أن سمع بما دار بيني وبين الحديو من المستشار المالى ، وقد كان يحضر جلسات على الوزراء .

وهكذا نشأت المدرسة التي قامت في طريقهاكل هذه العراقيل، مدرسة لاضرر فها على أحد من الازهريين الراغبين في ولاية القضاء أو الاشتغال بالمحاماة لانها تختارمنهم طلابها وخريجيها ، وكل مافيها أنهاتعين على الاصلاح حين لم يكن في الأزهر سبيل إلى الاصلاح ، وأنها تجمع بين علوم الدين واللغة والعلوم العصرية ، ولا تخل بالمأثورات الصالحة ، فينتفع بها القضاء الشرعي وتنتفع بها الثقافة الشرقية .

ولقد نظر سعد إلى موظني الديوان كما نظر الى المدارس والتعليم ، فأوسع للمصريين صدور الوظائف في التفتيش والادارة ، واختسار منهم وكلاء للمدارس الثانوية تمييداً لترقيتهم الى وظائف النظارة وما فوقها . بعد أن كانت محرمة عليهم موقوفة على الأنجليز دون غيرهم الافيما ندر ، وأعانهم على الظهور والعمل في مختلف النواحي كلما وجد موضعا لأعانة .

ونعتقد أن الفائدة التي أفادبها التربية الوطنية بالقسدوة الشخصية كانت لاتقل عن فائدته بأعماله وخططه ومشروعاته ، لأنه قد أشع حوله نوراً من الصراحة والاستقامة ، كان له أثر ناجع في جلاء النفوس التي ران عليها النفاق وسوء الطوية ، وفتح أبوابه للموظفين والطلاب يتقبلهم جميعاً ويستمع اليهم جميعاً ولا يتوانى عن إنصاف ذي حق ولو كان غريمه من أكبر الرؤساء ، وقد تلطف السير الدون غورست مرة فأحب أن ينبهه مر طرف خني إلى وجوب المداراة في الانصاف لئلا يحتري الصغار على الكبار فقال لهسمد : « انه مامن موظف يظلم آخر إلاوهو رئيسه وأكبر منه . فتي نجهر مانصاف المظلوم إذن ؟ ولماذا نسهل الظلم على الظالم ليتادى فيه ولا نسهل النصاف على المظلوم إذن ؟ ولماذا نسهل الظلم وحفظ حقه ؟ »

جاءته يوما شكوى صارخة من ظلم فادح أصاب موظفاً صغيراً في الوزارة ، فراعه ماقراً فيها واستدعى صاحبها فقال له ; « انك أزعجتني بشكواك . وقبل أن أشرع في تحقيقها أحب أن أفهمك انني سأنصفك من كائن من كان إذا تبين لي صدقك . ولكني غير معفيك من الجزاء الصارم إذا تبين لي غير ذلك . فهل أنت على استعداد ؟ قال الرجل نعم . أنا راض

بحمكم وزير اليوم قاضي الأمس » . . فلما أسفر التحقيق عن صدق الرجل انصفه لساعته ، وقال لهوهو يبلغه أمره بقبول شكواهو إنصافه : « إحمدر الله 1 إني ما كنت لادعك تزعجني ذلك الازعاج بمثل تلك الشكوى الصارخة ثم تنجو من العقوبة لوكنت على باطل.»

وكان يحب النظام والمحافظة عليه ولكنه يحب أن يحسب حساباً للعواطف الانسانية النبيلة ولا يفرضه نظاماً آلياً على آلات لاتفكر ولا تشعر · فلماخرج الطلاب من المدارس العليا والثانوية في صبيحة اليوم الذي شيعت فيه جنازة مصطنى باشا كامل ومشوا فيها باعلام مدارسهم في طليعة المشيعين غضب دنلوب غضباً شديداً واقترح إلغاء الامتحانات تلك السنة وفصل بعض الطلاب الكبار مع حرمانهم من جميع الامتحانات المقبلة . فوقف له سعد وقفة لا يتزحزح عنها ، وقال : « إنها غاشية حزن ألمت بالامة بأسرها ، فلا يعقل أن ينأى عنها شبان مصريون لمجرد كونهم طلاباً في مدارس أميرية .»

وإذا ذكرنا أنسعداً كان أول وزير مصري تحدث إلى الصحف ، وأول وزير مصري خرج من ديوانه للطواف في الأقاليم ، وأول وزير أبطل التحية العسكرية التي كان يقابل بها الوزراء على أبواب الدواوين ، وأول وزير مصري قرر إقفال المدارس للاحتفال برأس السنة الهجرية ، علمنا أنه قد أفاد التربية الوطنية حقاً بالقدوة الشخصية كما أفادها بالخطط والأعمال . فان لحل عمل خطير بداية صغيرة ، وان لبعض المراسم أثراً في تبديل العادات الشعبية والايحاد إلى الضائر لايقل عن أثر الدساتير المكتوبة والحقوق المكسوبة ، ولاشك أن اتصال سعد بالرأي العام كان أول اعتراف بسلطة الأمة وحق الرأي العام في الرقابة على الحكومة ، وأن خطوته الأولى التي خطاها في اثبات وجود الوزير واخلاء الوظائف الكبيرة لابناء البلاد كانت خطاها في اثبات وجود الوزير واخلاء الوظائف الكبيرة لابناء البلاد كانت مداية استقلال الموظف المصري في جميع الوزارات.

وزير الحقانية

في أواخر سنة ١٩٠٨ استقالت الوزارة الفهمية فخلفتها الوزارة البطرسية ... وفي أوائل سنة ١٩٠٨ قتل بطرس غالي باشا فاتفق الحديو والسير الدون غورست على دعوة محمد سعيد باشا وزير الداخلية لرئاسة الوزارة الجديدة ، ولم يُدع لها سعد مع أنه أقدم عهداً بالمنصب الوزاري من محمد سعيد ، لأنه لم يكن من أصحاب الحظوة عند الامير ولا عند العميد ، وإنما كانا يحتملان بقاءه في الحكم احتمالا ، لانه أهون الإضرار .

وكانت وزارة الحقانية من نصيب سعد في الوزارة الجديدة ، وكان اختياره لها في ظاهر الآمر من قبيل الترقية والنرضية ، لآنها احدى الوزارات الثلاث التي جرى العرف على اعتبارها وزارات الدرجة الآولى : وهي وزارة الداخلية ووزارة المالية ووزارة الحقانية ، ولما كانت وزارة الداخلية ورئاسة الوزارة عملاً واحدًا كما جرى العرف الغالب في مصر ولا يزال جاريًا الى الآن — فالوزارة التالية لها التي تصلح لرجل نشأ في المحاماة والقضاء هي وزارة الحقانية .

هذا في الظاهر . أما في حقيقة الأمر فقدكان الغرض من اسناد الحقانية إلى سعد تقييده واتقاء صدماته ، لأن الحقانية هي وزارة التشريع والقضاء ، والتشريع كما لا يخفي من عمل مجلس الوزراء كله لا من عمل وزير الحقانية وحسده ، والقضاء عمل تتولاه المحاكم ولا دخل فيه للوزير الا المقانية من بعيد . فوجود سعد في هذا المنصب هوأسلم الحلول في تلك الحالة : أسلم من رفاسته للوزارة ، وأسلم من خروجه ، وأسلم من بقائه في وزارة المعارف العمومية .

وفي وسعنا بعد ماقدمناه من تاريخ سعد أن نعرف ماذا هو صانع في

وزارته الجديدة ، بل في وسعنا آن نعرف ماذا هو صانع في كل مجال إذا نحن عرفنا ذلك المجال وعرفنا أعماله وحدوده ، فليست هذه الشخصية من الشخصيات الغامضة التي يكثر فيها التخمين والاستكشاف ، أو تكثر فيها الاغوار والسراديب ، ولكنها شخصية يصح أن توصف م بالحسابية به لانها لا تدورا لا على أمور معلومة المقادير مرسومة الغايات ... فأينها كانت فهناك كرامة واصلاح وإنصاف مظلومين ، ولا يبق عليك الا أن تعرف الإعمال التي تتناولها هذه المقاصد الثلاثة لتعرف ما يعمل فيها .

كرامة له وكرامة لغيره ، وذلك أول شرط من شروط الكرامة النبيلة أو الكرامة التي تقوم في أساسها على قوة صحيحة . فإن النفس الكريمة حقّاً ليؤذيها أرن ترى الذل والصغار في غيرها الانهما وضَر تنفر منه الطبيعة القوية . أما أوائك المتكارمون الذين يقيسون عزتهم بالقدرة على إذلال غيرهم فأولئك لا يعافون منظرالذل ومن يجم لا يشعرون بحقيقة العزة ، وإنما يعيشون في عالم من ظواهر مصطنعة زائفة تروج في أرخص الاسواق .

علمنا مما تقدم أن سعداً كان يأبي على وزارة الحقانية وهو قاض أن تحاسب القضاة على أخطائهم بالمنشورات العلنية، وأنها عدلت بعض العدول عن هذه العادة إلى كتهان أسماء القضاة في المنشورات العلنية والاكتفاء بتوجيه النقد إلى القاضي المقصود في رسالة خاصة ، فلما تولى وزارة الحقانية كان العمل فيها جارياً على تنبيه القضاة إلى أخطائهم بكتاب يطلع عليه من يرسلونه من الوزارة ومن يتلقونه من الموظفين في المحاكم · وكان شفيع الوزارة في هدذا المسلك أن أخطاء القضاة إنما تظهر على يدي لجنة المراقبة بعد اطلاعها على تقرير المفتش الذي تناط به مراجعة الاحكام والتعقيب عليها ، ولجنة المراقبة مؤلفة من المستشارين الملكيين ووكيل الوزارة والنائب العام ومفتشي الديوان القضائيين ، وكلهم من جهابذة الوزارة والنائب العام ومفتشي الديوان القضائيين ، وكلهم من جهابذة القانون وأصحاب الرئاسة عدلي مئات الموظفين . فاذا صدر منهم تنبيه إلى

بعض الفضاة فذلك أمر لا غرابة فيه ولا مخالفة لنظام الاعمال في الدواوين.

فلما عرض على سمعد أول تنبيه من هذا القبيل أنكره وشعر بما فيه من الغضاضة على القاضي الذي سيرسل اليه ، وقال فيها رواه أمين سره الاستاذ فؤاد كمال بك : ﴿ أَنَّهُ يَرِّي كَفْتِّي المَيْزَانَ فِي هَذَا التَّصْرُفُ غَيْرُ متعادلتين ، فهو من الجهة الواحدة يرى أن الطرف الملوم هو قاض مثقل بأعباء العمل مكدود الذهن مشغول الوقت ، يمضي حكمه في قضية من بين مئات القضايا التي يحكم فها . ويرى من الجمة الآخري الطرف اللائم هو أولا مفتش الحقانية وثانيًّا أعضاء لجنة المراقبة ، وكلهم من أساطين القانون وجهابذة الفقه يتناولون هذا الحمكم الذي أصدره القاضي في زحمة العمل فيجعلونه محل البحث الدقيق في فسحة من الوقت وصفاء البال وتمكن من الرجوع الى مختلف المراجع والمطولات . فاذا فرض جدلًا أن القاضي كان حقيقة قد أساء التصرف أو أخطأ وجه الصوابيه؛ إنان لهمن الظروف المحيطة به شفيعًا للمعذرة ، وان لم يكن بد من لومه فلا يجوز بحال ما أن يوجهاليه اللوم في خطاب رسمي يمر على مرؤسيه ويشهر أمره في المحكمة ، فيلحق بهيبة القاضي من الأذى مالا تحمد عقباه . هذاعلي فرض أن القاضيكان في الواقع مخطئاً ولكنقد ينفق ــ وهو أمر سهل الاحتمال ــ أن تكون المسألة بجردخلاف في وجمة النظر بين القاضي واللجنة ،كما قد يتفق أن يكون القاضي متأثرًا في حكمه باعتباراتداخلية لم برأ ولم يستطع تفصيلها فيحكمه ، ولكنه إذا أبانها جعلت الحق في جانبه · فكيف يصح آذن لومه قبل أن يسمع دفاعه ؟ »

قال الاستاذكال: « لهذه الاعتبارات كلها رفض سعد باشا أن يتبع ماكان يتبعه أسلافه وقال: أما أن أمضي خطابًا كهذا فلا ، ولكني أدرس المسألة فاذا اقتنعت برأي اللجنة فاني مع ذلك لا أسارع الى لوم القاضي و لا أعرضه للأهانة على مشهدمن مرؤسيه ، ولكني بصفتى شيخ القضاة أستدعيه الى مكتبي وأسمع دفاعه ، فاذا أقنعني بضحة رأيه أعطيته الحق ، وإلا وجهت

اليه من اللوم الشفاهي ما يكون أبلغ وقعاً الف مرّة من كل لوم كتابي مع اتقاً محذوره ، وجرى الباشا فعلاً على هذه الطريقة . وقد اتفق ان ظهر له الحق في جانب القاضى فانصفه. م (١)

ومن هذا المثل تبدو تلك الكرامة الحقيقية التي قلنا أنها لاتوجد إلا في خلائق الرجل الكريم الحق، فانه يعار عليها في غيره كما يغار عليها في نفسه ، ويسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينة كما يسوءه أن يتعرضهو لتلك الغضاضة ، ويعاف الذل حيث كان ولو لم يمسسه في كبريائه ، وذلك هو الفرق بين الكرامة المحمودة والغطرسة الذميمة ، فان الغطرسة الذميمة هي التي تستريح الى اذلال الآخرين ولا تغار على كرامة إنسان ، وهي التي لا تميز بين الكبرياء بحق والكبرياء بباطل ، ولا تلوم الناس لانهم اعتدوا عليها مبطلين بل تلومهم لانهم عرفوا لانفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى عليها مبطلين بل تلومهم لانهم عرفوا لانفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى الكريم إلاانتصاراً لكرامته حين تصدمه القوة في سواه ، ولا يزداد الكريم إلاانتصاراً لكرامته حين يمسها من يتطاول عليه ، لانه يقرن أنانيته بالحق ولا ينقاد للانانية العمياء .

واهتم سعد بكرامة المحامين كما اهتم بكرامة القضاة ، فأسس لهم نقابة تحميهم وتصون حقوقهم ، وتجمعهم إلى هيئة واحدة يناط بها الدفاع عن سمعتهم وشرف صناعتهم ، ويشترك أناس منها في محاكمتهم ومحاسبتهم ، بعد أن كان أمرهم موكولاً في جميع ذلك إلى غيرهم ، وكانوا لا يملكون لانفسهم نصفة من قاض أو رئيس يعتدي عليهم ، وفارق الوزارة وهذه النقابة على وشك التمام .

إلا أن غيرته على القضاء أو المحاماة فضيلة لا تحتاج منه إلى غير خلائقه الشريفة وفطرته المستقيمة ، ولا تكلفه خصومة لاحـــد من الاقوياء غير الجهد الذي لابد منه لاقناع معارضيه في رأيه . فلو اكتنى بها لـكان فضله

فيها فضل النية الصالحة والحلق الشريف والجهد المأمون العواقب ، وهو على ذلك فضل ليس بقليل.

لكنه لم يكتف بانصاف القضاة وانصاف المحاماة ، بل شغل نفسه بانصاف آخر يدخل في أعمال وزارة الحقانية ولايقدم عليه كل وزير ، لأنه انصاف يصدم الاقويا. من أصحاب الجاه والثراء ، وهو انصاف القصر والمحجور عليهم من طغيان القيمين والاوصياء .

أخذ نفسه بانصاف كل مظلوم مهضوم الحق من هؤلاء القصر والمحجور عليهم الذين تعرض حساباتهم على المجالس الحسبية ، فلم يتراجع ولم يقف عند حد الحذر والمجاملة حينها عرَّضته قضية من قضاياهالمصادمة مرهوبة جمعت عليه كل قوة في البلاد المصرية ، لانها مصادمة المال ومصادمة اللورد كتشنر ومصادمة الأمير عباس الثاني ، وهما قابضان على زمام كل قوة فعلية أو شرعية في الحسكومة .

وموجز القضية أن أميرة مصرية تزوجت من روسي مسيحي فصدر الأمر الحديوي بمحو اسمها من الآسرة وإحالة ملكها إلى قيم يديره ويقدم حسابه إلى وزارة الحقانية. وكان هذا القيم من رجال الحديو بطبيعة الحال وصديقا للورد كتشنر يصاحبه في رحملاته وزياراته ويعينه على بعض شأنه. ويقال ان كتشنر كان يحسبه من عيونه على الحديووان الحديو كان يحسبه من عيونه على الجانبين.

فلما راجع سعد حسابه لاحظ عليمه خللاً مستفيضاً وأشار بعزله من القوامة . فلمنا الرجل إلى كتشعر يشكو اليه ، وعز على كتشنر أن تجتري، الوزارة على صديق من خاصة عشرائه ، وأن يقال انه عجز عن حماية الرجل الذي يرى أبداً معه في غدواته وروحاته . فطلب إلى سعد أن يبرز الوثائق من أوراق « الدائرة » مع بقاء القيم مسيطراً عليها يحميه كتشنر من جانب

ولا يخذله الحديو من الجانب الآخر. وإنما كان كتشنر في الحقيقة يتمحل الأسباب للخلاص من سعد باشا ويحسب أنه قادر على المجازفة باقصائه عن الحكومة، لأنه رجل عسكري تعود الطاعة والزلني ولم يتعود من الوزراء المصريين ولا من المرؤسين الانجليز أن يقابلوه بارادة كارادته وكرامة لا تنحني أمام هيبته. فاتخذ من مسألة القيم المطعون فيه سيباً لاحراج سعد واعناته ، وكتب إلى حكومته بلندن يطلعها على مانواه وينتظر اقرارها لرأيه . وفيا هو ينتظر الرد وقعت بينه وبين سعد في دار الوكالة مشادة عنيفة فخرج سعد مغضبًا وكتب استقالته لأنه لم يستطع التوفيق بين ضميره والسلطة الفعلية ، وكان من اليسير عليه أن يتحاى هذه المصادمة لو كان في استطاعته الأغضاء عن باطل، وهو مفتوح العينين.

قالت دائرة الممارف البريطانية وهي تشير إلى هذه القضية: « لم تكن أدلة زغلول كافية ولكنها ، كما وقر في الاذهان . . . صحيحة في أساسها »

ومن الواضح أن هذه القضية الكبيرة ليست على كل حال بالقضية الفريدة التي نصر فيها قاصراً مظلوماً على وحي مقصراً وبجحف ، ولكنها هي القضية الفريدة التي انتهت بتلك النهاية . وهي بعد واحدة من قضايا كثيرة صمد فيها للظالمين كا نهم يظلمونه في ماله ، وغار فيها على الضعفاء كا نه يغار على نفسه وأهله . وانك لتعجب ما هذا الشغل الشاغل بحماية الضعيف ولو ساقته حمايته إلى أخطر المتاعب والخصومات . أهي وراثة ؟ أهي قوة ؟ أهي رحمة ؟ هي ولا شك وراثة . لاننا لم نعرف من أسلاف سعد الا من كان يغامر بحياته وماله لرعاية ضعيف أو فقير مغلوب .

وهي ولا شك قوة. لانالرجل الذي ينهض لكفاح الغاصبين لايفعل ذلك الا وفي أطوائة شعور بالقوة وانف من تسليم الخائف الجبان .

وهي ولاشك رحمة . لأن الرجل قد يكون قويًّا ثم يجرب قوته في

شي. غير نصره الضعفا. ورد الحقوق ، وربما جربها في ظلم أولئك الضعفا. واغتصاب تلك الحقوق.

إن المناصب لتجور على المناقب الانسانية في كثير من الوزراء ، ولمن أيامها لتحسب أحياناً من أقفر الآيام في تواريخ العظاء ، فمن فضيلة سعد في المناصب أنه خرج بها عن تلك السنة فجعلها من أعمراً يامه وأجمل صفحاته ، ولا نحسب أنه كان يقضي تلك الفترة من تاريخه في خير مما قضاه في سنواته الست بين الوزارتين .

-144-

ملاحظات على سعد في وزارتي المعارف والحقانية

لكل عامل في الحياة السياسية صفحة من الحسنات وصفحة من السيئات وليس الوزير الصالح هو الذي تخلو حياته السياسية من السيئات فهذا غير موجود ولن يوجد ، ولكنه هو الوزير الذي تربى حسناته على سيئاته وترجح فضائله على عيوبه . فاذا ثبت مع هذا أنه مختار في صوابه مضطر في خطئه ، وان له عذراً سائغاً فيما أخطأ وما أساء فليس هو مرس الوزراء الصالحين وحسب ، بل هو من أصلح الوزراء الذين يرجون في عالم السياسة وقد كانت أخطاء سعد المحسوبة عليه من هذا القبيل ، ولا سيما الحطأ الذي نسبوه اليه في صدور قانون المطبوعات .

لم يبرأ سعد من أخطائه هذه ولا حاول أن يسترها ، بل اعترف بهما اعتراف الرجولة الجريئة والصراحة الواثقة غير مضطر ولا مسوق إلى الاعتراف . فقال في إحدى خطبه بالجمية التشريعية : « اعترف اني وأنا وزير – قد عملت بحسن نيسة واخلاص عملاً لو عرض علي اليوم لكنت أول المعارضين فيه . فقد عرض علي قانون المطبوعات فعارضت فيه أولاً ثم لم ألبث ان وافقت عليه واشتركت في تطبيقه لظروف بررتها في ذلك الوقت أمام نفسي ، وها أنا اليوم نادم على ما فعلت بالامس.»

وقال أيضاً: «كنت قاضيًا وكنت وزيراً ، وها أنا اليوم عضو بينكم في الجمعية التشريعية وأحس في نفسي بأن شعوري كان يختلف باختلاف تلك المراكز جميعها ، واني ربما كنت أرى الرأي في حالة ثم أرى غيره في حالة أخرى . ومع ذلك كنت حسن النية في جميع الحالات ، فلاتهولنكم أشخاص أخرى .

الوزرا. ولا الفضل الذي تعرفونه فيهم ، فقـــد تتغلب عليهم مراكزهم فيعملون بحس نية ما يظنون أن فيه فائدة للأمة وليس هوكذلك »

وعلينا نحن الذين تترجم لسعد أن نعرف له حقه أو نعرف ما له وماعليه من أخطائه ، فني مسألة قانون المطبوعات يجسن بنا أن نذكر « أولاً » أنه كان وزيراً للمعارف ولم يكن وزيراً للحقانية عند صدور القانون ، فلم تكن له يد في تحضيره وابتعاثه ، وانما كان الامر محصوراً في بادي. الامر بين الحكومة الانجليزية والحديو ورئيس الوزارة ، ثم اتصل بحسين رشدي باشا وزير الحقانية ومحمد سعيد باشا وزير الداخلية ومنهما اتصل بسعد باشا لاول مرة

ويحسن بنا أن نذكر « ثانيًا » أن سعد باشا رفض الموافقة على القانون عند ما علم بنية اصداره. وقال ان الانجليز يعلنون أنهم تركوا لأمير البلاد الأمر في سياسة حكومته بعد عزل كرومر ، فاذا افتتحنا هذا العهد بتقييد الحرية قالوا إننا لا نطيق الحكومة الحرة ولا نصلح الحا . . ولا مسوغ _ بعد ملى الاهتمام بالمشاغبين فهم فئة قليلة ليس يسمع لها صوت »

وأن نذكر « ثالثًا » أن سعدا لم يعدل عن الرفض الا بشرط واحد لم يتحول عنه : وهو تعديل القانون و تلطيف بعض قيوده وأحكامه ، وقد تم هذا التعديل بعد معارضة من الأمير ومن الانجليز .

وأن نذكر « رابعاً » أن الصحف كانت تكتب بعد صدورالقانون بحرية أوسع جداً من الحرية الجديثة ، أوسع جداً من الحرية التي كانت تتمناها في بعض العهود الدستورية الحديثة ، وهي العهود التي تولاها خصوم سعد أو قابلوها بالتأييد والتأمين .

وأن نذكر «خامسًا» أن سعدًا في تبريره لعمله لم يكن يعول على الأسباب التي يقبلها الوزير في المنصب ولا يقبلها الرجل المستقل البعيد من غوايات المناصب ومحظوراتها... فنحن من ألد أعداء الرقابة الادارية على الصحف ولا نعرف لاحد حقاً في مراقبتها غير القضاء النزيه. ولكننا نعلم أن أناساً

كثيرين تتبعوا الآسباب التي أوجبت صدور قانون المطبوعات في تلك الفترة فعلموا أن تبريرها أمام الضمير أمر غير عسير على طلاب الحرية خارج المناصب. فضلاً عن الوزير الذي يريد لنفسه الحرية في عمل الخير كما يريد الكاتب حرية الانتقاد .

سألت سعداً في مسألة قانور للطبوعات لاستوضح ما قاله بالجمعية التشريعية لا لانني أرى لهذه المسألة خطراً يطول التفكير فيه ، فقال لي : « انني من وجهة المبدأ أرى أن تقييد الكتابة غير جائز . أما الكتابة التي كانت حاصلة فعلاً في تلك الايام فغير الجائز في نظري وفي نظر غيري هو تركها تتدهور في الهاوية التي كانت تندفع اليها.»

وكل من رجع إلى الكتابة التي كانت « حاصلة » في تلك الآيام جزم بأن سعداً كان على حق في حكمه عليها من وجهة نظره ومن وجهة أنظار كثيرة. ولا نبعد بعيداً في نقل الآمثلة العديدة ، بل نقصر القول على موقف تلك الصحافة من الآمثلة التي نحن بصددها في تاريخ سعد نفسه ، لآن الحكم عليها أيسر من شرح المسائل البعيدة التي لايستحضرها القاري، ولا تدخل فيها رويناه . لما انشئت مدرسة القضاء الشرعي كان الشيخ عبد العزيز جاويش مفتشاً بوزارة المعارف العمومية وكان يطمع في نظارتها . فاخلف سعد رجاه وأسندها إلى زميل له في التفتيش هو عاطف بركات بك . فحنق الشيخ جاويش وأسرها في نفسه ، إلى أن فوتح في تحرير صحيفة اللواء بعد موت مصطفى كامل فحرج وهو لا يفكر في شيء غير التشهير بسعد والحملة عليه .

ولم ينتظر طويلاً حتى بدأ هـذه الحملة المريبة التي لا تستند إلى شي. من الحقيقة ولا شي. من المروءة . فني الوقت الذي كان سعد فيه يناضل دنلوب وأعو انه و نفو ذ الاحتلال من ورائه لتحطيم القيود التي يقيد بها أيدي الوزرال المصريين كان الشيخ جاويش ينسى أدب الصحني الشريف وما يقتضيه من تأييد هذه التجربة التي يتوقف عليها مصير الاستقلال ، ولا يبالي ان يفتري

الآكاذيب وهو عالم بافترائها ، ويزعم أن وزير المعارف آلة في يد الانجلين يسخرونه التسخير الاعمى بلا معارضة منه ولا سؤال ا وبلغ من سخفه في تلفيق المزاعم أنه زعم أن دنلوب كان يكتب الخطب لسعد باللغة الانجليزية وأنه هو — الشيخ جاويش ا — كان يندب مع غيره لترجمتها إلى العربية. ثم يلقيها سعد باسمه وهو صاغر مغمض العينين . . . كان هذه الترجمة لاتعيبه كايعاب الالقاء ا ا وكانما خطيب الشرق الذي لم يشهد خصومه بمقدرة فائقة كما شهدوا له بمقدرة الفصاحة ومضاء الحجة وقوة العارضة كان في حاجة إلى خطبة يكتبها له مستشار لم يكن يحسن الكلام .

ولماكان عاطف بركات ابناً لآخت سعد زغلول حاول الشيخ جاويش أن يصرف هذا الاختيار إلى غرض واحد وهو إيثار القرابة على الكفاءة وهو يعلم أن كفاءة عاطف قد نوهت به كثيراً قبل وزارة خاله ، ولو كان سعد من أصحاب ذلك العدل الرخيص المزيف لظلم عاطفاً مخافة على سمعته من أن يقال إنه ظالم . . . ولكن عدل الرجل كان أصح وأكبر من أن يتقي التهمة الكاذبة بالجناية على كفاءة عاملة . فاختار عاطفاً وأنصف باختياره إنصافاً مضاعفاً . لآن مدرسة القضاء الشرعي قدصارت على يديه في طليعة المدارس العليا إدارة و تعلياً وعناية بالثقافة والأخلاق ، وكانت قدرة عاطف على إحياء الملكات وغرس الاستقلال في الضائر قدرة مشهودة لا يجادل فيها معاند . ولو أن سعداً أسند نظارة المدرسة إلى الشيخ جاويش لفشلت فيها معاند . ولو أن سعداً أسند نظارة المدرسة إلى الشيخ جاويش لفشلت كا فشلت جميع أعماله في التعليم والسياسة ، ولاستحق سعد الثناء من لسانه وقلمه ، ولكنه كان يستحق الملام من جميع المنصفين .

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن طريقي سعد وجاويش في الوطنية طريقان لاتلتقيان ولا تتجاوران. فسعد يعمل لاستقلال مصر بأيدي المصريين لتكون مصر للمصريين، أما جاويش فتونسي مشمول بالحماية الفرنسية لم يزل يستمسك بها إلى يوم محاكمته في قضية « الدكاملين » .. وهو من دعاة الحلافة العثمانية لايريد لمصر إلا منزلة الولاية التابعة من السيد المتبوع ، وقد كان من آماله في الحرب العظمى أن يتقلد فيها مشيخة الاسلام بعد فتحها على أيدي الجنود التركية · فشقي بدعوته هذه ذلك الرجل النبيل الكريم محمد فريد رئيس الحزب الوطني . فانه كان معه في الاستانة وكان يدعو إلى استقلال مصر ويتخذ له شعاراً « مصر للصريين » . · · فكان لايلتي من جاويش إلا المكيدة والسعاية والتا حمر عليه مع ضباط فكان لايلتي من جاويش إلا المكيدة والسعاية والتا حمر عليه مع ضباط « تركيا الفتاة » الذين يستكثرون على مصر أن يعترفوا لها بالاستقلال ، وينوون إدخالها في حوزة الدولة العثمانية ' بولاية الصدر الاعظم سعيد حلم.

ولعلنا نتمم سيرته المجملة بما انتهت اليه في أعقاب الحرب العظمى ، فقد وصل إلى مصر خلسة بوسيلة مريبة . وكان وصوله اليها في إبان الحركة الانتخابية للحملة على سعد وأصحابه من جديد ، ثم اتجهت اليه شبهة في حادث الاعتداء على سعد لم تقم عليها الادلة القاطعة فأخلي سبيله ، ثم شملته الرعاية فانتظم في خدمة الحكومة ، وقضى بقية أيامه موظفاً بوزارة المعارف كسائر الموظفين ، لا يمتاز بقدرة و لا بفضيلة استقلال . . . والمستور بعد ذلك من أحواله أكثر من المشهور .

خرج هذا الرجل من وظيفته بوزارة المعارف لينتقم لمطامعه ويقود على وتيرة واحدة من التشهير والتلفيق، فاذا استطاع سعد أن ييرر أمام ضميره تقييد كتابة كهذه الكتابة فهو لا يتعسف كثيراً ولا يحتاج إلى غواية المنصب لهندي إلى ذلك التبرير.

وليس من أخطاء سعد التي يهول بها خصومه بعد مسألة قانون المطبوعات إلامسألة واحدة يذكرونها بين مساوئه الكبار وهي عندنا من أجمل ما ثره في الوزارة، إن لم تكن أجملها كلها في حسن الآيثار وبراعة الحيلة. ونعني بها موقفه من مسألة قناة السويس ، وهذا تلخيص ذلك الموقفكا يعرفه ناقدوه ومحبذوه:

طلبت شركة قناة السويس الى الحكومة المصرية أن تمد لها أجل الامتياز أربعين سنة ١٩٦٨ » على «١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ » على أن تقسم الأرباح مناصفة بين الحكومة والشركة ، وأن تدفع الشركة إلى الحكومةأربعة مليونات من الجنيهات على أربعة أقساط تبتدي. من سنة ١٩١٠ وتتجاوز الحكومة من أجل ذلك عن خمسة عشر في المائة من أرباحها ابتداء من الأجل الجديد ·

فهذه الصفقة كانت خاسرة في رأي فريق كبير.من الآمة ورابحة في رأي فريق آخر ، ولا زال أناس يعتد برأيهم يعتقدون أن رفضها كان من الحطآ والتعجل ، لانه من المحتمل أن تطلق الحرية لجميع السفن في عبور القناة بغير رسم ولا ضريبة ، بعد أمد غير بعيد.

فلما عُرض هذا الطلب على الوزارة البطرسية احتاجت إلى من يدافع عنه أمام و الجمعية العمومية» فلم تجد بين أعضائها من هو أقدر من سعد على هذه المهمة ، فلم يقبل الدفاع عنه إلا على شرط تتعهد به الحكومة ، وهو تخويل الجمعية العمومية الرأي القاطع في هذه المسألة تجيزها إن شامت وترفضها إن شامت دون أن تخالفها الحكومة في قرارها ، فقبلت الوزارة شرطه و نظرت الجمعية العمومية في المسألة فقررت رفض الطلب ، ونفذ القرار ، ولم تجدد الشركة طلها بعد ذاك :

فاذا جازلبعض الناقدين أن يحسبوا هذا الموقف من الإخطاء على فرض الجزم بخسارة الصفقة فهو في اعتقادنا ضرب من الفداء قلما ترتقي اليه هم الفدائيين، لان الفدائي يخسر الراحة والمصلحة ولا يخسر العطف وحسن الاحدوثة، فأما

أن يعرض نفسه للنفور والتشهير ليبوء غيره بالعطف وحسن الاحدوثة. فذلك فدا. لا يطيقه إلا الافذاذ من عظها. الرجال .

ولهذا الشرط الذي اشترط سعد فضيلة أخرى في لهيدان الحركة الدستورية ، اذكان تخويل الجمعية العمومية رأياً قاطعاً في هذه المسألة الحظيرة أول خطوة ثابتة في طريق الدستور الصحيح والرقابة القوية القومية ، فكان من المتعذر بعد ذلك أن تنازع الامة في استحقاق الدستور.

فاذا كان موقف سعد في مسألة القناة خطأ فهو خطأ لم تقع خسارته على أحد غيره ، وأما المكسب كله فيها فقد كان من حظ الامة وحظ الجمعية العمومية .

الحركة الدستورية

بدأت الحركة الدستورية في مصر على عهد الخديو اسماعيل .

وكان اسماعيل يشجعها ويحرض عليها ، لأنه كان في ضيق شديد من الرقابة الأوربية على خزانة الدولة بعد ما تورط فيه من الديون الكثيرة . فكان يرجو أن يستعيد لنفسه بعض السيطرة على الحكومة مر طريق المجلس النيابي والوزارة الدستورية ، ثقة منه بأن المصريين يبغضون الرقابة الاجنبية ويساعدونه على تخليص البلاد من أوهاقها .

وتجددت الحركة الدستورية بعد الاحتلال البريطاني في أيام الحديو عباس الثاني ، وكان للخديو ضلع في هذه الحركة أيضاً . لأنه كان يشكو من رقابة اللورد كرومر وطغيان نفوذه في جميع أنحاء الحكومة . بحيث لم يترك له من الأمرالا الشكل الرسمي والعنوان الظاهر . فرحب بالحركة الدستورية وحض عليها لأنها تنقص من نفوذ كرومر ولاتنقص من نفوذه شيئا يحرص على بقائه . ولعله كان يرجوكما رجا اسماعيل من قبله أن تفك عنه بعض القيود وتهى له أسباب المداخلة بين قوة الاحتلال وقوة الأمة .

وكان بعض أعوان الحديو عباس ظاهرين في هذه الحركة ، وقد أيقن الانجليز أن الحديوكان يوعز الى مصطفى كامل باشا صاحب اللواء والشبخ على يوسف صاحب المؤيد بانتقاد الاحتلال وكبار رجاله وشن الغارة على اللورد كرومروأساليب حكمه . وسمع الانجليز كذلك أنه أعان مصطفى كاملاً بالمال لاصدار الصحف الافرنجية ونشر الدعاية في البلدان الاروبية ، فخيل بالمال لاصدار الصحف الافرنجية ونشر الدعاية في البلدان الاروبية ، فخيل اليهم من الحركة الاولى والحركة الاخيرة أن المطالبة بالدستور في مصر ليست إلا مناروة خديوية ينساق اليها الشعب بغير شعور منه بالحاجة إلى النظام النيابي والرقابة على الحكومة ، وانهم اذا وافقوا عباساً على بعض

ميوله ورغباته قضوا علىهذه الحركة وأمنوا انتشارها وامتدادها ولم يسمعوا للاّمة المصرية مطلبًا بعد القضاء على البواعث التي تدفع بها الى المطالبة .

هذه الموافقة هي التي سموها يومئذ بسياسة الوفاق ، وهي التي لجأوا اليها بعد اقالة اللورد كرومر عسى أن تضعف الدعوة الوطنية ، أو تقسم الامة والأمير إلى معسكرين متنابذين بدلاً من معسكرواحد متفق في الوسيلة والغاية . فقوام سياسة الوفاق إذن هو توحيد قوى الحكومة وتشتيت قوى الامة .

فارق اللوردكرومر دار الوكالة البريطانية في شهرمايوسنة ١٩٠٧ وخلفه السيرالدون غورست الذي شغل في مصرمنصب المستشار الداخلي والمستشار المالى بعد أن اشتغل بوظائف الحكومة المصرية منذ سنة ١٨٩٠.

وكانت «فكرة» غورست عن دعوة مصر الوطنية هي فكرة الموظفين الانجليز المحلين. ومنهم فريق يغلون في محاربة الدعوات الوطنية جميعاً لانهم يعتبرون المطالبة بالاستقلال والمطالبة بالدستور إفتياتاً على سلطانهم وعلى مصالحهم فضلاً عن سلطان الدولة البريطانية ومصالحها وينظرون إلى مطالب المصريين من وراء هذه الميول والاغراض فلا يرونها إلا مشوهة منحرفة ، ويعتقدون أن الشرق لا يستحق من أساليب الحكم إلا تلك الاساليب التي إصطلحوا على تسميتها بالاساليب الشرقية ، ويعنون بها المراوغة والتلفيق ... إصطلحوا على تسميتها بالاساليب العقيدة وهو ينوي أن يستخدم «الاساليب الشرقية » في تهدئة الخديو وتهدئه الامة في وقت واحد .

على أن الحقيقة أن مطالبة المصريين أو فريق منهم بالدستورليست بالمناورة الحفية ولا بالدعوة المصطنعة ، لأن المطالبين به قدطلبوه وهو معارض لأهواء الحديوين كما طلبوه وهو موافق لأهوائهم . فلم يكن الحديو توفيق موعزاً بطلبه ولا راضياً عن دعاته ، ولكن الحركة الدستورية في أيامه كانت على أشد ماعرفت به في تاريخها كله . ولم يكن الحديو عباس موعزاً بطلبه ولاراضياً عن دعاته بعد عزل اللورد كروم وإعلان سياسته الوفاق ، ولكن الحركة

الدستورية اشتدت ولم تخمد بعد إعلان هذه السياسة ، وبلغت العرائض المقدمة إلى الخديو بطلب الدستور أضعاف أضعاف ماتقدم منها في عهد السياسة الكرومرية .

ولم يكن سكون الحركة الدستورية في السنوات الأولى بعد الاحتلال دليلاً على أنها مزيفة أو قريبة الزوال لأنها لم تسكن إلا من أثر الصدمة الأولى التيخيب الآمال وبلبلت الأفكار ونفثت فيها نوافث الشك والحيرة عقب الثورة العرابية . ثم استمرت على سكونها لأن المصريين قد انصرفوا إلى مطالبة الانجليز بالجلاء في أوائل أيام الاحتلال ، فلم يروا ضرورة التعجيل بطلب الدستور مع انتظار الجلاء في أمد قريب ... ومن أجل هذا تضاعفت الحركة الدستورية بعد سنة ١٩٠٤ التي حدث فيها الاتفاق بين انجلترا وفرنسا على التراضي والتعاون في المسألتين المصرية والمراكشية ، فقد وضحت عزيمة الانجليز على البقاء الدائم وضوحاً مسجلاً بالوثاق الرسمية ، وكان هذا الاتفاق الذي قصدوا به إطفاء جذوة الحية الوطنية ونخيب رجاء المصريين في مساعدة الدول الأوربية باعثاً قوياً من نواعث النشاط واليقظة في عقيدة المصريين ، وبداية لاجتماع الآراء العامة على رأي واحد ، وتسديد الخطى إلى غاية واحدة

قلنا أن السير الدونغورست جاء بعد كرومر لتهدئة الحركة الوطنية وتهدئة الخديو في وقت واحد... فأماصنعه لتهدئة الحركة الدستورية فذاك إنه فكر في إصلاح المجالس المحلية ومجالس المديريات التي كانت مهملة إلى ذلك الحين. فوسع من حقوقها وأباحها بعض الرقابة على المديرين، فلم تقنع الامة بهذا القسط اليسير من المشاركة في الحكم. لأنها إنما طلبت الدستور في الحقيقة لتكبح به الاحتلال لا لتكبح به مديري الاقاليم.

واتفق فيها حول ذلك من الوقت أن طرأ حادثان خارجيان كان لهما أثر عظيم في أذكاء الحمية الوطنية والدعوة الدستورية: أولهما ـ وقد بدأ قبل بحيء غورست ـ هو حرب اليابان وانتصارها وهي دولة شرقية بجهولة على دولة غريبة كبيرة ، فتجددت بذلك آمال النهضة العامة في قلوب الأمم الشرقيـــة كافة.

والحادث النابي هو فو زالشعوب العثمانية بالدستور في يوليو منسنة ١٩٠٨، أي بعد وصول السير الدون غورست إلى مصر بأشهر قليلة ، فقد أنال هذا الدستور جميع الامم العربية الاخرى التي كانت تابعة للدولة العثمانية حقوق الانتخاب والانابة عنها في مجلس المبعوثين، وبقيت مصر وهي في طليعة هذه الامم محرومة هذه الحقوق لغير سبب وجيه في نظرها ؛ فزادها ذلك يقيناً بصواب رأيها وعسف الاحتلال البريطاني المعارض لها في طلها.

أماماصنعه غورست لارضاء الخديوعباس الثاني فانه بدأ باطلاق يده رويداً رويداً في أعماله الحناصة ثم في أعمال الحكومة ، فاستقالت وزارة مصطفى فهمي باشا (١٩٠٩) البغيضة الى عباس وقامت بعدها الوزارة البطرسية ، وسمح الانجليز له بترشيح بعض أنصاره للوزارة وهم محمد سعيد بك وأحمد حشمت باشا وحسين رشدي باشا ، فكانت أول وزارة استطاع أن يدخل فها مثل هذا العدد من الانصار .

ثم قتل بطرس باشا في فبرابرسنة . ١٩١٠ فجر مقتله إلى جدال وشقاق بين القبط والمسلمين . شغل بهما المصريون فيما بينهم برهة عن المطالبة بالدستور ، ولم تكره دار الوكالة البريطانية هذا الشقاق المحزن لأنه يجري مع ما قصدته بسياسة الوفاق من تشتيت قوى الأمة و توحيد قوى الحكومة ، وكا نما كانت تنتظره من ترشيح بطرس باشا لرئاسة الوزارة ، فلما فاتها اغضاب المسلمين بتعيينه كما كانت تؤمل لم يسؤها ان يتفاقم الخلاف المحذور بعد الاعتداء عليه ، ولا سيما وقد لغطت أبواق الاحتلال على أثر قضية دنشواي بتهمة التعصب الديني وسوغت بها قسوة الأحكام في تلك القضية . ثم شرعت في استغلال التهمة لا دعاء حماية المسيحيين من أجانب ومصرين .

ولم تمض فترة وجيزة على السير الدون غورست في دار الوكالة حتى ظهرت الحيرة على مشوراته التي كان يدونها في تقريراته السنوية، فجعل يوصي بالرأي وينقضه ويهم بالعمل ولايجد في انجازه، وعنده على كل حال أن الحركة الدستورية انهي إلا نوبة عارضة في الطبقات العالية تعالج بالانتظار والمصابرة إلى أن تزول، أما في الطبقات الجامحة فلا حاجة إلى علاجها بأكثر من الرقابة الساهرة وتقييد الخطابة والكتابة.

ثم مرض السير الدون غورست ومات ولم تكد تنقضي عليه في دار الوكالة ثلاث سنوات .

فاخلفته حكومته وفي سبتمبرسنة ١٩١١ » باللوردكتشنرصاحب الآزمة الحدود . القديمة التي وقعت بينه وبين الحديو عباس واشتهرت باسم أزمة الحدود . فكان مجرد تعيينه مؤذناً بتغيير جديد في السياسة واعتراف من جانب الساسة الانجليز بخطتهم في عزوها كلها الى مقاصد المنجليز بخطتهم في مؤيضاته ، فبعد ان كان الغرض من تعيين السيير الحديو السابق وتحريضاته ، فبعد ان كان الغرض من تعيين السيير الدون غورست ان يسترضي الحديو بالنزول له عن بعض النفوذ واطلاق يده هوناً مافي أعماله وأعمال الحكومة أصبح الغرض الظاهر من تعيين اللوردكتشنر ان يعاد الحديو إلى حيزه المحدود ، وأن تجس المشكلة الوطنية من غير هذه الناحية .

رأى اللورد كتشنر أن الحركة الدستورية حركة جدية صادقة لا مفر من الاكتراث لها وملاقاتها بما يرضيها أو يخفف من حدتها . فليست هي في الطبقات المسرلة نوبة عارضة لاحاجة في علاجها الى أكثر من الصبر عليها وليست هي في الطبقات الفقيرة صيحة جوفا. خلواً من كل معنى ، فالقلق بين صغار الفلاحين موجود لا شك فيه ، وغاية ما في الامر أنه قد يرد إلى أسباب الازمة الزراعية وقد يسهل تسكينه كثيراً أو قليلاً بتلطيف وقع

الازمة عليهم وتأمينهم على أقواتهم ، ومن هنا نشأ قانون « خمسة الافدنة » محرماً الحجزعلى هذا المقسدار من الارض أو مادونه في سداد الديو ن . وفكر اللورد كتشنر في إرضاء طلاب الدستور بانشاء هيئة نيابية جديدة غير بجلس الشورى والجمعية العمومية . فصدر القانون النظامي بانشاء الجمعية التشريعية في أول يوليو سنة ١٩١٣ مشتملاً على حقوق أوسع من حقوق المجلسين السابقين ، وإن كانت في جملتها أقرب إلى القشور منها إلى اللياب .

الوزير المصري في المعاش!

في البلاد الدستورية يخرج الوزير من ديوان الحسكم ويعود اليه مرات في مدى حياته السياسية . وقد يخرج منه ويعود اليه أكثر من مرة واحدة في السنة الواحدة ، تبعاً لاختلاف الآراء العامة واختلاف مواقف الآحزاب بين الصحداقة والخصومة والتألب والتفرق ، في المناوشات البرلمانية . وقد يكون نفوذه وهو معارض أكبر من نفوذه وهو في ديوانه ، مقيد بقيود الوظيفة ، مطالب برعاية المراسم الوزارية ، فاذا اعتزل المنصب فترة من الزمن لم يزل مرجو أمخشياً محسوباً له حسابه ، ولم يياس منه أصدقاؤه أو يستخف أعداؤه بشأنه . لانه يظل حيث كان قادراً على عمل متأهباً لعودة قريبة إلى الحسكم ، مرجح الهذا الجانب أو لذاك في مواقف الأمة ومواقف النواب .

أما الوزير في مصر قبل خمس وعشرين سنة فقد كان بين حالتين ليس بينها حالة وسطى. فهو إما وزير أو لا شيء ... فاذا خرج من الحكم فلا رجاء فيه ولا ضرر منه . ولا أمل في عودته إلى الحكومة أو مشاركته في الحياة السياسية ، لانه كان يرتني الوزارة بعد أن يتقلب في وظائف الحكومة من أصغرها إلى أكبرها ويستغرق في خلال ذلك ما يستغرق من وقت لا يقل عن أربعين أو ثلاثين سنة . فن معاون إلى مأمور إلى وكيل مديرية إلى مدير في الدرجة الثالثة فالثانية فالأولى . إلى وكيل وزارة أو وزير يبلغ من العمر في الدرجة الثالثة فالثانية فالأولى . إلى وكيل وزارة أو وزير يبلغ من العمر الخامسة والحسين أو الستين ؛ لا يطلب منه عمل ولا يعتمد عليه في سياسة عامة ، ولا سيا بعد أن أصبحت الوزارة رسماً معطلاً في أيام الاحتلال ، ومن ورائهم وانتقل العمل والسياسة كلها الى أيدي المستشارين البريطان ، ومن ورائهم دار الوكالة البريطانة .

يقضي الوزير ما يشاء له الحظ في منصبه ثم يخرج منه الى داره وهو شيخ قسد جاوز الستين وخطا إلى السبعين. فماذا يصنع في الآيام المعدودات الباقيات له من الحياة ?أنه لو كان شاباً لما استطاع أن يعمل شيئاً لأنه لم يخلق ليكون من أصحاب الاعمال. فاذا كان في تلك الشيخو خةالفانية فهو من باب أولى لا يقوى على عمل ولا يفكر فيه ، ولا يبتى منه ما يرجوه راج أو يخافه خائف. ان هو الا خارج من سجل الاحياء في الحقيقة لامن سجل الحياة الوزارية وحسب ، فهما لفظان مترادفان.

ومن عادة النفس الانسانية أن تتخذ من الضرورة فضيلة كما يقولون .
فالرجل الذي يعز عليه الخوض في الحياة العامة يعتبر الخوض في هذه الحياة مهانة لا تجمل بقدره ، ويعتبر العزوف عنها واجباً مفروضاً عليه . والوزير المصري المحال إلى المعاش أقرب الناس إلى الايمان بهذا الوهم والتعزي بهذه الحديعة ، لانه بلغ من المناصب والألقاب أرفعها فكل عمل بعد ذلك هو حط من قدره وابتذال لمقامه . ويزداد عزوفه عن العمل وجوباً في تلك الآيام التي غلبت فيها أبهة المنصب ولم تنتشر فيها الآداب الشعبية أو الديمقراطية . فلاجرم تصبح البطالة أدباً من آداب الوزراء المعزولين ، ويعود الاحتفاظ بالوقار على هذا النحو وهو هو العزاء الوحيد لمن قضي عليه منهم بالدخول في عالم الفناء !

مر. هذا نستطيع أن نعلم أن المجازفة بالاستقالة أمر ليس بالهين في عرف الوزراء المصريين قبل خمس وعشرين سنة ، ونستطيع أن نعلم مقدار الضربة التي ظن خصوم سعد أنهم أنزلوهابه والنقمة التي صبوها عليه ، وهو كهلمتين الاسر لم يبلغ من الشيخوخة ما يبلغه الوزراء الذين يروضون أنفسهم على أدب العزلة أو أدب البطالة الفانية .

نعم إنهم تعودوا من الرجل أن يضع قواعده لنفسه ولا يجري على قاعدة يقاد المها برغمه . لكن ماذا عساه أن يصنع وهو مستهدف للعداء من

جانب الاحتلال ومن جانب الأمير؟ أيلجأ إلىالرأي العام ويستأنف ماضيه القديم من الحياة السياسية !

نعم ذلك كان أمراً محتملاً قبلخمس سنوات ، أو قبل أن تقع الجفوة ثم العداوة اللدود بين سعد والصحفيين الذين كانوا يسيطرون على الرأي العام في تلك الآيام · أما الآن وقد مضت على الصحافة الرائجة سنوات وهي لا تكتب عن سعد إلا ما يمثله للناس آلة من آلات الانجليز وعدواً من أعداء الحرية . فماذا بتي له عند الرأي العام ؟ وماذا بتي له من الرجاء إذا هو استأنف الحياة السياسية ؟

لم يبق إلا الفشــل المحقق والتسليم بالقضاء والانزواء في « النرفانا » الوقور التي لاترهب للنازلين بها صولة ولا تخاف لهم رجعة إلى عالم الدنيا..

وعلى هذا أوعز خصومه إلى بعض أتباعهم ليحملوا عليـه في الصحف ويلغطوا في المجالس ويفتروا الأكاذيب عن أسباب استقالته ، غــير عابئين بحقيقة و لا واقفين عند محذور ، ومم يحذرون والرجل الذي يهاجمونه بعيد من القوة الحكومية ، بعيد من رضى الأقوياء في الحكومة !

هنا صدموا بأول صدمة لم يتعودوها من ساكني « النرفانا » المستباحي الذمار إ وأيقنوا أنهم أمام معزول لايشبه المعزولين . فان الرجل الذي ساقوه إلى لحده السياسي كما زعموا ، قد خرج عليهم بسكلمة وجيزة لا لجاجة فيها . كلمة الواثق بقدرته على كبح خصومه حين يريد وكما يريد : إنكم ياهؤلاء تنسون الحقيقة كأنكم لا تعرفونها . فان كنتم تجهلونها وتسركم معرفتها فها أنا ذا على استعداد!! أتسكتون إذن؟ أم تقولون الحقيقة؟ أم نسوقكم إلى حيث تقال!

وما هو إلا أن أذاعت الصحف هذا النذير حتى سكت السليط وتراجع المقدام ، واشتد الايعاز في طلب السكوت كما اشتد الايعاز قبل ذلك في طلب الـكلام .

ثم شاع في أندية القاهرة أن سعداً يتحدث إلى صحبه بالعودة إلى المحاماة فوقعت هذه الاشاعة موقع الاستغراب عند كثيرين. أيمكن هذا ؟ وزير سابق ينزل من مقامه الرفيع إلى زحام المحاماة ليكسب هذه القضية ويخسر تلك، ويتلقى أمراً من هذا القاضي وملاحظة من ذاك؟ غريب هذا لانه بدعة لم تعرف قط في الحياة المصرية إلى ذلك الحين ، ولكن العارفين بسعد لم يستغربوه لانه عمل معقول لاتنهض عليه حجة . وكل أمر معقول فليس من طبيعة الرجل أن يدين فيه لحجر أو لاكراه . ولو لم يكن فيه إلا تحديه للحجر والاكراه لكنى بذلك مغرياً له بفعله وحافزاً له إلى الاقدام عليه . فليس بالبعيد إذن أن يضاف إلى مكاتب المحامين بانحاء القاهرة مكتب جديد للمحامي بالبعيد إذن أن يضاف إلى مكاتب المحامين بانحاء القاهرة مكتب جديد للمحامي معد زغلول . . . ومع أن المحاماة عمل لاسلطان له على سياسة الدولة فقد ظل خصومه الاقوياء يترقبون ويتوجسون ، لان المحامي سعد زغلول قد يخطر خصومه الاقوياء يترقبون ويتوجسون ، لان المحامي سعد زغلول قد يخطر المأن يشترك في قضية من قضايا الاموال المهضومة الماتي تحوم فيها الشبهات على بعض الكبراء . وهذا وذاك مما لايتقبله خصوم التي تحوم فيها الشبهات على بعض الكبراء . وهذا وذاك مما لايتقبله خصوم سعد بارتياح .

والواقع أن سعداً قد تحدث إلى بعض خاصته بالعودة إلى المحاماة ، فوافقه أناس وخالفه آخرون ، واتفق اعتزاله للوزارة على مقربة من فصل الصيف الذي تقف فيه الأعمال وتتعطل فيه الجلسات ، فارجأ البت في استئناف المحاماة إلى مابعد الاجازات الصيفية . ثم تجاوبت الأندية العليا بحديث القانون النظامي الجديد وقرب صدوره ، وانعقاد الهيئة النيابية التي يرجى بها ارضاء المصريين وإعطاؤهم قسطاً من الحكومة الدستورية ، فلاحت له فرصة لام تضيع ، وعلم لأول وهلة ما ينبغي له أن يصنع ، وأجمع النية على ترشيح نفسه للهيئة الجديدة كائناً ماكان نصيبها القانوني من الرقابة الدستورية ، لأنه لا يجهل ما يستطاع عمله بالنقد الصحيح والمحاسبة الدقيقة ، ولو لم يكن من حقه

القول الفاصل في أمر من الأمور .

وعلى ما في اشتغاله بالمحاماة من الغرابة يظهر أن ترشيح نفسه للنيابة في هيئة كهيئة الجمعية النشريعية كان أغرب في رأى خصومه وأبعد عندهم من الحسبان والتخمين ، فلم ينتظر وامنه فيما نظن أن يفكر في انتهاج هذا الطريق ، أو لم ينتظر واعلى الأقل أن ينجح في الانتخاب أو يجمع حوله أنصاراً كثيرين من أعضاء الجمعية ان نجح فيه . ويدعونا إلى ترجيح هذا الظن انهم لم يفكر وافي تقديم الوكيل المعين للجمعية على الوكيل المنتخب بشيء من الحقوق والمزايا ، كانهم لم يحلموا بو صول سعد الى منزلة الوكالة في الجمعية حتى يحتاطوا له هذا الاحتياط ، ولذلك فوجئوا بمسألة الوكيلين مفاجأة لم تقع منهم على استعداد . لانها قد أخلفت عندهم على ما يظهر كل تقدير .

وعندنا أن القائمين على الحكومة المصرية في ذلك العهد لم يخطئوا التقدير من وجهة شعورهم الذي يشعرونه وطبيعتهم التي جبلوا عليها. وهي طبيعة لم تخلق لزعامة شعبية ولم تتعود أن تستطلع مكامن القوة التي يلمسها من نفوس الشعب كل زعيم مفطور على قيادة الجماهير. فهم مصيبون من ناحية التقدير « القانوني » إذا اعتقدوا أن هيئة كالجمعية التشريعية لن تتسع لهمة سعد ونشاطه في الحياة السياسية ، وأنه لاينال بها شيئاً يستحق عناه وهي على ماهي عليه من ضعف النفوذ وضيق الحدود. ولو كان واحد منهم في مكانه لما خطر له أنه يصنع كثيراً ولا قليلاً بترشيح نفسه لهذه الهيئة الصورية · فهو مصيب إذا استخف بها وبما يصنعه فيها ، ومصيب إذا أخرجها من حسامه ولم يعول عليها قط في تحقيق آرائه ومناجزة أعدائه. ولكنه يخطيء إذا استخف بما يصنعه رجل من طبيعة سعد زغلول ، في هيئة تمثل الشعب والى استخف بما يصنعه رجل من طبيعة سعد زغلول ، في هيئة تمثل الشعب والى جانبها الرأي العام ، ولو لم يملك فيها غير حق الانتقاد ·

 لمخالفة الذبن أو جدوها في الحكومة بل أبي بها للطاعة ومجاراة الرغبات الصريحة أو المفهومة ولكنها مع هذا لاتريد أن تقول للناس إنني آلة مسخرة تعمل ما يملي عليها ولا تدري كيف تدافع عن أعمالها، فاذا لم يكن في وسع الانتقاد المعقول المنظم أن يسقطها فني وسعه أن يكشف عن دخيلتها وعن تناقض ظاهرها وباطنها، وأن يضعها كرها أو طوعاً في موضوع مخجل يحرمها كل هيبة ويشل فيها كل حركة. والمعول في وضع الوزارة هذا الموضع العسير انما هو على اليد التي تدير دفة المعارضة و تتصدى الأقامة الحجة من هنا و تفنيدها من هناك، فان يداً تملك هذه القدرة لتملك زمام الموقف كله ولا يعز عليها إحراج الحكومة احراجاً لا تنفعها فيه القوة المطلقة التي تسندها.

وقد قال الشيخ المنفلوطي فيما أذ كر لسعد يوماً من أيام جهاده في الجمعية التشريعية : «ما الذي تستفيده يامو لاي من إجهاد نفسك في شئون قلما تنال فيها الأغلبية في الجمعية ؟ فأجابه جواب الرجل الذي يعرف أين هو من عمله ويعرف السلاح الذي يشحذه في نضاله : « سواء لدي نجحت أم لم أنجح فاني لا أخطب في الجمعية التشريعية وحدها بل في الأمة جميعها ، ولا أخاطب المستقبل أيضاً.»

فهولم يدخل الجمعية التشريعية ليغلب فيها الوزارة بعددالاصوات ومناورات الكثرة والقلة ، ولكن الوزارة برمتها لم يكن لها من النفوذ في سياسة البلد بمقدار ما كان لسعد النائب في الجمعية التشريعية ، بغير كثرة عدديه ، وبغير حق كان إلا حق الانتقاد والمناقشة .

قال اللورد جورج لويد في الجزء الأول من كتابه « مصرمنذ كرومر » عند الكلام على كتشنر والحديو:

« لو أن كتشنر عاد من انجلترا في خريف سنة ١٩١٤ مفوضاً في إنذار الحديو أو خلعه عند الضرورة لبتي عليه أن يمارس الجمعية التشريعية التي خلقها هو بيديه . فقد كان زغلول في تلك الجمعية ومن ورائه صف اتباعه المتين ــ

قوة لامناص من حسبان حسابها ، لأنهم كانوا يملكون أن يشلوا عمل الوزارة إن لم يجعلوه مستحيلاً ، وكان المرجح جداً أن يتهيأ المسرح بعد فترة غير طويلة لمعركة بين زغلول وكتشنر تكون المسبر الدقيق للمقدرة السياسية في كلا الرجلين ، ولم يكن من المحتمل أن يقع الوفاق بين رجلين من هذا الطراز.»

ذلك رأي اللورد لويد فيما طواه الغيب ، وكان في وسعه أن يقول إن المعركة بدأت فعلاً ، وأنها لم تكن لتنتهي إلا بتعجيل الدستور الصحيح وانتصار سعد في نضاله ، لأن الغاء الهيئات النيابية الغاء تاماً مشكلة قد يلجأ اليها اللورد كتشنر إذا اضطر اليها ، ولكنه لا يحسب نفسه منتصراً في هذه الحال ، ولا يزيد على أن يحول النضال إلى ميذان آخر ، لن ينهزم فيه سعد زغلول .

في ميدان الانتخاب

صدر القانونالنظامي الذي انشئت بموجبه الجمعية التشريعية فيأول يوليو سنة ١٩١٣ وجاء في مقدمته ما يأتى :

« لما كانت رغبتنا هي منح بلادنا نظام حكومة يكون موافقاً للافكار النيرة وكافلاً لحسن الادارة ولصيانة الحرية الشخصية وضامنا لاتساع نطاق التقدم والعمران وملائماً لهذه البلاد بنوع خاص،

« ولما كانت هذه الغاية لا يتسنى نيلها الا بتعاضد جميع الطبقات تعاضداً مبنيًا على الولاء ، وبامتزاج جميع المرافق امتزاجاً يؤدي الى ترقية نظام الحكومة بطريقة تجمع بين السكينة والتروي بحيث لا يكون هذا النظام عبارة عن مجرد تقليد ومحاكاة للأساليب الغربية ، بل يكون داعياً الى تمهيد السبيل لرفاهة الامة المصريه واسعادها ،

« ولما كانت بغيتنا حينئذ هي تعديل القانون النظامي تعديلاً يكون من ورائه تحسين الأسلوب التشريعي ، وذلك باستبدال القوانين النظامية الحالية بقوانين ترمي إلى ضم مجلس شورى القوانين مع الجمعية العمومية في هيئة واحدة وإلى تقرير طريقة للانتخاب تكون أوسع نطاقاً وأكثر انطباقاً على الحكمة والى ازدياد عدد الممثلين الذين يعهد اليهم بالمشاركة في أعمال السلطة التشريعية والى تخويل الهيئة الجديدة الاختصاصات الممنوحة الآن لكل من التمريعية والى تقويل الهيئة الجديدة الاختصاصات الممنوحة الآن لكل من العمل في الاستشارة وفي اقتراح وضع القوانين لكي تزداد استفادة الحكومة عن ذي قبل من آراء هذه الهيئة الجديدة ومقترحاتها فيما يتعلق بادارة الشئون الداخلية . . . فقد أمرنا بما هو آت الخالخ »

و تألفت هــذه الهيئة كما جا. في المادة الثانية من قانونها النظامي : « من

أعضاء قانونيين وأعضاء منتخبين وأعضاء معينين . والنظار أعضاء قانونيون . وعدد الاعضاء المنختبين ستة وستون عضواً ينتخب أحدهم وكيلاً بمعرفة الجمعية ويكون انتخاب الاعضاء بالكيفية وبالشروط المقررة في قانون الانتخاب . وعدد الاعضاء المعينين سبعة عشر عضواً أحدهم رئيس والثاني وكيل والحنسة عشر الآخرون يعينون على نحو يكفل النيابة عن الاقليات والمصالح التي لم تنل نصيباً من الانتخاب »

وكانت الشروط المالية غالبة على جميسع الشروط الآخرى في ترشيح الاعضاء. فكان مشروطاً فى العضو بعد السن التي لا تقل عنخمس وثلاثين سنة أن يكون « قد دفع منذ سنتين مال أطيان سنوي قدره خمسون جنيهاأو عوائد مبان قدرها عشرون جنيها في السنة أو خمسة وثلاثون جنيها مال أطيان وعوائد مبان معاً وينقص المال السنوي إلى خمسيه بالنسبة لمن كان حائزاً لشهادة من جهات القطر » . . . وينتخب هؤلاء الاعضاء مندوبون خمسونيون يشترط فيهم ان لا يقل عمرهم عن الثلاثين .

فوظيفة الجمعية ثما تقدم محصورة في الاستشارة ، والنواب محصورون. في نطاق ضيق من أصحاب الثروة والوجاهة ، والناخبون محدودون بالسن. وبقيود الانتخاب من درجتين .

وكانت في مصر ثلاثة أحزاب سياسية عند انشاء الجمعية التشريعية: الحزب الوطني وهو يطلب الاستقلال في ظل السيادة العثمانية ليستعين بحقوقها الشرعية على محاربة الاحتلال الغاصب، ومعظم أعضائه من الطلبة والشبان وخريجي المدارس العليا، وقليل منهم من وجهاء الاقاليم المقربين إلى الحاشية الخديوية.

وحزب الامة ويطلب الاستقلال التام ويبغض السيادة التركية ، ومعظم أعضائه مغضوب عليهم من الحديو عباس الثاني ورجاله ، فكانوا من أجل ذلك على صلة بدار الوكالة البريطانية .

وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ، واسمه يدل على غرضه ، وهو مداراة الاحتلال والاكتفاء بطلب التدرج على مبادي. الحكم النيابي ، وإنما كان يداري الاحتلال لانه حزب القصر المعروف بانتمائه الى المراجع الحديوية ، فلا يحب أن يجهر بمناوأة الانجليز ويعطيهم حجة مكشوفة تمكنهم من مقابلة العدا. .

وكانت هذه الاحزاب سياسية ولكنها لم تكن برلمانية مستعدة للترشيح في ميدان الانتخاب، لأن الاحزاب البرلمانية التي لها فروع ولجان ودعاة ومرشحون لا توجد إلا بعد وجود البرلمان وطول العهد بالمنافسات النيابية، وإيماكانت أحزاب مصر في تلك الفيترة بمثابة اندية سياسية يجتمع فيها بعض الاصدقاء والزملاء المتعارفين، ولا تتعدى حدود القاهرة والعواصم الكبرى.

ومن أسباب عجز الاحزاب عن خوض معركة الانتخاب أنها كانت قد ضعفت واضمحلت لاسباب عارضة أصابت كلاً منها على حدة ، فالحزب الوطني تفرق بعد موت مصطفى كامل وسجن محمد فريد وهجرته من البلاد، وحزب الامة لم يقوعلى الثبات بعد رحيل كرومر وتتابع الضربات عليه في أيام سياسة الوفاق ، وحزب الاصلاح على المبادي، الدستورية لم يكن شيئاً مذكوراً من البداية ، ولم يبق له أثر بعد وفاة رئيسه الشيخ على يوسف صاحب المؤيد.

ومن أصعب الآشياء على أحزاب سياسية كاحزاب مصر في تلك الفترة. أن تجمع لها مرشحين في كل دائرة تتوافر فيهم الشروط المطلوبة من أعضا. الجمعية التشريعية ·

لهذا لم يتقدم أحد ببرنامج سياسي على أساس المنافسات الحزبية في تلك الانتخابات .

ولم يكن سعد عضوًا فى حزب مرى تلك الاحزاب ، ولكن أنصاره المعجبن به من المثقفين في كل حزب غير قليلين ·

فنزل في ميدان الانتخاب مستقلاً عن جميع الاحزاب، وجعل برنامجه موافقاً لما يطلب من الجمعية التي يرشح نفسه للنيابة فيها، وخلاصته كما أفضى به إلى بعض سائليه:

« إذا شاء أهل وطني أن ينتخبوني نائبًا عنهم فانني أعاهدهم على أن أقف نفسي على خدمتهم وقضاء مصلحتهم والسعي في تحقيق أمانيهم وإزالة شكاواهم وأذكر على سبيل الاستشهاد الامور التالية :

(١) قرأت في الجرائد مقالات وفصو لا متعددة في انتقاد قوانين المحاكم المصرية من جنائية ومدنية وغيرها وما فيها من وجوه النقص وما يشكو المتقاضون منه من فداحة الرسوم القضائية وزيادة التطويل في سير القضايا وما شاكل ذلك ، فاذا شاء أبناء وطني أن ينتخبوني نائباً عنهم فأنا أعدهم بأن أجد في خدمتهم بالبحث عن كل العلل والاسباب التي يشكون منها وجمع الشواهد وإيراد الادلة والحجج التي أتوسل بها إلى إقناع زملايي في المجلس حتى يؤيدوني فيما أقترحه على الحكومة من التعديل والتغيير لخير الامة وإلى إقناع الحكومة بصحة اقتراحنا واستمالتها إلى قبوله والعمل به حبا بخير الامة وزوال شكوى الاهالى وزوال شكوى الاهالى و

(٢) إني اختبرت أحوال المدارس والدرس والتدريس زماناً طويلاً وعرفت حاجات الآمة الكثيرة إلى المعارف فاذا انتخبت عضواً في الجمعية التشريعية فاني أعاهد الآمة على افراغ الجمد في توسيع نطاق التعليم حتى يعم جميع طبقات الآمة وحتى يتيسر لابناء الفقراء أن ينبغوا كابناء الآغنياء.

(٣) إني لاأزالمقيمًا على رأي المعلوم في إعطاءالصحافة الحرية اللازمة لزيادة نجاحها وارتقائها في خدمة الآمة . فاذا شاء أبناء وطني أن ينتخبوني فأناأعا هدهم أني أدرس هذه المسألة درسًا دقيقاً وأجمع الادلة والحجج التي تقنع زملائي

و تقنع الحكومة بوضع قانون تصان به حرية الصحافة من جهة و يصان به النظام العام من ضرر شططها من جهة أخرى.

(٤) أقرأ في الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة ولاسيما سكان الشوارع الوطنية ، تارة من قلة النور و تارة من قلة الحسس والرش و تارة من قلة التنظيموالرصف قاذا انتخبت في الجمعية التشريعية فاني لاأدخر وسعاً في عمل ماأستطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إذالة شكوى الأهالي من هذا القبيل .

(ه) إذا انتخبت في الجمعية التشريعية فاني أجعل حاجات معظم الأهالي نصب عيني وخصوصاً حاجات المزارعين فأسعى في تسهيل وسائط الزراعة والري ومد السكك الحديدية والزراعية في البلاد وأدرس أسعار القطن درساً دقيقاً وأبذل جهدي في اتخاذ الوسائط التي تحمى بها مصالح المزارع ولا يذهب ربحه من قطنه طعماً للتاجر وغيره من الذين يشترون قطنه بالثمن الرخيص ويبيعونه إياه محوكاً ومنسوجاً بالثمن الغالي .

وهذه بعض الأمور التي أسعى فيها لخدمة بلادي وقضاء مصلحة أهل وطني وأعد أني لاأدخر في القيام بواجب الخدمة واستخدام الوسائل التي يبيحها لي قاتون الجمعية التشريعية لاقناع الحكومة بعمل ما أرى عمله واجبًا لخير الامة.»

<u></u>*

هذه هي خلاصة الوعودالتي تقدم بها سعد إلى ناخبيه ولم يتجاوزها إلى غيرها من وعود لايملك انجازها نائب في هيئة كالجمية التشريعية .

ولأول مرة في تاريخ الانتخابات بمصر سمعت الخطب الانتخابية وتقرب المرشحون إلى الناخبين ببيان الخطط التي ينوون اتباعها ، وجرى الانتخاب على النظام الحديث بعد أن كان لا يجري إلا على المساومات والشفاعات ، والتوسل بحاه الحاكم تارة وبجاه العصبية تارات · وانه ليكنى في الغالب أن يشترك الرجل «غير العادي» في الشئون العادية لتخرج الأمور عن مجراها الذي ألفه الناس منها، وتستقيم على مجرى جديد لم يألفوه ولم يكونوا ببالغيه إلا في السنين الطوال . وكذلك كان اشتراك سعد في الانتخابات كافياً لاقناع طائفة صالحة من نخبة المثقفين بدخولها والصبر على عيوبها بماكان يزهدهم فيها. فتقدم في ميدان المنافسة العلماء وكبار الكتاب والمحامين، وقلما كان يطرقه في عهد مجلس الشورى والجمعية العمومية أحد غير أتباع الحكومة من جملاء العمد والوجهاء.

وقد رشح سعد نفسه في دائر تين من دوائر العاصمة لا عن دائرة واحدة: أي عن نصف المدينة ، فنجح في الدائر تين نجاحاً فاق كل تقدير .

ونعتقد نحن أن الغرابة كان لها شأن كبير في هذا النجاح ، لأن نزول وزير سابق كسعد زغلول في ميدان الانتخاب على غير المعهود كان مفاجأة غيرت كل حساب ، وكا تما كان ماضيه في الحركة الوطنية وفي المحاماة والقضاء والوزارة مدخراً لهذا اليوم ، فاستعاد قوته كلها من أثر هذه المفاجأة وهزم كل مأعدوه له من الموانع والعراقيل : هزم دعاية التشهير به خمس سنوات ، وهزم المقاومة الخفية التي تألبت فيها مساعي اللورد كتشنر ومساعي الأمير ومساعي الوزارة القائمة ، وهزم المال وغواية الرشوة والرجاء ، وبلغ من حماسة الجماهير لانتخاب سعد ان الرجل الفقير من المندوبين كان ينتخبه وهو لا يعرفه ويرفض الجنيهات التي يعرضها عليه المنافسون المعروفون لديه ثمناً لصوته ، في تلك السنوات العصيبة التي أقفرت فيها الاسواق و نضبت المكاسب

ولم يسمع سعد برجل من هؤلاء المندوبين إلابادر بالسؤال عنه وذهب إليه في رهط من أصحابه البارزين ليعرب له عن شكره ويثني على أمانته وشممه ، ويحييه بين أبناء الحي الذين يجتمعون حول هؤلاء الزوار ، ويتحدثون بهذه الزيارة للكبار والصغار ، فكان مسلكه في الحملة الانتخابية مسلك الزعم الديمقراطي من جميع الوجوه.

وظهرت نتيجة الانتخابات فظهرت من اللحظة الأولى قوة الحسكومة وقوة المعارضة : كان للوزارة كثرة ظاهرة في الجمعية لأن الوزرا. من أعضائها فضلاً عن الأعضاء المعينين والأعضاء الذين لا يصطبغون بصبغة سياسيه ولا بعرفون لهم واجباً غير مناصرة القوة حيث تكون. ومع هذا جرى الانتخاب للوكالة في الجلسة الأولى فانتخب سعداً خسة وستون من الاعضاء ، وشد خسة عشر عضواً تفرقت أصواتهم بين خسة من المرشحين فزعيم المعارضة هنا له مكان في معسكر الحكومة نقشه لا تؤمن عقباه ا

ولم تكن الجمعية مقسومة في مناصرة الحكومة أو معارضتها على حسب الآراء الحزية المعروفة في المجالس النيايية ، وإنما كانت قسمين اثنين : احدهما قسم أولئك النواب الذين يشايعون القوة حيث كانت وهمن الطراز القديم طراز الشروط الماليسة والمزايا المحلية ، والقسم الثاني وهم القلة من المتعلمين الذين دخلوا الجمعية بفكرة سياسية ، وفيهم أعضاء من الحزب الوطني وحزب الآمة وحزب الاصلاح ، وقد وضح من الجمة الاولى أنهم جميعاً حزب سعد في داخل الجمعية ، كما وضح من الجمة الاخرى أنه قد تبوأ مركز الزعامة القومية من يوم قيام تلك الهيئة النيابية . لانه كان زعيماً هو للفكرة السياسية » حيث وجدت ، أو كان زعيماً لكل من ناب عن الأمة وله رأي سياسي مستقل بابدائه • . . فهذه المثابة نستطيع أن نصف الرجل الذي لا يؤيده أكثر من ثلث النواب بأنه كان مع هذا زعيماً للأمة بأسرها ، الذي لا يؤيده أكثر من ثلث النواب بأنه كان مع هذا زعيماً للأمة بأسرها ، السياسية في شروط الانتخاب ، ونستطيع أن نقول إن مستقبل الحركة السياسية في شروط الانتخاب ، ونستطيع أن نقول إن مستقبل الحركة السياسية في شروط الانتخاب ، ونستطيع أن نقول إن مستقبل الحركة الوطنية قد تقرر في ميدان الانتخاب ذلك العام ، على قلة ما توقعه الناس من خطره في تلك الأي الإيام .

الجمعية التشريعية

في خمسة أشهر

انعقدت الجمعية التشريعية من الثاني والعشرين في يناير سنة ١٩١٤ إلى السابع عشر في يونيو من السنة بعينها ـ أيزها. خمسة أشهر .

وقد نظرت خلالها في أعمال شتى انصرفت أول الآمر _ ضرورة _ إلى تنظيم لجانبا ومناقشاتها ، والتفاهم على قواعد المعاملة بين بعض الاعضاء وبعض من جهة أخرى .

ثم نظرت في قوانين مختلفة عرب شركات التعاون الزراعية وردم المستنقعات وقانون خمسة الافدنة وإصلاح الامتحانات وتعديل بعض الاحكام القانونية وإنشاء مدرسة عالية للمحاسبة والتجارية وغير ذلك من الاعمال العادية ، وكان لسعد وحزبه رأي نافع في جميع هذه الاعمال ، أخذت الحكومة بعضه ، ورفضت مارفضته وهي عاجزة عن تعليل رفضه .

وتحقق من جميع المناقشات أن الرأي الراجح في جميع المسائل كان رأي الطائفة المتعلمة لا رأي النواب الذين انتخبوا لمزاياهم المحلية وكفاءتهم المالية . حتى في مسائل الزرع والتجارة ومصالح الثروة التي يظن أنهم أبناء بجدتها وأصحاب القول فيها، والتي يتعلل بها واضعو الدساتير الضيقة للاكثار من القيود والشروط واقامة السدود المعتسفة في وجوه المتعلمين والأذكياء . وكل ما تحقق من فائدة هؤلاء الأعضاء أنهم كانوا مفيدين للوزارة في تأييدها بالحق وبالباطل كلما احتاجت الى تأييد ، حتى حين تحتاج إلى هذا التأييد في زيادة حقوقها ونقص حقوقهم وحقوق الجمعية ! فأما في مسائل التأييد في زيادة حقوقها ونقص حقوقهم وحقوق الجمعية ! فأما في مسائل الاصلاح التي تعنيهم خاصة فقلما سمعت لهم فيها آراء مفيدة أومقترحات

سديدة ، وإنما كانوا يتركونها للمتعلمين ينقضون فيها ويبرمونوينتظرون هم ما يكون من رأي الحكومة فيتبعونه مغمضين.

لهذا انحصر زمام المناقشات كلها في يد سعد لأنه زعيم الطائفة المتعلمة ، وهو في الوقت نفسه مبجل مرعيّ المكانة بين الآخرين .

ولسنا نقصدهنا أن نستقصى آرا، سعد في جميع المناقشات والمساجلات التي دارت بينه وبين الأعضاء أو بينه وبين الحكومة فلا ضرورة لهذا فيما نحن بصدده ، وإنما نجتزي، بالمهم من مواقفه ومناقشاته مى الوجهة السياسية أوالبر لمانية ، وأهمها فيما نعتقد اصراره على عرض ميزانية الاوقاف على الجمعية ، ومطالبته بحماية الشركات التعاونية من استبداد الحكومة ، وتجريحه القاتل لقانون الحنسة الافدنة الذي كان اللورد كتشنر يعتز به ويحسبه من حسناته على الفلاح وجهوده الموفقة في الاصلاح ، وأهم هذه ويحسبه من حسناته على الفلاح وجهوده الموفقة في الاصلاح ، وأهم هذه المواقف جميعاً من الوجهة البرلمانية موقفه في مسألة الوكيلين ، لانه الموقف الذي حفظ للجمعية حقها في وجه الحكومة ، وهي تملك الكثرة الغالبة بغير نزاع .

استطاع في مسألة ميزانية الأوقاف أن يحصل من رئيس الوزارة «حسينر شدي باشا » على وعد صريح « بأن يكون السيرفي نظرها مطابقاً للسير في بحث ميزانية الحكومة » وهي رقابة طارئة كان الحديو عباس الثاني يأ باها كل الاباء ، لاعتقاده انه صاحب الحق المطلق فيما يرجع إلى الاوقاف الأهلية والخيرية على السواء ،

أما شركات التعاون فكان سعمد باشا يقترح أن يحال النظر في حلما إلى القضاء ولا يكتنى فيه برأى مجلس الوزراء. وحجته في ذلك أن التحقيق « الاداري » خلو من الضمان اللازم لحماية هذه الشركات التي ترتبط بها الاموال والمصالح العامة ، وأن تهديد الشركة بالحل لا يشجع أصحاب الاموال على معاملتها بل يدعوهم إلى الحذر منها والشك في دوامها · فلم ينجح

فيها أقترح لأنه لم يظفر بتأييد الكثرة من نواب «الفلاحين» ١٠٠ وانتهت المناقشة باضافة قيد إلى الامور السياسية التي تجيز حل الشركة ، فاشترط فيها أن تكون أموراً سياسية « من شأنها الاخلال بالامن العام » .

أما قانون « خمسة الأفدنة » العزيز على اللورد كتشنر فقد جرحه سعد تجريحاً قاتلاً جعلهمن أبغض القوانين إلى الفلاحين الذين يسترضيهم به اللورد كتشنر ويظنه حدمة قيمة لصغارهم وحماية واقية لارزاقهم · فقد أظهر سعد أن هذا القانون قد أضر بالفلاح الصغير بعد أن سلبه ثقة المقرضين . وإن المصلحة كل المصلحة فيه للمصارف الاجنبية دون الفلاحين المصريين سوا. منهم الصغار والكبار . فالقانون يحرم الحجز على من يملك خمسة أفدنة أو مادونها ولكنه لا يحرم الحجز على الثروة الارضية كلها إذا كانت فوق هذا المقدار · فنتيجة ذلك أن المصارف الاجنبية ضمنت ديونها كلما لانها إنما تقرض كبار الفلاحين ولا تقرض الصغار الفقراء · أما هؤلا. الصغار الفقراء فالأغلب فيهم أنهم يستدينون من المصريين ولا يستدينون من أفراد الاجانب أو المصارف الاجنبية ، فاذا استوفى الدائن الانجنبي حقه فهو يحجز على كل ما يملكه الفلاح الكبير بغير استثناء ولا يترك له خمسة أفدنة ولا مادون ذلك ، وإذا استوفى الدائن المصري حقه حال القانون دون استنجازه بتمامه ، وأصبح الدائن في حذر من أقراض من لا يمكون نصاب السداد. فليس في القانون نفع للغني الذي يؤدي كل ملي عليه ، و لا للفقير الذي عجز من جرائه عن الاستدانة لتصريف شئونه.

أما موقف سعد في مسألة الوكيلين فقد كان أول مواقفه وأهمها من الوجهة البرلم في الجمعية التشريعية، لانه الموقف الذي وزن قوة الحكومة بقوة المعارضة، وإن كانت لا تضمن في الجمعية إلا ثلث الاعضاء أو ما يزيد على الثلث بقليل.

فالظاهركما أسلفنا أن الذين وضعوا القانون النظامي لم ينتظروا من رجل

كسعد ان يرشح نفسه للنيابة في مجلس صئيل كالجمعية التشريعية ، ولم ينتظروا — من ثم — أن يحيئهم فيها وكيلاً منتخباً بمثل ذلك التفوق الذي يقارب الاجماع . فلما وقع ما لم ينتظروا اشفقوا أن يجلس مجلس الرئاسة عند غياب الرئيس المعين من الحكومة ولو جلسات قليلة . فاوعزت الوزارة إلى أحد أنصارها أن يقترح _ أثناء المناقشة في اللاتحة الداخلية _ البحث فيمن يتولى الرئاسة من الوكيلين إذا حضر امعاً عندغيبة الرئيس ، فأضيف ذلك الاقتراح إلى جدول الاعمال فجأة على غير الطريقة المتبعة في كتابة الجدول ، وقام رئيس الوزراء فقال : إن الحكومة تصرح بان الرئاسة تكون حينقذ للوكيل المعين ، وتعتبر ذلك التصريح تفسيراً للقانون .

فاعترض سعد على إثبات الاقتراح بتلك الصيغة ، وسحبه صاحبه بعد أن صرحت الحكومة بما أراده من اقتراحه .

وانتظر سعد حتى تم سحب الاقتراح ثم عقب على ذلك بقوله: « الآن وقد سحب الاقتراح أريد أن أعرف ما هي صفة كلام صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار، أهو اقتراح أم ماذا ؟ وبعد أن أعرف هذه الصفة أحفظ لنفسي الحق في الكلام.» .

فننى رئيس النظار أولاً علمه بالاقتراح قبل تقديمه ، ثم قال : « أما من جمة الوكيلين فكلامنا تصريح برأي الحكومة ، إذ من الضروري وجود مادة في اللائحة الداخلية تبين من يكون له الرئاسة في غياب الرئيس وبصرف النظر عن الاشخاص فالمسألة مسألة تفسير للقانون ، وروح القانون تدل على أن الرئاسة لوكيل الحكومة كما كان يحصل من ثلاثين سنة إلى الآن في مجلس الشورى . ولائحة مجلس شورى القوانين صريحة في ذلك . فان لم تحبوا وضع مادة في اللائحة بهذا الحصوص فليكن في علم الجمعية أن الحكومة متمسكة بذلك . وستنفذه قانوناً .»

فكان هذا البيان أو هذا الانذار في الحقيقة صدمة صريحة للجمعية

لاموجب لها ، ولم يكن على الحكومة ضير من تحاشيها ، ولسكنها تدل على وشعور الاعتزاز » الذي كانت تجري عليه الحكومة في مواجهة النواب ، وربماكان من المفيد في الدلالة على ذلك الشعور أن نذكر هنا أن عضواً من الاعضاء ناقش بعض الوزراء ، فعد الوزير اجتزاء على مناقشته « وقاحة » وصاح بذلك في هيئة الجمعية . . . وهو لا يحسب انه يخالف العرف أو يخرج عن حدوده ! لأن النيابة كانت من ضعف الشأن بالمنزلة التي تسول للوزير ذلك الترفع اللهجة النابية .

فلما أدلى رئيس النظار ببيانه السابق قال سعد: «لقد سألت صاحب العطوفة رئيس النظار عن الصفة التي قدم بهاكلامه: أبصفة اقتراح أم بصفة أخرى ؟ ففهمنا الآن أنه ليس باقتراح لأن عطوفته قال ان كلامه تصريح من الحكومة . ونحن لا نعهد أن الحكومة تلزمنا بتصريح منها ، وانما يلزمنا القانون لا تصريحاتها . وانما تكون لتصريحات الحكومة قيمة عندنا إذا تنازلت بها عن حق من حقوقها كما حصل بشأن المادة السادسة عشرة من القانون النظامي ، ولكنها لاتملك أن تسلب بتصريحاتها حقاً من حقوق الجمعية قضى به القانون ، واذا أرادت شيئاً من ذلك فيجب أن تتبع الطرق القانونية بشأنه فتعدل في القانون كما تشاء ، وليسمح لي صاحب العطوفة أن أقول عن هذا التصريح انه لاقيمة له هنا ، وان عطوفته يتناقض في كلامه ، فقد قال انه يفسر القانون ثم عاد وطلب أن نضع نصاً في اللائحة الداخلية . مع أن اللائحة ليس موضوعها تفسير القانون النظامي بل هي لتنظيم الاحكام التي وردت فيه مطلقة . أما تفسير القانون النظامي فلا يرجع للحكومة وحدها بل لمحكمة فيه مظلقة . أما تفسير القانون النظامي فلا يرجع للحكومة وحدها بل لمحكمة منظمة بمقتضى القانون .

« ويقول عطوفة الرئيس: إن كنتم لا تضعون هذا النص فالحكومة تنفذه . فبأي كيفية ياترى تجري؟ أبالقوة؟ لقد أنكرها عطوفة الرئيس وقال لانريدأن نلتجيء إلى القوة . إذن إلى أي شيء تريد أن تلتجيء ياعطوفة

الرئيس! نحن لا نسلم لك هذا الحق أبداً ولنا محكمة أعلى منا ومنكم تقصل في شأننا إن قام بيننا نزاع في تفسير القانون.

على أن المسألة ليست مسألة تفسير. فقد ترك هذا الحق للهيئات النيابية فمجلس الشورى قال ان الرئاسة للوكيل المعين ، والجمعية العمومية قالت ان هذا الحق لاقدم الوكيلين ولم تعترض الحكومة على ذلك مع أنهاكانت جزءاً متمماً للجمعية العمومية ، بل اشتركت في المداولات وقبلت أن يكون الوكيل المنتخب رئيساً للجلسة إذاكان أقدم الوكيلين . ولكنها تأتي لنا اليوم بتفسير جديد فيجب على الجمعية أن تقول اني أتهم اختياري ولا أنق به مطلقاً بل أثق بمن تعينه الحكومة ، وهذا ماتريد الحكومة منكم.»

ثم قال: «وأرى أنه لا محل مطلقاً لآن ننظر في هذه المسألة الآن لأنها كا بينت لسكم ليس لها فائدة عملية ، أما فيما يختص بسؤال الشيخ الدمرداش عمن يرأس الجلسة في غياب الرئيس فأقول آبي اقبل ـ شخصيًا ـ ان يرأسها سعادة عدلي يكن باشا. وهذا من شخصي لشخص عدلي باشا لا بصفة حق من حقوق الحكومة . بل هو علامة على الاتفاق بيني وبين زميلي واراحة لحضرة الشيخ الدمرداش ولضمير الحكومة.»

انتهت المناقشة على هذا الحل في موضوع الوكيلين بجلسة ذلك اليوم «٢٤ فبراير سنة ١٩١٤ » . وقال ناظر الحقانية : « يظهر ان الافكار الآن غير متجهة الى النظر في هذه المسئلة إلى ان تأتي مناسبة للبحث فيها عند غياب الرئيس ، حيث يضطر في هذه الحالة الى تفسير المادة ، ومادام الامر كذلك فلا داعي للسكلام في هذا الموضوع الآن.»

ثم تقرر العمل باللائحة الداخلية من ذلك اليوم .

و لكن الحكومة كانت على ما ظهر بعد ذلك مدفوعة إلى تقرير نص يقضي بابعاد سعد من كرسي الرئاسة ، وكان اللورد كتشنر هو الموعز بذلك من غير شك ، لآن العضو صاحب الاقتراح الأول ـ وهو ابراهيم راجي بك

كان من ضباط الجيش المحالين إلى المعاش الذين اشتهروا بالتشيع للانجليز واللورد كتشنر خاصة ، لآنه ترقى في عهد قيادته للجيش المصري ، وهو الذي قال في الجمعية معتزاً بقوة الاحتلال : « إذا كانت الحكومة من حديد فالاحتلال من فولاذ 1» وكان تعيينه في الجمعية بوصاية من الوكالة البريطانية ،

وكذلك كان الشيخ الدمرداش زميله في المناقشة مشهوراً بالنزعة الانجليزية ، والتردد على الوكالة البريطانية حتى كان يحسب نفسه رجلاً من رجالها ، ويتقدم معهم لاستقبال المدعوين اليها !

ويؤكد لنا ان الايعاز أنما صدر من جانب اللورد كتشنر ان الوزارة قنعت في الجلسة بما انتهت إليه المناقشة كما رآها القراء ، بل قنعت به في اللجنة التي تألفت لوضع اللائحة الداخلية قبل عرضها ، ولكنها عادت الى المسألة بعد الجلسة بثلاثة أساييع ، فدفعت بعض أنصارها الى تقديم اقتراح موقع عليه من كثرة الجمعية ، يرمون به إلى تسجيل النصر المطلوب .

لجأت الوزارة الى توقيع الاقتراح من كثرة الجمعية لتبطل فيه كل مناقشة فيما وهمت ، مكانها كانت مضطرة أشد الاضطرار الى اثبات سيطرتها على الجمعية ، أو ننى تهمة العجز عنها اوكأنها تشعر بأن بقاءها معلق على ما يكون من نتيجة الصراع بينها وبين المعارضة في مسألة الوكيلين ، ولاشك أنها عرفت اهتهام اللورد كتشنر بنتيجة هذا الصراع لأنه لم يكن يخفيه في أحاديثه مع الذين كانوا يلقونه في تلك الفترة ، حتى بلغ من ذلك انه قال لعدلي يكن باشا : إننا لانراك تتقدم لمعونة الوزارة في الحملات التي يشنها سعد باشا عليها فقال له عدلي باشا : « إنني لم أتعود ان أكون تبعاً للوزارة . »

وكيفماكان الآمر فقد تصرفت الوزارة في المسألة تصرف من يريد النجاح في امتحان خطير ولو بنقل الأجوبة كما يقولون بلغة المدارس المعولت على أن تقهر المعارضة في مسألة الوكيلين قهراً يصح أن يسمى ماديًا أو آليًا لأنه لايديج مجالاللمناقشة والاقتاع بالرأي من الجانبين ، فتقدم بالاقتراح

ثمانية وثلاثون. وهم عددكاف لتأييده ، واغتنموا أول فرصة لاثارة الضوضاء على المعارضين ، ثم أسرعوا الى اقفال باب المناقشة ، ثم الاقتراع على الاستعجال في نظر الاقتراح ، وسلكوا من بداية الآمر مسلك من يمضي الى غاية مرسومة ، فلا يكلف نفسه بياناً ولا يصغى الى بيان .

أحس سعد بالمناورة من اللحظة الاولى ، فتوسل بالوسائل القانونية للاعتراض على شكل الاقتراح ، وقال أولاإن ادراجه في الجدول على الصفة التي هو بها غيرمقبول شكلاً « لأنه مذكور به اقتراح من ٣٨ عضواً من غير ذكر الاسماء » فهذا ليس باقتراح .

فما شرع فيكلامه حتى بدأت المقاطعة المنظمة ...

وصاح صائح من الأعضاء: إن الاسماء موجودة ، وقال منصور يوسف باشا — وهو من أعضاء الاسكندرية المعروفين بالاتصال الوثيق بمحمد سعيد باشا رئيس الوزارة الى ذلك الحين : « أنا وسعادة خالد لطني باشا حضرنا وقدمنا الاقتراح لسعادة الرئيس.»

فطلب سعد حفظ النظام وقال : «ليست المسألة بالضوضاء تؤخذ ولكن بالِقانون ، وحكم القانون هو النافذ لا حكم الضوضاء.»

« أقول ان ادراج الاقتراح في جدول الأعمال باطل شكلاً لأنه أدرج بغير ذكر اسماء مقدميه . فنحن لا نعرف إلى الآن قانوناً من هم أوائتك الأعضاء الذين قدموه ، والقانون يقضي والمباديء تقضي كذلك بأن الاقتراح يدرج في الجدول بأسماء مقدميه . فان سلمنا جدلاً بأن الاقتراح ليس مرفوضاً شكلاً ، وانه مقبول ، فلا نسلم مطلقاً بتقديم هذا الاقتراح على مشروع اعادة النظر الذي بدأت المناقشة فيه ، ولو سلمنا جدلاً _ أيضاً _ أن يقدم الاقتراح في جدول الاعمال فلا نسلم مطلقاً بأن يكون نظره مستعجلا.»

ثم ناشد الاعضا. قائلاً : ﴿ لماذا يخشى إخواننا التأخير إن كانوا على حق

فيما قدموا ؟ الحق حق اليوم وغداً وبعد غد، وهم إنكانوا ثابتين في أنفسهم غير متزلزلة قــلوبهم لا يخشون شيئاً فلماذا يطلبون الاستعجال في نظر هذا الموضوع ويظهرون بمظهر لايرضى كل محب لهم وكل محب لبلاده ؟ »

ثم تجدد اللغط وتكلم بعض الأعضاء ، وطلب الحكوميون اقفال باب المناقشة ، وقال سعد « إن سعادة الرئيس له الحق – إذا رأى أن المناقشة وفيّيت – أن يعرض ذلك على الهيئة ، ولثلاثة من الاعضاء أن يعارضوا في استيفاء المناقشة ، وأنا أحدهم.»

غير أن المنداقشة أقفلت بعد أن تكلم بعض الأعضاء كلاماً لا يغني في الموضوع. ثم مُعرض على الهيئة أخذ الرأي في الاستعجال، وكان لابد من الموافقة عليه بهذا الأسلوب، وبهذا تفتح في الجمعية سنة مشئومة تبطل الغرض من اجتماعها وتغري الحكومة باهمال وجودها، والاكتفاء بتدبير أمشال هذه المناورات كلما رغبت في أمر تصر على تنفيذه.

وهذا سلاح لامناص للمعارضة من كسره أو تنبيه الحكومة إلى خطر استخدامه ، أو تنبيهها على الأقل إلى إمكان مقاومته وآنه لا يصلح للمنازلة في كل حال ولا يمنع المعارضة أن تفله و تكف من غربه في بعض الاحوال ، وإلا أصبحت الحكومة هي الجمعية ، وأصبحت الجمعية هي الحكومة ، بلا الكراث لما يقال.

وسرعان ما ألق سعد نظرة على الاعضاء الحاضرين فرأى أن عددهم لايكفى لالتئام الجمعية قانوناً إذا انسحب المعارضون ، فلم يتردد في اغتنام هذه الفرصة لحماية الجمعية من خطر التمادي في تلك المناورات ، ولإكراه الحكومة على التزام سبيل المناقشة والاقناع في تأييد المقترحات والمطالب ، بدلاً من أن تعول على الكثرة التي لافضل لها فيها ، وتستنيم إلى ذلك الاسلوب المادي أو الآلي . وتسترسل فيه ولا ريب اذا جربت نجاحه بغير كلفة ولاحرج

فانسحب سعد وانسحب معه المعارضون وعدتهم ثمانية وعشرون ، وفوجئت الوزارة بهذه الحركة لأنها كانت تظن الخطة التي اعتمدت عليها حين لجأت إلى تعبئة الكثرة على تلك الصورة خطة لاتقاوم . فلم تدر ماتصنع ، وحاولت أن تتم العدد بالتوسل إلى هذا والتشبث بذاك فلم يجد ذلك نفعاً . وبطل إنعقاد الهيئة في ذلك اليوم فأرجئت إلى الغد ... وكان هذا الارجاء أشبه بنهاية الدورة بين متصارعين دخل أحدهما إلى الحلقة بكل ماعنده من عدد الصراع وحيله ، ولكنه أدرك في اللحظة الاخيرة أنه نسي معلة واحدة يعتصم بها خصمه فتمحوكل ما عنده من عدة وحيلة ، وأنه عول فوق ما ينبغي على أساليب القوة البدنية . وفاته أن في المصارعة أسلوباً لاتجدي فيه القوة مع رشاقة الحركة إ

أحسن المعارضون من الوجهة النظامية ومن الوجهة القومية بانسحابهم في ذلك إليوم .

لأن الجمعية لم يكن لها متسع من السلطات غير حرية المناقشة و اعلان الحجة ، فاذا حيل بينها وبين ذلك بتعبئة الكثرة في الاقتراح ، ثم تعبئتها في المقاطعة ثم تعبئتها في اقفال باب المناقشة ، ثم تعبئتها في جمع الاصوات ، فقد أصبح نظام الهيئة لغو آ لا يتكفل بشيء غير الاذعان الاعمى لارادة الحكومة وما يكمن وراء الحكومة من سيطرة الاحتلال ، وأصبح قانون الهيئة خلواً من معنى القانون ، لأنه قوة مادية لا تقول سبباً ولا تصغى إلى سبب مقول .

وأحسن المعارضون من الوجهة القومية لآن المعارضة كانت هي المنفذ الوحيد الذي نفذت منه إرادة الآمة إلى هذه الهيئة النيابية ، بعد أن تخطت اليها السدود الكثيرة من شروط الترشيح والانتخاب . فكل ما يثبت وجود المعارضة ويصون حقها هو في الواقع اثبات لوجود الآمة وصيانة لحقها جهد ماتستطيع .

ثم عاد المعارضون في الجلسة التالية لأنهم قصدوا القاء ذلك الدرس ولم يقصدوا تعطيل الجمعية أو منع القرار الذي تقدم به الاقتراح، وقال سعد في مستهل الجلسة بعد أن تدكلم بعض الأعضاء: « أردنا أن توضع في الأقتراح جميع المسائل التي دارت المناقشة فيها فحصل اباء ذلك علينا فرأينا أن هذه طريقة غير قانونية وانسحبنا ، ولنا الحق في ذلك .

« نحن نحترم الاغلبية وقراراتها ولا نقول في ذلك شيئًا. بل هذا هو أساس الهيات النيابية ، ونحن لاقوة لنا إلا بالحق وباحترام القانون .

و ولكن كل أمر يخل بحرية آرائنا وكل أمر يكون مخالفاً للقانون في كيفية أخذ الآرا. لانقبله مهما كان مصدره عالياًو مهما كان الامر فيه .

« نحن انسحبنا لمخالفة القانون . أما الآن فانا نخضع للقانون في أخذ الآراء على حسب الترتيب الطبيعي الذي طلبناه . وهو الذي أشار اليه سعادة الرئيس ، ولذلك لامحل اليوم للمناقشة في شيء انتهت المناقشة فيه بالأمس.» وعلى هذا سارت الجمعية في أعمالها على نظام مقبول وحدود مرعية بين الطرفين ، بقية الآيام المقدورة لها في عالم البقاء .

ولم يعسر على سعد — مع هـــذا الانقسام الحاسم بين الحكوميين والمعارضين ــأن يجمع الكثرة حوله في مسائل شي تناولتها الجمعية بالبحث واشتد عليها الخلاف بين الاعضاء ، لانه كان يعارض بالحجة ويوافق بالحجة ، فلا يحجم عن تأييد الحكومة في مواد القوانين التي تعرضها إذا بدا له وجه الحق في تأييدها ، ولو جاء الاعتراض عليها من أقرب أنصاره ، ولا يحجم عن نقد الرأي ولو كان أصحابه من أعضاء المعارضة ، فتعود النواب أن يتخذوا منقوله في مواطن الخلاف قسطاسًا للسداد والتنزه عن الهوى ، وآل اليه الفصل في المواقف المعضلة الملتبسة ، فاجتمع له من الوجهة الرسمية نفود أدبي لايقل عن نفوذه من الوجهة القومية .

ومن الطرائف المستملحة أن نوردهنا ما كانوا يتحدثون به في الجمعية يومئذ عن زعامة سعد وما كان سعد يرد به على تلك الآحاديث قبل خمس سنوات من ولايته الزعامة القومية باجماع النواب والآمة . فقد قال بعض الاعضاء المشايعين الوزارة أثناء البحث في شركات التعاون : « إنما يريد واحد منا أن يتولى زعامة بحموع . . . » واستطرد إلى كلام ينم على غرضه . ف كان جواب سعد عليه : « ياحضرة العضو المحترم . انها فكرة يسهل على اللسان _ مع الاسف ترديدها _ وقد تطوف بيعض الاذهان ، ولكني أقرر لك أنها فكرة غير صحيحة وإني بعيد كل البعد عنها ، وها أنا موجود معك ومع غيرك في هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لي متى رجو تك مرة أن تنضم غيرك في هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لي متى رجو تك مرة أن تنضم ألى دأيي ، ومتى حاولت التأثير عليك لاجعلك تحت زعامتي ؟ إنك إن شئت أن تعرف حقيقي فاعلم أنني رجل قد وضعت تحت تصرف أمتي عقلي واختياري وبياني ، فان استفادت الامة من عملي فذاك ما يجعلني سعيدا . وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسي فأنا أقوم به لاريح ضميري . هما الذي يسرني ويشرفي فهو أن أكون خادماً لكم لا زعماً »

وكان هذا الاسلوب أسلوبه في الرد على من يسيئون اليه أو يغضون منه أو يعارضونه في رأيه ، لا يتجاوز الرد الذي يقوله العالم في مباحثة علمية بمعزل عن البواعث الشخصية ، ولا يزيد على الجواب المفيد في أناة تكبح جماح العادي وتكسر حدة الغاضب و تثني عزيمة المسيم، و تعود بالمناقشة إلى الجد الذي لافضول فيه .

قال مرة في جلسة حمي فيها وطيس الجدل حول مسألة الوكيلين: «لست شتاماً بل أقر وأعترف أمامكم بأنني عاجز أمام كل شتيمة. ليس لي مطلقاً قوة في هذا الميدان تدفعني لأن أنازل فيه أضعف إنسان.»

قال هذا لانه كان يخاطب الاعضاء الثمانية والثلاثين أصحاب الاقتراح الذي أشرنا اليه فجاءت في خطبته كلمة الشهوة إذ يقول: ﴿ خَافُوا عَلَى سَمَّعَةُ

الجمعية أكثر من الشهوة التي تدفعكم إلى هذه المسألة » . . . فلم يفهم أحد الاعضاء معنى السكلمة وظنها تشير إلى معنى لايليق بالشيوخ الشيب · فوقف وهو يمسك بشعره ويقول في حدة وغضب : «نحن أناس شابت رموسنا ! » فأجابه سعد بما تقدم على سبيل الاعتذار بعد أن قال : « زملائى · إني لم أرد أن أجرح خواطركم ، وكلمة شهوة إذا كانت لم تعجبكم فمرادي بها رغبتكم ، والشهوة هي الرغبة الشديدة ، فلا تحتدوا لأن المسائل لاتحل بالحسدة بل بالتعقل والحكمة . أمامكم زمن طويل جداً للحدة والشدة ان رأيتم من سالحكم ومن الصالح العام استعالها . ولكني أرجو أن لا تؤلوا كلماتي بغير المهاد دمنها »

فهو يريد من الجمعية أن تدخر « الحدة والشدة » لغرض آخر في زمن طويل جداً ينتظرها ولا تضيعها في مناقشاتها ومحاوراتها وما أشبه هذا بالنبوءات التي تلمح الغيب من وراء حجاب ا

وكان يتكلم في أثناء عرض قانون التعاون ، فقاطعه رئيس الوزراء ، فجلس وهو يقول : « إذا كنتم تستمرون هكذا على مقاطعتي فاني لا أتكلم ، وها أنا أجلس حتى يستنب النظام » وكان يقول دائماً ان المقاطعة متعبة للمتكام والسامع . فلما جلس وثب الشيخ عبد الرحيم الدمرداش — وهو مشهور بخفته ودعابته — يصبح : « أريد أن أسأل سؤالاً » ... فقال سعد : «أنا لم أنته من كلامي . وقد جلست حتى انتهي من مقاطعة صاحب العطوفة رئيس الوزراء ، فهل تريد حضرتك أن تزيد عليها مقاطعة أخرى ؟ »

فأجابه الشيخ بدعابته المعهودة : « إذا جلست سعادتك تقول لاتتكلموا وإذا وقفت تقول لاتتكلموا . فلا ندري متى نتكلم ؟ »

فقال سعد : لالزوم لمثل هذا يا أستاذ! وغاد الاستاذ يقول : أناماكنت أقصد المقاطعة ، ومع كل ما أحد « متعبنا » غير سعادتك؟ »

فاقتصر سعد في جوابه على قوله : ﴿ إِنْ كُنْتَ حَقَيْقَةً تَعْتَقَدْ مَا تَقُولُ فَهِذَا

خيال قائم في ذهنك يا أستاذ. لأني آخر من يتعبكم ، بل أنا موجه كلءنايتي ومجهوداتي إلى سبيل جلب الراحة اليكم » . . . ثم عاد إلى الموضوع.

وبهذا الاسلوب من الجد « العلمي » كان يرد على ملاحظات أصدقائه كما يرد على من يقاطعونه من مخالفيه.

أثنى على عبد العزيز فهمي « بك » مرة فوقف عبد العزيز بك يقول: «لي الحق أن أطلب منع سعادة سعدباشا عن هذا الكلام لآنه يمس الشخصيات ه فلم يزد سعد باشا على أن قال وهو ماض في كلامه: « المنع يكون عند الطعن الشخصي لا عند المدح. وليس الآمر توزيع مزايا بل يجب علينا أن نكلف بالعمل من هو أكثر أهلية له، ويجب أن نعطي لمن نكلفه بهذا العمل حق التصرف...»

وقد التزم سعد هذا الاساوب الذي سميناه بأساوب و الجد العلمي » في جميع مناقشاته بالجمعية التشريعية فلم يخرج عنه قط ولم يسترسل مرة مع فكاهته التي جبل عليها و تعودناها منه في كثير من أحاديثه وخطبه ومساجلاته بعد قيامه بالزعامة القومية وإنك لتبحث عبثاً عن تلك الفكاهات التي لا تنقطع في مناسباتها فلا تعثر بواحدة منها ، وإن كان قدمر به من المواقف كما رأينا ما يغريه بها و يدعوه اليها . . . لم ؟ إن الفكاهة لم تفارقه بطبيعة الحال في أيام الجمعية التشريعية ، وليست الطبائع الاصيلة بالتي تتغيربين آونة وأخرى . فاذا كان قد آثر أن يلتزم « الجد العلمي » في مناقشات الجمعية ولم يؤثر ذلك في خطب الزعامة ومساجلاتها فتلك بداهة من بداهات الزعامة التي تستلهم المواقف ما ينبغي لها من أسلوب في كل معرض وفي كل لحظة . . . فني الجمعية كان سعد « يوطد » للمعارضة هيية مرعية وهي قلة لا تملك نفوذ الحكومة ولا نفوذ القوة الفعلية ، فليس ألزم لها من الجد وليس أخطر عليها من الطلاق الفكاهة و رفع الكلفة و مقابلة المثل بالمثل بين أناس مستعدين للاجتراء على المعارضة و الاستخفاف بها . أما الزعيم الذي تؤيده الامة بأسرها فلاحاجة به على المعارضة و الاستخفاف بها . أما الزعيم الذي تؤيده الامة بأسرها فلاحاجة به على المعارضة و الاستخفاف بها . أما الزعيم الذي تؤيده الامة بأسرها فلاحاجة به

إلى شي. من ذلك ولا خطر عليه من إرسال النفس على السجية ، بل لعله يبلغ بسلاح الفكاهة مالم يبلغه « بالجـد العلمي » الذي كان أحكم الاساليب وألزمها في أيام الجمعية الاولى.

* **

بهذه الدراية الفطرية وهذه اليقظة الفكرية ، وهـــذه البداهة الحاضرة استقامت للمعارضة الصغيرة قوتها الحكبيرة ، وأصبحت عاملاً من عوامل السياسة المصرية كأنها كثرة غالبة في برلمان معترف له بحق الرقابة. فاستطاعت في مدى شهرين من افتتاح الجمعية التشريعية أن تعجل بسقوط الوزارة السعيدية . إذ استقال محمد سعيد باشا ولم يشأ كتشنر أن يحميه لأنه في نظره «كان أداة تفرقة في داخل الوزارة لعكوفه على الدسائس الملتوية ، وكان قليل الكياسة في مسلكه مع الجمعية . . ، » كما قال اللورد جورج لويد في كتابه عن مصر في عهد كروم.

وبلغ من عناية كتشنر بارضاء سعد ومبالاته باتقاء حملاته أنه أشار على الحديو باستدعاء مصطفى فهمي باشا لتأليف الوزارة على الرغم من شيخوخته واعتلال صحته ، لانه حمو سعد باشا . وفي قيامه على رأس الوزارة إحراج لسعد باشا أو إسكات له سواء دخل الوزارة أو بتي في الجمعية التشريعية . ويقال إن الوزارة عرضت على سعد في أيامها فرفضها ، كما يقال ان اسمه جرى أمام الحديو في أثناء المفاوضة على ترشيح الوزراء فقال : « لا . دعوه في الجمعية فهو هناك قوة لا تعوض .»

ولما اعتذر مصطفى فهمي باشامن تأليف الوزارة لأنه لم يقبل من رشحهم اللورد كتشنر من أصدقائه لسوء ظنه بهزاهتهم وعزوف نفسه عن مزاملتهم ، لوحظت صداقة الجمعية التشريعية أو صداقة سعد في اختيار الرئيس الجديد. فتألفت الوزارة برئاسة حسين رشدي باشا صديق المعارضين ، وكان أول ما جهر به من سياسته أنه قال بعد أن أقسم اليمين : « إن خير ما نفتتح به أعمالنا

أيها السادة أن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم لخدمة الوطن العزيز إ وإنا لعاقدو النية على العمل معكم على خطة الصراحة والتفاهم والوئام ، في أداء تلك المهمة التي ندبتنا اليها ثقة مولانا الحديو المعظم.»

أي على خطة غير خطة الوزارة المستقيلة !

* * *

انفضت جلسات الجمعية في السابع عشر من يونيو سنة ١٩٧٤ على أن تعود إلى الانعقاد في أول نوفمبر بحسب القانون النظامي . ولكنها لم تنعقد في ذلك الموعد ولا في موعد بعده ، لنشوب الحرب العظمى أثناء الصيف ، وظلت تؤجل من تاريخ الى تاريخ حتى صدر الامر بتأجيل انعقادها إلى أجل غير مسمى ، ثم حل محلها الدستور الجديد فلم يكتب لها من العمر أكثر من تلك الاشهر الخسة .

وجملة ما يقال من الرأي فها أنها حققت ما ينتظر منها في حدودها ، وان الفترة الوجيزة التي قضتها تصلح ألمقارنة بينها وبين فتر ات مثلها في سجلات المجالس النيابية المعروفة . فانها خلال خمسة أشهر لا أكثر نظرت في تأسيس نظامها وادارة جلساتها ، ونظرت في الميزانية العامة ، ونظرت في القوانين المختلفة التي عرضتها عليها الحكومة وبسطت فيها من النقد والتعقيب ماهو جدير بالاصغاء أو جدير بالاجابة ، وليس هذا بقليل على تلك الفترة الوجيزة ، إذا صرفنا النظر صرفاً باتاً عن المكانة التي أثبتها لنفسها في عالم السياسة المصرية ، بمحض قوتها لا بقوة النصوص ولا بقوة التقاليد .

أما اللورد كتشنر منشي، الجمعية فقد كان رأيه فيها هو الرأي اللائق بها المسوغ لوجودها. لأن المستبد الذي ينشي، مجلساً نيائياً ثم يرضى عنه كل الرضى يشهد لذلك المجلس أسوأ الشهادة ، ويدل على أن وجوده وعدمه في الرقابة على الحكومة سواء. ورأي اللورد كتشنر في الجمعية لم يعد أن يكون مثلاً صادقاً لآراء جميع المستبدين ولا سما العسكريين . فان من خصائص

المستبدين العسكريين أن يحاسبو الناس بما لا يحاسبون به أنفسهم ، وأن يعيبو الشيء الواحد في أعمال غيرهم ولا يعيبونه في أعمالهم . فاذا كان للورد كتشنر هوى نفس في مسألة الوكيلين فمن الجائز له أن يعطل أعمال الجمعية وان يعيدها إلى موضوع تركته وطوته واستغنت عن الاطالة فيه ا ولاضير أن يحرك اللورد كتشنر وزارة محمد سعيد باشاوكثرة النواب لتحقيق هوا موارضاء نزواته . هذا كله جائز لا غبار عليه . . . أما إذا خطب النواب في مسألة الوكيلين أو في غيرها فعند ثذ تكون الخطب والمجادلات ثرثرة محامين و تكون الجمعية حقيقة بالتهديد والالغاء ا ويشعر اللورد كتشنر بخيبة الرجاء ونكون الجمعية حقيقة بالتهديد والالغاء ا ويشعر اللورد كتشنر بخيبة الرجاء

على أن اللورد كتشنر قد عدل قبل سفره عن التفكير في حل الجمنية أو الغاء قانونها كما كان يتوعد ويجهر بوعيده لمن لقيهم في أيام الحلاف على وكالة سعد باشا ، لآنه سافر إلى لندن وهو مشغول بما هو أهم وأخطر : وهو التفكير في خلع الحديوعباس الثاني ؛ ولعله من أجل هذا كان حريصاً على محاسنة الجمعية ومحاسنة سعد في أيامه الاخيرة ، لكي لا يقدم على انتزاع حقوق الامارة ، وحقوق الشعب في وقت واحد .

قبيل الحرب العظمي

سافركتشنرفي تلك السنة على عزيمة السعي الحثيث عند حكومته لاقناعها بخلع الحديو. وعلة هذه النقمة هي في الحقيقة بقايا تلك الحفيظة القديمة التي تركت الرجلين عدوين لا يتصافيان بعد أزمة الحدود. أما الللة الاخيرة ، أو العلة التيكان يتذرع بها لاقناع حكومته فهي سكة حديد مربوط وما كان يشاع يومئذ من المفاوضة بين الحديو وإحدى الشركات الايطالية لشرائها ومدها إلى الحدود الغربية.

وقد سمع الحديو من مصادر شتى أن صنيعته ورئيس وزرائه محمد سعيد باشا يمشي بالوشاية بينه وبين كتشنر في هذه المسألة . فحنق عليه أشد الحنق ، وتناسى في سبيل إحراجه ماكان بينه وبين سعد من جفوة أو فتور .وأرسل اليه من يسفر بينهما في المصالحة ، ويبلغه ثناءه على موقفه من الوزارة السعيدية في الجمعية التشريعية ، وعادت العلاقات بينهما إلى شيء من الاتصال .

وكأنما شعر الخديو بما اعتزمه كتشنر في سفرته تلك السنة فاستحسن أن يجعل رحلته الصيفية إلى الاستانة لا إلى أوربا، لآنه قدّر أن تسعى الحكومة البريطانية عند « الباب العالي » في مسألة خلعه إذا اقتنعت برأي مندوبها ، فأحب أن يكون على مقربة من الباب العالي ليستطلع الخبر ويحسن العلاقة بينه وبين رجال الحكومة التركية ، ويبذل ما في وسعه لاحباط سعى الانجليز ، وهو لا يجهل أنهم لاقون من الضدر الاعظم سعيد حليم أذناً صاغية في تلك وهو لا يجهل أنهم لاقون من الضدر الاعظم سعيد حليم أذناً صاغية في تلك

وأحب قبل سفره من مصر أن يقيم الدليل على ولا. الشعب له والتفاف السراة ورؤسا. العشائر حوله ، فطاف الأقاليم البحرية وزار حواضرها وقراها ، واغتبط بمارآه من مظاهرات الشعب والموظفين ومن تسابق الوجها، والسواد إلى استقباله و إقامة الزينات في طريقه ، وكان عظيم الرغبة في نني كل ما قيل عن الجفاء بينه وبين وكيل الجمعية التشريعية والبارزين من أعضائها ، فأرسل إلى سعد أنه يود لو يراه في بلدته إبيانه ، ثم لم ينس بعد وصوله إلى الاستانة أن يغتنم الفرصة الأولى للكتابة اليه بما يجدد الصلة ويكشف عن بعض النيات المقبلة ، فكتب اليه من برقية يعزيه بها في حميه المرحوم مصطفى فهمي باشا أنه يرجو له طول البقاء : « ليخدم أميره و بلاده زمناً آخر طويلاً،

ونشبت الحرب العظمى وسعد في « فيشي » ينتجع المياه المعدنية التي تعود أن يقصد اليها في معظم الأعوام؛ فركب منها سيارة سريعة إلى مارسيليا لازدحام السكك الحديدية بالجنود والمسافرين، وأدرك بشق النفس مكاناً له ولاسرته في الباخرة لوتس التي كانت تهم بالاقلاع إلى الاسكندرية. فوصل الها قبل إعلان الاحكام العسكرية بنحو شهرين.

لم يسهل على السلطات الانجايزية عند اعلان أحكامها العسكرية أن تبت فيما تعامل به سعداً أثناء الحرب العظمى : أتعتبره صديقاً ! إنه ليس بصديق وبينه وبين عميد الاحتلال وصاحب الكلمة النافذة في وزارة الحربية البريطانية إذ ذاك ما بينهما من صراع عنيف .

أم تعتبره عدواً تسمح مقتضيات الحرب باعتقائه والحجر على مقامه وانتقاله ؟ ذلك أدنى إلى هوى الإنجليز في دار الوكالة البريطانية ، وإلى هوى كشنر في وزارة الحربية . ولكن هل من المصلحة السياسية أن يسجل الإنجليز على أنفسهم أن الاجراء الذي اتخدذوه في مصر يضطرهم إلى اعتقال رجل كهعد زغلول ؟ أو إلى اعتقال وكيل الهيئة النيابية وخلع الأمير في وقت واحد ؟ وهل من المصلحة السياسية أن يقطعوا بعداوة رجل مثله ولا يدعوا له إلا خطة واحدة با زائهم وهي خطة العداء الصريح ؟ وهل من المصلحة البياد وهم يعلمون أنه لا يجد المعونة وهل من المصلحة أن يغضبوا السلطان الجديد وهم يعلمون أنه لا يجد المعونة

بين المصريين إن لم يجدها في الكبرا. الذين كان بينهم وبين الخديو محاذرة أو جفا. ؟

وبعد قليل من التردد آثرت السلطات الانجليزية أن تفتح بينها وبينه باب المسالمة والحيدة ، وأن تراقبه على البعد لتقيد عليه حركاته وسكناته و تنتظر ما يكون ، فلا هو بصديق ولا عدو · ولكنه رجل يحسن انتظار صداقته ، ولا يحسن دفعه إلى العداء .

في تلك السنة سافر من مصر الرجال الثلاثة الذين تقوم عليهم دعائم السياسة المصرية ، وكل منهم يفكر في المستقبل القريب كما يريده لمقاصده ويرسمه لنفسه: سافر كتشنر عميد الاحتلال وهو يفكر في خلع أمير البلاد ليستأثر وحده بالحم في أرض الفراعنة ، وسافر أمير البلاد وهو يفكر في توطيد عرشه واتقاء حبائل عدوه ، وسافر سعد زغلول الوكيل المنتخب وهو يفكر فيما يعمل بعد عودته إلى الجمعية التشريعية ، ولو ارتفع حجاب الغيب يفكر فيما يعمل بعد عودته إلى الجمعية التشريعية ، ولو ارتفع حجاب الغيب خطوة واحدة لعلم كل منهم أن القدر سيغنيه عن التفكير فيما كان يفكر فيه ، فلا كتشنر عاد إلى مصر ، ولا الأمير عاد إلى عرشه ، ولا الجمعية التشريعية على الانعقاد .

صدق المعري : وتقدرون فتضحك الاقدارُ !

الحرب العظمى

نشبت الحرب العظمى في الرابع عشر من شهر يوليو ، ولم تدخلها بريطانيا العظمى إلا بعد ثلاثة أسابيع في الرابع من أغسطس ، وظلت تتردد في اعلان نياتها بمصر إلى أن أعلنت الأحكام العرفية بها في ثاني نوفمبر ، ثم أعلنت قطع علاقاتها بالدولة العثمانية ، وأرسلت دار الوكالة البريطانية إلى حسين رشدي باشا القائم مقام الحديو تبلغه « إن السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن القطر المصري وبالتدابير التي يستدعيها هذا الدفاع أصبحت منحصرة في يد القائد العام وان حضرات النظار لا يزال كل واحد منهم حافظاً للسلطة التي له في الامور الملكية الخاصة بنظارته .»

وظل الوزرا. بمعزل عما تنويه الدولة البريطانية وعما تعمله بعد إعلان الأحكام العرفية ، وأنما خوطبوا في مسألة الحماية لماكان في نية الانجليز من خلع الخديو عباس بعد اعلانها واقامة عمه حسين كامل سلطاناً في مسكانه . ولا يستطاع اتمام ذلك والتمهيد له بغير اطلاع الوزارة .

وفي الثامن عشر من ديسمبر أعلنت الحماية البريطانية ، ثم أعلن في غده قيام السلطان حسين كامل على العرش ، وخاطبته وزارة الحارجية البريطانية — على يد مستر شيتهام — ببلاغ قالت فيه : —

« لما كان قد سبق لحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في بلاد مصر ، أنها أخذت على عاتقها وعهدها مسئولية الدفاع عن القطر المصري في الحرب الحاضرة ، فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية . فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصري جميع الحقوق التي استعملتها في البلاد مدة سني الاصلاح الثلاثين الماضية.»

ثم قالت بلسان مستر شيتهام : ه و إنني مكلف بأن أؤكد لسموكم صراحة عند عرضي على سموكم قبول عب. هذا المنصب أن بريطانيا العظمي أخذت على عاتقها وحدها كل المسئولية في دفع أي تعد على الأراضي التي تحت حكم سموكم مهما كان مصدره ... وبزوال السيادة العثمانية تزول أيضاً القيود التي كانت موضوعة بمقتضى الفرمانات العثمانية لعـدد جيش سموكم وللحق الذي لسموكم في الانعام بالرتب والنياشين . أما فما يختص بالعلاقات الخــارجية فترى حُكُومة جلالته أن المسئولية الحديثة الَّتِي أُخذتها بريطانبا العظمي على نفسها تستدعي أن تكون المخابرات منذ الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدولالاجنبيَّة بواسطة وكيل جلالته في مصر . وقد سبق لحكومة جلالته أنها صرحت مرارآ بأن المصاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الاجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد . واكن من رأي حكومة جلالته أن يؤجل النظر في تعديل هذه المعاهدات الى مابعد انتهاء الحرب. وفيما يختص بادارة البلاد الداخلية على أن أذكر سموكم أن حكومة جلالته طبقاً لتقاليد السياسة البريطانية قد دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها في ضهان الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية والتدرج في اشتراك امحكومين في الحكم بمقدار ماتسمح به حالة الأمة من الرقي السياسي : وفي عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التقاليد بل انها موقنة بأن تحديد مركز بريطانيا في هذه البلاد تحديداً صريحاً يؤدى إلى سرعة التقدم في سبيل الحكم الذاتي،

وتلق السلطان حسين في اليوم الذي ارتق فيه العرش برقية من ملك انجلترا يقول فيها بعدالتهنئة : « إنني على يقين أنه بمعاونة وزار تكم وبحماية بريطانيا المعظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التي يراد بهما العبث باستقلال مصر وبرفاهية أهلها وحريتهم وسعادتهم »

وقد وجه السلطان الى رئيس الوزراء بياناً أوجز فيه ماكان . ثم قال : « أما الهيئات النيابية في القطر فسيكون من أقصى أمانينا أل نزيد اشتراك المحكومين في حكومة البلاد زيادة متوالية » وكلفه بعد ذلك تأليف الوزارة وعرض أسماء الوزراء للتصديق .

وينبغي أن نفهم وعد الحكومة البريطانية بالدفاع عن مصر على جليته لنعلم حقيقة أثره في نفوس المصريين ، فنقول ان الحكومة البريطانية لم تبادر بابلاغ المصريين هذا الوعد لانهم قوم يستثقلون أعباء الدفاع عن بلادهم ويفرحون بالقاء هذا الواجب على غيرهم ، ولكنها بادرت بابلاغهم إياه لانها دخلت في حرب مع خليفة المسلمين لمصلحتها السياسية ، فليس لها أن توجب على المصريين معاونتها في حربها ، ونسيان شعورهم الديني لأجل مصلحتها ، ولهذا يكون لاعفاء المصريين من الحرب معنى لاغضاضة فيه على فضيلة الشجاعة ، ولا يفهم منه اغتباطهم ببشارة الحماية البريطانية .

وقد قوبل السلطان حسين في بداية قيامه على العرش بالنفور الشديد من جانب المصريين ، لأنهم حسبوه صنيعة من صنائع الانجليز ، وآلة من آلاتهم في إعلان حمايتهم على البلاد ، ولكنه لم يلبث أن كسب محبتهم وإعجابهم بما بدا من أريحيته ونبله ونخوته في المحافظة على حقه وغيرته على مصالح قومه ، وأنفته أن يذعن للقائمين بالأمر من القادة والمنسدوبين الانجليز جهد مافي وسعه . وقد وقع الاعتداء على حياته مرتين فعفا عن المعتدي في المرة الثانية واستبدل حكم السجن بحكم الاعدام ، لانه لم ير من المعتدي في المرة الثانية واستبدل حكم السجن بحكم الاعدام ، لانه لم ير من داع للشدة بعد استقرار ملكه وجلاء الغاشية الأولى عن مسلكه . فكانت هذه الأريحية وما شابها من سماحته وطيب طويته مما حببه إلى الناس وشملهم بالحزن عليه يوم وفاته .

وخلف السلطان حسينا أخوه السلطان أحمدفؤاد في التاسع من ١ كتوبر

سنة ١٩١٧ بتبلغ قالت فيه الحكومة البريطانية: « لماكان نظام الوارثة على عرش السلطنة المصرية لم يوضع للآن وكنتم عظمتكم بعد طبقة البنين الوراث الشرعي المتعين تبعاً لوراثة العرش فان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامي».

واذا قوبل بين السلطان الجديد وأخيه في الخصال العامة فأوجز مايقال في المقابلة بينهما إن الصفات النفسية أرجح في حسين والصفات العقلية أرجح في فؤاد ، ومن دلائل بعد نظره ورجاحة عقله أنه اقترح عند أول قيامه على العرش إدخال سعد في الوزارة على سيبيل الحيطة من موقفه المجهول في المستقبل . لانه عرف سعداً في أيام اشتغالهما معاً بالجامعة المصرية ، وعرف أن رجلا كهذا لابدله من شأن مدخر في قضية بلاده ، فأحب أن يكون معه لاعليه ، وأن يكون قبوله الوزارة قبولاً منه للتبعة المشتركة في السياسة الحاضرة والمنتظرة . فكره الانجليز العمل بذلك الاقتراح ولم يفاتح سعد في الموضوع .

لم تمض أشهر قليلة بعد إعلان الحماية حتى كانت السلطات الانجليزية قد نقضت كل ماعاهدت عليه الآمة المصرية ، فأطلقت أيديها في دواوين الحكومة جميعاً إلا ماهي في غنى عنه ولاقدرة لها على إدارته لقلة الموظفين الانجليز في تلك الفترة ، وأمعنت من جهة في التضييق على أعداء الاحتلال واسترسلت من جهة أخرى في الثقة بمن يوالونه ويخدمونه . وهم قوم لاخلاق لهم ولا ترجى منهم عفة ولاكرامة ، فأساءوا السيرة وانبسطت أيديهم بالانتقام بمن يحرأون على الشكاية ، ثم احتاجت إلى العمال فجمعت منهم أعو مليون ومائتي ألف من الفتيان الاشداء فرقتهم في ميادين القتال وأهملتهم أسوأ إهمال ، فكانوا يتساقطون كالذباب وتنقطع أخبارهم عن أهليهم فلا يسمع عنهم خبر بمرض أو وفاة ، واحتاجت إلى الزاد والعلف

والماشية والدواب فأخذت منها ماشاءت أن تأخذبلا اكتراث لحاجة الفلاح الفقير الذي يعتمد عليها في الزرع والمؤنة ، ولبث الرؤساء الانجليز يدفعون الموظفين الى جمع العال والارزاق ثم يكافئونهم بالترقية والحظوة على ماجمعوا منهم ومنها ، وكانوا يرسلون اليهم المفتشين الانجليز يستحثونهم في الاقاليم ويتهمون منهم المقصرين والمتباطئين بسوء النية وقلة الاخلاص للحكومة القائمة ، ومن كان من أهل البلاد موسراً أومشهوراً بالثراء فرضوا عليه « اعانة » قسرية للصليب الاحر أو يظل عرضة للكيد وتعطيل المرافق عند الحكومة ، وأيسر ما يخشاه في ذلك الحين أن يعتقل زمناً طويلاً بلا عاسة ولا سؤال.

واستعان الانجليز بالجيش المصري في جزيرة العرب كما استباحوا أموال الحزانة العامة ، فأخذوا من الوزارة ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه باسم الهدية ا وجعلوا ينفقون الملايين على حرب الترك ومدالسكة الحديد في صحراء سينا ، وغير ذلك من التحضيرات الحربية التي تكفلوا بها عند إعلان الاحكام العسكرية ، وقيدوا أسعار القطن فلم ينتفع الفلاح بخمس ثمنه الذي كان يرجوه لولا القيود الجبرية ، وهذا عدا اصابات الافراد التي كانت تتكاثر على السراة والسوقة من جنود المستعمرات ، وهم على شيء كثير من الغلظة والشكاسة والتمرد . حتى شق على رئيس الشرياة الانجليزي في الفاهرة أن يكبحهم في بعض جمحاتهم بغير إطلاق النار.

وعلى الرغم من تكتم الأخبار وشدة الرقابة على الصحف والرسائل تخللت مصر إشاءات مستفيضة عن إعلان استقلالها والاعتراف بسيادتها في الاستانة . وترددت أنباء الحملة التركية على قناة السويس فذاع من أقصى الشمال إلى أقصى الصعيد أن الحديوالسابق قادم وفي صحبته رهط من المصريين على رأس جيش يطرد الانجليز ويعلن الاستقلال . أما الذي علمه الجمهور بعد ذلك فهو أن شرذمة من الجيش التركي همت أن تجتاز قناة السويس

واحدقت بمدفعية هندية كانت عليه وأوشكت أن تفلح في محاولتها لو لاضابط مصري صغير تصدى لها بفرقة من الجيش المصري فأحبط هجمتها ، ثم ضوعفت الحراسة والمعاقل على القناة .

ولقد كان شعور المصريين في أثناء الحرب العظمي هو الشعور الطبيعي الذي لا غرابة فيــه : استاءوا بطبيعة الحال من العسف الذي لحق بهم في استقلالهم وفي أنفسهم وفي أبنائهم وأموالهم وأرزاقهم ، ولم يشعروا بعزاء البذل فى سبيل الاستقلال والحرية لأنهم لم يجدوا بين أيديهم غرضًا محققًا لهذه الضحايا والخسائر غير المصلحة البريطانية والمطامع الاستعارية . ولقد كان في مقدور مصر أن تؤدي قسطها في الحرب العظمى دون أن تحنق أو تشعر بالضيم والمهانة . وذلك أن تعترف بريطانيا العظمي باستقلالها بعد الغاء السيادة العثمانية عليها وتعقد معها محالفة دفاعية هجومية ترضاها الآمة والحكومة التي تنوب عنها، فيرجع العمل في هذه الحالة إلى حكومة مستقلة تباشر التجنيد والتموين على الأساليب النظامية والقوانين المشروعة . فيقبلها المصريون كما تقبل الأمم الحرة اعباء الدفاع عن حوزتها في غير إكراءولا مذلة . ولكن الدولة البريطانية لم تفعل ذلك · بل فجعت المصريين في استقلالهم وحريتهم ونزعت منهم كل نصيب تطمع فيه ولم تدع لهمالاً كل نصيب منبوذ لا تريده ولاتقدر على أخذه . ثم رجت منهمأن يحمدوا لها ما صنعت كأن أحداً من الناس يحمد هذا الصنيع غير المصريين ، أو كان أحداً من الناس ينتظر عليه الحمد إلا أن يكون جاهلًا بالطبائع الإنسانية أو ذا أثرة تحجب عنه الحقائق وهي نهار .

أما من كان من المصريين يرجو خيراً من الغزوة التركية فانما كان يرجوه لأنه سمع باعتراف الدولة العثمانية باستقلال البلاد، ولان فتح مصر لم يكن على تقديره ليفضي إلى ضياع استقلالها ولولم تصح اشاعة الاعتراف به في الاستانة، لان الألمان لا يقدرون على غصب مصرمن الترك والترك لا يقدرون على قهرها بالقوة الدائمة . وقدكان قطع طريق الهند غرضًا كافيًا لفتح مصر وتسليمها إلى أهلها ، والاستفادة منهم في أثناء الحرب بما يقدمونه من الجند والميرة والمال .

وإلا فن المضحك أن يتوهم أحد أن المصريين ودوا يومئذ لو يخرج الانجليزليحل الألمان في محلهم ويسيطروا وحدهم أو مع الترك على حكومة بلادهم. فتلك سخافة لا يعقلها عاقل ولا يقول بها قائل يزن كلامه . ولعل الفكاهة هنا تغني في بيان شعور المصريين من هذه الناحية ما لا يغنيه الدليل والبرهان الذي لاحاجة اليه ... لقد كان الشاعر الظريف حافظ ابراهيم يقول متظاهر آبالفزع : « الآلمان يحتلون مصر ؟ من ذا الذي يرضى بهذا الاحتلال ؟ إن بالفزع : « الآلمان يعتلون مصر ؟ من ذا الذي يرضى بهذا الاحتلال ؟ إن جاءوا الينا فمن أدرانا أنهم لا يملاون البلد بالمؤذنين والمأذونين والقضاة الشرعيين ؟ إن الانجليز لا ينظرون إلى غير وظائف الادارة . أما الألمان فان لم يطمعوا في مشيخة الآزهر وافتاء الديار المصرية فهم قانعون رحماء 1 » لم يطمعوا في مشيخة الآزهر وافتاء الديار المصرية فهم قانعون رحماء 1 » وقس على ذلك شعور سائر المصريين جادين أو متفكهين .

杂杂杂

ومن المصادفات ما يخلق الإشاعات المتواترة التي تشبه الحقيقة وتسري مسراها ولكنها لا تقوى على احتمال سؤال واحد لو يتكلف سامعها مؤنة السؤال . . . فكثيراً ماسمعنا أن سعد زغلول كان ممن يتوقعون دخول الألمان القاهرة وانه لهذا بدأ في تعلم اللغة الألمانية واختار لادارة بيته وصيفة ألمانية ... فأما إنه تعلم الألمانية واختار الوصيفة فذلك صحيح ، وأما غير الصحيح فهو أنه فعل ذلك توقعاً لدخول الألمان القاهرة بعسد انتصارهم في الحرب العظمى! فانه قد شرع في تعلم تلك اللغة « بكارلسباد » قبل الحرب بأربع سنوات ، ليسهل عليه التفاهم مع أهل البلاد في الأحاديث العامة حين يزور المصايف الألمانية في أجازته ، وكانت الأنسة المهذبة « فريدا » تشرف يزور المصايف الألمانية في أجازته ، وكانت الأنسة المهذبة « فريدا » تشرف

على إدارة منزله منذ سنة ١٩١١ أي قبل الحرب بثلاث سنوات، ولا تزال إلى اليوم في صحبة السيدة الجليلة صفيه زغلول.

لا . لم يمكن شعور المصريين أثناء الحرب العظمى الا الشعور الطبيعي الذي تشعر به كل أمة فى موضعهم: استاءوا من الحماية البريطانية وانتظروا زوالها ولا غرابة في هذا الاستياء ولا في هذا الانتظار ، ولكنهم لم يستاءوا منها ليرحبوا بسيادة أخرى يضر بها عليهم الترك أويضر بها عليهم الألمان وانما انتظروا مصير الحرب ليعرفوا مصيرهم ومصير حقوقهم ومن يطالبونه بتلك الحقوق . فاذا انتصرت انجلترا طالبوها بالاستقلال ، واذا لم تنتصر فليس بمعقول أن يقبلوا مر الدول الاخرى ما لم يقبلوه من الدولة البريطاني .

تأليف الوفد المصري

ليست الحقيقة وحدهاهي التي يخدمها أصدقاؤها وأعداؤها على السواء. فالعظمة أيضا كالحقيقة في هذه المزية . إذا صحت لانسان أصبح كالحقائق الخالدة التي لاتريدها المناقشة والجادلة إلا ثبوتاً وتوكيداً ، أو أصبح كالمعالم الطبيعية التي لاتقبل الانكار ولا تزال شاخصة للعيان . فلا يفلح المنكرون في طمسها واخفائها ولو جهدوا لهاكل جهد وأعدوا لهاكل عدة . وقصارى ما يفلحون فيه أن يماروا في نوع العظمة أو في أغراضها وبواعثها ، فيضعوها في صف غير صفها ويعزوا اليها نيات غير نياتها ، ويقولوا عن صاحبها أنه يبغي المنفعة لنفسه إذاكان يبغي المنفعة لقومه ، وإنه يصدر عن بواعث الاثرة إذاكان يصدر عن بواعث العدل والنبل والعزة . اما أن يجعلوه صغيراً وهو عظم أو يحجوا قدرته بحجاب المراوغة والمراء فذلك مستحيل .

أو لك أن تقول إن العظمة « الحقيقية » هي التي تنتفع بجهود الأصدقا. والاعداء . لانها حقيقة عظيمة ففيها من الحقيقة هذه القــدرة على الثبوت والوضوح .

وما من شيء هو أحرى أن يبين لنا أن الاستعار مرض ويبل من تضليله المستعمرين عن النظر الى بعض الحقائق واغرائهم بتحريفها وتشويهها ، حتى لا يستطيعوا وصف عظيم من عظاء الأمم المغلوبة بوصفه المستقيم، ولا يذكروا خلقاً من أخلاق تلك الأمم إلا ليسوغوا به الغصب والاستغلال . فاذا قرأت تعليلهم لاعمال عظماء الشرق وبواعث نهضاتهم خيل اليك أن كل شيء في الدنيا مفهوم معقول إلا كراهة الاستعباد ومعارضة الاستعمار ، وان كل سبب لحركاتهم ووثباتهم هو السبب الصحيح إلا انهم عظماء يعملون كما ينبغي ان يعمل العظماء . . . وماذا يصنع العظيم إذا خلق في أمة مغلوبة إلا أن يعمل العظماء . . . وماذا يصنع العظيم إذا خلق في أمة مغلوبة إلا أن

محارب غالبيها ويستنفر أبناءها لطلب الحرية ؟! ذلك هو الشيء الوحيد عبر المفهوم وغير المفهوم المعقول ... ولكنه مع ذلك هو الذيء الوحيد غير المفهوم وغير المعقول عند المستعمرين . فلم نعرف قط أنهم شهدوا لزعيم من زعماء النهضات الوطنية بفضيلة مشكورة أو بغرض نبيل يجمع حوله القلوب ويحوطه بالاعجاب والثقة بين أبناء أمته فضلاً عن أبناء الامم الغريبة . وإنما يعمدون أول مايعمدون إلى تشويه الاغراض وعكس الحقائق والبحث عن الريب والشبهات ليثبتوا بها مالا سبيل إلى ثبوته : وهو أن الاستعار غير كريه لذاته ! وأن الزعماء الذين يستنفرون أقوامهم لمحاربته لا يفعلون ذلك إلا لعلة مريبة . ولهم في ذلك أعوان بين ضعفاء المغلوبين يجارونهم ذلك إلا لعلة مريبة . ولهم في ذلك أعوان بين ضعفاء المغلوبين يجارونهم ولا ضانين بكر امة يفقدونها ، أو نهضة يعوقونها . لانهم في الاغلب الاعم مسلوبو الكرامة سراً وعلانية بين الامم التي يعيشون فيها وينتسبون اليها ، مسلوبو الكرامة سراً وعلانية بين الامم التي يعيشون فيها وينتسبون اليها ، ولعلهم ينقمون منها أنها تعزف عنهم ولاتش بهم كما تئق بأولئك العظماء .

ومن حقسعد أن يتزود نصيبه من هذه القسمة المحتومة كما تزودها غيره ، فليس مما يشرف الزعيم الوطني أن يسلم من تهم المستعمرين ، لأنه لايكون قد بلغ من مناوأة الاستعمار مايستحق مشقة الاتهام !

فما هو إلا أن رفع الصوت بقضية قومه بعدالحرب العظمى حتى انطلقت الصحف الاستعارية بالتهم المعهودة والشكوك المرصودة ماذا يريد سعد زغلول ؟ أيريد الانصاف لقومه ؟ كلا . فلاحاجة بقومه إلى إنصاف ١١ ولكنه رجل مو تور حانق على الاحتلال والدولة المحتلة . ولو لا ذلك لما خطرله أن ينكر الحماية البريطانية ، لان الحماية البريطانية شيء لاينكره إلا الموتورون الحانقون ١١ . . .

وتجاوز الامركتابة الصحف إلى كتابة التاريخ. فقالت دائرة المعارف

البريطانية مامعناه إن سعداً أصبح عدواً ظاهر العداوة للاحتلال بعد نزاعه مع اللورد كتشنر في قضية القوامة المشهورة ، وقال السير فالنتين شيرول في كتاب تاريخ المؤرخين إن اللوردكتشنر نفر هذا الوطني المعتدل ليستميل اليه الخدو عباس ! . . .

وليس هذا صحيحاً كما يعلم العارفون بتلك القضية . لأن النزاع كان مع كتشنرنفسه قبل أن يكون مع الحديوعباس . وقد تعرض له سعد وهو يعلم أنه ينازع كتشنر ويستهدف لعواقب نزاعه في سبيل النزاهة والواجب . وليس بصحيحان كتشنر كان يستميل الحديو ويترضاه . بل الصحيح أنه كان يغاضبه ويتحداه ، ولهذا السبب وحده كان خليقاً أن يعارض الحديو ويؤيد سعداً في هذه القضية ، لولا أنه هو نفسه كان صاحب الهوى فيها ، وكان المؤيد للقم ارضاء لهواه .

على أن هذه الإقاويل لو كانت صحيحة كلها على الوجه الذي قصده السير فالنتين شديرول ودائرة المعارف البريطانية لما كانت معناها إلا أن سعداً رجل عظيم قدير ، وأنه ليس بالمستوزر الذي يقبل الوزارة إلا كما يشاء فان المستوزر الذي لا عظمة عنده ولكنه يعظم بالمنصب ويعقد الرجاء كله عليه ـ لاينازع اللورد كتشنر ولا يسمو إلى منزلة المنتقيمنه ومن دولته وهي في ساعة الظفر والخيلاء . . . لان المستوزرين من هذا الطراز لا يجهلون أن القول ماقاله كتشنر في الديار المصرية ، وانه صاحب الحول والطول في الحكومة وفي خارج الحكومة : يؤيده جيش الاحتلال ويؤيده من وراء ذلك سلطان الدولة البريطانية التي تثق به وتنصره في صوابه وخطئه ولاتود نلك سلطان الدولة البريطانية التي تثق به وتنصره في صوابه وخطئه ولاتود له إلا المهابة والمكانة . فهو يقضي بما يريد ويرفع من الوزراء والوزارات من يريد : من رفعه فهو سعيد بهذه الحظوة ومن وضعه فهو عاثر الجد خائب الرجاء ، لا حيلة له إلا أن ينزوي في عقر داره و يترقب الساعة التي يستغفر فيها لذنبه ويلتمس الرضي والرحمة من السيد المستبد الغاضب عليه . ولن

يخطرله ببال أن يزج بنفسه في خصومة مع أمثال كتشنر أو من هو دونهم في السطوة والهيبة من أقطاب الاحتلال. فاذا ساقته الحوادث سوقاً إلى تلك الخصومة فلن يخطر له ببال أن يقابل الاساءة بالاساءة ويرفع السلاح في وجه السلاح. وان خطر له ذلك في حق كتشنر فلن يخطر له ببال أن يصادم الدولة البريطانية حتى يكرهها على الاعتراف بوجوده والتكفير عن الاساءة اليه.

فأما أن يكون الرجل منسدوحة واسعة عن خصومة كتشنر فيصر على منازعته واغضابه ، ثم يبرز له بروز الند الند غير حافل باسترضائه واتقا، عدائه ، ثم يبرز الدولته وهي في أوج العزة والنصر ليقول لها : « ها أنذا في ميدان الصراع أيتها الدولة المستخفة بما أستطيع » . . . ثم يصمد في هذا الميدان غير مأخوذ بالوعد والوعيد ولا متراجع حيث بتاح له الرجوع مع السلامة والقبوع — فاذا تسمي ذلك ان لم تستمه العظمة التي لا تقل عن عظمة الزعيم المجاهد في طلب الحرية ؟ . . و بماذا تصف ذلك الا بالقدرة التي ترى المنافي الحياة شأناً غير شأن المنصب والوزارة ، وقيمة غير التي يمنحها كتشنر أو تمنحها الدولة البريطانية ، و بأساً هو بأسها المستمد منها وليس بالبأس المستعار من سيد مرهوب ، أو من جاه الحكومة ؟

فالكتّاب الانجليز الذين يفسرون وثبة سعد على ذلك النحو من التفسير يثبتون له غاية مافي وسعهم من شهادة العظمة والزهد في الوظيفة المهينة ، ويثبتون له ، من ثم ، غاية مافي وسع المادح والمعجب من الاعتراف بعلو الهمة ونبل المقصد وشرف الغاية . إذ العيب كل العيب في الوظيفة التي يذل المرامة ويستخذي في طلبها والحرص عليهما ، ولا عيب في الوظيفة التي تحفظ الكرامة ويقوم فيها الانسان بالواجب كما يجب . بل هي فرض محتوم يلام على اجتنابه ، ويشرف هو كما تشرف أمته بأدائه .

انما الحقيقة بعدكل هذه الاقاويل هي أن العمل الذي تصدى له سعدز غلول بعد إعلان الهدنة كان لابدأن يعمل، وانه لم يكن في مصر من يعمله غير سعدز غلو ل ولم يكن هناك وقت لعمله غير الوقت الذي اختارته الحوادث وهيأته المقدمات بحيث يحق لنا أن نقول ان هذه التتمة في حياة سعد كانت هي التتمة الفنية التي يتخيلها المتخيل كما كانت هي التتمة التاريخية التي ورتها الحوادث وشهدتها الانظار . فلو أن تاريخ سعد قصة مخترعة وليس بواقعة مشهودة لما استطاع مؤلفها أن يختم فصولها غير ذلك الختام ، إذليس في وسع العقل أن يتخيل رجلاً مثله يمر به موقف الهدنة بعد الحرب العظمى وهو ساكت لا يفكر في عمل . وليس في وسع العقل أن يتخيل التصرف الذي هداه اليه طبعه ومنطق تفكيره ، واذا كانت زعامته الوطنية التصرف الذي هداه اليه طبعه ومنطق تفكيره ، واذا كانت زعامته الوطنية تتمة منسوقة مع ماضيه من قبل الثورة العرابية فأعماله بعد الزعامة تتمة منسوقة مع ذلك الماضي المنطق المتفق الاوائل والاواخر . تعرفه من قبل كا تعرف من أساس البناء المرسوم كيف تكمل فيه الذروة و تعلوفيه الجدران .

لبث سعد في أيام الحرب العظمى يترقب ساعة العمل غير غافل و لامتعجل، وكان من المفهوم عند الانجليز قبل غيرهم أنه لم يعترف بالحماية ولم يسكت الا في انتظار الفرصة التي يفيد فيها السكلام. ولو فهم الانجليز شيئاً غير ذلك لما سوفوا بعقد الجمعية التشريعية موعداً بعد موعد حتى اتفقوا على تأجيلها إلى موعد غير معلوم ، بل لاسرعوا بعقدها ليسمعوا منها الاعتراف الذي يعدون الظفر به من نواب مصر المنتخبين غاية ما يطمعون فيه من اقرار وتسجيل.

ولم يخف عليهم أن سعداً كان يستطيع أن يتكلم كما تكلم رئيس الجمعية التشريعية في المقابلات الرسمية ، فاذا آثر السكوت فانما يؤثره لآن له رأياً لا يقال ، ولا فائدة من أن يقال في تلك الاحوال.

وظلت مقــادير الحرب تتراوح بين المتحاربين زهــا، ثلاث.سنوات ، تشيل كفة النصر يوماً وتهبط يوما في كل ميــدان ، ولا يلوح من طوالع الحوادث في خلال ذلك ما يؤذن بانتها. القتال وابتداء الهدنة والفصل في مصير الشعوب. حتى شهرت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ثم شهرتها على النمسا ثم تتابع وفود الجند منها فوجاً بعد فوج إلى الميادين الأوربية عند أواخر سنة ١٩١٧. ثم أذاع الرئيس ويلسون شروطه الأربعة عشر في أوائل السنة التالية ومنها انصاف الضعفاء وإيلائهم حق تقرير المصير. ثم انهزمت تركيا في الميادين المتاخمة لمصر وعولت على التسليم وتم التسليم في أواخر اكتوبرسنة ١٩١٨. فأيقن العارفون في تلك الأيام باقتراب النهاية ، وانكشف العمل الذي تفرضه الحوادث على زعماء مصر أو أخذ يتكشف ويتجلى من الواسط العام بعد أن كانو الايعرفون إلا أن هناك واجباً وطنياً ينبغي أن ينهضوا به وإن هناك فرصة آتية لابد أن يغتنموها.

وكان من جلاء هذا الواجب أن خطر لآناس متفرقين في وقت واحد أو أوقات متقاربة . فلم يبق لمصر محيص من المطالبة بحقها ولم يبق للحلفاء محيص من تحقيق مابشروا به من وعود الحرية والعدل والديمقراطية ، فالآن ينبغي أن تنجز بريطانيا العظمى وعودها و تلغي حمايتها وتسأل الامة المصرية عن مصيرها ولا تساوم عليها مساومة السلعة التي تباع وتشرى . فتلك معاملة للشعوب الضعيفة طالما كانت بريطانيا العظمى تنعاها على الجرمان وتقول انها حاربتهم من أجلها وحفزت العالم كله للقضاء عليها و تبديلها . فهل على المصريين إذن إلا أن يطالبوها بالانجاز وينتظروا منها الوفاء ؟ وإذا عمدت الى اللي وجعة المصريين عليها ؟ وإذا حالت بين المصريين وبين اشهاد العالم على قضيتهم الواضحة فهل هناك دليل على سوء النية أصدق من هذا الدليل ؟ وهل يتاح ألها بعد ذلك أن تصور نفسها للناس في صورة القاضي العادل الامين ، وتمثل بعد ذلك أن تصور نفسها للناس في صورة القاضي العادل الامين ، وتمثل خصومها في صورة الجانى المستحق للعقاب ا

هذا هو الواجب القومي الذي فرضته نهاية الحرب على الآمة المصرية ، وهو واجب لابد له من هيئة تتولاه بالنيابة عن الآمة . فمن عسى أن تكون تلك الهيئة ؟ لقدكانت الجمعية التشريعية قائمة يومئذ لم تلغ ولم تسقط صفة النيابة عن أعضائها ، فاتجهت النية إلى اختيار الهيئة التي تتولى الكلام باسم الامة من بين أعضاء الجمعية التشريعية ، أو اختيار هيئة يزكيها هؤلاء الاعضاء ويخولونها . صفة الوكالة العامة ، وفي هذا فكر سعد وأصحابه إلى ماقبل الهدنة بأيام قليلة .

وغني عن القول أن فكرة طبيعية كهذه الفكرة في قضية عامة كالقضية القومية لا يمكن أن تخطر لمصري واحد أو مصريين قلائل، فني سبتمبر دعا سعد أصحابه محمد محمود باشا وأحمد لطني السيد « بك » وعبدالعزيز فهمي « بك » إلى مسجد وصيف للتحدث في ينبغي عمله عندما تسنح الفرصة للبحث في المسألة المصرية بعد اعلان الهدنة . فأجاب الدعوة محمد محمود باشا واحمد لطني السيد بك ، واعتذر عبد العزيز بك لمرضه .

ثم كاشفوا بنيتهم بعض أصحابهم من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرهم . ثم ذهب سعد الى الاسكندرية في الثاني عشر من اكتوبر مدعواً إلى الوليمية التي أقامها رشدي باشا للاحتفال بعيد الجلوس . فقابل هناك الامير عمر طوسن وسمع منه أنه يفكر في قيام طائفة من المصريين للمطالبة بحقوق مصر في مؤتمر الصلح فقال سعد كماكتب في مذكراته انها « فكرة جميلة قامت في بعض الرءوس من قبل » . وأفضى إلى الامير بموافقته وارتياحه ، وتدبر معه فيا يحتاج اليه تنفيذ هذه الفكرة من المال الكثير .

وعاد سعد إلى القاهرة فلاقى عدلي يكن باشا و تـكلم معه في تلك المسألة ورأيا توسيط قنصل أمريكا في تســهيل السفر للمندوبين المصريين ، وفاتحه رشدي باشا في ذلك ، فلم يجد عنده استعداداً لتأييد المسعى .

وفي الثاني والعشرين من شهر اكتوبر ذهب سعد إلى الاسكندرية مرة أخرى مع كثير من الكبراء والوجهاء لحضور حفلة الشاي العمومية التي دعاهم إليها السير ريجنالد ونجت معتمد الدولة البريطانية ، فلاقى هناك وعدلي ومدحت ورشدي ومحمد سعيد والأمير عمر وغيرهم قال سعد في مذكراته : « وشممت مر . . عدلي رائحة أن المشروع الذي عرضه علينا رشدي لم يكن من بنات أفكار الاثنين . وأنه لابد أن يكون مشتملاً على سر تكشفه الآيام .»

ويغلب على ظننا أن السر الذي أشار اليه سعمه هو رأي السلطان ويغلب على ظننا أن السر الذي أشار اليه سعمه هو رأي السلطان ورشدي هو أحمد فؤاد م في هذه المسألة . فإن السلطان حسيناً كان قد أمر رشدية على وجه كفيل بالاستقرار والرضى من الأمة . ثم مرض السلطان حسين وأدركته الوفاة قبل تبليغ هذه المذكرة . فالذي يغلب على الظن أن السلطان فؤادا قد أرجأها إلى الوقت المناسب ، واختار تحريكها قبل الهدنة ، فأوعز إلى عدلي ورشدي باتباع الحطة التي تلائم الحوادث الأخيرة ، وفهم سعد مافهم من الايحاء على سبيل الترجيح

وفي يوم عقد الهدنة حضر الأمير عمر إلى مصر وزار سسعداً في بيته وأبدى رغبته في عقد اجتماع ه للمذاكرة في حالة مصر ومايجب أن يقدم لها من الحدمة الآن ، فواقفة سعد واتفق مع سموه على صيغة الدعوة وأسماء المدعوين ومكان الاجتماع بقصر الأمير في شبرا . وسافر الأمير على أن يعود قبل الاجتماع بيومين . وسعدفي كل ذلك يميل إلى تقديمه في هسذا العمل ، لما له من المنزلة الرفيعة وما يحتاج اليه العمل من المال الكثير .

إلا أن المعارضة في رئاسة الأمير للوفد المطلوب كانت تقوى وتشتد في جهات كثيرة ، ومنها القصر الملكي والوزارة ، ومنها أصحاب سعد جميعاً بغير استثناء .

فقدكان السلطان فؤاد غير مستريح إلى ظهور الأمير على رأس هذه الحركة ودخول أعضاء البيت المالك في ما زق سياسسية تقضي مصلحتهم ومصلحة الملك أن نظلوا بمعزل عنها . وكان رشدي باشا يتوجس من نفوذ محمد سعيد باشا صديق الامير الحميم ويشفق من عواقب تدبيره ، ولا يحب أن يمهله حتى يقبض بيديه على زمام الموقف و يتحول بهإلى حيث تهديه الحيلة والاساليب الملتوية التي اشتهربها . وكان أصحاب سعد يريدونها كما قالوا (حركة شعب لا إمارة وحركة استقلال لاخلافة) ويعتقدون أن الامير وصديقه محمد سعيد يبغيان المحافظة على السيادة العثمانية إلى أن ينزل عنها الترك للمصريين في معاهدات الصلح ، وهو أمل مشكوك فيه .

لهــــذا أمرت الوزارة بالغاء الاجتماع الذي يدعو إليه. ولما حضر الأمير إلى مصر مستفسرًا أبلغه أمين يحيى باشا أن عظمة السلطان يرى له أن يبتعد عن هذه الحركة ، وأن يبرح القاهرة إلى الاسكندرية في يومه .

وقبل أن يتلقى هذا الأمر كان قد اجتمع بمحمد سعيد بأشآ واسماعيل صدقي باشا وبعض أعضاء الحزب الوطني وبحثوا في تأليف الوفد مستقلين للسفر إلى أوربا . فاستحسنوا بعد طول المشاورة أن يشركوا سعداً ومن معه في هـنده الهيئة ، وخاطب الأمير سعداً ليلقاه بفندق شبرد ، فاستأذن سعد أصحابه ليذهب إليه . وخشي هؤلاء الاصحاب إذا خوطب سعد في رئاسة الامير للهيئة أن يقبلها كما علموا من رأيه السابق . فناشدوه بلسان محمد محمود باشاأن لا يقبل رئاسة بغير رأيهم ، لانهم يختارونه هوللرئاسة ولا يقبلون رئاسة سواه .

ثم علم الأمير بأمر السلطان فؤاد فاطاعه وسافر إلى الاسكندرية ، وسرى نبأ الحلاف بين الوفدين إلى جمهرة الشعب ، فأسفوا و تذمروا وبدت بوادر غضبهم في مطاردة الدعاة والرسل الذين كانوا يروجون لتوكيل الوفد الجديد . فأثر الامير لهذه الاسباب جميعًا أن يعمدل عن سعيه ، وآثر سعد وأصحابه أن يرأبوا الصدع بانتخاب بعض أنصار الامير ، فاندمجت الهيئتان في هيئة واحدة وانحسم الخلاف .

في أثناء هذا الخلاف بين الوفد واشياع الأمير عمر طوسون بدرت السكلمة التي اطلقت على بيت سعد اسمه الذي ينبغي له بعد تأليف الوفد الواجتماع نواب الامة فيسه : بدرت من لسان خصم لا من لسان صديق ، وفي معرض المحاجة لا في معرض التودد والتعظيم . فقد كانت المناقشات بين سعد وبعض الشبان تتوالى كل يوم عن أغراض الوفد وبرنامجه واختيار أعضائه ، فاحتد واحد منهم وتمادى في مخاشنة الحاضرين . فقال سعد . (عجباً المتكدر في و تكدر صحبي في بيتي؟) فقال الفتى : (ليس هو بيتك يا باشا . ولكنه بيت الامة ا) فشاعت الكلمة وأطلق الاسم على البيت من ذلك الحين .

وقد وضع الوفد بعد تمام تكوينه قانوناً للسير عليه جا. في المادة الأولى منه: (تألف وفد باسم الوفد المصري من حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي بك وعبد اللطيف المكباتي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطنى السيد بك واسماعيل صدقي باشا وسينوت حنا بك وحمد د الباسل باشا، وجورج خياط بك ومحمود أبو النصر بك ومصطنى النحاس بك والدكتور حافظ عفينى بك).

وجاء فى مادته الشانية أن (مهمة هذا الوفد هي السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثها وجدوا للسعي سبيلًا في استقلال مصر استقلالاً تاماً.) وفي المادة الثالثة أن (الوفد يستمدقوته من رغبة أهالي مصر التي يعبرون عنها رأساً أو بواسطة مندويهم بالهيئات النيابية).

وفي المادة الحامسة (لا يسوغ للوفد أن يتصرف في المهمة التى انتدب لها . فليس للوفد ولا لأحد من أعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود الوكالة التي يستمد منها قوته : وهي استقلال مصر استقلالاً تاماً وما يتبع ذلك من التفاصيل) . وفي المادة الاخيرة : « يعين الوفد لجنة تسمى باللجنة المركزية لجمع التبرعات ومراسلة الوفد بما يهم من شئونه .»

وفيها بين ذلك مواد أخرى في تفصيل نظامه وتقسيم أعماله بين ذوي الاختصاص فيه من رئيس أو كاتب سر أو أمين صندوق.

ومما تقدم على وجه الاجمال يتبين لنا كيف نشأت فكرة الوفد الأولى وكيف انتقلت في أطوارها المختلفة الى تمام تكوينه. ولا نحب أن نطيل البحث فيمن سبق ومن لحق من المفكرين. فان الفكرة كانت تخطر لكل عامل في السياسة المصرية ، وكان من المستحيل أن لا تخطر في أوانها . وانما الأمر الجدير بالملاحظة عندنا أن أحداً لم يفكر في تأليف وفد الا فكر معه في سعد زغلول ، سواء السلطان أو الأمير طوسن أو الوزراء أو أعضاء الجمعية التشريعية أو المتطرفون أو المعتدلون ، ومن السهل أن يفكر الانسان في تأليف وفد . ولكن ليس من السهل أن يكون معقد الأمل ومناط العمل باجماع المفكرين .

بدء العمل

كان الوفد المصرى يترقب من يوم إلى يوم إعلان الهدنة ليبدأ عمله بابلاغ الدولة البريطانية مطالب الامة المصرية. فلما أعلنت الهدنة يوم الاثنين (الحادي عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨) بادر سعد وأصحابه إلى طلب المقابلة من السير ريحنالد ونجت معتمد الدولة البريطانية أو ناثب الملك كانوا يسمونه في عهد الحماية . فضرب لهم موعداً للمقابلة قبيل الظهر من يوم الاربحاء التالي . فذهب إليه سعد وصاحباه على شعر اوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ، ووقع الاختيار على هؤلاء الثلاثة لانهم كانوا أول من اشترك في الوفد من أعضاء الجمعية التشريعية ، وفهم الكفاية لتمثيل الوفد برئيسه وعضوين بمثلان الاعمال الفكرية .

تلقاهم السير ربحنالد بعد التحية والتهنئة بعقد الهدنة بقوله :

« ان الصلح اقترب موعده والعالم يفيق بعد غمرات الحرب التي شغلته زمناً طويلاً ، وأن مصر سينالها خير كثير وان الله مع الصابرين . . . » إلى آخر ما قال.

فردعليه سعد قائلاً: « إن الحرب كانت كحريق انطفاً ولم يبق الا تنظيف آثاره . وإني أظن أنه لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات . والناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنين » فوعد السير ريحنالد بالكتابة إلى حكومته في هذه المسألة بعد الاتفاق مع القائد العام ، وقال : « ويجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت انكلترا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت لمصر وما يلزمها ولكن لا يكون الامر إلاخيراً. » فقال سعد : « ان الهدنة قد عقدت والمصريون لهم

حق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ، ولا مانع يمتع الآن من أن يعرفوا ماهو الخير الذي تريده انكلترا لهم.»

قالالسير ريحنالد: « يجب أن لاتعجلوا وأرب تكونوا متبصرين في سلوككم .فإن المصريين في الحقيقة لاينظرون للعواقب البعيدة.»

فاستفسره سعد معنى كلامه قائلاً : ﴿ إِنْ هَذَهُ الْعَبَارَةُ مَبْهِمَةُ الْمُعَنَّى وَلَا أَفْهِمُ الْمُرَادُ مُنْهَا. ﴾

ففهم السير ريحنالد أن سعداً قد استاء لانه اعتقد أن الكلام موجه اليه وأراد أن يقول إنه لايعني المصريين مثله وإنميا يعني الرأي العام . . . فاستدرك قائلاً : « أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأي عام بعيد النظر » فأجابه سعد : « لا أستطيع الموافقة على ذلك . لانني إن وافقت أنكرت صفتي . فاني منتخب في الجمعيدة التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر في انتخابي . وكذلك كان الامر مع زميلي على شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك »

وبعد مناقشة وجيزة قال شعراوي باشا: « اننا نريد أن نيكون أصدقا، للانجليز صداقة الحرللحر لا العبد للسيد » . . . فصاح السير ريحنالد دهشآ: « إذن أنتم تطلبون الاستقلال ؟ ه ، فأجابه سعد . « نعم ، ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا استقلال كباقي الأمم المستقلة ? » ثم قال بعد مناقشة طويلة في كفاءة مصر للاستقلال : « متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام فاننا نعطيها ضهانة معقولة عن عدم تمكين أي دولة من استقلالنا والمساس مصلحة انكلترا . فنعطيها ضهانة في طريقها إلى الهند ، وهي قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق اختلالها عند الاقتضاء . بل نحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ماتستلزمه المحالفة من الجنود » ثم قال شعراوي باشا : « يبق أمر آخر وهو حقوق أرباب الديون الأجانب فيمكن بقاء المستشار باشا : « يبق أمر آخر وهو حقوق أرباب الديون الأجانب فيمكن بقاء المستشار

الانجليزي بحيث تكون سلطته هي سلطة صندوق الدين العمومي ، ثم قال سعد : « نحن نعترف الآن أن انجلترا أقوى دولة في العالم وأوسعها حرية، وأنا نعترف لها بالاعمال الجليلة التي باشرتها في مصر . فنطلب باسم هدنه المبادي. أن تجعلنا أصدقا ها وحلفا ه ها صداقة الحرللحر ، وإننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخصاً لهذه الدولة العظيمة . وعند الاقتضاء نسافر التكلم في شأنها مع ولاة الامور في انكلترا . ولا نلتجي منا لسدواك ولا في الحارج لغير رجال الدولة الانكليزية . ونطلب منك بصفتك عارفاً لمصر مطلعاً على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب .

فتريث السير ريحنالد ونجت ثم قال: ه قد سمعت أقوالكم. وإني أعتبر محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة حبيه ، فاني لا أعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية في هذا الصدد.»

وانتهى الحديث على هذا في تلك المقابلة ، وقدعلم منه سعد وصاحباه رأي الحكومة البريطانية في المسألة المصرية على الرغم من قول السير ريحنالد أنه لا يعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية في هذا الصدد. فهذه الحكومة لا تفكر في المسألة المصرية قبل عقد الصلح و فراغها من جميع المشكلات المتخلفة من الحرب العظمى ، وهي إذا فكرت فيها بعد ذلك فليس في نيتها أن تلغي الحماية و تعترف بالاستقلال . لأن السير ريجنالد دهش حين فوجي بكلمة الاستقلال كانه يسمع التجديف ا فعلى مصر إذن أن تنتظر إلى غير أجل مسمى ، وليس لها بعد طول الانتظار أن تطمح إلى استقلال . فذلك عند الحكومة البريطانية خارج من كل حساب .

واننا لندرك مقدار الدهش الذي دهشه المعتمد البريطاني من ذكر الاستقلال إذا علمنا حقيقة المركز الذي هيأه المحتلون لمصر وتفاهمت عليه الجالية البريطانية قبل انتها. الحرب بأكثر من عام . فقد صدر الأمر في شهر مارس سنة ١٩١٧ بتأليف لجنة تنظر في إصلاح القضا. بعد الغاء الامتيازات

الاجنبية ، فتقدم اليها عشرة من المحامين الانجليز وطلبوا اعتبار اللغة الانجليزية لغة رسمية للمحاكم ، توضع بها القوانين وتترجم منها الى اللغة العربية أو الفرنسية إذا دعى الامر الى ذلك ، واستلزموا أن يسن القانون الاهلي على سنة الاصول الانجليزية والقانون الجنائي بصفة خاصة ، وأن يجلس قاضي انجليزى الى جانب القاضي المصري للنظر في المسائل الاهلية .

أما قانون مصر النظاي الذي أعده المحتلون لتطبيقه بعد الحرب العظمى فقد وضعه السير ويليام برونيات وقضى فيه بانشاء مجلسين أحدهما يسمى مجلس الأعيان ويتألف من الوزراء والمستشارين الانجليز وبعض الموظفين الانجليز من يساوونهم في الرتبة، ومن خمسة عشر أجنيناً ينتخبهم الاجانب، وثلاثين مصريًا يحرى انتخابهم على قواعد محدودة كثيرة القيود والشروط ولاتجتمع منهم كثرة في المجلس على كل حال. ويسمى المجلس الآخر مجلس النواب منهم كثرة في المجلس على كل حال. ويسمى المجلس الآخر مجلس النواب تتخطاه الحكومة بارسال القوانين مباشرة الى مجلس الاعيان. ثم لا تعتمد القوانين التي تصدر من هذا المجلس أو من ذاك إلا بعد اقرارها في وزارة الحارجية الديطانية.

ويكنى أن يلم القارى. بخلاصة هذا القانون ليجزم بأنه قانون لا يوضع إلا للأصقاع الهمجية التي لا يحفل لأهلها بوجود ولا برأي في تشريع أو سياسة . والغرض الأكبر منه انما هو استدراج الاجانب الى الرضى بالغاء امتيازاتهم ريثها تنحصر السلطة كلها في يد العميد البريطاني ، ولا تكون مصر في خلال ذلك إلا مستعمرة بريطانية من مستعمرات المجاهل السحيقة التي لاحضارة لها ولا رمجاء في نوع من الاستقلال .

وإذا كان ذكر الاستقلال قد أدهش العميد البريطاني فهذا القانون النظامي قد أدهش جميع من علموا به من المصريين فكان من الشرور التي أعقبت الخيرالعظيم، لأنه جمع المصريين كلهم حولراية الاستقلال، وعصف. بكل فارق بين التطرف في الوطنية والاعتدال.

ومن الطبيعي بعد أن قال العميد البريطاني لسعد وزميليه أنه لا يعرف شيئاً عن أفكار حكومته أن يتذرع النواب المصريون بذلك الى طلب السفر إلى العاصمة الانجليزية ، لاستطلاع أفكار تلك الحكومة والافصاح لها وللرأي العام في بلادها عن أفكار الائمة المصرية . فكتب سعد وأصحابه الى رئاسة الجيش الانجليزي يطلبون جواز السفر في وقت قريب ، وجددوا الطلب بعد أسبوع فجام الرد في الثامن والعشرين مر نوفمبر بارجاء الاذن لهم الى أن تزول « الصعوبات التي تمنع سفر هم في الوقت الحاضر » 1 فكتب سعد الى السير ريحنالد ونجت في اليوم نفسه يبدي له أنه : « من الضروري أن يكون الوفد بلندن قبل الاسبوع الاخير من شهر ديسمبر ، ويختم خطابه بقوله ته « إنا معتمدون كثيراً على تقاليد بريطانيا العظمى التي مازالت تقدم للعالم كثيراً من الامشلة على تمسكها بمباديء الحرية الشخصية اعتمادا بجعل لنا ثقة في أن طلب التصريح لنا بالسفر سيفصل فيه عاجلاً . »

لم يجبه السير ريجنالد بنفسه و لا باسم موظف كبير من مرؤسيه في دار الحماية ، ولكنه أجابه باسم نائب كانبـه الحاص في خطاب يتحدث به عن رأى حكومته . فقال :

«كلفت من قبل فخامة المعتمد السامي البريطاني باحاطتكم علماً بوصول خطابكم المؤرخ في ٢٩ نوفمبر الماضي وبأخباركم بأن فخامته قد رأى بعد استشارة حكومة جلالة الملك أنه لايستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية في هذا الموضوع . وأضيف إلى ذلك أنكم إذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم في مصر بمنا لايخرج عن الخطة التي رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل ، فالأفضل أن مثل هذذه الاقتراحات تقدم كتابة الى فخامته ، وبهذه المناسبة ألفت نظركم الى خطاب السدير ميلن

شيتهام الذي أرسله بناء على أمر حكومة جلالة الملك إلى المرحوم السلطان حسين عند توليته عرش مصر.»

فكان جواب سعد على هذا الخطاب الذي تشف عبارته واختيار كاتبه عن الاستخفاف وقلة الاكتراث « إنه ليس في وسعي ولا في وسع أي عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لاتكون مطابقة لارادة الأمة المصرية المعبر عنها في التوكيلات التي أعطيت لنا ، وإني أعرض على أنظاركم أن هذه التوكيلات قد أقبل على التوقيع عليها بشغف كثير من كبراء الأمة ومن بينهم أعضاء الجمعية التشريعية والهيئات الأخرى النيابية ، وكان من المنتظر أن يصل هذا الاقبال إلى الاجماع لولا تدخل الادارة في منع تداولها ومصادرتها.»

أما تقديم الاقتراحات إلى المندوب البريطاني فلم يسع الوفد قبوله لأنه لا يجدي شيئاً مع الشرط المتقدم ولا يجدي شيئاً إذا ألغي ذلك الشرط وأبيح الكلام في مسألة الاستقلال . وقد أبان سعد حجة الوفد في طلب السفر إلى انجلترا فقال : « ان سفرنا إلى انجلترا لا نريد منه إلا أن نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للأمة الانجليزية ، وللاشخاص الذين يتولون توجيه الرأي العام الانجليزي الذين لا شك في تأثيرهم على القرارات الحكومية ، وسنعنى على الحصوص بان نجعل وجهتنا ذلك الرأي العام . وضي واثقون بان نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على العدالة والحرية وحماية حقوق الضعفاء التي امتاز بها الرأي العام الانجليزي . وتلاحظون وحماية حقوق الضعفاء التي امتاز بها الرأي العام الانجليزي . وتلاحظون بواسطة مخابرات بسيطة تعمل في مصر وحسب ، فان القضية التي ندافع عنها بواسطة مخابرات بسيطة تعمل في مصر وحسب ، فان القضية التي ندافع عنها انه سيادي و حاجة الى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يعب أن تعرض بادي و حاجة الى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يبديها الا الممثلون الطبيعيون الموكلون من الأمة المصرية ذاتها.»

وفى هذا الكلام بيان صريح للغرض من السفر إلى البلاد الانجليزية ، فليس هو استجداء الحكومة هناك ولكنه الاقناع والتأثير بالاساليب التي تذعن لها الحكومة ورجالها الرسميون .

* * *

مر بالقاري، فيخطاب سعداشارة إلى توكيلات الامةومصادرة الادارة المتوقيع عليها في الاقاليم . فهذه التوكيلات هي الوسيلة التي لجأ اليها الوفد بعد تأليفه لتعزيز نيابته عن الائمة في طلب الاستقلال ، بالاضافة إلى الصفة المكتسبة من أعضاء الجمعية التشريعية الداخلين فيه .

فقد كان في الوفد كماكان بين مؤيديه رجال نابهون من غير أعضاء الجمعية التشريعية ، وكان من الميسور للانجليز ان يقدحوا في وكالة الجمعية عن قضية الاستقلال وما اليها من المطالب القومية ، لانها انتخبت قبل فرض الحماية ولم يكن ملحوظاً في انتخابها أن تتصدى لامثال هذه المطالب . فمن سداد الرأي أن يضيف الوفد دلي الآخر على نيابته الصحيحة غير تأييد أعضائها . وإذا تسنى له أن يحصل على توكيلات المصريين مباشرة في قضية الاستقلال بنصها . فلا محل إذن للا كتفاء بالوكالة المستمدة من انتخاب قديم ، في قضية ليست بقضية الاستقلال .

اسرع الوفد بطبع هذه التوكيلات غير منتظر تمام تأليفه ، فامضاها إلا كل من عرضت عليه من ذوي الرأي والمكانة ، ولم يرفض امضاءها إلا أفراد معدودون لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة . وراحت الألوف منها تتفرق في الأقاليم وتعود منها كل يوم بعشرات الألوف من التوقيعات ، ثم فطن المستشار الداخلي مستر هينز لها بعد انتشارها فأصدر أمره إلى الموظفين بمنعها ومصادرتها . فنعوها ما استطاعوا واقتحموا بيوت الوجهاء ومكاتب المحامين يبحثون عنها في كل مكان ، وينتزعونها من حامليها عنوة حيثها وجدوها ، ويتعللون لذلك بأنها منشورات مخلة بالأمن والنظام عنوة حيثها وجدوها ، ويتعللون لذلك بأنها منشورات مخلة بالأمن والنظام

أراد الوفدأن يعوض مافاته من تلك التوكيلات باثبات منعها ومصادرتها . لان إثبات ذلك يقوم مقام التوكيل ويزيد عليه أن يثبت تصرف الانجليز في حق « تقرير المصير » وهم لايفرغون من النداء به في كل مجال . فكتب سعد إلى رئيس الوزارة المصرية يحتج على هذا الحيف ويسجل هذه الوقائع ، وقال في احتجاجه : « لا يخنى على دولتكم أنه على أثر فوز مبادي الحرية والعدل التي جاهدت بريطانيا العظمى وشركاؤها لتحقيقها ألفت معجماعة من فقاة الأمة ونوابها وأصحاب الرأي فيها وفداً لينوب عنها في التعبير عن رأيها في مستقبلها تطبيقاً لتلك المبادى الأساسية .

لذلك شرعنا في جمع هذا الرأي بصيغة توكيل خاص فوق ما للكثير منا من النيابة العامة ، فأقبل الناس على امضاء هذا التوكيل اقبالاً عظيماً مع السكينة والهدوء ، وهذا أقل مظهر نعرفه من مظاهر الاعراب عن رأي الامة في مصيرها ، لكنه قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن امضاء هذه التوكيلات ، ونظراً إلى أن هذا التصرف يمنع ظهور الرأي العام في مصر على حقيقته ، فيتعطل بذلك أجل مقصد من مقاصد بريطانيا العظمى وشركائها وتحرم الامة المصرية من الانتفاع بهذا المقصد الجليل – التمس من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم يتمون عملهم المشروع ، وإذا كانت هناك ضرورة قصوى ألجأت الحكومة إلى هذا المنع فاني أكون سعيداً لو كتبتم إليَّ بذلك حتى نكون على بصيرة من أمر نا و نساعد الحكومة بما في وسعنا على الكف عن امضاء تلك التوكيلات . . . »

وقبل أن يتلق الوفد رداً من الوزارة ، عاد فكتب اليها في اليوم التالى — ٢٥ نوفمبر — يخبرها « ان رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع على التوكيلات بل تجاوزوه إلى مصادرة ماتم التوقيع عليه » وشفع ذلك بما يثبت هذه المصادرة .

وظاهر من صيغة الكتاب الأول أن الاحتجاج متفق عليــه بين الوفد

والوزارة لاعطاء وزير الداخلية فرصة يثبت فيها المنع ويبري، الحكومة الوطنية من تبعاته ، فجاء الرد من الوزير يقول فيه: « إجابة على كتابيكم المؤرخين ٢٣ و ٢٤ الجاري أتشرف باحاطتكم علماً أنه إن كانت صدرت أوامر من جناب مستشار الداخلية لمنع امضاء التوكيلات المشار اليها في كتابيكم المذكورين فانما كان ذلك لآن القطر لايزال تحت الاحكام العرفية ، ولان مشل هذه التوكيلات قد اعتبرت عايدعو إلى الاخلال بالنظام العام

وفي هذا الرد اثبات للتوكيلات ، واثبات للمنع ولصدور الآمر به من السلطة الانجليزية ، وإثبات للحجر على كل وسيلة من وسائل الاعراب عن الرأي في تلك الآونة ، لان امضاء عريضة مطبوعة هو أقل مظهر معروف من مظاهر الاعراب عن رأي الامة في مصيرها ، كما جاء في خطاب سعد إلى الوزارة .

فحول الوفد جهوده إلى الوسائل التي بقيت له بعد هذا الحجر المطبق على الأمة من كل ناحية ، وهي اشهار الاحتجاج في مصر كلما سنحت فرصة القول والخطابة في مجتمع من المجتمعات ، ومخاطبة الدول الاجنبية من طريق وكلائها أو من طريق الرسائل البرقية والبريدية الى رؤسائها وكبرائها ، وهي على ذلك ليست بالوسائل الميسورة إلاعلى قدر محدود في المناسبات المتباعدة ، لاشتداد الرقابة على الصحف وعلى المراسلات والمجتمعات ، والحجر على الصحافة أن تنشر خبراً عن الوفد وحركاته حتى الخبر بتأليفه أو الاشارة إلى السمه وغرضه .

فني أوائل ديسمبر أرسل الوفد احتجاجاً إلى رئيس الوزارة البريطانية و نداء إلى وكلاء الدول في القاهرة يبلغهم فيه ماكان من عسف السلطة العسكرية ويحتج « لدى حضرات نواب الدول الصديقة التي يهمها أمر مصر على الخطة التي صار اتخاذها معنا ، وعلى كل قرار بشأن مستقبل مصر بدون أخذرأي الأمة المصرية فيه » .

وفي الرابع عشر من ديسمبر وصل الرئيس ويلسون إلى باريس فأرسل اليه سعد احتجاجاً على منع مصر من إسماع صوتها والافضاء بمطالبها فيمؤتمر الصلح يقول فيه: —

« نعم ان السلطات البريطانية طلبت الينا أن نبدى اقتراحات حكومية عن ادارة مصر بشرط أن لاتخرج عن دائرة الحماية التي رتبتها ، وانها بذلك تطلب منا المحال . لأن مصر لم تقبل مطلقا هذه الحماية التي ليست الاعملاً من الأعمال الحربية ، والتي مع كونها مناقضة لآمالنا في الاستقلال فهي مناقضة أيضاً للحقوق التي كسبناها من تركيا من زمان بعيد . فان هذه الحرب أبعد ما تكون من أن تضيق دائرة تلك الحقوق . بل على ضد ذلك توسع فيها إلى حد الاستقلال تطبيقاً للبادي الجديدة التي تقضى باحترام الجنسيات. وأرسل اليه برقية ثانية عند وصوله إلى لندن في أو اخر ديسمبر ، ثم أرسل اليه برقية أخرى يذكر فيها البرقيتين السابقتين فلم يتلق جواباً واحدة منها 1

وفي العاشر من يناير أذاع نداء إلى الأوربيين يقفهم فيه على حقيقة الحركة السلية التي أخذ الانجليزيشوهونها ويصبغونها بصبغة العداوة الجنسية فقال في بيان مقاصد تلك الحركة: « نبغي أن نستقل بشؤن بلادنا في شكل حكومة دستورية حتى نصلح من حالنا الاجتماعية مايفسده عادة حكم الأجنبي عمداً ومن غير عمد ، وحتى نبلغ ما يؤهلنا اليه استعدادنا من درجات الكال ، نبغي أن نظل كا ببين ثقة الأجانب نسهل لهم وسائل ما يزاولونه من الأعمال التجارية والصناعية في بلادنا ونرعى مالهم فيها من الامتيازات خير رعاية . التجارية والصناعية في بلادنا ونرعى عارفين رسوخ قدمهم في المدنية الحديثة بغي أن نبقي كما كنا في الماضي عارفين رسوخ قدمهم في المدنية الحديثة مستعدين لأن نستقدم كبار الفنيين منهم بمن عسانا نحتاج اليهم للمساعدة في مستعدين لأن نستقدم كبار الفنيين منهم بمن عسانا نحتاج اليهم للمساعدة في

الأعمال العامة . و لكن لا على أن يكون مناط الاختيار للاعتبارات الجنسية فقط كما هو حاصل الآن . بل الكفاءة حيثها وجدت بصرف النظر عن كل اعتبار آخر.»

وختم النداء بقوله: « فباسم الوفد المصري أعلن إلى كل أجنبي في مصر من ذوي المصالح أن هـذا الوفد يقرن بسعيه للاستقلال احترام المصربين لحقوق الأجانب كل الاحترام . كما أني انتهز هذه الفرصة لاشهد كل رجل حر على المعاملات المنافية للحرية التي عومل بها الوفد المكلف باسماع مؤتمر الصلح صوت مصر وعرض مطالب أهلها ، ولأعلن أن كل حكم في مستقبل المصربين من غير أن تسمع أقوالهم مناقض لقواعد الحق والعدل التي جعلت أساساً لاحكام مؤتمر السلام »

* * *

وفي اليوم التالي أرسل إلى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام رسالة برقية يقول فيها: «مهما يكن من الاتفاق المزعوم حصوله على المسأله المصرية فان الحكم في مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا مناقض لما اتفق عليه جميع الحلفاء » ثم يقول « . . . باسم الانسانية التي تأبى أن تكره الامم على أن تنتقل من يد الى يد أخرى كما تنتقل ملكية السلع نناديك من وراء البحر ان لا تتخذ سكو تنا الاكراهي الذي هو النتيجة الطبيعية لحبسنا في حدود بلادنا دليلاً على رضانا بسيادة الغير علينا وأن لا تسمح بالحكم في مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا.

واتفق في هذه الأثناء مرور الوفد السوري بمصر ذاهباً إلى فرنسا لتمثيل بعض البلاد السورية في المؤتمر فكتب سعد إلى السير ريحنالد ونجت يجدد احتجاجه لهذه المناسبة ، وكتب الى المستر لويد جورج في هذا المعنى قائلاً : « لاتزال الحالكا كانت حتى ان الامة المصرية بأسرها من أكبر وزير إلى أصغر فلاح محبوسون داخل بلادهم لايسمح لاحد بالخروج من هذا الحصار

الشديد » ثم أعقب ذلك بقوله: « انتفعتم في هذه الحرب برجالها وأموالها وأي مصر — وصرحتم في مواطن شتى بأن ذلك كان من أكبر العوامل في احراز النصر في الشرق ، فبينها مصر المساعدة تنتظر أن تعامل بما يتفق مع حالها إذا هي تراكم غداة الهدنة قد قلبتم لها ظهر المجن ، وحبستم أهلها بين حسدودها على الذل والهوان . بل هبوا هذه الآمة لامتمدنة ولامساعدة فهلا عاملتموها بما اتفقتم عليه مع الدكتور ولسن ؟ ... مسموح — على المبادى القديمة — لرجل السياسة أن يكون استعمارياً . غير أنه لا يسلم أحد الى اليوم أن حب الاستعمار أجاز لدولة حصر أمة ليس بينها وبينها حرب، والخافظين مثل هذا التصرف فكيف بالاحرار ? »

ولم يزل الوفد يوالي احتجاجه عنــد رجال الدول كلما وصل وفد من وفودها الى المؤتمر ، ويكتب حيناً الى رئيس مجلس النواب في انجلترا وحيناً الى ذوي الشأن هنا وهناك ، ولا يعلم مصير هذه الرسائل .

ولم يخف على الوفدنصيب الأمم الضعيفة عند الساسة والوزراء الممثلين لحكوماتهم في مؤتمر الصلح. ولكنه اعتقد أن هذه النداءات كائناً ماكان مصيرها لها فضل محقق على الأقل وهو نني الشبهة التي يسجلها على مصر السكوت في تلك الأونة ، وعساها لاتذهب عبثاً بين الدول المتنافسات على حل المشكلات وتوزيع المطامع. فإن الانجليز لن يقدروا على التحكم في مشكلات الدول الأخرى باسم العدل والحرية وعندهم هذه المشكلة المصرية قائمة يصل إلى أساع الوزارة والساسة خسبر عنها مابين آونة وأخرى. فلا بد لهم عاجلاً أو آجلاً أن يصغوا لهما و يبالوا بها ، وقد يكون ذلك أسهل عليهم من مساومة الدول عليها وإعادة المساومة كلما تجدد خلاف بينهم أسهل عليهم وبين الامة المصرية .

ثم عمد الوفد إلى الاجتماعات كلما تهيا له سبيلها ، فني الثالث عشر من شهر يناير أقام حمد الباسل باشا « حفلة شاي » في بيته حضرها من استطاع حضورها من أعضاء الوفد والوجوه والفضلاء . فألق فيها سسعد خطابه الأول في أول اجتماع وطني أقيم بعد الحرب العظمى ، وبدأه بشكر صاحب البيت والحاضرين ثم استطرد الى انكار الاحتلال وانكار الحماية التي «هي أيضاً أمر باطل بطلاناً أصلياً أمام القانون الدولي ، ومخالف مخالفة صريحة المبادي الجديدة التي خرجت بها الانسانية من هدفه الحرب الهائلة . فنحن أمام القانون الانساني أحرار من كل حكم أجني ، فلا ينقصنا إلا أن يعترف مؤ تمر السلام بهذا الاستقلال . »

ثم قال عن هذه المبادى الجديدة: « من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا: حياة المزاحة على البقاء والمغالبة على المنافع نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه بمكن متى جد الدكتورولسن في تطبيقه بحزمه المعروف ، وأنه لجاد . بل ارتق للي أن أقول إن تطبيقه سهل متى صحت نيات أكثرية الدول التي أقرته بالاجماع . فلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما ألف الانسان من الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الأخلاقية ، ثم هو متفق مع الافق الذي وصلت اليه الانسانية في تطورها الجديد . ألا ترون أن مبادي ، الديمقراطية التي أوجدت هذا المذهب تنتشر على جميع صورها الممكنة في أرجاء البلاد المتمدنة بقوة هائلة وبسرعة لم يعهد لها نظير في تاريخ المبادي ، الانسانية .»

ثم قال: « إن ايماننا بقواعد الحق والعدل هو عدتنا . وكنى بها عدة ، وان اجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة ، ولا ينقصنا إلا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الأمة ، ولكن سيصله ولو من بعيد: يصله فينصت اليه على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذي يعقد اليوم أشبه مايكون بما سبقه من المؤتمرات ،

« هذا هو النحو الذي ننحوه فى قضيتنا وأما خطة مصر المستقلة فهي : أولا — تريد مصر أن تكون حكومتها دستورية ، وان تراعي في تفاصيل النظام حالة البلد الخصوصية من جهة ما للأجانب فيها من المصالح، وان تقوم بعمل إصلاحات اقتصادية وادارية واجتماعية تستعين على تحقيقها بذوي العلم من أهل البلاد الغربية . كما كانت تلك عادتها فيما مضى.

ثانياً لل تعلن مصر أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة ، وإذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو الى تحوير اليق بمقتضيات الأحوال فانها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التي من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها ، وتكون فيها تعرضه من ذلك واسعة الصدر غاية في الاخلاص والمجاملة .

ثالثاً ــ تتعهد مصر بالبحث في وضع طريقة للمراقبة المالية لا تقل في أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعاً قبل اتفاق سنة ١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومي.»

رابعاً ــ تـكون مصر مستعدة لقبول كل ماتراه الدول من الاحتياطات مفيداً للمحافظة على حياد قناة السويس .

خامساً — تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف لوضع استقلالها تحت ضمان جمعية الأمم ، وأن تشترك _ بهذه المثابة _ بقدر ما لديها من الوسائل في تحقيق مبادي. العدل والحق على النمط الحديث .

وأن من الفضيلة أن نقرر بأن كل مانقوله عن مصر ينسحب على السودان لأنمصر والسودان كل لايقبل التجزئة ، بل هوكما قال المستشار المالي في تقريره سنة ١٩١٤ ألزم لمصر من الاسكندرية .

ثم اقترح في ختام الخطبة إرسال نداء من الأمة إلى الرئيس ولسن تعرض فيه هقضية مصر التي يتسلط عليها الا جنبي تسلطا يأباه أهلها أجمعون » فوافق الحاضرون بالاجماع .

ثم دعا سعد مئات من وجوه البلاد الى اجتماع يشهدونه في داره أصيل اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير ، فعلمت القيادة العسكرية بهذه الدعوة ومنعتما ، وأبلغ سعد أمر هذا المنع إلى رئيس الحكومة البريطانية وجدد الاحتجاج إلى رئيس المؤتمر وبعض رؤساء الوفود الدولية فيه .

وبينها كانت القيادة العسكرية تمنع كل اجتهاع وطني يتصل بها خبره كان مستر برسيفال القاضي الانجليزى يوالى محاضراته في نادي « جماعة الاقتصاد والاحصاء والتشريع » ليمهد الاذهان لابدال القوانين الانجليزية بالقوانين المصرية وتخليد الحماية على مصر بأحكام الدستور والشريعة ، ويشهر بالجمعية التشريعية وقلة صلاحها للتشريع أو لبحث القوانين ... وكان السابع من شهر فبراير موعد محاضرته الثانية ، فأراد سعد أن يستعير من دعاية الحماية دعاية للاستقلال! واغتنم فرصة اجتهاع السامعين من أعضاء تلك الجماعة ومدعويها للاستقلال! واغتنم فرصة اجتهاع السامعين من أعضاء تلك الجماعة ومدعويها وهم نخبة من علية المصريين والاجانب — فذهب إلى ناديها وابتدر المنبر بعد فراغ المستر برسيفال من محاضرته قائلاً : « إن أمتنا المصرية ليست من قبيل فراغ المستر برسيفال من محاضرته قائلاً : « إن أمتنا المصرية ليست من قبيل فراغ المستر برسيفال من محاضرته قائلاً : « إن أمتنا المصرية ليست من قبيل عريقة في القوانين والشرائع فمن الخطر أن يعمد إلى تغيير كلي في شرعه عريقة في القوانين والشرائع فمن الخطر أن يعمد إلى تغيير كلي في شرعه دون أن تدعو الضرورة لذلك أوتهدي اليه التجربة والاختبار » .

ثم قال: « وقد أشار حضرة المحاضر إلى أنه تحول على الجمعية التشريعية مشروع يتضمن تعديلاً في نصوص القانون الحاصة بالضربات والجروح ولم تفعل فيه شيئاً. نعم ان هذا المشروع تحول على لجنة الحقانية التي أنا رئيسها فرأت أنه يلزمها للاقتناع بضرورة التعديلات المعروفة بيانات واحصاءات طلبت من وزارة الحقانية تقديمها اليها وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى انتهى دور انعقاد الجمعية ولم ترد هذه البيانات.

« رأيت من واجبي أن أبدي لحضراتكم ماقدمت من الملاحظات . ولكن هناك أمر آخر هو أهم مايجب التنبيه اليه . فقد تكلم حضرة المحاضر عن الباب الثاني من الكتاب الثاني في المشروع وفي هذا الباب ما يتعلق بحالة سياسية لا وجود لها الآن .

إلى ان قال: «أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية. فهي حماية باطلة لاوجود لها قانوناً. بلهي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب حقيقة واحدة ».

* * *

ولقد فوجي. الحاضرون بهذه الخطبة التي جاءتهم فيغير مكانها وفي غير أوانها . . . لانهم حضروا ليستمعوا إلى خطبة في تسجيل الحماية لا إلى خطبة في انكار الحماية واعلان بطلانها ا فهرع بعض الموظفين الانجليز إلى النور يريد أن يطفئه لفض الاجتماع ، ومنعه آخرون لانه عمل لا يليق في جمع كذلك الجمع ، وغادر أفراد مكان الاجتماع وبتي الاكثرون متشوفين لما عسى أن يكون بعد هذه الصيحة الجريئة .

زى ماذا يصنعون بالرجل الذي قام بين أساطين الاحتلال لينكر نظام الحكم في وجه عثليه ؟ ماذا يصنعون به والبلاد لاتزال في قبضة القيادة العسكرية ؟ والقيادة العسكرية تملؤها خيلاء النصر والثقة العمياء بتوطيد آثاره؟ أيعتقلونه؟؟ أيتركونه؟ أمست الدوائر العليا وهذا التساؤل حديثها ، وتسايرت الروايات في أنحاء القطر باخبار الخطبة ، فكان الناس يتناسخون ما يصل اليهم منها ، ويضمونه الى ما تلقفوه من الخطب والنداءات قبلها . ويزدادون حرصاً على اقتنائه كلما ازداد الحرص على منعه . وقدد كانوا يستهولون هذه الصيحات في وجه الحماية على قدر ماكان يهولهم من طغيان القوة العسكرية وسهولة النفي والحجر والاعتقال والتعرض للمتاعب والاخطار لايسر شهة .

انى هنا أصبح بادياً لرجال دار الحماية ورجال القيادة العليا أن الحالة مع الوفد قد وصلت الى درجة من الحرج تنذر بالتعب والمضايقة وتضطرهم إلى علاج أنجع من علاج الحصر والاغضاء، وان الاصطدام بينهم وبين الوفد آت لاريب فيه، وان سعداً لاينوي أن يقصر جهده على الرسائل البرقية التي لا يجاب عليها، والاجتماعات العامة التي يصدر الامر بمنعها، ولكنه ينوي أن يتابع خطاه وأن يقتحم الابواب كلما أغلق في وجهه باب، وأن يهجم حيث ينتظرون وحيث لا ينتظرون اذا كان لابد من الهجوم، فلا مناص لهم من تركه يمضي الى حيث يعلمون انه ماض لا محالة ، أومن معاجلته بأسلوب في الردع والمحاصرة غير الاسلوب الذي قنعوا به الى تلك اللحظة.

ولو كان هذا كل ماهنالك من الحرج لكان كافياً لمعاودة النظر في أساليب الردع والمحاصرة . ولكنه قد وصل من جانب آخر إلى حده الأقصى في دواوين الحكومة ، فاستقالت الوزارة الرشدية وأصرت على الاستقالة ، و تعذر اقناع أحد من الساسة والمستوزرين بقبول الوزارة قبل السماح لنواب المصريين بالسفر الى مؤتمر السلام ، و تعطلت الأعمال الرسمية في العاصمة والجهات ، واعتبرت القيادة العسكرية أن الوفد المصرى هو المسئول عن الازمة من البداية إلى النهاية .

ونعود قليلاً إلى ما بعد الهدنة لنتعقب أطوار هــــذه الآزمة الوزارية ونستعرض أسبابهاالتي دفعت حسين رشدي باشا الىالاستقالة ، ثم الاصرار عليها ، ثم الى بقاء هذه الاستقالة معلقة بين الرفض والقبول ، وبقاء البلاد بغير رئيس وزارة أكثر من أربعة أشهر . إلى أن عاد حسين رشدي باشا نفسه إلى من شهر ابريل .

فبعد زيارة سعد وصاحبيه لدار الحماية. ظن رشدي باشا أن الحكومة البريطانية لاتضن عليه بالسفركما ضنت به على الوفد المصري، ولاتآبى منه المحادثة في تنظيم الحماية كما أبت من سعد المحادثة في الاستقلال ، فرفع ملتمسه

إلى صاحب العظمة السلطان مستأذناً في السفر مقترحاً أن يعهد عظمته اليه والى زميله عدلي باشا بهذه المهمة ، منيباً عنه اسماعيل سري باشا في الرئاسة وعبدالخالق ثروت باشا في الداخلية ، وأحمد زيور باشا عن عدلي باشا في وزارة المعارف .

ولكنه حين أبلغ طلبه هذا الى الحكومة البريطانية جاءه الرد بما فحواه انها غير مستعدة للقائه . الاشتغال الوزراء بمؤتمر الصلح وغيابهم عن العاصمة وانه لاينتظر أن تفرغ الحكومة للبحث في شئون مصر الداخلية إلا بعد وقت « متأخر جداً » !

فلم يسعه أمام هذه الصدمة إلا أن يستقيل ، ورفع استقالته هو وزميله عدلي باشا في الثالث من ديسمبر . فلم يقبل عظمة السلطان الاستقالة ، وجدد السير ريحنال ونجت سعيه في طلب الاذن من حكومته بسفر الوزيرين فأصرت على رفضها ، ثم توالى رفض الاذن للوفد المصري بالسفر إلى لندن أو مؤتمر الصلح بعد أن شايعته الوزارة في طلب سفره ، فعاد رشدي باشا في الثالث والعشرين من ديسمبر إلى تأييد استقالته الأولى ، وقال في خطابه الثاني إلى عظمة السلطان « . . . طلبت وفود مؤلفة من بعض أنظمتنا النيابية السفر إلى لندرة للدفاع عن قضية مصر . وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر فلم تهمل مشورتي فقط بل رفض سماع آرائي فيما يحتمل أن يسكون عليه نظام الحماية وهكذا ستكون مصر البلد الوحيد الذي لم يسمع صوته في الوقت الذي يسوى في مصيره نهائياً.»

لم يقبل عظمة السلطان هذه الاستقالة الثانية أيضاً ، ولبث الوزراء في دواوينهم ما عدا الوزيرين المستقيلين . ثم أكد رشدي باشا استقالته مرة ثالثة في الثلاثين من ديسمبر ، فجاء الاذن عندئذ بسفر الوزيرين مع الاصرار على رفض سفر الوفد أو بعض رجاله . فحار رشدي باشا فيما يصنع : إن سافر إلى لندن لتنظيم الحماية والوفد باق في مصر يطلب الاستقلال ولا يقنع بما

دونه فليس لمسعاه عند الحكومة البريطانية مصير غير الفشل المحتوم ، وإن غير طلبه الأول وارتق إلى طلب الاستقلال بعد تصريحاته الحديثة والقديمة بحمد الحماية والقنوع بتنظيمها فليس له أمل في النجاح ، فتشبث بسفر الوفد معه ، واتخذ من رفض سفره فريعة إلى التنجي والاعتزال . فتنحى ومعه جميع الوزراء ، ونشرت الوقائع المصرية في أول مارس الارادة السلطانية التي صدرت بقبول الاستقالة .

ماذا بتي بعد قبول الوزارة إلا أن تتألف وزارة جديدة ؟ وإذا تألفت وزارة جديدة ؟ وإذا تألفت وزارة جديدة الا يكون مجرد قيامها دليلاً على انهما تأبى سفر الوفد ولا تأبى أن تطوى قضية الاستقلال ؟ لا بد إذن من احباط الوزارة المنظورة أو من قارعة تنوب عن سفر الوفد في اظهار شعور الامة. ذلك كان رأي سعد الذي استقر عليه واضطلع به واسرع بالمضي فيه.

فبدأ بابلاغ معتمدي الدول واحتجاجه على الحالة كلها والقاء التبعة على الانجليز المسؤلين عن أسبابها ، وطلب الاذن بلقاء صاحب العظمة السلطان في الثالث من شهر مارس . . . وقد كتب هو وزملاؤه عريضة إلى عظمته لخصوا فيها موقف الوزارة الرشدية ثم قالوا :

« ولقد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين — لاعتبارات عائلية — أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين إلى رحمة الله . ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبو لكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة ؛ رعاية لتلك الظروف العائلية ، ليس من شأنه أن يصر فكم عن العمل لاستقلال بلادكم . غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لارادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا إلى أن الامة في هذا الظرف العصيب إنما تطلب منكم _ ياأر شدأ بناء محررها الكبير محمد على —أن تكونوا العصيب إنما تطلب منكم _ ياأر شدأ بناء محررها الكبير محمد على —أن تكونوا

العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك ، فان همتكم أرفع من أن تحدها الظروف . كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟

« عفوآ يامولانا . قد تكون مداخلتنا في هذا الامر ، وفي غير هذا الظرف، غير لائقة . ولكن الامر قد جل الآن علىأن يراعى فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن الذى أثت خادمه الامين.

« ان لمولانا أكبر مقام في البلاد . فعليه أكبر مسئولية عنها ، وفيه أكبر رجاء لها ، واننا لا نكذبه النصيحة اذا تضرعت اليه أن يتعرف رأي أمته قبل أن يتخذ قرارًا نهائياً في أمر الازمة الحالية . فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد من رعاياه من أقضى البلاد إلى أقصاها إلا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة .

« لذلك دفعنا وأجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التي هي أشد ماتكون رجاء في استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعار ، والتي تطلب اليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها ، وانه على ذلك تذير .

« واننا نتشرف بأننرفع عبارات الاخلاص إلى مقام عظمتكم الكريم»

* * *

بهذا الرجاء الصارخ توجه سعد وأصحابه إلى ولي الأمر ليحول دون تأليف وزارة جـــديدة بعد استقالة الوزارة الرشدية ، وقيل انه رفع الى السلطان يعلم رشدي باشا وموافقته ، بل قيل إن رشدي باشا هوأول منأدلى بالرأي في وجوب كتابته ، ولا خلاف على كلتا الحالتين في أن سعداً هو المضطلع بالتبعة الأولى في كتابته وتقديمه .

ان الذين يكتبون ذلك الخطاب لم يكتبوه إلا وهم واثقون كل الثقة انهم غير متروكين الاريم تتم التمهيدات العاجلة لاعتقالهم أو محاكمتهم في وقت قريب . لأن القيادة العسكرية لا تريد أن يجيب عظمة السلطان هذا الطلب . فلا مندوحة لها إذن عن اعتقال الطالبين أواعتقال ذوي النفوذ منهم وكفهم عن مواصلة العمل لاحباط قيام الوزارات ، وهذه هي والقارعة يه التي كان يتمناها سعد لا بلاغ صوت مصر إلى إسماع العالم كله . مادام الانجلين قد بيتوا أمرهم على خنق هذا الصوت وراء السدود والاغلاق .

ولقـــد هالت هذه الخطوة الجريئة رجال دار الحماية كما انتظر سعد وأصحابه ، فأبرق السيرملن شيتهام إلى حكومته يشرح لها الحالة ويقترح نني سعد الى جزيرة مالطة ، فجاءه الردالسريع بالقبول .

وقد كان الانجليز يفضلون أن يعتقلوا سعدا أو يحاكموه بحجة أخرى غير حجة التمرد على الاحكام العسكرية واحباط تأليف الوزارة . فطلبوا من صاحب العظمة السلطان أن يصرح بعصيان سعد وأصحابه وخروجهم على واجب الولاء لعرشه ، ثم تجري المحاكمة بعد هذا التصريح بهذه الحجة فيقال في انحاء العالم إن الانجليز يحاكمون أناساً خارجين على عرش بلادهم ، ولا يقال انهم يحاكمونهم لانهم ينشدون حقوقهم ويستأذنون في السفر إلى حيث تسافر وفود العالم أجمع ! ! وحاولوا الحصول على هذا التصريح يومين فلم يفلحوا . لان السلطان نظر في العواقب فرفض ما طلبوا ، فعمد الانجليز إلى الوسيلة الآخرى التي تذرعوا بها إلى اعتقال سعد ونفيه ، وهي انذاره وهي يعلمون أنه لن يخضع للانذار ! فان خضع وكف عن الحركة والعمل فذاك عندهم خير من تنفيذ ما أوعدوه .

لا أجزم بصحة الراوية التي رويت لي عن طلب التصريح المشاراليه من السلطان ورفضه محاكمة الوفد أو اعتقاله بحجة العصيان والحزوج على عرشه فانني لم أسمع هذه الرواية قط من سعد أو منأحدفي حياته ، وانما سمعتها بعد

موته من بعض أصدقائنا الكبار الذين لا أعهد فيهم الجزاف في القول ، فرجحتها لمصدرها الوثيق ولاعتقادي أنها تشبه المعروف من أخلاق الانجليز ومن أخلاق السلطان فؤاد في وقت واحد . فمن عادة الانجليز أن يحا كموا طلاب الحرية باسم الخروج على أولياء البلاد الشرعيين لاباسم الحروج على مطامع السياسة الانجليزية ، فلا عجب أن يفكروا في اتهام سعدوأ صحابه بعصيان السلطان والخروج على عرش البلاد ، بدلاً من اعتقالهم في تلك الأيام لأنهم يجهرون محقوق الامة المصرية التي يقول الانجليز إنهم يرعونها كا يرعون حقوق الامم العزلاء .

أما السلطان فؤاد فمن أخص صفاته التي اشتهر بهما بعد النظر وحسن الموازنة بين الأمور. فلاجرم يرفض اقتراح القيادة البريطانية لان الرفض مأمون العواقب موافق لمما تقدم من سياسة السلطان فؤاد من أما قبول الاقتراح فلا أمان فيه .

فغاية مافي رفض الاقتراح أنه يغضب القيادة البريطانية ، وماذا تصنع القيادة البريطانية إذا غضبت في ذلك الموقف المشتبك الدقيق ؟ أتخلع سلطاناً وتسقط وزارة وتعتقل نواب شعب وتقهر شعباً كاملاً لأنهم جميعًا متفقون على المطالبة بحق تقرير المصير ؟

ذلك بعيد ... ورفض الاقتراح إذن هوالرأي الذي تشير به الحكمة وحسن الموازنة بين عواقب أن لا يحفظ في سجلات العرش انه أعلن عصيان أناس لانهم يطلبون للبلد الاستقلال .

على أن السياسة التي سبقت من السلطان فؤاد قبل رفض الاقتراح المعروض عليه هي سياسة تشجيع الوفد على السفر لا سياسة الوقوف في طريقه ، لان العرش هو صاحب النصيب الأوفى فيها يسعى اليه الوفد من طلب الاستقلال ، أياً كان ميل السلطان الشخصي إلى سعد وأصحابه . وقد ظن سعد أن رشدي وعدلي لم يكونا مبتكرين لما عرضاه عليه من التفكير في

فتح باب القضية المصرية عند اعلان الهدنة وعرض المسأئل القومية على مؤتمر الصلح، وكانه يشير تلبيخاً إلى سر هذه الفكرة ويحسبها من إيحاء السلطان فؤاد . . . ثم جاءت استقالة رشدي باشا مرحجة لهذا الحسبان لانها أعلنت أن التهاسه السفر هو وعدلي باشا إنما كان باتفاق مع السلطان ، ثم جاء رفض السلطان الاستقالة مرتين زيادة في الترجيح والدلالة ، وأكثر من ذلك في الدلالة على الاتفاق بينه وبين رشدي باشا انه عكف على قصر البستان طوال المدة التي قضتها الوزارة الرشدية وهي مستقيلة ، فلم يحضر قط خلال هذه المدة الى قصر عامدين .

نعم ان السلطان فؤادا قبل استقالة رشدي باشا أخيراً واستعدعلى ما يظهر لتأليف وزارة جديدة ، ولكنه قبلها بعد ورودا لاذن من الحكومة البريطانية إلى رشدي باشا وعدلي باشا بالسفر الى العاصمة الانجليزية ، ومن السهل على السلطان أن يظهر امام القيادة البريطانية بتأييد وزارته الرسمية في اطلبت من التحدث في حدود نظام الحكومة . ولكن ليس من السهل عليه أن يظهر أمامها بالايعاز إلى هيئة «غير رسمية» بمحاربة تلك القيادة ، أو يظهر التضامن معها في تعده الدولة البريطانية خروجاً على النظام .

لهذا جميعه رجحنا صحة الرواية التي رويت لنا عن رفض تصريح العصيان ، وكيفها كانت الحقيقة في تلك الرواية فالثابت أن الانجليز قد اضطروا الى مواجهة الوفد بحجة غير تلك الحجة ، وهي أفضل لديهم لو وجدوا السبيل اليها .

فني اليوم السادس من شهر مارس استدعى القائد العام الجنرال واطسون سعداً وتسعة من أصحابه إلى مركز القيادة العامة بفندق سفواي ، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر خرج لهم من مكتبه ، وفي يده ورقة مكتوبة قرأ عليهم منها انداراً باللغة الانجليزية يحذرهم فيه من وضع مسألة الحماية موضع المناقشة و « إقامة العقبات في سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعي في منع

تشكيل وزارة جديدة » ويهددهم — إن أقدمواعلى مخالفة ذلك — « بالمعاملة الشديدة بموجب الاحكام العرفية » . . . ثم تليت عليهم ترجمة هذا الانذار بالفرنسية ، وأسرع القائد فقال : لامنافشة 1 وعاد من حيث أتى .

اجرا. شكلي أو صيغة تنفيذية لا أكثر ولا أقل. فمهما يكن من غرور العسكريين بقدرتهم على الارهاب والتخويف فلا نحسبهم كانوا يعتقدون جداً ان المسألة كلها تتوقف على انذار صارم ثم يختم الوفد اعماله ويفض جلساته ويحجم عن معارضة الحماية وطلب الاستقلال.

فالوفد الذي كتبذلك الخطاب وصدم به القيادة العسكرية تلك الصدمة لم يكتبه ليخشى التهديد ويرتعد فرقًا من تقطيب القائد العام وصرامته في القاء النذير وقطع المناقشة . . . ولكنه كتبه وهو يتحدى التهديد ويخرج للقائه قبل أن يأتي اليه . . .

وليس من المعقول ولا من المنتظر أن يقنع الوفد بشي، بعد تلك الخطوة الجريئة غير اجابة مطلبه البديهي العادل وهو السفر إلى حيث يشاء ، فاما الانذار على تلك الصورة فليس من الجدفي شيء ، وأنما هودور من أدوار التمثيل أو صيغة تنفيذية لايراد بها إلا شكلها المحفوظ كما أسلفنا .

في اللحظة التي فرغ فيها القائد العام من تهديده ، طلب سعد نسخة من الانذار للرد عليه . ولم تنقض إلا ساعات قلائل — وهي المدة الكافية لكتابة الرد وترجمته — حتى كان جوابه على الانذار عند رئيس الوزارة البريطانية ، يبلغه فيه ان الوفد يطلب الاستقلال التام ويرى الحماية غير مشروعة ، ولا يتأخر عن أداء واجبه مهما كلفه ذلك ، ويلتي التبعة في بقاء البلاد بلا وزارة «على الذين وضعوا من هم أهل للوزارة في مركز حرج أمام صائرهم وأمام مواطنيهم »

ولبث يترقب ماتهدده بهالقيادة العليا . . . وما يتمناه 1

القارعة

لابد لنا من قارعة!

تلك هي الكلمة التي كان يرددها سعد في الأسبوعين الأخيرين قبل نفيه ، لأنه كان يرى بحق أن السكوت يتبعه سكوت وان الحركة تتبعها حركة ، ولم يكن جازمًا بان الثورة آتية بعد القارعة التيكان يتصدى لها ويستبطي، وقوعها ، لأن المعسكرات والقلاع والمطارات في مصركانت تعج بالجيوش وتزدحم بالمدافع والدبابات والطيارات . والمصريون بحردون من كل سلاح حتى الهراوات والمدى وبنادق الصيد . والخطب ممنوعة والصحف مراقبة والذهاب والاياب مرصد من الجواسيس والعيون . فاذا تعذرت الثورة على المصريين فغيير عجيب أن تتعذر ، وغير لزام أن تثور أمة في هذه القيود ، وهي لاترجو بالثورة العزلاء أن تغلب الغالبين المزودين بكل سلاح .

لم يكن جازما بأن الثورة آتية ، ولكنه كان جازماً بأنها اذا أتت فلن يكون مجيئها الا بقارعة تشعل نيران الغضب في الآمة الوادعة المتحفزة . وفي وسعه هو أن يتصدى للقارعة المرجوة المرهوبة فليتصد إذن لها ، وليعمل مافي وسعه ، وعلى المقادر بقية التدبير .

وعندنا أن سعداً لوكان جازماً بالثورة جزماً لا تردد فيه لكانت بطولته دون هذه البطولة ونصيبه من الاقدام دون هذا النصيب ، لأنه يقدم ولا يخشى أن يطول الخطر الذي يقدم عليه ، ويجازف ويعلم أن غضب الثورة يحميه . فأما أن يقدم وهو لا يبالي أن يستهدف للنكال دون أن يتبعه أحد أو يقفو ضربته ضارب فتلك هي البطولة العليا ، لانها بطولة الواجب ، وهي أعلى وأقوم من بطولة الحساب والتقدير .

ومضى يوم ولم تأت القارعة فاستبطأها ، وكان من عادته أن يخرج من مكتبه ليتمشى في الطرقة لحظة ثم يعود إليه ، فني مساء اليوم التالي لارساله البرقية إلى رئيس الوزارة ١٤٤٠ قد لتى عضواً من أعضاء الوفد في تلك الطرقة فقال له : إن الجماعة لم يأتوا بعد . أتراهم لإيأتون؟ ثم قال : هذا ليس بنافع . انهم أما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا ، وإلا فهم يتركوننا نموت في مواضعنا .

بيدأن هذا القلق لم يطل أكثر من يوم اخر . لأن « الجماعة » المنتظرين أتوا في مساء اليومالتالي أي في اليوم الثامن من شهر أغسطس. فجاء إلى بيت الأمة — عند الساعة الخامسة — ضابط بريطاني برتبة صاغ ومعه ضابط آخر برتبة الملازم ومترجم مصري ، ووقف على جانبي الباب الخارجي جنديان بريطانيان يحمل كل منهما بندقية في طرفها حربة ، وكان طالب من طلاب المدارس العليا قد دخل إلى بيت الامة قبيل بحيثهم مهرولًا فأبلغ الاستاذ فؤاد القصبجي (١) الذي كان يعمل يومئد في قلم الكتاب والمترجمين الملحق بالوفد المصريأنه رأى ضابطاً بريطانياً يستوقف محمد محمو دباشا في طريقه إلى بيت الامة ويركبه سيارة من سيارات الجيش الانجليزي . فخرج الاستاذ فؤاد ليخبر سعد يما أبلغه الطالب، و اذابه أمام الضابط البريطاني على باب الحجرة ، فارتدهذا و بادره قَائِلًا بِالْانجِلِيزِية : « أَنِي أُريد مقابلة سعد زغلول باشا فأين هو ! » فأجاله الأستاذ فؤاد بالفرنسية : « تفضل فانتظر في حجرة الاستقيال ريثها أخس الباشا » وأشار إلى حجرة الاستقبال . فلم يفهم الضابط قوله وظن أن الباشا في الحجرة التي أشار إليها ، وعاد يقول : هل سعد باشا هنا في الحجرة ؟ فقال الاستاذ فؤاد: لا . وانما أنا ذاهب لابلاغه . فنظر إليه الضابط نظرة فاحصة وقال له : بل أنا أريد أن أراه بغير وساطتك ، فاعتذر الاستاذ وهتف به في شيء من الاستغراب : إن العرف هنا لا يبيح الزائر أن يقدم نفسه بنفسه 1 ... قال الضابط متهكماً : « في هذه الزيارة لا بأس من المقابلة والتقديم في

⁽١) اعتمدنا على رواية الاستاذ نؤاد في تفصيلات ما حدث بيت الامة في حضوره .

وقت واحد؛ » والتفت إلى الاستاذ فؤاد فرآه واضعًا يده اليمني في جيبه فخيل اليه أنه يخرج منه سلاحًا فناداه في لهجة عسكرية : « ارفع يديك » . وأسرع الضابط الثاني إلى مسدسه يستعد لتجريده .

وكان سعد في مكتبه قد شعر بما يجرى على حجرة الاستقبال فحرج الى باب المكتب ، ولمحه الاستاذ فؤاد والضابط هناك في وقت واحد . فقال الاستاذ للضابط : هاهو سعد باشا . فتركه الضابط واتجه إلى الباشا وهو يحييه التحية العسكرية .

نظر الباشا الى الضابط ملياً ثم دعاه الى المكتب ، فرفع قبعته و دخل معه ، ثم خرجا والباشا يتقدمه في ثباته المعهود إلى درج السلم حيث وقف وقال له بالفرنسية : « لست أذهب معك على قدمي . سأرسل في احضار مركبة » فلم يفهم الضابط قصد الباشا وردد قوله : « لدي أمر بالقبض على سعادتك » قال الباشا وهو يبتسم : « فهمت ذلك جيداً . ولكني أريد احضار مركبة » ففهم الضابط عند ذلك بشيء من العناء ، وأشار الى حيث تقف السيارة العسكرية بالانتظار . وكانت آخر كلمة قالها سعد قبل مغادرته بيت الامة العسكرية بالانتظار . وكانت آخر كلمة قالها سعد قبل مغادرته بيت الامة « تشجعوا » . . . قالها بالفرنسية وكررها مرات .

و لما هم بالنزول التفت الضابط الى الواقفين الذين تجمعوا في هذه الفترة وسأل أين اسماعيل صدقي باشا؟ وكان صدقي باشا مع الواقفين فقال: أنا هو؟ فقال الضابط: تفضل بالمجيء معي! فاجابه « حسناً . ولكن تسمح لي بالرجوع لحظة الى المكتب » فوضع الضابط يده على كتفه وقال: « لا . إني أخشى أن تذهب! » قال صدقي باشا: لو كنت أريدالهرب لما أظهرت لك نفسي » ثم أفلت من يده ومضى إلى المكتب. فانتظره الضابط إلى أن عاد ... ثم سأل: أين منزل حمد الباسل باشا؟ فلم يجبه أحد ، وبعد هنيهة أشار أحد الواقفين إلى المنزل ودل الضابط عليه .

ولم يذكر لي الاستاذ فؤاد قصبجي فيم كانت عودة صدقي باشا الى المكتب

تلك اللحظة ، ولكني علمت بعد ذلك أنه عاد اليه ليقصي بعض الأوراق الهامة مخافة أن تأخذها القيادة العسكرية أثناء التفتيش.

ولماهم الضابط بالانصراف تقدم اليه عبد العزيز فهمي بك والاضطراب باد عليه وقال بالفرنسية : « إذا أردتم مرة أخرى استدعاء أحد منا فيكني أن تكتبوا اليه وهو يحضر اليكم » . . . واضطر إلى أن يكرد عبارته مرة أو مرتين لآن الضابط لم يفهمها لأول مرة . فلما فهمها قال له « أشكرك » ومضى .

وبعد نحو ساعة حضر الى بيت الأمة حمد الباسل بأشا ، وكان قد علم بما حدث فخاطب مركز القيادة العليا بفندق سفواي سائلاً : الى أين تريدونني أن آتيكم ? » فأحالوه إلى ثكنة قصر النيل ليسألها . . . وطلبت منه هذه الحضور على الأثر . فودع أصحابه وذهب الى الشكنة .

وقد أدخل سعد وأصحابه في الشكنة كل واحد منهم الى حجرة منفردة حتى المساء. ثم سمح لهم بالاجتماع ساعة العشاء .

وقضوا الليلة في النكنة يتساءلون عن مصيرهم ، وفي الصباح أبلغهم ضابط كبير أنهم قد سمح لهم باستحضار ثيباب من منازلهم تكفيهم لمدة شهر ، وبخادم لكل منهم ، إذا شاء .

وفي اليوم الثالث سئلوا: هل أنتم على استعداد للمسير؟ فأجابوا. على أنّم استعداد. ونزلوا مع الحراس إلى فناء الشكنة فركبوا سيارتين تتبعهما سيارة بضاعة ، تحمل الاتباع والحقائب.

وخرجت السيارات مسرعة إلى محطة العاصمة . فلما نزلوا منها أحاط بهم عشرون ضابطاً انجلبزياً ومعهم محمود صدقي باشسا محافظ العاصمة ، وساروا بهم إلى الرصيف الذي يقف عليمه قطار بور سعيد ، وأدخلوهم جميعاً إلى ديوان واحد في القطار ، ومعهم واحد من الضباط .

لم يكن سعد وأصحابه يعلمون الوجهة التي يتجهون اليها ، فـكانوا عند

خروجهم من ثكنة قصر النيل يحسبون أنهم منقولون إلى معسكر المعادي ... فلما اتجهت السيارة يسارًا وبلغوا قطار بور سعيد ظنوا أنهم منقولون الى رفح أو الى السويس ، ثم وصلوا الى بور سعيد ووجدوا هناك ضابطًا بريطانيا بالانتظار . فأركبهم معه سيارة الى الميناء ، وأصعدهم إلى نقالة بريطانية تقل الفين من الجنود الانجليز في طريقهم الى بلادهم ، وأخسف البحارة في تدريبهم على وسائل النجاة عند الحظر ، لأن السفن كانت تصطدم بالألغام كثيراً في بحر الروم .

علموا انهم منقولون إلى جزيرة مالطة حيث كانت القيادة العسكرية تأسر المعتقلين من المصريين والترك والألمان ، ولكنهم لم يعلموا ذلك من ضباط النقالة الا بعد الخروج من الميناء . فقيل لهم في عرض البحر إنهم ذاهبون إلى تلك الجزيرة ، ووصلوا إليها بعد ثلاثة أيام .

تساءل الكثيرون: على أي قاعدة جرت الحكومة الانجليزية باختيارها أصحاب سعد الثلاثة في هذا الاعتقال ؟ وتعليل ذلك على ما نرى ان القيادة العسكرية لاحظت التقاليد الرسمية في اختيار كبراء الوفد الذين يعتقلون مع رئيسه . فاسماعيل صدقي باشا وزير سابق ، ومحمد محمود باشا مدير سابق ، وحمد الباسل باشا من غير الموظفي ين هو رئيس قبيلة بدوية كبيرة يعرفه الانجليز من أيام الحرب الطرابلسية ، وجميعهم يحملون لقب الباشوية ، فاختيارهم هو الاختيار الوحيد الصحيح من وجهة التقاليد الرسمية .

الثورة

سرى نبأ الاعتقال بطيئاً متناقضاً في اليوم الأول ، لأن القيادة العسكرية حظرت على الصحف نشره والتلبيح اليه ، فعلم به أعضاء الوفد وأصدقاؤه وموظفوه في يومه ، وعلم به طلبة المدارس العليا في اليوم التالي لأنهم بجتمعون في أمكنة متقاربة وينتمي بعضهم إلى أعضاء الوفد وأصدقائه بصلة القرابة أو المعرفة ، وتسامعت به أحياء القاهرة شيئاً فشيئاً ، وانتقل منها إلى الاقاليم بمثل ذلك البطء والتناقض ، فلم يسر الى القطر كله إلا بعد يومين أو ثلاثة .

أضرب طلاب المدارس العليا في صباح اليوم العاشر من شهر مارس عن تلقي الدروس ، وخرجوا من مدارسهم في مظاهرة كبيرة طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجاح على اعتقال الزعماء وعلى كبت شعور الأمة وحرمانها الحق في ابداء مشيئتها ، وهي تسمع كل يوم دعوة الأمم كافة إلى بيان حقها وتقرير مصيرها.

وأضرب عمال الترام بعد الظهر ، ثم أضرب الحوذية في اليوم الحادي عشر ، وأصبحت الدكاكين مغلقة في معظم أنحاء المدينة إلاالدكاكين الأوربية ، وتجددت المظاهرات من طلاب المدارس وطلاب الأزهر وطوائف شتى من الجمهور ، فقابلها الجنود البريطانيون باطلاق المدافع الرشاشة غيرمفرقين بين كبير وصغير ، ولا بين مشترك أوغير مشترك في المظاهرة .

وكانت نقابة المحمامين قد اعلنت الاضراب فانقطع المحامون عن المحاكم إلا من كان يوفدهم المجلس اليها لطلب تأجيل القضايا ، واستثارت القسوة في قع المظاهرات غضب الناس وحنقهم فكثرت المظاهرات بدلاً من أن تقل واضطرمت وقدتها بدلاً من أن تخمد . وطاش صواب الحراس العسكريين

من جراء هذه المفاجأة فأصبحوا لايميزون بين جمع وجمع ولا يطيقون النظر إلى حشد من النياس ، فني يوم الجمعة الرابع عشر من شهر مارس أطلقت السيارات المدرعة نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسيني فقتلت منهم بعضمة عشر وجرحت خلقاً كثيرين ، ولم يكونوا في مظاهرة ولا قصدوا إلى التظاهر ، ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة ، وضابط الفرقة يجهل كل شيء إلا انهم قوم متجمعون ، وعنده أمر صريح باطلاق النار على قوم متجمعين !

و تعددت المظاهرات في مدن القطر فقو بلت بمثل ماقو بلت به في القاهرة ، وشاع خبر القتل و اطلاق الرصاص في أنحا. الآقاليم ، فانفجر كمين السخط الذى طال كظمه في الصدور ، وانفجرت الثورة في كل مكان ·

من الحطأ أن يقال إن المظاهرات كانت هي سبب الثورة الوحيد، أو ان الثورة ما كانت لتنفجر في القطر لو لا مظاهرات العاصمة، فانما كانت المظاهرات كالشرر الأول يتطاير من فوهة بركان يغلي وهو يهم بالانفجار، فمن شهدتلك الثورة الجارفة التي اندفعت في حينها اندفاعًا يدل على عمق مكا مِنها و تأجيج وقودها أيقن أنها قوة لا تحبس طويلاً، وانها هي سبب المظاهرات وليست نتجة المظاهرات.

فقد صبر الناس زمناً على مظالم الحرب ومضائكها ، ثم انتظر وا الفرج بعد الهدنة فاذا بهم يعالجون مرارة الخيبة ويوجسون من مخاوف المستقبل فوق ماأوجسوا من مخاوف السنوات الماضية ، وزاد في نكايتهم أنهم يعانون هذا الكظم كله في الوقت الذي تعلو فيه دعوة الانصاف و تتجاوب فيه الاصداء بالظفر والرجاء ، وأنهم يطلبون أمراً يسيراً هو حق الشكوى والاحتجاج بلظفر والرجاء ، وأنهم يطلبون أمراً يسيراً هو حق الشكوى والاحتجاج فيجابون بالتهديد والاقصاء عن البلاد ، ثم يستنكرون هذا العنت الغاشم فيعاقبون باطلاق الرصاص ، ولايراد منهم إلا أن يختنقوا وهم صامتون. فلما شاع خبر اطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وشاعت أخبار الموتى

والمعتقلين من الطلاب والشبان العزل المسالمين ، طغى الغضب بعد أن طم وظهر بعد أن عم ، وكان ظهوره على نمط واحد في جميع البلاد بغير تدبير ولا سبق اتفاق ، فبدأ انقطاع السكك الحديدية مابين طنطا وتلا في اليوم الثالث عشر من الشهر ، ثم انقطعت في جهات كثيرة دفعة واحدة ، وتناول التحطيم والتخريب أسلاك التلغزاف والتلفون وقضبان السكة الحديد حيثما وصلت البهاأ يدى الثائرين .

ولم يخل هذا التحطيم من غرض تعمده الثائرون بتدبير مقصود ، وهو تعويق القطارات المسلحة والفرق الجوالة عن الطواف بالمدن والقرى لجمع السلاح وتفتيش المنازل وايذاء الناس في أثناء ذلك التفتيش ، فقد أمعنت السلطة العسكرية في جمع السلاح منبداية الحرب حتى جمعت المدى الكبيرة والعصي الغليظة وكلما يصلح للتسلح به في عراك أو مشاجرة ، ثم لمحت بوادر الثورة بعد اعتقال الزعماء فعادت إلى حملة أخرى من حملات التفتيش ، وأوجس الناس من عواقب هذه الحملة شراً ، فحطر لبعضهم أن يعوقوها بقطع المواصلات .

إلا أن الباعث الآكبر إلى التحطيم والتخريب كان اندفاعًا جاعًا بغير قصد مرسوم: اندفاع الساخط يحار فيا يصنع وهوساخط . . . كانما هو في هذه الفورة الجامحة صريع مكموم محبوس في بيت مغلق يريد أن تسمعه الدنيا ولو بتدمير أثاثه واحراق داره . فجاءت عوارض الثورة متفقة في كل مكان لأن هذه العوارض هي كل ما يستطاع في تلك الحالة . ولو كان باعث التحطيم العدوان على الملك والنفس ولم يكن مجرد الاحتجاج وابلاغ الصوت إلى العالم لا تجه الثائرون إلى نهب خزائن الحكومة وأموال الاغنياء والمصارف ، وهو مالم يحدث قط في بلد من البلدان .

 لا يحسب لهحساب في حركات الجماهير . فظنوا أن أعمال الثائرين لا تتفق هذا الاتفاق إلا بتدبير مصطنع ودسيسة أجنبية . وربما طاب لرؤسائهم أن يفهموا ذلك لانهم أبلغوا حكومتهم في لندن أن الامة هادئة فاترة ، وأنها ضعيفة لا يخاف منها انتقاض .

وان أناساً كثيرين — ومنهم بعض المصريين — ليعجبون إذا عرفوا الآن أن هذه الثورة المفاجئة لم يقع فيها تنظيم ولم تكن فيها رئاسة مدبرة على الاطلاق. وأن مظاهرة الطلبة الأولى وقعت على غير علمسابق من الوفد بل على خلاف النصيحة التي سمعها الطلبة من بعض أعضائه الذين بقوا في القاهرة بعد اعتقال سعد وأصحابه الثلاثة.

لكنها هي الحقيقة التي نؤكدها بعد استقرائها من مصادر عديدة . فان الطلبة أصبحوا مضربين في مدارسهم يوم المظاهرة وهم مختلفون في الحروج أو البقاء ، ثم خطر لفريق منهم أن الحروج ربما خالف مشيئة الوفد وأفسد عليه رأياً يفكر فيه أوخطة يتوخاها ، فبعثوا إلى « بيت الأمة » أفراداً منهم يستفسرون ويعودون اليهم بما يقرعليه رأي الأعضاء ، وهناك التقوا بالاستاذ و عبد العزيز فهمي بك » فأفضوا اليه بقصدهم وأبلغوه هياج الطلبة وتحفزهم للخروج والتظاهر في أحياء العاصمة ، فتار بهم الاستاذ . وانتهرهم انتهاراً شديداً وهو يقول لهم مامعناه : « ان المسألة ليست لعب أطفال . . دعو نا نعمل في هدو ، و لاتزيدوا نار الغضب اشتعالاً عندالقوم .»

فتركره وهموا بالانصراف متذمرين مغتمين ، واذا بالاستاذين محمود أبي النصر وعبد اللطيف المكباتي يلحقان بهم ليخففا عنهم أثر الكدر الذي خامرهم من تأنيب عبد العزيزبك ، فتلطفا في التسرية عنهم والنصح لهم بالتزام السكون واجتناب المظاهرات ، وانصرف رسل الطلبة على أن يبلغوا زملاؤهم ما سمعوه وهم مترددون بين الاغضاء عنه أو الاصغاء اليه ، ولكن زملاءهم كانوا قد استبطأوهم وتهايجوا بما سمعوا من كلام خطبائهم ولكن زملاءهم كانوا قد استبطأوهم وتهايجوا بما سمعوا من كلام خطبائهم

واستثارة دعاتهم فخرجوا قبل أن يعود اليهم رسلهم بنتيجة سؤالهم ، وتمت المظاهرة الاولى علىهذا المنوال .

أما حوادث الأقاليم فقد تمت بغير ايحاء ولا تدبير ، إذ لم يكن للوفد في ذلك الحين لجان يجوز أن يقال إنها اتفقت على تنفيذ خطة مرسومة في جميع الاقاليم ، ولم يكن خبر السكة التي قطعت بين طنطا و تلا قد شاع في القطر حتى يقال إنه جاء في طليعة الحوادث بمثابة الايحاء والقدرة على عمد أو على مغير عمد ، وانما نجمت الثورة من بديهة الأمة كلها لايها كانت كلها على اتفاق في الغضب المكظوم والتأفف الذي بلغ مداه .

ولقد اخطأت السلطة العسكرية فيكل تدبير فكانت تستفز الناس بكل عمل تقصد به الى البطش والارهاب ، وتدفعهم الى نقيض ماتريد من الحنوف والطاعة.، وتثير النفوس الى التحدي والمعاندة بدلاً من الاذعان والسكينة :

بالغت في قمع المظاهرات فزادت المظاهرات ، وأنذرت كل من يقطع المواصلات « بالاعدام رمياً بالرصاص بمقتضى الاحكام العرفية » فكان جواب هذا الانذار اضراب عمال السكة الحديدية في اليوم التالي وخروجهم من مصانعهم متظاهرين ، ثم اندفع الناس في قطع القضبان وأسلاك التلغراف والتليفون غير مكترثين للعاقبة ، فانعزلت القاهرة والمدن السكرى من جميع الجوانب ، واضطرت السلطة الى استخدام الجنود الانجليز في تسيير القطر وننظيم المواصلات ، وبعد أن كانت تتوعد القرى التي تنقطع السكة على مقربة منها بالغرامة عادت الى نشر انذار تقول فيه إن كل حادث جديد من حوادث التدمير « يعاقب عليه باحراق القرية التي هي أقرب من سواها من مكان التدمير « يعاقب عليه باحراق القرية التي هي أقرب من سواها من مكان التدمير » . . . واستدعى القائد العام بعض الوزراء والسروات في اليوم وطلب اليهم أن يبذلوا جهدهم في النصح للشعب بالهدوء والاقلاع عرب والمشاغنات » .

كل ذلك والثورة تتفاقم ، والجماهير تقدم وتقدم ، ومنهم من أغاروا في بعض البلدان على مراكز الشرطة فانتزعوا مافيها من السلاح ، فاستخدمت السلطة الطيارات والبواخر النيلية لايصال المدد الى الجهات المعزولة ، وحدثت في اثناء ذلك مناوشات قتل فها خلق كثير .

على أن الثورة لم تكن فورة غضب بغير معنى كاأر اد أعداؤها و الناقون منها أن يتخيلوها، فلوكانت كذلك لماظهر فيها ما قدظهر من نفحات النخوة القومية و الأربحية الانسانية التي ترتفع اليها الشعوب كا يرتفع اليها الآفراد في ساعات السعو والاشراق والفداء . فان هذه النفحات لا تظهر في سورات الغضب الحيواني حين ينطلق على غير هدى وفي غير مطلب ، ولكنها تظهر حين تكون الثورة المصرية إعراباً عن شعور مكتوم و نزعة مشبوبة الى الكال . وقد كانت الثورة المصرية كذلك فغلب فيها الروح القومي على كل عصية وكل علاقة وكل فارق : مشى فيها علماء الازهر يحملون بساط الرحمة في تشييع جنازات الشهداء ، ويرفعون فيها علماء الازهر يحملون بساط الرحمة في تشييع جنازات الشهداء ، ويرفعون الأعلام وعليها شارة الهلال والصليب ، وقام القسوس في المساجد يخطبون المسلمين ويؤدون ما يؤكدى لها من الشعائر الدينية ، وخرج العقائل و الأوانس من الحدور يسابقن الرجال والشبان الى المهالك و الأخطار ويستهدفن للجند مسلحين متأهبين كأنهم في ميدان قتال . وغلبت فرائض الحية الوطنية على مسلحين متأهبين كأنهم في ميدان قتال . وغلبت فرائض الحية الوطنية على مسلحين متأهبين كأنهم في ميدان الضباطيسيرون الى جانب القضاة والمحامين وطلاب المدرسة الحرية يسيرون الى جانب الطلاب في كل مدرسة ، وكانوا جميعا ينادون باسم مصر و لا يذكرون إلا أنهم مصريون .

وتجلت بساله التضحية على مثال رائع نبيل كأنبل ما سطرت تواريخ الجهاد والفداء في وثبات الآمم . فمات أناس يحملون العلم أنفاً من الفر ارأمام نير ان المدافع وهم عزل من السلاح ، ويرى اخو انهم مصر عهم فيبادرون الى رفع العلم ليستقبلوا مصرعاً كمصر عهم طائعين متنافسين ، في لحظة يطيقون فيها رؤية العلم ملقى على التراب .

وقد أحاطت بالمصريين في تلك الأيام موغرات كثيرة من فتك وارهاب وخشونة واستفزاز ، في بعضها ما يشفع للناس لوطغت بهم مرارة النقمة وجمحت بهم لواعج الضغينة . لكنهم مع هذا لم يقترفوا سقطة وأحدة تشين صاحبها في غضبه أو رضاه ، ولم ينسوا أدب المرومة في أشد أوقات الهياج والاضطراب. فلم يعتدأحد قط على طفل أو على شيخ عاجز أو على امرأة ، وشهد اللورد اللني للثورة المصرية بهذا الأدب في الكتاب الابيض حيث قال بعدثلاث سنوات: «كانتسيدة انجليزية مستقلة مركبة مفتوحة فهاجمها الرعاع وقذفوها بالحجارة يوم الجمعة في حي بولاق ، وقد نجت من الاذي البليغ بأن اتخذت من مظلتها مخبأ فمزقت الأحجار المظلة ، وهذه أول مرة اعتدى فيها على امرأة في كل السنوات الثلاث الماضية » . . . ولو ثبتت هذه الحادثة كُلُّ الثُّبُوت لما كَانت شيئًا يذكر لانها لن تكون الا الندرة التي تؤكد القاعدة ولا تنفيها ، ولكن التحقيق لم يثبت بوجه من الوجوء أن السيدة كانت مقصودة بالاعتداء والاساءة . . . والا فما الذي كان يحمى سييدة منفردة لاتحمل معها الامظلةمن عدوان العشرات والمئات الذين يقصدونها بالايذا. ؟ ان انفراد هذا الحادث في جميع سنوات الثورة لحقيق وحده بالجزم بنفيه لا بمجرد التشكيك فيه ، وقد سبقته الحوادث الكثيرة المشهورة في أعنف أيام الهيـاج فـكان الثائرون يتورعون فيها جميعاً عن المساس. بالسيدات والأطفال، ومنها حادثة «بهيج» المشهورة على الحدود الغربية التي شهدت فيها صحف الاستعمار بترفع الثوار المصريين عن هذه السقطات المرذولة ، وليست صحف الاستعار بالتي تبري. أمة ثائرة على المستعمرين ، وفي وسعها أن تافق عليها التهم وتزور عليها العيوب .

لقد حدث أن أفراداً من الأرمن أطلقوا الرصاص على المتظاهرين من نوافد المنازل فلم يكن جزاء الثائرين لهم إلا بمقدار ما يقتضيه دفع العدوان ومنع تكراره، وحدثأن الغوغاء في أثناء المظاهرات قذفوا زجاج الدكاكين بالحجارة فحسب بعض الاجانب أنهم مقصودون بالسخط والعداوة.....

والحقيقة أن القاء الحجارة على تلك الدكاكين لم يكن عن شعور العصبية أو العداوة للأمم الاجنبيسة ، وإنماكان استنكاراً لفتحا في أيام الاضراب، واحساساً من الغوغاء بأن أصحابها يجبهون شعور الامة ويستخفون بمطالبها ويترفعون عن مجاملتها . فأصابوا دكاكين المصريين التي اتفق فتحا في تلك الآونة كما أصابوا دكاكين الإجانب . ورجحت كفة الإجانب في الحسارة لان متاجرهم أكثر عدداً في الأحياء الافرنجية التي تطوف فيها المظاهرات . ومع هذا لم ينس الطلبة أن يعتذروا إلى «الضيوف» من عمل الغوغاء في بيان نشروه في الصحف العربية والافرنجية ، وعلقوه على وجهات الدكاكين ووعدوا باتقاء تكراره في المستقبل .

ولم يحد المستعمرون في الواقع حادثاً يستغلونه في التشهير والتشويه غير حادث ديروط أو دير مواس الذي قتل فيه ثلاثة من الضباط وخمسة من صف الضباط الانجليز ، وهو حادث على جسامته لا يذكر إلى جانب الفظائع التي نزلت بالمصريين في أثناء حملات التأديب والتفتيش ، ومنها فظائع العزيزية والبدرشين والشبانات التي نترك تفصيلها إلى غير هذا المقام . وسنضرب عنها صفحاً في هذا الكتاب . ولا نذكر من فظائع قمع الثورة إلامثلاً صغيراً يغني بالدلالة عن الشرح والاسهاب ، وهذه خلاصته بعد التجاوز والتلطيف .

في أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ نقلت إلينا الأنباء البرقية من لندن أن جندياً انجليزياً سيق إلى المحاكمة كة لاتهامه بقتل عشيقته ، فكان من المحاسن التي تشفع بها إلى المحكمة واعتقد أنه يستحق بها العفو والرحمه أن قال بغير سؤال ولا مناسبة أنه كان صولاً بالجيش البريطاني بمصر سنة الثورة فقتل ثلاثة من المصريين ، وأنه بعد بضعة أساييع كادصديق له أن يقتل فقتل هو مصرياً آخر ، ثم عمل في خدمة أمير مصري ثم عمل في خدمة أمير مصري أربع سنوات . وقد لخص القاضي الدعوى فقال : « إنه مهما يكن ما فعل تافني — اسم الرجل — فان رؤساءه يومئذ لم يعدوا ما فعله جريمة .»

فهذا جندي من قامعي الثورة يفاخر بما جنى بعد الثورة بخمس عشرة سنة ! وبعد أن أكل خبزه من خير أمير مصري أربع سنوات! وهو واحد من عشرات الألوف لا يسألون عن قتلوا ولا يحت اجون إذا سئلوا إلى عذر أكثر من ادعاء الخطر والدفاع عن الحياة ، وكل من لديه ذرة من التصور وذرة من الانصاف ليعلم بعد ذلك أن الفظائع التي نزلت بالمصريين في ثورتهم أكبر وأهول بما لا يقاس من فظيعة الاعتداء على فئة من الضباط وألجنود كلهم مسلحون ، ولا يعلم أحد كم قتلوا قبل أن يتكاثر عليهم الجمهور الاعزل من السلاح .

وندع فظائع الثورة جانباً ونسأل: لم كل هذا ؟أكانت هذه الزوبعة الدامية ضرورة لا محيد عنها ؟ أكانت حادثاً لا يمكن اتقاؤه ؟ كلا ! لم تكن ضرورة ولامصلحة · وكان ميسوراً أن تجتنب اجتناباً وأن يحقن كل ما سال فيها من دما. ويصان كل ما خرب فيها من عمار وضاع فيها من أموال لولا الاخطاء المتلاحقة التي ارتطمت فيها السياسة الاستعارية ، لقلة اكتراثها للعواقب، والقاء اعتمادها كله على العدد الحربية وأنها تضمن لها قمع الامم الضعاف إذا ضاقت الصدور عن الاحتمال .

فهي أخطأت في البداية باعسلان الحماية واغتصاب أرزاق المصريين وأدوات معيشتهم في ابان الحرب العظمى. وكان في مقدورها أن تتفادى من كل ذلك بأن ترد إلى المصريين استقلالهم و تكل اليهم أن يدبروا بانفسهم ما يعنيهم من أمر المعاونة في الحرب بما يطيقون. فان لم يوافقها ذلك فماذا كان يمنعها أن تعلن الاستقلال و ترجيء النظر في تفصيل قواعده إلى ما بعد الفراغ من القتال ؟

ثم أخطأت في حرمان زعماء المصريين ابداء مطالبهم والبحث في مستقبلهم ، مع أنهم لم يقصروا في المجاملة ولم يبدر مهم في مخاطبة رجالها هنا أو في انجلترا أثر من التحدي والاعنات .

ثم وقعت الأزمة الوزارية التي لا بد من وقوعها فالقت على الزعماء تبعتها وألتى الزعماء التبعة عليها . ولم يكن رد الزعماء من قبيل التراشق بالتهم والمجاوبة على الادعاء بمثله ، ولكنه كان هو الحقيقة بعينها في نظر المنصفين الواقفين على الحيدة لافي نظر الوفد المصري وحده ... فالمسئول عن الآزمة الوزارية وعن صعوبة تأليف الوزارة المصرية هو السياسة الاستعارية أو هو كما قال الوفد وأمام مواطينهم » .

و إلا فماذا يقول الوزير المصري لا بناء وطنه إذا فرصناأنه أراد فعلاً أن يخدم السياسة الاستعمارية ولا يحفل بمصير وطنه ؟ أيقول لهم اني خائن لاأبالي بغير الوصول إلى المنصب ؟ أم يقول لهم إنني أتولى المنصب لاحول بينكم وبين المطالبة بالاستقلال أو السفر إلى حيث تشتركون في تقرير مصيركم ؟ وهل يستطيع أن يقول لهم ذلك في الوقت الذي ينادي فيه ساسة الانجليز أنهم لا يمنعون أمة متقدمة أو متخلفة أن تشترك في تقرير مصيرها ؟

فاحجام الساسة المصريين عن قبول الوزارة حتم لاحيلة لاحدفيه ، اذ ليس يوجد في مصرو لا في غير مصر مرشح للوزارة يشتري المنصب بهذه الخيانة الصريحة ولو كان مدخول الضمير . لانها خيانة سمجة مبتذلة لا تستر فيها و لا مغالطة ولا عذر لمن يشاء أن ينتحل الاعذار ، مادامت الامة تطلب حقها و الوزارة التي أذ عنت للحماية قد تحركت للبحث فيها و العالم كله ينادي بحقوق الشعوب و تقرير المصير . فني هذا العمل لو أقدم عليه المرشح للوزارة قضاء على حياته السياسية إن لم يكن فيه قضاء على الحياة .

لكن القيادة العسكرية شاءت مع هذا أن تلقي التبعة على الوفد في هذا الموقف الذي لاحيلة فيه الموقف الموقف الموقف الموقف الذي لاحيلة فيه الموقف المصريين. فأخطأت بعد واعتقلت رؤساءه جزاء على السيئة التي أساءتها هي ولم يسيئوها. ثم أخطأت بعد هذه السلمة من الاخطاء في بطشها الدموي بمن غضبوا لذلك العسف المبين

عزلاً من السلاح ، ومن نادوا بما كان ينادي به اقطاب الحلفاء في مؤتمر السلام ، ولعلما لوفسحت لهم جو بلادهم ينادون فيه بما يشاءون لما خرجت الثورة من طور الدعاية إلى طور التخريب والتحطم .

وأكبر اخطاء السياسة الاستعمارية جميعًا ، بل هو الخطأ الذي يطوي فيه جميع الأخطاء ـــ انها أساءت تقدير الموقف وأساءت تقدير العواقب وأساءت تقدير الشعور الذيكان يسور ويثور في نفوس المصريين قاطبة على تفاوت الطبقات والمشارب ، فليس في وسع انسان سياسي أو غيرسياسي أن يجهل هذه الأموركلها كما جهلها نائب المندوب البريطاني ـــ السيرميلن شيتهام - قبل الثورة بأقل ثلاثة اسابيع ... فانه كتب إلى حكومته في الرابع والعشرين من فبراير يقول: « ان الوزيرين رشدي وعدلي فقدا الشهرة الموقوتة التي عادت علمهما من الاستقالة ، وأن زغلولًا لا يثق به أحد ، وأن هناك قلقاً يسيراً بين أفراد الطبقة العلياالذين يطمعون في تعظيم مكانتهم ببلوغ مرتبة من مراتب الحكومة الذاتيـــة ، ولكن « الحالة لا تختلف في لبابها من الحالة التي طرأت في سنة ١٩١٤ عند ما رفض الأمير حسين وكبار الوزراء طويلاً أن يقبلوا الحماية مالم تكن مشفوعة ببعض المتح التي لم نبكن على استعداد لاعطائها ، وان الحركة الحاضرة على كل حال ليست بالتي تضارع حركة مصطنى كامل أو بالتي يصبح أن تؤثر فيقرارات الحكومة البريطانية فيمايتعلق بالمسائل الدستورية والوضع الذي توضع فيه الحماية : ٣ ولما بدت طلائع الثورة لم يجد هذا السياسي النادر ما مداري به غفلته وعجزه عن سبرغور الحركة الوطنية إلا أن يعزوها إلى أسباب أجنبية غير وطنية فأبرق في التاسع من مارس يقول ﴿ ان الحركة معادية لبريطانيا معادية للعرش معادية للاجانب ، وفها بزعات بلشفية تتجه إلى تخريب الأسلاك والمواصلات ، وهي منظمة مدبرة ولا بد أن تكون مأجورة.. وأذاعت الحكومة البريطانية مذكرتها عن الثورة بعد ذلك بشهر فجاء

فيها « ان هناك شواهد تثبت أن الخطة مدبرة منظمة باحكام » . . . ومما يستحق الملاحظة أن الحطة التي نفذت تشابه البرنامج الذي رسمه الألمان والترك للغارة على مصر في خريف سنة ١٩١٤ وهو البرنامج الذي أفضى به إلى السلطات المصرية الجاسوس الألماني مورس المقبوض عليه في الاسكندرية وإذا حسبناكل حساب للحالة العقلية أو لدواعي التذمر الناشئة بين الفلاحين المشار اليها آنفاً فكل هذا لا يكني لتعليل هذا الانفجار الخطير المنظم الذي تلوح فيه أصبع تركيا الفتاة كما قد تلوح فيه أصبع الألمان » .

إي والله ثورة تشمل أربعة عشر مليوناً يدبرها الترك والألمان في الحارج أو في الداخل ولا تعثر فيها السلطات الانجليزية بدليل واحد على هذا التدبير غيرالتنجيم والتخمين إوان الانسان لا يدري أيضحك أم يحزن من هذا التفكير العجيب الذي يعلل ثورة مصرية تنفجر في شهر مارس بأنهادسيسة أجنبية دبرتها حكومات منهارة مضى على هزيمة رؤسائها وتفرقهم في البلاد وانقطاع الصلة بينهم وبين أتباعهم عدة شهور . . . وادعى من هذا إلى الحيرة بين الحزن والسخر أن تكون الثورة من صنع الطبقات العليا ومن صنع البلشفية في وقت واحد!!

ولا نظن أن الغفلة وحدها هي سر هذه التعليلات المضحكة المبكية التي تعلقت بها السياسة الاستعمارية في تلك الفترة ، ولكنها رأت وكلاءها قد وقعوا في الجهل الذي لارجعة فيه فاستغلت جهلهم أحسن استغلل في استطاعتها ، لأنها وجدت لها فائدة من تشويه الحركة المصرية بنسبتها الى جواسيس الترك والألمان ، ووجدت أنها قد تحول بهذا التشويه بين الدعاة المصريين ومسامع الحلفاء والأمة الانجليزية . فمزجت بين الغفلة والذكاء هذا المزيج الجدير بأساليب الاستعمار !

ولقد ظل القوم يتخبطون في فهم الحركة وسبر أغوارها حتى بعد عمومها

وانتشارها، وطفقت الحوادث تتلقاهم و بعد مرة بتكذيب ظنونهم و تقديراتهم فلا تنجاب الغشاوة عن أبصارهم، ومن ذاك اعتقادهم بعد شبوب الثورة في البلاد أنها ضرب من الشغب الذي يفرقون فيه بين طائفة من الأمة وطائفة أخرى كما كانوا يصنعون في العهد السابق تارة بين الباشوات ولايسي الجلاليب الزرقاء، و تارة بين الشيوخ والشبان، و تارة بين طلاب الوظائف وأصحاب المصالح الحقيقية، و تارة بين المسلمين والمسيحيين ... فألقي اللورد كرزون بعد انفجار الثورة بنحو اسبوعين بياناً يثني فيه على الموظفين المصريين لانهم ثابروا على أعمالهم في إبان الهياج الذي غمر البلاد، ويقول فيه انهم صفوة المتعلين من المصريين « فمسلكهم هذا يدل على أن عقلاء الآمة لم يشتركوا في الحركة الآخيرة .. » فكان جو اب هذا الثناء المزري أن أجمع الموظفون في الدواوين كلها على الاضراب ثلاثة أيام اعلاناً للتا زر بينهم وبين طبقات في الدواوين كلها على الاضراب ثلاثة أيام اعلاناً للتا زر بينهم وبين طبقات الأمة في المطالب الوطنية ، وكتبوا عرائضهم بهذا المعنى الى صاحب العظمة السلطان، وأبلغوها الحكومة الانجليزية .

لم تنقطع هذه الآخطاء ولا جرائرها في أيام الثورة الباقية ولا بعد انتهائها ، ولم يقع منها الضرر على أحد غير المظلومين فيها . ومن ذا الذي يحاسب الأقوياء حين يخطئون في حق الضعفاء ؟ ولماذا يشتهي الانسان القوة ان لم تسول له الخطأ في كل حين ؟ 1

وهكذا يليق الخطأ ويليق التمادي فيه بالأقوياء لأنهم في غنى عن حسبان العواقب والمبالاة بالجرائر اويستأثر الضعفاء بسوء العاقبة وانجهدوا في اجتناب الاخطاء، لأنهم ضعفاء ا

-727-

من القاهرة الى مالطة الى باريس

جلس سعد وأصحابه الثلاثة في طريقهم إلى المننى يتساءلون ، وأول سؤال طبيعي يخطر لهم وهم مفارقون البلاد هو السؤال عما عسى أن يجري فيها بعد اقصائهم عنها : هل تسمع بالخبر ؟ وهل تملك أسباب الثورة؟ وهل تقوى القيادة العسكرية على كظم النفوس طويلاً بعد هذه الضربة * فأماسعد فكان رأيه أن الثورة عمل شاق على بلد أعزل مرهق بالاعباء مشحون بالجند والسلاح والأرصاد . ولكنها اذا كانت واقعة فشعور الناس بالاختناق والتماسهم المنفس للجهر با لامهم المكبوتة كاف لانفجارها والاستيئاس فيها .

وقريب من هذا رأي اسهاعيل صدقي الى نزعة من شكوك الرجل الحديث. أما حمد الباسل ومحمد محمود فقد كان رأيهما الرأي الطبيعي لزعيم قبيلة بدوية وصاحب عصبية في الصعيد. فآخر شي. يطيب لزعيم القبيلة أن يفكر فيه أن قبيلته لا تثور لأجله ولا تأخذ بثأره، وكذلك صاحب العصبية في الصعيد، فاتفقا على ترجيح الثورة وان لم يتفقا على النتيجة.

ويظهر أنهم -- سواء منهم من رجح الثورة العاجلة ومن لم يجزم بوقوعها العاجل - قد وطنوا النفس على البقاء زمنًا ليس بالقصير في جزيرة مالطة ، ولم يخطر لهم أن الافراج عنهم قريب. فبحث سعد عن منزل يستأجره وفكر في استدعاء السيدة الجليلة قرينته الى الجزيرة ، لحاجته الى العناية الصحية التي لا يجدها هناك في غير المنزل برعاية الزوجة الرءوم ، ولم يفكر صحبه الآخرون في ذلك لانهم شبان أصحاء بالقياس اليه ،

وصلوا الى مالطة بعد أن قضوا في النقالة ثلاثة أيام . وقد كان سعد متعبًا من مشقة الانتقال والدوار . وكان بين الشاطي. ومعتقل « بلفورستا » الذي اختاره حاكم الجزيرة لهم مسيرة نصف ساعة على القدم ، فبحثوا عن مركبات في جوار المينا. فلم يجدوا إلا مركبة صغيرة يجرها حصان واحد . ركبا سعد وسار رفاقه وراءه على الاقدام ، ووصلوا الى المعتقل فوجدوا أن السلطة العسكرية قد أعدت لكل منهم حجرة للنوم وأخرى للاستقبال ، وثالثة للمائدة ومكانًا للحام .

* * *

وأراد سعد أن يكون أول عمــل له في منفاه استثنافًا لعمله في القاهرة ، وتحدياللنغي والارهاب، واستمراراً في المطالبة بالاستقلال وإنكار الحماية . فلم يكد يستريح من عنا. سفره حتى كتب الرسالة البرقية الآتية إلى رئيس الوزارة الانجليزية يكرر فيها المطالب التي جا. من أجلها الى هذه الجزيرة : « إن شرف المااك يقدر بمقدار احترام ساستها ورجالهـــا للمعاهدات السياسية التي يبرمونها والتصريحات الرسمية التي يفوه بها رجال تلك الحكومة الرسميون . ولما كانت انجلترا في معاهدة لندن عام ١٨٤٠ قد ضمنت استقلال مصر كما أقسمت الملكة فكتوريا والبرلمان بالتاج والشرفعام ١٨٨٧ أن الاحتلال لن يكون إلا وقتيـًا وأعلن غلادستون عام ١٨٨٧ أن أوان الجلاء عن مصر قد آن . ولما كنتم جنابكم الرئيس الممثل لحكومة جلالة ملك بريطانيا والمدافع عن كرامة بلاده وشرف الامة الانجليزية الحرة فاني أطالب جناب الرئيس المبجل برفع الحماية التي أعلنتها حكومتكم على بلادنا قسراً لمقتضيات الحرب وجلاء الجنود البريطانية عن وادي النيل ، احتراماً للمعاهدات والتصريحات التي ذكرناها وصيانة لشرف أمة أنت على رأس حكومتها ، وليأذن جناب الرئيس بأن أذكر إن سياسة العنف والارهاق التي اتبعت معنا لا تزيدنا نحن المصريين كافة إلا تمسكًا بمطالبنا ، وثباتاً في موقفنا ، وإنه خير لانكلترا أن تكون لمصر صديقة ، وهناك نستطيع أن تقطع على أنفسنا عهداً بان نصون مصالحكم ونروج تجارتكم في بلادنا.»

ولا شك أن آخر ما انتظرته الحكومة البريطانية ـ وهي تنفيزعيم مصر الىجزيرةمالطةعقاباً لهعلىطلباستقلالها ـ أن لا تفيد من ذلك إلا أن تصبح الجزيرة ميداناً آخر من ميادين المطالبة بذلك الاستقلال !

公立公

نزلوا في المعتقل معزولين عن بقية الأسرى على خلاف السنة التي كانت متبعة فيه قبـــل وصولهم ، ولم يؤذن لهم بالخروج للرياضة في الخلاء إلا مرتين كل أسبوع بعد التوقيع على حلف كتابي يقسمون فيه بالشرف أن لا يهربوا ولا يساعدوا أحداً على الهرب ولا يعطوا أحداً نقوداً ولا يعملوا شيئاً فيه ايذاء لجنود جلالة الملك . . . وبعد كل هذا لم تكن السلطة الانجليزية تسلمهم من مالهم إلا بمقدار ما يلزمهم أول فأول لضرورة المعيشة ، وكانوا قد برحوا مصر وليس معهم من النقد إلا قليل ، فأرسلوا بواسطة السلطة بيطلبون مالاً من ذويهم في مصر ، فجاهم خسمائة جنيه لكل من سعد وحمد ومحمد محمود ، ومائة جنيه لاسماعيل صدقي ، فأودعتها السلطة مصر في الجزيرة وأباحت لهم أن يشتروا ما يشاءون بتحويلات يقبضها البائع من المصرف ، ورخصت لهم في استخدام طاي ألماني وابقاء التور الكهربائي الى المصرف ، ورخصت لهم في استخدام طاي ألماني وابقاء التور الكهربائي الى ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على تعلم اللغات التي يحسنها بعضهم ولا يحسنها الآخرون .

ولم يسمعوا شيئاً عن مصر ولا عن ثورتها إلا حين زارهم اللورد مثوين حاكم الجزيرة وهو يقول لهم عرضاً: «أشعلتم النار في مصر وجئتم الى هنا ١١». فعلموا أن في مصر احداثا خطيرة ، وأدركوا أنها الثورة حين استطاع طاهيهم الألما فيأن يدس اليهم بعض القصاصات من صحيفة التيمس ، عرفو امنها قبساً من

مظاهرات الطلبة وثورة البدو في الفيوم ، ولكنهم لم يسمعوا بما يدلهم على مداها وتفصيلات وقائعها.

وبعد شهر في مالطة جاءهم النبأ بالافراج عنهم والسهاح لزملائهم في القاهرة بالسفر إلى حيث يشاءون، وانهم مأذون لهم في السفر على الباخرة «كاليدونيا» التي تقل أولئك الزملاء، وستصل الى الجزيرة صباح يوم الثلاثاء الموافق لنصف ابريل.

فكان لذلك النبأ في نفوسهم وقع عظيم ، لأنه بشرهم بالحرية التي طالما تمنوها للسعي في قضية بلادهم ، وأثبت لهم أنهم يسعون في قضية تستحق عناءها ولاتخيب رجاء الساعين فيها .

فتفاءلوا بالافراج عنهم خيراً ، وفرحوا بما أولاهم من الثقة وتأكيدالعزيمة أضعاف فرحهم بالطلاقة من الاعتقال ، وباتوا على شوق إلى صباح يوم الثلاثاء لينعموا بلقاء أولئك الزملاء الذين فارقوهم ولا يعلم منهم أحد متى يكون اللقاء وليسمعوا منهم تفصيل الحوادث التي لمحوا بصيصاً منها في شذرات الصحف الانجليزية ، وهي لا تصل اليهم إلا بعد لاي في خلسة من الرقباء .

ثم أذنت السلطة لهم بزيارة الأسرى من أبنا. وطنهم و من الترك والألمان ، فلبوادعوة المصريين المعتقلين بالمعسكرات الأخرى ، فاستقبلهم الأسرى المصريون فخورين ، وكان بعض القادة الترك يقولون لأصدقائهم المصريين : « اعتبرونا منكم فقد أحببنا بلادكم وأحببنا زعماءكم » ورحب بهم الأمير هوهبزلرن ابن عم غليوم ، ورفع لهم بعض الألمان راية بيضاء مكتوباً عليها بالمداد الأحمر تاريخ « ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ » وهو تاريخ جلاء الجنودالانجليز عن مصر عند ما طمعوا في احتلالها للمرة الأولى ، وكان الاسرى الألمان قد أقاموا معرضاً فنياً لمصنوعاتهم التي استطاعوا أن يصنعوها بما لديهم من الادوات معرضاً فنياً لمصنوعاتهم التي استطاعوا أن يصنعوها بما لديهم من الادوات القليلة تزجية لاوقات الفراغ ، فقدم أحدهم إلى سعد تمثالاً عسكرياً بالعدة

الحربية الكاملة للامبراطورغليوم ، مصنوعاً من الورق المقصدر الذي تغلف به صناديق التبغ الصغيرة ، فحياه سعد وقال له : « إنه لتمثال عظيم يمثل عظيماً » ثم قال : « ولكننا لا نملك عدة الحرب ، وأنما نحن أمة سلام.»

* * *

وقد رست الباخرة «كاليدونيا» في ميناء مالطة ضحى يوم الثلاثاء، وعليها أعضاء الوفد القادمون من القاهرة وهم حسب ترتيب الحروف الهجائية : أحمد لطني السيد بك، وجورج خياط بك، والدكتور حافظ عفيني، وحنين واصف باشا، وسينوت حنا بك، وعبد العزيز فهمي بك، وعبد اللطيف المكباتي أفندي، وعلى شعراوي باشا، ومحمد على بك، ومحمود أبو النصر بك، ومصطنى النحاس بك، ومعهم مكتب الوفد وفيه كتابه ومترجموه، ومنهم الاستاذ ويصا واصف الذي انتخب عضواً في الوفد بعد وصولهم إلى باريس.

ولما رست الباخرة على الميناء انتظر الأعضاء فيها قدوم اخوانهم المعتقلين فطال الانتظار ، واستحسن بعضهم النزول إلى الجزيرة للقائم فو جدوا الحدم قد سبقوا سعداً وأصحابه إلى الشاطي. بالحقائب ومؤنة السفر ، وماهي إلا هنيمة حتى أقبل سعد وأصحابه الثلاثة يمشي معهم ضابط انجايزي وضابط من أهل الجزيرة لم يفارقاهم إلا عند صعودهم إلى السفينة ، فكان للقاء الزعيم وأصحابه ممسهد رائع لا ينساه من رآه ، والمتزجت في لقائهم معاني شي من الشوق والايناس ، وشعور الظفر والثقة والامل في النجاح .

أما كيف تحولت السلطة البريطانية في مصر من الحجر الشديد إلى السماح للوفد بالسفر حيث شا، فخلاصة القول فيه أنه تحول ضروري قضت به الثورة فلم يسع السلطة إلاأن تنقاد لحركمة في النهاية ، لأنها عجزت عن تسيير الأمور بأيديها ، وعجزت عن تأليف وزارة وطنية تقبل الحكم والوفد محبوس عن السفر ، فلم تجد بداً من اطلاق سبيل الوفد عسى أن تفرج شيئاً من حرج

الموقف وتمحو شيئاً من الحفيظة التي أفعمت قلوب المصريين وزادتها الفظائع في ابان الثورة ألماً على ألم .

وقد أدركت القيادة العسكرية من اللحظة الأولى أنها أخطأت في التقدير وانتهت باعتقال الزعماء إلى عكس ما تريد ، لأن اعتقالهم لم يردع السيل المتجمع وراء السدود وانما جاءه بمدد جارف أطلقه ودفع به شوطاً وراء شوطه، ورسم للمصريين طريق المقاومة ، فن شاء منهمأن يرجع فلاحيلة له في الرجوع ، ومن خطر له أن يتردد فليس أمامه موضع للتردد. وإن أول من دعا الى الثبات والمثابرة لهم أول من أصيب باعتقال الزعماء وأول من هدد بهذا الاعتقال، وأول من ظن بهم أنهم يتقهقرون ويوجلون : قرينة سعد وخلفاؤه المتروكون في القاهرة !

فالسيدة الجليلة قرينته لم تضيع لحظة واحدة في الحزن والجزع الذي لا يفيد... عادت من زيارة إحدى شقيقاتها حيث كانت ساعة الاعتقال فما هو إلا أن علمت بما حدث في غيابها حتى كان أول ماخطر لها أن أرسلت إلى شعراوي باشا تبلغه أن مكتب سعد مفتوح له ولزملائه في غياب سعد كاكان في حضوره وترجوه وزملاءه أن يقبلوا دعوتها إلى العشاء في ذلك المساء ، وأن يعقدوا جلستهم الأولى في مكان انعقادها المألوف ، لكي لا يطرأ على سير الدعوة أقل تغيير بعد ذلك الحادث الذي أريد به القضاء عليها . فقرر الاعضاء أن يلبوا رجاءها وأن يشكروها عليه ، واعتذروا من حضور العشاء لاشتغالهم باعداد الاحتجاج الذي يقابلون به اعتقال الزعيم ، واتخاذ الخطة التي تلائم الموقف الجديد .

ولم يكن شعور الأعضاء بعد الاعتقال شعور فزع وارتداع كما قدرت السلطة البريطانية ، بلكان شعور استياء لاعتبارهم دون من اعتقلتهم السلطة في الخطر والأثر ، وشعور رغبة في افهام السلطة البريطانية خطأها وتحديها واستفزازها باتيان العمل نفسه الذي من أجله اعتقلت سعداً وأصحابه . فكتب

شعراوي باشا احتجاجاً الى رئيس الحكومة البريطانية على اعتقالهم وأبلغه فيه ان الوفد مثابر على خطتهم ، ووجه مع زملائه في اليوم التالى خطاباً الى صاحب العظمة السلطان يلتي فيه تبعة إعراض الكبراء عن تأليف الوزارة على السلطة العسكرية : « فانما هو النتيجة الطبيعية للخطة التي اتخذت في مسألة سفر الوفد ، فان كل مصرى ذي كرامة لايمكنه — حقيقة — أن يقبل الوزارة في هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده » . وختم الخطاب بقوله : « اليم يا صاحب العظمة — وأنتم تتبواون أكبر مقام في مصر ، وعليكم أكبر مسئولية فيها — نرفع باسم الامة أمر هذا التصرف القاسي ، وعليكم أكبر مسئولية فيها — نرفع باسم الامة أمر هذا التصرف القاسي ، فان شعبكم الآن يحق له أن يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله ، كا يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا في صفه مدافعين عن قضنته العادلة.»

أما الحكومة البريطانية فقد أحبت أن تيئس المصريين من كل أمل في اللين والهوادة ، فعينت الماريشال اللنبي مندوباً سامياً بعد نشوب الثورة بنحو أسبوع ، بدلاً من السير ريجنالد ونجت الذي كان من رأيه السماح بسفر الوزيرين المصريين ، وقد تعمدت بتعيينه غرضاً آخر هو ارهاب المصريين باسم القائد المنتصر في أقرب الميادين اليهم وهو ميدان فلسطين . واذاعت في الوقائع المصرية انه « منح السلطة العليا في جميع الامور المدنية والعسكرية وفي اتخاذ مايراه من الاجراءات صالحاً لاعادة النظام واحترام القوانين ... مع تثبيت حماية جلالة الملك في مصر على أساس متين.»

وقد بدأ الماريشال اللنبي عمله بعد قدومه الى القاهرة باستدعاء الكبراء والسراة قائلاً لهم انه جاء الى مصر لينهي الاضطرابات ويتحرى أسباب الشكاية ، ويزيل منها مايقضي العدل بازالته ، وطلب اليهم أن ينصحوا للناس بالهدوء والسكينة .

فتكررت هذه النصائح التي يوعز بها الانجليز في غـير جدوى ، ولم يزل

متعذراً على «المستوزرين » أن يجترئوا على قبول الوزارة ، ولم يزل تسيير الادارة الحكومية في البلاد من أصعب الامور .

و جأ المارشال اللنبي إلى أعضاء الوفد المصري ، فاستدعاهم اليه في السادس والعشرين من مارس وطلب اليهم أن يبسطوا أسباب الشكاية في تقرير يكتبونه ، فقدموا له التقرير بعدار بعة أيام وفيه تلخيص للمظلمة السياسية من بداية اعلان الحماية . وقالوا في ختامه : « غير أن السلطة العسكرية مع ذلك قد استدعتنا مرة أخرى في يوم ١٦ الجاري وأعلنت الينا اننا مسئولون عن هذا الاضطراب ، واننا مسئولون عن ازالته ، ولكنها سمحت لنا هذه الدفعة أن نتناقش أمر المسئولية ، فأجبناها بأن هذا الاضطراب ليس نتيجة متوقعة لعملنا ولا يسوغه برنامجنا بحال من الأحوال . بل نحن نأسف له . وأما تسكين هذا الاضطراب فليس في يدنا وسيلة فاعلة فيه ، ونصحنا بأن أنجع الوسائل في تهدئة الحواطر بالطرق السلمية ، انما هو تأليف وزارة تعطى من الترضيات ما يرضي الشعب ، حتى تستطيع أن تقوم باعباء الظرف الحياضر » .

هذا رأي أعضاء الوفد الباقين بمصر في الثورة ، وهذا رأيهم في تفريج الأزمة ، وهو رأي اتفقوا عليه مع كبار مصر الرسميين رمنهم علماء الأزهر وبطريق القبط الارثوذكس وبعض الوزراء والنواب والسرواب . وكتب به هؤلاء جميعًا خطابًا إلى القائد العام في الرابع والعشرين من شهر مارس ، أي قبل استدعاء أعضاء الوفد إلى اللورد اللنبي بيومين ، وكان تقديرهم أن الوزارة التي تؤلف تعمل لتهدئة الحال ، دون أن يشترطوا سلفًا لهذه التهدئة إفراجًا عن معتقلين أو سماحًا لاحد بالسفر .

ثم قال أعضاء الوفد: « وفي اليوم التالي وهو يوم ١٧ مارس قابلنا الوزراء الثلاثة رشدي باشا وعدلي باشا وثروت باشا وأقنعناهم بأن يظهروا استعددادهم للمفاوضة في تأليف وزارة تستطيع أن تقضي على هذه الحركة المخيفة التي تخشى عواقمها المجهولة ، فاظهروا هـذا الاستعداد لرجال دار الحماية ولكن الأمر لم يتم ، والاضطراب يأخذ نسباً واشكالاً ليس الحكم على نتائجها في نفوس الناس بالشيء الميسور.»

وبعد أيام حان موعد صدور الميزانية وليس في البلاد وزارة ولانواب يناقشونها ، فلم ير المارشال اللنبي مخرجاً من هذه الورطة إلاأن يعتمدالميزانية باسم السلطة العسكرية ، فأصدر بلاغاً بذلك في أول ابريل ، ولكنه حل مشكلة وأثارمشاكل . فان هذا التحدي ألهب في النفوس جذوة الغضب وشحذ فيها عزيمة المناجزة ، فعاد التجار إلى اغــــلاق حوانيتهم وأضرب بعض الموظفين بمن لم يكونوا مضر بين ، وتمرد طلاب المدرسة الحرية ومدرسة الشرطة فخرجوا متظاهرين أمام قصر السلطان ودور السفارات ، وكانوا قبل ذلك يحتجزون عن المظاهرات ، واشتدت ثورة الآزهر وكثرت اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكرية إلى مخاطبة شيخ الآزهر في اغلاقه اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكرية إلى مخاطبة شيخ الآزهر في اغلاقه دفعة واحدة أو الاكتفاء باغلاقه في غير أوقات الصلاة فأبى ، واعتذر بأن الله ينهى المسلم عن اقفال مساجد الله ،

وفي السادس من الشهر وزع على الناس منشور منعظمة السلطان يقول فيه: « أني أنشر بين قومي هذه الكلمات التي كانت تختلج بصدري في الوقت الذي أخذت تتوارد إلى فيه ملتمسات الآماني القوية نحو مستقبل البلاد واني بالطبع لا أعني بالبلاد إلا بلادنا المباركة : لا أعني بالبلاد إلا وطننا العزيز : هذا الوطن الذي اقتضت حكمة الله أن يكون جدي الأكبر محمدعلى الكبير أكرم الله مثواه صاحب عرشه. وفي ختامه طالب عظمة السلطان ه أبناءه المصريين بماله من حق الابوة عليهم أن يتناصحوا بعدم الاستمرار على المظاهرات التي كانت عواقها غير محمودة في بعض الجهات.»

وبمدأن جربت السلطة العسكرية كل وسيلة وفشلت في كل تجر بةلم يسعما

إلا أن تجرب الوسيلة الوحيدة الباقية التي اقترجها المصريون من اللحظة الأولى، وهي اطلاق الحرية للوفد المصرى ليسافرحيث شاء، فان الحجر عليه هو سبب استقالة الوزارة وهو سبب الاحجام عن تأليف وزارة أخرى، وهو سبب غليان النفوس وانفجارها ونشوب الثورة وانتشارها، فأذاع المارشال اللنبي في أسابيع من الشهر بلاغً يعلن فيه أنه بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان «لم يبقحجر على السفروأن جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد يكون لهم مطلق الحرية » وان «كلاً من سعد زغلول باشا واسماعيل صدفي باشا وحمد الباسل وباشا محمد محمود باشا يطلقون من الاعتقال و يكون لهم كذلك حق السفر.»

فسرت نشوة الظفر والرجاء في نفوس الأمة قاطبة ، وقامت مظاهرات الابتهاج في مكان مظاهرات الغضب والهياج ، واستولى على الناس شعور مقدس غسل حوبة النفوس فنسي المجرم اجرامه والموصوم وصمته ، وشوهدت جموع النسوة الشقيات المتبذلات على مركبات النقل يحيين وطنهن و لا ينظر اليهن ناظر بعين المهانة أو الريبة أو المجون الذي تثيره أمثال هذه الجموع في غير تلك المظاهرات . وامتنعت حوادث السرقة على سهولتها فيذلك اللجب على اللاجب ، فحلت محاضر الأقسام من حوادث الطرارين واللصوص التي لم تكن تمتنع ساعة في أيام الشح والضيق ووفرة المال في جانب وندرته في جانب آخر ، ومشى أعظم الناس وأصغرهم على السواء في مظاهرات واحدة لا يتوقر عنها العالم الهرم و لا ينسى فيها الصغير دواعي الوقار ، ولم ينغص حداء المظاهرات إلا اعتداء بعض الأرمن عليها وشكاسة بعض الضباط والجنود البريطانيين الذين أطلقوا الرصاص على المتظاهرين المتهللين في غير وحدها كافية لبيان مبلغ ماوصلت اليه فوضى القمع والارهاب ، فان هؤ لاء وحدها كافية لبيان مبلغ ماوصلت اليه فوضى القمع والارهاب ، فان هؤ لاء الصباط والجنود تطوعوا لفعلتهم دون أن يدعوهم رؤساؤهم اليها ، بل لقد

كانت القيادة العليا تستبشر بمظاهرات الفرح التي أعقبت الافراج عن الزعماء لأنها قد تلطف سورة الحنق والعدا. وتهيُّ جوَّ السياسة للوفاق والمسالمة ، وتتيح للوزراء المصريين أن يقبلوا مناصب الحكومة ، ولكن الفوضى أخرجت أولئك الضباط عن طورهم فأفسدوا هذه الدلائل وعكسوا الامر على القيادة العليا حتى كادت أن تفشُّل في تأليف الوزارة التي كان يجري الكلام في تأليفها حينذاك ، مما اضطر المارشــال اللني إلى الآعتراف بخطأ الجنود ونشر بيان يقول فيه : « لقد تغيرت الحالة فجأَّة وأطلقت الحكومة البريطانية الزعماء المعتقلين في مالطة ، وأذنت للمصريين أن يرسلوا مندوبيهم إلى انكلترا ليعرضوا شكواهم . وقد سر المصريون لذلك بالبداهة وسمح لهم أن يقيموا الاحتفالات كما يسمح لأبناء انكلترا بالاحتفال بأي نصرسياسي ، ومن سوء الحظ أن الجنود لايفهمون هـذا على ما يظهر ولذلك حدث مرة أو مرتين أن نفرًا من الجنود قاموا بمظاهرات ضد المصريين الذين كانوا قد أقاموا احتفالاً غير موجه ضد سلطتنا بتة . وقد أدى عمل هؤلاء الجنود إلى اضطرابات خطيرة وإلى خسارة في الا نفس من الجانبين . على أن المأمول الآن أن يلوذ الجنود بالهدو. ويلزموا السكينة ، ويتركوا القانون والنظام للقائد العام . وبما يجبأن يفهم أن كل عمل مستقل يقوم به الجنود يضاعف صعوبة مركزنا عشر مرات.»

بقى سفر الوفد فعلاً بعد السماح بالسفر قولاً.

و الظاهر أن السلطات الانجليزية سمحت بسفره من جهة لتعرقله من جهة الخرى ... لانها تعللت بقلة البواخر وزعمت أن الاماكن فيها محجوزة سلفاً وأن الاماكن المطلوبة لاتنسر قبل ثلاثة أشهر ... وعلم الوفد أن الانتظار الى ذلك الموعد مضيع لفرصة الحضور أمام مؤتمر الصلح أو الوصول الى باريس في ابان انعقاده ، فالتمس الاذن بالسفر على « يخت » صاحب العظمة السلطان المسمى بالمحروسة ، واتصل نبأ هذا الخبر بالانجليز فخشوا أن يجاب بعد قيام

الوزارة الرشدية التي يعلمون من سياستها الأولى أنها تشايع الوفد في طلب السفر الى أوربا ، ورأوا أن وصول الوفد المصري الى أوربا على اليخت السلطاني يخوله « مظهراً رسمياً » يتقونه ولا يحبون دلالته الواضحة عند أمم العالم . فدبروا أمر الأماكن المطلوبة على عجل ، وسرعان ما استطاعوا أن يحجزوا الآماكن كلها في الباخرة «كاليدونيا» ومعها سنة أماكن أخرى لمن يشاء السفر من خصوم الوفد الى باريس ا

برح أعضاء الوفد العاصمة في الساعة الثامنة من صباح يوم « ١١ ابريل » فكان توديعهم الرائع بمثابة توكيل جديد من الأمة قاطبة ، فازد حمت الطرقات والميادين بعشرات الآلوف من جميع الطوائف والطبقات ، ووزعت محافظة العاصمة أكثر من ألف تذكرة لعلية القوم ورؤساء الدين والسروات الذين رغبوا في توديع الوفد على المحطة ، فلم تكف هذه التذاكر لتلبية جميع الرغبات ، وبلغ عدد المودعين أضعاف العدد المقدور ، وأوشك الناس مابين العاصمة وبور سعيد أن ينتظموا موكباً واحداً للحفاوة بالوفد وتأييده واظهار الابتهاج بسفره ، وماكانوا يعلمون بالسفر في يومها لصعوبة المواصلات وانقطاع العلائل البرق في بعض الجهات ، ولكنهم كانوا يرون القطار المزين بالرايات والآزهار وعليه التحيات التي كتبها المودعون في محطة العاصمة فيعلمون الخبر ويتسامعون به في لحظات معدودات ، ويهرولون الى لقائه داعين هاتفين . ولما وصل القطار الى بور سعيد خرجت المدينة تستقبله وترحب به وتصحبه الى الباخرة التي بات فيها ليلته ، وأضاءت بورسعيد كلهافي المساء وحفت بالباخرة عشرات الزوارق المضاءة الصادحة بالموسيقات والهتافات

القطر تشيع الاعضاء بالرجاء والتأييد . وفي اليوم الذي أقلعت فيه الباخرة — وهو اليوم التالي — تألفت في القاهرة لجنة مركزية كبرى تنوب عن الوفد في غيابه وتتولى انشاء اللجان التي تنوب عنه في الاقالم .

الوطنية طول الليل ، وانثالت الرسائل البرقية من المدينة ومن أنحاء كثيرة في

تأليف الوفد الأول

الذين دخلوا الوفد غير من ذكرنا كثيرون ، والذين خرجوا منه كثيرون، وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتبع أسماء أعضائه جميعاً في دخولهم وخروجهم إلا بمقدار ما يتصل ذلك بسياق النرجمة التي ندونها أو سياق الحوادث العامة التي نحن بصددها . ونقتصر في هذا الباب على القاء نظرة بحملة في تكوين الوفد كما تألف في أوائل وجوده ، ليتسنى لنا أن نفهم نصيب سعد من الاختيار في تكوينه . وأن نعلم من أين نشأت العواقب المحزنة التي سيق اليها الوفد من جراء الحوادث أو من جراء ضعف الاعضاء!

لا يحتاج الانسان إلى انعام النظر طويلاً في بنية الوفد الا ول ليعلم أن تأليفه لم يخل من ضرورة بل ضرورات شتى لوحظت في اختيار الا عضاء وتقريرالبرنامج السياسي واتخاذ الخطة المثلى في تلك الا حوال التي كانت مفعمة بالموانع والعراقيل ومخاوف التردد والقنوط.

ومن البديه أن سعدًا لم يكن في موقف الرجل الذي ينتقي أعضاء الوفد كما يحب ويتمنى . فيأخذ من يشاء ويدع من يشاء ، ويستجمع شروط المثل الأعلى لما ينبغي أن تكون عليه الوفود الوطنية ، وهو في غفلة عن الرقباء والمعارضين .

ولكنه كان يعمل لأنه لا بدأن يعمل ، ثم كانت تعترضه إلى جانب ذلك رغبات شركائه في العمل ، وأحوال الحرب ، وأطوار الحوادث الداخلية والخارجية التي لاحيلة له في منعها ولا قدرة له ولا لاحد من الناس على اجتنابها .

فأول ما يلاحظ على تأليف الوفد المصريكما كان في بداية نشأته ان العدد الاكبر من أعضائه لم يكونوا من رجال العراك المفطورين على القيادة القومية في الازمات ، الذين يفطنون بالالهـام لبواعث حركات الامم ويوحون اليها مر_ روح الاعجاب والثقة ما يذكى الحمية ويستجيش العزيمة ، ومن كان منهم قدوقف علىطرف من آراء جوستاف لوبون فكا نما وقف عليها ليلوم الجماهير ويعطيها درجات علمية في الفهم والتفكير ، لا ليستعين بأخلاقها وطبائعها على العمل والجهادكما يستعين الملاح القادر على خوض البحار بمـا يعلم من مهاب الريح ودوافع المد والجزر وطواري. الأمواج والاغوار ، فبينهاكان سعد الناشي. في مهد الثورة العرابية يتلهف على قارعة تبتعث كوامن الامةالوادعة كان بعضرفاقه الباقين بعد نفيه بهابون قلق الشعب ويجفلون من كل خلجة تختلج بها طوائفه الفتية ، وبلغ من جهل هؤلاءبأسرارالقيادة القومية أن عبد العزيز فهمي «بك» زجر الطلاب زجراً عنيفاً حين أفضوا اليه بما يضطرم في نفوسهم من سخطط وما يهمون به من احتجاج، وأن أصحابه الآخرين شاركوه في هذا الشعور وان لم يشاركوه في الزجر والهياج ، وكلماكانوا يتوقوناليهخلوة لا يكدرهاضجيج المتظاهرين ولا سورة النَّاقين . كأنما المسألة كلها مسألة مذكرة قانونية تكتب وتبوب وتوضع فيها النصوص والبنود وراء الأبواب المغلقة فيمعزل عن الأصوات والاصدا. ، ولو جرت الحركة الوطنية على هدى أمثال هؤلا. لكان حظهم هم النفي واللحاق بالمنفيين الآخرين ، ولكانت مصر الآن مستعمرة بريطانية لا فرقَ بينها وبين المستعمرات الهمجية في أعماق القارة السوداء

وقدرأينا قصارى ما طلبه الوفد بعدسفر سعد إلى مالطة يوم دعاه القائد العام ثم اللورد اللنبي لشرح مطالبه وبيان علاجه لتسكين الحركة « المخيفة» كما وصفواها . فقصارى ماحسبوا أنهم مستفيدوهمن تلك الحركة التي برز ت فيها مصر بأقصى ما في وسعها من مقاومة _ ان تتألف وزارة يمنحها الانجليز بعض «الترضيات» . . 1 1 وأن يسعى الوزراء إلى دار الحاية ليعرضوا عليها استعدادهم لتأليف الوزارة على هذا الاساس .

ولسنا نقول إن سعداً كان دائماً في جانب التشدد وان الاعضاء كانوا دائماً في جانب التسهل على هذا المنوال ، ولكننا نريد أن نقول إنهم حيثما انفردوا لم يكونوا يشعرون بالقوة التي يشعرون بها وسعد في وسطهم وزمام المناقشة في يديه لافي أيديهم ، فانهم ليستمدون من وجوده بينهم قوة تسري فيهم حتى حين يكونون هم المتشددين ويكون هو في جانب الهوادة واللين . لان الثقة قرينة القوة حيث كانت ، وهم لا يثقون بعضهم بيعض كما كانوا يثقون بسعد شاعرين أو غير شاعرين .

**

ويلاحظ على تأليف الوفد أيضا أن الكثيرين من أعضائه كانوا من أصحاب مزاج الدعة الذين لا يتجشمون المشقة ولا يفهمون العناد والمثابرة في تذليل الصعوبة ، وأصحاب هذا المزاج يحسبون الدعة والوجاهة حقاً لهم على الامة ينتظرونه ويحاسبونها عليه ان أخلت بشروطه ، وعندهم في قرارة نفوسهم أن الامة تعمل كل شي. وتتكفل بكل شي، ، فاذا عملت ونهضت باعباء الكفالة فهي أمة مستحقة لما تطلب وما تنال ، وإذا لم تعمل فما ذنبهم هم وفيم يحشمون أنفسهم العناء من أجل أمة لاتتكفل لهم بالدعة والوجاهة ؟.. انهم اذن في حل من ابتغاء الدعة والوجاهة من طريق غيرهذه الطريق ، ولن يدرك أصحاب هذا المزاج أبدًا ان انتظار ما تصنعه الآمة لا يصح أن يكون واجباً على الآفراد الاغار فضلاً عن الزعماء البارزين ، لأن المرجع هنا إلى مراجهم لا إلى رأيهم و تفكيرهم ، وكيف يكون المزاج مزاج راحسة ووجاهة و تكون العقيدة بعد ذلك عقيدة كفاح و بحازفة في محنة الفداء والحرمان ؟

**

و ربما لحق بهذه الملاحظات أن معظم أعضا. الوفدكانوا لايدركون معنى «المبدأ» الذي تنجح به الثورات وتقوم عليه الدعايات ، ولايصدقون في دخيلة أذهانهم أنه عدة حقيقية في وجه القوة الغالبة والمصلحة الشخصبة، فهذا في رأيهم كلام جميل توصي به مكارم الاخلاق، ولكنه لايليق بالشيوخ المحنكين والرجال العاملين.

وقد يسمعون بأناس من قادة الثورات وزعماء الدعوات صبروا على الشدائد سنوات بعد سنوات لأنهم يريدون شيئاً لا يعدلون عنه إلى سواه ، فغاية ما يفهمونه من شأن هؤلاء أنهم أناس نظريون أومثاليون يصلحون لضرب الأمثال في الحياة ، ويعسر عليهم جداً أن يفهموا أن « المبدأ » عند أولئك القادة والدعاة انما كان « عنواناً » أو تلخيصاً للأعمال المنتظرة ولم يكن خيالاً في الفضاء أو أملاً مثالياً من أحلام البطالة ، رسموه وقدروه وعولوا في تقديره على الممكنات مثالياً من أحلام البطالة ، رسموه وقدروه وعولوا في تقديره على الممكنات التي تتحقق بغير صعوبات في حاجة إلى مبدأ أو ميثاق ، لأنها تأتي وحدها ولا يتجاوز عمل الإنسان فها أن يترقبها مع الأيام .

وقد كانت أكبر آفات هذا الفريق من أعضاء الوفد أنهم كانوا إذا شعروا بالنقائص التي تعتور الثورة المصرية حسبوا أنها نقائص موقوفة عليهاوحدهاوقدخلت منها الثورات الآخرى التي يقراون عنها. ولم يخطر لهمأن الثورات على البعد جميلة خلابة لا تبدو فيها إلا آيات البطولة ومفاخر الاقدام والا يثار ، ولكنها على القرب مشحونة بالحماقات والشهوات على شبه واحد بين جميع الأمم في هذه السهات ، وما جاءتهم هذه الآفة إلا من قلة درس التاريخ النفسي للجهاعات والأبطال ، ومن قلة الخيال الذي يترجم المقروءات ويصورها للذهن كوقائع العيان ، أو الخيال الذي يقرب مابين عالم التصور وعالم الشهادة لانه يعرف كيف تكون الصور المكتوبة حين تقع في البيئة الانسانية ويعرف كيف تكون الصور للكتوبة حين تقع في البيئة الانسانية ويعرف كيف تكتب الوقائع حين تتجرد من التفصيلات و تنطوي في حين الاختصار والاجمال . وهنا يبدو لناكيف أن ملكة « الخيال » ملكة عملية الاختصار والاجمال . وهنا يبدو لناكيف أن ملكة « الخيال » ملكة عملية

لاغنى عنها لأصحاب المجهودات الواقعية ، لأن صاحبها أقدر الناس على تصور الممكن فيها مضى والممكن فيها سيأتي مع الأيام ، فلايخدعه الواقع المحسوس فينسى الشبه بينه و بين التاريخ الموصوف ، ولا يخدعه التاريخ الموصوف فيحسب أنه مخالف للواقع المحسوس .

泰泰泰

ومع هذه العيوب في معظم أعضا. الوفد لم يكن بدمن اختيارهم أو اختيار من يماثلهم في هذه الصفات .

لأن سعداً كان مقيداً بالصبغة الرسمية في تمثيل الأمة ، فكان لا يسهل عليه الاستغناء عن شركاء من « الجمعية التشريعية » أو من الذين تؤيدهم هذه الجمعية ، وضاعف هذه الضرورة أن الحالة في بدايتها كانت تستلرم العلاقة الحسنة بين الوفد والوزارة المصرية . حتى يتأتي لهذه أن تعترف بالوفد أمام الانجليز و تشكلم عنه باللغة الحكومية التي يتكلم بها الرجال الرسميون .

وقد نشأت فكرة الوفد في إبان الحرب العظمى يوم كانت الرقابة الصارمة مفروضة على المقابلات والمشاورات السياسية ، فلم يكن من الميسور أن يتسع أفق الاختيار والمشاورة بين المرشحين لتمثيل الامة في جميع أنحا. البلاد.

ونحن نعلم الآن موضع هذه الصعوبة حين نعلم أن كثيرًا من الأعضاء كانوا يسكنون في شارع سعد أو في الحي الذي يسكن فيه، فليس بين منزله ومنازل حمد الباسل باشا وحسين واصف باشا ومحمود أبو النصر بك وعلي شعراوى باشا ومحمود باشا وبعض الاعضاء الآخرين غير دقائق معدودات.

ولهذه العجلة في تأليف الوزفد صدرت التوكيلات الأولى وليس عليها من أسهاء أعضائه غير سبعة أسهاء ، ولم يتفق أن يكون بينها أحد من الممثلين للطائفة القبطية كما هو المقرر بين أعضائه ، فلاحظذلك وجهاء القبط و فضلاؤهم في نادي رمسيس ، وأو فدو االاستاذ و يصاو اصف ومعه عضو ان من أعضاء النادي لمفاتحة سعد في هذا الموضوع . وظنوا أن الوفدلم يفكر في ضم أحد بمن عثلون الطائفة القبطية اليه . وظن سعد حين فاتحوه في الامر أنهم يرشحون الاستاذ و يصا لهذه

الوكالة فرحب باختياره وأثنى عليه ، ولكن الاستاذ ويصا تنحى معتذرًا واقترح أن تكون الوكالة لرجل مثل واصف غالي باشا سليل البيت المكين في الطائفة القبطية، فقبله سعد على الرحب والسعة ·

ولم تكن هذه أول مرة خطرله فيها تمثيل الطائفة في الوفد المصري الممثل لجميع الأمة ، ولكنه وزملاءه كانوا حريصين أول الامر على اختيار الاعضاء من الجمعية التشريعية ، وكان جميع أعضائها القبط من المعينين لامن المنتخبين ، والمعينون لم تعينهم الحكومة بطبيعة الحال إلا لأنهم من أنصار الاحتلال أو أنصار الوزارة السعيدية التي تم في عهدها تعيين الأعضاء . فأما أنصار الاحتلال فلا يصلحون لتمثيل الأمة في هذه المهمة ، وأما أنصار الوزارة السعيدية فكانوا يميلون الى الوفد الآخر الذي كان يسعى محمد سعيد في تأليفه كما تقدم . وسرعان ماعلم سعد أن سينوت حنا بك يقبل الانضهام اليه حتى دعاه الى وفده ، وتوسعوا بعد ذلك في التمثيل غير متقيدين بالجمعية التشريعية أو بغيرها من الهيئات النيابية ، ونحسب أن واصف غالي باشا لو كان يومئذ في مصر ولم يكن في باريس لانحلت هذه المشكلة من البداية .

ومن المسائل التي لم يكن في الطاقة أن يتجاهلها مؤلف الوفد مسألة التبرعات المالية ، فهي ضرورة لابد منها لهذا العمل الكبير في مصر وأوربا وسائر الاقطار التي قد تدعو الحاجة الى زيارتها ونشر الدعوة بين شعوبها ، فاصحاب الثروة — كائناً ما كان نصيبهم من الرأي — عنصر لامناص من تمثيله في الهيئة التي يتبرعون لها بالهبات الجسام .

ولعل اختياراً ناس من « المعتداين » كان ضرورة أخرى لا محيد عنها ، لأن اشتراكهم فى الوفد دليـل على إجماع الأمة واتفاق كلمتها على المطلب والحنطة ، وقد ينزع اشتراكهم فيه دعوى الانجليز الذين تعودوا أن يفرقوا بين معتدلين من الأمة ومتطرفين ، كلما واجههم المصريون بطلب الاستقلال. وفي هذا الاشتراك اتقاء للشرالذي ينجم عن تزك هؤلاء المعتدلين وراء

الصفوف بين الأمة والانجليز ، منفصلين عن الحركة أوخارجين عليها . وقد طالما زعم الانجليز انهم يستنكرون الآمال المصرية لأنهم لايذعنون لمطلب بحيثهم من طريق اللدد والعناد . فاذا جاءتهم مطالب مصر من هيئة لم يستأثر بها المتطرفون ، فقد يميلون الى اجابتها وذلك خير ، وقد يعرضون عنها كما أعرضوا من قبل وذلك خير أيضا . لأنهم يطلعون الآمة على نياتهم ويدلونها على أنهم يرفضون الاصغاء اليها لأنهسم ينكرون حقوق جميع المصريين لا لأنهم ينكرون وسيلة حزب من الاحزاب .

ومن العوامل التي كان لها شأن في تأليف الوفد الرغبة القوية في التوفيق بين الوفد الذي تالف برئاسة سعد فى القاهرة والوفد الذي تالف برئاسة الامير عمر طوسن في الاسكندرية ، فان سفر وفدين إلى أوربا ليمثيل الامة المصرية كان خطراً على القضية المصرية ، يجب اتقاؤه بكل ما يستطاع . لانه ينم على انقسام في صفوف الامة ، ويفتح باب الدسائس وانكار حق الفريقيين على السواء .

ولم يشأ أصحاب الرأي في تاليف الوفدان يجعلوه مقصور آعلى «المعتدلين» أومن يسميهم الانجليز بالمعتدلين ، فكان اختيار مصطنى النحاس بك والدكتور حافظ عفيني ومحمد على بك وعبد اللطيف أفندي المكباتي مقصوداً به تمثيل الحزب الوطني وعنصر الشبان العاملين في القضية الوطنية ، لأن هؤلاء الاعضاء كانوا من رجال ذلك الحزب أو من المعروفين بالميل اليه .

على أن الذين لاموا سعداً يومئذ على اختيار العنصر المعتدل في الوفد لايستطيعون أن يلوموه على ذلك اليوم ، فلو أنه ملك الاختيار وحده وكانت له السيطرة القاهرة على الحوادث والناس فلم يدخل في الوفد إلا المتطرفين لما ضمن بذلك شــدتهم في الحق وثباتهم على الطلب ، لأن المتطرفين كما نراهم الآن قبلوا كل ماقبله المعتدلون من المطالب المنقوصة ،

وسابقوهم في اغتنام الفرصة والاغترار بفتنة الوظائف ، وأسف بعضهم إلى استحقاق المكافأة من شر الوزارات وأعنفها في ارهاق الامة المصرية والجور على حقوقها الدستورية ، حتى ذلك الفتى الذي كان يتوقد بالحماسة في خطاب سعد ولا يرضيه إلا أن يكون الاعضاء كلهم من الحزب الوطني قد عاد فقبل الوظيفة من وزارة قاطعتها جميع البلاد . وانفض المتطرفون بعد ذلك من حول سعد كما انفض المعتدلون ، فلم يبق معه منهم إلا مصطفى النحاس الذي خلفه على رئاسة الوفد بعد وفاته ، وهو لم يكن مع هذا عضوا في الحزب الوطني و إنماكان من أنصار مبادئه ومطالبه العامة ، والاسينوت حنا بك وهو الم يدخل الوفد مثلاً للحزب الوطني بل ممثلاً لوفد الامير عمر طوسن وللطائفة القبطية كما تقسدم ، فكانت عصمة الوفد الكبرى رئاسة سعد عليه و تأييد الأمة له ولثقاته ، و تلك ذخيرة استمد منها زاد الانصار والاعوان كلما احتاج اليهم فلم تبخل عليه بالمدد ، ولانخال أحداً يعرف ذخيرة أنفع منها لشعوب في جهاد الحرية .

فتقلب الأفراد مع النزوات والمنافع والأهواء النفسية آفة لايسلم منها حزب سياسي ولا دعوة انسانية ، وزعامة قوية وعقيدة قومية هما العصمة الكبرى من شر هذه الآفة ، فاذا اجتمعتاكانت كل منهما للأخرى حافزة ومشجعة لها ورقية عليها ، فتبث الزعامة من روحها في الامة وثبت الامة من روحها في الزعامة ، وفيهما الكفاية .

موقف الوزارة الرشدية

كانت للوزارة الرشدية علاقة وثيقة برئيس الوفد وأعضائه. فمن اللازم الآن أن نجمل الكلام عن حالة الوفد أثناء تأليفه الى اطلاق سبيله وسفره.

فما لاشك فيه أن الوزارة الرشدية نفعت الوفد نفعاً كبيراً بطلب سفره الىأوربا واصرارها على الطلب عند رفضه ، ولكن هذا النفع ــ مهما يبلغ من العقبات الجسام التي أقامتها أمامه وأمام الشعب المصري بما سلف من مسلكها في أوائل الحرب العظمي . فان هذا المسلك الذي خلا من الاقدام والحسكة قد أقنع الانجليز بسهولة الاغضاءعن مطالب المصريين العادلة ولاسما مطلب الاستقلال والغاء الحماية ، وأقنعهم بسهولة سوق المصريين الى الحرب في غير مجاملة ولا مكافأة . وهو مسلك ضعيف هزيل أفرط في الضعف والهزال حتى عابه بعض الانجليز كما عابه جميع المصريين: فقال الكولنل الجود في كتابه الموجزعن التاريخ المصري : ﴿ لَقَدَ كَانَتَ لَحْظَةَ عَيْرَةَ لَرْشَدِي باشا رئيس الوزارة. فقد كان الخديو في الآستانة وكان زملاؤه متفرقين وليس أمامه ملجأ للاستشارة ، ومصلحة مصر تقضى بالحيدة ومصلحة بريطانيا تقضى بالاشتراك في الحرب. فانضوى رشدي باشا أمام تهديد المندوب البريطاني الى الثانية لا الى الأولى . ولو أن وزيراً أقوى من رشدى باشا في مكانه لعمد الى المساومة . ولكنه لم يشترط شيئًا وحاقت العاقبة بمصر من خرا. هذا الاهمال، وليس في وسع رشدي أن يقول كلمة تخفف من وقع تسلمه » .

قبل رشدي وأصحابه الحماية وقطع العلاقات بالدول الوسطى دون وعد

ولاشرطولا مساومة ، ولم يكتڤوا بهذا حتى يقال انهم أذعنوا للحاية مكرهين في انتظار التغيير أو الالغاء عند سنوح الفرصة . بل تجاوزوه الى التطوع بالأحاديث والتصريحات التي هللوا فيها للحماية واعتبروها أمنية من الأماني طال اشتياقهم الى تحقيقها . فقال رئيسهم رشدي باشا في حديث له مع مراسل الديلي كرونيكل عقب اعلان الحماية :

«... مادامت قناة السويس حلقة اتصال بين أجزاء الامبراطورية البريطانية ، وطريقاً لازماً لانجلترا ، فن الطبيعي أن تنعقد بين بريطانيا العظمى ومصر صلات الود المتينة ، وزد على ذلك اننا أمة ضعيفة نحتاج إلى صديق قوي يصون بلادنا من كل اعتداء ويكون على جانب من الحرية والارتقاء ليتيسر لنا أن نسير بارشاده في معارج الحرية إلى ذلك المقام الذي يليق بنا في مصاف الدول . وهذه الشروط متوافرة في انجلترا ، فان لديها من القوة ما يمكنهامن الدفاع عن قطرنا ، ولها من معاملة البلاد التي تماثل القطر المصري تقاليد عطف وحرية ! »

الىأن قال: «...على أن مصر لا تنتظرالآن أن تقطع مسافات واسعة في وقت قصير بل تؤمل السير خطوة خطوة .. »

• وتحدث في الثامن من شهر يناير سنة ١٩١٥ إلى مراسل التيمس فقال:
ه لقد حقق هذا التغيير ماأملته طوياً . إذكان من رأيي دائماً أن مصركبيرة الشأن بالنظر إلى موقعها الجغرافي ، وانها تثير المطامع عند الدول الآخرى وهي ضعيفة لايتأتى لها الدفاع عن نفسها ، فلكي تحافظ على وجودها ينبغي أن تكون تحت سيطرة دولة عظيمة وهي تصبو إلى بلوغ استقلالها الداخلي ، والامة الوحيدة التي يتوافر فيها الشرطان اللازمان هي بريطانيا العظمى ، لانها قادرة على حماية مصر ، وتقاليدها الحرة خير ضامن لتحقيق آمالنا . أما استقلال مصر الداخلي الذي لا أظن بلوغه ممكناً الآن فأرى انه قد يتسنى البده فيه بتخويل المصريين رأياً نافذاً في المسائل المصرية البحتة التي لاعلاقة البده فيه بتخويل المصريين رأياً نافذاً في المسائل المصرية البحتة التي لاعلاقة

لها بمصالح الأجانب: مثل الأوقاف والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية » . الخواستمر على هذه النغمة الهزيلة حتى بعد انتهاء الحرب العظمى وتحفز البلاد للمطالبة بالاستقلال ، فحصر الغرض من سفره إلى انجلترا في تنظيم الحماية وذكر ذلك في كتاب استقالته حين قال : « وفي ذلك الوقت طلبت وفود مؤلفة من بعض هيئاتنا النيابية السفر إلى لندن للدفاع عن قضية مصر وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر ، فلم تهمل مشورتي فقط بل رُفض سماع وقد أشرت بأن يكون عليه نظام الحماية . . »

وما لاخلاف فيه أن مسلكاً كهذا لم يكن من شأنه أن يقنع الانجليز بالاكتراث لمطلب الاستقلال والخلاص من « نعمة الحماية المشتهاة »... وإنماكان أثره الطبيعي أن يجنح بهم إلى اهمال المطالب الوطنية واتهام أنصار الاستقلال بالغلو والشطط والاجتراء الذي لايستحق من الدولة المسيطرة على البسلاد أن تقابله بغير الاعراض والقمع الحاسم . فالوزارة الرشدية والموظفون الانجليز الجاهلون بحقيقة الحركة الوطنية مشتركون على السواء في تشجيع السياسة البريطانية على موقف الاستخفاف الذي وقفته بازاء الشعب كله . ثم تشبثت به بعد نشوب الثورة بسنوات ، ولا تزال البلاد إلى هذه الساعة تعاني ما تعاني من جرائره وبقاياه .

لقد أدخلت أحاديث رشدي باشا في روع الانجليز أنهم خلقاء أن يرفضوا الاستقلال ويرفضوا الغاء الحماية ، وهم على ثقة من وجود مصريين يرضون بما دون ذلك ويحسبونه غنماً مقبولاً ، ويجدون فيه تسويغاً لمسلكهم السابق وتكفيراً عن أخطائهم الاولى وتحقيقاً للرأي والمصلحة في وقت واحد ، إذ يكونون هم ولاة الحدكم وأصحاب الوزارة عند تنفيذ السياسة القائمة على دوام الحماية .

نعم قـــد نزلت الوزارة الرشدية عن ولاية الحــكم حين رفض الانجليز سفرها وسفر الوفد ، ولكن هل كان لها بد من ذلك بعد مالحقها من الاهانة وخيبة الأمل بمنع سفرها وإغفال شأنها مع ما أسلفت من خدمة وأظهرت من قنوع باليسير ؟ وهل كان صدوفها عن الحكم إلا كصدوف المستوزرين الآخرين عنه في تلك الحالة ؟ فلو أنها قبلت الحكم وبقيت في المناصب لما كانت نهايتها إلا كنهاية الوزارات التي قامت على الرغم من اجماع الأمة فلم يقبل منها الانجليز ولا المصريون أن تبحث في القضية المصرية ، حتى اضطرت إلى انتحال وصف الوزارات « الادارية » لتبري. نفسها من شهة الاشتغال بالقضية السياسية في تلك « الظروف »

ونحن نعتقد أن حسين رشدي باشا كان رجلاً نزيهاً حسن المقصد فيها قال وعمل ، وكذلك كان زميله عدلي يكن باشا الذي كان موضع سره ومرجع رأيه . ولكن الآفة قد خامرتهما من حيث يشعران ولا يشعران ، لأنها آفة الضعف وقلة المراس على الجهاد في دعوات الشعوب ... فهمامن طينة لا تمتزج بالروح الشعبية ، ولا الروح الشعبية تمتزج بها ، ولعلهما ينظران بعين الحوف والتوجس إلى وثبات الامم واعتلاج صدورها بالقلق ودوافع الحياة . لانها تلوح لهما كالمارد الجامح لايملكان إحضاره ، وإذا حضر لايملكان توجهه ولا صرفه .

فليس الرجلان زعيمين قوميين ، ولكنهما من رجال الديوان وعشاق الانتظام في الأعمال على الطريقة « الديوانية » التي تجمعهما مع الانجليز الحاكمين بحامعة النظام « وتوطيد الأمن العام » . . . وربما نظرا في دخيلة نفسيهما فلم يشعرا هنالك بالغضاضة الأليمة من بقاء المصريين محكومين لدولة أجنبية ، لانهما قد نبتا في بيئة الحكام ولم ينبتا في بيئة الشعب المحكوم ، ولا يشعران كذلك بغضبة الاهانة المثيرة للنفوس إذا قيل إن المصريين لايصلحون للحكومة المستقلة ، فانهما قد يتعزيان عن هذه التهمة بأنهما من سلالة جنس غير الجنس المصري الصميم ، وهي السلالة التركية القديمة سلالة جنس غير الجنس المصري الصميم ، وهي السلالة التركية القديمة

فليسلهما من طبيعة الثورة ولامن طينة الكفاح والجهاد ولامن غضبة

المر. لطائفته ولجنسه مايضرم الشوق إلى الاستقلال ويهون المشقة عليهما في نشدانه، وانهما لمخلصان في الهوادة والتسليم ولكن لاعذر لهما من ذلك إلا أنهما عاجزان عن الاخلاص في الغضب والمثابرة واليقين . . . وليس من يضعف وهو مخلص كن يقوى وهو مخلص في زعامة الشعوب .

ومن ثم كان مسلكهما في الدعوة الوطنية إلى جانب سعد زغلول المكافح بطبعه المصري في صميمه ، كمسلك المحامي الذي يؤدي أمانة الصنعة إلى جانب صاحب القضية الذي يشعر بالاهانة في ذات نفسه ويشعر بالخسارة في ماله وحياته .

اننا لانحب أن نبخس ماصنعته الوزارة في خدمة الوفد وتذليل عقباته ولكننا نقرر الحقيقة حين نقول ان الوفدكان وشيكاً أن يفتح طريقه إلى أوروبا بغير هذه الخدمة ، فان الامة قد ثارت لاعتقال سعد لا لاستقالة الوزارة الرشسدية ، وكانت ثورتها هي مفتاح الطريق إلى أوربا بعد إيصاد الانجليز إياه اغترارا أبمسلك الوزارة الرشدية وترحيها بالحاية ، واستمرارها على طلب المفاوضة في تنظيم تلك الحماية ، ولولا اغترار الانجليز بهذا المسلك المعيب لماكانت هناك صعوبة كبيرة في الاذن للوفد بالسفر إلى حيث أراد.

ولا يفو تنا في هذا الصدد أن ننظر إلى الباعث الآكبر الذي حدابالوزارة إلى السير في وجهة الحركة الوطنية و تذليسل ماذللت من العقبات في طريق تلك الحركة . فقد كان رشدي باشا وعدلي باشا ينظران أبداً إلى ما يعمله سعد وما ينوي أن يعمله وماهو قادر على عمله ، وكانا يحسبان حساباً لليوم الذي يتولى فيه قيادة الآمة والوثوب بها إلى مقاومة الحماية ، ولهذا رحبا بما اقترحه السلطان فؤاد من اشراكه في الوزارة قبسل انتهاء الحرب العظمى بأكثر من سنة ، عسى أن يشترك معهما في التبعة ويمضي معهما على خطة واحدة ؛ ولهذا رفضا السفر إلى انجلترا حتى يسافر سعد فيقبل ما يقبلان أو يعجز عما يعجز عما يعجزان عنه ، ولهذا عادا بعد ذلك يقولان في حديثهما مع اللورد

ملنر إن إلغاء الحماية شرط لابد منه للدخول في المفاوضة وهما اللذان قبلاً الحماية على أنها بركة ونعمة موموقة ، وما تغير من الأمر في هذه الأثنا. إلا أنهما يحسبان حساب سعد ومايقبله أو يرفضه في المفاوضة المصرية الانجليزية

بل لهذا أيضًا رفض عدلي بعد سنتين مقترحات اللورد كرزون وعرض عليه في الوقت نفسه أن ينفذها من جانب الانجلير بغير موافقة من جانب الوزارة كأنه يرضى تنفيذ تلك المقترحات ولكنه لايجسر على توقيع اتفاق دون الذى يرضى سعد بتوقيعه .

وليس بنا أن نعرض لهذه الصفحة من تاريخ الثورة لولا أننا نتابع طريق المطالب الوطنية في تقلباتها إلى غاياتها . ولا يسعنا أن نتابع هذه الطريق على هدى من خطوات السالكين فيها مالم نقف على دخائل أعمالهم والمقاصد التي تحيك في نفوسهم ، وعلى أسبابهم في مخالفة سعد ، وأسباب سعد في مخالفتهم ، فهي صفحة لابد منها لدراسة صفحات ، وليس من مصلحة التاريخ ولا من مصلحة الأمة المصرية أن تطوى لمصلحة أفراد .

برنامج الوفد والامتيازات

تلك خلاصة الظروف والموانع التي قيدت ارادة سعد في اختياره لأعضاء الوفد وموقفه من الوزارة . وما كانت حريته في هذه الظروف بأكبر من حريته في اختيار السياسة التي رسمتها لنا بياناته وخطبه الأولى . فما يستوقف النظر في تلك البيانات والخطب أنه لم يجهر فيها بما يفيد الرغبة في الغاء الامتيازات الأجنبية ، وهي سد يحول دون الاستقلال كما يحول دونه الاحتلال . فلماذا اختار هذه الخطة ولم يعول على طلب الغائها منذ اللحظة الأولى ؟

إذا أردنا أن نعرف السبب فلنسأل: هل كان في وسعه أن يختار الخطة الآخرى وهي المطالبة العاجلة بالالغاء؟ وإذا اختارها فماذا يستفيد لبلاده؟ وماذا يصيب القضية التي نهض بأمانة الدفاع عنها بين الآمم الآوربية في إبان انعقاد المؤتمر؟

إنه لن يصل إلى إلغاء الامتيازات والغاء الحماية في وقت واحد. ولن يستفيد شيئاً للقضية المصرية من الأوربيين ولامن الانجليز، وكل ما هنالك أنه كان يجعل الأوربيين والانجليز صفاً واحداً في مقاومة الامة المصرية، وكان يمهد يبديه دليلاً للانجليز بحاولون أن يثبتوا به ماز عموه من أن القضية المصرية إن هي إلا نزعة تعصب ولجاجة في كراهة الحضارة الأوربية وإنه لخير لسعدولو فده أن يلبثوا في مصر من أن يواجهوا الدول الأوربية بهذه العقيدة، وهم شاخصون اليها ليعتمدوا على إقناعها وحسن عطفها في الخصومة بين مصر والدولة البريطانية.

ومن الامور المحتملة أن يستنكر الاوربيون فرض الحماية البريطانية على

مصرإذا وثقوا من ضان امتيازاتهم فيها . ولكن من المستحيل أن يستنكروا الحماية ويستنكروا امتيازاتهم في وقت واحد بغير ضان . وقدكان المؤتمر يوم ذاك يفرض على الاوريين المهزومين نوعًا من الامتيازات أو نوعًا من القيود والشروط . فمن غير المعقول أن ينزل المنتصرون عن امتيازاتهم بيننا طائعين ، ومن غير المعقول ولا المفيد ان نرغمهم على النزول عنها . كأنما نملي علمهم وعلى الدولة البريطانية شروط المنتصرين .

لقد كان أمل الانجليز من عهد كروم وكتشنر إلى عهد المفاوضة مع ملنر وكيرزون أن يلغوا الامتيازات ويحصلوا من الدول على اعتراف لهم بحماية المصالح الآورية بيننا، فكل مانتوقعه باثارة المسألة في أيام الصلح أن نهي، لهم أمرا من أمرين: أما ابقاء الامتيازات وهم أصحاب الفضل في ابقائها أمام الدول الآورية ونحن المتهمون بالعداء والمعارضة. وأما الغاء الامتيازات واحد لل بريطانيا العظمى محل الدول في حماية الآجانب أجمعين ... وإذا أفلحت السياسة الانجليزية في هسنذا المسعى فذلك تسجيل للحماية على الرغم منا، وليست هذه هي الغاية التي من أجلها تألف الوفد، وسافر إلى باريس.

أما إذا نجحت الدعوة إلى الغاء الحماية البريطانية فان تعديل الامتيازات أو الغاءها بالمساومة والحزم ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية ، فقد استطاعت تركيا وفارس والصين أن تعدل امتيازات الدول فيها أو تلغيها وهي ليست بالامم القوية في العدد الحربية ، ولوكانت قوية لما استطاعت أن تعتمد على قوتها في حرب الدول الكبرى والصغرى مجتمعات ، فاذا عالجنا نحن مسألة الامتيازات بمثل الوسائل التي عالجتها بها ، بلغنا ما نريد مع الزمن ولم نفتح للاستعار البريطاني باب الدسيسة بيننا وبين أصحاب الامتيازات.

هذا أهم ما يلاحظ على المطالب الوطنية كما جاءت في برنامج الوفد المصري. أما خطة السير في المطالبة وهي مواجهة العميد البريطاني فرجال الدولة البريطانية فالرأي العام في البلاد الانجليزية وفي بلاد العالم أجمع. فقد الفينا أناساً من الحصوم الحزيين يعيبونها ولكنا لاترى رجلاً منصفاً يوافقهم أو ينصح برأي أحق منها بالاتباع. فن الطبيعي أن تطلب الغاء الحماية أول الامر من فرض الحماية وان تسبر استعداد الدولة البريطانية قبل أن تقيم الحجة عليها، فان كان استعداداً حسناً على أضعف احتمال فقد اختصرت الطريق، وإن فان كان استعداداً حسناً على أضعف احتمال فقد اختصرت الطريق، وإن كان سيئاً فلا خسارة عليك ، بل أنت تمنعها بعد ذاك أن تزعم انها أحبت أن تجيبك وترضيك لولا أنك أغفلتها وأهنتها بالتشهير بها والقصد إلى غيرها.

وهذه هي الخطة التي توخاها الوفد المصري وأحسن فيها: أبلغ العميد البريطاني أن الآمة تطلب إلغاء الحماية ، ولما علم ان الحكومة البريطانية لا تنظر بعد في طلب الاستقلال أبي أن يخاطبها في مطلب دونه ، واعتزم أن يكون كلامه هذا إلى الرأي العام «حيثما وجد اليه سبيلاً » وقدكان أقرب السبل اليه أن يبدأ دعايته إلى جانب مؤتمر الصلح قبل ارفضاضه ، وإلى شعوب العالم الحرة من حيثما اتصل بها نداؤه ، وهذه خطة لاغبار عليها ولايشير الخصوم الحزيون بأصلح منها .

الوفد في أوربا

عند ما طلع الرئيس ويلسون على العالم ببشارة السلام ومبادي. الحرية والانصاف صدقه كثيرون ورحب به كثيرون ، لانهم استبعدوا ان يخرج بنو الانسان من تلك الأهوال والمآثم بغير عبرة ، وأن يقدموا على تكرار المأساة الجهنمية وهم لايزالون يكتوون بنارها ويتلوون من آلامها...

ولم يهزأ بدعوة ويلسون من أساسها الاطائفة من ثلاث طوائف: وهم المستعمرون الرجعيون ، لآن الدعوة لاتو افق سياستهم ولاتحقق لهم مطامع القهر والاستغلال .

واليائسون من أخلاق بني الانسان، لانهم يهزأون بجميع المبادي، ولايحسبون الانسان صادقاً في شيء غير المصالح القريبة والشهوات الحيوانية. والاشتراكيون لانهم يرون أن العوامل الاقتصادية هي علة الدعوات الاجتماعية والمذاهب الاخلاقية ، فلا فائدة من احاديث المروءة والرحمة وتقرير المصير مادام نظام رأس المال هو النظام القائم في المعاملات، وهو الخافز الى الغارات والحروب والمنافسة بين المستغلين والمستعمرين.

ولم يكن سعد مستعمرًا رجعيًا ولا يائساً من بني الانسان ولا اشتراكيًا ولا قارئاً متبعاً لآراء الاشتراكيين ، ولكنه كان رجلاً مطبوعًا على نجدة الضعيف واغاثة المظلوم فلأ غرابة عنده في هذه العاطفة ، وكان قانو نيًّا يقدس القوانين والشرائع فلا غرابة لديه في التوسل بالتشريع وحقوق المعاهدات لفض المشاكل واصلاح الآفات ،

لذلك رحب بالدعوة الولسنية ولم يستبعد تحقيقها كما قال فيخطابه بمنزل حمد الباسل باشا: « من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل

من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا: حياة المزاحمة على البقاء والمغالبة على المنافع... نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه بمكن متى جد الدكتور و يلسون في تطبيقه بمحزمه المعروف · وأنه لجاد . بل ارتبي الى أن أقول إن تطبيقه سهل متى صحت نيات أكثرية الدول التي اقرته بالاجماع . ذلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما الف الانسان في الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الاخلاقية ، ثم هو متفق مع الافق الذي وصلت اليه الانسانية في تطورها الجديد ... »

وعلى هذه العقيدة كان يرجو الخير الكثير من الدعوة الولسنية ، وأقل مايحق له أن يرجوه أن لاتنقلب هذه الدعوة في إبان الصلح عونا للاقوياء على الضعفاء وعقبة في وجه المطالبين بالحقوق ، فكان أول مافكر فيه ساعة وصول الباخرة «كلدونيا » الى مارسليا أن أرسل الى الرئيس ويلسون يطلب منه الاذن في مقابلة خاصة للوفـــد المصري المطالب بحقوق الامة المصرية . فلم يحته الرد المنتظر من رسول السلام وإنما جاءه رد لم يكن يخطر على بال متفائل ولامتشائم . فان الولايات المتحدة اعترفت بالحماية البريطانية على مصر في اليوم التاسع عشر من شهر ابريل أي بعد وصول الوفد المصرى الى مرسيليا بيوم واحد ا

يحار الانسان ولايدري كيف استطاعت السياسة البريطانية أن تحمل ذلك الرسول المبشر بحقوق الضعفاء على نقض مبادئه رأساً على عقب، واستباحة الفصل في قضية لم تعرض عليه من جوانبها المختلفة ؛ ولكن ساسة الانجليز على مانظن قـــد ادخلوا في روعه أن المصريين أساءوا فهم دعوته وتشجعوا بها على الثورة وتهديد الحضارة والمصالح الاجنبية ، وأن كلمة منه تحقن الدماء وتعيد الامن الى قراره وتصون أرواح الاوربيين ومرافق العمران ، وأن ترك مصر عرضة للتنازع عليها بين الدول قد يجر العالم الى حرب كالحروب التي كان يتقيها ويبشر باجتنابها ، فبقاؤها في ظل الحماية أصون للسلام وأنني للحروب ، وربما وعدوه أن ينصفوا المصريين منى ثابوا الى السكينة واستعدوا للاصغاء الى صوت الحكمة والنظام .

وقد اهتمت الحكومة البريطانية بنشر اعتراف الرئيس ويلسون في مصر من دار الوكالة الاميركية ، فاذاعت دار المنسدوب البريطاني بلاغًا جاءها من همسون جاري وكيل الولايات المتحدة يقول فيه : « أتشرف بأن أقول إن حكومتي أمرتني أن أبلغكم أن رئيس الجمهورية يعسترف بالحماية البريطانية على القطر المصري وهي الحماية التي بسطتها حكومة جلالة الملك في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ . هذا وأن الرئيس باعترافه هذا يحفظ بالضرورة لنفسه حق البحث فيا بعد في تفاصيل هذا الاعتراف ، مع مسئلة تعديل حقوق الولايات المتحدة التعديل الذي يقتضيه هذا الأمر . وقد كلفت تعديل حقوق الولايات المتحدة التعديل الذي يقتضيه هذا الأمر . وقد كلفت المحلف على أماني الشعب المصرى المشروعة للحصول على قسط آخر من الحكم العطف على أماني الشعب المصرى المشروعة للحصول على قسط آخر من الحكم النتجاء الى العنف .»

وأن صيغة هذا التبليغ لتشف عن الغرض منه وعن المسعى الذي سعته الحكومة البريطانية عندالرئيس ويلسون لاقناعه بوجوبه . . . فباسم الامن وكراهه العنف ، وبعد الوعد بمنح المصريين قسطاً آخر من الاستقلال الداخلي ، ظفرت الحكومة البريطانية بذلك الاعتراف وبادرت الى اذاعته في مصر وأوبا و تعمدت أن تصدم به الوفد ساعة وصوله الى أوربا ليفت الحبر في عضده ويزعزع ملمنده من ثقة وأمل ، ويريه خيبة المسعى في معارضة القوة البريطانية حيث ذهب فكان تدبيرها في الافراج عن الوفد ولقائه بتلك الصدمة كتدبير السجان الذي يطلق أسيره ويرصد له على أبواب بتلك الصدمة كتدبير السجان الذي يطلق أسيره ويرصد والاستبشار .

لم تبالغ السياسة البريطانية كثيراً في وقع الصدمة المفاجئة على الوفد ساعة نزوله بالأرض الفرنسية وافترابه من محكمة العدل والحرية . فقد بدا لسعد أول وهلة أن العمل في أوربا لا يجدي ، وإن تركيز العمــل في مصر

أجدى وألزم . ولم يكن هذا ضعفاً ولا نكوصاً عن الكفاح لان مقاومة الانجليز في مصر تحت الاحكام العسكرية بعد الاعتراف بالحاية البريطانية اخطروأعضل من مقاومتهم فيأوربا على العاملين الجادين في المقاومة ... ولكنه كان رأياً رآه فيما هو أصلح للقضية المصرية على حسب ما تبين في خطواته الأولى بالبلاد الاوربية.

وقد لمس وقع الصدمة في نفوس فريق من زملائه فاذا هو أفدح وأقدح. فمنهم من كان قد دخل الوفد على تردد وريب في سلامة العاقبة ، ومنهم من كان يؤثر اللجوء الى الحكومة الانجليزية ويؤمن في قرارة نفسه باستحالة الغلبة عليها ، وقصارى ماطمعوا فيه من هوادتها أن تخشى بعض المعارضة أو بعض المنافسة من الدول الأخرى في مؤتمر الصلح فتغلق هذا الباب باستجابة بعض المطالب المصرية . فاذا بمؤتمر الصلح في قبضة يديها وعلى رأسه أكبر الدعاة إلى الحرية وأكبر القائلين بمشاورة الامم المغصوبة في تقرير مصيرها فمن البين إذن في رأيهم أن « مهمة الوفد » انتهت ولم يبق له ما يرجوه من المؤتمر ولا من الحكومات المشتركة فيه . وقد صرحوا برأيهم هذا وهموا بالعودة وأشاروا بها على زملائهم الآخرين .

وقد أرادت الحكومة البريطانية أن تتبع هذه الضربة بضربة أخرى تعجل بعمل التفكك والانخذال في صفوف الوفد والامة المصرية : فنشرت التيمس « اشاعة » ترجع فيها ارسال لجنة مستقلة الى القطر المصرى للبحث عن أسباب الهياج واقتراح الاصلاحات الدستورية التي يتسع بهما نطاق الحكومة الذاتية ، وتوقعت أن يصيب الخبر الوفيد في سمعته وعزيمته أن لم يصبه في تكوينه ووحدة رأيه : فاذا عاد بعض رجاله الى مصر وبتي بعضهم في أوربا فقد وقع الخلاف وهو بدء الانحلال ، وإذا عاد الوفد جميعه فقد ملكته هي ورجعت به الى قبضة يديها وعرضته لسخرية أبناء وطنه ، واذا بتي الوفد كله في أوربا فعندها فسحة من الوقت لارسال اللجنة الى مصر وسؤال

المصريين عن مطالبهم وشكاياتهم بمعزل عن وفدهم الذي يدعي الوكالة عنهم ... فتلغي وكالته وتلتي درسها الصادع على الوكيل ومن أوكلوه . وأي درس تشتهيه السياسة الاستعارية وتلقيه على الدعاة الوطنيين انجع وأوجع منأن تضرب الوفد المصري وتعاقبه هذه العقوبة القاصمة بيد الامة المصرية ؟

ومهما يكن من حساب الحكومة البريطانية فالشيء الذي لم تحسب حسابه كما ينبغي هو أثر السخرية في الطبيعة المصرية . فان المصري ليتقي السخرية الشد من اتقائه الضرر والخسارة ، وقد يستسلم الفجيعة ولكنه لا يستسلم للغفلة ، ولهذا كانت ضربتها للوفد المصري باعتراف ويلسون ضربة قوية بارعة ولكنها كانت خليقة أن تفشل بعد الصدمة الأولى لأنها سخرية تعرضه السخرية أخرى . ولو أنها ابطأت برهة ولم يكن فيها معنى الكمين المدبر والهزء المرتب في لحظة الانتصار والتفاؤل لكان رجاء الحكومه البربطانية في المرتب في لحظة الانتصار والتفاؤل لكان رجاء الحكومه البربطانية في نجاحها أصدق وأسرع . ولكنها كانت بمثابة الاستدراج الى كمين مضحك أو هملن مقلب ه مهين . . فجمعت لها الطبيعة المصرية كل ما عندها من الكراهة للسخرية ومقاومة الشهاتة المضحكة ، وهما في الطبيعة المصرية قوة تعتصم بها في الصرية ومقاومة الشهاتة المضحكة ، وهما في الطبيعة المصرية قوة تعتصم بها في أحرج الأوقات .

ولم يلبث سعد وأصحابه بعد الخاطرالاولأن أعادوا النظر في الامركله فوجدوا إن العمل في مصر قد يكون أولى وأصوب ولكن العودة الى مصر بعدكل هذه القيامة التي اقامتها الامة لتمكين الوفد من السفر هي خيبة أليمة لاتؤمن عقباها ، وقد تيئس الامة من رجائها وتشككها في دعاتها ، وتعمل بالتفرقة بين صفو فها .

ووجـــدوا كذلك ان البقاء في أوربا لايمنع تركيز العمل في مصر والاعتماد عليه في الدعاية الاوربية . وقد تنفع الدعاية الاوربية في تنبيه عزيمة الامة كلما احتاجت الى تنبيه .

ومن بداية الأمرلميكن رجاً. سعد كله معقوداً على الحـكومات والوسائل

الحكومية: اذا جاء الرجاء من هذا الباب فذاك خير واقر بسيلاً ، وإن لم يجيء فالشعوب من وراء الحكومات والطريق الى الشعوب مفتوح لمن يحسن ولوجه ويقوى على صعابه ، وهو القائل ان الشعب فوق الحكومة ، وهو الذي أن يسلم المطالب المصرية الى المندوب البريطاني والوزراء البريطانيين احتفاظاً بالجانب الاهم منها « لاستنارة » الرأي العام البريطاني الذي يخضع له المندوب والوزراء . وهو الذي عرف ان النائب في « الجمعية التشريعة » له المندوب والوزراء . وهو الذي عرف ان النائب في « الجمعية التشريعة » التي لاحقوق لها و لانفوذ لاحكامها يملك من سلاح الحجة والبيان ما يكافح به الوزارة و يكافح به جبار قصر الدبارة . فاذا حدث الآن ؟ هل حبط الرجاء في الوزارة و يكافح به جبار قصر الدبارة . فاذا حدث الآن ؟ هل حبط الرسماع مؤتمر الصلح و في و يلسون و في لويد جورج ؟ حسن . إن وراء هذه الاسماع أو وراء هذا المرجع مراجع : هناك الشعوب الاوربية ، وهناك شعب و يلسون قائل وسامع غير ماسمع ، و بالغ في احراج السياسة البريط انية مالم يبلغه رئيسه المخدوع بتلك السياسة .

يقولنيتشة : «كل مالم يقتلني يزيدني قوة » وهذه قولة تصدق على كل رجل كبير الهمة مطبوع على الكفاح . فضربة الاعتراف بالحاية كانت ضربة نافذة ولكنها لم تكن مميتة ، ومن ثم كانت ضربة حافزة للعناد مثيرة للنخوة نافعة في توطيد النفس على بعد الشقة .

قال: لويد . جورج. في كتابه عن مصر منذ كرومر: «لم تنفع الصدمة إلا في الحومة القناع زغلول اقناعاً جليئاً بأن العراك خليق أن يجري إلى مداه في الحومة المصرية. فوجه همه على الفور الى تلك الحومة ، وطفق يدير المعركة من مقامه بباريس ويبعث إلى أتباعه بمشجعات مموهة (؟!) ولكنها أخاذة باهرة بما تحدثهم عن الانصار الذين يستميلهم للقضية الوطنية ، والنجاح الذي يصيبه رجاله.

وقد أدار سعد المعركة في باريس على أنم وجه يستطيعه وفد من الوفود الشعبيه ، فإن الوفد المصري على اعتباره غريباً عن الأجناس الأوربية قداستطاع غاية فايستطاع من نشر الدعاية الى جانب مؤتمر الصلح . فكتب إلى المؤتمر يطاب استدعاءه لسماع أقواله لأن و الغاء السيادة التركية يقتضي حتما تغييراً في حالة مصر السياسية التي قررتها معاهدة سنة ١٨٤٠ ولا يصح إجراء هذا التغيير في غيبة المصريين » . واتصل الوفد بكل من تيسرت لهم مقابلته من رجال المؤتمر وأعضاء وفوده وكبار موظفيه ، وأقام الما دب للساسة والكتاب والصحفيين الأوربيين والأمريكيين ، ليشرح لهم الحوادث التي كانت تهملها والصحف ويريهم صور المظاهرات التي اشترك فيها السيدات ورجال الجيش وظهرت فيها الاعلام وعليها الصليب إلى جانب الهلال ، ويذكر لهم ما استفاده وظهرت فيها الاعلام وعليها الصليب إلى جانب الهلال ، ويذكر لهم ما استفاده الحلفاء من أموال مصر ورجالها عما كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه الحلفاء من أموال مصر ورجالها عما كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه الحلفاء من أموال مصر ورجالها عما كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه الحلفاء من أموال مصر ورجالها عما كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه ويوده و كبيه المعادة ويريهم صور ورجالها عما كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه الحلفاء من أموال مصر ورجالها عماكانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه ويوده و كبيه المها على كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه ويقيها المها على المها عله كانوا يجملونه ولا يعرفون خبراً عنه ويوده وكبيه المها على المها المها على المها على المها على المها على المها على المها على المها المها على المها المها على المها على المها المها على المها

وأقنعالوفد بعض مشاهير الكتّاب بكتابة رأيهم فيقضية مسر وحقوق أبنائها ، ومنهم فكتور مرجريت وأناتول فرانس ، فأصدر الآول رسالة في موضوع القضية المصرية وقدمها الثاني بكلمات وجيزة على سبيل التزكية.

واجتهد الوفد في اجتناب كل عمل يتيح للمستعمرين البريطانيين أن يتهموه كافعلوا من قبل بمشايعة دول الوسط أو النزوع الى المذاهب الفوضية والاشتراكية ، فلم يتصل بالمغفور له محمد بك فريد حين تلقى خطابه من سويسرة ، لما كان معروفاً من مقام فريد بك في ألمانيا وتركيا أثناء الحرب وبعدها . ولكنه اتصل بحميع المصريين المقيمين بفرنسا ، ولاسيما أعضاء الجمعية المصرية في باريس ، وكان لفريق من هؤلاء أثر نافع في بث الدعاية وتعريف الفرنسيين من جميع المذاهب بالوفد ومطالبه وصعوباته .

ولانسهب في تفصيل المقابلات والخطب والولائم واحدة واحدة ، لأن التفصيل لايزيد القاري. شيئاً على ماهو مفهوم بالاجمال ، وحسبنا أن نقول إن الوفد لم يدع في باريس ولا في مراكز الدعاية السياسية أحــــداً يؤبه

له إلا أبلغه مظلمة مصر ، وأوجز له الحالة التي مرت بالقــاري. في صفحات هذا الكتاب.

وكان المصريون في لندن ، ومعظمهم من الطلاب ، يعاونون الوفد كماعاونه زملاؤهم في العاصمة الفرنسية . فطبعوا الألوف من الرسائل وقابلوا النواب واستعانوا بالكتاب حتى ضاقت بهم الحكومة الانجليزية ذرعاً فدمر الشرطة مكان اجتماعهم وصادروا الأوراق التي فيه وظنوا أنهم قضوا عليها ، وكانوا سيقضون عليها فعلاً ، لولا أن الطلاب أخذوا بالحيطة فأعا دوا طبع الأوراق مماكان مدخراً عندهم من المحفوظات في مكان أمين .

وقد تجاهل الساسة الانجليز في باريس شأن الوفد المصري ماوسعهم أن يتجاهلوه . ولكنهم لم يحسنوا كتمان حنقهم في بعض الأمور التي تقضي بها اللياقة ، فلم يأت منهم من يرد الزيارة لسعد باشا حين ترك بطاقته للمستر لويد جورج كاردها بعض وزراء الدول الأخرى ، وتجاوزوا ذلك إلى عمل فيه من الصبيانية ماليس يليق بكبار الرجال . فقد روى أحد أعضاء الوفد فيه من الصبيانية ماليس يليق بكبار الرجال . فقد روى أحد أعضاء الوفد المصري أنهم أرسلوا مرة « مذكرة إلى الوفد البريطاني في مؤتمر السلام فردت اليهم ممزقة داخل غلاف وعليها عبارة قصيرة معناها : مثل هذه الأقوال لاتستحق الرد ... » (١)

وعلى الرغم من اعتراف الدول بالحماية فقد بدأت الحكومة البريطانية تشعر بالقلق بعسد أن اتجهت أنظار الوفد إلى نشر الدعاية في الولايات المتحدة وظهرت دلائل الاهتمام بالقضية المصرية بين ذوي النفوذمن الشيوخ الامريكيين ورجال الصحافة . . . حدث هذا دون أن يكون المرئيس ويلسون فضل فيه ، بل ربما كانت صدمته للوفد في باريس من أسباب اتجاه الوقد الى الامة الامريكية رأساً ليثير في هيئاتها الرسمية بهذه الوسيلة بعض العناية التي فاتته من رئيس الجهورية ومعاونيه في المؤتمر . فان أقصى ماصادفه

⁽١) البلاغ ٩ مارس سنة ١٩٣٤ في بيان للاستاذ محمد على علوبة باشا٠

الوفد من النجاح عند رئيس الجمهورية الامريكية أنه تلقى منه ردّاً على خطاب كتبه سعديطلب فيه المقابلة مرة أخرى ، فاذا هو يعتذر في رده لضيق الوقت ويرجو أن يتسع وقته في المستقبل للمقابلة المطلوبة!! وكان الوفد قدفهم أن استثارة « الرأي العام » في الولايات المتحدة لبحث القضية المصرية أمر مستطاع بعد ما أحسه من أثر الاخبار التي بعث بها المراسلون إلى صحف أمريكا ، وزاده أملاً في المزيد من الاهتمام أنه كان قدد استخدم بعض الايرلنديات والامريكيين في أعماله الكتابية ، فالتق هؤلا ، بالساسة الامريكيين الذين حضروا إلى باريس للدفاع عن استقلال ايرلندة وعرفوا منهم الرغبة الذين حضروا إلى باريس للدفاع عن استقلال ايرلندة وعرفوا منهم الرغبة في تشديد النكير على الاستعار البريطاني بذكر المسألة المصرية إلى جانب المسألة الارلندية ، ومن هؤلاء الساسة مستر « والش » رئيس الوفد ومستر « ريان » ومستر « دن » مساعداه .

وقد جرى الوفد المصريمن قبل على سنة ارسال البيانات والاحتجاجات إلى المجالس النيابية مع ارسالها إلى الوزراء وممثلي الحكومات ، فوجدت بياناته واجتماعاته في مجلس الشيوخ الامريكي صدى أقوى وأصرح مما وجدته في المجالس النيابية الاوربية .

فني جلسة الحادى والعشرين من شهر يونية اقترح الشيخ « ماسون » الاعتراف بالجمهو رية الارلندية فتصدى زميله مستر بوراه لفتح باب المسألة المصرية . وقال إن مصر تستحق الاستقلال كما تستحقه الأمم الشرقية والاوربية التي اعترف مؤتمر السلام باستقلالها ، فجددت هذه الحلة رجاء الوفد في تحريك قضيته من جانب الامة الامريكية وشيوخها ، وأرسل يشكر المستر بوراه و يبلغه « إن المصريين ليعتمدون اعتماداً تاماً على مساعدة الشعب الامريكي محب الحرية في تحقيق الآمال القوية لشعب حكم عليه بالاستعباد من غير أن يسمع دفاعه.»

وعاد المجلس إلى ذكر مصر بعد أيام فقام المستر «والش» واتهم الوفد

الامريكي في مؤتمر السلام بخيانة المسلم الذي غامر الامر تكون مدخول الحرب من أجله ، وقال ان الولايات المتحدة وبريطانيا العظمي إذا أرادتا أن تدلاعلى حسن النية فيجب علمما أن تتركا جز ائر الفاسين لأهل الفلسين وأرلندة للارلنديين ، وهناقام مستر « مكس كورك » وقال إن مصر أيضا بجب أن تكون لابنائها ، وأيده مستر بوراهسائلاً : لماذا يعترف، وتمر الصلح ببولونيا ورومانيا ويغض عن أراندة ولا يصغى إلى كوريا ومصركما أصغى لغيرها؟ فقال مسترشر مان « إن معاهدة الصلح إنما كتبت لخدمة المطامع البر يطانية» كانت هذه الأقوال من أشد ما قيل وقعاً في نفوس المستعمرين وفي نفوس المصريين على السواء؛ فأما المستعمرون فقد أوجسوا من عواقها في الولايات المتحدة وفي مصر نفسها ، وأما المصريون فقد شعروا بفضل الدعاية واستبشروا بماورا. ذلك من صدى الحمــــلة في الدوائر السياسية الامريكية والبريطانية، وتبين الوفد أن الدعامة في تلك البلاد تستحق منهأن يضاعف العنايةبها ويتابع اشهارها وترويجها ولا يتركماللمصادفة والمناسبات العارضة ، فانتهى بوساطة مستر « والش » إلى توكيل مستر جوزيف فولك في نشر الدعاية هناك ، وكان الاختيار موفقاً لأن الرجل بمن سبقت لهم الوكالة في القضايا السياسية الكبرى وسبقت لهم ولاية المناصب وعلاج المشكلات ، فهو ذو منزلة مرعية بين النواب والرؤساء ، وله علاقة منتظمة برجال الدولة وأصحاب الكلمة المسموعة·

وأوشكت الدعاية الحارجية لمصر أن تنحصر خــــلال تلك الفترة في الولايات المتحدة ، فعن لسعد أن يسافرالها مع بعض الاعضاء . ثم استقر الرأى على ايفاد محمد محمود باشا في هذه المهمة لمعرفته الانجايزية ، وتردد الوفد هنهة بين هــــذه الفكرة وفكرة أخرى كانت ترمي إلى سفر اثنين من الاعضاء إلى البلاد الانجايزية يدافعان عن مطالب المصريين ويبسطان ما أصابهم من المظالم إما بالخطب أو بالنشرات إذا احجمت الصحافة عن

اذاعة ما يكتبان ، ويفعلان ذلك باسميهما لا باسم الوفد أو باسم رئيسه ، ويعولان على الدعاية الشعبية دون الرجوع إلى الهيئات الرسمية التي اعرضت عن الوفد وتجاهلت شأنه ، وكان الوفد يحرص على اجتناب الهيئات الرسمية في انجلترا حتى تجيء المفاتحة من جانبها بعد أن قام هو بما بجب عليه من ايذانها بقصده ، ويقال إن رجال الحكومة الانجليزية وسطوا أناساً من سراة الاجانب المقيمين في مصر لتيسير مقابلة بين سعد ومستر بلفور الوزير الفيلسوف الانجليزي المعروف ، فلم تتم هذه المقابلة لرغبة الوفد عنها مالم تكن الدعوة صريحة من جانب القوم ، وتغلبت فكرة السفر إلى الولايات المتحدة على هذه الفكرة .

ولم يستطع محمد محمود باشا أن يصل الى أمريكا إلا في منتصف اكتوبر بعد مشقة في الحصول على جواز السفر لم تذلل الا بمساعدة مستر فولك وبعض الاصدقاء الاوربيين.

وقد كان مستر فولك في هذه الاثناء يوالي الكتابة الى الصحف ويبسط وجهة النظر المصرية بين يدي بجلس الشيوخ ولجانه المنوط بها بحث هذه الأمور. وأهم ما أثمرته جهوده تصريح صرحت فيه لجنة الشؤن الخارجية « ان مصر تعد من الوجهة السياسية غير خاضعة لانجلترا ولا لتركيا وانما يجب أن تكون مستقلة وزمامها بيدها » وخطاب ضاف ألقاه مستر بوراه عن مركز مصر السياسي والأطوار التي مربها قبل الاحتلال وبعده والفظائع التي أصابت أهلها في أثناء الحرب وبعد الهدنة ، على ما سلف من معونتهم للانجليز خاصة والحلفاء عامة .

فاهتمت المراجع البريطانية باخفاء ذلك جميعه عن المصريين وتهوين خطره عندهم ولاسيما تصريح لجنة الشئون الخارجية ، فان خبره لم يصل إلى مصر الامن رسالة برقية أرسلها سعد من باريس إلى لجنة الوفد المركزية في التاسع والعشرين من أغسطس، فكان له فيها ضجيج لم يفرح المصريين بمقدار ما أغضب الانجليز، وقد سعت المراجع الانجليزية سعيها حتى حملت الوكالة الامريكية بالقاهرة على إذاعة تكذيب مبهم تقول فيه إن الحبر خطأ ولا تعقبه بتصحيح من جانها 11

هذا فيمصر ، أمافيالو لا يات المتحدة نفسها فقد أزعج السفارة البريطانية فها ماأبصرته من أثر الدعاية المصرية واتساع نطاقه واشتماله على الكثيرين من المستمعين والأشياع ، فاضطر مستر رونالد لندسى القائم بأعمال السفارة في واشنطن — وقد كان يمصر أثناء الحرب العظمى — إلى مقابلة تلك الدعاية بكثير من المساعى الخفية والعلنية ، ومنها رد مفصل على سؤال مديّر كتبه إلى إحدى الصحف يغض فيه من معونة المصريين ويقول منه: ﴿ إِنَّ الحَكُومَةُ البريطانية قد عنيت بأن تتحاشى القضاء على السيادة المصرية ، وأن الجنود المصريين يعملون في ظل العلم المصري لا الانجليزي ، ولا ترفع الراية البريطانية إلا على دور السلطة العسكرية البريطانية وفما عدا هذا ترفع الراية المصرية الخاصة . ولو أني أردت أن أجيبك على سؤالك جوابًا لايخرج عن مدلول الالفاظ المحدودة لقلت إنه لم ينضو جندي مصري تحت الألوية البريطانية، ولكنه يكون بياناً ناقصاً ولا مراء، إذ أنه في فبراير سنة ١٩١٥ عند هجوم الجيش النركي على مصر اشتركت فرقة من المدفعية المصرية مع القوات البريطانية في الدفاع عن خط قناة السويس وكان هجوم العدو قبل هذه الفرقة التي أدارت مدافعها بمهارة وكفاءة فساعدت على رد العدو ، وفي اعتقادى أن الحسائر كانت اثنين من القتلي وستة من الجرحي . ولم تشترك في العمل خلال الحرب أية قوة مصرية أخرى مسلحة ، ولكن في الادوار الاخيرة من الحرب قامت ثلاث فرق مصرية أو أربع بحراسة خطوط المواصلات في سينا بينها كان الجنرال اللنبي يغزو سورية ، وحدث كذلك أن فصيلة مصرية كانت ببلاد الحجاز في وقت من الأوقات ، لكن هــذه

القوات جميعها لم تتعرض لنيران القتال . وفضلاً عن ذلك قد ضم عدد كبير من المصريين إلى فرقة العمال والنقل الملحقة بالقوات البريطانية ، وكانوا يستخدمون لمدة قصيرة بين ثلاثة أشهر وستة ، وقد قاموا لقوات الجنرال اللنبي بالإعمال اليدوية التي لاتستدعي خبرة فنية ، وبهذه الصفة كان ما أدوه من الحدمات عظيم القيمة لإنهم أتاحوا لعدد من الجنود الانجليزية أن يكونوا في خط القتال ولو لا ذلك لاستخدموا في ساقة الجيش ، ولست أستطيع أن أذكر عدد هؤلا، الرجال الذين ألحقوا بفرقة العمال ولكنهم بلغوا في بعض الأوقات من ثمانين إلى تسعين ألفاً ، وكان بعضهم يستهدفون للناروهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤن والذخائر بمقربة من خط القتال فأصابه معض الخسائر . وليس في وسعي أن أقول كم تبلغ هذه الحسائر على وجه التحقيق ولكني أعتقد أنها تبلغ في الجملة ألفاً وخمسائة بين قتيل وجريح في خلال سنوات الحرب الاربع.»

وعلى الرغم من محاولة السبك والدقة في ظاهر هذا البيان يرى القاري. أنه قابل لمخالفة الواقع في عدة مواضع ، لآن وصول العدد في الفوج الواحد من العمال إلى تسعين ألفاً لايمنع أنهم يبلغون المليون ويتجاوزونه في جميع الأفواج ، ولأن إحصاء القتلى والجرحى بألف وخمسمائة على وجه غير «وجه التحقيق » قد يفتح الباب لبلوغهم أضعاف ذلك على وجه التحقيق .

إلا أن مستر فولك لم يتوان في الرد على هذا البيان بعد مراجعة الوفد في باريس ، فكتب إلى وزير الحارجية بواشنطن خطابًا يلفت فيه النظر إلى العبارة التي وردت في سياق كلام المستر رو نالدلندسي عن تحاشي المساس بالسيادة المصرية لكي لايشق على الحكومة الامريكية الاعتراف باستقلال مصر عند بحث معاهدة الصلح في مجلس الامة ، وكتب إلى رئيس لجنة الشئون الحارجية خطابًا آخر ضمنه رد رئيس الوفد على بيان السفارة الانجليزية وفيه «أن مليوناً ومائتي ألف مصري جندوا لفرقة العمال وأن الجيش المصري نفسه

قاتل على قناة السويس وفي شـــبه جزيرة سينا. وفي الحجاز وحارب على ابن دينار في السودان، وأن خسائر عظيمة نزلت بفرقة العمال وعلى الأخص من فتك الأمراض.»

واستند مستر فوالك الى عبارة « السيادة المصرية » فطلب توكيد الاخلاص في المقصود منها بتصريح رسمي من الحكومة البريطانية تعلن فيه موعد الجلاء وتفوض الى عصبة الامم — بعد تأليفها — تقرير مركز مصر ، وتتخلى عن كل معارضة في تمثيل الدولة المصرية عند الدول الاجنبية ، وعن كل معارضة في سفر وكلاء الامة المصرية إلى الولايات المتحدة ·

ولم تزل المسألة المصرية تتردد على ألسنة الاعضاء في مجلس الشيوخ تارة من حزب الحكومة و تارة من حزب المعارضة حتى التفت اليها كثيرون من كانوا لا يسمعون بها، ووجدت الصحف مسوغاً لنشر الاخبار عنها وقبول المناقشة فيها، وأيقنت الحكومة البريطانية أن اطرادالدعاية على هذا المنوال كاف لاقلاقها و توقع المتاعب التي قد تضر بمصالحها كما تمس سمعتها، وان لم تعقبها نتيجة حاسمة في موقف الحكومة الأمريكية ·

* * *

أما الدعاية في باريس فقد كانت تنقطع حينًا و تتصل حينًا ، ويثابر الوفد في أكثر الأحيان على خطة الدعاية الشعبية . لانه علم أن النجاح فيها أقرب من النجاح في مخاطبة الحكومات والوزراء ، وطفق على الجلة يراسل المجالس النيابية وأقطاب الساسة وكبار الأدباء ويكتب إلى الصحف ويلقى من ذوي السكلمة المسموعة من يتيسر له لقاؤه ، وبحدد الاحتجاج والبيان كلما تجددت لذلك مناسبة من توقيع اتفاق أو عرض معاهدة أو وصول وفد أو غير ذلك ، فجرى ذكر الحماية البريطانية على مصر في أكثر من مجلس من المجالس الأوربية على نحو لا يبلغ في القوة والافاضة ماجرى في الولايات المتحدة ، ولكنه مع ضعفه واقتضابه أقاق الحكومة البريطانية وزاد مخاوفها المتحدة ، ولكنه مع ضعفه واقتضابه أقاق الحكومة البريطانية وزاد مخاوفها

من التمادي فيه إلى أن يدرك المصريون شأن الدعاية ونفاذ سلاحها تمام الادراك . ولعل أكبر ماحدث من دعاية الوفد في خلال هذه الفترة وليمته في ثاني أغسطس في فندق كلاردج بباريس ، وهي الوليمة التي خطب فيها وزير سابق للبحرية الفرنسية وحضرها الكاتب المشهور فكتور مرجريت ، وتليت فيها كلمة من أناتول فرانس ، وأجاب الدعوة اليها عدا هؤلاء بعض الشيوخ والنواب والصحفيين من أمم كثيرة .

هذه الحركة التي كانت تؤذن بالاستفاضة والاتقان على تعاقب الآيام قد أفهمت الساسة الانجليز أن « التجاهل » سياسة لا تفيد إلى زمن بعيد ، وانه لابد من « شيء » تعمله في هذه الحالة غير الاستخفاف الظاهر وطول البال ، ولكنها لم تقصد الى ارضاء المصريين بمقدار ماقصدت الى الحنلاص من الوفد وتفريق شمله بين الآراء المتضاربة والمذاهب المتعارضة ، فعجلت بايفاد لجنة التحقيق برئاسة اللورد ملنر الى القطر المصري لسؤال المصريين عن مطالبهم وتقرير نظام الحكم الذي يحكمون به في ظل الحماية ، ودعاها الى التعجيل بارسالها غير ماتقدم سببان آخران : « أحدهما » ان رؤساء الوفد في القاهرة أعلنوا العزم على مقاطعتها إذا هي حضرت في تلك الظروف ، لان في اللجنة تريد المفاوضة على أساس الحماية و تستفتي البلاد وهي في قبضة الأحكام العرفية ، وتدعي لحكومتها الحق في نظر الشكايات المصرية كانها صاحبة السيادة على البلاد .

وقد شعر محمد سعيد باشا — رئيس الوزارة يومئذ — باجماع الأمة على مقاطعة اللجنة فنصح للورد اللنبي بارجاء ارسالها انتظاراً للفراغ من عقد معاهدة الصلح مع الحكومة التركية ووضوح مركز مصر السياسي من حيث علاقتها بالدولة البريطانية ، فلم يشأ اللورد اللنبي أن يصغي إلى هذه النصيحة مخافةأن يتهم بالضعف والتراجع أمام صيحة المقاطعة العامة من اللجان الوفدية . والسبب الآخر الذي دعا إلى تعجيل الحكومة البريطانية بايفاد اللجنة

في تلك الآونة أنها علمت ببوادر التفكك التي أصابت بعض أعضاء الوفد في الريس، وقد عاد فعلاً بعض هؤلاء الاعضاء الى الاسكندرية في الثاني عشر من شهر أغسطس وهم اسماعيل صدقي باشا وحسين واصف باشا ومحود أبو النصر بك، واذاعت لجنة الوفد في السادس والعشرين منه أن علي شعراوي باشا قادم لاعمال خاصة باذن من رئيس الوفد وزملائه، وعاد قبل ذلك آخرون لاسباب من هذا القبيل. فحسبت الحكومة البريطانية أن الفرصة سانحة للفصل بين الوفد والامة أو لتمزيق شمل الوفد وتشجيع المترددين من أعضائه على تركه، ورجح عندها هذا الحسبان أنها علمت بما شاع عن آراء الاعضاء العائدين وأنهم يتشككون في نجاح مسعى الوفد الاهفاقهم من مهاجمة الحكومة البريطانية بالدعاية الاجنية وإيثارهم أن تكون الدعاية في انجلترا وعلى رضى من رجالها الرسميين ، فطمعت في توسيع مسافة الخلف، وبث الغواية من طريق اللجنة الملنرية، وما عسى أن تشير به من تحويل النظم والمناصب ، وتقريب الآمال والرغائب.

من سفر الوفد الى لجنة ملنر

استدعت الحكومة البريطانية السيرريجنالد ونجت توطئة لاقالته من منصبه في دار الحماية وهو الرجل الذي أحسن لها النصيحة في قبول سفر الوزيرين المصريين إلى العاصمة البريطانية وعادت هي إلى رأيه بعد فوات الاوان.

واستبدلت به المارشال اللنبي فاتح القدس لأنها حسبت أنها تروع المصريين بهيبته العسكرية ، وهو خطأ غريب في تقهدير الحالة وجمود على أساليب التخويف الدارجة بغير معنى . لأن مظاهر الهيبة العسكرية والسطوة الحربية كانت كثيرة على مسمع ومبصر من المصريين أثناء الحرب العظمى ، لايرون في بلادهم من الحكم الانجليزي الا المدافع والدبابات والجنود تغدو وتروح في الحواضر والقرى بغشرات الألوف ، فاذا كانوا قد ثاروا وهم على هذه الحالة وجاءت ثورتهم على اعقاب انتصار الدولة البريطانية في الحرب العظمى فاكانت الثورة اذن لانهم كانوا في حاجة إلى مذكر بالهيبة العسكرية والسطوة الحربية ، وماكان اسم المارشال اللنبي عندهم إلا كاسم كل قائد في الميادين البعيدة أو القريبة ، بل هم كانوا يسمعون بغيره من قادة الميادين البعيدة سنوات قبل أن يسمعوا به في غزوة فلسطين .

جاء المرشال اللنبي إلى مصر وهو يقدر أن الرهبة من اسمه فوق كلكلام وتفكير ، وأنه لاخوف اذن من اتهامه بالضعف إذا هو تواضع إلى سماع الشكايات ومخاطبة الشعب بلسان رجاله ، فخاطب المصريين باسم الشيوخ ورجال الدين كما خاطبهم باسم الوزراء والكبراء ، وصدرت النصيحة المطلوبة من هؤلاء وهؤلاء يحضونهم على السكينة والاستقرار وانتظار ما يقضي به ولاة الامور ، فلم يكن لها من أثر كبيرولا صغير ، لان الشعب لم يفهم من نصائحهم الا أنهم مضطرون أو أنهم متهمون في اخلاصهم إن لم يكونوا ، هنطرين .

وقدوقفنا بالقارى من حوادث الثورة المصرية وأحوال الحكومة في مصرعلى استقالة الوزارة الرشدية لرفض الحكومة البريطانية سفر الوفد إلى أوربا .

فلما سافر الوفد عادت الوزارة الرشدية في التاسع من ابريل ، ولكنها لم تلبث قليلاً حتى استقالت لانهاشعرت بالحرج من مطالب الضباط والموظفين وهي معبرة عن مطالب المصريين أجمعين . فطلب الضباط الوطنيون أن تسند الحراسة في المياذين العامة إلى أناس لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون عاداتها كثيراً مما جر الى ازهاق الارواح بغير موجب حتى من وجهة النظر البريطانية . كما حدث حين أطلق الرصاص على المصلين الخارجين من المسجد أو على المنظاهرين ابتهاجاً بالافراج عن الزعاء .

وألف الموظفون لجنة من اثنين وثلاثين عضواً لمخاطبة الوزارة في المطالب السياسية التي لا يتعرض لها الضباط ، وهي التصريح بصفة الوفد الرسمية وأن قبول الوزارة الحكم لايفيد الاعتراف بالحماية ، والافراج عن المعتقلين مع أبطال الاحكام العرفية .

وجاءت الوفود تترى إلى ديوان الوزارة تعزز هذه المطالب وتلح في قبولها. وعم الاضراب الموظفين وأصحاب الاعمال الحرة انتظاراً لتحقيقها. فاستقالت الوزارة ولما ينقض عليها اسبوعان ، لتعذر التوفيق بين مطالب الشعب والموظفين وارادة السلطة العسكرية .

وقد انذر القائد العــام الموظفين بالفصل إن لم يعودوا إلى دواوينهم وتوعدهم بالمحاكمة العسكرية إن حرضوا على الاضراب ، فعاد منهم فريق وقبضت السلطة العسكرية على زعمائهم الذين لم يعودوا في الموعد المحدود

وفي الحادي والعشرين من إبريل ألف محمد سعيد باشا الوزارة وصرح لمندوبي الصحف يوم تأليفها « أنها وزارة إدارية » لا تبت في شي،له مساس بمركز مصر السياسي . . . وليست لها صبغة سياسية لان المسألة المصرية لم يبت فيها بعد في مؤتمر الصلح ، وأنها ستجتهد في استدعاء الجمعية التشريعية والغاء الاحكام الاستثنائية ، ومنها قانون المطبوعات .

فهو — بهذه الحيلة — يريح نفسه من المطالب السياسية ولا يصادم الأمة في أمل من آمالها ، ثم هو يستبقي دعوة الحزب الوطني إلى وقت الحاجة لأنه الحزب الذي يعتمد على حقوق السيادة التركية في دعوته الوطنية ، ثم هو يدافع لجنة التحقيق البريطانية بهذه الحجة إلى أقصى أمد ميسور ، حتى إذا جاءت بعد اعتراف الدولة التركية بالحماية البريطانية كما كان منظوراً بين جميع العارفين استطاع أن يسوس الأمر بغير مشقة مع أمة أشرفت على اليأس ونفضت يديما من جميع الدول ، ووفد بدا فشله للامة . . وحزب وطني لم يبق له ما يتعلل به من السيادة التركية ولكن بتي له من المنافسة للوفد ما يحفزه لحربه ويطمعه في الغلبة عليه ، وقد ظهرت اللامة هزيمته وإخفاقه .

وأقبل سعيد ــ بمثل هذا الدها. ــ على علاج المشكلات التي خلفتها

الحماية والثورة لوزارته ، فاجتهد في إقناع الانجليز بتجويل قضايا الوطنيين من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية ، فاقتنعوا لأنهم يضمنون من صداقته لهم وإخلاصه في النصح أنه على الأقل عدو الوفد المصري ورئيسه.

وتشفع في تخفيف بعض الاحكام الصارمة فقبلت شفاعته ، ورفع شيئًا من الضغط عن الصحافة والخطابة ، واستهال اليه الموظفين باغداق العلاوات عليهم وزيادة مرتباتهم حتى بلغت مثلها .

غير أن الناس كانوا يستريبون بنيانه وينظرون إلى هذه الأعمال كأنها مخدرات ترمي إلى تهدئة النفوس واضعاف الحركة الوطنية ، فأوغرت من صحدور الناس عليه أكثر بما جذبتهم اليه ، ونقم الغلاة منه قبول الوزارة وتهيئة الخواطر للرضى بالحالة القائمة . فئار بعضهم عليه ورماه أحدهم بقنبلة لم تصبه ، وبلغ من كياسة الرجل أنه ذهب الى المحكمة يؤدي شهادته فطلب الرحمة بالمعتدي عليه لأنه أنما اجترح فعلته بدافع من عقيدة خاطئة غلبته على صوابه .

واستمرت العلاقات بينه وبين المارشال اللنبي على وفاق الى أن اختلفا في مسألة لجنة ملنر ذلك الاختلاف النموذجي لكل اختلاف بين تفكير العسكري و تفكير الوزير المحنك من المدرسة التركية . فاللورد اللنبي يرى ان امتعاض المصريين من قدوم اللجنة الى بلادهم سبب كاف لتعجيل قدومها 11 وان اقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لاحساب لها ولا اكتراث بها هو المقدمة الصالحة لجيء اللجنة التي كانت مهمتها الأولى ارضاء تلك العواطف والبحث عن تلك المطالب ا فاكراه الناس على قبول الأوامر هو المهم في السياسة العسكرية سواء نجحت اللجنة أو لم تنجح ، وعلى اللجنة وعلى المصريين بعد ذلك العفاء ورئيس الوزارة يرى كما علمنا مما سلف أن لا تحضر اللجنة قبل الفراغ من ورئيس الوزارة يرى كما علمنا مما سلف أن لا تحضر اللجنة قبل الفراغ من حل القضية المصرية بين الدولة العثمانية صاحبة السيادة والدولة البريطانية وهو رأي له فيمته من الدهاء والحصافة ولكن لاقيمة له الى جانب الأوامر

البسكرية 1..... وقد اختلف القـائد والوزير فلا محيص اذن من أن يستقيل الوزير.

استقال سعيدباشا وخلفه يوسف وهبه باشا في الحادي والعشرين من نوفمبر فجرى على د السنة الادارية ، التي استنها سلفه ، والتزم الحيدة مع اللجنة المقبلة فلم يتخذ له موقفاً معها أو عليها · ولكنه لم يستطع أن يمنع بعض الرؤساء الانجليز من تكوين حزب مصطنع من المنبوذين وطلاب المنافع الذين لاخلاق لهم ، أسماه الحزب المستقل الحر وأعده للقاء اللجنة ومداراة المقاطعة الاجماعية التي ستلقاها . ولم يفلح في هذه المحاولة على الرغم مما بذل فيها من المصروفات السرية والغوايات المختلفة .

أما اللجنة التي تفاقم حولها هذا الخلاف فقدوصلت في السابع من ديسمبر وهي محوطة بسوء الطالع من كل مطلع . وكانت ممثلة لجميع الاحزاب الانجليزية ومؤلفة من رجال قسديرين مشهو دلهم بمعرفة الشئون المصرية والمسائل السياسية عامة ، وهم اللورد ملنر وزير المستعمرات ، والسير رنل رود سفير انجلترا السابق في روما ، والقائد السير جون مكسويل الذي كان بمصر في أوائل الحرب العظمى ، والسير اوين توماس الخبير بمسائل الري ، والمستر سبندر الحكاتب الصحفي المعروف ، والسير سسل هرست الحجة في القانون الدولى ، ومعظمهم من عرفوا مصر بالخبرة والاطلاع .

لكنهم حضروا والفشل يسبقهم ، والصدورموغرة بما توالى على الناس من دواعي الكراهية والنفور ، ووظيفة رئيسهم توحي إلى الناس أنه سيجعل مصر إحدى المستعمرات البريطانية .

وقبل أن ينقضي على اللجنة أسبوعان أو نحو أسبوعين سرى في مصر نبأ القرار الذي اعتمده نواب الولايات المتحدة وهو رفض المعاهدة التي وقعها الرئيس ويلسون . فبدلاً من أن تجيء اللجنةو تركيا معترفة بالمعاهدات كاكان يريد محمد سعيد ، جاءت والولايات المتحدة ـــ وهي قبلة أنظار العالم

في ذلك العهد ... تنقضها وتفتح الرجاء لأبطالها وتحقيق آمال الشعوب المخذولة فيها .

وما استقرت اللجنة أياما حتى أحست أنها في حصار محكم من المقاطعة الاجماعية لا يتخلله منفد الى لقاء أحد يجديها لقاؤه ؛ ورأى اللورد ملنر من روح الوطنية المصرية غير ماكان يعهده في أيامه السالفة بمصركا قال لبعض أصحابه . فلجأ الى الملاينة والمصانعة ، وحاول أن يفسر غرض اللجنة تفسيراً يحافظ به على الحدود التي رسمتها الحكومة البريطانية و يجتنب في ظاهره الكلمات المثيرة التي تنفر المصريين واخصها ذكر الحماية ، فنشر على الناس في التاسع والعشرين من ديسمبر بيانا قال فيه :

و أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من بحيثها هو حرمان مصر من الحقوق التي كانت لها الى الآن ، ولا أساس على الاطلاق لهذا الاعتقاد فإن اللجنة أو فدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطاني لاجل التوفيق بين أماني الامة المصرية والمصالح الخاصة لبريطانيا العظمى في مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة التي لجميع الاجانب القاطنين في البلاد . وضى على يقين من أنه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية بين الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة في أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على انفاق ودي يزيل أسباب المعلمة تريد اللجنة أن تقف على كل الآراء ، سواء صدرت من هيئات البلاد في ظل أنظمة دستورية و Self Coverning Institutionss » و تنفيذا البلاد في ظل أنظمة دستورية و Self Coverning العلام ، ويمكن ابداء كل رأي غرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة في تقييد حدود المناقشة كما أنه لا يخشى أي بحرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة في تقييد حدود المناقشة كما أنه لا يعد منازلاً عن معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة و بعارف المتجلة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة و بعد السماحة و بغير الصراحة و بعد المناقشة به بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة و بعد المياه المعروب المعر

التامة في المناقشة يصعب وضع حد لسو. التفاهم والوصول الى الاتفاقي» ويلاحظ القاري. أن اللجنة ترجمت العبارة الانجليزية Self Governing بالانظمة الدستورية وهي ترجمة غير دقيقة ، صححناها في صحيفة الاهرام يومئذ بترجمتها الحرفية وهي أنظمة «حكم ذاتي.»

ولوحظ هــــذا الاختلاف في النرجمة فكان له شأن في اختلاف الرأي بين خطة سعد وخطة عدلي وأصحابه بمصر حيال اللجنة . فقد قال عدلى في خطاب له الى سعد مكتوب في التاسع والعشرين من يناير : « رأينا قبل عمل أي شي. أن نعجل بالكتابة لتوضيح نقطة هامة كان لها بحق أثر كبير في قراركم الذي اتخذتموه . وهذه النقطة هي مافهمتموه من أن بلاغ اللجنة ضيق الغاية من المناقشة فجعلها (وضع نظام حكومي في حدود الحسكم الذاتي) مما جعلكم تعتقدون أنه مع هذا التحديد لاتنتقل المسألة المصرية من مركزها فلا ترتفع به الحماية بل تتأكد . والواقع انه حصلت بيننا وبين اللورد ملنر مناقشة في هذا الموضوع وأكد لنا أن النص الانكليزي ليس معناه الحكم الذاتيالذي يعبر عنه بـ Self Government بل معناها لحكومة الدستوريةُ وان الغرض من ذكر هذه العبارة في البلاغ بيان ان الحكومة الانكليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة حكومة لاتكون ذات نظام دستورى ، وكذلك كانت الترجمه العربية الرسمية وفق هذا التفسير ، ولولا هذا لكانت أحاديثنا مبنية علىغير أساس ، ولما جاز لنا أن ننقلها اليكم ونستنتج منها مااستنتجناه.» والقرار الذي اتخذه سعد وأشار اليـه عدلي في الخطاب المتقدم هو قراره الذي نشره في بلاغ بعث به الى مصر عقب نشر اللجنة بيانها وقال فه مانصه: ـــ

« يحاول الأقويا. بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضا. بحمايتهم ليزدادوا قوة ويزيدوكم ضعفاً ، فلا تنخدعوا إذا وعدوكم ولا تخافوا إذا هددوكم ، واثبتوا على التمسك بحقـكم في الاستقلال التام فهو أمضى سلاح في أيديكم وأقوى حجة لكم ، فان لم تفعلوا — وليس في قوة ايمانكم الوطني مايجعل احتمالاً لذلك — خذلتم نصراءكم وأهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم وأنكرتم حاضركم ومددتم للرق أعناقكم وحنيتم للذل ظهوركم وأنزلتم بأمتكم ذلاً لا يرفع منه عز ، وان تفعلوا — كما هو أكبرظني في عظيم اخلاصكم ومتين اتحادكم وقوة وطنيتكم — فقد استبقيتم لأنفسكم قوة الحق وأعددتم لنصر تكم قوة العدل . فلا تذلوا وإن قهرتم ، ولاتخشوا وان ظلم ، ولابد من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم ، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، يعلو فيه حقكم على باطل غيركم ، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، وتتحقق باذن الآله القدير آمالي وآمالكم في الاستقلال التام ،

وصل هذا البلاغ الى مصر ونشر في صحفها عند منتصف يناير، وكانت لجنة الوفد المركزية قد أعلنت بلاغاً في معناه عقيب صدور البيان المتقدم من لجنة ملنر، وتعاقب على أثره صدور البلاغات في هذا المعنى من ذوي الشأن والرأي وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء، وأيقنت اللجنة للجنة ملنر أبدين لارجاء في الاتصال بينها وبين الأمة المصرية على قاعدة البيان الجديد، لأن هذا البيان لم يغير من الامر شيئاً، ولان الأمة لاترى لهامصلحة في تجاهل وفدها النائب عنها في قضيتها كاترى السياسة الانجليزية المصلحة في هذا التجاهل أو النائب عنها في قضيتها كاترى السياسة الانجليزية المصلحة في هذا التجاهل أو القناعة بما عندها من وسيلة لاستطلاع الآراء هنا وهناك وزيارة بعض أعضائها لبعض أصحابهم الذين كانوا يعرفونهم من سراة المصريين في القاهرة أو الريف، وشاع بين أبناء الريف أن أعضاء اللجنة الملذية يطوفون البلاد أو الريف، وشاع بين أبناء الريف أن أعضاء اللجنة الملذية يطوفون البلاد خفية فأصبحوا يستريبون بكل سؤال يلقيه عليهم أجنبي غير معروف، ورويت في ذلك أحاديث شتى تدخل في باب الملح والطرائف ولكنها تدل في الوقت نفسه على الجد في كراهة الحاية وحب الاستقلال والوفاء لزعيم في الوقت نفسه على الجد في كراهة الحاية وحب الاستقلال والوفاء لزعيم

الوفد والحذر من حيل الاستعمار . فكان الفلاح الساذج اذا سأله أجنبي لا يعرفه : أين الطريق؟ بدر الى ذهنه انه عضو مر . أعضاء اللجنة يتخنى لاختلاس الآراء والآجوبة بغير علم الوفد فأجابه على الفور : عليك بسعد في باريس يخبرك أين الطريق؟ واذا سأله : هل لك أولاد؟ أو سأله : كم أجرك في اليوم؟ لم يزد على أن يحيله إلى سعد في باريس فهو أعلم بالجواب! ولا يبعد أن يكون أعضاء اللجنة الذين اختلفوا الى الآقاليم قد صادفوا شيئاً من هذه الآجوبة وعرفوا من دلالتها السياسية ماهو أدل وأجلى مما كانوا مقصدونه ما لتحقيق والسؤال.

ولا ينبغي أن ننسى أن أناساً من الداعين الى مقاطعة اللجنة قد تشعبت بواعثهم ونياتهم فلم يكونوا جميعاً على نية الامة في تأييد الوفد ورعاية حق نيابته أو صون كرامته عن مهانة التجاهل الذي قصدته الحكومة البريطانية ، فكان بمن اتخذوا المقاطعة اناس اتخذوها احباطاً لكل مفاوضة يجريها الوفد في الحاضر والمستقبل ، ومنهم خصوم له كانوا يرضون باليسير في حل القضية المصرية ولا يطمعون في استقلال تام ولا ناقص ، ولكنهم يصطنعون الغلو ويؤثرون التصعيب وتوسيع المسافة بين طرفي الاتفاق لاعتقادهم ان كل شرط يوضع للمفاوضة المقبلة انما هو عقبة في طريق الوفد دون غيره من الرجال الرسميين به فان هؤلاء الرجال الرسميين لا يلقون اعتمادهم كله على الثقة القوميسة و المبادي، السياسية ، بل يلقون أكثر اعتمادهم على قوة الحكومة ، ومن ورائها قوة الاحتلال .

أما الوزراء الذين كانوا معروفين يومئذ باسم أصدقاء الوفد ـــ وهم رشدي وعدلي وثروت ـــ فقد أخذوا بالحيطة فلم يغضبوا الوفد ولم يغضبوا اللجنة ، وكتبوا في السابع من يناير خطابًا إلى سعد يقترحون فيه عليه أن يعود هو وأصحابه إلى القاهرة لمفاوضة اللورد ملنر بعد الوعود التي أفضى بها اليهم

ولاتخرج عن معنى البيان المتقدم ، فلما أجاب الوفد بامتناع ذلك لأن بيان ملار يحصر الغرض من المفاوضة في الحكم الذاتي أجابوه بما أسلفناه من تفسير كلمة « الحكم الذاتي » كما جاءت في الصيغة الانجليزية وقالوا إن اللورد ملنر لا يرى مانعاً من دخول الوفد المفاوضة على أساس الاستقلال التام ، وان كان هو لا يستطيع الجهر بهذا الاساس ولا يزال يرجو بعد تمام المفاوضة أن يحسن « للرأي العام الانجليزي » قبول ما ليس يقبله الآن ،

وقد بسط سعد تفصيل رأيه في بيان رد به على التقرير الذي جامه من لجنةالوفد المركزية مع علي ماهر بك، وفيه يقول « بتاريخ الحادي والعشرين من يناس:

«... إننا لم نجد في بلاغ ملنر شيئاً يخالف التصريحات السابقة عليه إلا خلوه من لفظ الحماية وحسن اسلوبه · أما في الجوهر فقد وجدناه متفقاً معها تمام الاتفاق إذهو مثلها يعتبر مصر تابعة لانكلترا ، ولجنة ملنر لجنة تحقيق : موقف المصريين معها موقف المحيب من المستجوب ، وغاية ابحائها الوصول إلى وضع نظام حكوي في دائرة الحمم الذاتي · ونحن لا نعترف بشيء من ذلك ، فلا تبعية لانكلترا علينا ولا نعرف لهدنه اللجنة سلطة التحقيق في بلادنا ، والغاية التي نسعى اليها هي التمتع بجميع حقنا في الاستقلال التام . نظم ان هذا البلاغ وسع مجال المناقشة ولكنه ضيق الغاية منها فجعلها وضع نظام حكوي في حدود الحكم الذاتي ، وبذلك هدم يبد ما بناه باليد الآخرى ، وزاد ان اشترط عدم ترتيب الالتزام على هذا التوسيع فحفظ بهذا الاشتراط نفسه حرية العمل وهو تحديد الغاية الذي لا ينقل المسألة من مركزها ، فلا ترتفع به حماية بل تتأكد ، ولا يتم به استقلال بل يقل ، ولا يفيد إلا شيئاً واحداً وهو تسهيل مأمورية التحقيق على اللجنة . وماكان للمصريين أن يعرفوا لها هذه الصفة ولا أن يسهلوا لها هذه المأمورية · وأكبر ما تعطيه أو تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم وشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم و تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم و تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم

وضد اجماعهم بأن استعملت كل وسائل الشدة معهم تمهيداً لوصولها وشكلت وزارة لم يرض الرأي العام بها .

« ان عودة الوفد أو بعض أعضائه على أثر هـذا البلاغ لم يخطر ببالنا للاعتبارات السالف ذكرها ، ولأن الانكليز لا يتأخرون ان يتخذوا منها حجة علىفوز سياستهم ويبنون عليها كثيراً منالاقوال التي ينشرونها لتضليل الرأي العام في أوروبا عمومًا وانكلترا خصوصًا . ربما كَان يسهل علينا أن نتعرض لمثل هذا الخطر ونعجل لهم ذلك الفوز لو أنهم وعدونا بشيء في مقابلته وعداً صريحًا يصح الاعتماد عليه . ولكنهم لم يفعلوا ، وليس لنا أن نتوهم أنهم سيفعلونه بعد عودتنا على غير وعد سابق. لو أنهم مع توسيع مجال المناقشة أطلقوا الغاية منها لصح لنا أن نتعشم أن نقنعهم بالبرهان الصادق والحجة الدامغة بصحة مطالبنا ، ولـكنهم حدّدوها بمادون مانطلب حتى فيذلك البلاغ الذي نشروه بقصد استرضائنا . فكان مثلهم فيذلك مثل بعض القوانين الألمانية القديمة التي كانت تقضى بسماع الشهود بعد الحكم في الدعوى، ولهذا رأينا أن العودة ارتكانًا على البلاغ المذكور لا تكون إلا عبثاً مقروناً بالخفة والمخاطرة. ويصح للانكليز وغيرهم أن يقولوا إنه كني أن يغير شكل التصريح وأن يؤتى ببعض العبارات الطلية في أن تغير الامة المصرية بتمامها خطتها نحو اللجنة فتخرج من مقاطعتها إلى المفاوضة معها كلاً ! إننا لم نبلغ إلى هذا الحد منالبساطة والسذاجة : ان المسألة أكبر بكثير من أن يكون لاختلاف الصور والاشكال تأثير فيها . إننا نقبل العودة للمفاوضة على شرط أن تكون بين متعادلين فيحقوق المنافشة وطرفين كل منهما يمثل أمة ، وأن يكون الغرض منها الوصول إلى عقد معاهدة تضمن لمصر استقلالها النيام ولانجلترا مصالحها التي لا تتعارض مع هــــذا الاستقلال التام ، وأن تعترف الدول بهــذه المعاهدة وتسجل في عصبة الامم . فاذا صرح الانجليز بذلك رسميًّا هنالك لا نتأخر عن العودة لمباشرة المفاوضة متى ألغيت الاحكام العرفية وضمنت لنا العودة لمباشرة أعمالنا عند ما نريد . أما المفاوضة في أوروبا فنحن مستعدون لها مع لجنة ملنر أو غيرها ما دامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها التزام بشي. ما . وما دام أن العبرة بما يتم عليه الاتفاق في حدود التفويض لنا ، فاذا كان الانكليز يرغبون حقيقة في ودنا وفي بناء علاقتهم على الاتفاق معنا فلاشي. أسهل عليهم من اتباع إحدى هاتين الطريقين للوصول الى الغاية . وهم لابد أن يفهموا أن الامة المصرية وصلت من اليقظة والانتباه ومعرفة حقوقها إلى درجة لاتركن معها الى الاقوال ولاتعتمد فيها الاعلى الاعمال ولاترضى عن استقلالها التام بدليلاً . نعم إن في قوتهم ارغامهاعلىالنظام الذي يريدون وضعه فيها ، وقد لا يبعد عليهم أن يحملوا كل الدول على الاعتراف بحمايتهم علينا . ولكن حقنا لايضيع بهذا الارغام ولا بهذا الاعتراف . بل يبق ثابتًا حيًّا ونبقى مستمرين على المطالبة به والسعى للحصول عليه ، واذا لم يكن في الحكومات الاجنبية الآن من يمد يد المساعدة الينا فني شعوبها كثيرمن الأحرار يعطفون علينا وينتصرون لقضيتنا بأقلامهم وخطبهم ، وما يدرينا أن يظهر غداً المساعد لنــا ؟ وللزمان تقلبات تجعل الحليف عدواً والعدوّ حليفًا . و لا يصح أن نسقط من حسابنا اتساع ملك بريطانيا وتباعد أطرافه واضطراب الاحوال في ممتلكاتها وجوارها وانتشار المبادي. الديمقراطية في العالم عموماً وفيها خصوصاً ، وتهديد حزب العمال لحكوماتها بالاستيلا عليها وقربه من هذه الغاية يومًا فيومًا كما تؤيده الانتخابات الجزئيـة والاعتصابات التيكثر تواليها في هذه الآيام .كل هذا يجعلنا أن لانغامر بحقنا وأن نبقى متشددين في التمسك به ومقاطعين للجنة التي حضرت رغم أنوفنا لحملما على الرضا بانقاصه حتى تعود خائبة فتعلم الامة الانجليزية ويعلم العالم أن مصر متحدة تمام الاتحاد على الوصول الى استقلالها التام ، وان إرادتها . على ما تكره مخالف لشرف الوعود التي بذلتها انكلترا ومناقض للعمودالتي سجلتها وغير منطبق على المبادى. التي قبلتها ومكدرعلى الدوام لسلمها ومقلق لراحتها، وان خير سياسة تتبعها هي أن تبر بوعودها و تتخذ من مصر حليفة صادقة لها لا تابعة نافرة منها تترقب الفرص دائماً للخروج عليها و تفضل الموت على الاستسلام لها . . . »

هذا يان مفصل برأي سعد في احتمالات الحالة من جميع أطرافها ، ومنه نعلم لماذا كان على خلاف رأي الوزراء — الأصدقاء — في العودة إلى القاهرة لمفاوضة ملنر ، ونعلم أنه لم يكن يرفض المفاوضة إذا جرت في أوربا لانها لا تكون هناك بمثابة تحقيق تجريه الدولة المتبوعة في بلاد رعاياها ، فضلاً عما فيها من اعتراف اللجنة بوكالة الوفد عن الشعب المصري ، وهي لاتجهل نصوص ذلك التوكيل ولا مطالب الشعب المحدودة فيه .

وبديه أن الوزراء — الاصدقاء — لم يكونوا لينتظروا لهم « دوراً » يقومون به قبلتمام المفاوضة بين الوفد ولجنة ملنر وانتهائها إلى صيغة محدودة يتفق عليها الطرفان أو يظهر منها على الأقل مبلغ استعداد الانجليز لاجابة المطالب الوطنية ، فأما قبل ذلك فليس في وسع الوزراء أن يفاوضوا اللجنة في تفصيلات الاتفاق بمعزل عن اجماع الامة وموقف الوفد بباريس ولجنته المركزية بالقاهرة في وقت واحد ، ولو أنهم أقدموا على هذه المفاوضة العقيمة لخسروا الجانبين معاً وفشلوا في تقرير الاتفاق المطلوب لا محالة ، ورجعوا وحسدهم بتبعة الفشل امام الامة وامام الانجليز ، فهم لم يخطئوا في تقديرهم أن المفاوضة بين الوفد ولجنة ملنر لا بد أن تسبق كل « دور » في تقديرهم أن المفاوضة بين الوفد ولجنة ملنر لا بد أن تسبق كل « دور » مصر أوليفاد من ينوب عنه لمفاوضة اللجنة ، وكانوا متعجلين ولا شك فيما اقترحوه ، لانه اقتراح أقل ما فيه أن يدل اللجنة الملنرية على المفت المصريين. وتراميهم على هذه الفرصة المدخولة ترامي المناضل الذي استنفد موارده وتراميهم على هذه الفرصة المدخولة ترامي المناضل الذي استنفد موارده الاخيرة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة المنتورة وقنع بالتعلل والمغالم والمناطقة وليس في هذه المنتورة وقنه بالتعلق والمناطقة وليس في هذه المنورة وليس في شيء من هذا ما يغري المناطقة وليس في سور دور وليس في سور دور المناطقة وليس في سور دورة ولي المناطقة وليس في سور دورة ولي المناطقة ولي المناطقة

بالتوسع في اجابة المطالب المصرية أو يرجح عندها أن تتوقع رفضاً لما تعرضه أياً كان الحل المعروض ، فلما تريث سعد ولم يقنعه تفسير العبارة الانجليزية ذلك التفسير الذي أسرع الوزراء إلى قبوله دار الكلام في ايفاد رسول من قبل اللجنة الى باريس لتمييد المقابلة بينها وبين الوفد بعد عودتها من القاهرة .

وقد دارت مناقشة بين عدلي وسعد في تفسير العبارة الانجليزية ومااحتوته من الاشارة المزعومة الى الانظمة الدستورية فأعرب سعد عن شكوكه في خطاب الحادي عشر من فبراير الى عدلي باشا إذ يقول : « . . . نعم ان ترجمتكم عبارة « Self Governing Institution » بالحكومة الدستورية هي الأصح ولكن صحة هذه الترجمة في نفسها لا تحمل على تعديل قرارنا لأن هناك أسبابا أخرى غيرها ، ولان ايرادها في المكان الذي وردت فيه من البلاغ مع عدم اقتضاء المقام لها بعد التصريح فيه بأن مأمورية اللجنة هي التي صورتها الحكومة ووافق عليها البرلمان يوقع في الذهن بأن المقصود بها هو المعنى الذي فهمناه . والقول بأن القصد منها انما هو ألا يكون الاتفاق بها هو المعنى الذي فهمناه . والقول بأن القصد منها انما هو ألا يكون الاتفاق أنها نتيجة للتعاقد لا وسيلة له ، ومع ذلك فاذا كان القصد منها هو كا يؤكد جنابه من أن الحكومة الانكايزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة الا مع حكومة دات نظام دستوري — لزم قبل كل شيء وضع هذا النظام لتشكيل حكومة دستورية تكون أهلاً للتعاقد على تحديد العلاقات بين مصر وانكاترا.»

ومن هذا الخطاب نفهم أنسعداً لم يأخذ بالتفسير كما جاء في حديث ملنر مع الوزراء ، ولكنه أراد أن يستفيد من مجاراة ملنر والوزراء على تفسيرهم بأن يمهد به لانشاء الحياة النيابية وقيام الحكومة الدستورية ، ويحس النبض لاستطلاع ما هنالك من النيات والخطط المرسومة ، فان جاء الدستور فذاك ، وإن لم يجيء لسبب من الاسباب فظهور ذلك السبب خير من كتمانه والموارية فيه ،

قال سعد في خطابه المتقدم بعد ماأسلفناه: « ولا أخني عليكم أن فكرة هذا النظام خطرت أول الأمر ببالنا على أنها الوسيلة القانونية لحل المسألة. لذلك نحن نوافق كل الموافقة عليها بل نحبذها ، والطريقة المثلى للوصول إلى هذه الغاية في رأينا هي أن يبدأ بتأليف وزارة من غير أعضاء الوفد موثوق بها ، ويكون البروجرام الذي تعلنه هذه الوزارة هو وضع ذلك النظام ثم المفاوضة مع الحكومة الانكليزية بغرض الوصول إلى وضع اتفاق يضمن الستقلال مصر التام ومصالح انكلترا الخصوصية . ثم عرض ماتنتهي المفاوضة اليه على الهيئة النيابية التي تتألف بموجب ذلك النظام للتصديق . ومتى تم تشكيل الوزارة على هذا النحو وأعلنت بروجرامها على هذه الصيغة أو بما في معناها لانتردد نحن وزملاؤنا في العودة إلى مصر لمساعدتكم على القيام بمهمتكم لدى الآمة والسعي في أن تنتخب أعضاء لهذه الهيئة . إذا تم الحكم أن تفعلوا ذلك خدمتم بلادكم أجل خدمة ، وخلدتم لكم في التاريخ أحسن الذكرى.»

وزاد الموضوع تفصيلاً بخطاب في اليوم التالي (١٢ فبراير) قال فيه :

ه إن الطريقة التي عرضناها فيما كتبناه لكم هي في اعتبارنا أمثل طريقة لحل العقدة الحاضرة ، لأنه من الطبيعي أن تجري مفاوضة معهيئة رسمية موثوق بها خصوصاً من الآمة . وأن يصدق على ماتنتهي المفاوضة اليه من النواب الذين تختارهم لهذه الغاية ، وهي تقرب في ظننا من التي يظهر أن اللورد ملنر يدلي بها في محادثاته معكم وفيما أكد لكم من المقصود بعبارة :

Sef Governing Institution التي أوردها في بلاغه. إن لم تكن هي بذاتها . ولهذا يغلب على ظننا أنه يهش لها ويعمل على تنفيذها ولا يصعب عليه أن يتضمن بروجرامكم عبارة الاستقلال التي أوضحناها فيها كتبناه لمكم لأنها لاتربط غيركم . وهي فوق ذلك ضرورية جدًّا حتى لاتقابلكم الأمة بالنفور الذي تلاقي به كل وزارة لا يكون السعى الى هذه الغاية أول قصدها

وأكبر همها ، نعم أن فيها مشقة عظيمة لكم ومسئولية كبرى عليكم ولكنها ليست فوق همتكم . وأنتم أهل لتحملكل هذه المسئوولية في خدمة بلادكم ، والوفد مستعد لآن يعمل ما في وسعه لتسهيلها عليكم ، ولهذا يرى أن يكون أعضاؤه خارجين عن هيئتكم حتى لايساء الظن في نزاهتهم و تبقى الثقة فيهم يستعينون بها في تأييدكم و تمييد الطريق أمامكم . وبعد أن تتألف الهيئة الجديدة تحت رئاستكم ، و تعلن بروجرامها لايترددون في العودة ليكونوا قريبين منكم يعملون على تنوير الأفهام وصيانة الرأي العام من خطرات الأوهام ، التي لا يقصد ذوو الأغراض الفاسدة من بثهافيه و تسليطها عليه الا ترويجاً لمقاصدهم الفاسدة و تحصيلًا لمصالحهم الباطلة ، ولا يهمنا فيمن تختار و نهم لمعاونتكم الا أن يكونوا محلاً لثقتكم وأهلاً لأن يتضامنوا معكم في تحمل تلك المسئولية الكبرى »

وقد أجاب عدلي بخطاب في الخامس والدشرين من فبراير قال فيه: «نعم اننا على رأيكم من أن وجود هيئة وزارة تعمل على تحقيق الأماني القومية وتنق بها الامة في ذلك من أهم الامور. وربما كانت الوسيلة القانونية الوحيدة للحصول على الغاية التي ننشدها. ولكننا نرى أيضاً أنه لا يصح أن تستأثر هذه الهيئة بالمفاوضة وحدها وبوضع النظام الدستوري للبلاد، بل يجب أن يكون هذا بالاشتراك مع الوفد، وطريقة العمل في ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعي للوصول الى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح الانكليزية والاجنية ووضع مشروع نظام دستوري للبلاد مم تعهد المفاوضة لهيئة تضم بعضاً من أعضاء الوزارة، وبعضاً من أعضاء الوذارة ، وبعضاً من أعضاء الوفد».

* * *

بعد هذه الرسائل المتبادلة بين سعد وعدلي انجلت سياسة سعد وسياسة الوزراء « الاصدقاء » مع لجنة ملنر . . . بل انجلت سياسة كل من الفريقين مع

الفريق الآخر . وأصبح في وسع الناظر الى ماورا. الظواهرأن يلمسالنيات التي توحي الى كل فريق بسياسته ومقترحاته ·

فسعد يريد حلاً للقضية المصرية لامغالطة فيه ، ويريد أن يترك للوزراء والإصدقاء ما ماهو للوزراء ، ويبقى للزعامة ماهو للزعامة . فليسعنده ما يمنع أن تفاوض الوزارة الصديقة الانجليز متى ضمن سلامة المفاوضة وعرض النتيجة على الأمة . وهو لا يريد أن تسيطر الحكومة على الرأي العام أو تعرض الوفد للانقسام . لانها اذا أدت عملها مستقلة به بتي للوفد عمل آخر عند عرض النتيجة على الهيئة النيابية الممثلة للائمة ، ولا بأس في أن يقوم به يومئذ متفقاً مع الوزارة ، لان المرجع في جميع ذلك الى ميدان الانتخاب الذي يجوز لاعضاء الوزارة كا يجوز لاعضاء الوفد أن ينزلوا اليه .

أما سياسة عدلي فهي قبول الوزارة مع التزام الخطة التي جرى عليها هو وزملاؤه من بداية الحركة الوطنية ، وهي خطة الانتفاع بنفوذ سسعد والاحتراس منه في وقت واحد . أو هي اشراك الوفد في التبعة حذراً من رقابته و تعقيبه إذا استقل الوزراء بالمفاوضة والاتفاق على القضية العامة ! وهذه سياسة هي أدنى إلى العداوة منها الى الصداقة وخلوص النية . فهم لايريدون أن يدعوا سعداً حراً في عمل واحد ، ولا يعنيهم إلا أن يشركوه معهم في التبعة و يسوقوه حيث انساقوا و يقطعوا عليه سبيل التعقيب والملاحظة و يقدموه أمامهم خطوة خطوة ليحموا ظهورهم و يحفظوا لانفسهم طريق الرجمة . وكلما استطاعوا أن يهونوا عليه قبول ما قبلوه أسرعوا إلى محاولة افتاعه لانهم لا يخسرون شيئاً وإنما هو الخاسر عند الجمهور ان قبل !! بل العلم يكسبون أن يقنعوا الناس كما أقنعوا أنفسهم بأنهم كانوا على صواب في قبول الحاية ، وأن الامة لن تنال بالثورة أو بغير الثورة وبالزعامة أو بغير الزعامة أو بغير الزعامة أو بغير الزعامة أو بغير الرعامة أو بغير الرعاء المعرب الرعاء المعرب ا

فحسنوا لسعدأن يعود إلى مصر ويرضى بمغالطة نفسه ومغالطة الامةفي

الألفاظ التي لا تسمح بالمغالطة . ثم حسنوا له أن يشترك بفريق من أعضاء الوفد في هيئة المفاوضة ليدخلوه في التبعة وهم قابضون على زمام الحكومة ، ومن قبل ذلك رحبوا في أيام الحرب العظمى بدخوله معهم في الوزارة ليعترف بالحماية كما اعترفوا بها ، ونظروا في ذلك الى أنفسهم غير ناظرين الى البلد الذي كان يجوز أن يهيب بسعد أو يهيب سعد به الى بلوغ مالم يبلغوا من استقلال وحرية ، وأبوا بعد الهدنة أن يسافروا إلا إذا سافر هو يوم جام الاذن بالسفر الى العاصمة البريطانية ، وكل ماصنعوه بعد ذلك في مفاوضات ملنر وكرزون مطرد مع هذه النية ومنبعث من هذه النية ، وهي أن يقاسموا معداً في كل ما يدركه وأن يشركوه معهم في كل ماوقعوا فيه ، وأن لا يتركوه حراً في فرصة من الفرص ليطلب فوق ماطلبوه و ينال فوق ماعسى أن ينالوه . وهي خطة حافظ الوزراء « الاصدقاء » عليها أدق محافظة ، ولن يتأتى لهم وخلوص النية ، وسواء حسنت نتائجها أو ساءت فهذا الذي قصدوه بما بذلوا من مساعدة أو نصيحة ، وعلى حسب هذا القصد يكال لهم العذر أو الملام .

当本省

وقفت مسألة الوزارة التي دار السكلام عليها في الرسائل السابقة لأن اللورد ملنر لم يستحسنها عند ما فاتحه عدلي فيها، وتعلل بقوله « إن الفكرة لا بأس بها . ولكني لا أرى من المصلحة تغيير الوزارة الآن، لأنه إذا شكلت وزارة مهمتها المفاوضة فربما اعترض هذه صعوبات يكون من نتائجها سقوط الوزارة . على أن أعضاءها — وهم الذين سيكون عليهم المعول في إدارة البلاد — يجب أن لا يكونوا عرضة للتخلي عن خدمة البلاد بجرد اشكال يمكن أن يحل فيها بعد .

فقال عدلي: « لم يبق إذن سوى حل وإحد وهوأن تتفاوضو ا مع الوفد»

وحوالى هذا الوقت ختمت لجنة ملنر أعمالها في مصر وأصدرت في السادس من شهر مارس بياناً رسمياً قالت فيه إنها أنجزت بحوثها وأجلت عملها الباقي إلى أن تجتمع بلندن بعد عيد الفصح لتحضير تقريرها ، وذهبر تيسها في رحلة إلى فلسطين مكث فيها نحو أسبوعين ثم عاد إلى الاسكندرية في السادس والعشرين ، وقفل منها إلى بلاده .

* * *

أما الحالة في الفترة التي قضتها اللجنة بمصر فحلاصتها أنها أسفرت عن فشل السياسة البريطانية في التفرقة بين الوفد والآمة ، وعن نجاح الحركة الوطنية في زعزعة الحماية التي كان الضعفاء يحسبونها قضاء مبرماً لا يدفعه دافع ، ولاح من كلام الصحف المشهورة بنزعتها الاستعارية عقب رجوع لجنة ملنر من مصر أن الحكومة البريطانية لم تجد بداً من التفكير في الغاء الحماية ، فصرح بعضها — ومنها الديلي ميل — بما يفيد تلك النية .

ولقد لمست الآمة المصرية قوة اجماعها بيديها في أيام اللجنة الملنرية ، وشعرت باستقلالها حقيقة ماثلة في ضميرها وان جحدته المظاهر الرسمية ، فصمدت على التفاؤل والاطمئنان إلى المستقبل غير حافلة بما بدا من ضعف الآعضاء الوفديين الذين تراجعوا على أثر ما اصطلاموا به من اعتراف الدول جميعاً بالحماية ، وأعان المصريين على تحدي هذا الاجماع أنهم رأوا مؤتمرًا كالمؤتمر الآمريكي يرفض معاهدة فرسايل ، فشعروا بان اجماع الدول على توقيعها ليس بالسد المنيع الذي يستعصي اختراقه ويحق عليهم اليأس من تداعيه يوماً بعد يوم كلما تبدلت أطوار الشعوب وعلاقات الحكومات ، وظل أذ مرر مستحكماً بين الحكام العسكريين والآمة المصرية في ابان وظل أذ مرر مستحكماً بين الحكام العسكريين والآمة المصرية في ابان

وطل ادعرر مسحجا بين الحكام العسكريين والامه المصرية في ابان زيارة اللجنة الملنرية . وكانما كان يهم هؤلاء الحكام العسكريين أن يوقعوا في اخلاد المصريين ان حضور اللجنة إلى هذا البلد لا يعني أن الدولةالبريطانية تبالي بشعورهم وتكترث لرفضهم أو قبولهم . فدأبوا على الغطرسة والعناد وعز عليهم أن يغيروا ما عودوا الناس من سطوة وارهاب . ولولا قليل من الحرية في نشر بعض الآراء لظلت الحالة كما كانت عليه قبل حضور اللجنة مِلا اختلاف.

وزاد الجو اكفهراراً لجاج حكومة السودان في مشروعات الري والزراعة وهي المشروعات التي ترمي الى بناء خزان على النيل الآزرق وخزان آخر على النيل الآييض واستدراج الحكومة المصرية الى القيام بتكاليف هذه المشروعات، ليستفيد منها أصحاب الأموال في انجلترا، ويستعينوا بها على اصلاح الأرضين الواسعة وزرع القطن الذي يزاحم قطن مصرولا ينتفع به أهل السودان. فبلغ الحنق من هذه المشروعات أقصاه، وساء تأويل كل ما يقال وكل مايراد في هذا الباب، وتعرضت حياة وزيرين مصريين من رجال الهندسة والري — وهما حسين سري باشا ومحمد شفيق باشا — للخطر من جراء البحث فيها، إذ ألق بعض الشبان على كل منهما قنبلة في طريقه، واتفقت الحادثتان معًا في أثناء زيارة اللجنة الملنرية، فدلتا على اكفهرار الجو واتفقت الحادثتان معًا في أثناء زيارة اللجنة الملنرية، فدلتا على اكفهرار الجو

المفاوضة في لندن

بعداً خذ ورد قبل عدلي باشا أن يقدم موعد سفره الى باريس إجابة لطلب سعد في العشرين من شهر مارس .

ولم تكن هــــــذه الدعوة ابتغاء الوساطة في لقاء بين الوفد واللجنة كما أشاع بعضهم في تلك الآبام . فقد كان ملنر في الشرق حتى ذلك اليوم ، وكان محتملًا أن يمر بباريس عند عودته خلال ذلك الأسبوع ، قبل ذهاب عدلي الى باريس على أي تقدير .

وانما دعاه سعد لآنه أراد أن يعرف بالمحادثة ما لا يعرف بالمراســـلة ، وأن يطلع على الحقيقة قبل أن يبت بالرأي الحاسم في مسألة اللجنة ، عن يقين لا تشوبه الظنون .

وهنا بدرت من عدلي بادرة جديدة من البوادر التي لا تني تدل على نيات الوزراء « الاصدقاء » فيما يتخذون من علاقة بسعد خاصة و بالوفد عامة ، فلما أبرق سعد الى عدلي يرجوه « تقديم موعد حضوره الى باريس بقدر المستطاع » كان هم عدلي الاول أن يتمسك على سعد وعلى الوفد بوثيقة مفصلة قبل أن يجيب هذه الدعوة ١ .. فأبرق اليه يقول انه « قبل تعيين ميعاد السفر يكون سعيداً لو تسلم خطاباً تفصيليا منكم » .. وليس هذا مسلك تعاون خالص ولكنه مسلك تقييد بالاسانيد المكتوبة قد يكون فيه مصلحة لعدلي ولكن لا مصلحة فيه لقضية المصرية ولا للمساعي المنتظرة في المستقبل . فان القضية المصرية لاتستفيد من وثيقة يبسط فيها الوفد أغراضه المفصلة قبل الاطلاع على فحوى الحالة كلها من محادثة عدلي والموازنة بين المعلومات الاخرى .

لقد كان عدلي ينتظر من الوفد خطابًا ﴿ مفصلًا ﴾ يكشف فيه نياته نحو

اللجنة ونحو مستقبل المفاوضة انكانت هناك مفاوضة . فأي مصلحة وطنية في كشف هذه النيات ؟ ولماذا هذا الحرص على تقييد الوفد بخطة مفصلة قبل تعيين موعد السفر » ؟ ليس في ذلك الا أنه دليـل على بواطن السرائر وعلى الفرق بين مسلك المعاونة الخالصة ومسلك التمسك بالوثائق والقيود كما يتمسك الخصوم.

وغني عن القول أن سعداً لم يجب هـذا الطلب الغريب ، ولكنه كرر الرجاء على عدلي بالاسراع في السفر و لتبادل الآراء.

فبرح الاسكندرية في السادس عشر من أبريل ، ووصل الى باريس في الثاني والعشرين منه ، وفي هذا دليل على أن الغرض الأول من دعوته لم يكن هو السعي في تدبير مقابلة أو تدبير مصادفة للقاء بين الوفد وأعضاء اللجنة الملنرية أثناء اجتيازهم بالعاصمة الفرنسية ، وانما كان الغرض الأكبر منه استيفاء المعلومات التي ينبني عليها رسم الخطة التالية بعسد تجربة اللجنة في اللاد المصرية .

أما اللورد ملنر فقد عاد من مصر وهو يعتقد أن مفاوضة الوقد أمر لا محيص منه قبل تقرير النظام الذي يوصي الحكومة البريطانية باتباعه، لأنه اذا فرض نظامه فرضاً على الأمة المصرية قابلته لا محالة بالنفور والمقاومة وضاعت المنح التي لعله يوصي بها هدراً في تيار هذه المقاومة ، فلاهو احتفظ بها للمساومة والاخذ والعطاء ولا هو أرضى الامة المصرية ، ولا هو جرى على سنة تقرير المصير التي يهم الدولة البريطانية أن تجري عليها بعد شيوعها على الالسنة في أثناء مؤتمر الصلح ، والتحدث بمبادي الرئيس ويلسون ، وقيام عصبة الامم الجديدة بما لها من حق الاشراف على الوصاية والانتداب وما اليهما من العلاقات بين الدول القويه والامم التي لا تملك استقلالها وسيادتها . وخير للحكومة البريطانية أن تعامل مصر على أساس التعاهدو الاتفاق من أن تحسبها غنيمة بملوكة تدخل في حساب المقايضات والمنافسات بين الدول الاستعارية . فان معاملة مصر على هذا الاساس تخرج بها من حساب الما من حساب المقايضات والمنافسات بين الدول الاستعارية . فان معاملة مصر على هذا الاساس تخرج بها من حساب المقايضات والمنافسات بين الدول الاستعارية . فان معاملة مصر على هذا الاساس تخرج بها من حساب المقايضات بها من حساب المقايف المن حساب المقايضات بين الدول الاستعارية . فان معاملة مصر على هذا الاساس تخرج بها من حساب المقايف المن حساب المقايضات بين الدول الاستعارية . فان معاملة مصر على هذا الاساس تخرج بها من حساب المقايف المن حساب المقايف المن حساب المقايف المن حساب المقايف المن حساب المهابه مصر على هذا الاساس المنابع المن حساب المهابي المنابع المن حساب المهابي المنابع المنابع

المقايضات والمنافسات وتحفظ لبريطانيا العظمى سمعة الديمقراطية وحسن العلاقة بينها وبين الشعوب العزلاء المطالبة بحقوق الحرية .

ورأى اللورد ملنر أنه لو أهمل الوفد المصري كل الاهمال ومضى في وضع تقريره بغير اكتراث به ولا رجوع اليه لأوجب على الوفد خطة المقاومة وعلى الأمة أن تجاريه في هذه الحظة ، وقطع الرجاء في أعضائه « المعتدلين » والمتطرفين على السواء فلا ينشط منهم أحد _ بعد اهمالهم أجمعين _ لترويج المقترحات المعروضة على الأمة وجلب الأنصار اليها ، ولو وافقت منه تلك المقترحات .

ثم ما العمل في الوزارة التي تبرم المعاهدة وتستفتي فيها الأمة؟ أيؤلفها الانجليز من المنبوذين الذين لامطمع لهم في أنصار كثيرين أو قليلين؟ ان فعلوا ذلك فرفض المعاهدة محقق بغير جدوى ، وقد يجر ذلك إلى مجافاة والوزراء الاصدقاء » أيضا والجائهم مختارين أو غير مختارين إلى مسايرة الوفد والاجماع، والوقوف من المقترحات موقف المعارضة أو الاعراض.

أما إن كان الانجليز يؤلفون الوزارة من عدلي ورشدي وأصحابهما فهل يرجو اللورد ملنر منهما أن يقبلا تأليفها بمعزل عن الوفد كله دون أن يطمعا في تأييده أو تأييد فريق من أعضائه ؟ إنهما لا يقدمان على ذلك كما يعلم اللورد ملنر ، وخير ما يرجوه منهما أن ينتظرا حتى تكون هناك مفاوضات مع الوفد ويكون هناك أمل في استهالة بعض الاعضاء الموافقين على المقترحات ، فهما يقدمان حينئذ على تأليف الوزارة بتأييد من أولئك الاعضاء .

فكل عمل كان يعمله ملنر قبل مفاوضة الوفد عبث.

عبت أن يلتي إلى الأمة بمقترحات يقاطعها الوفد بالاجماع وهو معذور لديها ولدى جميع المنصفين. وعبث أن يسلم المقترحات إلى وزارة منبوذة تجنى عليها من البداية . وعبث أن يطمع في قيام وزارة عدلية تناصب الوفد العدا. ولاتعتمد من اعضائه على أحد .

فمفاوضة الوفد هي الطريق الوحيد الذي لا طريق غيره ، وعلى هذه العزيمة عاد ملنرمن القاهرة بغير جدال . فلا اعتداد بما قيل يومئذ عن وساطة الوسطاء وكياسة الاكياس الذين جذبوا اللورد ملنر الى مفاوضة الوفد على غير قصد منه و لا ارتباح ، و لا يزالون ينقذون سعداً من الورطات كلما احتاج الأمر الى وساطة اوكياسة 1

غير أن اللورد ملنر يعلم أن سعداً يرفض المفاوضة مع لجنة يقال انها لجنة تحقيق تبحث عن شكايات المصريين وتنظر في تنظيم الحماية ، ولكنه يفاوضها على اعتباره وكيلاً عن الأمة يطلب لها الاستقلال التام ويسعى في الغاء الحماية . فلابد من تمهيد يصحح الأمور وينفي عن المفاوضة صبغة الاعتراف بالحماية والخروج عن حدود التوكيل ، ولهذا أوعزت الحكومة البريطانية إلى أحد النواب أن يلقي سؤالاً في نحو منتصف شهر مايو يقول فيه: « هل صحيح أن لجنة اللورد ملنر قد ذهبت الى مصر لتثبيت الحماية البريطانية عليها ومن أجل ذاك كان معقولاً أن يجفل المصريون منها ؟ ، فأجابه مستر بونارلو قائلاً : «كلا لم يكن هناك شي، من ذاك ، ولكن اللجنة قصدت الى مصر لتشير بأحسن النظم الصالحة لحكم البلاد،»

وفي تلك الجلسة بعينها التى مستر كنورثي سؤالاً في هذا الموضوع فقال مستر بونارلوجواباً عليه: « لوكان الممثلون المصريون على استعداد للمناقشة في الضانات المعقولة الكافية لصيانة المصالح البريطانية فيما يتعلق بقناة السويس والمصالح التجارية والمالية مقابلة لوعد بريطانيا العظمى باحترام استقلال مصر لكانو ا اغتنموا فرصة بلاغ اللورد ملنرالذي نص على اطلاق حدود المناقشة.»

وقد سأل المستركنورثي بعد ذلك : « هل من الممكن مع هذا أن يفتح باب المناقشة من جديد حتى يتيسر الوقوف على رأي هؤلاء السادة المصريين في الاتفاق الذي سيعقد بين البلدين ؟ »

فقــال مستر بو نارلو: « انني على يقين من أن كل منــاقشة يكون من ورائها نتيجة مرضية تقبل بلا ابطاء · ولـكن يجب أن تقدر الحكومة فائدة هذه المناقشة والنتائج التي تنتظر من ورائها.»

وقابل سعد هذه التصريحات بما يناسبها فقال لمراسل صحيفة الجورنال حين سأله في هذا الصدد: « لا أنكر قيمة هذه التصريحات ولا انكر أن فيها ما يقرب المسافة بين وجهة النظر الانجليزية ووجهة النظر المصرية على شريطة أن يصاحبها ما يجعلنا نترقب لها نتائج فعلية ، ومن الصعب مع هذا أن يعرف الآن ماتراه مصر في هذه التصريحات . اذ يجب أن لا يعزب عن الذهن ان انجلتر عدلت أخيراً بمحض ارادتها و بغير استشار تنا نظام وراثة العرش بمصر ، وليس هذا بخير السبل للتقريب بين البلدين بأواصر الثقة والمودة وانما تكسب مودة المصريين و ثقتهم بالاعتراف باستقلالهم والكف عن التعرض لحاصة شئونهم ،

ثم قال سعد: « إنه لا يوافق مستر بو نارلو على قوله إن المصريين ضيعوا فرصة المناقشة مع لورد ملنر » وأضاف الى ذلك الهم لم يتلقوا دعوة من لورد ملنر للمفاوضة باعتبارهم ممثلين للأمة المصرية ، ثم سأله المراسل : هل هو على استعداد للمفاوضة على أساس اعطاء الضهانات المعقولة لمصالح انجلترا في قناة السويس ومصالحها التجارية والمالية إذا هي وفت بعهودها ؟ فقال : « اننا مستعدون لاعطاء كل الضهانات المعقولة للتوفيق بين مصالح انجلترا واستقلالي مصر ، ولانرفض الدخول في المفاوضات اللازمة باعتبارنا وكلاء الامهرية إذا كان من وراء ذلك الوصول الى هذه النتيجة »

وعقب ذلك بأيام وصل الى باريس مستر سسل هيرست أحد زملاء

ملنر لدعوة الوفد الى الاجتماع باللجنة في لندن للمناقشة في قواعد الاتفاق بين مصر وبريطانيا العظمى ، ففضل الوفد - كما جاء في رسالة سعد الى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة - أن ينيب عنه محمد محمود باشا وعبدالعزيز فهمي بك وعلي ماهر بك في السفر الى لندن لاستطلاع الحالة والتحقق من استعداد بريطانيا العظمى نحو استقلال مصر قبل الانتقال بهيئته المكاملة الى العاصمة الانجليزية . وقد لتي هؤلاء الأعضاء اللورد ملنر فذكر لهم أن انجلترا تعترف باستقلال مصر التام إذا هي ضمنت مصالحها الخاصة وانتهت من المفاوضة الى هذه النتيجة ، فكتبوا الى سعد بما سمعوه وشفعوا ذلك باستحسان حضور الوفد كله الى لندن للبد في المفاوضة ، فلي الدعوة وأبرق إلى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة يعلن للأمة اعتزام السفر في الخامس من شهر يونيه عسى أن يصلوا بالمفاوضات إلى حل مرضي « مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أن يصلوا بالمفاوضات إلى حل مرضي « مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أبنائها ، والحجة من وضوح الحق والمعونة من الله ناصر الضعفاء.»

ولسنا نعرف مبلغ ما كان يرجوه سعد للقضية المصرية من وراء هذه المفاوضة، ولكنه لم يكن مستطيعاً أن يرفضها دون أن يعرض الوفدللانشقاق والتنازع ويهيى للمغرضين أسباب اتهامه بتضييع الفرص وسوء السياسة، والحنوف من مواجهة الحقيقة التي اضطلع بها دون أن يعتمد على وسيلة أخرى مضمونة الفلاح والجدوى . وهولو رفض المفاوضة مكتفياً بنشر الدعوة بين الشعوب الأوربية لم يعدم هنالك من يلتي عليه اللوم ويبري، بريطانيا العظمى من التهمة ، لانها مهدت له سبيل التفاهم والمناقشة الحرة فأعرض هو عنها وأشفق على نفسه وعلى أمته من مناقشتها ومساجلتها 1 1 وفي وسعه أن يعود إلى نشر الدعوة متى احتاج اليها يوم ينجلي سوء النية من جانب السياسة يعود إلى نشر الدعوة متى احتاج اليها يوم ينجلي سوء النية من جانب السياسة ولكن ليس في وسعه أن يقنع الناس جميعاً بفشل المفاوضة قبل الدخول فيها ، ولا أن يمنع الفتنة أن تدب دبيبها بين أعضاء الوفد، ومنهم من ودً لو

رجع سعد الى القاهرة وقبل نصيحة « الوزراء الاصدقاء » حين زينوا له مفاوضة اللجنة الملنرية قبل رجوعها الى بلادها ، فاذا رفض مفاوضتها في هذه المرة وأغلق باب المفاوضة اغلاقاً لارجعة فيه فماذا ينتظرون وعلام بصرون ؟

ومن العجز أن يتهم الانسان نفسه ويتهم قومه بالخوف من المناقشة لاظهار حقهم واثبات مطالبهم . فاذا كان مقدوراً للوفد أن يختلف لامناص فخير للامة المصرية أن يختلف بعـــد المفاوضة من أن يختلف قبلها ، لان الحلاف يومئذ يكون على أمور مذكورة مسطورة تظهر من وراثها النيات والدعاوى ويسهل الدفاع عنها وبيان وجه القوة والضعف في جانبيها ، ولكن الحلاف قبل المفاوضة انما تقوم به حجة من يقبلونها وتسقط به حجة من يرفضونها ، ويتاح لمن يشاء أن يتهم الرافضين بالعبث والتعنت واهمال الوسائل المعروضة ، لاسباب مبهمة أو لغير سبب على الاطلاق .

وقد وازن سعد بين جميع الدواعي والموانع فاستقر رأيه على اجابة الدعوة واعتزم السفر ووصل الى لندن بني مساء الخامس من شهر يونية ومعه زملاؤه. فاستقبلهم المصريون هناك أحسن استقبال . وتمت المقابلة الأولى بينهم وبين لجنة ملنر في اليوم السابع فقام بالتعريف بين الفريقين عدلي باشا الذي كان قد سبق أعضاء الوفد الى العاصمة الانجليزية . وبدأت المفاوضة في اليوم التاسع ، فبسط اللورد ملنر غرض الحكومة البريطانية منها وهو عقد اتفاق ودي بين الامتين الانجليزية والمصرية تعترف فيه باستقلال مصر وتطمئن والسكينة ، ومن هذه الضمانات إقامة حامية عسكرية في أماكن يقررها الخبراء والسكينة ، ومن هذه الضمانات إقامة حامية عسكرية في أماكن يقررها الخبراء والبداء الرأي في التشريع الذي يمس الاجانب الى أن ينزلوا لبريطانيا العظمى وابداء الرأي في التشريع الذي يمس الاجانب الى أن ينزلوا لبريطانيا العظمى عن امتيازاتهم التي تعوق استقلال البلاد ، وتوطيد حكومة ملكية دستورية ينص عليها في المعاهدة .

ثم دارت المناقشة بجلسة أخرى في مسألة المستشارين الانجليز وغيرها من المسائل التي تلحق بها ، وكان وكلاء الوفد في جلسات المناقشة رئيسه ومحمد محمود باشا وأحمد لطني السيد بك ، ووكيلا اللجنة الملنرية رئيسها ومستر رنل رود ، ويحضر عدلي باشا الاجتماعات برضى من الطرفين .

ولانطيل في سرد التفصيلات ، فالحلاصة أن البحث انتهى منتصف شهر يوليو الى تدوين كلا الطرفين مذكراته بما فهمه كلاهما من نتائج المناقشات السابقة . فاشتملت مذكرة اللجنة الملنرية على مايأتي:

« استبدال الحالة الحـاضرة بمعاهدة تحالف دائم بين بريطانيا العظمى ومصر يشترط فيها:

« أولاً » تتعهد بريطانيا العظمى بضمان سلامة مصر واستقلالها باعتبارها دولة ملكية ذات أنظمة دستورية .

« ثانياً ﴾ تتعهد مصر من جهتها بان لاتعقد معاهدة سياسية مامع دولة أخرى بغير موافقة بريطانيا العظمى.

« ثالثاً » نظراً للتبعـة التي أخذتها بريطانيا العظمى على عاتقها في المادة السابقة و نظراً لما لبريطانيا العظمى من المصلحة الخاصة في حماية المواصلات في أملاكها بالشرق والشرق الاقصى تمنح مصر بريطانيا حق ابقاء قوة عسكرية على الارض المصرية واستخدام المواني. والمطارات المصرية لضمان الدفاع عن مصر وحماية مواصلات بريطانيا العظمى مع تلك الاملاك . أما الموضع أو المواضع التي تعسكر فيها الجنود فتعين في المعاهدة .

« رابعاً » توافق مصر على تعيين مستشار مالي بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك تعهد اليه جميع السلطات التي لاعضا. صندوق الدين الآن لحماية حملة الاسناد المصرية ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لـكل أمر آخر ترغب في استشارته فيه .

« خامساً » تتعهد بريطانيا بمساعدة مصر في تحرير نفسها من القيود التي تقيد حريتها في التشريع والادارة بسبب الامتيازات والضهانات التي يتمتع بها الاجانب في مصر . وأن تساعدها في إقامة نظام يكون من شأنه تطبيق القانون المصري على المصريين والاجانب على حد سواء .

« سادساً » نظراً لتخلي الدول الاجنبية عن الامتيازات الخاصة التي يتمتع بها رعاياها حتى الآن ، ولضرورة تأمين تلك الدول على أن حقوق الاجانب المشروعة ستحترم معهذا ، تمنح مصر بريطانيا العظمى حقالتدخل بواسطة معتمدها في مصر لتوقف تنفيذ أي قانون يخالف حقوق الاجانب المشروعة أو يخالف المتبع في البلاد المتمدنة . وإذا ادعت الحكومة المصرية في حالة من الحالات أن حق التدخل هذا استخدم استخداماً لا ينطبق على العقل فيصح عرض الامر على عصبة الامم .

« سابعاً » يبتى نظام المحاكم المختلطة أو أي نظام آخر مساوٍ له يحل محله ويوسع بحيث يتناول القضايا الجنائيـــة وجميع القضايا الآخرى التي تمس الأجانب في مصر .

« ثامناً » توافق مصر على تعيين موظف بريطاني في وزارة الحقانيـة بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك ، يكون له مركز وسلطة تكني لتمكينه من ضمان تنفيذ القانون تنفيذاً عادلاً فما له مساس بالاجانب

« تاسعاً » ترضى حكومة جلالة الملك بأن تأخذ على عاتقها تمثيل مصر في أية دولة لايعين فيها معتمد مصر ، ولكن مصر لاتعهد بتمثيلها على هذا النحو إلى أية دولة غير بريطانيا العظمى .

«عاشراً» تعترف الحكومة المصرية بأن لمركز المعتمد البريطاني في مصر صفة خاصة ؛ وأنه باعتباره ممثل دولة حليفة تكون له الأولوية على جميع المعتمدين الآخرين .

« حادي عشر » يسوى مركز من عدا المذكور في المواد السابقة من الموظفين البريطانيين والأجانب باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين البريطانية والمصرية يعد جزءاً من الاتفاق الذي يعقد بينهما.»

وظاهر من هذا المشروع أنه لم يخرج بمصر عنالحماية الصريحة في أضيق حدودها ، وأن اللجنة لم تتقرب به خطوة واحدة الى موقف المصريين ولم تزد على أن جمعت فيه ماتريده بريطانيا العظمى بحذافيره إلى أقصى مداه ، وليس فيه شيء يصح أن يقال إنه كان موضع تفاهم واتفاق بين المندوبين الانجليز والمندوبين المصريين ، لانه دو "ن المطالب من جانب واحد ولم يتزحزح فيها قيد أنملة إلى جانب المطالب الاخرى.

أما مذكرة الوفد التي أرسلها بعد وصول هذه المذكرة اليه بيوم واحد فقد لاحظ فيها الرغبة الصحيحة في الاتفاق ولم ينسحدود وكالته التي يجب عليه التزامها . وقد صدرها سعد بكتاب قال فيه :

« إني أبادر فأعرض على فخامتكم طي هذا مشروع اتفاق يحوي النقط التي جرت المناقشة بشأنها في أحاديثنا ، وهي النقط التي يلوح لي أنكم تقلونها » . . .

« ونحن نعتقد أن هذا المشروع — بالصفة التي هو عليها — من شأنه أن يرضي الطرفين . فعلى هذه القواعد يمكننا أن نضع دعائم صداقة متينة ، وتعاون عماده الاخلاص بين الشعبين الانجليزي والمصري • ومن المتفق عليه بيننا أن النقط التي لم تبحث بعد تكون موضوع اتفاق يعقد فيما بعد»

ثم قال: « ولي الثقة التامة بأن أعمالنا التي توليتم رئاستها بتلك الكياسة يمكن أن تنتهي قريباً بحيث يتيسر ليالسفر إلى شاتل وفيشي قبل فصل الخريف للاستشفاء الذي لابد منه لصحتي على ما يظهر. »

وأتبع ذلك بالمذكرة وهذه ترجمتها :

«أولا » تعترف بريطانيا العظمى باستقلال مصر . وتنتهي الحماية التي أعلنتها بريطانيا العظمى على مصر والاحتلال العسكري البريطاني . وبهذا تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والحارجية وتؤلف دولة ملكية ذات نظام دستوري .

« ثانياً » تسحب بريطانيا العظمى جنودها من الأرض المصرية في مدة . . . ابتداء من وقت نفاذ المعاهدة الحالية .

« ثالثاً » تتعهد الحكومة المصرية بأنها عند استخدام حقها في الاستغناء عن خدمات الموظفين الانجليز تعامل هؤلاء الموظفين المعاملة الممتازة التالية: فيها عدا الاقالة لبلوغ نهاية سن الخدمة أو عدم القدرة على العمل أو الاحكام التأديبية أو انتهاء مدة التعاقد والاستخدام بينح الموظف الذي يقال من الخدمة تعويضاً إضافياً مقداره مرتب شهر عن كل سنة من سني خدمته. وتتناول هذه المعاملة الممتازة الموظفين الذين يتركون خدمة الحكومة المصرية من تلقاء أنفسهم في بحرسنة من نفاذ هذه المعاهدة.

« رابعاً » لتخفيف وطأة نظام الامتيازات الى حين إلغائها تقبل مصر أن تستخدم بريطانيا باسم الدول حقوق الامتيازات التي لهذه الدول الآن ويكون ذلك بالصفة الآتية :

«٦» تكون الاضافات والتعديلات في النظام القضائي المختلط معلقة على موافقة بريطانيا العظمى .

« ت » جميع القوانين الآخرى التي لا يمكن أن تسري الآن على الآجانب المتمتعين بالامتيازات إلا بعد موافقة الدول أو مداولة الجمعية التشريعية للمحكمة المختلطة أو جمعيتها العمومية تصير نافذة عليهم بموجب قرار يسن لذلك . إلا إذا عارضت الحكومة البريطانية في ذلك ، وتبلغ هذه المعارضة

لوزير الخارجية المصرية في مدة من نشر القرار في الجريدة الرسمية . ولا تكون المعارضة إلا فيما يحتويه القانون من أمور لا مثيل لها في أي تشريع من تشريعات الدول المتمتعة بالامتيازات ، أو إذا كان القانون خاصاً بضرائب وكان في هذه الضرائب المجعاف بالأجانب دون الوطنيين .

وفي حالة اختلاف الحكومتين على أحقية هـُـذه المعارضة يكون لمصر أن تعرض المسألة على عصبة الأمم للبت فيها.

« خامساً "، في حالة إلغاء محاكم القنصليات واحالةالنظر في الجرائم والجنح التي ير تكبها الأجانب إلى المحاكم المختلطة توافق مصر على تعيين أحد رجال القضاء البريطانيين في مركز النائب العام لدى المحاكم المختلطة .

« سادساً » تقر الحكومة البريطانية بأنها على استعداد لآن تنظر مع الحكومة المصرية بعدخس عشرة سنة في مسألة إبطال تقييد سيادة الحكومة المصرية الداخلية الناشي. من الامتيازات التشريعية والقضائية التي للأجانب وتحفظ مصر لنفسها الحق عند الاقتضاء في عرض هذه المسألة على عصبة الأمم بعد مضي المدة المتقدمة.»

ه سابعاً » في حالة إلغاء لجنة الدَّين العموى تعـين مصر موظفاً سامياً تقترحه بريطانيا العظمى وتـكون له الاختصاصات الحالية التي للجنة الدين . ويكون الموظف السامي المذكور تحت تصرف الحكومة المصرية لكل الاستشارات أو المهمات التي ترى تكليفه بها في المسائل المالية .

« ثامناً » للحكومة البريطانية — إذا رأت ضرورة — أن تنشيء على نفقتها نقطة عسكرية على الضفة الاسيوية لقناة السويس للاشتراك في دفع أي اعتداء أجني يحتمل حدوثه على القناة . وتعين حدود هذه النقطة فيا بعد بواسطة لجنة من خبراء حربيين يعين كل فريق نصفهم . ومن المتفق عليه أن اقامة هذه النقطة لا يخول بريطانيا أي حق للتدخل في شئون مصر ولا يمكن أن يمس بأية حالة من الحالات حقوق السيادة التي لمصر على المنطقة المذكورة

التي تبق خاضعة لسلطة مصر محكومة بقوانينها ، كما أن اقامة النقطة لا يقيد السلطات التي اعترف بها لمصر بموجب اتفاق الاستانة المعقود في سنة ١٨٨٨ خاصاً بحرية قناة السويس . وبعد مضي عشر سنوات من تاريخ سريان المعاهدة الحالية يفحص الطرفان المتعاقدان مسألة ما إذا كان بقاء تلك النقطة لم يصبح غير ضروري ، وما إذا كان يصح أن يترك لمصر وحدها تولي حماية القناة ، وفي حالة الحلاف تعرض المسألة على عصبة الأمم .

« تاسعاً » في حالة ما إذا لم تجد مصر التي لها الحق المطلق في تعيين سفراء لها حرورة لتعيين ممثل سياسي مصري في أي بلد من البلدان تعهد بالمصالح المصرية في هذا البلد إلى ممثل بريطانيا العظمى الذي يتبع تعليات وزير الخارجية المصرية.

« عاشراً » يعقد الطرفان المتعاقدان بالعقد الحالي محالفة دفاعية للغايات التالمة : __

الأرض المصرية على الدفاع عن الأرض المصرية ضدكل اعتداء تقوم به دولة أجنبية .

« س» في حالة وقوع اعتداء من دولة أوربية على الامبراطورية البريطانية تتعهد مصر ـ ولو لم تكن سلامة أرضها مهددة مباشرة ـ بأن تقدم لبريطانيا العظمى في أرضها تسهيلات المواصلات والنقل لحاجاتها الحربية ، و يحدد اتفاق خاص طرق هذه المساعدة ·

« حادي عشر » تتعهد مصر أيضاً بأن لاتعقد أية معاهدة تحالف مع دولة أخرى دون اتفاق سابق مع بريطانيا العظمى .

«ثانيعشر» هذه المحالفة معقودة لمدة ثلاثين عامًا يمكن الطرفين المتعاقدين بعد انتهائها النظر في أمر تجديدها .

الث عشر » تكون مسألة السودان موضوع اتفاق خاص

« رابع عشر » جميع النصوص المخالفة للمواد الحالية والواردة في جميع المعاهدات الآخرى خاصة بمصر تعتبر ملغاة وكانها لم تـكن.

« خامس عشر » تودع المعاهدة الحالية في مكتب عصبة الأمم لتسجيلها بها. و تقر الحكومة البريطانية من الآن بأنها توافق فيها يختص بها على دخول مصر عصبة الأمم دولة حرة مستقلة .

« سادس عشر » تصير المعاهدة الحالية سارية المفعول بمجرد تبادل عقود إبرامها بين الطرفين المتعاقدين. و يكون البرامها فيما يختص بمصر على أثراقرارها بواسطة جمعية قومية تعقد للاقتراع على الدستور المصري الجديد»

هذا هو مشروع الوفد كما لخصه في مذكرته، وظاهر منه كما أسلفنا أنه مشروع أناس يجدون في طلب الوفاق ما استطاعوا ولايلعبون بالألفاظ في التقريب بين حقوق الاستقلال ومصالح بريطانيا العظمى التي لا تفرضها على مصر وعلى العالم إلا بحكم القوة. وقد احتفظوا من معالم السيادة الوطنية بالقسط الضروري الذي لاترضى أمة تطلب الاستقلال بأقل منه ، فن يطالبهم بالتبرع من عندهم بقبول قسط أقل من هذا فهو كانما يطالب الآمة المصرية بالثورة والتضحية لغير نتيجة إلا أن تصحح مركز بريطانيا العظمى في مصر بالثورة والتضحية لغير نتيجة إلا أن تصحح مركز بريطانيا العظمى في مصر السلاح والسطوة ! وهو أمر لا يعقل أن يكون موضع اتفاق ومفاوضة بين طرفين وفيه الربح كل الربح من جانب والحسارة كل الحسارة من الجانب بين طرفين وفيه الربح كل الربح من جانب والحسارة كل الحسارة من الجانب مادام المرجع فيه إلى الاختيار والاتفاق ، فاذا نجاوز هذا الحد فهو يعطي بريطانيا العظمى كل مزايا الاتفاق الحر ويبوء — والآمة المصرية معه — مكل مساوي، الاكراه ، ومع هذا استغر بوا في انجلنرا « جرأته » كما سموها بكل مساوي، الاكراه ، ومع هذا استغر بوا في انجلنرا « جرأته » كما سموها

* *

توقفت المفاوضات. وقيل إنها تنقطع أو انقطعت لآن الوفد رفض مذكرة اللجنة كما رفضت اللجنة مذكرة الوفد. ثم توسط عدلي يكن باشا في الأمر. فاضطر سعد إلى أرجاء السفر ريثما تتم هذه الوساطة ، وبتي في لندن حتى تسلم مذكرة اللجنة الثانية في الحامس من شهر أغسطس فانفتح بها باب جديد للمناقشة وجرى التعديل مرة أخرى في بعض العبارات ، وتعذر الاتفاق على جميع المسائل فاستمر البحث فيها إلى منتصف أغسطس ، وهنا اختلفت آراء الأعضاء بين القبول والرفض ومعظمهم إلى القبول. واقترح بعضهم عرض المسروع الاخير على الامة لتبدي ملاحظتها عليه ثم يعاد بحثه بين الوفيد واللجنة بعد الوقوف على جملة الآراء ومواضع الملاحظة والاستدراك.

ويغلب أن يكون هذا الاقتراح انجليزيًّا في منشئه ، أو حاه إلى اللجنة ما كانت تسمعه من سعد و زملائه من الاعتذار بوكالة الآمة و تعذر الحروج عن حدود هذه الوكالة ، لآن الآمة ترفض كل ما يخرج على تلك الحدود لا محالة ولوقبله الاعضاء . فكان أعضاء اللجنة يقولون انما الوكالة برنامجكم أنتم وفي أيديكم أن ترجعوا اليه بالتعديل و التحوير ان اقتنعتم بصواب ما تعرضونه على الآمة التي أوكلتكم ، وكان من الطبيعي أن يخطر للجنية اقتراح الرجوع إلى الآمة تخلصاً في هذا الاعتذار ، وسعياً وراء الخلاف ان لم يكن سعياً وراء الاقناع .

فتردد سعد في العمل بالاقتراح مخافة الانقسام والشتات. ولكنه رأى بوادر الانقسام والشتات تبدو في داخل الوفد فاتثر أن يتداركها وأن يرجيء ظهورها مااستطاع، وهو يرجو أن يستمين بجلاء رأي الامة على معالجة تلك البوادر أملا في رأب الصدع وتوحيد الصفوف. فتقرر إيفاد أربعة من

الاعضاء إلى القاهرة وهم محمد محمود واحمد لطني السيد وعبد اللطيف المكباتي وعلى ماهر ينضم إليهم في القاهرة مصطنى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيني لعرض الموضوع على طوائف الامة واستطلاع رأيهم فيه وتقييد ملاحظاتهم عليه ، والرجوع بها الى الوفد في النهاية لاستئناف البحث فيها جميعاً مع اللجنة الملنزية ، وان كان رئيسها قد أعلن أن المشروع تضمن أقصى ماتوصي به اللجنة وتطمع في اقراره من لدن الحكومة البريطانية ، وأنها تشك في اقرارها لبعض مافيه .

وعلى هذا مافر سعد من لندن في السادس عشر من شهر أغسطس وتبعه الاعضاء في اليوم التالى وتبعهم عدلي في اليوم الذى بعده ، وهذه صيغة المذكرة التي تم الاتفاق على استطلاع رأي الامة فيها :

قواعد الاتفاق

(١) لأجل أن يبنى استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديداً دقيقاً، ويجب تعديل ما تتمتع به الدول ذوات الامتيازات في مصر من المزايا وجعلها أقـــل ضرراً بمصالح البلاد .

(٢) ولا يمكن تحقيق هـذين الغرضين بعير مفاوضات جديدة تحصـل للغرض الأول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وأخرين من الحكومة المصرية . ومفاوضات تحصل للغرض الثاني بين الحكومات البريطانيــة وحكومات الدول ذوات الامتياز. وجميع هذه المفاوضات ترمي الى الوصول الى اتفاقات بنيت على القواعد الآتية :

(٣) أولا: تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابيـة وتمنح مصر بريطانيـا العظمى الحقـوق التي تلزم لصيانة مصالحها الخـاصة ،

ولتمكينها من تقديم الضهانات التي يجب أن تعطى للدول الاجنبية لتحقيق تخلى تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات.

ثانياً: تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها محالفة بين بريطانيا العظمى ومصر تعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها . وتنعهد مصر أنها في حالة الحرب ، حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة أرضها ، تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التي في وسعها لبريطانيا العظمى ومن ضمنها استعمال مالها من المواني، وميادين الطيران ووسائل المواصلات للاغراض الحرية .

(٤) تشمل هذه المعاهدة أحكام للأغراض الآتية :

أولا: تتمتع مصر بحق التمثيل في البلاد الاجنبية ، وعند عدم وجود ممثل مصري معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها إلى الممثل البريطاني ، وتتعهد مصر بأن لا تتخذ في البلاد الاجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمى ، وتتعهد كذلك بأن لاتعقد مع دولة أجنبية أي اتفاق ضار بالمصالح البريطانية.

ثانياً: تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية في الارض المصرية لحماية مواصلات الامبراطورية. وتعين المعاهدة المكان الذي تعسكر فيه هذه القوة ، وتسوي ما ستتبعه من المسائل التي تحتاج الى التسوية ، ولا يعتبر وجود هذه القوة بأي وجه من الوجوه احتلالاً عسكرياً للبلاد ، كما أنه لا يمس حقوق حكومة مصر .

ثالثاً: تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشاراً يعهداليه في الوقت عينه بالاختصاصات التي لصندوق الدَّين ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لا ستشارته في جميع المسائل الاخرى التي قد ترغب في استشارته فيا.

رابعاً: تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفاً في وزارة

الحقانية يتمتع بحق الدخول على الوزير وبجب احاطته علمًا على الدوام بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له مساس بالاجانب، ويكون أيضًا تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في أي أمر مرتبط بحفظ الامن العام.

خامساً : نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها إلى الآب الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بواسطة ممثليها في مصر لتمنع أن يطبق على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها ألاتستعمل هذا الحق إلاحيث يكون مفعول القانون جائراً على الاجانب،

صيغة أخرى لهذه الفقرة.

« نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية ، تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بو اسطة ممثليها في مصر لتمنع أن ينفذ على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها أن لا تستعمل هذا الحق إلا في حالة القوانين التي تتضمن تمييزاً جائراً في مادة فرض الضرائب أو لا توافق مبادي . التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات .

سأدساً: نظراً للعلاقات الخاصة التي تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطاني مركزاً استثنائياً في مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين.

سابعاً: الضباط والموظفون الاداريون ، من بريطانيين وغيرهم من الاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبـل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أورغبة الحكومة المصرية في أي وقت خلال

سنتين بعد العمل بالمعاهدة ، وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذي يمنح للموظفين الذين يتركون الحدمة بموجب هذا النص زيادة على ما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالي . وفي حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى أحكام التوظف الحالية بغير مساس .

- (ه) تعرض هذه المعاهدة على جمعية تأسيس. ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات مع الدول الاجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ الاوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة.
- (٦) يعهد الى جمعية التأسيس في وضع قانون نظامي جديد تسير حكومة . مصر في المستقبل بمقتضى أحكامه ، و يتضمن هذا النظام أحكاماً تقضي بجعل الوزرا. مسئو لين أمام الهيئة التشريعية ، و تقضى أيضاً باطلاق الحرية الدينية لجميع الاشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الاجانب .
- (٧) تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات ، وتقضي هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الاجنبية لكي يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذي تسنه الهيئة التشريعية المصرية دونه التشريع الذي يفرض الضرائب على جميع الاجانب في مصر
- (٨) تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التي كانت تستعملها الحكوّمات الاجنبية المختلفة ، بمقتضى نظام الامتيازات .

وتشمل أيضا أحكاما تقضى بما يأتى : ـــ

أولا: لايسوغ العمل على التمييز الجائر على رعايا أي دولة وافقت على إبطال محاكما القنصلية ، ويتمتع هؤلاء الرعايا في مصر بنفس المعاملة التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون.

ثانياً : يؤسس قانون الجنسية المصرية علىقاعدة النسب فيتمتع الاولاد الذين يولدون في مصر لاجنبي بجنسية أبهم ولا يحق اعتبارهم مصريين.

ثالثاً : تخول مصر موظني قنصليات الدول الاجنبية نفس النظام الذي يتمتع به القناصل الاجانب في انجلترا .

رابعاً: المعاهدات أو الاتفاقات الحالية التي اشتركت مصر في التعاقد عليها في مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول . أما في المسائل التي ينالها مساس من جراء إبطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية صاحبة الشأن . مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين ، وكذلك المعاهدات التي لها صفة سياسية سواء كانت معقودة بين أطراف عدة أو بين طرفين . مثال ذلك اتفاقات التحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب ، وذلك كله ريثها تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفاً فيها

خامساً: تضمن حرية إبقاء المدارس وتعليم لغة الدولة الاجنبية صاحبة الشأن على شرط أن تخضع هذه المدارس منجميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الاوربية بمصر.

سادساً: تضمن أيضاحرية إبقاء أو إنشاء معاهددينية وخيرية كالمستشفيات الخوتنص المعاهدة أيضاً على التغييرات اللازمة في صندوق الدَّين وعلى إبعاد العنصر الدولي عن مجلس الصحة في الاسكندرية.

(٩) التشريع الذي تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية وفي الوقت عينه يصدر مرسوم يقضي باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادارية والقضائية التي اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة.

(١٠) تقضي المراسيم العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتخويلهذه

المحاكم كل الاختصاص الذي كان مخولا إلى الآن للمنحاكم القنصلية الاجنبية ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس.

(11) بعد العمل بالمعاهدة المشار إليها في البند الثالث تبلغ بريطانيا العظمي نصها إلى الدول الأوروبية الاجنبية ، وتعضد الطلب الذي تقدمه مصر للدخول في جمعية الامم.

مسألة السو دارن

أما مسألة السودان فلم تطرح تحت البحث ولكن الوفد قد حصل على تا كيدات تضمن الطاً نينـة على مياه النيل لرى الأرض المصرية المزروعة . الآن والقابلة للزراعة في المستقبل . **.

وقد بين الاعضاء المندوبون مهمتهم في هذه المرحلة بكلمة ذيلوا بها المذكرة وقالوا فها:

﴿ أَمَا مَهُمَةُ أَعْضَاءُ الوَفْدُ المُنْدُوبِينَ فَبِيانُهَا أَنَّهُ لِمَا وَصَلَّتَ المُفَاوِضَاتِ بِين الوفدولجنة ملنر إلىأنقدمت اللجنة هذه القواعد علىأنها نهائية فيالاساسات التي بنيت عليها ـ رأى الوفد أخذًا بالاحوط واستمساكا برأي الوكالة على اطلاقه ـ أن لايبت في الموضوع برفضه أوقبوله. بل رأى أن الحكمة تدعو إلى عرض الامر على البلاد . فاذا قالت البلاد أن هذه القواعد صالحة أساساً للمعاهدة دخلت المسألة في دورها النهائي ووضعت معاهدة على القواعد المذكورة وعرضت على الجمعية الوطنية التيهي صاحبة الرأي الأعلى فيالامر ولها دون غيرها الكلمة الآخيرة في الموضوع. فبعد أن تدرس تفاصيل المعاهدة وصيغتها تقرر قبولها أو رفضها.»

وقد رأى سعد أن يجمل رأيه في المشروع للأساتذة مصطفى النحاس وويصاواصف وحافظ عفيني لانهملم يحضروا البحوثفيه بالعاصمةالانجليزية كاحضرها زملاؤهم القادمون من أوربا . فكتب اليهم في الثاني والعشرين من أغسطس ما يأتي :

﴿ أَهْدِيكُمْ أَطَيْبُ تَحِياتِي . وبعد فانكم تجدون طي هذا بلاغًا لنواب الأمة وأرباب الرأى فيها تعلمون مضمونه من تلاوته ، وأظنكم تستشفُّون منه اني لست من رأي المشروع الذي ستعرضونه على الأمة أنتم والقادمون اليكممن اخوانكم، وهذا موافق للحقيقة لأنه ـ وأريد أن يكون الأمر بيني وبينكم ـ مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به وباطنه الحماية وتقريرها . ففيهمن خصائص الحماية ومميزاتها الشيء الكثير كالقوة العسكرية والتدخل فيالتشريع للاجانب وفي القضاء المختص بهم والتدخل في المالية رفي الحقانية بواسطة موظفين انكليز . وجعل المعتمد الانكليزي ذا مقام خاص وله التقدم على غيره من وكلاء الدول الأخرى ، وتقييد حرية مصر في عقد المعاهدات وفي اختيار وكلائها السياسيين وفي النجاء هؤلاء لممثلي انكلترا وتولي انكلترا دون مصرعقد المعاهدات المتعلقة بالغاء الامتيازات مع الدول الأخرى. وفضلًا عن ذلك فان ما اشترط من تعليق تنفيذه على قبول الدول لالغاء المحاكم القنصلية وصدور الدكريتات باعادة تنظيم المحاكم المختلطة بجعل الفوائد التي تعود منه على المصر بين وهمية . إذ قد ينقضي الدهر ولا تقبل الدول ذلك الالغاء ولاتصدرالدكريتات بذلك التنظيم. ولكن. إخواني لايرون فيه رأى ، ولم أرد أن أظهر الخلاف بيني و بينهم حرصًا على الوحدة التي هي قوتناً ، ولَـكي لا يننعت الاعداء بنا . ولو أن آخواني أصغوا إلى قولي أولولم أكن أخشى على هذه الوحدة من الانقسام لفارقت لندرة في يوم ٢٢ يونيه الماضي وهو اليوم الذي وردنا فيه خطاب من اللورد ملنر عن مشروع سابق وضعته لجنته ورفضناه لكونه كان يرمي إلى مايخالف مبدأنا وتوكيلنا ، وكان رفضنا له بالاجماع . ومن الغريب أن المشروع الثاني جاء أبلغفي باب الحماية لاشتهاله على كثير من مميزاتها . ومع ذلك رأى الاخوان صلاحية عرضه

على نواب الأمة ، ولا أريد أن أشكو منهم اليكم لأنهم انما رأوا ذلك لأسباب قامت عنـــدهم وأقنعتهم بصحة أراثهم . أهمها تغير ظروف الحال وعدم وجود السند والنصير لنا في الخارج وانفراد الدولة الانكليزية بالعزة والسلطان وعـدم قوة الأمة على متابعة المعارضة والمقاومة ؛ واني اعترف بأهمية هذه الأسباب ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من حماية إلىاستقلال ولا أن تجعلنا نرضى بما نهضنا لمقاومته وقمنا للمطالبة ببطلانه وما ضحت الأمة في سبيل النفور والقضاء عليه بدما. الكثيرمن أبنائها وحرية العدد العديد من شيوخها وفتيانها ، ولا محملنا نحن دعاة الاستقلال وحملة ألويته والصائحين به في كل صقع وناد على أن نتحول إلى تأييد ماهو بعيد عنه في الواقع وان كان قريبًا منه في الظاهر ، أما إذا قبلهغيرنا وكان الانجليز معهم فذلك شي. آخر لا تقع تبعته علينا ، ولهذا رأيت أن أكتب لكم بفكرى حتى تكونوا في مستوى واحد مع إخوانكم الذين ستشتركون معهم في عرض المشروع ، وأن يكون مركزكم إذا استحسنتم من الذين تستشيرونهم مركز الشارح للحقائق العارض للوقائع من غير تأويل ولا تفسير . لكي لابجد خصومكم سبيلًا للطعن عليكم ولا حسادكم حجة يقيمونها ضدكم ، وسوف تطلغون على جميع المكاتبات التي دارت بيننا وبين لجنة ملنروعلي المشروعات الثلاثة التي ورد في البلاغ ذكرها . وتقفون من الاخوان على جميع المعلومات التي يهمكم الوقوف عليها في هذا الشأن . واني على ثقة تامة بأنكم ستكونون في عرض هــذا المشروع مثال الدقة والنزاهة والبعد عن مزالق القدم ، وإني مستعد لأن أرسل اليكم كل ما تشاءون من الأوراق ، ولأن أجيبكم عن كل ما تشاءون الوقوف عليه من المسائل . والله يكون في عونكم ويقيكم شر خائنة الأعين وما تخنى الصدور » .

وبديه أن هــذا الخطاب لم يعلن للا مة ولا لاحد غير الاعضاء الذين

خوطبوا به وأصدقائهم المقربين. ولكن الرئيس مهد لتقديم المذكرة إلى الامة ببيان منه وصف به المشروع الوصف الذي ينبغي في هذا المقام. فقال فيه: « وانتهت المناقشة بوضع ثلاثة مشروعات ولها من لجنة ملنر رفضناه بتاتاً ، والثاني منا ورفضته هذه اللجنة كذلك ، والثالث منها وهو الاخير قد صرح رئيسها لناعند البحث فيه أنه غير قابل للمناقشة في الاساسات التي بني عليها وأنه يلزم أما أخذه كله أورده كله . لانه تضمن في اعتباره أقصى ما يمكن انكلترا الاتفاق مع مصر عليه ، بل زاد أن هناك شكاً في جواز التساهل في بعض ما اشتمل عليه ، ولكنا وجدناه مع ذلك معلقاً تنفيذه على التساهل في بعض ما اشتمل عليه ، ولكنا وجدناه مع ذلك معلقاً تنفيذه على وأظهر نا للجنة ملنر عدم رضائنا به . غير أنه ـ نظراً لاشتماله على مزايا وأظهر نا للجنة ملنر عدم رضائنا به . غير أنه ـ نظراً لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، ولتغير الظروف التي حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المساقة التي بينه وبين أمانيها ـ يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المساقة التي بينه وبين أمانيها ـ يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المساقة التي بينه وبين أمانيها ـ يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المساقة التي بينه وبين أمانيها ـ يكون من الأمة المسئولين وأصحاب الرأي فيها.»

ثم قال: ﴿ فَاذَا رَفَضَتُم أَعَلَنَ الوَفَدَ رَسَمَيًّا رَفَضَهُ ﴾ وإذا قبلتم دخلت المسألة في دورها النهائي ووضعت معاهدة على القواعد التي تضمنها وعرضت على الهيئة النيابية للتصديق عليها ووضع نظام دستوري للبلاد.»

* *

وهذه الحطة التي سلكها سعد في التوفيق بينه وبين أعضاءالوفد هي غاية ماكان في وسعه من الموافقة والمجاراة ، فلم يكن مستطيعاً أن يعلن استحسان المشروع وهو لا يستحسنه ولا يرى في ضميره أنه محقق لالغاء الحماية واقامة الاستقلال ، ولم يكن مستطيعاً أن يقدم المشروع بغير بيان ، ولا أن يقول

في البيان غير ماقال من وصف صادق لجميع نواحيه في جانبي المزايا والنقائص، مع اطلاق الرأي لمن يشاء فيما يشاء.

* * *

ووصل الاعضاء المندوبون الى الاسكندرية في اليوم السابع من سبتمبر بعد نشر البيان ييومين، فاحتنى بهم الشعب في الاسكندرية والقاهرة وعلى طول الطريق بينهما، وبدأ الاستفتاء بعديومين. فعرض المشروع على المحامين وأعضاء الجمعية التشريعية ورجال الدين ورجال القضاء وأعضاء مجالس الاقاليم والمجالس المحلية، وأجمعت الطوائف في جملتها ما عدا أنصار « الوزراء الاصدقاء » مع على وجوب التعديل والتنقيح في بعض قواعده وتضمينه النص الصريح على إلغاء الحماية وحذف ماجاء فيه عن امتياز المندوب البريطاني « بمركز استثنائي » غير مركز المندوبين الآخرين ، وطلب الاكثرون تعيين حدوده المبهمة ومواعيده المرسلة ، وإخلاءه من كل لبس واشتباه في مسألة السيادة القومية ، وذكروا السودان ووجوب الاحتفاظ بحقه وحق مصر فيه ، وذهب كثيرون إلى رفضه بتاتاً وفي مقدمتهم فريق من الامراء نشروا على الملا بلاغاً قالوا فيه « إنسا لا نبرر عقد أي اتفاق ينافي أو ينقض استقلال مصر مع سودانها استقلالاً تاماً حقيقياً بلا قيد و لا شرط.» موضوا الإمر إلى الامة صاحبة الرأي الاعلى .

وبعد عشرين يوماً مضت في عرض المشروع والتعقيب عليه في الصحف والجالس اكتنى الاعضاء المندوبون بما اطلعوا عليه من الآراء وكتبوا بيانا شكروا فيه الامة على ماقابلتهم به من الحفاوة ونوهو بالاستنارة التي «خلقت فرصة جديدة ظهر فيها رشد الشعب وحسن تقديره لجميع الظروف السياسية التي تحيط الآن بالفصل في مصيره »

وفي هذه العبارة مالا يخنى من دلالة على نتيجة الاستفتاء عند المندوبين وهي نتيجة يعتبرونها تمهيداً للقنوع والقبول لا تمهيداً للرفض أو التعديل.

في مصر أثناء المفاوضة

استقالت وزارة محمد سعيد باشا الادارية .

وقد رأينا أن الرأي العام في مصر كان ينفر من قيام الوزارات المصرية في ظل الحماية والأحكام العسكرية، ويأبى التعاون على تثبيت هذا النوع من الحكومة ويعتبره تسهيلاً للسيطرة الأجنبية وتمكيناً لها من المضي في طريقها وقلة الاكتراث بمعارضة الآمة ، ولهذا شدد النكير على الوزارة الرشدية حتى استقالت وبرم بالوزارة السعيدية حين جاءت تنتحل الاعذار لقبولها الحكم في هذه الحالة ، ولم يشفع لها ما وعدت به من اجتناب المساس بالقضية الوطنية وماسعت إليه من تحويل بعض القضايا المنظورة أمام المحاكم الانجليزية إلى المحاكم الوطنية .

فلما اضطر محمد سعيد إلى الاستقالة كان المنظور أن المرشحين لمنصب الرئاسة يرفضونه في هـــذه الحالة التي استعصى معها بقاء وزارة كالوزارة السعيدية ، ولكن عضواً من أعضائها __ وهو يوسف وهبة باشا __ رضي تأليف الوزارة دون أن يعلن رأياً في سبب قبولها ، وكان الرجل من الطراز العتيق لا يؤمن بشيء يسمى الديموقراطية ولا يحسب تدخل الناس في قيام الحكومات وسقوطها إلا فضولاً غير حميد، وبدعة من بدع الزمن الحديث الذي يأتي بكل غريب معيب ، وبخاصة إذا كانت هذه الغرائب مما يقف في طريق الانسان إلى الرئاسة والألقاب إومن قال أن سعد باشا يستطيع أن يفرض على الآخرين إباءها حين يدعون اليها؟ أليس هؤلاء الآخرون « باشوات » قد استحقوا الوزارة والرئاسة كأ يستحقها سائر الباشوات الموقرين ؟ فلماذا تتغير الدنيا إذن ليصبح هناك باشوات أعلى من باشوات بحكم الجهور الذي لا شأن له في هذه الأمور؟ فلاهو إلا أن استقال سعيد باشا حتى خلفه يوسف وهبه باشا دون أن يتقدم

إلى الجهور بايضاح أو اعتذار ، وأمعن في تجاهل الأمة حتى أوصد بابه في وجوه الكبراء الذين ذهبوا اليه يسألونه عما ينويه ويبتغون شيئًا من الطمأنينة والتفسير ، وزاد على ذلك فترك للسلطة العسكرية أن تعتقل من تشاء من ذوي الرأي وتقصي من تشاء منهم إلى قرى المريف ، وتحظر عليهم الاشتغال بالسياسة وتستعيد إليها ذلك القسط القليل من الحق الذي نزلت عنه للمحا كم المصرية في عهدالوزارة السعيدية ، فأصبحت الوزارة المصرية في أيامه لغواً لا وجود لها بمعزل عن السلطة العسكرية ، ولو من قبيل المداراة والتمويه .

وأكبر الظن أن الإنجليز توقعوا من اختيار يوسف وهبة باشا — وهو مسيحي قبطي — أن يجر ذلك إلى إفساد المودة بين القبط والمسلمين وأثارة الملاحاة والجدل بين الفريقين ، أثارة تفتح الثغرة بينهما للدسيسة وتسويغ الدعاوى التي يدعيها الاستعار للدخول بين أبناء البلد الواحد واحباط المطالب القومية التي يتفقون عليها ، فوقع في إلهام الآمة أن تقابل هذه المكيدة بما يبطلها وأجابت عليها باختيار رئيس لجنة الوفد المركزية ونقيب المحامين من أبناء الطائفة القبطية ، ولما اعتدى أحد الشبان من طلاب مدرسة الطب على رئيس الوزارة بالقاء القنبلة عليه في طريقه إلى الديوان كان من مصادفات الإقدار أن هذا الطالب لم يكن مسلماً بل كان مسيحياً قبطياً لا يؤول علمه بالتعصب الديني أو الخصومة بين عنصري الآمة ، كما كان وشيكاً أن قال لو جرت المصادفة بغير ذلك .

وقد خاب أمل الانجليز تي هذه الوزارة فصبروا عليها إلى ما بعد سفر اللجنة الملنرية ، وبالغوا في اهمالها ثم تركوها تستقيل ولما تجاوز في الحمكم ستة شهور ، واختارت لاستقالتها السبب الوحيد الذي يليق بمثلها وهو طلب الراحة ا

وقامت بعدها وزارة محمد توفيق نسيم باشا والانجليز يعلمون إنه كان ثاني

الاثنين اللذين سخطا على حركة التوكيلات للوفد المصري وامتنعا من توقيعها دون غيرهما بين رجال القضاء الأعلى في القطر كله . وقد كان هو أيضاً عضواً في الوزارة السعيدية وعضواً في الوزارة الوهبية ثم قبل تأليف الوزارة لأنه لا يأخذ نفسه ببدعة البرامج الوزارية التي تعوق الانسان عن ولاية المناصب . . . وكان كسلفه في النظر إلى الديمقر اطية وفي إيثار الصمت والعزلة «الفاخرة » كما يقولون في لغة السياسية الانجليزية . ولكنه أقدر واعلم بشأن الجمهور في سياسة الوزارات . وقد أصابه من الاعتداء ما أصاب سلفه فاشتدت حفيظته على الدعوة الوطنية ، لانه يحسب أنه لولاها لما نجمت حوادث الاعتداء على الوزراء .

وفي عهد هذه الوزارة جرت محاكمة طائفة من الشبان الذين اتهموا بمحوادث القتل السياسي ومعهم عبد الرحمن فهمي بك كاتب السر في لجنة الوفد المركزية بالقاهرة . ومن عجيب أمر هذه القضية أنها كانت تماشي أطوار المفاوضات بين الوفد ولجنة ملنركا نما هناك صلة مقصودة بينهاوبين تلك المفاوضات . فني أوائل مايو قبضت السلطة العسكرية على أولئك الشبان وحظرت على الصحف نشر الخبر أياماً ، فلبثوا معتقلين زهاء شهر ونصف شهر بغير محاكمة . ثم صدر الأمر بالافراج عنهم في أواسط شهر يونيو بعد اضرابهم عن الطعام ثلاثة أيام طلباً للتعجيل بالمحاكمة أو الافراج ثم قبض عليهم مرة أخرى في أوائل يوليو ومعهم عبد الرحمن بك في هذه المرة ، واستمرت محاكمتهم الى اكتوبر وكل يوم تبرز للعيان تلفيقات بعض الشهود ووجود أسمائهم في سجل الحدمة السرية . ثم لبث المتهمون بعد انتهاء المحاكمة ينتظرون الحكم الى أواخر فبراير ، وهو الوقت الذي بعد انتهاء المحاكمة ينتظرون الحكم الى أواخر فبراير ، وهو الوقت الذي استحكم فيه الشقاق بين أعضاء الوفد وقر فيه القرار على السياسة الجديدة في أمر المفاوضات الرسمية .

أما مسلك السلطة العسكرية خلال هذه المدة فهو مسلك القهر والعنت

الذي التزمته من اللحظة الاولى ، والأمر الجدير بالملاحظة لدلالته البعيدة المدى أن الانجليز المحليين الذين كانوا بمصر يومئذ لم يعملوا عملًا واحدًا للتقريب بين الأمتين ، وهممطالبون قبل غيرهم باتباع سياسة التقريب والتماس. الوسائل اليها لوكانوا يحبونها ويرغبون فيها ولكنهم لانحبونها ولايرغبون فيها بل يكرهونها ويرغبون في احباطها ، ويصعب على الباحث أن يتخيل عملاً واحداً كانوا يقدر ونعليه لاحباطسياسة التقريب بين الامتين فلم يعملوه وسبب ذلك ظاهر لا يحتاج الى بحث طويل . فانحرية مصر لا تضير أحدًا كما كانت تضير أصحاب النفوذ من أولئك الانجليز المحليين، وقصارى أملهم أن يدوم لهم ذلك النفوذ الذي لاينعم أكبر الانجليز في بلادهم بمثله ، إذهم في أمان من الرقابة الدستورية من جانب الامة الانجاـــــيزية والامة المصرية على السوا. ، وهم يعملون في بلاد لاتربطهم بها غيرة وطنية ولامحبة متبادلة تقاوم أغراء المصلحة الشخصية . مع أن الوزرا. والزعماء من أبنا. قومهم الذين هم أكبر منهم شأناً وأرفع منهم قدراً يعملون لمصلحة وطنهم فلايتركون بغير رقابة نباية أو رقابة شعبية في صميم بلادهم. فشعور أولئك الانجليزالمحليين كلما رأوا المصريين يطالبون بحقوقهم ويتطلعون الى حكم أنفسهم إنما هو شعور الغضب والغيظ والخوف علىالمصلحة والنفوذ، وكل مافي وسعهم أن يعملوه لابقاء نفوذهم في صعود وابقاء نفوذ الامة في هبوط فالمعهود فيهم أنهم يعملونه بغمير تردد ولا هوادة . ولا سيما وهم مرجع "The men on The spot " الرأي في عرف حكومتهم لانهم رجال المكان كما يقال عنهم . . . فني أيديهم محاربة كل سياسي مصري لا يحبونه واحباط كل سياسة مصرية لا يريدونها . وقد أطاعوا هذا الشعور لأنه شعور لايمنعهم أن يتهادوا فيه مانع من ارادتهم ولا من ارادة رؤسائهم ، فجعلوا ديدنهم أن يجرحوا الامة في عزتها ويخلقوا الاسباب للتشنىمنهاكلما خالجتها أريحية ظفر أو عزة أو رجا. في بلوغ الحرية ، وتذرعواً بالقمع والنكاية تارة

وبتحضير القضايا التي يقحمون فيها اسم سعد وأصحابه تارة أخرى لأحباط كل سعي يلوح فيه الأصغاء الى المطالب الوطنية أو اجابة شيء منها ، وكان هذا موقفهم الطبيعى الذي صمدوا عليه في أثناء المفاوضات وابتدأوه باستعجال قدوم اللجنة الملنرية ، لا لشيء إلا أن إرجاءها يعد نجاحاً للمصريين الذين أعلنوا النية على مقاطعتها .

بعد عودة الاعضاء

عاد أعضاء الوفد المندوبون لاستفتاء الامة الى باريس سابع اكتوبر وهم معولون على « انهاء الحالة » بكل ماوسعهم من حيلة . فشكروا ماظهر من « رشد الشعب و من تقديره لجميع الظروف السياسية التي تحيط بالفصل في مصيره » ووصفوا تعليقات المعلقين على المشروع « بالرغبات » تسهيلاً لاغفالها أو تأجيل النظر فيها . وأصبح الخلاف الجديد بين سعد وأصحاب هذا الرأي هل هذه التعليقات رغبات يستوي تقديمها و تأجيلها أو هي تحفظات يجب النظر فيها قبل اجراء المفاوضات الرسمية وأولها التحفظ الخاص بالغاء الحاية وحذف الاشارة اليها في المعاهدات الدولية .

ولكي لايقال إن سعداً يتعنت في هذا الخلاف لم يشترط الغاء الحماية توا قبل اجراء المفاوضات ، بل اكتنى بالوعد بالغائها في المعاهدة التي تسفر عنها المفاوضات بعد اجرائها . ولم يكن في وسعه أن يقبل مادون ذلك إلا إذا قبل أن تذهب الثورة المصرية كلها و تدهب ويلات الحرب من قبلها في سبيل الفاظ وعناوين لم تقدم ولم تؤخر في حقيقة الحماية ، ولم تنل منها الآمة حتى الغاء اسم الحماية في الشكل والصيغة .

وأرسل اللورد ملنر الى الوفد بعد عودة أعضائه من القاهرة رسولاً يدعوهم الى لندن للنظر في نتيجة الاستفتاء . فسافرعدلي و تبعه سعد في الحادي والعشرين من شهر اكتوبر ومعه ثلاثة من زملائه ، ثم لحق بهم بقية الأعضاء بعد بضعة أيام.

وقد تبين من المقابلات الأولى مع اللورد ملنر أنه يأبى البحث في التحفظات والرغبات ويتشبث بقبول المشروع كله أو رفضه كله ، ويعارض

معارضة شديدة في تضمين المعاهدة نصاً يقرر الغاء الحماية . ثم رضي باثبات هذا النص في المعاهدة ولكنه تشبث بابقاء الحالة على ماهي عليه في العلاقات الدولية . أي انه رضي بأن تكون الحماية ملغاة في نظر مصر وحدها قائمة في نظر الدول الآخرى إلحقت الربية وبطل الشك وامتنعت المغالطة في حقيقة المشروع ، وثبت أن الحماية باقية لم تتبدل وان المسألة كلما الفاظ في الفاظ ، وان الأمة لا تكسب بهذا المشروع إلا تصحيح مركز الانجليز في وادي النيل وانقاذ الاحتلال من حرج كان يعانيه ، وفي وسعها أن تنبذ المشروع كل النبذ دون أن تعد خاسرة ، أو تكون خسارتها في الرفض أكبر من خسارتها في القبول .

واختلف الأعضاء فكانت القلة في جانب سعد والكثرة في جانب عدلي... وتعلل الأكثرون بفتور الثورة وانصرائ النفوس عن القضية واستبعدوا أن تنال مصر أكثر بما نالته فجنحوا إلى التساهل والتسليم ، وخالفهم سعد وصحبه الأقلون مستكبرين أن يقنعوا من الثورة بهذا النصيب وهي فرصة لا تعود في كل جيل . فتمسكوا بالغاء الحماية فعلا ورسماً وهم يعتقدون أن لا خسارة على مصر بهذا التمسك ولوضعفت فيها المقاومة وفتر فيها الاستعداد للمثابرة . وأقل ماهنالك أن لا تسجل التفريط المحقق على نفسها وأن لاتركن الى قعود الخيبة بعد انبعاث الرجاء ، ولا تزال متربصة لاستئناف الجهاد كلما قدرت علىه .

والفرق بين الفريقين انما هو الفرق بين فئة يقودها زعيم مطبوع على قيادة الشعوب، وفئة يقودها موظف لاشأن له بحياة الجماعات، ولعله لايكره أن تثبت الآيام صدق نظره وحسن تقديره يوم أن قبل الحماية ولم يعول على ثورة الجماعات . . . فهذه ثورة مصرقد مضت في طريقها وجاءت بغاية ماعندها ولم تنته الى خير مما انتهي اليه بلا ثورة ولا زعامة ، ولا اعتماد على شيء غير الهوادة والمرونة .

وإذا لاحظنا أن أعضاء الوفد تحولوا من الرفض بالاجماع في شهر يونيو الى التردد أو القبول في شهر أغسطس والمشروع واحد والحالة واحدة لم يصعب علينا أن نفهم ماذاكان من أثر الوساطة التي قام بها عدلي في خلال هذه الفترة وأوجبت عند الانجليز أن يكون هو المعتمد في اجراء المفاوضات المقبلة.

وربماكان أحرج المواقف في هذه الفترة المرهقة هو موقف اللورد ملنر صاحب المشروع الحريص على انجازه المشفق من الهزيمة بين معارضيه من الانجليز ومعارضيه من المصريين. فقد كان بعض زملائه في الوزارة - وعلى رأسهم اللورد كرزون - يستكثرون المشروع على المصريين ويزعمون انهم قادرون على اقناعهم بما دون ذلك مع الحزم والمطاولة والتدويخ. وكان ملنر نفسه قد وصل الى أقصى مايريد وأقصى مايستطيع، فليس في وسعه أن يطلب من الوزارة البريطانية مزيداً فوق ماطلب ولا في وسعه أن طلب المزيد أن يطمع في الاجابة ، ولكن الفشل مع هذا مرير ثقيل ولاسيا في اخريات الحياة وأخريات السيرة الوزارية. فألتى الرجل كل اعتهاده على اعتدال عدلي وأصحابه ، ونجاحهم في اقناع زملائهم واقناع الأمة بعد ذلك بتأجيل الرغبات والتحفظات الى المفاوضات الرسمية ، وهي كفيلة بفضل « الاعتدال » ان قضض المشكلة على الوجه الذي يرضاه ،

وسرعان ما ظهر أن عدلي ومانر يعتبران أنهما صف واحد في مراس العناد الذي يبدو من سعد زغلول ، وأن التفاهم بينهما على ذلك ينطلق مع فلتات اللسان بغير احتراس ولا مداراة في بعض الاحيان ، فبينها كان سعد معهما في احدى الجلسات الأخيرة اذا بملنر يلتفت الى عدلي ويقول له بالابجليزية . « الا يكف هذا الرجل عن عناده ؟ » أو قال ماهو أقسى من ذلك في العبارة . . فرد عليه عدلي بالانجليزية أيضاً قائلاً : « لافائدة 1 » ونسيا أنها بمحضر من رجل ثالث وأن هذا الرجل الثالث هو موضوع السكلام ، وموضوع « التفاهم » قبل السكلام ،

ومهما يكن من معنى هذا النفاهم فان و الدور ، الذي قام به عدلي في هذه المرحلة هو الدور الذي كان لازمًا للسياسة البريطانية بغير مراء فقد كان يعوزها رجل تتغلب به على نفوذ سعد زغلول أو على عناده وقوة مراسه وتستعين به على فض الكثير أوالقليل من انصاره . وليقل القائلون ماشاء وافي نيات عدلي وأعماله فليس في مقدورهم أن يزعموا أنه كان يعمل وهو مغمض العينين مسوق الى الغاية التي ساقه اليها الموقف بغير قصده واعتماده ولا أنه كان يجهل الغاية التي عمل لها من البداية ، وتأهب لها من يوم أن طالب سعداً بخطاب مفصل يتمسك به عليه ، قبل أن يقطع تذكرة السفر الى باريس. ولا نظن سعداً كان يجهل مافي طوايا هذا (الدور) من الاحتمالات والمحاولات ولكنه أو كان يسترسل مع حسن الظن على الرغم من جميع الظنون والشبهات ، ولكنه على مانرجح كان يأمل أن تتألف الوزارة العدلية لاجراء المفاوضات الرسمية مع الوطنية للنظر في نتيجة المفاوضات ، وكان هذا خيرًا من شق الوفد على نفسه وخيراً من محاولة عدلي وأصحابه الخلط بين أعمال الوزارة وأعمال الزعامة والسيطرة على الرأي العام .

وما عتم الفريقان — الفريق المصري والفريق الانجليزي — ان فهما معاً بعد قليل من المحاولة أن الاطالة في البحث لاتفضي الى كبير طائل. فاتفقا على المقابلة الأخيرة بين الوفد واللجنة ، وحانت هذه المقابلة في تاسع نوفمبر فذهب الوفد بجملته الى مكان الاجتماع ، وحضر اللورد ملنر وهو بادي الاضطراب فحيا الحاضرين وتناول ورقة تلامنها ما يأتى وهو لا يملك صوته:

« ترامى من المرغوب فيه عقد هذا الاجتماع قبل سفر النواب المصريين بقصد ايضاح الحالة وترك الباب مفتوحًا للعمل بالاشتراك بينهم وبين اللجنة في المستقبل.»

الى أن قال : « إن اللجنة بحمعة رأيها على أنه لا فائدة من زيادة المناقشة

في مسائل تفصيلية في الدورالحاضر » واستطرد قائلاً: « أما ما يتعلق ببلادنا نحن فاننا نرجو ان تقرير اللجنة الذي نحن مهتمون باتمامه في أقرب ما يستطاع سيكون من وراء تقديمه الوصول الى هذه الغاية ، ولكن من المهم أيضاً ان يحدث مشل هذا الآثر في مصر بفضل مساعيكم . وانا نعترف مما قتم به من العمل في هذا السبيل وتحمدكم عليه . ولكن من البديمي انه مازالت هناك معارضة يلزم التغلب عليها . إذ يوجد بين المصريين عدد عظيم لم يشربوا روح الاتفاق يكرهون – لسبب ما – حسن التفاهم بين انجلترا ومصر . هؤلاء يتشككون في نيات بلادناأو يظهر ونأنفسهم بمظهرا لمتشككين ، ولا يقدرون يتشككون في نيات بلادناأو يظهر ونأنفسهم بمظهرا لمتشككين ، ولا يقدرون القبول مطالب الشعب المصري . فأنتم بمقدار ماتستطيعون من تبديد هذه الفنون السيئة ، ومن ازالة سوء التفاهم ومن تقوية الشعور الحسن – تكونون قد قطعتم في سبيل التسوية التي يشغف بها كلانا ، شوطاً لا يقطع وسيلة أخرى.»

فرد عليه سعد بكلمة مرتجلة قال فيها: « انهراغب – كرغبة اللجنة – في إيجاد حالة موافقة للتسوية . ولكن مساعيه في هذا السبيل تضعف جداً إذا لم يستطع أن يعد المصريين شيئاً من جهة التحفظات التي طلبوها . وخاصة اذا هو عجز عن التصريح لهم بأن بريطانيا العظمى ألغت الحماية الغلم نهائياً » . ثم طلب نسخة من الخطبة التي القاها اللورد ملنر ليرد عليها كتابة ، فرد عليها بما لايخرج في فحواه عما تقدم وأضاف اليهاكلية عن القوانين الاستثنائية التي بما لايخرج في البلاد فقال : « إن هناك من جهة أخرى تلك القوانين لم تزل نافذة في البلاد فقال : « إن هناك من جهة أخرى تلك القوانين وغيرها من الوسائل والاعمال التي لا تتمشى مع روح الانفاق ولا مع وغيرها من الوسائل والاعمال التي لا تتمشى مع روح الانفاق ولا مع الرغبة الصادقة التي أظهر تموها في القاء مقاليد حكم البلاد إلى أبنائها »

وأرسل سعد في تلك الآيام خطاباً إلى أحد أخصائه (١) مؤرعاً في سابع نو فمبر يقول فيه : د . . . انا نعاني اليوم صعوبات كثيرة في عرض أماني الآمة التي اعتبرناها تحفظات رغم ما وصفت به عندكم ، ويراد عدم فتح باب المناقشة فيها واحالتها على المفاوضات الرسمية توهماً بأن الآمة تقبل المشروع بدونها وأن الحكومة التي ستتولى أمر هذه المفاوضات تتمكن من اقناعها بوسائل التأثير المعروفة بقبول المشروع ، ولكني مصمم كل التصميم على عدم النزول عن التحفظات المهمة لأن المشروع بدونها لا يكون إلاحماية في ثوب الاستقلال أو استقلالاً في معنى الحماية . . . »

وغادر الوفد لندن إلى باريس في عاشر نوفمبر فأرسل منها ندا. إلى الآمة قال فيه . . . « جاءت نتيجة الاستنارة برأيكم في مشروع الاتفاق مثبتة أن الاستقلال ليس في نظركم كلمة تردد في الفضاء بغير معنى . بل أنتم تريدون استقلالاً حقيقياً خليقاً بكم وبمستقبلكم الذي سيرسل غداً أشعته الوضاءة على مصر الحرة . وهذا الاستقلال سنحصل عليه باتحادنا وبروح التضحية والايمان بانفسنا ، وبعدالة قضيتنا المقدسة إيماناً هادئاً صادقاً »

وظاهر أن أعضاء الوفد المخالفين وافقوا سعداً في موقفه من اللجنة الملنرية مكرهين وسكتوا عن خطته هذه لآنهم أيقنوا بانتهاء المناقشة في هذا الدور واقتراب المفاوضات الرسمية التي ستجرى على أيدي الوزارة العدلية ، فتركوا سعداً يمضي في خطته لئلا يكشفوا تساهلهم وقلة ثباتهم فيضيعوا رجاءهم في ضم الآمة اليهم وينهوها إلى الحذر منهم ، ومن يدري ؟ فلعل اللوردملنر كان يتوهم – وهو يفتحالباب لمناقشة أخرى بين الوفد ولجنته اللوردملنر كان يتوهم – وهو يفتحالباب لمناقشة أخرى بين الوفد ولجنته من الاعضاء المخالفين قادرون على انتزاع القيادة من سعد أو اخضاعه هو لمشيئتهم ، وقد يلوح أن الاعضاء أنفسهم كانوا ينوون هذه النية ويحاولون

⁽١) طاهرافندىاللوزىوالخطاب منقول مزرسالة « اذكروا سعدا ﴾ للاستاذ عبدالقادر هزه صاحب. صحيفة البلاغ مع الحطابات التالية •

هذه المحاولة . فكثرت الخلافات بينهم وبين سعد بعد عودتهم إلى باريس وتعذر الاتفاق على الصغائر التيكانت لا تستحق الخلاف لولا تشعب الرأي فيالمسألة الكبرى ، وطفقوا يحاسبونه علىرسائله وبياناته ويتشددون في احراجه ومراجمة أعماله . وهو يصف ذلك ويذكر عزم المخالفين على مغادرة باريس والعودة إلى القاهرة في خطابين أحدهما قبل سفر الأعضا. مؤرخ في الثامن عشر من يناير سنة ١٩٢١ والثاني في آخر يناير من تلك السنة ، وفي الخطاب الأول يقول : « . . . يسوؤني أنأخبرك بان الخلاف اشتد في الوفد اشتداداً تعذر تلافيه مع ما بذلت من جهد وما وسعت من صدر وما ضيعت من حق وضحيت من شعور . ونقطة الخلاف الأخيرة تنحصر في أن الخالفين يريدون تأييد عدلي في خطته وأريد القضاء عليها لانها مضرة كل الضرر بالبلاد ولايترتب على اتباعها إلا تأييد الحماية وضياع الاستقلال . وقد عزم المخالفون على العودة بعد أن أعياهم الجهد في حملَى على اعلان الثقه بعدلي ، وذلك لكي يقوموا هم بهذا التأييد علناً ان مكنتهم أحوال الامة منه أو سرًّا إذا لم تساعد هـذه الاحوال . أما أنا فثابت في موقني مصرّ على البقاء فيه ولو تخلى عني جميع قومي ، لأنه خير لي أن يتخلوا عني من أن أخونهم بالجري علىخطة أراها مضرة كلالضرر بهم ، وعلى الله اتكالى ومنه أستمدمعو نتي.»

والخطاب الآخر أصرح من هذا وأكثر تفصيلاً وفيه يقول: و...اعتز المخالفون بعددهم ، وأعجبتهم كثرتهم ، فشمخت أنوفهم ، واستطالوا على وحدتنا فقسموها ، وعلى حقنا فهضموه ، فنقضوا في اجتماع خاص بهم ماكان قرره الوفد في اجتماع عام باشتراكهم : رفضوا مبلغاً اذناً بصرفه ، وصرفوا مبالغ لم نأذن بها ، وأبوا أن يسلبوا أمانة الصندوق لمن عيناه من غيرهم ، وقدروا للصرف مدة غيابهم مبلغاً لم يأخذوا في تقديره رأينا مكتفين بتقديرهم . كانهم من أمرائنا وكاننا من أتباعهم : قرروا عودتهم

بدون علمنا ، وأخبروا اللجنة المركزية من عندهم ، وأعلنوا بذلك للملاً انقسامنا وخلافهم . ظنوا الأمةهوى الضعف بروحها ، ولوى اليأس بعزمها ، واستعدت الاستسلام ، فسارعوا اليها لالكي يقوَّموا ضعفها بل ليستميلوها إلى الثقة بمن شكت في اخلاصه ليحسن تسليمها ، وإلى الشك فيمن وثقت بهم ليمتنعوا عن عونها . متوهمين أنها ستحشد الحشود للقائهم وترفع البنود اللاحتفاء بهم ، فلم يكن من الكثير إلا أن أمسكوا عن مقابلتهم ، ومن غيرهم إلا أن واجهوهم بما يكرهون وطالبوهم أن يعلنوا في الخلاف رأيهم فلم يسعهم إلا أن نشروه · معترفين بما أنكروه ومنكرين ماأعلنوه. ولاأدري إنكانت نفوس القوم طابت بما أعلنوه أو رضيت بما نشروا مع سكوتي عن موافقتهم . ولكن يظهر أنها لم ترض به تمام الرضاء لإن بعضهم طلب مني أن أنشر بلاغًا أنني فيه ذلك الخلاف وأؤكد تمام الاتفاق وعدم انقطاعه فلم استحسن طلبهم لأن فيه تغريراً بالأمة ومناقضة للحقيقة التي عمل المخالفون انفسهم على اعلانها وأيدوها بقولهم وفعلهم حتى تغنت بها الجرائد الانجليزية وتغنت بهم وباعتدالهم · ولان هذا الخلاف لايرجع لأسباب شخصية حتى يهون احتماله ويرجى زواله ولايضر خفاؤه ولكن يرجع الى الاختلاف في الغاية والشعور . فهم ملوا العمل وقطعوا الأمل، وقليل ما أعطينا كثير في نظرهم. وقريب ما نرجو بعيد فياعتبارهم والمشروع عندهم يهدي مصر استقلالاً ويبوئها أشرف مركز بين الامم، ونرى فيه حماية ولا يبوي. من المراكز الاأتعسها ، ولايفيــد الاضياع الاستقلال · فكيف يمكنالتوفيق بين هذين الرأيين وهاتين الغايتين ؛ ولوكان أمره منحصرًا بيننا ولم يشعر به خصمنا لتسامحنا ماأمكننا · لكنه علم به على وجه يرفع كل طمأنينة ويضعف كل ثقة ، ومتى انعدمت الثقة بينجماعة تعذر انتظام العمل بين العاملين. فقد كتب الاورد مانر خطابًا لبعض أصدقائه وبيدنا نسخة منه جا. فيه مانصه : ﴿ إِن أَصِحَابِ زَعْلُولَ بِاشَا مِن يُطْلِبُونَ نَفْسٍ

مطالبه قد بذلوا آخر مافي وسعهم لاقناعه بالقبول فلم يقتنع » . . فمن أين علم لورد ملنر هذا المسعى ؟ انه لم يكن مني بالطبيعة . ولا شك عندي في أن علم اللورد ملنر بهذا الخلاف على هذا الوجه كان له تأثير كبير جداً فيها أمداه من التشدد معنا خصوصاً فها يتعلق بقبول التحفظات .

« تعلمون أن عدلي باشا قبل المشروع وسعى بواسطة أصدقائه في الوفد وخارجه في ترويجه وحمل الأمة على قبوله . ومع ذلك ارادأصحابه في الوفد أخيرا أن أعلن للائمة ثقتي به واعتِماديعليه في المفاوضات الرسمية ليحصل على قبول التحفظات فرفضت رفضًا باتًّا . اذ كيف يمكن لي أن أثق هذهالثقة بعدكل ماعندي من المعلومات ، وأن أعول على رجل في تعديل مشروع هو يراه مقبولاً بدون هذه التحفظات مهماكان عنده من سلامة النية وحسن القصد ? . . ومن عجب أن هؤلاء الذين يريدون أن يسلموا لمثل هذا الرجل أمور البلاد يديرها برأيه وبمساعدة من تعرفون لايسمحون لي أن أرسل تلغرافًا أوكتابًا يحمل شكرًا على عمل من الأعمال بدون اطلاعهم ، ويعدون انفرادي بمثل هذا العملجار عًالهموماسًّا بكرامتهم . حتى كانمنهمأنأرسلوللي خطابًا يحتجون به على هذا الانفراد في عبارات جافة لا يوجهها متبوع لتابع . . . أتظن أن جماعة ضعفت الثقة بينهم الى هذا الحد يمكنهم أن يشتركوا في عمل ويمكن أن يقدر لهذا العمل نجاح ؟كلا ! انهم لم يتظاهروا بموافقتنا الااتقاء سخط الامةو تلطيفًا لغضبها ، وإلا فانهم سيعملون في السر على بث أفكارهم وترويج مقاصدهم والدعوة الى تأييد سيدهم الذي رأوا فيه المعين على الوصول الى غايتهم التي ينشدونهاكما تعلمون . ولقد رأيناهم يقابلون بوجوههشة بسامة كل خبريدل على ضعف النهضة الوطنية وفتور الهمم وانحلال القوى ويعبسون للاخبار التي تدل على قوة روحها وكمال يقينها فيحسنالاستقبال . إن نفوسًا هذه حالها يضر وجودها في الافراد فما بالك في القواد؟

« أني كثيرًا ماضغطت شعوري الشخصي ، وتسامحت في خقوقي الذاتية .

بل لم أحسب حسابا لهذه الحقوق . ولكني لا املك أن أتساهل في حق عام عاهدت الا مة على الاحتفاظ به ، فلا استطيع أن أفرط فيه لعدو ولالولي ولكني أسكت اذا لم يضر السكوت به أما اذا رأيت منه خطراً فواجبي يدفعني الى الجهر بالحق . والله ولي العاقبة .

« لابدأن تكونوا علمتم بأناسم مكباتي بككان من بين العائدين ولكنه لم يعد . أنه من صفهم وعلى رأيهم ، ولم يكن مسافرًا معهم . بل في عزمه اللحاق بهم وانما كتبوا اسمه مع اسمائهم تفخيًالشأنهم المكبي يعتزوا باضافة لون آخر الى لونهم ؟ حتى لايقال إن حزب الأمة عاد الى بدايته وانتهى الى غايته . ان الله لايصاح عمل المفسدين.»

وقد تسربت أنباء الخلاف إلى مجالس القاهرة ، وأخذ أنصار عدلي — أو أنصار الوزارة المقبلة — يروجون لفكرتهم في حذر وتكتم تمهيداً لقيام الوزارة ومقابلة الأمة إياها بالتأييد والتفاؤل ، وعلم الخاصة والعامة أن الوفد لم يكن على رأي واحد في مسألة التحفظات ولاعلى خطة واحدة في موضوع المفاوضات الرسمية ، وازدادو اعلماً بذلك من رسالة برقية أرسلما سعد قبل وصول الاعضاء العائدين إلى القاهرة ونشرت في صحيفة الاخبار ذكر فيها ماصرح به للجنة الملنرية من أنه « لا يمكنه ولا يمكن أي انسان للامة ثقة به أن يدخل المفاوضات على أساس هذا المشروع قبل تعديله بالتحفظات ، ثم تماك بهذه الحظة في خاصة نفسه لا يمنع النفوس ترمي إلى أن الوفد مع تمكه بهذه الحظة في خاصة نفسه لا يمنع الغير من الدخول في المفاوضة على خلاف هذا الشرط ، بل يلزمه أن يؤيده و يعلن ثقته بهمتى كان من أصدقائه وهي فكرة أقل ما فيها أنها غير مفهومة ولا يترتب على العمل بها الا إفساد خطة الو فدنفسه ، لان تعديل المشروع بالتحفظات قبل الدخول في المفاوضات خطة الو فدنفسه ، لان تعديل المشروع بالتحفظات قبل الدخول في المفاوضات غيل أن يكون في اشتراطه مصلحة أولا . فان كان فيه مصلحة فلا يصح تأييد

من يخالفه . وان لم يكن فيه مصلحة فلا معنى لاشتراطه ، كما لا معنى لأن يؤيد الوفد عملاً منع نفسه منه سوى أن يسعى لتأبيد خطة منافية لخطته وأن يتحمل مسئوليته أمام الامة عن عمل لا دخل له فيسه ، ولا هو متفق مع مبادئه . لهذا أظهرت لجميع أبناء وطني أني لا أوافق على هذه الفكرة أصلاً وأحذرهم منها ومن تصديق أي قول لم يصدر منج بقبولها ، أو تعديل الخطة التي كررت بيانها للأمة ، وهي أني لاأدخل فيأي مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات ، ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذه الشروط مهما كانت علاقته بشخصي ومهما كانت ثقتي به .»

* * *

جاء هذا البيان قرينة جديدة على وجود الخلاف وايماء موجزاً إلى موضوعه ودواعيه فلما عاد من عاد من أعضاء الوفد عقيب هذا البيان و محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي بك ولطني السيد بك - خامرت الناس الظنون فيما يقصدون ووقر في الاذهان أنهم هم أصحاب الفكرة التي نبتت في بعض النفوس ... وسارع اليهم من يسألهم عن الحقيقة فكاشفوا بعض السائلين وكتموا الأمر عن الآخرين، وأحسوا بعد قليل من مقامهم في مصر أن التيار أقوى من المصادمة و المجازفة فلجأوا الى التقية ورضوا أن يكتبوا إلى سعد مع بقية أعضاء الرفد المقيمين في القاهرة رسالة برقية يعربون فيها عن الثقة به « وتأييده في خطته الوطنية الحكمة.»

واستمرت مساعي التوفيق على هذا النحو ولكن على غير جدوى ـ لأن النفور قد استحكم حتى أو شـك أن يمنع الألفة النفسية ولو اتفقت الآراء والأغراض - فكيف بها وهي على أبعد خلاف ؟

وساعدت الحوادث سعداً فازداد مخالفوه أحجاماً وحذراً من الظهور وازدادوا بغضاً ونقمة معشعورهم بتعاظم نفوذه وخوفهم منالهجوم عليه فقد استقال ملنر وقام في مكانه مستر شرشل المعروف بالغلو في مطامع الاستعار ، ولم تمض عليه أيام في وزارة المستعمرات حتى خطب في مأدبة لتوديع حاكم الهند فأدخل مصر « في دائرة الامبراطورية المرنة » ... وأثار بذلك ثائرة المصريين فرأى « المعتدلون » أنهم مطالبون قبل الآخرين بانكار هذه السياسة التي يظن في مصر أن الحكومة الانجليزية تعتمد عليهم في تنفيذها وترويض الشعب المصري لقبولها . إذلم يكن معقولا أنها تعتمد على « المتطرفين » الذين لم يقبلوا ملنر وهو أهون من شرشل أنها تعتمد على « المتطرفين » الذين لم يقبلوا فيه أنهم « يرون من الواجب والوزيراء احتجاجا على كلام شرشل أعلنوا فيه أنهم « يرون من الواجب أن يؤكدوا أن الحل الصحيح للسألة المصرية لا يكون إلا باتفاق ترضاه الأمة المصرية ي استقلال مصر. »

وقد لاح من استقالة ملنر وحسدها أنها دليل على استعظام الانجليز ما « منحه » المصريين من شروط في مشروعه المرفوض من الجانبين . فاذا كانت الوزارة البريطانية لا ترضى بمشروع ملنر فكيف ترضى بما هو فوقه ؛ وإذا كانت هذه تصريحات خليفته فكيف يرجى منه انصاف أو سماحة في التفاهم على مواضع النزاع ؛ وماذا بتي للمعتدلين المصريين غير الحبوط ؛ وماذا بتي للأمة غير الحذر من عواقب هذا الاعتدال ؟ وزاد الطين بلة أن اللورد ملنر كان قد تحدث في رابع فبراير حديثاً جهر فيه باعتماده على المعتدلين وقال انه « لا يظن أن قوى الفئة المتطرفة تتغلب على نفوذ المعتدلين الذين هم الكثرة بين العناصر المعسدودة في مصر ، وهو مقتنع بأن المعتدلين يدركون ما للعلاقات الجديدة المقترحة بين بريطانيا العظمى ومصر من القيمة والشأن من وجهة الوطنية المصرية.»

وليس من طبيعة المعتداين _ بحكم كونهم معتدلين _ أن يقتحمو امثل هذه العقبات أو يستهينوا بمثل هذه العوارض . فو جب تذليل الصعاب في طريقهم

قبل أن يجترئوا على خطوة أخرى في سبيل المفاوضات الرسمية ، وقد أراد اللورد اللذي أن يذلل الصعاب أمامهم و يقدم لهم المعونة اللازمة بتصريح يعد فيه باسم حكومته أنها تستبدل علاقة أخرى بعلاقة الحماية . فأبلغ و صاحب العظمة » السلطان قرار حكومته الذي جاء فيه أنها و تستنتج أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبق فيها مصر تجاه بريطانيا العظمى . ومع أن حكومة جلالته لم تصل بعد الى قرارات نهائية فيها يختص باقتراحات اللورد ملنرفانها ترغب في الشروع في تبادل الآراء في هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان للوصول _ إذا أمكن _ إلى ابدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصية التي لبريطانيا العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الإجنبية و تطابق الأماني المشروعة لمصر والشعب المصري »

وهذا قرار قد خلا من كل وعد قاطع ترتبط به الحكومة البريطانية ، وقيد الوعد المبهم الذي فيه بالامكان وبانتظار التوفيق بين العلاقة الجديدة ـ التي لا يعرف أحدماهي ـ وبين مصالح بريطانيا العظمى ومصالح الدول الاجنبية كما تراها السياسة البريطانية ، ولكنه مع هذا قد سهل مهمة الوزارة المنتظرة وقابله الوفد في باريس بالتزام الحيدة ومراقبة الأحوال ريثما يتم التمهيد الضروري للفاوضات الرسمية ، وأرسل سعد في طلب الاعضاء المقيمين عصر لموافاته في باريس ، فاجتمعوا واتفقوا على السفر بعداً سبوع .

وانهم لني انتظار الحوادث اذابالوزارة النسيمية التي كانت يومئذ في الحمكم تستقيل واذا بعدلي باشايدعي إلى تأليف الوزارة. فعدل الإعضاء عن السفر ونمت إلى سعداً نباء من القاهرة عدلت به هواً يضا عن البقاء في باريس، فاعتزم الاياب الى مصر على عجل، وقال لمندوب شركة روتر إنه يعود للباحثة في التعاون مع الوزارة في المفاوضات الرسمية على أثر التصريحات البريطانية والمصرية الحديثة، وانه عازم على الوصول بالبرنامج الوطني الى نتيجة مقرونة بالنجاح. وكذلك التحفظات التي طلبها المصريون في مشروع الاتفاق بين الوفد واللجنة الملنرية،

الوزارة العدلية

في ظاهر الأمركانت الوزارة العدلية هي الوزارة المرقوبة دون غيرها لاجراء المفاوضات الرسمية أو حل القضية المصرية. ولكن السياسة في مصر لا تستقر على شيء محقق إلى زمن طويل. فني الوقت الذيكان فيه المطلعون على الشئون الوزارية يترقبون وزارة عدلي بعد استقالة الوزارة النسيمية كانت البواطن وشيكة أن تكذب الظواهر بين آونة وأخرى ، وكان الانجليز كعادتهم يتركون الباب مفتوحاً لتجربة أخرى من تجاربهم الكثيرة التي لايسأمونها، وكانوا يترددون في اختيار عدلي دون غيره. وبخاصة لأن الأعضاء الوفديين لم يجهروا بانشقاقهم على سعد كما كان الأمل في مساعيه.

قال اللورد جورج لويد في أوائل الجزء الثاني من كتابه مصر منذ عهد كرومر: « أصبح عدلي باشافي هذه الآونة وهو محور كل تركيبة ملائمة ، وألق عليه البريطان رجاءهم على وجه الخصوص ، فقد كان الزعيم المعتدل الوحيد الذي كان على صلة حميمة برؤساء الزغلوليين وكان له النفوذ الأعم بين الطوائف المختلفة من غير الزغلوليين . وهناك رئيس الوزارة لابد أن يعطى منزلته وتصان له كرامته ، وهناك محد سعيد باشا وأصدقاؤه الأقوياء من أمراء البيت المالك ، وهناك رشدي باشا وثروت باشا ومظلوم باشا الذين لا ينبغي اغفالهم والنهاون بأمرهم ، وهناك بعد ذلك كله جماعة المستقبل النيانية التي لابد من ضمان موافقتها على نحو من الأنحاء . أما زغلول فالشائع أنه لا يقبل الحدمة وأن زملاءه لن يغادروه كائناً ماكان الاشتراك بينهم و بين عدلي باشا في الفكرة وقد تنحى مظلوم باشا الذي أراده السلطان رئيساً لوفد المفاوضة فوجب من ثمان ترسم خطة جديدة . وكانت النتجة قيام الوزارة العدلية »

ثم قال : «إن عدلي باشا لم يكن يقبل العسمل برئاسة توفيق نسيم باشا رئيس الوزارة يومذاك ، ولم يكن السلطان يرضى أن يتبوأ عدلي مكانة كبرى . ومن مشيريه في ذلك محمد سعيد باشا الذي كان معهوماً أنه يعارض سياسة المعاهدة برمتها ولا يني يدس الدسائس لاحباطها . ولم يسع المندوب السامي في نهاية الامر إلا ان يتدخل لوقف هذه الدسائس العقيمة ، فقامت الوزارة العدلية والسلطان لا يودها ولكنها على كل حال خير ما يتسنى الوصول الله لهذه الغاية.»

* * *

وهكذا قامت الوزارة العدلية والجمهور لا يعلم شبيئًا عن دخائل الاحوال التي أحاطت بقيامهاً من ناحية الوفد أو من ناحية الانجليز أو من ناحية السلطان . فاستقبلتها الأمة بشي. من الترحيب لم تستقبل به وزارة قبلها بعد الحرب العظمي ، وكان معظم المحتفلين بهـا أنصار الحكومات. وطلاب المصالح عندها بمن كانوا يتحاشون تأييد الوزارات المكروهة مخافة سو. السمعة . فلما وجدوا وزارة لا حرح من تأبيدها تهافتواعلها وشجعهم ما رأوه من حفاوة أصـــدقائها الوفديين ووقوف زملائهمالآخرين منها موقفاً لا عدا. فيه ولا مهاجمة ، وتوالت عليها وفود المهنئين ورسائل التهنئة من مجالس المديريات والمجالس المحلية وسائر الهيئات التمثيلية . أما الجمهور فكان معظم ترحيبه بهما في الحقيقة ترحيباً بزوال الوزارة النسيمية التي اشتد بغضه إياها لما أصابه في عهدها من جور السلطة العسكرية ومغاشم الاحكام الاستثنائية ، وكان قريب عهد بصدور الاحكام الصارمة في قضيةً عبد الرحمن فهمي بك وأصحابه وهو كاتم السر في لجنة الوفد المركزية ، والجمهور يعتقد أن توفيق نسيم باشا كان ينطوي له على ضغن خاص لاسباب سياسية وغير سياسية ، وبما كان يذكره الجمهور لنسيم باشا أنه كان أحد رجلين اثنين في محكمة استثناف رفضاً التوقيع على توكيلات الوفد الأولى، وأضاف إلى رفضه أنه حمد الله على برئه من حمى الوطنية 1 فلما انتهت وزارته شعر الجمهور بالفرج وتفاءل بقرب انتهاء القضايا والمصادرات والتهم السياسية ومظالم السعاية والجاسوسية , وتهيأت الفرصة من جهات شتى للوزارة العدلية فنشأت في جوّرائق وطمعت في مساعفة الآمال.

وعدلي يكن رجل مشهور النزاهة موفور الكرامة يقصد الخير ويؤمن في ارتضى لمصر من مصير بأن ليس في الامكان خير بما كان . ولكنه إذا أصبحت المسألة مسألة جماهير وطبقة حاكمة فهو ولا ريب في جانب الطبقة الحاكمة بسليقته وموروثاته ونشأته الهادئة ونفوره من الحركات الشعبية ولاسيما إذا كانت من شعب لايمتزج به امتزاج الدم والسلالة . فلو ولعل فاصل الطبقة أوسع من فاصل الجنس والسلالة في هذه المسألة . فلو كان عدلي باشا في البلاد التركية — لا في مصر — لما اطمأنت نفسه إلى حركات الجماهير هناك ولانسي الفارق بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة ولو امتلات جو انحه بالنخوة الوطنية والنعرة الجنسية ، وهوعدا ذلك قليل الطموح قليل الجلد على الكفاح ، فلا جرم يقنع بأيسر الامور ولا يشعر مع ذلك بأن ماقنع به شيء يسير بالقياس إلى جماهير المصريين .

وفي وسعنا أن نعرف من خطابه إلى السلطان القصد الذي يرمي اليه بتأليف الوزارة بعسد الخلاف بين أصحابه وأصحاب سعد من الاعضاء الوفديين. فهو يقول في ذلك الخطاب بتاريخ السابع عشر من شهر مارس ان الوزارة و ستجعل نصب عينها في المهمة السياسية التيستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانيا العظمى وبين مصر الوصول إلى اتفاق لايجعل محلاً للشك في استقلال مصر. وستجزي في هذه المهمة متشبعة بما تتوقاليه البلاد و مسترشدة بما رسمته إرادة الامة وستدعو الوفد المصري الذي يرأسه سعد زغلول باشا إلى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض. ومما يوجب الارتياح أن تصريح الحكومة البريطانية بأن المفاوضات ستجري على أساس

الغا. الحاية من شأنه أن يسهل مهمة الوزارة من هذه الوجهة . فان ذلك التصريح الذي يدل على حسن استحداد بريطانيا العظمى بما يدعو إلى الأمل بأن المفاوضات التي ستحصل بهذه الروح ستفضي إلى اتفاق محقق للأماني الوطنية ، ويكون فاتحة عصر جديد بين البلدين شعاره المودة و تبادل الثقة . وسيكون للأمة على لسان الممثلين لها في الجمعية الوطنية القول الفصل في هذا الاتفاق.

« وبما أن هذه الجمعية ستكوزأيضاً بمثابة جمعية تأسيسية فان الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير مشروع دستور موافق للمبادي. الحديثة للأنظمة الدستورية . وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التي تكفل تمام حريتها وتنظم بكيفية تحقق تمثيل رأي الامة تمثيلًا صحيحاً.»

« وفي هـذا المقام تعرب الوزارة عن اعتقادها بأن الظروف الحاضرة تبرر الاسراع في الرجوع إلى النظام العادي وبأنها ستتمكن — بفضل نفوذ عظمتكم — من رفع الأحكام العسكرية والغاء الرقابة في القريب العاجل. وإنا نعتمد على حكمة الأمة في تسهيل هـذا العمل الذي يحقق نجاحه أعز أماني الوزارة ،

هذا هو البرنامج السياسي الذي أثبته عدلي باشا في خطابه إلى السلطان. وفي وسعنا كما قلنا أن نعرف وسيلته إلى تحقيق هذا البرنامج مع الاستعانة بالوفد لأنها لا تحتمل أكثر من وجه واحد: يدعو الوفد إلى الاشتراك في المفاوضة ، وتصل الدعوة إلى الوفد والكثرة فيه من أنصار الوزارة العدلية وطلاب « إنهاء الحالة » بكل حيلة ، ويجري البحث بين أعضاء الوفد في اختيار من يمثلهم في المفاوضات الرسمية فيقع الاختيار على اثنين أو ثلاثة من أنصار الوزارة وموافقها في الخطة والغاية ، وهم قلة في الوفد الوزاري الذي يتولى المفاوضة الرسمية لايقدمون ولا يؤخرون ، ولكنهم لو كانوا كثرة لما عاقوا الوزارة عن خطتها وغايتها لانهم جميعاً على تفاهم في السياسة منذ تمت المفاوضات الملذية ، ويسافر الوفد الوزاري لامضاء المعاهدة.

كائنة ما كانت والتبعة فيها من نصيب زغلول والحل فيها من شأن عدلي وهو المستفيد من اشتراك الوفد ــ الذي يرأسه سعد زغلول باشا ــ في التبعة والمفاوضة والامضاء .

يجري هذا وسعد في باريس ، والجو في مصرخال الوزارة تهيؤه لقبول ما تأتي به من العاصمة الانجليزية ، والاقبال على الانتخابات والترشيحات يتيح لها كسب الاعوان والاتباع والمرشحين والناخبين ، ويساعدها على نجاح هذا التدبير كله أنها تعمل ولا منازع لها في الظاهر ولا عاربة بينها وبين الوفد تبيح له أن يأخذ لنفسه العدة وأن يتتي هذه الغارة الخفية ، فلا يشعر سعد إلا وهو والامة معه في قبضة الوزارة العدلية تملي عليه ماتشاء ، فيستوي منه الاذعان والاماء .

إن سكن سعد إلى هذا التدبير فذاك ، وإن تبرم به فالكثرة من أنصاره يخذلونه ، وجاه هؤلاء الانصار في البلاد وجاه الوزارة يتعاونان على إخضاعه وفض الأشياع والمعجبين من حوله . ويكمل الآمر كله يوم يعود الوفد الرسمي بالغاء الحاية في يد وبالمعاهدة في اليد الأخرى ، ولا معارض هناك ولا من يحفل بالمعارضة بين سواد المصريين ونخبة الساسة المتألبين .

و تكاد تبدو هذه النية منخلالذلك الخطاب الذي وعدت فيه الوزارة بدعوة الوفد إلى المعاونة . ففيه تقول الوزارة عن الانتخابات الدستورية : « وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التي تكفل تمام حريتها و تنظم بكيفية تحقق تمثيل الامة تمثيلاً صحيحاً» .. فما الحاجة إلى وعد الوزارة باجتناب الضغط في الانتخابات إذا كانت تضمر في نيتها بقاء الصداقة بينها وبين الوفد وجمهرة الامة ؟

ماحاجة الوزارة إلى ذلك الوعد إذا كانت ستنزل إلى ميدان الانتخابات وهي لا تحسب حساباً لمعارضة تخشاها وتتوقع أن تجيئها في الجمعية التأسيسية بكثرة تناوئها ؟ إنما هذاكلام من يتشالنية على نزول الميدان لحسابه ، وتوقع المعارضة القوية من غيره ، وإنما تنطق البديمة هنا من ورا. اللسان .

ترامت الانباء تترى إلى سعد في باريس ، وسمع من قبلها بأسهاء الوزراء وفيهم من بينهم وبينه جفاء شـديد ولاأمان لهم في علاجالقضايا الوطنية ، ولم يكن عدلي قد أطلعه على الاسهاء ولو من قبيل المجاملة والابلاغ . فعلم سعد أن الحالة تستدعي المراقبة عن كثب ، وأزمع المبادرة بالعود الى البلاد.

العودة

ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله الى شاطي. الاسكندرية ، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الآمر إن هذا الرجل أقوى قوق في سياسة مصر القومية ، وانكل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم على الرغممن هذا الرجل أو مع اغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل .

لقد كان اليومالرابع من ابريل — يوم وصولهالي الاسكندرية — يوم الجيل بأسره في العالمبأسره ، ولك أن تقول وأنت آمن منالغلو ان استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين . فقــــد انتظمت مصر موكبًا واحداً للحفاوة به من شاطي. البحر، بلمن مدخل المينا.. الى عاصمة الديار المصرية . وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة الى حجرته في فندق « كلاردج » الذي نزل فيه ، وكان الناظر لايرى في كل مكان إلا صورة أسبوع قبـل وصوله والوفود تتزاحم على الاسكندرية من أقصى القطر الى أقصاه ، حتى تعذر المبيت في الفنادق ولجأ النـاس الى البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم الى مكان يسكنون اليه ريثما يحين اليوم الموعود . ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالى المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتى نيفت أجرة الشرقة على أجرة البيت ، وضاقت الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز الى مجاز ، ولما استقل القطار من الاسكندرية الى القاهرة تلاحقت الجموع على طول الطريق تأنى إلا أن تستوقفه مرات في غـير مواضع الوقوف ، ومنهم من كانوا يترامون على القضبان في بعض القرى الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم على المستقبلين . وخرج كل مستطيع الخروج في مدينة القاهرة الى الطريق مابين باب الحديد إلى بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء . فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم. قوماً واحداً لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان على الارادة أن أناساً كانوا يتسلقون الاشجار والاسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لايدرون أنهم معتصمون بتلك الآيدي من خطر الوقوع . . . ولا خطر في الحقيقة من الوقوع ، حيث لاأرض في طول الطريق الا وقد غشاها ألوف الواقفين .

وتمشت السيارة الهوينا وهي تكادتزحف من بطء المشية بين الصفوف به وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيي المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه . وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحيته بهزة الجمهور.

ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال فانما أردنا الأثر الطبيعي المفاجيء الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الامة بما له دلالة قومية . ولم نرد المراسم والاشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة . ويكمفي أن نقول إن مصر لم تتمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع اليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصري واحد قادر على حضوره أو المشاركة فيه ، وانقضى يوم الوصول الى الاسكندرية ويوم الوصول الى الاسكندرية من أهلهما والوافدين اليهماولا في طول الطريق بينهما حادث واحد بما يسجله الموكلون بالامن في سائر الايام . كا نما غاب الافراد في غار « أمة واحدة » الموكلون بالامن في سائر الافراد من نزاع واعتدا.

وعند الساسة المترفعين والحكماء الذين يتحذلقون باحتقار الجماهير ماذلا

يكون ذلك كله الا « زقة » كبيرة تتفرق في ساعات كما تجمعت في ساعات ثم لا أثر بعد ذلك لتفرق ولا اجتماع؟ لكن الخطأ في هذا التقدير إنما هو خطأ الساسة المترفعين والحكما. المتحذلقين . فليس كل اجتماع للجماهير زفة تستحق التأفف والتحقير ، وان اجتماع ذينك اليومين لَعلى وجه التخصيص لم يكن فيه ما يترفع عنه السائس الحقيق بشرف السياسة ولا الحكم الحقيق بمعنى الحكمة · فلم يخرج الشعب لفرجة ولاكان ذلك الرجل الماثل أمام عينيه موضوع تلك الفرجة ، ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بهـا إلى حيث تتلاقى أفواجه وتتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أومناط الامل|لمرجومن تلكالقوة، وإذا وجدتالشعوب نفوسها واهتدت الى سريرتها فأنما تجدها وتهتدى اليهافي لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيهـا حب الزعيم والشوق إلى لاطلاء . وأين يكون الزيف أو البهرج في ذلك الشعور المتجاوب الذي التقت فيه قوة الشعب وقوة الزعم ؟ ومتى يكون اجتماع الجماهير معدناً قويمًا لا بهرج فيه إن لم يكن ذاك الآجهاع الذي أنشأته الطبيعة من قرارتها وأخلته من كل اصطناع يعيبها؟ للشعوب لا شك ساعة اشراق تنكشف لها فها أغوارها وما طرأ عليها من جديد أطوارها ، كاشراق الصوفيّ في يقظة الروح وإشراق الطفل في يقظة الشباب ، وذلك الاجتماع ولا شك كان من خير يقظات الاشراق في الشعوب.

ومن حفاوة الجماهير ماهو عادةً تخرج إلى حد البلادة . ولكن الذين شهدوا تلك الحفاوة ما شعروا قط أنهم يشهدون شيئًا مرسومًا بندبير أو بارادة الجماهير ، وإنما شعروا أنهم بين يدي مفاجأة لدنية كل من فيهامدفوع إلى مجال لم يألفه قبل ذاك ، ولم يكن حديث الجماهير صباح يوم الاستقبال تعالوا نرى كيت وكيت وهلموا نسمع كيت وكيت مما هو محفوظ وموعود

في حفاوات العرف والعادة والتدبير، وإنما كانوا يرتجلون كل شيءو يستقبلون في كل شي. مصادفة الارتجال: ارتجال شعورهم، وارتجال مسيرهم، وارتجال وقوفهم وعبورهم ، وارتجال زهوهم وسرورهم ، وارتجال ماهتفوا وماسمعوا وما أبصروا وما أنتظروا ، لانهمل يحضروا يوماً كذلك اليوم ولم يعلموا إلا أنه سيكون يوماً معدوداً في الآيام لأنه غريب بين هذه الآيام ، وهذا سر التكوف له والتشوف اليه.

ومن المحقق أن تسعين في كل مائة بمن حضروا ذلك الاستقبال لم يروا سعدًا قبل ذلك رأي العين ولم يتعودوا أن يجالسوه في المنازل أوفي الحفولولم يعرفوا ملاعمه إلامن الصورالشمسية ومعظمهاقديم، لأنه لم يخاطب الجموع يوم كان في الوزارة ولم يخاطهم يوم كان في الجمعية التشريعية ، ولم يكد يشرع فى مخاطبتهم بعد الهدنة حتى حيل بينه وبينهم بالاعتقال العاجل ، وقد مضت ثماني سنوات على رؤية من رأوه فيإبان الانتخاب للجمعيةالتشريعية وهمغير كثيرين . فالذين أقبلوا للحفاوة به يوم عودته إليهم أقبلو اكالذين يتشو فون إلى ذات من ذوات الغيب تتجلى لهم فجأة في عالم الشهادة . وقد لبثوا يأملون في الحرية ويمزجون أملهم بحب سمد زغلول ، ويتوقون إلىالنجاح ويمزجون توقانهم بحب سعد زغلول ، ويغضبون لحرماتهم ويمزجونغضبهم بحب سعد زغلول ، ويفرحون بالنصر ويمزجون فرحهم بحبسعد زغلول ، ويحزنون على شهدائهم ويمزجون حزنهم بحب سعد زغلول ، وها هو ذا سعد زغلول حاضر بينهم لمن يراه ويسمعه فهم إذن يبصرون كل ما خامر نفوسهم من خوالج الحياة القومية ماثلاً للعيان ، أو هم إذن يستعيدون ما أحسوه جميعًا ويميرونه صورة حية كصورة المعاني التي لاتزال في حاجة إلى عنو انشاخص، وإذا العنوانالشاخص بطلمن الابطال مل النفس والبصر ، لارمز صامت و لاتمثال. وليس الشعب على خطأ فما أولى سبعداً من حفاوة واعجاب بميزان

الزعامة وأدى أمانة القيادة . وأين هي الآمة المغلوبة التي لا تشرفها وعامة كزعامة سعد في سهاته أو في مناقبه أو في أعماله ؟ وماذا تأمل الآمة المغلوبة من قائدها أكثر من أن ينال لها اعتراف الخصم بوجودها واعترافه بحقها ؟ ؟ وهذه الحماية التي كان المعتدلون يحسبونها قضاء مبرمًا لاكلام فيه ولا رجاء في الغائه أو الوعد بالغائه ألم تصدق فيها عزيمة سعدو تكذب فيها روية والاعتدال ومرونة المعتدلين ؟ فاذا كان هنالك استقلال لم يتحقق بعدهذا الوعد فالرجاء فيه معقود بعزيمة سعد والخوف عليه محذور من أولئك المعتدلين .

وبينها كان الشعب يستقبل زعيمه ذلك الاستقبال كان للمقابلات الرسمية دورها الذي لابد أن يجري في مجراه . فقد كان أول من استقبل سعداً في ميناء الاسكندرية صاحبه القديم محمد سعيد الذي ذهب يجدد المودة له لأن مزاحمته الحاضرة لعدلي ورشدي وثروت أشدمن جفائه السالف للزميل القديم ، وكان أول سؤال القاه عليه : ماذا أنت صانع بزيارة السلطان ؟ فذكر له سعد دسائس المغرضين الذين نقلوا إلى القصر السلطاني أنه يطمع في رئاسة الجمورية و يتحدث بما زعموه في هذا الصدد من حديث مكذوب . ثم قال إنه سيذهب لزيارة القصر و تقييد اسمه في سجل التشريفات ، ولكنه برجو أن يسبق ذلك دليل من السلطان على الرضى والاعراض عن دسائس المغرضين ، وان زيار ته لتقديم واجب الولاء لا تقابل بالعزوف والاهمال . فأسرع سعيد باشا إلى التلفون يخاطب ديوان التشريفات و يرجو أن يذهب من لدنه من يلقي سعداً عند وصوله إلى محطة العاصمة ، ولم ينكشف الناس بما حدث بعد ذلك الا أن سعداً لم يذهب إلى ديوان التشريفات .

أما دار الحماية فلم يزرها كما جرى العرف بين الوزراء والساسة المصريين في ذلك الحين ، لأنهلم يشأ أن يعترف بالحماية وهو ناهض لالغاء الحماية ، وأما الوزراء فقد قابله منهم عدلي يكن باشا ورشـــدي باشا على المحطة مقابلة الاصدقاء ، و لكنها كانت كمصافحة الاندادقبل بداية الصراع .

الخلاف على المفاوضة

استهل سعد جهوده في مصر ببلاغ شكر فيه الآمة على ثقتها وحفاوتها وأقسم فيه أن لا يدخر شيئاً من وسعه لتحقيق هذه الثقة الغالية وأن لا يتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعه نصب عينه . ثم قال : « إننا لم نعد إلا لنقوي بعزائم مو اطنينا الكرام عزائمنا ونشد ازرنا باتحادهم المتين ، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة ، ونتأ كد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية الذي دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادي التي وضعتها الآمة وعاهد ناها على احترامها ، ومع الخطة التي رسمتها و تعهدنا بمتابعتها ، ولا شيء أحب إلى قلو بنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بارادة الآمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السياسية .»

وهو كلام فيه مافيه من وعد وحذر و تأهب للحوادث ·

ولم يلبث أيامًا في القاهرة حتى ثبت له أن الوزارة تريد أن تستعين به ولا تريد أن تعينه ، وان غاية ماعندها من الرغبة في معاونته أن تنال منه كل ما لديه من التأييد و تلق عليه كل ما اضطلع به من التبعه ، دون أن تكون له في المفاوضة الرسمية مشاركة راجحة .

وفي ابان الولائم التي كانت تقيمهاطوائف الآمة طائفة بعد طائفة تأييدًا له واعلاناً للثقة برأيه وعمله كان البحث يجري بينه وبين الوزارة بعير انقطاع في شروط المفاوضة و تأليف الوفد الرسمي الذي يتولاها. و لما ان كثر اللغط في هذه الشروط و تضاربت فيها أقاويل الوزاريين والسعديين صرح سعد في حديث له مع أحد الصحفيين بأن الوزارة والوفد لم يتفقا بعد على شرط العمل المشترك بينهما ، وفصل هذه الشروط التي ينبغي النص عليها في المرسوم السلطاني وهي : أولاً — الوصول إلى إلغاء الحماية الغاء تاماً صريحاً أى الغاء الحماية المناء عليها في المرسوم السلطاني وهي :

التي وضعت على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٤ والتي وردت في معاهدة فرساي ومعاهدات الصلح الآخرى التالية لها .

ثانياً — الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً دولياً عاماً سواء اكان في المداخل أم في الحارج مع مراعاة ارادة الامة التي أبدتها بالتحفظات المدخلة على مشروع اللورد ملنر عند ما عرض عليها قبل الدخول في المفاوضات.

ثالثاً ــ إلغاء الاحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبــل الدخول في المفاوضات .

رابعاً — أن تكون «غالبية » المفوضين الرسميين للوفد وأن تكون زماسة المفاوضة من الوفد .

وكان قد شاع على لسان الوزاريين أن الوزارة تأبى السهاح بالشرط الأخير لأن التقاليد المصطلح عليها في المفاوضات الدولية تقضي بأن يتولى رئيس الحكومة رئاسة المفاوضات . وهو قول تناقضه الحقيقة كما هو معلوم . . . فقال سعد في بيان وجهة نظره في هذه المسألة : « ان الوفد يرى أهمية كبرى لؤاسة المفوضين . لأن الوفد هو المسئول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها ويجب حتماً أن تكون بيده ادارتها حتى يتصرف فيها بابداء كل ما يراه صالحاً ويوصلها و يقطعها على حسب الأحوال ، ولا يمكن أن يتمكن من ذلك إذا كانت الرئاسة بيد غيره . أما القول بأن هذا ليس منطبقاً على التقاليد المرعية فأي تقاليد يريدون ؟ أن لكل بلد تقاليده الخاصة به ، ولم يقع لمصر حادث كالحادث الذي نحن بصدده حتى يكون لنا فيه تقاليد سابقة يرجع اليها ويقال بالتمسك مها.»

إلى أن قال: « ان حادثتنا نادرة في بابها ، ولصاحب السلطان أن يجري فيها طبقاً لما تقتضيه المصلحة . وما دامت سلطة المفوضين تمنح من السلطان والأمة فما هو المانع الذي يمنع عظمة السلطان من أن يعهد بهذه الرئاسة لمن كلت ثقة الآمة به ؟ فاذا منحها عظمة السلطان للوفد فمنذا الذي يتضرر من ذلك وينتقده ؟ أهم الانجليز وليس لهم في ذلك شأن كما صرحوا ؟ أم هي الآمة المصرية وهي تود بل تحتم أن تكون الرئاسة في الوفد لنائبها ومحل ثقتها ؟ فمن يكون له بعد ذلك الحق في الشكوى ؟ »

وقال: « اني لم أسع ولن أسعى فيأن أكون مفاوضاً ولكن الحكومة رأت ضرورة اشتراك الوفد في المفاوضات فرأى أنه لا يمكنه قبول الاشتراك بدون تلك الشروط»

وختم حديثه قائلاً: ﴿ أَمَا مُسَلَّكُ الوفد بازا. الوزارة إذا انفردت بتولي المفاوضات _ أي إذا فاوضت الوزارة على غير شريطة الوفد وبعبارة أخرى بغير مرسوم سلطاني تتعين فيه مهمتها تعييناً دقيقاً كما بينت ذلك فيما تقدم _ فان الوفد لا يؤيدها . بل لا يمكنه تأييدها أيضاً إذا عين للمفاوضة من لا يكون حائزاً لثقة الامة حيازة تامة.»

أما الوزارة فقد قالت عن الغاء الاحكام العرفية والرقابة الصحفية إنها صرحت في برنابجها وأن ذلك من أعز أمانيها . وهي قد مضت في تحقيق هذه الامنية ومهدت السبيل للرجوع إلى القوانين العامة فيها يتعلق بحفظ النظام . وقالت عن رئاسة المفاوضات : ﴿ إِنَّ التقاليد السياسية في جميع البلاد لاتسمح بحال من الاحوال أن يدخل رئيس حكومة في مفاوضة سياسية و لا يكون رئيس الهيئة الرسمية التي تتولاها من قبل بلاده.»

وكلام الوزارة في هذا الصدد قد يصح إذا كان واجباً محتوماً أن يشترك رئيس الحكومة في وفد المفاوضة ؛ ولكن الوزارة كان فيها نائب رئيس هو حسين رشدي باشا وكان من الجائز أن يشترك هو في الوفد دون رئيسها . وكان من الجائز أيضاً أن ينوب سعد عن الحكومة المصرية في هذه المهمة . الا إذا كانت الحكومة تراه صالحاً للتأييد واحتمال التبعة ولا تراه صالحاً للاعتماد عليه في المفاوضة 1

وكيفما كان الآمر فني رأي المنصفين أن سعداً لم يعدُ حقه في رفض ماعرضته عليه الوزارة ، لآنها كانت تريد وفداً رسميًّا تكون لها رئاسته وكثرة أعضائه ولا يكون فيه من الوفد المصري إلا قلة معروفة من شيعتها الذين يمالئونها ويقصدون قصدها . وماذا يملك سعدمن الرأي بهذه المشاركة ؟ وماذا يضيره أو يضير الآمة إذا هو رفضها ؟ وأي تبعة أعظم من تبعته في قوجيها والاشراف علها ؟

قد يقال إنه كان عليه أن يقبل المفاوضة ثم يعتزل الوفد الرسمي إذا رضي بمعاهدة لا يرتضيها ولكن ماذا يفيد القضية من ذلك إلا تأجيل الخلاف شهراً أو شهرين بعد بذل التأييد للوزارة في غير حيطة ولا دراية ؟ وإذا بقي سعد مؤيداً الوزارة إلى أن تعرض المعاهدة على الهيئة النيابية المنظورة أفلا نرجع إذن إلى الرفض والخلاف وكل ماجناه سعد من الانتظار أن يضعف قدرته على الرفض والخلاف ؟

الحقيقة أن الانجليز لمينصروا عدلي يكن ولم يحتموا قيام وزارته إلا لأنهم يرجون أن يقبل منهم ما ليس يقبله سعد زغلول. وليس من واجب سعد أن يذلل الطريق لهذا المقصد المريب.

أما انكان الانجليز يسمحون لعدلي بمالا يسمحون به لسعدفهم لا يفعلون ذلك إلا ليلقوا على الامة المصرية درسًا تتعظ بعقباه ، وهو أنها اعتمدت على رجل من رجالها في مناوأة الانجليز ولن يفوز رجل يناوي. الانجليز من أجل حقوق المصريين . .

ومتى ذكرنا أن سعداً لم يشاكس الانجليز في المطالبة ولم يقصر في مجاملتهم عند عرض المطالب المصرية بعد يوم الهدنة وأثناء المفاوضة الملنرية فقد علمنا أن الذنب الذي يحسبه الانجليز على الزعماء الوطنيين هو طلب الحق بأية وسيلة ، وأن الدرس الذي يملونه عليهم هو وجوب التسليم والمجاراة

والتماس الحظوة والزلني ، وهو درس لايجمل أن يعمل به سعد ولا يجمل أن يعمل به المصرون .

وندع الوجهة العامة وننظر إلى الوجهة الشخصية الخاصة ، فنرى ثمة غضاضة لاتعدلها على النفس غضاضة وإن كانت من نفوس الانبياء والقديسين . فلوأن سعداً خضع لما ساموه و تنحى يوم نحوه لصدق عليه قول الترك : إن « الفلاح » لا يصلح إلا للخدمة والتسخير ! وإنما للسادة « الترك » بعد ذلك شرف الظفر واجتناء الثمار وهم قاعدون وادعون . فلعدلي ورشدي أن يخدما الحماية ولهما أيضا أن يجنيا ثمار الاستقلال حين يتصدى لغرسها فلاح من الفلاحين ! ١١ . إن الفطرة الانسانية كلما لتثور في وجه هذه المهانة التي لا يدين لها طالب حرية ، وهو عند ما يثور عليها لا يكون ثائراً لكرامته بمقدار ما يكون ثائراً لكرامته بمقدار ما يكون ثائراً لكرامة وطنه وكرامة العدل بين بني الانسان .

ومع هذا هل كانسعدزغلول ينازع عدلي يكن في الوزارة؟ الانجليز أنفسهم يقولون إنه لم يكن يطلب الوزارة أو لم يكن « يقبل الخدمة » . . . انما كان يطلب رئاسة المفاوضات لآنه كان يطلب ضمان التبعة التي تصدى لها واضطلع بامانة الوكالة من أجلها . ولا نكر ان لهذا الحق ولا ملام عليه .

ولم ينحصر الخلاف على الرئاسة وحدها بل تعداها الى الاحكام العرفية والرقابة الصحفية ، فان هذه الاحكام قد بقيت في مصر ولامعنى لبقائها الاماكراه المعارضين على قبول مالا يقبسلونه أو اكراههم على السكوت وإضعافهم عن المقاومة ، وفيا حدث قبل المفاوضات العدلية وفي أثنائها وبعد اخفاقها دليل على المقصود ببقاء هذه الاحكام .

وأدهى من ذلك أن الوزارة لم تكن خالصة النية فيما وعدت من سعيها في الناء الرقابة الصحفية . فاللورد جورج لويد يقول في الجزء الثاني من كتابه بعد ايمائه الى مفاتحة عدلي للمندوب البريطاني بصدر الاحكام العرفية : «أليس ثمة شيء يتيسر عمله لموافقة بعض مطالب زغلول عن الاحكام العرفية ؟كلا

لسو. الحظ · فان قانون التضمينات ضروري ولايجدي قانون كهذا مالم تنته المفاوضات ويتقرر الدستور الجديد . ألإيستطاع الغاء الرقابة على الصحافة ؟؟ نعم يستطاع اذا كان عدلي يستغني عنه وهو لايستغنى ! »

فبقاء الرقابة على الصحافة المصرية كان اذن بموافقة من الوزارة العدلية ، وسلوك هذه الوزارة والوزارة الثروتية من بعدها في اغلاق الصحف والحجر عليها كان سلوك الراغب في دوام هذا السلاح المفرط في شحذه واستخدامه ، وسيرى القاري. أن الوزارة قداستفادت على الأقل من بقاء الأحكام العسكرية وامعانها في التنكيل والتشهير ، ونقول على الأقل لأن كثيرًا من الناس والحوادث تؤيدهم _ يقولون إن بعض الوزاريين قد هيأوا لتلك الأحكام حجة البقاء بما جرى من مذابح الإسكندرية التي حدثت قبل سفر الوفد الرسمى الى العاصمة الانجليزية .

القطيعة بين سعد والوزارة

وقع الخلاف المتوقع. وتمت القطيعة بين سعد والوزارة على أثرمقا بلة عاصفة بين رشدي وسعد اشتد فيها رشدي كدأبه في الغضب وجابه سعداً مجابهة غليظة ثم تركه وهو يقول: « هـذا آخر ما عندنا. فاصنع ما أنت صانع 1 »

وقد اختلف أعضاء الوفد المصري على مسألة الرئاسة ، فمنهم من أيد سعدًا ومنهم من استقال ومنهم من أعلن الثقة بالوزارة العدلية . فأعلن سعد أنه سيمضي ومن معه في طريقه . وعيب عليه ذلك لأنه -كما قيل يومئذ ـ مخالف للروح الدستوري الذي يقضي بتغليب رأي الكثرة ، ولكن دستور الوفد

الواقع هو نصوص الوكالة التي لايجوز الحزوج عليها ، والروح الدستوري — بعد — لا يمنع القلة في لجنة من اللجان أو هيئة من الهيئات أن تعمل وحدهاعلى حسب رأيها إذا انفصلت عن الكثرة أو انفصلت الكثرة عنها ، ولو كان الوفد مجلساً نيائياً وأجمع على رأي من الآراء لجاز حله لاستفتاء الامة والاتيان بمجلس نيابي في مكانه ، وفتوى الامة ربومئذ هي تغليب رأي سعد وتجديد الوكالة له على مبادي، التوكيل التي لم يخرج عنها ، وكانت هذه الفتوى أظهر من أن تحتاج إلى اظهار ، أوكانت على الآقل تسمح له بالعمل وحده والاعتماد في العمل على من يشايعه ويطمئن اليه .

وقد تطوع كثيرون للوساطة بين الوزارة وسعد من جهة وبين سعد وأعضاء الوفد المنشقين من جهة أخرى فلم تسفر الوساطة عن فائدة ، وكان معظم هذه الوساطات في دخيلتها من قبيل النكاية والزام الحجة ، يقوم بها اناس يبدون الرغبة في الصلح والوئام ويبطنون كراهة هذا الفريق أو ذاك. ومثال ذلك اقتراح الصلح الذي اقترحه بعض رجال الدين ومشايخ الطرق

ومثال ذلك اقراح الصلح الذي اقرحه بعض رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية ، و لحواه أن ينتظر سعد وعدلي حتى يصدر المرسوم السلطاني بتعيين رئيس المفاوضين فن صدر باسمه المرسوم فهو الرئيس ولا اعتراض عليه . . وهذا كلام يراد به الاحراج والزام الحجة ولا يراد به فض الاشكال وعلاج الخلاف ، وأصحابه لايجهلون كيف كان تعيين عدلي باشا رئيساً للوزارة بغير ارادة السلطان ، وكيف يكون تعيينه رئيساً لوفد المفاوضة على هذا المنوال .

وقد كان عدلي باشا بين أن يستقيل أو يعجل باجراء المفاوضة ليخرج من هذا المأزق على حالة من الحالات .

فأما الآمل في نتيجة المفاوضة فضعيف ، لآن الانجليز لا يجهلون أن معاهدة يمضيها عدلي قلما تظفر من الآمة بالامضاء ، ولآن كيرزون الذي كان سيتولى المفاوضة من الجانب الانجليزي معروف باستعظام مشروع ملنر على المصريين والسعي الحثيث لانتقاصه والحد من أطرافه ، ولآن الانجليز

أنفسهم كانوا يستمهلون الوزارة المصرية في تلك الآونة ويفضلون ارجام الأمركله الى فرصة أخرى. ولمكن الوزارة رأت أن الخروج من المأزق بغير اجراء المفاوضة أمر عسير. فهي اذا استقالت فتلك هزيمة واعتراف لزغلول بالغلبة ، ولكنها اذا استقالت بعد الفشل في المفاوضة فقد تجمع في ذلك بين الحروج من المأزق وادحاض ماتري به من التساهل والضعف والتفريط ، لانها رفضت المعاهدة التي رفضها زغلول · وربماكان الانجليز يطلبون تسويغ مركزهم بالصورة الشرعية ولا يشترطون في المعاهدة أكثر من أن توقعها حكومة لهامظاهر التأييد القومي كائناً ماكان حظها من تأييد الامة في الحقيقة ، حكومة لمامظاهر التأييد القومي كائناً ماكان حظها من تأييد الامة في الحقيقة ، في جمع التوقيعات بمن يريدون ولا يريدون ، ويستطيع أنصارها من أعضاء الوفد المنشقين ووجهاء الريف والحضر الذين ينضوون في الغالب الى كل وزارة قائمة أن يجمعوا تو قيعات الاشياع والحدم والاتباع ، فيقال إن وكالة الوزارة نسخت وكالة سعدومشا يعيه ، ويعتمد الانجليز على ذلك وعلى الانتخابات على ووفده الرسمي من العاصمة الانجليزية وهم لا يخافون حرجاً من المعارضين.

ولقد بدأت التوقيعات المصطنعة فعلاً قبل انتهاء المفاوضة ، فكانت وصمة من أشنع الوصمات في تاريخ الادارة الحكومية ، لانهار فعت شأن المزورين المجرمين المستخفين بالقوانين والحقوق من الموظفين وحكام الاقاليم وانزلت العقاب بالامناء المجدين الذين انفوا من تزوير الاوراق والعدوان على الابرياء وساءت العبرة بعد ذلك فاصبحت النذالة نعمة على الموظف الفاجرأ وعلى صاحب الخال الموظفين ، وأصبحت الامانة نكبة على الموظف الصادق الامين أو صاحب الخلق المتين . وراجت سوق الضائر والمنافع وشاعت المصروفات السرية بين الكتاب والدعاة ، فابتليت مصر بلية لا يعوضها استقلال ولا دستور ، إلا بعد جهد جهد .

وانفجرت المظاهرات فقمعتها الوزارة باقسى مافي طاقتها من القسوة والصرامة. وسالت الدما في طنطا بعد صلاة الجمعة فقتل ثلاثة وجرح كثيرون ، وأخذت الضراوة ضابطاً مصرياً من صنائع الانجليز فجعل يعدو بجواده في طرقات القاهرة ويلاحق المتظاهرين وغير المتظاهرين في البيوت ، ويطلق رصاصه على الكبير والصغير و الجالس في القهوة و المطلمن نافذة المنزل ، ويقود المقبوض عليهم مربوطين الى أذناب الخيل ، ويأمر رجاله بأن يطعنوا بالحراب كلمن صادفوه من «التلاميذ» وهم راكضون على غيرهدى في أحياء الماصمة ، كلمن صادفوه من «التلاميذ» وهم راكضون على غيرهدى في أحياء الماصمة ، كأنما هي نقمة مجنون أو ثورة وحش مسعور ، وقد اصطنعه بعضروساء الانجليز واعتدوا جرائمه التي تظاهروا بالسخط عليها والتأفف منها فضيلة له تضمن له دوام الرزق وتحميه من العدل والعقاب ، وظل مكفول المعيشة في كنفهم حتى فصلته الحكومة الدستورية بعد سنوات ، فأخذوه بعدذلك الى السودان في وظيفة من الوظائف العالية لئلايندم رجل مثله على ذلك الصنيع السودان في وظيفة من الوظائف العالية لئلايندم رجل مثله على ذلك الصنيع وأخبث ما جرى في تلك الفترة المشئومة مذا بح الاسكندرية التي قتل فيها ثلاثون مصريًا وجرح مائة وثلاثون ، وقتل من الأجانب أربعة عشر فيها ثلاثون مصريًا وجرح مائة وثلاثون ، وقتل من الأجانب أربعة عشر وجرح ستة وتسعون .

وحدثت هذه المذابح عقب زيارات ومقابلات حامت حولها الشبهات وأومأت اليها الصحف في ذلك الحين. ولا نحب أن نقول فيها كل ما قيل يومئذ على ألسنة المطلعين وغير المطلعين ، ولكننا نلاحظ أن مظاهرات المصريين واجتهاعاتهم لم تلوث قط بسفك الدم ما لم يتعرض لها لمدسوسون من الشرطة الظاهرين أو المستورين ، وإن أحداً من شرار الاجانب الذين عاثوا في هذه المظاهرات لم يحكم عليه في المحاكم العسكرية الانجليرية التي حكمت على عشرات من المصريين بالموت والسجن وهي باسم السلطات العسكرية تستطيع أن تدين الاجانب كما تدين الوطنيين ، وإن أحداً من المستولين عن الامن لم ينزل به العقاب بعد هذه الحوادث كان اتخاذ الحيطة لمنعها كان من المستحيل أو كا نها لا تدخل في أعمالهم التي يستحقون عليها المكافأة والعقاب ،

وان الحكوميين في مصر وانجلترا معاً لم يقصر وافي الاستفادة من هذه المذابح جهد ماوسعهم من فائدة . فاعتذروا بها لتأجيل الغاء الاحكام العسكرية الواعتذروا بها ليقاء الاحتلال الانجليزي وحماية المصالح الاجنبية الواعتذروا بها لبقاء الامتيازات والمحاكم المختلطة الى أن تخلفها محاكم أخرى غيرالمحاكم المحتلفة الى أن تخلفها محاكم أخرى غيرالمحاكم المصرية ، وليس من المصادفات أن لا تحصل هذه المذابح إلا في الوقت الذي يستفيد منها فيه من يطمعون في حقوق البلاد ... كاحدثت مذبحة الاسكندرية المشهورة قبل الاحتلال وكوفي ورجال الامن » في عهدها أجمل المكافات ا

بين هذه الزوابع التي لا تفاؤل فيها ألف عدلي باشا وفده الرسمي للسفر الى العاصمة الانجليزية من حسين رشدي باشا نائب الرئيس في مجلس الوزراء واسماعيل صدقي باشا وزير المالية ، ومحمد شفيق باشا وزير الاشغال ، وأحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية ، ويوسف سليمان باشا الوزير السابق . يعاونهم مستشارون فنيون وكتاب يعينهم مجلس الوزراء . أما الوفد المصري فلم يشترك أحد منه في هذا الوفد وقال عدلي باشا في خطابه الى عظمة السلطان : « . . . الواقع أن امتناع الوفد عن الاشتراك مع الوزارة يرجع عند عدد كبير من أعضائه — لا إلى اختلاف معها — بل الى التزام خطة سبق عند عدد كبير من أعضائه وليس فيها ما ينافي الثقة بعمل الوزارة ما دامت هي ترمى الى تحقيق ارادة الأمة.»

وسافر الوفد الرسمي تحميه الحراب البريطانية ، لاستخلاص الحقوق المصرية من البريطان ولم يفت المنهكمين من المصريين أن يشيعوه في سفره بهذه السخرية وهم مطبوعون على النهكم ، ولكنه تهكم تمازجه مرارة أليمة ومقت شديد .

ولقد كانت الوزارة ترجو أن تفض الأمة من حول سعد فاذا هي كل يوم تفقد الانصار من حيث يكسب هو الانصار ، واذا بانصاره كل يوم يزدادون حبًا له وإيماناً بحقه ، وإذا بانصارها كل يوم يتخاذلون من ورائها وبحارون في الدفاع عنها واقناع الناس بصوابها .

فشل المفاوضات الرسمية

انصرفت هموم الوزارة كلها بعد سفر الوفد الرسمي الى غرض واحد هو تزييف الثقة بالوزارة ونزع الثقة قهراً من سعد زغلول. وتكفل بهذا الامر عبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية الذي تركن اليه الوزارة في أمثال هذه الاعمال، وهو رجل شعاره « إن كل مفعول جائز » مع التستر بالحجج والظواهر : حذر ولكنه اذا اعتمد على قوة تسنده ذهب في الصلف الى أقصى حدوده ، وماكر ولكنه صاحب مكر أقرب الى الكيد منه الى اصالة الرأي وسعة الحيلة . وقد تمادى في تزييف الثقة حتى خرج بها من الجدالى المزل ومن النفع الى الانتقام . سأل نائب من العمال الانجليز وزير الخارجية البريطانية قائلاً : —

« هل يعلم وزير الخارجية أن مليونين وربع مليون من سكان القطر المصري و ثلاثة آلاف وماثة وستة وخمسين من أعضاء الهيئات العامة التي يبلغ عددها ثلاثة آلاف واربعمائة وستين قد وقعوا عرائض التأييد لسعد زغلول باشا؟ وإذا كان الامر كذلك فهل تصر الحكومة على مفاوضة الوفد الذي يرؤسه عدلي باشا؟ »

قاجابه وكيل الوزارة بأنه لم يتلق معلومات من هذا القبيل ، وانه يعلم أن عضواً من أعضاء الجمعية النشريعية قد نشر في الصحف المصرية انه على حين أن سكان القطر المصري لايزيدون على أربعة عشر مليوناً فان عدد الذين قبل انهم وقعوا التاييد لهذا الفريق أو ذاك قد بلغ سبعة عشر مليوناً من المذكور!»

وقد يكون هذا البيان فكاهة مقصودة ولكنه فكاهة لا تبعد كثيراً من

الواقع . فقد كان إرسال الوفود وكتابة العرائض مقياس الكفاءة التي يتطلع بهما الموظف الى الترقي وزيادة المرتب ، وكان بعض الموظفين يسابقون بعضهم في الاكثار من أسماء المؤيدين ، فيكتبون أسماء الأطفال أو الموتى أو الاسماء الملفقة التي ليس لأصحابها وجود ، واستمر هذا أشهراً بلا كلل ولا انقطاع . فليس بعجيب أن يربى عدد المؤيدين المزعومين على عدد المصريين أجمعين . . .

ومن هؤلا. المؤيدين من كان يؤيد الوزارة باختياره ورأيه : بعضهم . عن اعتقاد في صواب الوزارة ونفع الخطة التي سارت عليها ، وبعضهم عن رغبة في جاه الوزارة ومنافعها وطمع في النيابة حين يأتي دور الانتخاب على الاسلوب الذي تجتمع به أسماء المؤيدين المزعومين ! ومتى كانهذاهو أسلوب الانتخاب - كما هو ظاهر - فالنجاح فيه بغير ارضاء الوزارة مطلب عسير.

وكان هؤلا، وهؤلا، بين مخلص وطالب منفعة ينتمون إلى طبقة واحدة هي الطبقة التي تشملها العلاقات الحكومية بين وظيفة أو شفاعة أو نيابة أو صداقة شخصية أو آصرة من أواصر القرابة، وهم أناس لهم خطرهم في الشئون الحكومية وما يتصل بها من المرافق اليومية . ولكنهم جميعاً قلما يقدمون أو يؤخرون في توجيه أمة أو خلق زعامة أو اقتحام خطة قومية ، وهم أضعف ما يكونون عن ذلك في إبان الفورات الاجتماعية التي تعمل فيها هيبة الزعيم القدير أضعاف ما تعمل المصالح المحدودة بين طائفة معدودة ، وهي لا تصمد للتيار الزاخر ولا ترغب في الصمود على نضال .

وقدغالى ثروت باشا بجمع العرائض والتوقيعات لأنه ظن أن الحكومة البريطانية تريد « حجة » تسوغ بها اتفاقها كيفها كان الاتفاق ولا تحسب حساباً لما وراء ذلك من التقلبات ، وانخدع في هذا الظن بما كان يراه من تشجيع الانجليز المحليين واملائهم له في خطله العقيم . وفاته أن يضع نفسه في موضع الحكومة البريطانية ليرى أنها تخشى أن تعطي « الوفد الرسمي » قليلاً

ولكنه اندفع واندفع ولم يترفقأو يتورع ، وانحى على قوة المعارضة في مصر قبل أن يأخذ شيئًا من الانجليز ، وأطمع هؤلاء في ضرب المصريين بعضهم ببعض ، وأفسد الوظائف والاخلاق في غير مصلحة مضمونة ولا عاقبة مأمونة ، وهولو كانوزيراً انجليزياً لما استطاع أن يصنع أكثر ما صنع في مصلحة السياسة الانجليزية ، فليس هذا الدور الذي تطوع له بالدور الذي يؤديه الوزراء المصريون . وليست الخسارة في تركه على مصر بل هي خسارة على خصومها بغير مراء ،

ومن الطبيعي أن يقابل سعد هذه الخطة بما ينقضها ويهتم باظهار الحالة في مصر على حقيقتها ، لكي لا يدع لاحد عذراً من جهل هـذه الحقيقة أو الاغترار بما يشاع عنها في انجلترا وفي البلاد الاوروبية ، وليفسد كل مؤامرة سياسية تؤدي الى حل القضية المصرية بالتزييف والتضليل .

ومن وسائله إلى ذلك نشر الدعاية في انجلترا والسعي في استقدام لجنة من نواب حزب العمال والآحرار الانجليز لزيارة مصر ووصف مايشهدون بين أهلها من حقيقة شعورهم ودخيلة الدعاوى التي تدعيها عليهم صحف الاستعمار أو أصحاب المآرب من أجانب ومصريين . وقد حضرت هذه اللجنة إلى مصر فكان بجرد حضورها وطوافها ببعض الإقاليم كافياً لاستطلاع الحالة من أول وهلة . فان عقيدة المصريين في زعامة سعد كانت أظهر من أن تحتاج في إظهارها إلى انتظار طويل .

ومن وسائله في اظهار حالة مصرعلى حقيقتها أنه قام برحلة نيليـــة من القاهرة إلى أسوان، فاستباحت فيها الادارة الانجليزية المصرية كل ماعندها من أساليب الاباحية السياسية في محاربة الخصوم. فكان مدير الامن العام

والمفتش الانجليزي يطوفان الاقاليم لتحريض كل من يأنسون فيه معارضة لسعد على المقاومة والاستعداد للمهاجمة . وفي أسيوط أعدت « الادارة » مئات من الحفر الابسين الملابس الاهلية مزودين بسلاح الحكومة ، وارصدت في دار على مقربة من مرسى السفينة أناساً من أتباع السراة المنشقين عن الوفد المصري يتبعونهم للخدمة والعصبية لا للرأي السياسي والعقيدة . ومن هؤلاء الحفراء المتنكرين واحد قتل في أثناء الملحمة التي اشتبك فيها جمهور الاسيوطيين وهذه الشراذم المسلحة ، ثم تقدم قاتله إلى المحقق معترفاً على نفسه بالقتل طالباً سماع الشهود من الفريقين فأبى المحقق أن يثبت كلامه وجاهد في طي « المحضر » و « حفظ » الاوراق .

وبينها كانت جماهير القرى تلقي بأنفسها في غهار النيل وتستهدفاللضرب والقتل والغرق لتسبح إلى الباخرة وتسمع سعداً هتافها ودعاءها كان المديرون والموظفون في كل مكان يحولون بين سعد والنزول إلى البر مخافة من الجماهير ومحافظة على حياته من الاعداء السياسيين 1

ولم لا؟؟! فلعل عدواً من هؤلاء الإعداء كان مستعداً في غار المجتمعين باسيوط لاطلاق الرصاص على سعد والنجاة بحياته بين الخفراء المشغولين بالمحافظة على النظام والجاهير المشغولة بالدفاع عن نفسها! أو المذهولة من هول الحادث الشنيع. وكان هذا أيسر شيء يخطر على البال بين ذلك الخليط المائح من المستقبلين لولا أن فرقة الجيش المصري التي كانت معسكرة على الشاطيء حولت مرسى السفينة إلى اتجاه المعسكر فتعذر على المتجمهرين الاقتراب؛ ولولا أن الألوف التي كانت في استقبال السفينة كانت أكثر عدداً وأرهب حماسة من أن يطمع المجرم في الافلات من بينها ناجياً بحياته، ولولا أن الباعث الذي كان عسياً أن يبعث ذلك المجرم المنتظر على اقتراف جريمته ضعيف لا يعدو الطمع في ارضاء سيد أو رئيس ، وقد يكون في قرارة ضميره من السعديين ،

ولم ير سعد وسيلة لتسجيل هــذه الحوادث أبلغ من رفع الامر إلى صاحب العظمة السلطان الذي تجب الشكاية اليه فيهذه الحالة دون الوزارة ودار الحاية . فكتب إلى عظمته عريضة يقول فيها وصفاً لمـا حدث في أسوط : ه لهــــــذا عمدت أخيراً إلى أخطر الوسائل وأشرها سلباً للطمأنينة وضرراً بالنظام. ذلك أنها أباحت لبعض المنتمين للوزارة أن يستأجر بعض الأشرار ويأويهم بأسلحتهم وعصيهم فيأسيوط لاحداث الشغب عند قدومنا . وفعلاً أحدثوه بأن هدموا الزينات التي كانت منصوبة ، وضربوا المحتفلين وأغرقوا بعضهم . وأسالوا دم الآخرين ، وتأكدنا أن الاشارة التي أعطيت لارتكاب هذا الشغبكانت من أحد المكلفين بحفظ النظام ، وعُوض القبض على المشاغبين السفاكين أمر مراقب الامن العام بمنعى من النزول إلى المدينة ، وكتب اليّ بذلك . ولم أرد معارضته منعاً للفتنةُ وضنًّا بأيام ملككم أن تخضب بالدماء فبارحنا أسيوط إلى جرجاً. غير أننا علمنا في أثناء الطريق من مصادر موثوق بها أن مدير جرجا أخبر مراقب الامن العام بانه سيحدث في سوهاج عند قدومنا اليها أشد بما حدث في أسيوط، وأنه أمر مأموري المراكز أن يرسلوا المتشردين والمشبوهين معالاسلحة إلىسوهاجكما أنه جمع فيها أغلب عساكر بلاد المديرية وأكثر خَفَراتُها في زي الاهالي وكلف كلُّ عمدة أن يستحضر من ناحيته عدداً من الانفار بنبابيتهم ، وتنقل في المراكز أمس وعقد عدة اجتماعات حث الناس فيها على أن يعارضوا بالقوة زيارتي لمدينة سوهاج.

وليس ما جاء في هذه العريضة إلا تلخيصاً بحملاً هو دون ماحدث في تلك الرحلة بكثير . فإن المؤامرة تلاحقت على هذا النمط من القاهرة إلى اسوان حتى عاد سعد في أواخر اكتوبر . وكل ذلك والمفاوضات تجري لحل القضية الوطنية برأى الآمة المصرية !

هذا في مصر . أما فيأوروبا وانجلترا فقد ظهر نفور المصريين من الوفد

الرسمي كما ظهر في البلاد المصرية . فمنذ سافر الوفد الرسمي من الاسكندرية في أول يوليو إلى أن نزل بالعاصمة الانجليزية في الحادي عشر منه وهو لا يمر بعدينة في الطريق إلا قابله الطلبة المصريون فيها هاتفين لسعد صائحين في وجه الوفد بصيحات العداء والاستنكار . ولم يبق له من أمل في باطن الامر عند الانجليز إلا أن يتشفع اليهم بما لقيه في سبيل معاهدتهم من سخط المصريين وارتيابهم في نياته ونيات رجاله ، وهي شفاعة لا تنفق عند اللورد كرزون وأمثاله إلا إذا عرفوا أن الوزارة تساعدهم على نجاحهم وليست هي المحتاجة في كل شيء إلى مساعدتهم على نجاحها . وهذا ما لم يعرفه كرزون وزملاؤه من غلاة المستعمرين . فتجهم للوفد وأساء معاملته واسترسل في الغطرسة والصلف حتى قال له رشدي باشا مرة وهو ثائر الاعصاب محتدم الغيظ : « ان جوك يخنقني » ... ورانت الحنية على الرجل وهوالذي قبل الحماية البريطانية ورحب بها وحسب أن الانجليز يدخرون له هذا الصنيع وينصرونه على خصومه في معترك الحضومة ، ففلج ولزم الفراش أسابيع .

وكان عدلي يستنجد بأنصاره في القاهرة ليثبت للانجليز مكانته بين ذوي الرأي وتأييدهم إياه في مفاوضاته ، فوافقه معظم أعضاء الجمعية التشريعية وهم نحوالاربعين . وكتبوا إلى سعد يصفون سياسته بعد عودته من أوروبا « بأنها سلسلة أغلاط سياسية » ويعربون عن ثقتهم بالوفد الرسمي واعتقادهم المصلحة في تأييده . وسأل مندوب روتر سعداً في ذلك فقال : « ان هؤلاء لا يعدون أعضاء بالجمعية التشريعية الآن لانتهاء مدة انتخابهم ، ولو عملت انتخابات جديدة لما انتخب واحد منهم .»

وما هو إلا قليل حتى ازداد عدلي شعوراً بالمأزق الحرج الذي دفعته الحوادث اليه : كرزون ينقص من مشروع ملنر والأمة المصرية لا تقنع بهذا المشروع على أحسن أوضاعه ، ويوشك أن لا تقنع بالتحفظات التي أضيفت اليها لما اضرم نفوسها من الغيظ والألم بعد سفك الدمام وطول

التحدي والازدراء، وخنق الحرية واللجاجة في انكار وكلائها واتخاذ الوكلاء عنها على الرغم منها ، فاندفعت إلى حالة من العناد تقابل فيه التحدي بمثله و تعز فيها مصالحتها بالكثير الحق فضلاً عن القليل الباطل . فاذا يصنع عدلي بين هذين النقيضين ؟ أطال التأجيل والتسويف على غير طائل ، ثم قطع المفاوضات في التاسع عشر من نوفمبر بعدد لقاء وجيز مع اللورد كرزون وهو يتساءل : لماذا لا تعطي الحكومة البريطانية ما تريد اعطاءه بغير معاهدة أو اقرار من المصريين ؟ ؟ وهنا ظهر مرة أخرى أن عدلي باشا يقنع بما دون المطلب الذي يطلبه سعد زغلول ، ولعله يرى المصلحة في هذا القنوع . ولكنه يرفض ما يرفضه لانه يحسب حساباً للمعارضة من قبل سعد ، ويترسم خطاه وهو يصادقه أو يعاديه

ثم عاد عدلي الى القاهرة فاستقبله على المحطة مندوب من قبل صاحب العظمة السلطان ، وجمع من أنصاره الموظفين وغير الموظفين . أما سواد الشعب فقد احتجب في المنازل اضراباً عن المشاركة في هذا الاستقبال أو هذا الاحتفال .

وعرف من اللحظة الأولى أن عدلي باشا ينوي الاستقالة عقب وصوله فاخذ الناس يتساءلون عما ينويه الانجليز بعد اخفاق هذه النجربة الجديدة . ولكن الجو السياسي كله كان يوحي الى الحاطر أن السياسة المقبلة ستكون سياسة تهديد واعتساف وتكشير عن الانياب . وقبل أن يطول التساؤل عن المستقبل بادرت الحكومة البريطانية الى ابراز «تجربتها المقبلة » في خطاب وجهته الى صاحب العظمة السلطان على يدي نائب الملك —اللورد اللنبي — قالت فيه بعد استهلال وجيز : وأنها — أي الحكومة البريطانية — تعتبر اقتراحاتها هذه سخية في جوهرها واسعة النطاق في نتائجها ، وأنها لا يمكنها أن تبقي محلاً لاي أمل في اعادة النظر في المبدد الذي بنيت عليه تلك الاقتراحات.»

ثم خلصت من ذلك الى الوقيعة بين عظمة السلطان ومن سمتهم المتطرفين في الحركة الوطنية فقالت : « هناك علامات على أنه لا يبعد على المتطرفين في الحركة الوطنية أن يزجوا بمصر ثانية في الهوة التي لم يطل العهد على انقاذها منها » وهى تعنى الحركة العرابية التي سبقت الاشارة اليها في هذا التبليغ .

وقالت عن السياسة التي تتبعها في الحاضر أنها « لا يمكنها تنفيذ اقتراحاتها بدون رضاء الآمة المصرية واشتراكها . ولكن حكومة جلالته تحافظ على الرغبة التي كانت لديها على الدوام وهي العمل على انماء مواهب المصريين بزيادة عدد الموظفين منهم في كل نوع ولاسيافي الفروع الادارية العالية التي كثر فيها عدد الموظفين الأوربيين . وحكومة جلالته مستعدة لأن تواصل بمشاورة حكومة عظمتكم ـ المفاوضات مع الدول الاجنبية لآجل الغاء الامتيازات لكي يكون موقف الدول جلياً عندما يحين وقت اصدار التشريع المصري الذي سيحل محل تلك الامتيازات . وكذلك ترجو حكومة جلالته أن السلطة التي يباشرها الآن القائد العام تحت القانون العسكري تباشرها المحكومة المصرية وحدها بمقتضى القوانين المدنية المصرية . وهي تسر برفع الاحكام العسكرية حالما يصدر قانون التضمينات ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية في مصر.»

ثم خلصت من ذلك الى التهديد الصريح فقالت: «اذا كان الشعب المصري يستسلم الى امانية الوطنية مهما كانت هذه الأماني صحيحة ومشروعة في ذاتها دون أن يكترث اكتراثاً كافياً للحقائق التي تستحكم في الحياة الدولية _ فان تقدمه في سبيل تحقيق مطمحه الاسمى لا يصيبه التأخر فقط بل يتعرض للخطر تعرضاً تاماً . اذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن ماعلى الامم من الواجبات و تعظيم مالها من الحقوق . وأن الزعماء المتطرفين الذين يدعون الى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها . وهم بما كان لهم من الاثر في مجرى الحوادث قد تحدوا مرة بعد مرة الدول الاجنبية في مصالحها الاثر في مجرى الحوادث قد تحدوا مرة بعد مرة الدول الاجنبية في مصالحها

وأثاروا مخاوفها ، وكذلك عملوا في الاسابيع الآخيرة على التأثير في مسير المفاوضات بنداءات مهيجة استثاروا بها جهل العامة وشهواتهم . وأنحكومة جلالة الملك لانعتبر أنها تخدم مصالح مصر بتساهلها ازا، تهييج من هذا القبيل ولن يمكن مصر أن تسير في سبيل الرقي إلا متى أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل قمع هذا التهييج . لأن العالم يتألم الآن من جهات عديدة من الاندفاع في نوع من الوطنية المتعصبة المضطربة ، وحكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع من الوطنية بكل شدة سواء في مصر أو في غيرها ، وأن أولئك الذين يستسلمون لتلك النزعات انما يعملون على جعل القيود الاجنبية التي يطلبون الخلاص منها أشد لزوماً وبذلك يطيلون أجلها .

« وإذ الامركذلك فان حكومة جلالة الملك - مراعاة لمصلحة مصر ومصلحتها الخاصة أيضاً ـ ستستمر بلا تردد على مواصلة غرضها كمرشدة لمصر وأمينة على مصالحها.»

وهذا كلام يبدو لقائله معقولاً جداً ويخيل اليه أن فيه من المنطق مايكني لاقناع المصريين بالسيادة الاجنبية . ولكنه ليس بأقرب إلى العقـــل. والمنطق من نصيحة القاصر بالبقاء في كنف الطفولة لانها أسعد من الرجولة وأهون اعباء من تكاليف الرشد وتجاريب الآيام ، وكنى أن تكون كذلك لتكون خلواً من المنطق والعقل كا خلى ما يكون الـكلام !

ومن الزعماء المتطرفون المقصودون في هذا التبليغ؟ . . . انهم معروفون لا يخنى أمرهم على أحد من الكاتبين ولا المخاطبين . فما هم غير زعيم واحد هو سعد زغلول . وقد سمع هذا الزعيم ماقصدوه به من التهديد فكان جوابه وهو يقرأه : « أيهددوننا بنصب المشانق؟ ليكن . . . نحن مستعدون ! » . . . ونشر نداء ناشد فيه الأمة وهو يتكلم بلسانها : —

« نفزع الى اتحادنا فنقويه ، والى صفوفنا فنجمعها ، والى قوانا فنوجهها جميعًا الى دفع ذلك الخطر العظيم . ننزع الشهوات الدنيئة من نفوسنا ونستل

الاحقاد الممقوتة من صدورنا ، ونتجرد عن الهوى وتكون الكلمة السوا. بيننا ألا يطيب العيش لناحتى ينطلق الوطن السجين ويتمتع باستقلاله التام ولا نعتبر خصاً لنا إلا الذين أرادوا امتلاكنا ، ونحصر همنا في دفع بلائهم وإحباط أعمالهم.»

وختم الندا. بهذه الكلمة التي حفظها كثيرون عن ظهر قلب: « إنكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية في العالم ، وقد حلفتم أن تعيشوا أحراراً أو تموتوا كراماً . فلا تدعوا التاريخ يقول يوماً فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم . فلتثق إذاً بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملئها استبشار بالاستقلال التام أو الموت الزؤام .»

_ ۳۸٦ -

النفي

أكثر ماكان يوغر المندوبين البريطان على سعد انماكان يرجع إلى أسباب « شخصية » لا علاقة لها بالسياسة العامة

وأكثر هذه الآسباب الشخصية أنما يرجع الى استعلاء هؤلاء المندوبين على أبناء البلاد الشرقية التي « يحكمونها » حكم الملوك المتفردين بالطغيان ، ولا يطيقون أن يروا فيها رجلاً يقابلهم مقابلة الند الند ، ويعاملهم معاملة المثيل للمثيل .

تعودوا أن ينظروا الى الكبراء من طبقة الوزراء نظرتهم الى أناسمن طلاب « الوظائف » يتزلفون اليهم ويبتغون الرضى منهم ومن أصحاب الحظوة عندهم ، ويتمنون أن يظفروا على أبواب صاحب الآمر والنهي في قصر الدوبارة بكلمة أو اشارة تدل على ارتياح و تبشر برجاء · و تعودوا أن تتجه الانظار الى قبلتهم دون كل قبلة ، وأن يوصدوا على الطامحين كل مجاز للأمل غير هذا المجاز . فاذا بدا لهم فوق الغمار رجل « شرقي » من هذه الطبقة له رأس فوق - تلك الروس وطموح فوق تلك الطموح و بجاز غير ذلك الجاز فهو شذوذ في أنماط النظام المألوف يصدمهم في كبريائهم صدمة العدوان و لا عدوان في أماط النظام المألوف يصدمهم في كبريائهم صدمة العدوان و لا عدوان هناك أو صدمة الإهانة و لا اهانة الا في الموسود و معادة العدوان و لا عدوان هناك أو صدمة الإهانة و لا اهانة الا في الموسود و المو

واذا علىوا بالمراس أن شذوذ ذلك الرجل حق وليس بدعوى وقوة وليس بمظهر، وشيء يحسونه في أعماق ضمائرهم ومجامع شعورهم فوق أحساسهم به في مجال السياسة ومعاملات الوظيف في فهو اذن عب لا يطاق وعقبة لا يستريحون أو يجلوها عن الطريق. لأن الهوادة في أمرها أنما هي نزول عن الكبرياء مع فرد واحد يتبعه النزول عن الكبرياء مع أفراد آخرين. وقد يتغاضى المندوب البريطاني عن عظم وطني من طراز غاندي في

الهند لأن عظمة القداسة الروحية شي. لا يدعيه الحمكام والمندوبون ، ولكنه لا يتغاضى عن عظمة تصدمه في دعواه و تنافسه في ميدانه ، و تصاوله مصاولة الانداد والنظراء . وقد يشعرهو في قرارة نفسه انهمأ كبرمن الانداد والنظراء

وأكثر ماكان ينقمه المندوبون البريطان على سعد إنما هو هـــذا والشذوذ » عما ألفوه بين طبقة الوزراء والكبراء ، فاللورد كتشنركان يتعض من طريقة سعد في مخاطبته ويستكثر منه أن يضع رجلاً على رجل وهو جالس في حضرته إ واللورد اللنبي كان لا يفهم كيف يرجع سعد من أوروبا دون أن يزوره في دار الحماية إ وقد أرســـل إليه من ينبهه إلى هذه و الهفوة » من طرف خني وهو يذكره بتخلفه عن زيارة القصر السلطاني بعد رجوعه . . . فقال سعد لرسوله : « لك أن تبلغ اللورد إذا شئت انني أعلم واجباتي نحو القصر ، وانني ان فاتني شيء منها لا أحب أن أتعلمه من دار الحماية إ » فكانت هذه « الهفوة » بعد « هفوة » الاحجام عن الزيارة فوق ما تتسع له صدور الغفران !

ان اللورد اللنبي قسد تمحل الاسباب لنني سعد بعد فشل المفاوضات الرسمية وعودة عدلي إلى القاهرة . ولكنه في الحقيقة كان ينوي هذا النني قبل سفر الوفد الرسمي وقبل البدء في المفاوضة . ويلوح ذلك جليًا من البرقية التي أرسلها إلى اللورد كرزون في ثامن ابريل يقول فيها : « انني أعتقد أن زغلولًا الآن في حالة من الزهو والترفع لا يبعد عليه معها أن يهم بضربة كضربة عرابي باشا.»

وهذه مقدمة لاشك فيما وراءها ولا خفاء بالنية التي دفعت اليها. وقد ظلت كامنة في ذهن اللورد اللنبي إلى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر حين ألتى القبض على سعد وأصحابه وكتب إلى اللورد كرزون يقترح عليه إبعاده هو وشركاؤه ويقول : « أن سيلان أوفق مكان لانها مقرونة في الاذهان باعتقال عرابي. فن شأن اسمها أن يحدث تأثيراً عظيماً.»

ولقد تعلل اللورد اللنبي لضرورة النبي بما يعانيه من مشقة في تأليف وزارة بعد الوزارة العدلية . ولكنه لولتي السهولة بدل المشقة في هذا المسعى لتعلل بتذليل العقبات واخلاء الجو للوزارة المأمولة أو النجربة الجديدة . إذ كان المقصود هو إنجاز « النبي » على كل حال وارضاء الكبرياء التي تنبغي لحاكم وادي النيل من شاطي. بحر الروم إلى أقاصى السودان .

وكان على اللورداللنبي أن ينتحل المناسبة الموقوتة التي يتذرع بها إلى النبي المقصود. وليس أصلح لذلك من أمر يعلم أنه لا يطاع ثم القاء القبض على أثر الامتناع. فكتب هــــذا الامر في الثاني والعشرين من ديسمبر بلسان مستشار الداخلية. وهذه ترجمته الرسمية:

إلى صاحب المعالي سعد زغلول باشا بالقاهرة .

أتشرف بأن أبلغكم أني تلقيت من الفيلد مارشال القائد العام تعليمات بأن أبلغ معاليكم الامر التالي وهو :

« يحظر على سعد زغلول باشا بموجب الحكم العرفي أن يخطب في الناس أو أن يشهد اجتماعاً عمومياً أو أن يستقبل الوفود أو أن يكتب إلى الصحف أو يقوم بعمل من الاعمال السياسية . وعليه أن يغادر القاهرة بلا ابطاء ويقيم في منزله في الريف تحت مراقبة المدير (١)

وأتشرف بأن أكون خادم معاليكم المطيع .

وكأنما كان اللورد اللنبي يملي جواب هذا الخطاب حين كتبه بهذه

⁽١) قال اللورد اللنبي في برقبته المؤرخة (٢٥ ديسمبر) إلى المركبر كرذون :

⁽ هذا يان ألا مكنة الموجود بها النسعة الاعتجاس الذين أمرتهم بالكف عن الاعمال السياسية

⁽ ستة منهم الان في السويس ينتظرون الإبحار من السويس على باخرة نقل في ٢٦ ديسمبر .

وثلاثة هم ﴿ صادق حنين وأمين عز العرب وجعفر لخري اطاعوا أمري وهم تحت مراقبة البوليس » أما الستة الاولون فهم سعد وأصحابه فتح الله بركات بالها وعاطف بركات ﴿ بِكَ ﴾ ومصطفى التحاس (بك) وسينوت حنا بك والاستاذ مكرم عبد.

جناب الجنرال كليتن مستشار وزارة الداخلية:

أتشرف باخباركم اني استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذي تبلغونني فيه امر جناب الفيلد مارشال اللنبي بمنعي من الاشتغال بالسياسة والزامي بالسفر إلى عزبتي بلا تأخير للقيام بها تحت مراقبة المدير. وهو أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتي إذ ليس هناك ما يبرره.

وبما اني موكل من قبل الآمة للسعي في استقلالها فليس لغيرها سلطة تخليني من القيام بهذا الواجب المقدس

لهذا سأبق في مركزي مخلصاً لواجبي . وللقوة أن تفعل بنا ماتشاء أفراداً وجماعات ، فانا جميعاً مستعدون للقاء ما تأتى به بجنان ثابت وضمير هادي. علماً بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة انما يساعد البلاد على تحقيق أمانها في الاستقلال التام.»

سعد زغلول رئيس الوفد المصري

**

قال الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب صحيفة «البلاغ» وكان حاضرآ المجلس الذي كتب فيه رد سعد على هذا الانذار :

(ولم يحدث بعد هذا غير أنني استوقفت الرئيس عند قوله : « وهو أمر ظالم احتج عليه بكل قوتي إذ ليس هناك ما يبرره » وسألت : ألا يحسن الاستغناء عن كلمة ظالما كتفاء بالكلمات التي تليها ؟ فنظر الرئيس وقال بشمم : كلا . وأيده كل الحاضرين في إبائه .)

وماكان سعد ليشك هنيمة فيما سيحدث بعد هذا الاحتجاج ، لأنه كان

يتحدث إلى زوجه الكريمة بأن النني بعد هذا أقرب قريب ، وكان جوابه لكل من سألوه من أقربائه أنه يعتقد أن الانذار إنما هو المقدمة التي يتبعها النني لا محالة في يوم أو يومين .

والنني شيء هين عند فتى في مقتبل العمر قد يطمع في العودة إلى وطنه بعد جلاء الغاشية وهدوء القلاقل وفراغ الحكومة البريطانية بما تسعى اليه، ولكنه هو الموت بعينه يواجهه الشيخ وهو عامد عالم بما يلقاه بهل هو الموت والعذاب للشيخ الذي تثقله سقام كالتي كانت تثقل سعداً في تلك الآيام، ومنها الربو ومرض السكر وتصلب الشرايين. فاذا هو نسي نفسه وشيخوخته وسقامه ومصيره في تلك اللحظة فذلك هو المثل الأعلى في عرفان الواجب والكرامة ، وتقرير ما ينبغي أن يكون دون المبالاة بالعواقب التي تناله في صحته وحياته ، ما دامت هذه العواقب مأمونة على مصير البلاد.

سويعات قليلة وطار الخبر في أحياء القاهرة كل مطار . فاجت المدينة بجموع من هنا وهناك كانت تتلاقى على غير اتفاق سابق ولا غرض معلوم ، وكانت تتجه بوحي البداهة إلى « بيت الآمة » فتطاردها الشرطة وتتعقبها باطلاق الرصاص على غير هدى وفي غير حساب . وقد سقط جريحان على مقربة من البيت فحملهما الناس إلى فنائه وخرجت السيدة الجليلة قرينة سعد تضمد الجروح وتبادر الى الاسعاف ، ثم تكاثر الجرحى في شارع سعد زغلول وسعدفي مكتبه يسمع طلقات الرصاص ويسأل عن المصابين ويأسف لما يسمعه ويراه : مصريون يمعنون في قتل مصريين لتحقيق ما رب الانجليز ؛ قال سعد لمن حوله : « أرأيتم إلى أي شيء أدت الخطة التي اتبعتها الوزارة في الآشهر الماضية ؟ لقد كنا حتى البوم وجماً لوجه مع أعدائنا الانجليز . فكان هؤلاء هم الذين يصادموننا ونصادمهم . أما اليوم فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في الانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في الانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في الانجليز يعملون وجنود من المصريين في الذين يسفكون دماء المصريين في الانجاب الانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين في الانجاب و المحرود من المصريين في المسمورة و المحرود من المصريون في الانبين يسفكون دماء المصريون في الانبين يسفكون دماء المصريون في المحرود و المحرود و

حقاً أن هذا فوز للسياسة الانجليزية لا يسأل عنه الا الذين مهدوا له السبيل.» (١)

وأمست المدينة فى تلك الليلة وهي في ظلام دامس لتحطيم المصابيح واغلاق المساهر والملاهي في أكثر الآحياء. ورابط مئات من الشبان في شارع سعد زغلول وفي الشوارع التي حوله من وراء المتاريس يترقبون أن يدفعوا عن سعد بأرواحهم وأبدانهم ما عسى أن يناله في تلك الليلة من أيدي الانجليز . وقد خيل إليهم في تلك الرجة العصبية الجامحة أنهم قادرون على الوقوف في وجه المدافع والدبابات . وهم عزل من كل سلاح خطير.

وقضى سعد سهرته إلى منتصف الليل يتحدث إلى زائريه ويؤكد لهم ايمانه بغلبة الحق على الباطل واستعداده للقاءكل ما تضمره له القوة من إرهاب أو انتقام ، وكان يتبسط في أحاديثه كعادته في بعض الأحيان حين تحدق به الخطوب ، كا نما الفكاهة في نفسه الكبيرة فيض القوة التي يتدرع بها لكل خطب يغشاه . فن رآه ثمة قد ينسى أنه في موقف وداع مجهول اللقاء ، وأنه لا يدري متى يرى هذا الزعيم في جلسته تلك مرة أخرى ، وقد لا تمضي ساعات حتى يكون في غير ذلك المكان ، ولا تمضي أيام حتى يكون في بلد غير البلد وقارة غير القارة ، ويحال بين ديار مصر والرجل الذي آثرته على كل إنسان .

ثم صعد سعد الى حجرته لينام عند منتصف الليل . فلم يلبث أن تهيأ للنوم حق قيل له إن فناء الدار قدامتلاً بالشبان يريدون المبيت هناك الى الصباح في حراسة الرئيس . فنزل اليهم يرجوهم أن ينصرفوا الى يبوتهم وأن يدعوه في حراسة المتابير . فلم ينصرفوا ولم يهموا بالانصراف . فأقسم ليبتن معهم حيث هم قاتمون تحت سهاء الشتاء المكفهرة إن لم يستمعوا لقوله . فانصرفوا محكرهين .

⁽١) من رسالة . اذكروا سعداً ، للا سناذ عبد القادر حزة .

وأصبح الصباح في اليوم التالى غائماً مطيراً قارس الهوا. من تلك الآيام التي توحي الى النفس الوجوم والانقبـــاض ولولم يكن ثمة داع للوجوم والانقباض ، وتنذر بالشر ولو لم يكن ثمة نذير معروف .

واستيقظت السيدة الجليلة قرينة سعدقبيل الساعة السابعة فايقظته وسألته هل يريد أن ينهض من فراشه ؟ فقال إنه يفضل الاستراحة هنيهة ولا موجب للاستعجال. ولم تحن الساعة الثامنة حتى جاءتها الخادمة تنبئها أن ضابطين انجليزيين يقفان عند باب الحرم وأن الجند يحيطون بالبيت من كل جانب فاسرعت الى سعد وهي تقول في لهجة التهكم التي تعودت أن تسمعها من زوجها العظيم في أمثال هذه الساعات:

« ان الذين تنتظرهم قد جاؤك » وذهبت الى غرفتها ترتدي ثيابها و تنهيا للصاحبته الى حيث ينوون أن يأخذوه كما اتفقا من ذ تلتي الانذار وأرسل جوابه عليه . فوجدت عند أعلى السلم وعند أسفله جنديين شاهر ين سلاحهما يحميان الطريق ، ونزلت الى الحديقة فوجدت فيها بضعة عشر جندياً يهزلون ويضحكون . ثم تقدم اليها انجليزي في الملابس المدنية يسالها بالفرنسية : أين سعد باشا ؟ فقالت أنه يلبس وسيزل . وسأكون أنا في صحبته حيث سار : فقال : لا أدري هل تسمح القيادة العليا بذلك أولا تسمح . فطلبت اليه أن يسأل رؤساء ، وذهب ضابط يرافقه الى التلية ون ثم عاد يقول : ليس في وسعنا أن نجيبك الى طلبك : وعاد يسأل وهو يتأفف : لقد أبطأ سعد باشا . فلماذا لم ينزل الى الآن ؟

ولم ينتظر غير لمحة واندفع الى السلم ومعه ضابط آخر الى حجرة الرئيس ففتحاها عليه وأرادا أن يأخذاه قبل أن يفرغ من لبس ثيابه ، فأبى في غضب واشمئزاز . وكان عند الضابطين من الادب ما يكني لاحترام هذا الشعور المعقول . فتمهلا قليلاً حتى فرغ من ثيابه ونزل الى الحديقة ، فأحاط الجند به وبالسيدة التي سارت الى جانبه لتركب معه السيارة العسكرية حيث كانت واقفة

على الباب. فلما بلغتـــه أنبأها الضابط أنه لا يستطيع السماح لهابالركوب الفاصرت في سورة الحزن والغضب على أن تركب ، وهم بعض الجند أن يمنعها بالقوة ، فالتفت اليها سعد وهو يقول : ياصفية ! أرجوك! أرجوك! هما تبهدلنيش » . . . فقالت : لا عاش من « يبهدلك » ياسعد . وثابت الى عزيمتها المعهودة في لمحة عين ، ووقفت حيث هي لا يبدو عليها جزع ولا بكاء بل التفتت إلى الباكين من حولها تزجرهم وتوصيهم بالجلد والسكون .

وهنا ندع للأستاذ عبد القادر حمزة وصف ماشاهده في ذلك الصباح ، فقد رآه بعينه ووصفه وصفاً دقيقاً في رسالته التي كتبها قبل سفر الرئيس من البلاد بعنوان اذكروا سعداً وصحبه المعتقلين :

« سرت فلم أمش غير خطوات أوصلتني إلى ميدان الأزهار ، ثم ثار الجو وانهمل المطركا فواه القرب ودوى الرعد ولمع البرق فالتجأت إلى قهوة هناك أحتمي فيها ، وإذ انقطع المطر عاودت المسير فما هو إلا أن انخرطت في شارع الفلسكي حتى لاح لي عن بعد شبح أصفر يسد الطريق عند بيت الامة ، فرصدته بنظري أتبينه كلما دنوت منه فبان لي صليب كبير على جانبه ، ثم وضع جميعه فاذا هو اتومبيل بجانبها ضابط بريطاني .

و هنا تكشف لي الامركله ، ولم يبق عندي ريب في حقيقة ماهو واقع ... نعم لم يبق ريب في أن ماكان منتظراً منذ الامس يقع في هذه الساعة ، وإن انجلترا ذات القوة التي لا تدانيها قوة في العالم ، أرسلت جنودها لا ليحاربوا سعداً في معركة ولكن ليأخذوه في « جنح » الصباح من بيته بعد أن انهزمت أمامه في معركة الحق وأعيتها الحيلة في مغالبته .

« واصلت المسير فوصلت إلى الاوتومبيل في شارع الداخلية فرأيت خلفها اثنتين مثلها ، والضابط يروح ويغدو ، والجنود من حوله يترقبون رافعين البنادق . وفي كل اتومبيل سائقها جالس ويده على المفتاح . كأنهم جميعاً لاينتظرون غير أن تقع الغنيمة في أيديهم ليأخذوها ويطيروا.

« وكان هناك جماعة قليلون من عامة الشعب فهموا أن أباهم سعداً سيؤخذ فوقفوا . ولو لا أنهم رجال وانهم يرون خصمهم أمامهم و يكرهون أن يشمت فيهم لأرسلوا الدموع . ولم تكن بي حاجة لان أجرب دخول بيت الآمة ، لأن الجنود كانوا يضربون نطاقاً حوله و نطاقاً على بابه و نطاقاً في حديقته ، وفي أيديهم البنادق كا نهم يتأهبون لمعركة حامية .

« وما مضت دقيقتان أو ثلاث حتى ضج فجأة كل الذين حولي فنظرت فاذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفه حاجبه وخادم . وهم جميعاً يمشون في نطاق من الجنود . رأيته يمشي بعد أن نزع من أهله وبيته وأحيط بالجند والسلاح وفتح أمامه باب التضحية على مصراعيه مجهول الأول مجهول الآخر فأقسم مارأيت فيه وفي مشيته إلابطلاً عالي الرأس مطمئن النظرات . ولوددت أن رآه معي في تلك الساعة كل أبناء مصر . إذن لرأوا سعدهم أسداً هو أثبت مايكون حين تنازله الحادثات .

«كان يمشي هادئاً منبسط الجبين ليس في خطوه إسراع ولا تثاقل. ولا في نظراته ولا في حركات جسمه أثر واحد يدل على قلق أو اضطراب. ويده اليمنى تحرك عصاه حركة عادية منتظمة كانه لايرى لكل ماهو واقع ولا لكل الذين هم محتاطون به وجوداً أكثر من العسدم.

« وما رأيته تلفت يميناً أو شمالاً ، ولا وقفت عينه عند واحد من الذين يرافقونه مسلحين ، ولكنه لما رآنا نحن واقفين مد نظره إلينا وسرحه فينا وحينئذ لم يملك بعضنا أنفسهم وسمعت في الحال قائلاً يقول والبكاء يغالبه : « إلى أين ياسعد ؟ إلى أين ؟ ه ثم غلبه البكاء فانتحب وانتحب السكا. معه .

« إنتحبوا وضجوا لأن تصبرهم كان قد بلغ الغاية وزيادة . ولقد كانوا إلى ماقبل هذه اللحظة حانقين يأبون أن يرى الخصم فيهم ضعفاً ولكنهم لما شاهدوا باعينهم سعدهم يؤخذ هذا الآخذ إلى حيث لا يعلم ولا يعلمون تهدم عزمهم كله ولم يبق فيهم جلد .

« وما كان انتحاب هؤلاء المنتحبين بأبلغ من عمل صبية رأوا بأعينهم مارأوا ومع ذلك صمعوا على أن يخاطروا بأنفسهم فجروا خلف سعد عشرين أو ثلاثين كا نهم يهجمون صفاً متسانداً في معركة منظمة . فلما رآهم الجند حولوا وجوههم إليهم وصوبوا البنادق نحوهم يهددونهم بالموت إن هم تقدموا ومازال الجنود كذلك وهم يمشون بظهورهم، حتى وصلوا إلى الاتوموبيلات وركبوا.

« ركب سعد وركب الضابطان وركب الجنود كلهم . ثمم تحركت الاتومبيلات ، فلا والله ما رأيت في حياتي ساعة كتلك هلعت فيها القلوب وارتجفت الاقدام ، واشتد البكاء وعلت الاصوات تنادي و تقطعها الزفرات « سعد . ياسعد . . إلى أين ياسعد ؟ » وامتدت الايدي نحو الاوتومبيلات كاثم اتستعطفها وتسألها أن تقف ، ولكن الاوتومبيلات كاثم البرق الخاطف وتركت الناس في مكانم عصيحون و يبكون .»

* * *

ذلك وصف الاستاذ غبد القادر لما رآه . وندع لسعد أن يقص لنا رحلة المنفى كما وصفها في خطبه ورسائله من حيث تركناها هنا إلى حيث استقر به المقام في جزائر سيشل . ولا ضير أن نسبق الحوادث بعض السبق إلى مابعد المرحلة التي انتهينا إليها من تاريخ الزعيم .

قال في خطبة ألقاها في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣ بعد عودته من جبل طارق :

« . . . في مثل هذا اليوم من عامين سطت القوة الغاشمة في عنفها على الحق في مأمنه . أحاطت منزلي من كل جوانبه بعسا كر مدججين بالسلاح ،

وأدخلت جانبآ منهم فيه فملاوا قاعاته وطبقانه وأقاموا منهم أربطة علىأبوابه ومنافذه ، وصعد بعضهم إلى مخدعي فاز عجوتي من نومي ، وأرادوا أن يقبضوا على قبل أن ألبس ثياني فلم أمكنهم حتى لبستها . ثم أُنزلوني وهم يحيطون بي وحرمي من خلني تريد مزاملتي فنعوها ، وأركبوني في عربة من عربات الاسعاف تتقدمها سيارات أخرى يملاها جماعة من الضباط والعساكر وبأيديهم البنادق مصوبة من خلفنا لاطلاقها على كل من يتتبع خطواتنا: فعلوا ذلك بغيرحكم أعلنوه ولا قرارتلوه ولاكتابة أطلعوني عليها ولاتعيين للجهة التي وجهوني إليها . وساروا بنا الى السويس في طريق غير ممه بلا مام ولا زاد إلا قليلًا من الخبز تكرم علينا بعض الضباط بقطعة منه على شي. من الجبن فتبلغت بها، وما زال السير يجد بنا في هذا الطريق العاثر يحطنا تارة ويرفعنا تارة أخرى من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الخامسة بعد الظهر حيث أدخلوني إلى معسكر الهنود، وتلقاني بعض الضباط وأنزلني في خيمة تعصف الرياح من خروقها بعد أن قدموا لي شيئاً من الطعام ، فأكلت ونمت بملابسي إذ لم يسمحوا لي بأخذ شي. معي . ولكني بحمد الله لم أشعر بتعب مع أني كنت أتعب من سير ساعة واحدة بالسيارة في الطريق المعبد. فقد أمدني الله بقوته وجعلني أتحمل كل هذه المشقات من غير أن أشعر بشدتها . وفي الليلة التالية اتصل بي صحبي الذين قبضوا عليهم من بعدي فأنست بلقائهم وسرني ما رأيتهم عليه من رباطة الجأش ومقابلة هذه الشدة بالثغور الباسمة والنفوس المطمئنة ، ومكثنا في هذا المعسكر إلى ٢٩ ديسمبر حيث أمرنا في آخر العشاء بالاستعداد للسفر في ظرف نصف ساعة. فدهشنا لهذه المفاجأة وانصرف كل منا يحزم متاعه . ثم أركبونا في سيارة مغلقة الى المرفأ وكانت السفينة المعدة لركوبنا خارج الميناء فأنزلونا الى زورق فيه بعض الوطنيين الذين بكوا للقائنا في تلك الساعة بكا. مراً فكنا نطمئن خواطرهم بالاشارة تارة وبالكلمات تارة أخرى .

« وصل بنا الزورق الى السفينة واذا بها علومة بالجنود الهندية ، ونزل كل منا في الحجرة المعدة له ، وعلمنا حينئذ بأن وجهتنا عدن التي وصلناها في مسا. يوم الأربعاء ٤ يناير . ثم بعـــد أن أقمنا بها إلى ٢٨ فبراير نقلونا إلى سيشل ثم نقلوني إلى جبل طارق حيث أقمت من ٣ سبتمبر إلى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٣ ثم أفرج عني في ذلك التاريخ »

هذا ماجا. في الخطبة عن طريق سعد إلى المننى. ويتممه ماكتبه فتح الله باشا عن سفرهم من عدن إلى سيشلكما جا. في مذكراته وهوكما يأتي :

« الأربعاء أول مارس سنة ١٩٢٢

« تأخرنا في تناول طعام الافطار على خلاف العادة ، وبينها نحن نتناوله في الساعة ه صباحاً إذ حضر الكبتن استل ومعه الماجور را يلي المساعه الأول للمقيم في عدن فسلم وجلس بجانب الرئيس ، وتكلم بالانجليزية داعياً إياه لتناول الافطار ، فشكره ، وقال إنه أفطر قبل أن يحضر ، فقال الرئيس بالانجليزية أيضاً :

_ إننا متأخرون في الافطار اليوم على خلاف العادة ، فان عادتنا أن نتناوله في منتصف الساعة الناسعة .

« فدهش الرجل لـكلام الرئيس بالانجليزية وقال :

_ إني لما جئت في المرة الأولى كنت لا تستطيع الكلام بالانجليزية فأجامه الرئيس ضاحكا :

ــ إن الفضل في ذلك السجن . . .

قال الماجور عقب ذلك :

_ جئت لاتفق معك على ترتيب السفر .

« فسأل الرئيس : « ومتى يكون السفر ؟ » فقال : « اليوم . . »

ه وهنا تكلم بالفرنسية، واستمر قائلاً :

_ إن بارجة حربية منتظرة في الميناء لأخذك إلى سيشل ، واما رفاقك ، في السفينة القادمة . .

« فساكه الرئيس :

ــ ولماذا الفصل بيننا؟ الأولى أن نكون معاً !!

- يظهر أن السبب عدم توافر المحال للجميع في السفينة القادمة ، وإنه لذلك عمل الترتيب لتسافر اليوم على البارجة الحربية ، ومعك خادمك . .

ه فقلت:

 أنسافر معلم على البارجة الحربية ؟

« فقال : _ إنها صغيرة ، وليس فيها محال . . .

« فقلنا: — أن توافر المحال لايهمنا، فلنسافر معا ويكني أن يكون بها المحل الحناص بالرئيس. وأما نحن فنسافر معه على أية حال، وأننا مستعدون جميعاً لآن ننام على ظهر الباخرة أو في أي مكان آخر...

« فقال الماجور رايلي : _ إن الامر صـــدر لنا صباح اليوم بهذا الترتيب من مصر ، ولست إلا منفذاً . .

« فقال الرئيس ؛ — نعلم أنك منفذ وأن الامر صدر من السلطة المختصة وأنا موضوع هذا الامر . ولذلك فاني أبدي لك ملاحظتي لتبلغها إلى السلطة التي أمرت ، فاننا كنا أبلغناأن السفر في ١١ مارس · ولذلك لم نأخذ إستعداداتنا ، فالامر بالسفر اليوم مفاجأة ، والسفر على بارجة حرية من شأنه أن يتعبنى خصوصاً وإننى لا أرى موجباً للتفريق بيني وبين أصحابي . .

« فقال : _ إني سأبلغ طلبكم ، ولكني أحشى ألا يكون من السفر مفر . .

فقال الرئيس بشجاعة تفوق الوصف:

_ إن لم يكن بدمن السفر فاني مستعد له من الآن ، سواء أكان إلى سيشل أم إلى أسوأ منها ، ومتى يكون القيام ؟

قال: ــ سيكون الرفاص جاهزاً هنا في منتصف الساعة ١١. وأما البارجة فتسافر بعد الظهر

« قال الرئيس : _ حسن ·

« أما نحن فقد بلغ التأثر منا مبلغه وقلنا « إن الرئيس كبيرالسن ضعيف الصحة وبعيد عن حرمه '، ونحن جميعاً نخدمه ، وهو فى حاجة لعنايتنا ، ولا نفهم معنى لهذه المعاملة إلا إذا كان المراد تعذيبه تعذيباً ألماً.»

« ومع اعتراضاتنا الشديدة المتكررة ، فإن الرجل لم يخرج عن الجواب بوعده أن يبلغ عن رغبتنا جميعاً . ثم نهض الرئيس إلى غرفته لير تدي ملابسه بينها عبد الله ير تب العفش ويحزمه . وانصر ف الماجور رايلي والكبتن استل إلى الدور الأسفل ، وبقينا نحن في غليان ، ثم أجمعنا أمرنا نحن الحسة على أن نطلب ثانياً من الميجر رايلي بكل تحديد وإيضاح أن نسافر اليوم مع الرئيس في البارجة . ولا عبرة بتوافر محال لنا فيها أو عدم توافرها ، بل نقضي السفر على ظهر السفينة أو في الصالون أو في أية حجرة . . وفي الحال استدعينا الماجور وأخبرناه بما قر عليه رأينا ، وأن ذلك مراعاة لصحة الرئيس وخشية عليه من هذا السفر وحده ، فقد يقع عليه تأثير في صحته وهو بعيد عنا وعن حرمه لدرجة لا تحمد عقباها ، ولا يمكننا أن نفهم ان الحكومة الانجليزية ، وهي خصمه السياسي ، تقصد هذا السوء به ، وأعدنا له أنهذه المعاملة لا تخرج عن كونها من نوع التعذيب ، فقال إنه سيبلغ ماطلبنا إلى جهة الاختصاص ، ثم سأل :

وماذا يكونالحال إذا سمح بأن يرافقه البعضكواحد أو اثنين أو ثلاثة؟ « فقلنا :

إذا صح السماح للبعض ، فلا معنى لعدم السماح للآخرين . ومع ذلك

فهذه رغبتنا ، فان لم يحب إلا بعضها ، فحير من عدم اجابتها كلما ، وليس لنا إلا الرضوخ للقوة .

« وأفهمناه أننا على استعداد لمرافقة الرئيس في نفس الساعة المحددة له وهي عشرة ونصف صباحاً . فقال انه سيبلغ الأمر ، ويخبرنا بالنتيجة ، وانصرف .

« وما أسرع ماوجدنا الرئيس بيننا مرتدياً ملابسه ومستعداً للرحيل ، وهو ثابت الجأش قوى الجنان . . وحدثنا بثباته المدهش في هذه الظروف العصيبة فقال إنه مسافر إلى سيشل هادي. البال ، وأنه يظن أننا سنسافر إلى مصر فنقري. عائلته واخواننا المصريين جميعاً السلام ونوصيهم بالثبات، وأنه معتقد بأنه سيلحق بنا قريباً ان شاء الله ، وأخذ هو يسلي حزننا · ذلك الذي كان المفهوم أن يكون هو في حاجمة لأن نسليمه نحن ، ولكن هو الرجل العظيم وكنى . .

« انسحبنا بعيد آو اتفقنا أن نحر رخطاب احتجاج على هذه المعاملة ، وهذا التعذيب . ونضمنه معنى ما قلناه شفهيًا للماجور رايلي ، ونسله للضابط قبل قيام الرئيس ، وفعلاً أخذ مكرم في تحريره باللغة الانجليزية ، وبينها يحرره أحطنا الرئيس علماً بقصدنا ، فعارض فيه معارضة شديدة مسبباً معارضته على أنهذا الاحتجاج ليس من حقنا ولا فائدة فيه وربما جلب علينا ضرراً . أما كونه ليس من حقنافلاننا منفيون جميعاً ولم نكن معه لخدمته ولاللعناية بصحته وأماكونه لا فائدة فيه فلانه لا يترتب عليه تغيير القوم القرار الذي اتخذوه بازائه ، وأماكونه ربما يجلب علينا ضرراً . فلانه يعتقد عودتنا الى مصر ، فربما يعيق الاحتجاج عودتنا . ولم يقبل سماع صيغة الاحتجاج وشدد في منعنا غن هذا الاحتجاج الكتابي تشديداً بلغ حدالغضب وأفهمنا أن في احتجاجنا الشفهي الكفاية .

« ولكننا خالفناه ولم تتبع مشورته ، لاننا اعتقدنا أن أساس معارضته

الاشفاق علينا ، ثم اقررنا الاحتجاج وأمضيناه وحفظناه لتسليمه للضابط الذي يحضر لاخذ الرئيس ونصه :

« عدن في أول مارس سنة ١٩٢٢

« الى سعادة المقيم بعدن:

«سيدي . نحن أصحاب حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا وكيل الشعب المصري وأنصاره الأمناء: نرجو أن تتكرموا بأن تبلغوا السلطات المختصة أشد احتجاجنا على التصرف الآخير الذي أجري ضد معاليه ، فاننا نعتبر أن نقله بدوننا وبغير امهال وبلا مراعاة لشيخوخته وضعف صحته إنما هو _ فضلاً عن قسوته _ عمل من أعمال التعذيب في القرون الوسطى ، ويظهر أن فهم النفي على هذه الصورة مقصور على حالتنا وحدها ، إذ لا يمكننا أن نعقل لماذا تمنع من السفر معه في سفينة واحدة كما طلبنا ذلك المرة بعد المرة .

« وعلى أى حال فليكن معلوماً علماً نهائيّاً أنه مهما اتخذ من الأجراءات القاسية التي لامبرر لها ، فان ذلك لايضعف من ايمانه ولا من ايماننا بعدالة قضيتنا ـ قضية مصر المستقلة . وتفضلوا بقبول فائق احتراماتنا .

« سينوت حنا . مصطفى النحاس . مكرم عبيد . عاطف بركات . فتح الله بركات .»

« ثم بقينا منتظرين حضور الضابط ، وأخذ الرئيس يلاطفنا ويهون علينا مما أسال عبراتنا وأدى أفئدتنا ، فقد ظهر بمظهره الحقيق : مظهر العظمة والجلال ، مظهر الشجاعة القوية الهادئة التي يعرفها عنه اخوانه في ساعات الخطر ، كنا باكين وهو مطمئن ، جزعين وهو ثابت ، محتجين وهو قانع . وما أروع تلك الكلمات الحكيمة التي أظهرت لنا قلب سعد في أجل مظاهره .

ماوقع لا يخشاه بل يقتحمه مرفوع الرأس ثابت الجنان قوي الايمان وهكذا كان سعد.

فقد اعتقد كما اعتقدنا ــ أنه قــد اختص بالني إلى سيشل ، وأنه سيحرم من مرافقتنا التي كانت أكبر سلوى له . وان بقاءه وحيداً في سيشل سيؤلمه في أقدس مشاعره وأقربها الى قلبه ، فان زوجته أن بقيت بعيداً عنه وهي عالمة بوحدته ووحشته كان في ذلك جزع لقلبها ، وان أتت اليه ورافقته في مصيبته كان في ذلك جرح لقلبه ، كل ذلك كان يجول بخاطره وبخاطرنا ، ولكنه كعادته ضحى براحته الشخصية فكان يوصينا ويكرر علينا الوصية أن بهتم بتطمين زوجته وتعزيتها حتى لا تأتي اليه وتنحمل آلام المنفي في تلك البلاد القصية الموحشة ، ثم انتقل الى حالنا وطيبخاطرنا قائلاً إن غيابه قد لا يطول ، وأن مصر ستنتفع على أي حال من مجموداتنا نحن في أثناء غيابه ، وان وصيته الوحيدة لنا أرب نقول لمصر : « أثبتي واثبتي ، ولا تكلّي من وان وصيته الوحيدة لنا أرب نقول لمصر لم يتزعزع ، بل على العكس من الثبات ... » وأن ايمانه في استقلال مصر لم يتزعزع ، بل على العكس من ذلك . فقـــد زاده ذلك التصرف الأخير ايماناً بأن مصر ستحصل على استقلالها ان لم يكن عاجلاً فا تجلاً ، ثم أخذ في تطمين كل منا على حدة باسما ضاحكاً شفوقاً رموقاً ، فكنا نرد عليه بأصوات متهدجة ، فاذا تحتم البكاء تركناه لننفرد بأحزاننا وينفرد الحزن بنا .

« وليس في امكاننا أن نذكر أو نصف ذلك الموقف الذي ودع الرئيس أنصاره ، والقائد جنوده ، والولد أولاده من منفاه الى مننى أشتى وأبعد ، فالوصف يقصر عن تصوير ماكنا فيه ، وماكان في نفوسنا ، ولم نجد حيلة إلا البكاء للتفريج عن وطنيتنا المجروحة ، وصداقتنا التي انته كوا حرمتها . أما سعد ، فكان فصيحاً نثراً ونظماً ، لفظاً وقلباً براك الله فيه وفي حياته وقوة جنانه وإيمانه .

« وقبل حلول الميعاد أحضرنا إليه نقوداً دفعاً للحاجة في أثناء نفيه (مبلغ

ماتتي جنيه). وفي الساعة العاشرة والنصف حضر الضابط استلومعه الشيالون. فنقلوا الصناديق، ونزلنا مع الرئيس بعد الاستئذان والتصريح لنا إلى مرسى الرفاص البخاري بعد أن سلمنا الاحتجاج إلى الضابط استل، وكان الرئيس. في الطريق لاينفك عن تعزيتنا وتسليتنا وتوصيتنا بمصر وأهلها، وقال:

-- لا تيأسوا ولا تهنوا:

فقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ألاً تلاقيا «ثم اقتربنا إلى الرقاص وجاءت ساعة الوداع المشئومة ، فاستودعناه الله مقبلين يده باكين ، وكان هو يقبل كلاً منا في خده مكرراً كلمات الوداع والتشجيع . واستقل الرفاص ، وكانت آخر كلماته :

« لتحي مصر » ا

« فرددنا صدى ذلك النداء المقدس . . ودعونا له ولها بالحياة قائلين :

« ليحي سعد 1 لتحي مصر ! لتحي التضحية »

وكان وداعاً حاراً بمزوجاً بدموعنا الحارة .

« ثمم سار المركب يقل الرئيس ومعه خادمه (عبده) الذي ودعناه وداع الزميل ، وصافحناه مصافحة الصديق ، وكان يلوح لنا بمنديله ونحن نفعل كذلك إلى أن غاب عن أنظارنا ولم يغب عن قلوبنا ، ورجعنا كاسفين حزائى دون أن ينبس أحدمنا ببنت شفة . وبقينا في هم وجزع طول اليوم نذكر الرئيس في كل مجال طالبين له السعادة والحياة ، فني حياته حياة مصر وأبنائها ، فليحي سعد ، ولتحى مصر . . .

« وفي حوالي الساعة الثانية بعد الظهر جاءنا الصابط « النابتشي » وأخبرنا أن الكبتن استل قد كلمه بالتلفون ليخبرنا أن الرئيس قد وصل إلى المركب بخير ، ولتي فيه ضابطين كانا قابلاه في السويس ، وان الماجور رايلي قد بلغ رغباتنا إلى مصر بالتلغراف .

« وعند الساعة السادسة حضر استل مظهراً الأسف، وطمأ ننا على صحة الرئيس وأبلغنا سلامه ، وإنه لم يكن مهتما بأمر نفسه كاهتمامه بمصيرنا ، وسأله عنا ، فأكد له اننا سنلحق به في سيشل ، ثم قال إن طلبنا بمرافقته قد أرسل بالتلغراف المستعجل بعد أن فتحت له خطوط التلغراف ، وإن البارجة لن تبارح عدن حتى يصل الرد ، وزاد على ذلك أنه إن بقيت البارجة للصباح فسيستأذن لنا في مقابلة الرئيس ، ويفيدنا تليفونيًا حول الساعة السادسة صباحاً ، ثم قال : إنه دفع إلى الرئيس مبلغ ه وجنيها كانت قد وردت من مصر لدفع أثمان بعض المشتريات . ولما سألناه عما إذا كان الرئيس سيسافر حقيقة إلى سيشل ، وعن سبب فصله عنا أجاب بتأ كيد سفره إلى سيشل ، وإنه شخصياً يرى أن سبب فصله عمل سياسي ، فسرنا هذا التأكيد الذي من شأنه أن يجمعنا به في منفاه فلا نعود قبله إلى مصر ، ثم انتظرنا إلى ظهراليوم التالي ولم يصلنا أي خبر من استل فاعتقدنا أن البارجة سافرت ، فانه قال إن ميعاد سفرها في الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، وإن طلبنا لم يجب .

« بذا قضت الآيام مابين أهلها فا ونة قربُ وآونة بُعـد »

* * *

انتهى ماكتبه فتح الله باشا في مذكراته.

وقد وصف سعد منفاه بجزيرة سيشل في خطاب كتبه من جبـل طارق في الحامس من سبتمبر إلى الدكتور حامد محمود بالعاصمة الانجليزية . وهو من الو ثائق التاريخية التي نثبتها هنا لانها تغني مالاتغنيه وثيقة أخرى في وصف تلك الجزائر ووصف عودته منها إلى جبل طارق . قال بعد ديباجة وجيزة :

« هي جزيرة ملتوية صاعدة نازلة ، ومساكنها ضيقة خالية من النرتيب والنظام وأسباب الراحة ومفروشاتها غير وثيرة خصوصاً الاسرة ولوازمها، مأكولاتها محدودة فالغنم لا وجود لها والبقر نادر ، ولكن الفراخ كثيرة ،

وأكثر منها السمك. ولكن أغاب أنواعه غير جيد. أما الفواكه فقليلة ، وأقل منها الخضروات التي مع قليها لاطعم لها في الغالب·

« ليس بسيشار سوق للما كولات وإنما تباع مفرقة على يدافراديطوفون بها من حين لآخر ، وأغلب مايحتاج اليه الانسان من الأقشة والأغطية غير موجود وإنما يجلب اليها من الخارج بحسب الطلب تقريبًا ، ولا وجود لا كثر الصناعات بها فلا تجد فيها مثلًا دكانًاللنظارات ولاللساعات ولاحدادًا ولا خياطاً . وليس بجزائر سيشلز كلها الا طبيب واحد حامل لشهادة قانونية وأصله جراح ولكنه يتعماطي الطب الباطني أيضا يساعده اثنان لاشهادة عندهما فيها يقال . وليس بهما أطباء للعيون أصلاً وكل من ابتلي بمرض فيها لزمه أن يرحل عنها للاستشفاء خارجًا منها أن كان غنيًا ، والا فأمره الى الله كا أنه ليس بها اختصاصي في طب الاسنان بل فيها موظف في البوستة أضيف اليه أخيراً وظيفة قاضي صلح يتعاطى معالجة الاسنان لاعن علم بل «بالعافية ١ » ها احتاج الاستاذ مكرم لحشو سنة من أسنانه فحشاها له بالاسمنت ولم تلبث قليلاً حتى سقط حشوها ، وانكسرت سنة في طقم أسنان عاطف بك فصنع له أخرى ولكنها سقطت بعدقليل ، وحاول أن يصنع لهذا البيك طقم أسنان أخر فتعذر الامر علمه وتركته مرتبكاً فهه .

« فتح الله باشا بركات مصاب بمرض في اللثة يشتد به أحياناً حتى ليمنعه عن الآكل وكلمن بحثه من الأطباء قبل سيشل رأى خلع أسنانه لخطر بقائها ولكنه لم يمكنه بعد تلك الامثلة أن يعرض نفسه على ذلك المتطبب ليخلعها له و يبدلها بغيرها وتركته وهوفي أشد أحوال الألم .

« لابد أن تكون علمت بما أصاب الاستاذ مكرم في عدن من حمى الملاريا . . . هذه الحمى اضعفته كثيرا وولدت عنده ضعفاً في القلب والامعاء . فكثيرا ماتعتوره نوبة اسهال وخفقان ودوخة ويعالجه رئيس الاطباء ، ولكنى تركته بدون أن تظهر نتيجة لهذه المعالجة ·

« بعيون مصطفى بك النحاس حبب يحتاج للمس ولامن يعرف في سيشل طريقة المس فاكتفى بأن يمس له الطبيب الجراح .

« بسينوت بكحنا ضعف في الامعاء والمعدة فالشهية عنده ضعيفة في أغلب الاحيان ويعتريه كثيراً الاسهال والامساك ويعالجه ذلك الطبيب بدون فائدة ظاهرة لغاية سفرى .

« ليس بسيشلز صيدلي قانوني ولكن الطبيب الأول هو الذى يباشر في الاغلب تحضير الادوية ، وبعض ماهو ضروري منها كالاسبرين لايوجد إلا نادراً .

« لما اشتد الحال بنا من الجو ورداءته وعدم توفر اللوازم الطبية والأطباء واعتلت صحتي خصوصاً كبر الامرعلى اخوابي فكتبوا من غير اشتراكي خطاباً شرحوا فيه سوء حالتنا وطلبوا نقلنا الىجهة أخرى تتوفر فيها اللوازم الصحية ولا تكون حياتنا معرضة فيها للخطر كما طلبوا أن يبلغ طلبهم بالتلغراف الى جهة الاختصاص وكان ذلك في ٩ يونيو . فكتب الحاكم اليهم جواباً بأنه سيبلغ ذلك الى مصر ولندن .

« وكتبوا اليك تلغرافاً بهـذا المضمون ولكن الحاكم لم يسمح بارساله اذ المراسلات في سيشلز لم تكن حرة بل تحت المراقبة . فالجو ابات والتلغرافات التي تصدر منا يجب تسليمها لشخص معين وهو يتصرف فيها تحت اشراف الحاكم بما يراه من حجز أو تعديل أو إرسال، والتي ترد الينا لاتسلم إلا بهذه الطريقة ولهذا كانت التلغرافات التي تصل باسمنا لاتسلم الينا الا بعد زمان من يوم أو يومين فصاعداً ، ولا أذكر أن تلغرافاً تسلم الينايوم وصوله إلا مرة أومر تين بالاكثر . وكثير من الجو ابات التي تصدر منا لم تكن تصل إلى جهاتها وأكثر العوائق كانت فيا يختص بالمر اسلات التي تشتمل على الكلام في الجو والصحة والنقود . وقد بلغ من أمرهم أن كتب الحاكم الينا ينهانا عن الطعن في الجو ويشير إلى أنه يرسل من أخبار الصحة مايراه موافقاً .

«تطبيقاً لهذا رفض أن يرسل تلغرفاً أعددناه جواباً لسؤالهم عن صحتنا ورغب أن نعدل فيه بعض النقط فلم نقبل لمخالفة التعديل المطلوب للحقيقة ثم حررنا صورة أخرى وأرسلناها إليه وقيل لنا بعد ذلك إن إحدى الصورتين أرسلت ولكن لاندري إلى الآن ماهي هذه الصورة ،

«تخصص لكل واحد من إخواني في الشهر «ثلاثين » جنيها تقريباً ولى خمسون . فلاحظت قلة ذلك بالنسبة لما يناسب حالتنا فأ كدوا لي المرة بعد المرة أنهم يصرفون لي من مالي كل مبلغ طلبته زيادة عن هذا المخصص . ولكني لما احتجت إلى مبلغ « مائتين » جنيه أبوا أن يصرفوا منه إلا خمسين متعللين بأن مصر لم ترسل لهم نقوداً . وبعد شهرين سمحوا أن يصرفوا إلى مبلغ مائة جنيه .

«وصلت سيشلز في ه مارس وما وجدت مسكناً معداً لاقامتنا فأنزلوني بحزيرة تدعى جزيرة لونج بعيدة عن العاصمة ، وأخبروني بأن المسكن الذي أعدلي به بعض تصليحات تنهي بعدقليل ، فطلبت أن أراه وأرى المفروشات التي أعدت لي فلم يسمحوا لي إلا بعد بضعة أيام . أخيراً سمحوا لي بزيارته فوجدته يبعد عن المدينة خمسة أميال تقريباً ولا يمكن أن ينتهي تصليحه قبل شهر من الزمان إذا بذلت عناية كبرى ، وهو مع ذلك ضيق وغرفه صغيرة ولا يسع اثنين يسكنان فيه إلا بكل ضيق . فلاحظت ذلك لمن تعين لمصاحبي وأخبرته بعدم إمكان السكن فيه خصوصاً لشدة حاجتنا إلى الأطباء الذين يسكنون بالبعد عنه بعدة أميال وليس هناك عربات ولا أوتوموييلات ، وأضفت إلى ذلك أنه إذا كانت الحكومة ارتبطت لمالك هذا المنزل بشيء وأضفت إلى ذلك أنه إذا كانت الحكومة ارتبطت لمالك هذا المنزل بشيء فاننا مستعدون لتعويضه . ورغبت من ذلك الشخص أرب يعرض هذه الملحوظات على الحاكم فعرضها عليه فطلب مقابلتي وانتهى الحال بالعدول عن هذا المنزل وسكنانا في منزلين آخرين بالمدينة . ولكنهم لم يسمحوا في برؤية المفروشات إلا في يوم ١٨ مارس فرأيت كلها قديمًا وأغلبها بال

وكثير منها لا نفع فيه . فاخبرونا بأن هذا كل ما أمكن الحصول عليه في سيشل كما أخبرونا بأن الحكومة خصصت مبلغاً للتأثيث ولكنهم لم يعرفونا إلى الآن بمقدارهذا المبلغ . ومن عهد العدول عن المنزل الأول لم يذكروا لنا عنه شيئاً لافيها يختص بايجاره ولا بمدة إيجاره ولا مقدار أجرته ولاغير ذلك مما يتعلق به . بل تناسوه الى ماقبل حضوري بقليل حيث طلبوا مناأ جرته مدة خمسة أشهر وخصموها فعلاً من مرتباتنا يوم سفري .

« وبالجملة كانت المعاملة في سيشلز غير مناسبة ، ومع اضافتها لحـــالة الجو لايستغرب أن يترتب عليها ضعف الصحة .

« ولقد كنا ننتظر من المساعي الجليلة التي بذلت في مصر وفي لندن بقصد تغيير هذه الحالة نقلنا جميعاً إلى جهة أو فق بالصحة ، ولكن خاب انتظار نا بالنسبة لبقية إخواني ، إذ ورد علي في يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٢ خطاب من الحاكم العام بسيشلز بخبرني فيه بأنه تقرر نقلي لجهة أخرى على سفينة حربية تصل غداً فيلز مني الاستعداد للسفر الذي ستكون مدته حوالي ثلاثة أسابيع وأن يكون معي خادمي . وأن هذا النقل نظراً لصحتي . فطلب إخواني أن يصحبوني كلهم أو بعضهم نظراً لمرضي واحتياجي لعنايتهم فلم يجب طلبهم ألا بالرفض و تصرح فقط للطباخ بالسفر معي وأبوا أن يُغرفوني بالجهة التي تقرر نقلي إليها زاعمين أنهم غير عالمين بها .

« قبل يوم ١٧ أغسطس المذكور بثلاثة أو أربعة أيام تقرر وضع جميع المراسلات الخاصة بسيشلز تحت المراقبة ، وذاعت الاشاعة بأن ذلك بسببنا ولكنا لم نكن نصدق ذلك حتى تأكدناه من بعض الأفواه الرسمية ، واستنتجنا منه أن الغرض من هذه المراقبة منع وصول خبر نقلنا إلى مصر ، وأن النقل هو إلى جهة بعد قنال السويس . ولم ينقلونا السفينة الحربية إلا ليلاً الساعة من مساء يوم ١٨ أغسطس ، ولم يؤذن لاحد من إخواني بمصاحبتي إليها . وكانت أمتعتي سبق إرسالها ولم يسلموها المسفينة إلا بعد تفتيشها ، كما فتشوا

خادي الذي كان معنا تفتيشا دقيقاً . ولما وصلت إلى السفينة استقبلني كوموندانها على السلم استقبالاً حسناً وسألني عما إذا كان معي خطابات فأجبت بالنفي طبعاً . وقدم الى ضابطاً يصحبني إلى القمزة التي أعدت لي فوصلها ووجدتها لا بأس بها وإن لم تكن من أحسن قمرات السفينة .

« وهناك قتشني هذا الضابط وسلمني ورقة بها تعليمات تتضمن اني لاأجلس إلا في قرتي أو في المحل الخاص الذي عين على ظهر السفينة الأعلى لجلوسي به وأن ألزم القمرة عند مسيس الحاجة ، وألا آكل إلا في أحد هذين المكانين وأن آخذ الحمام مابين الساعة السادسة والسادسة والنصف ، وأن صف ضابط تعين لخدمتي وأمر بعدم مفارقتي وألاأرسله بعيداً عني ، كما تعين واحد يلاحظ الاكل ، وألا اتصل بأي واحد من السفينة غير من تعين لملاحظتي ، وألا أستعمل أداة للكتابة إلا باذن الكومندان وأن أسلمه كل شي ، أكتبه وأن أبلغ إليه طلباتي بواسطة الضابط المعين ، وأنه يمكن تعديل هذه التعليمات بعد مضى القسم الأول من السفر

« تسلمت إلى هذه التعليمات مكتوبة وطلب مني امضاؤها فكتبت بالعربية عليها آني علمت مضمونها وأمضيت ما كتبت . أما هذه التعليمات فقد تنفذت بكل دقة . وما كان الحارس الذي كان يتغير في كل حصة من الزمن يفارقني لحظة حتى عند قضاء الحاجة ويمضي الليل كله ساهراً بباب القمرة .

« بعد يومين من سفرنا سألت القمندان عن جهة قصدنا قال أخبرك بها بعد مفارقة عدن . فارقناها وسألته فقال بعد مفارقة مصر ، وكان يتلطف معي في كثير من الأحيان ويخبرني أنه يبذل كل جهده في راحتي . أما الحكيم ورتبته كما قيل لي في السفينة مساوية لرتبة القمندان ، فكان يزورني صبيحة كل بوم ويجتهد في ارضائي ، وحلل البول مرتين عقب القيام من سيشل مرة ومرة قبل الوصول إلى هنا . وقبل الوصول إلى السويس بيوم خفضت السفينة من سيرها فنقص من ١٤ عقدة في الساعة إلى احدى عشرة . وكان

الأكل في السفينة رديئاً وكله من المحفوظ ولاوجود للخضارات فيها فتكلمت في هذا الشأن مع القمندان فارسل بالتلغراف اللاسلكي الى السويس لمقابلتنا باللازم منها . ولما صرنا من هذه المدينة على بعد ساعة قابلتنا مدمرة حربية حاملة لجانب عظيم من هذه الأشياء ، ثم سارت السفينة فوصلت الى القنال في الساعة ه ونصف تقريباً مساء . وقبيل الوصول أمرت بملازمة القمرة بعد أن قفلت نوافذها زجاجًا وحديدًا ، ووضع الحرس على اتباعي ومنعوا من الحركة في السفينة . ومرت هذه في القنال بسرعة بلغت في كثير من الحركة في السفينة . ومرت هذه في القنال بسرعة بلغت في كثير من الأماكن عشرين عقدة في الساعة حتى لم تستغرق في اجتيازه إلا ثماني ساعات تقريباً . ولم تقف الباخرة لا على السويس ولا على بورسعيد

« بعد اجتيازه في الساعة الحـادية عشر ، أخبرني القمندان باني منقول إلى هنا ولم يعدل من تلك التعليمات شيئاً ولكنه سمح لي بأن أجلس على ظهر السفينة الادنى الذي كان يجلس الضباط فيه أغلب الاوقات .

« لما رست السفينة هنا صبيحة يوم الأحد الجارى استقبلني بهاكل من سكر تير الحاكم العام والحدكم ورئيس أركان حرب وبلغوني سلام الحاكم . « انفرد الاول بي فبلغني أنهم أعدوا منزلا لسكناي ويتعشم أن أجده موافقاً لي وانهم أعدواكل مايلزم لضيافتي وإني أعتبر نفسي ضيفاً لاسجيناً . وكانوا قد أعدوا اتوموبيلين لي وللاتباع . وعند مانزلت من السفينة ودعني القمندان والحكيم وبقية الضباط في مدخل السلم وداعاً حسناً ، وركبت الاتوموبيل وعلى يساري السكرتير وأمامنا رئيس أركان حرب ، وسرنا الى المنزل فوجدته في وسط الحارة الانجليزية وهو منزل واسع وغرفه كبيرة وبه حديقة ويظهر انه كان مهجوراً من مدة ثم أعدوه أخيراً . وكانت رائحة البوية تتطاير منه .

« ورأيت فيه رئيس البوليس الذي شرع في الحال أن يسلمني القرار المرفق بهذا · فأخــذه السكرتير ووضعه الى جانبه وقال إن هــذا أمر شكلي لاأهمية له وأنت حرفي هذه الجهة ولكأن تتحرك كيف تشاء وتذهب حيث تريد ما دمت لاتخرج عن الارض الانجليزية . وبعد يومين أخبرني السكرتير بأن المنزل وأنواره وحديقته على مصاريف الحكومة والباقي على مصاريفك وأنه ترتب لي في الشهر خمسون جنيها فاستقللت هذا المبلغ الذي كان مرتبا مثله لي في سيشل لان العيشة هناأ غلامها هناك بكثير جداً وكنا ستة أشخاص في معيشة واحدة . وكان مع ذلك مأذونا لي في أن أصرف ما يلزمني زيادة عن ذلك المرتب من أموالي . ففهمت منه أن هذا المبلغ تقدر لي باعتبار كونه أكثر بماكان مرتبا في سيشل فافهمته أنه اذا كان مأذونا لي باستجلاب نقود من مصر فاني لا أطلب زيادة المرتب المذكور . فصرح بأني حر في استجلاب ما أريد من أموالي من غير أن تعارض حكومة هنا في أي مبلغ يرد منها .

«يزورني كل يوم طبيب من الحكومة ويصرف وقتاً ليس بقليل في الاستفهام عن الاحوال الصحية والوقوف على حقيقتها ووجدت فيه رجلاً مهذباً وديعاً هشاً ذا خبرة فيما يظهر لمثلي . وقد حلل البول مرتين فسكانت النتيجة في الاولى ٩ جرام في الالف والاخرى ١٢ جرام في الالف ولكنها لم تكن من محصول ٢٤ ساعة كالاولى بل محصول مرة واحدة . وستحلل غداً وفي كل أسبوع . وظهر في التحليل أثر خفيف للزلال ولكن هذا ليس حديثاً إذ كان يوجد شي. منه في مصر . وقد كنت أتناول على الاكل بيرة استوت فاستحسن استبدالها بقليل من الوسكي واستحضر من لندن عيشاً ودقيقا لان اتناول منه وسأبدأ في التعاطي من الليلة .

« أشعر الآن بشي. من القوة واعتدال الصحة وجودة الشهية وأخذت آنام أحسن من ذي قبل .

والمراسلات حرة والتلغرافات ترد إليّ و تصدر عني في أوقاتها و لا يستغرق الصادر منها والوارد الا مسافة الطريق . وأيد هذه الحرية عندي وصول خطابي اليك .

« أنا حر فى الذهــاب والمجيء على الارض الانجليزية ولكن على باب المنزل حرس من البوليس السري ليلاً ونهاراً يتبعني من بعيد حيثها سرت .

«كنت أحسب أن زيارتي غير ممنوعة ولكني قرأت في الجرائد اليوم أن الجنرال اللني نشر في مصر ما يفيد منعها إلاباذن من الحكومة الإنجليزية لا تعطيه إلا في أحو ال استثنائية ، ومن هنا فهمت مقدار الصعوبات التي تلاقوتها في سبيل الحصول على هذا الاذن ، وإذا لم توفق للحصول عليه مع توفر هذه الاحوال الاستثنائية بالنسبة لمرضي ولكونكم من الحكاء الذين سبقت لهم معالجتي فلا أمل في أن يحصل عليه غيركم واني أستقبل هذه الشدائد بكل صعر واثقاً بالله في حسن العاقبة ، أرجوكم كلما وقفتم على شيء في الجرائد الانجليزية يختص في أو بمصر أن ترسلوا قطعة إلى .

« وفي الحتام اشكركم على جميل منتاعيكم العامة والحاصة وارجوكم أن تبلغوا فائق تحياتي الى جميع اخوانكم المصريين. »

* * *

كذلك أجمل سعد أحوال المعيشة التي لقيها فيمنفاه بجزائرسيشل إجمالاً يغني عن المزيد. ولم يتجاوز أن ترك الوقائع تتكلم في غير هوى ولامرارة كما يتكلم العالم المحقق الذي يراقب الأمور للدرس والتدوين ولا تعنيه منها شكاية أو نكاية . والى جانب هذه الاحوال أمور شتى لم يعرض لها في خطابه لانها لا تنتظم في موضوع هذا الخطاب ، ونحن مشيرون اليها بالا يجاز على مقدار ما يقتضيه المقام

نزل سعد وأصحابه في قلعة عدن فلم يلبغوا قليلاً حتى جاءهم رسول من مصر هو موظف سوري كبير كان يعمل في دار الحماية فاستأذن في لقاء سعد على انفراد وخرج معه في مركبة للرياضة ، وافتتح معه حديثاً وجيزاً عن المفاوضات والحلول المعروضة ثم فاجأه بكلمة مقتضبة لا علاقة لها بحديثه السابق قائلا: « ستكون ملكا على مصر » فدهش سعد لهذه المفاجأة

وأجابه في حدة واستغراب: ما لنا ولهذا؟ وما شأني أنا والملك ولست إلا واحداً من الرعايا؟ فعاد الرجل الى الكلمة يكررها وأضاف اليها: « أنك زعيم الأمة الذي لا ترتضى سواه ، ولو قبلت ما يعرضه الانكليز عليك وعلى الامة لما خالفك أحد . فاختصر سعد هذه المحادثة وقال للرجل: « انني افضل أن أكون فرداً من الافراد في أمة مستقلة على أن أكون ملكاً لبلادمستعبدة في ظل حماية أجنبية » . . . ولزم الصمت في عودته الى القلعة بعد أن قال له على ما أذكر: « انني احسب انني لم أسمع شيئا مما تقول ، ولا أود أن اسمعه مرة أخرى منك أومن سواك.»

هذه حادثة محققة لاشك فيهابرواية سعد نفسه. اماقصدالسياسة الانجليزية منهافلا ندريه على التحقيق. فقد تكون المسألة جداً وقد تكون احدى المناورات، ولم نسمع من سعد ما يدل على رأيه في ترجيح أحد الوجهين.

وقد لبث سعد وأصحابه في عدن الى أن تم الاتفاق على مشروع ٢٨ فبراير الذي سيأتي الكلام عنه في الفصل التالي . ثم صدر الأمر بنقله الى جزائر سيشل ، ثم كان الاحتجاج الذي أسفر عن الاذن بسفر واحسد من رفاقه معه وهو الاستاذ مكرم عبيد لانه أصغرهم سناً ويعرف اللغة الانكليزية .

. قال سعد في وصف الرحلة من عدن الى سيشل من خطبة له بعد رجوعه الى مصر : « جاءوا في الساعة التاسعة وكنا في قلعة عدن مسجو نين وقالوا : يجب أن تنزل في الساعة العاشرة والنصف في مركب حربي تنتظرك ليتوجه بك الى سيشل وأمامك نصف ساعة تحزم متاعك فيها وتركوني وتولينا حزم متاعنا في هذا الوقت القصير . ونزلنا في مركب حربي حمولته ٥٠٠ طن كزورق ولكننا لم نسافر في هذا اليوم الاربعاء بل مكثنا فيه الاربعاء والخيس وسافرنا وم الجمعة مساء ٠٠

« انزلنا في يوم الأربعا. لكي نسافر الى سيشل ، ولكنا لم نسافر إلا يوم الجمعة لاجل ان يقال أن زغلو لا نزل في البحر وهو في طريقه الى سيشل.

فعلوا ذلك في اليوم الذى اعلنوا فيه تصريح ٢٨ فبراير وان مصر استقلت والغيت الحماية التي ضربت عليها .

« أخذونا في ذلك اليوم وقدكان في المقرر ان نسافر جميعًا بعد خمسة أوستة أيام ولكنهم ماانتظروا بناحتى يأتي هذا اليوم ، وما انتظروا بل عجلوا بسفري مع مكرم ومع خادمي وسرنا في هذه السفينة مسافة ستة أيام كدت أشرف فيها على الهلاك .

« أخيرا وصلنا إلى جزيرة سيشل ولا أحدثك عن حرارتها ورطوبتها وبعدها وكانوا يشددون علينا تشديداً كبيراً الى حد أنهم حرموا علينا أن تتكلم في الصحة وان نكتب في الهوا. وحجروا علينا هذا فكان لا ينبغي لنا ان نقول بان صحتنا غير جيدة ولا يصح لنا أن نقول ان هوا. سيشل غير مناسب ، لانه معتبر ان هذا التكلم في الصحة ضد النظام !! »

ولا حاجة الى الخيال الواسع في ادراك الحالة التي يكون عليها شيخ مصاب بالربو في جزيرة معرضة للحرارة والرطوبة ومختلف التيارات الهوائية في وقت واحد. فقد كان هذا الجو يثقل عليه حتى يصاب بالاختناق في بعض الأيام و يعجز عن المكلام الا بالايما. وساءت حاله وهو كما تقدم ممنوع من الاشارة الى هذا الوصب الذي يعانيه .

واحتال سعد على علاج الوقت وازجاء الفراغ بتعلم اللغة الأنجليزية على الاستاذين مكرم عبيدوعاطف بركات ، فكان يقضي في اليوم ساعات في القراءة والدراسة واستظهار الكلمات : يستيقظ نحو السادسة فيرتدي ثيابه ويجلس في شرفة الدار ليبدأ القراءة في الصباح الباكر الى ان يوافيه أحد الاستاذين فيقرأ عليه مايحتاج الى مدارسة ومساعدة ، وقد يواصل الدرس وهو في فراشه بعد الغداء وقبل الرقاد في المساء ، وكان قليل الخروج من الدار لانه كان يكره النظر الى الحراس ويلق كثيراً من التعب في الصعود والنزول ، ولا يألف الرياضة هناك إلا على شاطىء البحر حيث يروق الجو ويطيب

الهواء . وقد يلعب « السيجة » باصداف البحر مع بعض الزملاء على رمال الشاطي. البيضا. ، وهي اللعبة الريفية التي يحذقها الفلاحون ويشعر زعيم مصر وهو يلعبها انه فلاح ابن فلاح قبــــلكل شيء ، وكان أحب القراءات اليه بعد دراسة اللغة الأنجليزية قصائد البارودي التي قالها في منفاه : يقرأها ويرتلها على سبيل التأسي أو الإعجاب، ويستطرد من ذكرها أحياناً إلى ذكريات الثورة العرابية وأحاديث زعمائها في الآدب والسياسة ، ومنهم البارودي ومحمد عبده وعبدالله النديم ، ويمزج أحاديثه في تاريخ هذه الثورة ببعض الفكاهات والأغاليط التيكان أناس من زعما. الثورة يقعون فيها عن جهل أو اضطرار ولماً برح سيشل اتفقوا على طريقة للتفاهم يتحللون بها قليلاً من قيود الرقابة ، وهي اتخاذ « صفر » من الأسماء التي ترد في الرسائل البرقية حسب المعهود في كل واحد من أصحابها . فاذا أرسلت بتوقيع « سبنوت حنا » فمعناها إنهم في حاجة إلى النقود لاشتغال سينوت بك بالمسائل المالية ، . إذا أرسلت بعنوان « مصطفى النحاس » فمعناها إن الحماسة في مصر شديدة لاستحماس مزاجه ، وإذا كانت بعنوان مكرم عبيد و فمعناها إن الدعاية في انجلترا ناشطة لانه قام بهذه الدعاية قبل ذاك ، و إذا كانت بتوقيع زغلول فالأخبار عادية أو بتوقيع « سعد » فذلك بشير الافراج .

تصریح ۲۸ فبرایر

أرسل المركيز كرزون في الثالث والعشربن من ديسمبر البرقية الآتيــة إلى الفيكونت اللنبيكا جاء نص ترجمتها في الـكتاب الابيض: ــــ

« ليس ثمة اعتراض من جانب وزارة المستعمرات على إبعادك زغلولاً وأنصاره إلى سيلان في أول فرصة كما اقترحت في تلغرافك المؤرخ في ٢٣ ديسمبر . والتعليمات مرسلة إلى حاكم سيلان طبقاً لذلك . ولكن إذا ظهر أنه من غير المرغوب فيه حجزهم هناك لاعتبارات محلية ، فان في الوسع ارسالهم إلى سيشل . ومعلوم لدينا أن الاستعداد اللازم لهم يمكن توفيره في سيشل . وينبغي الابراق إلى حاكم سيلان مباشرة بالتفاصيل الوافية عن تاريخ الابحار من السويس وعن تأليف القوم المبعدين.»

فاستطير الفيكونت اللنبي فرحاً بهذه الموافقة كما بدا من برقيته التي بادر بارسالها ليشكر المركيز كرزون كثيراً وانتظر ابعاد زغلول وأصحابه إلى سيلان ليوقع اليأس في قلوبهم وقلوب المصريين من كل مستقبل مرجو لهؤلاً القوم المبعدين في عالم السياسة المصرية. ولام ما لا يعنينا بحثه هنات تغير المننى واستبدلت جزائر سيشل بجزيرة سيلان ، ولبث سعد وأصحابه في انتظار النقل إلى المكان المقدور ، حتى أعلن تصريح ٢٨ فبراير في مصر فكان يوم إعلانه _ إعلان الاستقلال! _ هو يوم انتقال «القوم المبعدين » من عدن إلى منفاهم السحيق .

ولولا الحرص الشديد على الانتقام من سعد والتشني منه ومن أنصاره لكان التمهيد بنفيهم لتأسيس النظام الجديد من أعجب ما يخطر على العقول، لكان رجاء النجاح بعد ذلك القهيد من أغرب الاحلام التي يحلم بها الساسة العمليون، وهي أغرب من مخترعات الحيال.

فان النني ليصلح عنواناً لكل شي. إلاأن يكون عنواناً للحرية والاستقلال ودليلاً على أن البلاد قد ظفرت بحمكم نفسها وتحقيق مشيئتها ، وإن بلدا يضيق بزعمائه في يوم إعلان حريته واستقلاله لا عجوبة من أعاجيب النقائض والاضداد . وماكان بدعاً من المصريين أن يتشامموا بتصريح يمهد له ذلك التمهيد ، ولا أن يسمعوا في يوم واحد بنني سعد إلى سيشل وباستقلالهم هم في وطنهم بما يرومون ومن يرومون فلا يستطيعون التوفيق بين الامرين ولا يجدون بداً من الشك في إحدى الروايتين . وإنما البدع أن تؤكد لهم النني والاستقلال في وقت واحد وأن لا تتركهم ينسون نبأ النني في ذلك اليوم خاصة ثم تطمع منهم في اعتقاد غير مااعتقدوه ويقين غير ماأيقنوه ، وتريدهم على أن يستبشروا بالتصريح وبالعهد الذي يليه.

ولو كان التصريح استقلالاً حقاً لما عيب على المصريين أن يتشاءموا به ويوجسوا منه ويعرضوا عنه وعن دعاته ومروجيه ، لأن نسيان الاعزاء المنكوبين والانتصار لخصومهم الظافرين اغتباطاً بغنيمة سياسية أو منفعة وزارية أمر قد يفهمه الساسة ويحمدونه في حساب المساومات والمعاملات ، ولكن النخوة في الشعوب أولى بالتقدير والاعجاب من جميع المنافع والغنائم التي تنطوي في النظم والدساتير ، لانك إذابحثت عن النخوة في سواد الامة فوجدتها عندهم فليس يضيرك أن لاتجد فيهم موازين الساسة المحنكين ، وإذا بحثت عنها فلم تجدها فهناك الضير كل الضير والوخامة شر الوخامة والاسفاف الذي لاتغني فيه حنكة ولا نظم ولا وزارات .

ان المصريبن لم يشعروا بتصريح ٢٨ فبراير الاكاينبغي أن يكون شعورهم به سواء في ذلك من حمدوه ومن انكروه ومن دقوا له الطبول ومن حثوا على وجهه التراب . . واظرف مايروى في هذا الباب ما رواه البارون « فان دن بوش » البلجيكي في كتابه « عشرين سنة بمصر » نقلاً عن مذكراته التي وصف بها الاحتفال بالاستقلال في محافظة الاسكندرية . فقد روى كيف

خطبوا يوم ذاك وكيف هللوا بالعهد الجديد. ثم قال: « إلا أن رجلاً قصيراً على رأسه طربوشه المنحرف تقدم في مشية إبليسية ورفع يده في وقار وعيناه تلمعان ثم نادى: ليحي الاستقلال التام إ فهبطت كلماته في وسط سكوت مكروب...»

أين الاستقلال ؟ لاأحد يصدق أنه الاستقلال حتى المبتهجين بيوم الاستقلال !!

وكان من الميسور أن يتنبأ الفيكونت اللنبي وأصدقاؤه الوزراء المصريون يما يوشك أن يلقاه التصريح الذي مهدوا له ذلك التمهيد ، اولكنهم بلغوا بالتمهيد غاية فيها الكفاية : وهي الحلاص من زغلول والغلبة عليه . وهي غاية مقصودة لذاتها ولو لم تعقبها نتيجة مرموقة من النتائج السياسية . وقيل ان بعض أولئك الوزراء قد لجت به الضغينة على سعد حتى اقترح محاكمته واعدامه بهمة الثورة والخيانة العظمى ، وقيل ان الفيكونت اللنبي لم يرفض ذلك الاقتراح ولم يحجم عن الرجوع به الى الحكومة البريطانية ، وأنها هي التي ساومته في الصفقة المعروضة الى ان قنع من الاعدام بالابعاد ا

وبما يعزز أن اللورد اللنبي نفسه طلب لزعماء الوفد جميعاً الإعدام في هذه المناسبة أو غيرها مارواه السفير الأمريكي الدكتور مورتون هول عن مقابلة اللورد اللنبي ومستر أسكويث بعيد مقتل السردار حيث قال في كتابه مصر ماضياً وحاضراً ومستقبلاً »: « عند ما لقيت قدمني الى مسترأسكويث وكنا جميعاً واجمين واللورد اللنبي بصفة خاصة مهتاج الشعور ، وكان يقول ان الإطباء الآن يفحصون حالة الحاكم العام وانه يخشى أن تكون الاصابة قاتلة . ثم قال إن زغلولاً باشا رئيس الوزراء حضر قبيل ذلك ليعرب عن أسفه لهذه الفعلة الشنيعة ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت ولا من المكلام لهذه المقابلة . ثم ختم كلامه عن هذه المسألة بقوله : انني قدأردت أن أشنق جميع هؤلاء الناس في وقت قبل هذا فلم توافق الحكومة ، وكانه يعني كما فهمت

ساعتئذ أنه لو أجيب إلى طلبه وترك لرأيه لما وقعت هذه الفاجعـــة. ف فالانتقام من زغلول ومن ــ هؤلاء النـاس ــ كان إذن غرضاً يراد. لذاته أو كان هو الغرض الآول من قضية التصريح والاستقلال المزعوم ... لعله بعد ننى زغلول يعين على نسيانه واهماله .

وبعد الفراغ من هذا الغرض الآول تفرغ اللورد اللنبي والوزراء المصريون أصدقاؤه لما بتي لهم من الغرض الآخر الذي لايهم النجاح فيه كما يهم النيل من زغلول والغض من مكانته وكبريائه ، ونعني بالغرض الآخر ارضاء مصر بالتسوية الجديدة من طريق اقناع المعتدلين واجبار المتطرفين على الاعتدال ، فلم تطل الايام حتى وجدوا ان « التصريح » كان عبثًا باطلاً وجهداً ضائعاً من حيث تحقيق هذا الغرض الآخر . . . لانهم قد اضطروا الى اتباع الخطة التي كانوا مضطرين الى اتباعها لو لم يوجد هذا التصريح ؛ وهي خطة القمع والتجسس والمحاكات العسكرية تقابلها من الجانب المصري المظاهرات والهياج وسلسلة من حوادث القتل السياسي لم تكن معروفة قبل ذلك في والهياج وسلسلة من حوادث القتل السياسي لم تكن معروفة قبل ذلك في تاريخ الثورة المصرية ، لأن الانجليز الذين أصيبوا قبل تصريح ٨٨ فبراير إنما كانوا يصابون في أثناء المظاهرات أو في أثناء الصدام والمقاومة وكانوا جميعاً من الجنود ، ولكن حوادث الاعتداء بعد ذلك التصريح كانت تصيب الجنود والموظفين وغير الموظفين ، وكان القائمون بها أناس يتا مرون ويقدمون عليها للحفيظة والانتقام .

وانقلب العداء إلى عناد والعناد إلى مناجزة يبذل فيها كل فريق قصارى. ما عنده لتحدى الفريق الآخر وإحباط مسعاه ، فاذا منعت الحكومة الاجتماعات والمظاهرات التي تهتف بحياة سعد زغلول نابت عنها الاغاني. الشعبية في الشوارع والآزقة والحواضر والقرى وكل مكان يتسع فيه الفضاء للغناء والترنم والانشاد ، وإذا حظرت الحكومة على الصحف أن تذكر سعداً أو تشير إلى اسمه أو اسم الجزيرة التي هومنني فيها استورد الناس الآنية الحزفية

من أوربا وعليها رسمه ، وكتبوا اسمه على الجدران وعلى ورق النقد الذي كانت تتداوله الآيدي بمئات الآلوف في تلك الآيام لانتشار الآوراق الصغيرة من جميع الفئات ، وإذا اعتقلت الحكومة أعضاء من الوفد قام في مكانهم على الآثر أعضاء غيرهم يعرضون أنفسهم للاعتقال والجزاء وهم مستبشرون ، فأصبحت العلاقة بين الفريقين علاقة غالب أو مغلوب ومنتصر أو منهزم ، وهذا كل ماظفر به التصريح من «التقريب» و «تسوية» العلاقات بين البلدين.

وقد ظهر من سفر اللورد اللنبي إلى لندن أيام المفاوضة في التصريح ـــ كما ظهر بعد ذلك من الوثائق الرسمية ــ أن الوزارة البريطانية لم تخلُّ من أناس يعارضونه معارضة شديدة ويستكثرونه على مصركا نه غنيمة لاينبغى لها أن تطمح اليها. وراق الوزراء المصربين أن يحسبوه كذلك من الغنائم التي لاتنال إلاّ بالدها. «والمرونة» ولطف المدخل على عقول الانجليز، بل راقهم وراق اتباعهم أن يحسبو اأنفسهم خادعين ويحسبوا الفيكونت اللنبي ومستشاريه الإنجليز مخدوعين في هذه المساومة التي ما كانت لتفلح في زعمهم لولا ماوهبوه من قدرة على طرق الأبواب وتذليل الصعاب ، ومن الطبيعي ان يكون هذا رأيهم أو زعمهم في تعظيم ماعملوه وتسويغ مافعلوه ، ومن الطبيعي كذلك أن تمانع الحكومة البريطانية في المبادرة باعلان التصريح ما دامت تستطيع أن تمانعً وتساوم وتعطي بالثمن الكبير ماهي خليقة أن تعطيه بالمجان ، ولكن الحقيقة أن الدولة البريطانية كانت وشيكة أن تفرض ذلك التصريح أو ماشابهه على مصر بغير جهد من الفيكونت اللنبي ولا مخادعة من الوزراء المصريين . لأنها اتبعت هذه السنة في كل أمة شرقية غير مصر بعد الحرب العظمي وبعدرواج المبادي. الولسنية التي استغلتها بريطانيا العظمي في سياستها الاستعارية ، كدأبها في جميع المبادي. والدعوات الصالحة للاستغلال . فاعترفت بمملكة الحجاز وبملكة العراق وخولتهما مظاهر الملك وألقابه وحقوق الدول والعروش دون أن يزعم زاعم ان وزيراً بارعاً أو غير بارع

ضحك منعقول الانجليز هناك فساقهم بدهائه ولباقته الى التسليم بالاستقلال من حيث لايدرون ولا يشعرون . وعمم الأنجليز هذه السياسة حتى اعترفوا بالحكومات الوطنية في مستعمرات افريقيا التي لا نصيب لها من الحضارة . فهناك اليوم امراء وطنيون ومحاكم وطنية ورؤساء وطنيون ومراسم من هذا الطراز تخدع من يعبرون بالبلاد عبور السائح ولا ينفذون فيها الى بواطن الأمور . ولم تخسر بريطانيا العظمي كثيراً ولاقليلاً بهذه البدعة الطريفة من بدع الحرب العظمي بل استفادت كل ما تبغيه وفوق ماتبغيه من السطوة والمصلحة والدعاية . لأنها كسبت سمعة الحرية والأنصاف بين أمم العالم على أثر الدعوة الولسنيــة ، وكسبت ايقاع الفتنة بين الوطنيين وتدويخهم بالمنازعات الداخلية بدلاً من الاتفاق بينهم على السيطرة الاجنبية ، وكسبت القا. التبعة عن كاهلها والقائها على كواهل الوطنيين لتعود في يوم من الآيام فتتخذ من سوء الادارة الذي لابد منه في جو المنازعات والدسائس وتغليب المفسدين وطلاب الفرص والمغانم حجة لها على أولئكالوطنيين ، وكسبت إرضاء الأغرار وذوي الأغراض الذين ترضيهم المظاهر والصور الحلابة فيحسبون أنهم مستقلون لأنهم يوصفون بأوصاف المستقلين. ونجحت هذه السياسة نجاحًا أغرى الدول الاستعارية باقتباسها والحذو على مثالها فاقتدت بها فرنسافيسورية والبلاد المغربية واليابان في الأقطارالتي اقتطعتها منالصين.

ومعلوم أن بريطانيا العظمى احتفظت لنفسها في تصريح ٢٨ فبراير بشروط أربعة هي : (١) تأمين مواصلات الأمبراطورية في مصر و (٢) الدفاع عن مصر في كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة و (٣) حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات و (٤) مسألة السودان ، وهي لو لم تحتفظ بهذه الشروط الاربعة لكان في جيشها المقيم بالبلاد الكفاية لتحقيق كل دعوى تدعيها وتضييع كل استقلال تعتصم به البلاد المحتلة ، لتحقيق كل دعوى تدعيها وتضييع كل استقلال تعتصم به البلاد المحتلة ، فإذا أضيفت الى القوة العسكرية هذه الشروط أو هذه الحقوق كما تريدها

الحكومة البريطانية فالذي يبتى من الاستقلال لايساوي عناءه، والذى يبتى من الحماية أو من الضم الصريح هو الجوهر الصميم الذي ليس يعني القوم شي. سواه.

تحدث سعد بعد عودته من المننى عن تصريح ٢٨ فبراير فقال على أسلوبه في سرد الأمثال: هو ناقة البدوي التي تباع بمائة درهم وتباع التميمة التي في رقبتها بألف ، ولكن لاتباع الناقة بغير التميمة . . . فما أملحها من صفقة « لولا الملعونة في رقبتها » ١١

من المنفى الى الوزارة

كان عدلي هو الذي قطع المفاوضات مع كرزون.

وكان سعد هو الذي نني إلى سيشل بعد قطع هذه المفاوضات!

وليس هذاكل ماهنالك ، بلكان اللورد اللنبي حريصاً على بقاء الوزارة العدلية في الحكم ، ولما استقالت وأكدت استقالتها مرة أخرى كان حريصاً على « اقناع أعضاء من حزب عدلي بالانضهام إلى الحكومة » لانه يشعر كما قال في برقية العشرين من ديسمبر الى حكومته « بأن هذا الحزب لامحالة عزق مالم يتقدم الآن.»

وهــــذا تصرف من جانب الانجليز لامعنى له إلا أنهم يعتقدون ان المعارضة التي أحبطت المفاوضات هي معارضة زغلول وان ماعداها إنما هو معارضة « المظاهر » والمراسم ومقتضيات الاحوال .

وقد اجتمعت المعارضة الحقيقية ومعارضة المظاهر بعد نفي زغلول وأصحابه في صف واحد ، فاجترفت كل مادبرته السياسة الانجليزية وخيبت رجاءها في كل ماقدرته من تخويف المصريين بتهديد اللورد كرزن في كتابه إلى السلطان ، وشملت المعارضة السياسيين وغير السياسيين فاشترك فيهاكبار القضاة والمحامين والاطباء ، و « حزب » عدلي كما يسميه اللورد اللنبي وسائر الاحزاب التي تنضوي الى هذا الجانب أو ذاك ، أو تقف بين بين في انتظار الطوارى والتقليات .

استقال عدلي وأكد استقالته مرة أخرى بعد اعتقال سعد وأصحابه لكي لا ينسب إليه الاشتراك في هذا التصرف ، وأسرع إلى اللورداللنبي « يؤكد له أنه شخصيًا سيظل مؤيداً لحكومة السلطان ولقوى القانون والنظام » أي

للاحكام العسكرية البريطانية بطبيعة الحال ، لأنها هي القوى التي تدعيحفظ القانون والنظام فما عدا حكومة السلطان !

واستحال تأليف وزارة جديدة بعد المعارضة الاجماعية من جميعالطبقات للسياسة التي رسمها اللوردكرزون في كتامه .

و بعد مفاوضات بين ثروت واللنبي أعلن في الثامن والعشرين من فبراير التصريح المنسوب إلى هذا التاريخ لآن أحداً لم يستطع أن يسميه تصريح الغاء الحماية أو تصريح الاستقلال ، أو ما إلى ذلك من الصفات ، لافزق بين أنصاره المرحبين به ، وخصومه المعترضين عليه !

تألفت الوزارة الثروتية عقب هــــذا التصريح ، وأرسلت وزارة الخارجية المنشأة حديثاً منشوراً في منتصف شهر مارس إلى وكالات الدول السياسية تبلغها النطق الملكي المعلن استقلال مصر واتخاذ ولي الامر فيها لقب صاحب الجلالة ملك مصر .

وفي الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية الدول أن كل معاملة بينها وبين مصر على غير الخطط التي رسمتها لاستقلالها تنظر إليها بريطانيا العظمى كأنها عمل من أعمال العداء .

وبقيت الأحكام العسكرية وبتي اللورد اللنبي صاحب السلطان الأكبر في مصر المستقلة 1. وبمقتضى هذه الأحكام العسكرية كانت تغلق الصحف وتمنع الاجتماعات وتصادر الحريات في كل صباح ومساء . بل بمقتضى هذه الأحكام العسكرية حوكم سبعة من أعضاء الوفد بعد اعلان الاستقلال بنصف سنة لأنهم أصدروا منشوراً فيه إغراء وتحريض ضد نظام الحكم الحاضر . . أي ضد الاستقلال 1 فوقف حمد الباسل باشا (١) وكيل الوفد إذ ذاك يتلو على المحكمة الكلمة الوحيدة التي قبلوا أن يلفظوا بها في هذه المحاكمة . ومنها

⁽١) الستة الآخرون م : مرقص حنا بك وواصف غالي بك وعلوي الجزار بك ومراد الشريعي بك والاستاذ ويصا واصف.

قولهم : « لو أن المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحاً جدياً وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة لكان حقاً عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا . لهم أن تحكموا علينا ولكن ليس لهم أن تحاكمونا . نحن لانعرف مهيمناً علينا غير ضهائرنا وتوكيل الأمة التي شرفتنا وقوانين بلادنا ومحاكمنا . . . فهما تكن العقوبة التي يروقكم أن تشرفونابها فاننا سنقابلها بالسرور والفخار ، لانها خطوة إلى الأمام في طريق المجد الذي تسير فيه مصر إلى مصيرها الخالد.»

وقد حكمت المحكمة العسكرية عليهم بالاعدام. ثم عدل الحـكم إلى سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه على كل منهم وأبلغوا حكم الاعدام أولا فهتفوا « لتحي مصر » قبل أن يسمعوا ماوراً. ذلك . ثم تليت عليهم تتمة الحكم وفيها ذلك التعديل ، فكرروا الهتاف لمصر بالحياة .

أما الوفد بعد اعتقال سعد فقد عاد إليه بعض أعضائه المنفصلين ، ثمم تركوه بعد أيام لسبب ظاهره أنهم اختلفوا على اختيار عضو من الأعضاء الجدد ، وباطنه أنهم عرفوا السياسة التي رسمت للمستقبل وهي سمياسة حرب عدلي » كما سماه اللورد اللنبي، فرجعوا إلى تأييد هذه السياسة.

وقد أصدر الإعضاء الباقون منشوراً مفصلاً ببرنامج المقاطعة ، وسياسة عدم التعاون مع الانجليز في الحكومة وخارج الحكومة ، فقبض عليهم ثم أفرج عنهم ، وعادوا فأصدروا منشوراً حضوا فيه الأمة على بذل مافي الطاقة لاعادة سعد وأصحابه من منفاهم ، فقبض عليهم في الرابع والعشرين من شهر يوليو وحوكموا في التاسع من شهر أغسطس . وانتهت المحاكمة بعد ثلاث جلسات وجيزة ، لأن الاعضاء رفضوا بتاتاً أن يجيبوا على أي سؤال .

أما الوزارة الثروتية فأهم ماصادفها من العقبات ـــ غير مقاومة الآمة ــــ احتجاج الحكومة البريطانية على كثرة الجرائم السياسية التيكانت تقع على

الموظفين وغير الموظفين الانجليز ، ومنها ماكان يقع نهاراً في أعمر الأحيا. بالسكان . وقد قالت الحكومة البريطانية في احتجاجها :

« إن عدم الاهتداء إلى مرتكبي تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة العقاب يدل أوضح الدلالة على عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع به اعتداء من الاجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير ما إذا كان التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية كافياً أو غير كاف .»

وفيها عدا ذلك الاحتجاج الرسمي كانت العلاقات بين الانجليز والوزارة الثروتية علاقة مودة وتأبيدمتبادل، وكانت العقبة الكبرى الني تلقاها الوزارة إنما هي الخلاف المتعاظم بينها وبين الملك فؤاد على مسألة الدستور

وخلاصة المسألة الدستورية أن الوزارة أنشأت برأيها ورأي أصدقائها لجنة مؤلفة من ثلاثين عضوا برئاسة «حسين رشدي باشا» لوضع الدستور الجديد ، تمهيداً لانتخاب الهيئة التي تبرم الاتفاق بين مصر وانجلترا على القضية المصرية . ودعت الوزارة عضوين أوثلاثة من الوفد المصري إلى الاشتراك في اللجنة فلم يحيبوا الدعوة لأن تمثيل الوفد بهذا العدد القليل بين ثلاثين من أنصار الوزارة المعادية للوفد ورثيسه عبث لا يناله منه إلا التبعة و تصحيح مركز الوزارة تصحيحاً يقويها ويضعفه ويفل سلاحه ، ولأنه كان من ناحية أخرى يقترح انتخاب جمعية تأسيسية لوضع الدستور برأي نواب البلاد لا برأي الوزارة ومن يشايعها ، ولأنه كان يستريب بمقاصد عبد الخالق ثروت ويناصبه العداء مقابلة لعدائه بمثله و تطبيقاً لسياسة عدم التعاون التي أعلنها ويناصبه العداء مقابلة لعدائه بمثله و تطبيقاً لسياسة عدم التعاون التي أعلنها بعد وأصحابه.

وارتسمت الخطة التي كان ينويها ثروت باشا وأصدقاؤه ويطمئنون إلى جريان الأمور في مجراها إلى الغاية المنشودة : وهي تنفيذ الاتفاق بينهم وبين الانجليز باسم النواب المنتخبين وضان الحمكم على القواعد الدستورية فسعد وأصحابه في المنفى ، والبقية الباقية من أعضاء الوفد البارزين في السجون أو المعتقلات ، والانتخابات تجري على الأسلوب الذي يحسنه ثروت باشا وجرى عليه في جمع التوقيعات ، وهو وأصدقاؤه من « حزب عدلي » ينزلون إلى ميدان الانتخاب بغير منازل أو يقهرون منازليهم بمعونة الحكومة وما عندها من وسائل الترهيب والترغيب وقضاء المصالح من هنا ومنعها من هناك . ولا يبقى إلا النجاح والاستئثار بالامر إلى زمن طويل،

ولهذا كانت الوزارة وأنصارها يقررون المبادي. التي تلائمهم في الدستور وهي مبادي. التبعة الوزارية والاعتراف بالامة وحدها مصدراً للسلطات ، بدلاً من حصر السلطة الدستورية في أيدي الملك وهو الجانب الذي كانوا لا يأمنونه ولا يرجون منه المساعدة على نجاح الحنطة المرسومة وجريانها في ذلك المجرى المعسلوم . وكان يشايعهم المخلصون من أعضاء اللجنة الذين لا ينظرون إلى الما رب الحزبية ويؤثرون المبادي. الديمقراطية في الدستور على مبادى. الاستبداد .

فاستفاد الدستوركثيراً من حيطة الوزارة واخلاص المخلصين ، وجاء على الجملة دستوراً لا بأس به في القواعد والنصوص .

لكن الملك فؤاداً كان يريد الدستور على غير هذه القواعد فيما يرجع الى التبعة الوزارية ومصدر السلطات ، وبحل مايريده في هـــــذا الباب أن تكون الوزارة مسئولة بين يديه وأن لاينص في الدستور على أن الأمة مصدر السلطات جميعًا . فتوترت العلاقات بين القصر والوزارة الثروتية ، ولاح في الأفق أن الملك فؤادًا يترقب الفرصة التي يتلخص فيها من تلك الوزارة دون أن يفتح للانجليز باب التدخل في الموضوع ، وقد سنحت

هذه الفرصة بعد زمن وجيز بما نقله محمد سعيد باشا الى الملك من حديث رواه حسن صبري « بك » الحجامي عن الحديويالسابق ، و فحواه أن الحديو يعتبر ثروت باشا من رجاله ولايخشى منه أن يقيم الصعوبات في تسوية ماله من المسائل المالية . . . وواجه الملك ثروت باشا بهذه الرواية فلم يبق للرجل الا أن يستقيل بعد قيام هذه الشبهة ، ثم قضى على تردده في نية الاستقالة أنه دعي للصحالة مع الملك في الجامع الازهر وسمع من المصادر المختلفة أن مظاهرة كبرى ستلقاه في داخل المسجد وخارجه بما يكره من هتافات التشهير والاتهام على مسمع ومشهدمن ولي الأمر والحاشية الملكية ، فعجل بالاستقالة ولم يذكر فيها من أسبابها إلا أنه قال في ختامها : « وقعد كنت أرجو أن ولم يذكر فيها من أسبابها إلا أنه قال في ختامها : « وقعد كنت أرجو أن أمضي مع زملائي في تنفيذ برنامجنا حتى تمامه ولكن أرى أن أترك الأمر لغيري »

فجاءه الآمر الملكي بقبول الاستقالة بعد نصف ساعةمن رفعها ، وكان ذلك في التاسع والعشرين من نوفمبر.

وفي اليوم التالى قامت الوزارة النسيميةوغرضها الأول تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك في التبعة الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ.

.أما وسيلتها إلى هذه الغاية فهي التقرب من الوفد واسترضاؤه بما يجنح به الى السكوت عن التعــديل المقصود ، فلا يرى الانجليز وجهًا للاعتراض مع موافقة الملك والشعب على المبادي. الدستورية التي يستقر عليها القرار .

ولهذا أكثر من دعوة الوفد الى القصر الملكي والى الصلاة في المساجد التي يحضرها الملك أيام الجمعة . وكتب رداً على مـذكرة اللورد اللنبي التي يحتج فيها على حوادث الاعتداء السياسي قال فيه إن « تكرارها المؤلم منذ نحو سنة يحمل على الاستنتاج أن هناك رد فعل ضد سياسة لا تراعي عواطف الاكثرية من الاهلين المراعاة الكافية ، وهو رد فعل يؤسف له كما أنه صادر عن قلة روية من قبل بعض العناصر المتهوسة غير المسئولة ، كما يوجد لسوء

الحظ في كل بلد . والذي يزيد في ترجيح هذا الافتراض أمريستوقف النظر وهو أنه في كل المدة التي كان يؤمل فيها الوصول الى اتفاق ودي بين لسان حال تلك الاكثرية والحكومة البريطانية ليس فقط لم ترتكب جريمة من تلك الجرائم بل أن العلاقات بين المصريين والانكليز لم تكن قط أكثر ثقة وأوفر ولاء بما كانت في تلك الفترة . مع أن الامر صار على العكس من ذلك من يوم ما أصبحت الحكومة البريطانية غير متصلة بممثلي الاكثرية المصرية بسبب المفاوضات غير الرسمية أو لا ثم بسبب تدايير العنف التي تلت قطع المفاوضات الرسمية ، وأخيراً بسبب الندابير التي صاحبت الاتفاق مع أقلية لا تأثير لها حقيقة في الامة فزادت الحالة تحر جاً والعواطف تألماً مما جعل الاتفاق المرغوب فيه أكثر صعوبة. »

ييد أن هذا التقرب الى « الاكثرية » لم ينفع الوزارة النسيمية طويلاً في تخدير الأمة وتهيئة الجو لتعديل الدستور ذلك التعديل الذي يضيق من حدوده ويكادينقضه من أساسه، وهو الاعتراف بسلطة الامة والتبعة الوزارية. فقد كانت الامة أيقظ من أن تؤخذ بهذه الاساليب أو تستمع فيها الى رأي أحد ، وزادها يقظة وحذراً أن الوزارة لم تصنع شيئاً في مسألة المنفيين والمعتقلين منعقداً للنظر في مسائل الشرق و تنقيع المعاهدات بين الحلفاء والدول التركية صاحبة السيادة القديمة على مصر ، فاذاع الوفد المصري بياناً في العشرين من يناير قال فيه : « ما زالت الوزارة ملتزمة خطة الصمت وما زالت مصالح البلاد معطلة ، فلا مثلت مصر في مؤتمر لوزان تمثيل الدستور وليد ارادتها ، الاحكام العرفية ولا احترم حق الامة في أن يكون الدستور وليد ارادتها ، ولا عادالوكلاء المنفيون ولا أطلق سراح الزعماء المسجونين، وهذا سر ما استولى على النفوس من الحيرة والقلق » ثم قال : «والاخبار متواترة أيضا على وقوع على النفوس من الحيرة والقلق » ثم قال : «والاخبار متواترة أيضا على وقوع أمور خطيرة بشأن مشروع الدستور ، فانهم يؤكدون أن هناك أخذاً ورداً بين أمور خطيرة بشأن مشروع الدستور ، فانهم يؤكدون أن هناك أخذاً ورداً بين

الوزارة والانكليز متعلقين بالنص الخاص بالسودان ، وإن الوزارة قد ادخلت منجهتها تعديلاً جديداً على نص المشروع يقضي بزيادة عدد الاعضاء المعينين في مجلس الشيوخ الى النصف وتقرير مسئولية الوزارة أمامه.»

واتبع هذا البيان بيانات أخرى في معناه.

ثم استقالت الوزارة النسيمية لأن الانجليز تخطوها ووجهوا الى الملك انذاراً يطلبون فيه حذف النص الحاص بالسودان من الدستور والاكتفاء فيه بلقب « ملك مصر » بدلاً « من ملك مصروالسودان » . . . فقبل نسيم باشا هذا الطلب واستقال بعد قبوله وتنفيذه 1

وهنا يجب أن نلخص الحالة كلها من حيث المناورات الوزارية لنفهم حقيقة الموقف الذي وقفه سعدباشا من هذه الوزارة ، لانه موقف في حاجة إلى التوضيح .

وذاك انه لما أحس رؤساء الوزارات والمرشحون لرئاسة الوزارة ان رشدي وعدلي وثروت وأصحابهم قد احتكروا الميدان في السياسة المصرية، تألبوا حزبًا واحدًا على مقاومة هذا الفريق، وأصبحوافريقًا آخر يرأسهم محمد سعيد واحمد مظلوم وتوفيق نسيم ويوسف وهبه واخوان هذا الطراز، وأصبح في مصر على هذا التقسيم فريق وزاري يصح أن يسمى بالمسدرسة المتفرنجة وهم عدلي وأصحابه، وفريق آخر يصحأن يسمى بالمدرسة التركية وهم محمد سعيد وأصحابه.

وبحكم العداء بين الفريقين أصبح لزاماً على « المدرسة التركية » أن تخطب ود الوفد وتتقرب إليه ، وتلوذ بالقصر الملكي لتستند اليه في وجه المعاونة المكشوفة من الانجلىز لعدلي واصحابه.

وهذا سر الصداقة التي كان يبديها محمد سعيد وتوفيق نسيم واحمد مظلوم لسعد زغلول بعد أن كانوا جميعاً يحاربونه أو لا يتقدمون إلى مساعدته بعمل من الاعمال . فسعى محمدسعيد في إنشاء وفد غيرالوفد السعدي ، وأبى توفيق نسيم أن يوقع التوكيلات القومية ، ولبث احمد مظاوم على صداقته للاثنين. فلماجاء توفيق نسيم عقب عبد الخالق ثروت المجاهر بعداء سعد وانصاره ، وأتبع سياسة التقرب إلى الوفد ، وكتب مذكرته يطاب فيها الاعتراف بالكثرة القومية ، واستقال قبل أن ينسخ الدستورو تنكشف أغراضه الحفية بلغ ذلك كله الى سعد في جبل طارق وهو بعيد من مجرى الحوادث ووسائل الاستقصاء الوافية فكتب إليه البرقية التي يقول فيها «انكم بعملكم الشريف المفعم بالوطنية والحكمة استحققتم تقدير الوطن » ونظر الى الموقف في جملته بين أن ينصر حزب ثروت أو ينصر حزب نسيم ، فاختار مااختاره بعد هذه الموازنة المجملة ، وحدا به الىحسن الظن بالرجل وعدم استغراب سياسته المجديدة انه كان صهراً له اذ كانت شقيقة نسيم زوجاً لشقيق سعد المرحوم المجديدة انه كان صهراً له اذ كانت شقيقة نسيم زوجاً لشقيق سعد المرحوم

ولسنا نقول هذا لتسويغ ذلك التقدير فاننا لا نسوغه الآن كما لم نسوغه في حينه ، ولكننا نقوله لتبيين الأسباب التي باعدت بين حكم سمعد على الوزارة النسيمية وما تستحقه هذه الوزارة بما عملته وبما تنويه .

احمد فتحي زغلول .

بعد سقوط الوزارة النسيمية اتجهت الانظار الى عــــدلي يكن باشا لاستئناف الخطة التي اقتضبت على ثروت باشا قبل تمامها . وكان عدلي باشا قد أنشأ حزباً ينزل به الى ميدان الانتخاب وسماه من أجل ذلك حزب «الاحرار الدستورين.»

ولكن الملككان لا يرغب في استيزاره ولا يزال يرجو أن تقوم وزارة من رجاله تعيد النظر في الدستورعلى المبادي التي يريدها ، وتعاظمت المصاعب أمام عدلي بين مقاومة الوفد ومقاومة القصر وكثرة الجرائم السياسية في أيام ترشيحه وصعوبة اصلاح الخطأ الذي وقعت فيه الوزارة النسيمية وانجاز الوعود التي لم تنجزها ، فاعتذر من تأليف الوزارة وأصر

على اعتذاره ، وأنتهى الأمر في منتصف شهر مارس (١٩٢٣) باسنادها الى يحيى ابراهيم باشا وهو قاض نزيه ولكنه رجل ضعيف كان يخشى كثيراً أن يتم تعديل الدستور المطلوب على يديه ، وضاعف هذه الحشية قوله في اليوم التالي لتأليفه الوزارة : « إن كان الناس قد تكلموا كثيراً عن التعديل الذي أدخل على الدستور وتساءلوا عما إذا كانت وزار تنا تسلم بالتعديل الذي قد أدخلته الوزارة النسيمية فتصدره الدستوركما عدلته أم ترجعه إلى أصله كل وضعته اللجنة فان ما وضعناه نصب عيو ننا هو أن يحقق الدستور رغبات الأمة كل التحقيق.»

وهذا كلام ليس فيه من نني التعديل بقدرما فيه من ترجيحه. فاسترابت الاحزاب بما ورا هذه الفاتحة ، وكتب الوفد المصري بياناً يقول فيه : «أن ما نشر عن رئيسهم ـ رئيس الوزاء ـ كله تنصل وابهام . . . فني الدستور لم تكن سيادة الامة وارادتها موضع عناية بل انه أقرمن سبقه على اغتصاب حق الامة فيعضعه ورفع الاحكام العرفية ليس لديه الامجرداً مل من الآمال ، واصدار قانون التضمينات بالقيود التي يود الانجليز أن يقيدوا بها سيادة البلاد وحرية أبنائها قضاء محتوم لا يرجو فيه كما قال سوى لطف فحامة اللورد والتخفيف أما مسألة السودان على أهميتها فقد اكتنى بأنها ستكون موضع مباحثاته مع زملائه .»

واحتج حزب الأحرار الدستوريين على التعديلات التي قيل إنها أدخلت على الدستور في عهد الوزارة النسيمية ، وأبلغ الوزارة الجديدة مطالبه في السياسة العامة وأهمها العمل على اتباع سياسة الاتحاد والوئام ، لأنه أيقن أن مجاملة الكثرة خير من مجافاتها ، ومن ثم طلب رفع الأحكام العرفية في الحال وفك المعتقلين والافراج عن المبعدين والمسجونين السياسيين ، كما طلب إصدار الدستور كاملاً شاملاً للبادى، التي قررتها لجنة الدستور .

ونشر الاستاذ عبد العزير فهمي بك خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الوزارة

سرد لهفيه المبادي. التي لا يستغنى عنها في الدستور وقيل إنها مست بالتعديل في عهدالوزارة النسيمية ، وهي سلطة الآمة ، واشتراك الوزارة في الانعام بالرتب والنياشين ، واقتصار حق الحل على بحلس النواب دون مجلس الشيوخ ، وابقاء عدد الشيوخ المعينين دون عدد المنتخبين ، واشتراك مجلس الشيوخ في تعيين رئيسه ، وعدم اصدار مراسيم اثناء دور انعقاد البرلمان قبل عرضها عليه ، وعرض معاهدات التجارة والملاحة على البرلمان ، واشراف الوزارة على المعاهد الدينية ، وترك القيود التي قيد بها تنقيح الدستور على ماهي عليه .

أمام هذا الاجماع من الاحزاب المختلفة تراجعت الوزارة ، وأفضى وزير الحقانية في الوزار تين النسيمية والابراهيمة بحديث إلى الصحف اعترف فيه بحذف المادة التي تنص على أن الامة مصدر السلطات وقال فيه عن عدد الشيوخ: « أو كد لكم أننا قبل أن تخطر لنا فكرة الاستقالة عدلنا عن تعديل كنا عدلناه في المادة الحاصة بمجلس الشيوخ بالنسبة إلى عددهم ، لان اللجنة الاستشارية لفتت نظرنا إليها ولم تزل هذه المسألة باقية تحت البحث كغيرها من المسائل.»

ثم سرت الحملة في مسألة الدستور من مصر إلى الصحافة الانجليزية فقالت النيمس بالعبارة الصريحة أن الملك فؤاداً هو المعطل لصدور الدستور، وسأندتها صحف أخرى من صحف الاحرار والمحافظين، وتماوج الرأي العام في مصر حول هذه المسألة فثبت للوزارة أن التعديل على المبادي التي يريدها القصر عسير غير مأمون العواقب، وصدر الدستور بغير تعديل ذي بال في التاسع عشر من شهر ابريل.

وفي خامس يوليو صدر قانون التضمينات ، وهو وقانون تعويضات الموظفين الاجانب اهم ما أصدرته الوزارة الابراهيمية بعد الدستور ، وقد أفرغ في قالب اتفاق بين مصر وانجلترا ليمتنع تعديله على البرلمان ، واعترف بالحالة الفعلية فيما يتعلق بالارض التي استولت عليها الحكومة

البريطانية ، وعهد بالأشخاص المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية إلى لجنة يسود فيها رأي الانجلسيز دون رأي المصريين ، ولم تقبل الحكومة الانجليزية فيه أن تحمل التبعة فيما اتخذته من التدابير ايام الحرب ومابعدها بل اكتفت بوعسد مبهم « أن تكون مستعدة على الدوام للاتفاق مع الحكومة المصرية على الحل الذي تقتضيه الحالة بروح العدل والانصاف » إذا حدثت حالة من الأحوال التي تعود فيها الخسارة من جراء التدابير الإنجليزية.

وبصدور هذا القانون تم التمهيد لالغاء الأحكام العرفية الانجليزية فالغيت «مع استمرار السلطات العسكرية على مباشرة الحقوق التي خولتها إياها الاعلانات المختصة بتنفيذ معاهدات الصلح فيما عدا الحقوق الجنائية ، وذلك إلى أن تتم التدابير المقررة في تلك الاعلانات، وتبتى القضية المنظورة أمام المحاكم العسكرية إلى أن يحكم فيها»

ومن القوانين التي أصدرتها الوزارة الابراهيمية ولاتقل عن هذا القانون في الخطورة قانون تعويضات الموظفين الانجليز ، وهو الوثيقة التي تعهدت مصر بموجبها بأدا. مالايقل عن عشرة ملايين من الجنيهات لتعويض الموظفين الاجانب ، ثمناً لحريتها في الاستغناء عنهم واختيار غيرهم ، وهي لاتملك إلى الساعة هذه الحرية !

* *

قبل صدور قانون التضمينات بثلاثة أشهر أفرجت الحكومة البريطانية عن سعد في جبل طارق وقالت في بلاغها أن الطبيب المعالج لزغلول باشا قرر « أن تغيير نظام الحياة والاستحام بالمياه المعدنية في أوربا ضروريان لصحة الباشا . ولهذه الاسباب قررت الحكومة بعد استشارة المندوب السامي أن تفرج عن زغلول باشا من جبل طارق »

وكانت الاسباب الصحية في الواقع مر. أقوى الاسباب التي حملت الحكومة البريطانية على هذا القرار ، لان الدكتور موريسون الذي ذار

سعداً في الثانى والعشرين من اكتوبر رأى أن الحالة الصحية على جملتها مقلقة معرضة للمفاجات على الرغم من أنه لم يجد عنده أثراً للسكر أو الزلال أو الاسيتون، وأخنى الخبر عن سعد فلم يطلعه على تقريره المفصل بعدكتابته، تفادياً من ازعاجه.

وكان في النية التعجيل بالافراج عنه عقيب ذلك ، ولكن اللورد اللنبي ظل يعارض أمر الافراج ويتوعد بالاستقالة ، وصرح مستر بونارلو بذلك لاحد النواب المهتمين بالسؤال عن حالة سعد وقرار الحكومة بشأنه في السابع عشر من شهر ديسمبر ، فقال للنائب : « تريدون الافراج غنه ! حسن . ولكن ذلك معناه اقالة اللورد اللني على الاثر.»

إلا أن الاسباب الصحية لم تكن هي كل الباعث الى شروع الحكومة البريطانية في اطلاق سعد زغلول. فني مقدمة الاسباب الاخرى اقتناعها بفشل اللور داللنبي في المقاصد التي كان يرمي إليها باعتقاله و تأييد ثروت و أشياعه ، فقد ساءت العلاقات بين المصريين و الانجليز أشد ما يتاح لها من سوء ، وبلغت من الحرج ما لم تبلغه قط في وقت من الاوقات ، و تعاقبت أعمال القمع والقضايا العسكرية من جهة وحوادث الاعتداء ومظاهرات الاحتجاج من جهة حتى أصبحت مصر المستقلة المطلوب منها الرضى و الاستقرار كأنها ميدان حرب دائمة بين عدوين متناحرين ، وليس هذا هو المقصود بسياسة التصريح ولا يمكن أن يكون مقصوداً بسياسة أخرى في بلد من البلدان .

ولما سقط ثروت وأخفق عدلي في تأليف وزارة بعد الوزارة النسيمية وصار الوزراء والاحزاب يقدمون طلب الافراج عن سعد وسائر المنفيين والمعتقلين على كل طلب آخر في البرامج الوزارية والحزبية ، شعرت الحكومة البريطانية بأن نجاح كل سياسة في مصرمستحيل مع بقاء هذه الحال أو بقاء سعد في منفاه ، وشعرت قبلها — أو بايعاز منها — صحف الاحرار والعمال وبعض صحف المحافظين بخطل السياسة التي سار عليها اللورد اللنبي

فانحت باللائمة عليه ، واجتمعت كلها على وجوب النظر من جديدفي عواقب تلك السياسة الخرقاء .

ومن الأسباب التي دعت إلى الافراج عن سعد تلك القضية التي رفعها وكيل سعد في انجلترا طالباً الحكم فيها ببطلان أمر اعتقاله لأنه سجن بغير محاكمة ولا تهمة معروفة .

نعم ان الحكم من المجلس الأعلى قد صدر برفض هذه الدعوى ولكنه لم يصدر إلا بعد جهد شديد من النائب العام السير دجلاس هوج « اللورد هيلشام الآن » لاقناع الاعضاء باجتناب هذه السابقة الحنطيرة في معاملة الثائرين على الامبراطورية ، ويغلب على الظن أن أعضاء المحكمة كانوا يفهمون بالايحاء أن الافراج حاصل عما قريب فلا ضرورة لتسجيل المبدأ الحظير من أجل تحصيل الحاصل . وقد نمى إلى بعض المطلعين أن الوزارة البريطانية قررت الأفراج في أول فبراير وارجائه إلى أن ينتهي الفصل في القضية وقد انتهى في التاسع من شهر مارس ، وليس معنى ذلك أن القضية لم تفعل فعلها في تقرير الافراج ، بل معناه أن الوزارة اهتمت بها واهتمت في الوقت نفسه بحسن التخلص منها ومن مثيلاتها ، لئلا يقال إن الحكم هو الذي أكرهها على اتخاذ ذلك القرار .

ور بماكان أهم الاسباب جميعًا إلى جانب سبب الصحة - تلك الحركة التي أحسن توجيهها الدكتور حامد محمود بين فريق كبير من نواب الاحرار والعمال بلغت عدتهم تسعة وتسعين. فقد كثر الكلام في الدوائر البرلمانية عن فشل السياسة الانجليزية المصرية وعن وصمة العار التي تصم الدولة البريطانية باعتقالها ذلك الشيخ العظيم وتعريضه للموت في منفاه ، فترددوا على الوزارة سائلين ملحين في وجوب الافراج ، وأجمعوا آخر الامر على كتابة عريضتهم المشهورة فقدموها في التاسع والعشرين من شهر مارس وأذيع الامر بالافراج بعدها بيومين .

يضاف إلى ذلك أن قانون التضمينات سيصدر ، وان الاحكام العسكرية ستلغى ، وان الانتخابات ستجرى ، ولابد ان تسفرعن انتخاب نواب بحمعين على المطالبة بعودة سعد إلى بلاده ، لان خصومه وأصدقاه كانوا يعلمون علم اليقين أن رضاء الشعب بغير هذه الوسيلة من وراء كل رجاء ، ولا معنى لالغاء الاحكام العسكرية في مصر واجراء الانتخاب فيها وزعيم النواب المنظورين خاضع للاحكام العسكرية في منفاه .

ولقدكان الرجاء قويًا في تحضير الانتخابات على الوجه الذي يهواه الماورد اللنبي أيام ثروت وأشياعه ، ولكن أي رجاء هناك في هذه النتيجة بعد سقوط ثروت وإحجام عدلي عن تأليف الوزارة وصعوبة المضي في هذه السياسة من جميع الانحاء؟

فالافراج عن سعد كان كجميع الحوادث التاريخية متعدد الأسباب غير محصور في سبب واحد. وانما كانت المسئلة مسئلة الزمن، أو الانتظار حتى تتفق جميع هذه الاسباب.

غادر سعدجبل طارق بعد خمسة أياممن اعلان الافراج عنه إلى طولون ومعه السيدة الجليلة صفية زغلول وكانت قد وافته في منفاه لما اشتد عناؤه من الوحدة مع انحراف الصحة والحاجة الى حسن الرعاية -

فتلقاه الطلب ة المصريون في عرض البحر بالترحيب والتهليل، ومنهم مندوبون عن زملائهم في جامعات فرنسا وسويسرا حضروا خصيصاً لتحيته وتجديد عهده. وخطبوا يذكرون مآثره، وخطب فيهم راجياً أن ينسوه في تلك اللحظة ليفكروا في الذين لايزالون يرسفون في قيود السجن والاعتقال ثم قال: إن مصدر قوتي هو إني لست إلا معبراً عن شعور الامة وآرائها معرباً عن تصميمها على أن تعيش حرة مستقلة.»

ثم توالى الافراج عن المعتقلين في مصر فأفرج أولاً عن أعضاء الوفد الذين كانوا معتقلين بقصر النيل ، ثم أفرج في الرابع عشر من شهر مايوعن

المعتقلين في صحراء الماظة وهم حمد الباسل باشا وأصحابه الذين كتبوا منشور المقاطعة والاستبسال في رد سعدالى وطنه ، ثم افرج في آخر مايو عن المنفيين الى سيشل ، ثم سمح بزيارة بيت الامة بعد اغلاقه برهة مع منع الاجتماعات فيه ، ثم نشرت الحكومة المصرية بلاغاً في العشرين من شهر يوليو صرحت فيه «بامكان عودة جميع المبعدين » ومنهم سعد باشالانه كان الى ما قبل صدور قانون التضمينات ممنوعاً من العودة الى بلاده .

وفي الثالث عشر من سبتمبر أبحر سعد من مرسيليا فوصل الى الاسكندرية في السابع عشر منه ، ووصل الى القاهرة في غده ، وتكررت مظاهر الحفاوة الكبرى التي قوبل بها في العودة الأولى ، وزاد عليها في هذه المرة اشتراك الأجانب في الاستقبال بما كانوا ينثرون عليه من الأزهار والرياحين بأيدي السيدات والأطفال ، حتى امتلات بها السيارة .

وقد انحلت مشكلة الاستقبالات الرسمية في هذه المرة لأن القصر الملكي لم يعد مقاطعاً الوفدكما كان في العودة الأولى ، ودار المندوب البريطاني لم تعد دار الحاية بعد الغائها ، فزار سعد القصر وزار دار المندوب .

ونشطت مساعي التوفيق بين القصر وسعد على يدي توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد مظلوم، فتمت المقابلة الأولى بين الملك فؤاد وسعد في تاسع نو فمبر بعد ظهور نتيجة الانتخابات الثلاثينية ، وتحقق النجاح للوفديين فيها ، وكان المظنون يومئذ أن سعداً لايشكل الوزارة وانه قد يعهد بها الى توفيق نسيم أو احمد مظلوم على الأرجح أو الى محمد سعيد على احتمال بعيد ، وكان هو لا يبوح بنياته لمن يسألونه في هذا الموضوع ، والى ذلك أشارت صحيفة التيمس في بعض مقالاتها فزعمت أن سعداً لايقدم على تأليف الوزارة لانها «مقبرة الشهرة» . . ولا يبعد أن يكون هذا الاحتمال ملحوظاً في مساعي التوفيق .

وقد جرت الانتخابات الثلاثونية في السابع والعشرين من سبتمبر لأن الانتخابكان على درجتين لاعلى درجة واحدة ، وجرت الانتخابات لمجلس النواب في الثانى عشر من يناير (١٩٢٤) فاسفرت عن نجاح مائة ونيف وتسعين نائبًا وفديًا من مائتين وأربعة عشر عدة الأعضاء في مجلس النواب، ومن حسنات الوزارة الابراهيمية أن رئيسها كان قاضيًا نزيهًا في مباشرة الانتخاب كهاكان قاضيًا نزيهًا في الحجاكم، فأدار المعركة الانتخابية بالحيدة الواجبة، وشهد الكثيرون من رجال الاحزاب المختلفة أن الانتخابات في عهده كانت انزه الانتخابات في جميع العهود، حتى لقد أخفق هو نفسه في دائرته ولم يظفر بالنيابة التي كان يبتغيها.

بقيت انتخابات الشيوخ و تعيين الخسين من الاعضاء الذين تعينهم الوزارة القائمة فلم يبق مناص من تأليف الوزارة الدستورية لمباشرة هذا التعيين، وعلى هذا أعرب سعد لمكاتب روتر عن رأيه حين سأله فقال: «اذا اتبعت القواعد الدستورية وجب على يحيى ابراهيم باشا أن يستقبل أمام حقيقتين كبيرتين: الأولى أن البلاد أوضحت رأيها بشكل لا يمكن الشك فيه، والثانية أن رئيس الوزارة قد هزم في الانتخابات.»

وبدا منهذا جلياً أن سعداً زعيم الكثرة البرلمانية لا يؤيد بقاء الوزارة إلى أن تتولى اختيار الشيوخ المعينين ، فاستقال يحيى ابراهيم باشا في السابع عشر من يناير ، و تأجل النظر في قبول استقالته إلى أن يعود الملك من السويس ، فلم تقبل إلا بعد عشرة أيام .

وقبل اعلان قبولها بيومين أدب النواب لسعد مأدبة كبرى في فندق شبرد خطب فيها مظلوم باشا وسعيد باشا راجيًا ان يقبل سعد رئاسة الوزارة اذا عرضت عليه ، فنهض سعد وتلا خطاباً مكتوباً لم يشر فيه إلى شيء في قبول الوزارة ولكنه لم يشرفيه كذلك إلى رفضها ، وعرض على السامعين ما يصح أن يسمى برنامجاً وزارياً يسير عليه.

وفي اليوم التالي لقبول استقالة الوزارة الابراهيمية دعي سعد إلى القصر الملكي فمكث في حضرة الملك نحو نصف ساعة ثم خرج وتلا على الجموع

المحتشدة في بيت الأمة نص الأمر الملكي الصادر بتأليف الوزارة وإسناد رتبة الرئاسة إليه .

وفي ذلك اليوم كتب سعد بيانه الوزاري وهذانصه: __ مولاى صاحب الجلالة:

إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف توجب على والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضي باحترام ارادتها ، وارتكان حكومتها على ثقة وكلائها أن لا أتنحى عن مسئولية الحكم التي طالما تهيبتها في ظروف أخرى ، وأن أشكل الوزارة التي شاءت جلالتكم تكليفي بتشكيلها ، من غير أن يعتبر قبولي لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق استنكره الوفد المصرى الذي لا أزال متشرفاً مؤاسته .

« إن الانتخابات لاعضاء بحلس النواب أظهرت بكل جلاء اجماع الامة على تمسكها بمبادي، الوفد التي ترمي إلى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في الاستقلال التام لمصر والسودان ، مع احترام المصالح الاجنية التي لا تتعارض مع هذا الاستقلال . كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسياً ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد ايقاف الجمعية التشريعية وأنقصت من حقوق البلاد ، وحددت من حرية أفرادها ، وشكواها من سوء التصرفات المالية والادارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الامن وتحسين الاحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم والعمران ، فكان حقاً على الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهدا مسئولاً منها أن توجه عنايتها إلى هذه المسائل الاهم فالمهم منها ، وتحصر أكبر همها في البحث عن أحكم الطرق وأقربها إلى تحقيق رغبات الامة فيها وازالة أسباب الشكوى منهاو تلافي ماهناك من الاضرار مع تحديد المسئوليات عنها البرلمان . ولهدا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام باعداد وتعيين المسئولين فيها ، وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب إلا بمساعدة البرلمان . ولهدا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام باعداد وتعيين المسئولين فيها ، وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب إلا بمساعدة البرلمان . ولهدا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام باعداد

ما يلزم لإنعقاده في القريب العاجل وتحضير مايحتاج الأمر إليـه من المواد والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمة خطيرة الشأن.

« ولقد لبثت الامة زمناً طويلاً وهي تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصماً قديراً يدبر الكيد لها لا وكيلاً أميناً يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في ادارة البلاد وعاق كثيراً من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة ، وعلى اقناع الكافة بأنها ليست إلا قسما من الامة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام . ولذلك يلزمها أن تعمل مافي وسعها لتقليل أسباب النزاع بين الافراد وبين العائلات واحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، كما يلزم أن تبث الروح الدستورية في جميع المصالح وتعود المكل على احترام الدستور والخضوع لاحكامه ، وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة وعدم الساح لاي كان بالاستخفاف بها والاخلال بما تقتضيه .

« هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الآمة شاعراً كل الشغور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهنات الهينات خصوصاً مع ضعف قوتي واعتلال صحتي ، ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمناً طويلاً . ولكني أعتمد في نجاحه على عناية الله وعطف جلالتكم وتأييد البرلمان ومعاونة الموظفين وجميع أهالي البلاد ونزلائها .

« فأرجو إذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامي بتشكيل الوزارة على الوجه الآتي مع تقليدي وزارة الداخلية :

« محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، وأحمد مظلوم باشا لوزارة الآوقاف ، ومحمد فتح الله بركات باشا لوزارة الزراعة ، ومصطنى النحاس بك لوزارة المواصلات ، ومحمد نجيب الغرابلي أفندي لوزارة الحقانية ، ومحمد توفيق نسيم باشا لوزارة الحربية والبحرية

ومرقص حنا بك لوزارة الأشغال العمومية ، وواصف بطرس غالي أفندي لوزارة الخارجية .

« وإنى على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم »

ومن الملاحظات التي وردت على هذا البيان مالوحظ في القصر الملكى وهو أن رئيس الوزارة ذكر « الرعاية السامية التي قابل بها جلالة الملك ثقة الامة ونوابها » فجعل الاصل في ولاية الوزارة ثقة الناخبين .

و إنه قال : « شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » ولم يقل كما جرت العادة « عبدكم الخاضع أو خادمكم المطيع.»

ولوحظ في الدوائر القضائية تعيين الاستاذ الغرابلي لوزارة الحقانية وفيها قدماء المستشارين وكبار الموظفين من رجال القانون ، وقد كان لهذه الملاحظة صداها فنقل الاستاذ إلى وزارة الاوقاف ، كما لوحظ في الصحف والدوائر السياسية تعيين سعيد باشا لوزارة المعارف ، وهو رئيس وزارة قديم وهي من الوزارات التي لا تعد في الصف الأول بين وزارات الحكومة ، وفهم من ذلك أن اشتراك سعيد وصاحبيه مظلوم ونسيم في الوزارة إنما كان في مقابلة الدور الذي داروا به لمعاونة الوفد على خصومه والتقريب بين الوفد والقصر بعد سقوط الوزارة الثروتيه ، وليس اشتراكهم فيها عن بين الوفد والقصر بعد سقوط الوزارة الثروتيه ، وليس اشتراكهم فيها عن بين الوفد والمقر في الميول والافكار .

ومن قبل ذلك لاحظ بعض الناقدين أن دخول سعد في ميدان الانتخاب يعد اعترافاً بتصريح ٢٨ فبراير الذي أنكره واحتج عليه ، وهي ملاحظة لامحل لها من الاعتبار ، لأن تمثيل المصريين في الحكومة حق لانزاع فيه ، فاذا اعترف به الانجليز فليس ذلك سبباً داعياً لصاحب الحق إلى النزول عنه وإسقاطه بيديه ، وقد دخلت جميع الاحزاب المصرية ميدان الانتخاب حتى ماكان منها منكراً للمفاوضات والمعاهدات مع الحكومة الانجليزية ، فلا موجب إذن لانفراد الوفد بمقاطعة الانتخاب ، وهو لو قاطعه لماكان لذلك

من تتيجة إلا تمكين خصومه من ادعاء النيابة عن الأمة ، وأن يبرموا باسمها ما يأباه الوفد وتأباه .

ولاحظ بعض الناقدين ان سعداً قبل الوزارة وكان عليه أن لا يقبلها ، وأن يعهد بها الى أحد أنصاره وحلفائه ، لئلا يضطر وهو في الوزارة أن يجيز مالا يجيزه الزعيم الوطني في حل القضية المصرية ، وفات هؤلاء أن مجرد التنحي عن رئاسة الوزارة لهذا الغرض معناه اعلان الاستعداد للرضى بما دون المطالب الوطنية ، واتخاذ المنساورات المصطنعة لتسهيل النزول عن تلك المطالب ، ثم ماذا يكون إذا تطلب الامر موافقة النواب وسعد رئيس النواب ؟ فليس هنا من ضرر يتتي باجتناب سعد رئاسة الوزارة عقب الانتخابات الاولى ، ولكن الضرركل الضرر في ذلك الاجتناب . إنما ينبغي للزعيم الوطني أن يتنحى عن الانتخاب أو يتنحى عن رئاسة الوزارة إذا للزعيم الوطني أن يتنحى عن الانتخاب أو يتنحى عن رئاسة الوزارة إذا للايطالب سعد بافتراضه في ذلك الحين ، ولو كان يعلم الغيب العلم القاطع الذي لا مراء فيه لوجب عليه أن يقنع الجماهير بما هو مقتنع به ، وأن يضع أيديم على الحقيقة بتجربة لاتحتمل الجدال .

وخير مقياس نقيس به خطة من الخطط أن ننظر الى الخطة التي تناقضها ونذهب معها الى جميع نتائجها لكي نوازن بين النتائج في الحالتين ، وليس في نتائج رفض الانتخاب ورفض الوزارة في ذلك الحين ماهو أجدى وأحق بالاطمئنان من نتائج القبول على أسوأ الفروض.

ومن ثم نحن من المعتقدين أن سعداً أصاب في قبول الوزارة هذه المرة وانه كان يخطي. لو رفضه معذر من تلك الأعذار ، وليس منها مايستحق المبالاة.

* * *

قي أثنـا. وضع الدستور كان الملك فؤاد ينوي أن يجعل نصف مجلس

الشيوخ من المعينين وأن يكل إلى هذا المجلس حق النظر في الثقة بالوزارة. وبعد الانتخاب كان يأمر باستدعاء النواب الناجحين الى القصر واحداً بعد واحد، لينشيء بينه وبينهم الصلة التي ينال بها من السلطان النيابي مالم ينله بنصوص الدستور.

فلما استقر حكم الدستور على تعيين الخسين من أعضاء مجلس الشيوخ وحرمان هذا المجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة كان من رأي الملك بداهة أن يتولى هو حق اختيار الأعضاء ولا يكون للوزارة إلا التنفيذ، وهكذا نجم أول خلاف بين الملك فؤاد وسعد في عهد الدستور ، وانحسم الخلاف في حينه بتقرير المبدأ الذي يخول الوزارة حق الاختيار، واجابة الرغبة الملكية في ترشيح فئة من الأعضاء .

ثم جاءت أزمة أخرى من أزمات المراسم والأشكال ، ولكنها تلس الخلاف بين الوفد وخصومه في صميم المبادي. الأصيلة ، ساقها التقويم السنوي في ركابه ولم يسقها أحد باختياره .

وذاك أن اليوم الخامس عشرمن شهر مارس يقترب والحكومة القائمة وفدية والبرلمان وفدي وتصريح ٢٨ فبراير نظام بغيض لجميع هؤلاء . فكيف يحتفلون بهذا اليوم؟ لقد احتفلوا به في السنة الماضية لأنه عيد الاستقلال، والرأي الغالب بين المصريين أن الاستقلال لم يترتب ولن يترتب على ذلك التصريح ، فهل يحتفلون به هذه السنة على هذا المعنى أو يهملونه مع ماير تبط به من تبليغات مصر الى الدول واعلان لقب صاحب الجلالة ؟ مشكلة بحق من مشاكل الآيام . وقد حلها سعد باختيار ذلك اليوم لافتتاح البرلمان . فاذا تعطلت فيه دواوين الحكومة فلمن شا. أن يفهم انها تتعطل احتفالاً بعيد الدستور ، وافتتاح الهيئة النيابية الأولى في البلاد ١

وهكذا كان، وخرج سعد في ذلك اليوم الى جانب الملك يفتتحان البرلمان

الأول، و تلاحت الجماهير والجند بين قصر عابدين و دار النيابة. وسمع لأول مرة هتاف الجماهير بحياة الملك وسعد في صوت واحد، وكان شعار ذلك الموكب «يعيش الملك ويحياسعد» وهي كلمة لم تسمع قبل ذلك في أنحاء وادي النيل، إذكان الحجاب كثيفاً بين القصر والرعية، ولم يزل كذلك إلى أن عاد سعد من منفاه، فعو دالجماهير كلما هتفو ا بحياته أن يجيبهم قائلاً بل نادوا: «لتحي مصر. وليحي الملك » فكانوا يجيبون عليه موفقين بين الأمرين: « يعيش مصر. وليحي سعد» ... وكذلك كان هتافهم يوم اجتمع الملك وسعد في موكب واحد، ومن عجائب التقادير ان هذه البدعة الناشئة لم تقع من المسامع الملكية موقع الاستحسان.

في رئاسة الوزارة

كان ســـعد باشا يقول إذا ذكرت وزارة الشعب الأولى وأزماتها ومعضلاتها : «أن عيبنا الآكبر في تلك الوزارة أننا أخذناها جداً وصدقنا أننا مستقلون !!»

وهذاعيب من وجهة النظرالانجليزية لاشك فيه ، لأن الذي كان مطلوباً من سعد — على مايظهر — هوأن يصدق أنه رئيس حكومة مستقلة ولكن بمقدار ما يؤدي ثمن الاستقلال ويحمل ما فيه من المغارم والتكاليف ، ثم ينسى الاستقلال كلما كان للسياسة البريطانية مطلب تبتغيه ، وهووشأنه بعد ذلك في تمثيل هذا الدور ذي الوجهين .

لكنه لم يخلق لتمثيل دور ذي وجهين في رواية طويلة كرواية الاستقلال، فاكتنى بتمثيل الدور من جانب واحد وهو جانب الاستقلال الصحيح، ومضى في وزارته كما يمضى كل رئيس حكومة في أمة مستقلة، وترك للسياسة البريطانية أن تقنع بهذا الدور الصريح أو تعلن أغراضها الخفية من وراء الظواهر والمراسم، فتقوم هي بتمثيل الدورذي الوجهين.

بدأ وزارته بالافراج عن جميع السجناء السياسيين وألغى نفقات جيش الاحتلال الانجليزي التيكانت تدرج في الميزانية المصرية ،كائن بقاء الاحتلال مطلب من مطالب البلاد !

ورجع بالموظفين الانجليز إلى حدودهم القانونية التي ترسمها لهم صفتهم الرسمية. وهي صفة المستشارين والخبراء الفنيين، الذين هم موظفون يخدمون الحكومة الانجليزية ، يسألون فيجيبون بما يعلمون ، ويتركون الرأي الاخير للوزير المسئول.

وأصبح هؤلاء الموظفون خاضعين للقوانين بعدان كانت إرادتهم وحدهة هي القانون . فلما ظهر الخلل في أعمال بعضهم بوزارة المالية ووزارة المواصلات أمر بتحقيق التهم المنسوبة إليهم وقدم واحدآ منهم إلى مجلس التأديب، وأصر على تقديمه للمحاكمة على الرغم من احتجاج دار المندوب. وكان على الحكومة المصرية أن تتلقى الأوامرمن كل انجليزي له مصلحة أو هوى في السيطرة عليها ولو لم يكن من الموظفين ، فسكان مستر كارتر يعمل ـــ مثلاً ـــ في تنظيف مقبرة « توت عنخ آمون » ويستبــــــ بفتحها وإغلاقها حين يشاء ولمن يشاء ولا يبالي بما تقرره مصلحة الآثار من مواعيد الفتح والاغلاق. وكل حقه في المقبرة أنه رجل مرخص له في التنقيب عن الآثار بالشروط التي تسمح بها الحكومة لجميع المنقبين . فلما نبهته الحكومة إلى خطئه لم يكترث لها وأرسل إلى سعد باشا برقية ينذره فيهـا « باقفال المدفن ومقاضاة الحكومة المصرية » . . . وهو ينتظر في هذه الحالة ما ينتظر من كل حكومة مصرية ينتهي إليها تهديد واحد من السادة المحتلين كيفما كان ، لأن المرجع في الوزارات لمستشار أو مفتش انجلىزى ، وهو لا يقبل من المصريين أن يسمعوا هذا التهديد ولا يسرعوا إلى الخوف والاذعان يم فلما وصل الانذار إلى سعد كتب إليه يقول : « لـكم الحرية في أن تقاضوا الحكومة ، ولكن الحكومة تريد ان تكون مواعيد الزيارات مصونة ومحترمة ، وأما مايتعلق باغلاق المدفن كما تقولون ، فانه يشق على أن اضطر إلى تذكيركم بأن المدفن ليس ملـكًا لـكم، وأن العــــلم الذي تدعونه بحق. لا يمكن أن يسلم باقدامكم مع زملائكم ــ من أجل أمر خاص بزيارة أفراد تريدون تمييزهم ، على ترك التنقيبات العلمية ، التي لا تهتم بها مصر وحدها أعظم إهتمام ، بل يهتم بها العالم كله أيضاً .»

إنه جواب لا يعدُو حدود الانصاف ولا حقوق الحكومة ، ولكنه قوبل بالاستياء بين الجالية الانجليزية . لأنه يخالف ماتعودوه ، لا لأنه يخالف الانصاف .

و لما نمي إلى سعد أن السودان سيمثل رسمياً في معرض « ويمبلي » مع المستعمرات البريطانية كتب إلى حاكم السودان يسأله: « على أي قاعدة دعي السودان للاشتراك في هذا المعرض الخاص بالمستعمرات ؟ وكيف قبلتم أن تشتركوا فيه من غير إذن الحكومة المصرية ؟ »

فجاءه الرد من دار المنسمدوب البريطاني بأن حاكم السودان أبلغه نبأ تلك البرقية وأنه كتب إلى حكومته يستفسر عن المسألة ، وسيكتب إلى الحكومة المصرية بفحوى جوابها .

فكتب سعد مرة أخرى إلى حاكم السودان يسأله ماسبب تأخير رده؟ ويقول له ﴿ إِن المسائل التي كلفتموها من شأنكم دون سواكم لتعلقها بأعمال هي من خصائصكم . وإني مازلت في إنتظار الرد منكم ، وأرجو أن لا يتأخر الرد زيادة عما مضي.»

وأبرق إلى وزير مصر المفوض بالعاصمة الانجليزية ليبلغ حكومتها احتجاج مصر على دءوة السودان إلى معرض خاص بالمستعمرات البريطانية بدون علم الحكومة المصرية ، وعلى قبول حاكم السودان الدعوة بغيز إذن من تلك الحكومة ، وفي كلا الأمرين إعتداء على حقوق مصر وعمل غير ودى موجه للحكومة المصرية. »

وقد جاءه الرد من الحاكم العام بالاعتذار من التاخير لانه أبلغ المعلومات المطلوبة إلى المندوب السامي الذي هو الطريق المعتاد للمخاطبة بين الحكومة المصرية وحكومة السودان عملاً بالاجراءات المتبعة.»

وجاءه الرد بهذا المعنى من اللورد اللنبي مشفوعاً ببيان عن دعوة السودان إلى المعرض يقول فيه: « ان الحكومة البريطانية لم يكن ليخطر لها أن تطلب أخذ رأيها إذا وجهت الحكومة المصرية دعوة لحكومة السودان لتشترك في معرض تجاري شبيه بهذا يعقد في مصر . وقد سبق أن قبلت حكومة السودان مباشرة ودون رجوع إلى دار المندوب السامي أو الحكومة البريطانية

ماعرضته الحكومة المصرية من تخصيص حجرة لمعروضات السودان في المكتب المصري للتجارة والصناعة بالقاهرة وذلك في يونيه سنة ١٩٢٠. ومن جهة أخرى فان معرض و يمبلي ليس وقفاً على الامبر اطورية البريطانية بل إن فيه أشياء أخرى متنوعة ذات فائدة عامة ، مثل صورة لمسجد فارسي ونماذج لشلالات تياجرا ومعرض من التبت ، والسودان موصوف في الخرائط والفهارس المعروضة في القسم الخاص بأفريقيا الشرقيسة باسم السودان الانجليزي المصري ، ولذلك لامحل لتساءل الزائرين للمعرض عن اشتراك السودان فيه م

وقد أجاب سعد بخطاب الى اللورد اللنبي يقول فيه: « يتضح جلياً من نص المادة الثالثة من الاتفاق المذكور — اتفاق سنة ١٨٩٩ — أن حاكم السودان العام موظف يعينه ملك مصر ويستمد سلطته من هذاالتعيين ذاته ، وتنص المادة الرابعة صراحة على أن كل إعلان للقوانين والأوامر واللوامح يجب أن يبلغ في الحال إلى المعتمد البريطاني في القاهرة والى رئيس مجلس نظار سمو الحديو المعظم ، وبناء عليه يكون الطريق الطبيعي الوحيد للتخاطب بين الحكومة المصرية وحاكم السودان العام أنما هو الطريق المباشر وهذا ما قصده واضعو اتفاق سنة ١٨٩٩ . وفعلاً كانت الحكومة المصرية وحاكم السودان العام المي تتخاطبان مباشرة في غضون المدة التي تلت توقيع الاتفاق ... ه السودان العام يتخاطبان مباشرة في غضون المدة التي تلت توقيع الاتفاق ... ه

ثم قال : « أما من جهة تمثيل السودان بمعرض ويمبلي فقد بينت انه بالنظر إلى الظروف التي حدث فيها لا يمكن أن يبرره الحكم الثنائي في ادارة السودان الداخلية ، كما أوضحت انه ماكان يوجد لدى الحكومة المصرية أي اعتراض على أن يمثل السودان في معرض صناعي أو تجاري بحت ، وليس هذا حال معرض ويمبلي ، ولذلك احتججت على تمثيل السودان في معرض المستعمرات البريطانية . ولا شك انه كان يسرني ألا يكون تمثيل السودان في هذا المعرض الا في نفس الموضع الذي وضع فيه تمثيل العجم والولايات

المتحدة وتيبت في المعرض المذكور. ولست في حاجة لإن أزيد على ما تقدم اني آسف لأن الحادث وقع ونحن على أبواب المفاوضات. نعم ان مسألة السودان كلما سيدور البحث عليها بيني وبين المستر مكدونالد ولكن من واجى أن أحتج على كل عمل أعتبره ماساً بحقوق مصر.»

* * *

ولما حان موعد المفاوضات بين سعد ومكدنالدكان الاستقلال هو الحق الأول الذي بنى عليه المفاوضة وجعله مبتدأ الحديث فيها ، ليكون ملحوظاً بعد ذلك في كل دعوى أو مطلب عن المصالح البريطانية ، وفي ذلك يقول مستر مكدونالد من الكتاب الأبيض الذي صدر في سابع اكتوبر:

أولا ـــ سحب جميع القوات البريطانية من الأراضي المصرية .

ثانياً ـــ سحب المستشار المالي والمستشار القضائي -

ثالثاً — زوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية ، ولا سيا في العلاقات الحارجية التي ادعى زغلول باشا انها تعرقل بالمذكرة التي أرسلتها الحكومة البريطانية إلى الدول الاجنبية في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . قائلة ان الحكومة البريطانية تعد كل سعي من دولة أخرى للتدخل في شئون مصر عملًا غير ودى .

رابعاً ــ عمدول الحكومة البريطانية عن دعواها حمـاية الأجانب والاقليات في مصر.

خامساً _ عدول الحكومة البريطانية عن دعواها لاشتراك بأية طريقة كانت في حماية قناة السويس.

أما في شأن السودان فانني لفتّ النظر إلى بعض البيانات التي فاه بهـــا

زغلول باشا باعتباره رئيس مجلس الوزراء أمام البرلمان المصري في الصيف في ١٧ مايو. ويؤخذ بما علمته في هذا الصددأن زغلول باشا قال: « إن وجود قيادة الجيش المصري العامة في يد ضابط أجنبي وإبقاء ضباط بريطانيين في هذا الجيش ، لا يتفق مع كرامة مصر المستقلة » فابداء مثل هذا الشعور في بيانات رسمية من رئيس الحكومة المصرية المسئول لم يقتصر على وضع السردار السرلي ستاك باشا في مركز صعب بلوضع جميع الضباط البريطانيين الملحقين بالجيش المصري أيضاً في هذا المركز .

هولم يفتني أيضا انه قد نقل لي أن زغلو للأباشا ادَّعى لمصرفي شهر يونيو الماضي حقوق ملكية السودان العامة ، ووصف الحكومة البريطانية بأنها غاصبة هفلما حادثت زغلول باشا في ذلك قال لي: إن ألاقوال السابقة التي قالها لم يكن مردداً فيها صدى رأي البرلمان المصري فقط ، بل رأي الأمة المصرية أيضاً . . . »

* * *

وبعد العودة من المفاوضات أوشكت مدة المستشار القضائي أن تنتهي فرفض سعد إبقاء هذه الوظيفة وأبي تجديد المقد لمن كان يشغلها ، وكان ذلك في الثاني عشر من شهر نو فمبر لذلك العام ، لانه لم يذهب إلى المفاوضة ليكون كل ما كسبه منها أن يعود متطوعًا لتنفيذ السياسة الانجليزية ، قانعاً من قضيته بطلبات لا تجاب.

* * *

لا جرم صدق سعد اننا مستقلون وعمل بما صدق !! لكننا نسأل هل كان في وسعه أن لا يصدق ؟ وهل كان ينفعه عنــد الانجليز ـــ فضلاً عن المصريين ـــ أن يمثل الدور على وجهين ؟

إن الكثيرين ليفهمون أنه لم يفعل بمسلكه هذا في الوزارة الأما ينبغي لزعيم ينادي بقضية وطنية ، ولكنهم لو نظروا إلى الموقف من جميع جوانبه لفهموا كذلك انه فعل ما ينبغي للسياسي اللبق الذي يلمس الواقع ويحذر العواقب، ولا يفرط في شي. قلّ أو كثر من أجل « لاشي. ».

ولا حاجة إلى القول بأن سعداً لم يكن يطمع من المفاوضات في الوصول إلى كل ما جاء في الكتاب الآبيض من المطالب، وهو نزول الانجليز دفعة واحدة عن كل دعوى يدعونها وتهاونهم في كل مصلحة يرومونها. ولكنه كان مسئولاً أن يقر الأمور في نصابها ويضع القضية المصرية في موضعها. وليس في استطاعته أن يأمل النجاح من مفاوضة يكون الأساس فيهاأن مصر هي المطالبة وانجلترا هي صاحبة الحق في المنع والاعطاء، وانما الأساس الصالح للمفاوضة أن مصر هي صاحبة الحق في بلادها. وانها إذا قبلت أن تراعي بعض المصالح البريطانية فذلك من حسن نيتها ورغبتها في السلام والصداقة. وقد سأل مستر مكدنالد سعداً في بداية المفاوضة: ماذا تطلبون؟ فكان الجواب الطبيعي اننا لا نطلب من انجلترا سخاء ولا مبرة. وانما شأن فكان الجواب الطبيعي اننا لا نطلب من انجلترا سخاء ولا مبرة. وانما شأن البلاد المستقلة أن تكون على الصفة التي تقدمت في الكتاب الابيض: لا احتلال ولا سيطرة على الحكومة في سياستها الداخلية والخارجية ، وكل ما نقص من ذلك فهو عطاء من مصر ، ودليل على الهوادة والرغبة في الوفاق.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يعلم سعد أن الانجليز لم يخلوا بينه وبين الوزارة ليمكنوا له في الحسكم و يثبتوا مركزه من الزعامة ، ولكنهم أخلوا بينه وبين الوزارة عسى أن تكبحه أعباء الحسكم ومطامعه و تكف من غيرته وشنا أنه ، فيسمعوا من سعد الحاكم غير ما سمعوا من سعد الزعم ، ولا يلبث المصريون أن يروا زعيمهم على حال غير الذي عهدوه وضعف غير الذي توقعوه . فيقال لهم إن الزعامة الوطنية ليست إلا جعجعة في الخلاء يلغط بها غير المسئولين طمعاً في المناصب ومنافسة على الما رب ، ثم يصبح الزعماء وغير الزعماء سواء فيما يقبلون ويرفضون ، وفيما يعملون ويقولون ، ويذهب عناء الامم وجهادها مع الربح !

وعلى كون هذه النية واضحة من سوابق الانجليز مع سعد وازدادت وضوحاً في أيام الحسكم وبعد تلك الآيام — لم يقتصر الآمر فيها على الظن والاستقراء بل فاه بهما اللورد اللنبي فعلاً في السودان بعد قيام الوزارة السعدية ، حيث راح يقول لمن يلقاه من رؤساء الانجليز الناقين على تلك الوزارة: لقد وضعت زغلولاً في قفص! وسنرى كيف يخرج منه أويبتى فيه ولعله كان يقول ذلك ليحفظ مهابته ويدخل في روع مرؤسيه إنه لم ينهزم ولم يكن رجوع زغلول إلى مصر ثم إلى الوزارة على كره منه وبغير تدبير مقصود على حسب رأيه ، ولكنه لم يقل في الحقيقة غير ما ينويه ، وينويه معه رجال دو ننج ستريت .

ولا شك أن مستر مكدونالدكان يود — بل كان يتمنى — أن ينجح في حل القضية المصرية وإبرام الاتفاق بصددها مع سعد زغلول ، إلا أنه كان يود ذلك لنجاحه هو في توطيد وزارته ألمتداعية وإرضاء المحافظين والاحرار عن بقائه ، والحل الذي يرضي المحافظين عن وزارة عمال متداعية يريدون إسقاطها لن يكون نجاحاً لسعد ولا نجاحاً للقضية المصرية .

ولقد دلت الطوالع من أحاديث مكدو بالد و تصريحاته على العواقب التي يرجى أويخشى أن تؤدي إليها ، فان مكدو بالد كان يعلم أن سعداً لا يقر تصريح ٢٨ فبراير وان هذا التصريح لم يتيسر إعلانه في مصر إلا بعد أن يهد بنفيه إلى سيشل ، وإنه إذا جرت مفاوضات مع سعد فليس بالمعقول أن يقبل دخولها على أساس هذا التصريح . ومع هذا كان مكدو بالد لا يفتأ يعلن مرة بعد مرة أن التصريح هو أساس ما يدعو إليه من مفاوضات ، وأن السياسة البريطانية لا تتحول في هذا الموضوع ، ولو أنه قال ان المفاوضات حرة من كل قيد لما اعتبر ذلك نزولاً من الحكومة البريطانية عن تصريحها ، ولكنه كان ييسر للزعيم المصري دخول المفاوضات على ذلك الأساس . فكا أنما كان المقصود هو اضطرار سعد عاجلاً إلى الاعتراف بما لم يكن فكا أنما كان المقصود هو اضطرار سعد عاجلاً إلى الاعتراف بما لم يكن

يعترف به قبل الوزارة ، وهو يقدم على مفاوضات لا يضمن فيها النجاح ، وقد يكون كل ما يصيبه منها أن ينقض موقفه بيديه وأن يقيم الحجة عليه لخصومه ، وأن يسجل على نفسه التقلب من أجل المناصب الحكومية بين النقيض إلى النقيض .

وماجاءت هذه المفاوضات إلا بعد مطاولة في المواعيد وتقاذف بالخطب والتصريحات وحوادث مدبرة في مصر والسودان ، وعزي في اثناء ذلك إلى مستر مكدو نالد حديث جاء فيه انه «حدثت في الوقت نفسه حوادث يؤسف لها في السودان ، تقع المسئولية في حدوثها على الحكومة المصرية بلا جدال . واني معتقد تمام الاعتقاد ان القلاقل الحديثة دبرها بعض أعضاء الحكومة المصرية ، وأن دولة زغلول باشا غض الطرف عن أعمال المتطرفين.»

ثم انتهى الحديث بوعيد حجاء فيه انه « لا يمكن بحال ماأن يكون هناك محل للكلام في جلاء الجنود البريطانية عن مصر أو ابعاد القوات البريطانية عن منطقة القناة وفي استطاعتي أن أقول إننا أعددنا العدة التامة لجميع الطواري من فاغضى سعد عن هذا الوعيد، واكنى بأن صرح في حديث مع مراسل الديلي اكسبرس بأنه أخذ تذكرة العودة إلى مصر في يوم ١٧ سبتمبر وكان يومئذ في باريس مم قال: إنه ظل ينتظر أن تعين الحكومة البريطانية الزمان والمكان للاجتماع ولكنه لا يرغب أن ينتظر أكثر من ذلك الآن وبعد أن صرح مسترمكدونالد بأن مواعيده المقبلة لا تسمح له بترتيب موعد قر س للمقابلة.»

فكان لهذا التصريح أثره ، وكذب مستر مكدونالد الحديث المعزو اليه قائلًا : « إنه دهش أشد الدهش لسماع ما عزي إليه . . . ووصف أقوال المراسل بأنها مناورة خبيئة بما يسمونه صحافة » !

وكتب مستر مكدونالد الى سعد قائلاً: ﴿ إِنَّهُ يُرْغُبُ رَغْبُ لَهُ شَدَيْدَةً فِي

الاشتراك في إعادةحسن التفاهم فى العلاقات بين البلدين ، وانه يكون مسروراً لمقابلته بلندن في أواخر هذا الشهر .

وعلى ذلك سافر سعد إلى لندن ، فكان من المصادفات التي لها دلالتها أن وفد السودان الذي استقدمته الحكومة الانجليزية تمثيل السودان في معرض ويمبلي كان بين المستقبلين على المحطة عند وصول سعد الى العاصمة الانجليزية وكان أشد الهاتفين هتافاً لاستقلال وادي النيل ، وشارك السودانيين رهط من أبناء الهند وفارس فجعلوا يهتفون بلغاتهم وباللغة الانجليزية لزعيم الشرق الكبير ، وكذيوابذلك ما يقال من أن هذه المظاهرات لا تحصل حيث حصلت الا بتدس و تحضير .

أنذرت الظواهر بالفشل من أول لقاء ، وكائن مستر مكدونالد لم يكفه ماهنالك من النذر والعلامات فعمد الى « مناورة » صبيانية لا خير فيها غير التكدير والاساءة والاغراء بالتشاءم والعناد . فبعدأن استقبل سعداً في حجرة بيته معتذراً بالمرض والاعياء ، جاءته رسالة على حين غرة فوثب مهرولاً الى الديوان وندي مرضه وإعياءه ، وخرج يعتذر في غير اكتراث وكائه يقول : هناك مسائل لحجرة البيت ومسائل للديوان ١١ ولعله استكثر من رئيس وزارة مصرية أن يأنف من مطاولة المواعيد ويستوثق من أساس المفاوضة قبل البدء فيها كما فعل سعد . فأراد أن يريه بهذه المناورة الصبيانية مبلغ ماتستحقه قضية مصرعند رئيس وزارة بريطانيا العظمي مثالاحتفال والاهتمام .

وانقطعت المفاوضات في أوائل اكتوبر ولم تكد تستغرق الآسبوع. وقال سعد لمراسلي الصحف الانجليزية: « . . . لاحظت مع ذلك أن وزارة مكدونالد تر الآن بصعاب عديدة جعلتها مهددة بالسقوط وقال لي مستر مكدونالد بالرغم من كثرة شواغله انه على استعداد للمناقشة وإياي ، ولكني أختار المناقشة مع رجل أكثر حرية وأقل مشغلة منه ، وهو محاط بالشواغل من كل جانب .

ولا يظن ظانّ أنني أتيت إلى لو ندرا لاوقع على اتفاق يمس حقوق مصر ا فمن ظن هذا وقع في الخطأ . إنني أتيت لا كسب لا لاخسر . فاذا كنت لم أكسب شيئاً فاننى لم أخسر شيئاً.»

وقال في حديث مع الماتان بعد عودته من باريس: « إن المحادثات فشلت نظراً للتمسك بحفظ قوات بريطانية على قناة السويس ... وإنما إذا كانت حماية القطر المصري للقناة تلوح غير كافية فقد يقبل المصريون أن يضعوا القناة تحت حماية عصبة الامنم . وإن مصر لا يسعها أن تتخلى عن السودان.»

وقال في حديث مع البتي باريزيان: إني قبل الدخول في المحادثة اشترطت أن الشروع في المباحثات لا يمكن على أي وجه من الوجوه أن يمس حقوق مصر أو يضر بها · ثم ان هناك أمراً تم التسليم به ، وهو انه إذا أفضت المحادثات الى مفاوضات ، فان هذه المفاوضة تجري على حد المساواة التامة ، أو تكون مفاوضة الند للند.»

**

فيرى من جميع ماتقدم أن سعداً الزعيم لم يسلك في الوزارة إلاكما ينبغى أن يسلك الوزير المحنك الخبير بعواقب الأمور . إنهم كانوا يسوقونه الى شرك لا مفر له من الوقوع فيه أو النجاة منه ، وقد اختار هو النجاة واختار لها آمن طريق ، وليس في مقدور ناقد أن يدله على طريق آمن ولا أجدى عليه وعلى القضية الوطنية مما توخاه .

نعم كان في الوسع تأجيل المفاوضة إلى موعد آخر. ولكن ماذا عسى أن يفيد هذا التأجيل؟ إن مستر مكدونالد إذا سقط فليس الذي يليه بأسهل قياداً منه ولا أقرب إلى إجابة المصريين، فالدخول في المحادثات كان ضربة لازب. وكان ضربة لازب أن تفشل، وكان ضربة لازب مع هذا التقدير

أن يسلك سعد في مفاوضاته وفي علاقاته بالسياسة البريطانية مسلك الزعيم ، وهو بعينه مسلك الوزيرالقدير والسياسي الخبير .

* *

على ان المتاعب قد صادمت الوزارة السعدية من اللحظة الأولى ولاسيما في مسألة السودان . فلما أراد أن ينص في خطاب العرش على الاستقلال التام لمصر والسودان حال بينه وبين ذلك عبرة الانذار الذي وجهته بريطانيا العظمى الى جلالة الملك مباشرة — في عهد الوزارة النسيمية — لاشتمال الدستور على اسم « ملك مصر والسودان » . ولم يشأ صاحب العرش أن يستهدف لازمة أخرى من ذلك القبيل . فاستغنى سعد عن عبارة تحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان بعبارة « تحقيق الأماني القومية بالنسبة لمصر والسودان»

وهي العبـارة التي أوشكت أن تدفع بسعد الى الاستقالة ، حين تعرض النواب لها بالتعديل والتفســــير ، وقد اتبعها في بعض أحاديثه بتفسير يقول فيه إن الآمال القومية هي الاستقلال التام .

ومازالت مسألة السودان مثار السؤال والجدال والاحراج والتعنت من خصوم سعد الانجليز والمصريين في وقت واحد ، كلا الفريقين يريد أن ينقلب المنصب الوزاري على سعد شركاً مردياً ، وكلاهما يريد أن يرى كيف يعجز ويفشل ، ولا يريد أن يرى كيف يقتدر وينجو بكرامة الزعامة وكرامة القضية .

فالمعارضون في مجلس النواب يطالبونه بعرض ميزانية السودان كماكانت تعرض على مجلس الشورى ، وهي أحرى أن تعرض على أول برلمان .

والموظفون الانجليز في السودان يجمعون الأذناب والاتباع ليعلنوا ولا.هم للحكومة البريطانية دون غيرها ، واستمساكهم بالتبعية والاخلاص لتلك الحكومة العادلة المحبوبة تعريضاً بحكومة المصريين . وإذا قوبلت هذه المظاهرة بمظاهرة من السودانيين المتعلقين بوحدة وادي النيل حل بهم البطش الشديد وحاق بهم العذاب الآليم.

فاذا شكوا ألى الحكومة السعدية ، وليس لهم من يشكون اليه غيرها ، فصوم سعد الانجليز يمعنون في إحراجه بزيادة البطش والتعذيب وخصومه المصريون يمعنون في إحراجه بطلب الافراج عن المعاقبين وتعجيل الحساب والعقاب للموظفين المسئولين ، وكان من هذا وذاك أنه استقال ولم يكد يمضي على الوزارة ثلاثة أشهر .

استقال بعد تصريح اللورد بارمور باسم الحكومـــة البريطانية ــ حكومة العمال ــ « بأن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأي معنى كان » .

« إنني بالنيابة عن الشعب المصري جميعه ، وفي حضرتكم الموقرة ، أصرح بأن الامة المصرية لن تتنازل عن السودان ما حييت وما عاشت... إن حقوق الامم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب إني أريد أن أتمتع بها دون أصحابها نعم أيها السادة لا يمكننا مطلقاً أن نتنازل عن السودان ، لا لانه مستعمرة ، بل لانه جزء من كياننا ، بل لانه منبع حياتنا ، بل لانه لا يمكن لمصر أن تعيش بدون السودان أصلاً.»

وربما ظنت الحكومة البريطانية أنها تبيح نفسها مثل ذلك التصريح دون أن يجسر سعد على اباحة مثله لنفسه ، لآنه قائم في منصب الوزارة ، فيسمعه ويغضي عنه ويلاهب الى المفاوضة وهومسلم به سكوتاً قبل أن يسلم به مقالاً 1 فكانت اجابته على التصريح بمثله حتماً ، وكان حتماً معها أن يعرب عن زهده في الوزارة التي يحسبونها قيداً له يجبره على الاغضاء ، وقد استقال فرفض

الملك قبول استقالته ، وأبدى له كما أبدى الشيوخ والنواب إن فيما صرح به الكفاية للرد على التصريحات الانجليزية ·

لم يكن المقصود إذن أن يرى خصومه الانجليز والمصريون كيف يعمل في الوزارة بلكان المقصود أن يرواكيف يعجز عن العمل وكيف يتغير في الوزارة ويخل بأمانة الزعامة فلا هو وزير ولا زعيم ، وليس له وهو محاط بهذه النيات المدخولة أن يصنع غير ماصنع وأن يعالح الشرك المنصوب بغير ماعالجه بهمن ثبات ومراس ، هما في وقت والحد إقدام الزعامة وحيلة السياسة ، وإخلاص المجاهد وحيطة الأريب .

李 \$ \$

ولقدأصيبت وزارة سعدبا لاجرام كماأصيبت بالاحراج، فوقعت في عهدها جنايتان و بيلتان ، احداهما موجهة إلى حياته والأخرى موجهة إلى وزارته ، وكلتاهما لها مساس بالمفاوضات ، وكلتاهما في اعتقاد سعد من تدبير واحد.

أما الجناية الأولى فهي حادثة الاعتداء عليه في محطة العاصمة حين كان ينوي السفر إلى الاسكندرية لحضور تشريفات عيد الاضحى (١٢ يوليه سنة ١٩٢٤) .

اعتدى عليه شاب مفتون من أعداء المفاوضات لأنها في رأيهم تصدالامة عن سبيل الجهاد الناجع ، وقال في التحقيق انه تعمد ارهاب سعدلانه يرغب في المفاوضة ، ولانه قال إن الانجليز خصوم شرفاء معقولون.»

وقد أصابته الرصاصة في الساعد الأيمن ثم في صدره ، وحاول الجاني أن يطلق غيرها فتكاثرت عليه الجماهير ، وهموا بتمزيقه لولا رجال الشرطة الذين أحاطوا به فأنقذوه ، ومر غرائب ما حدث في هذا الاعتداء أن المسدس الذي كان مع الجاني اختنى عقب الاعتداء فلم يعثر له على أثر ، وشهد محام كان على مقربة من الجاني انهرأى ضابطاً انجليزيًا من ضباط الشرطة يخفيه في جبه ، وأنكر الضابط ذلك واعترف بأنه أخنى شيئاً في جيبه ولكنه كان مقبض المنشة التي كان محملها وانكسرت في الزحام .

وأشرف على النحقيق بعض الوزراء ، واستمر على الاشراف عليه حسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف يومذاك ، وبعد بحث طويل أحيل الجاني إلى الكشف الطبي فقرر الدكتور ددجن كبير الاطباء العقليين انه مجنون وتقرر اعتقاله في مستشنى المجاذيب ، وهو المعتدي الوحيد على الوزراء الذي صار إلى هذا المصير .

لقد تبينت شجاعة سعد منذ صباه في شدائد السجن والنني والاضطهاد كا تبينت شجاعته بالجهر برأيه وامضا. عزمه ولو تصدى لاغضاب أقوى الأقويا. . فني هذه الجناية تبينت منه شجاعة أخرى قد لايتاح ظهورها كثيراً في حياة الابطال المجاهدين بسلاح الحجة والايمان لابسلاح النار والحديد، وتلك هي شجاعة الرجل في وجه الموت الداهم وهو منه على يقين . فقد نفذت الرصاصة إلى صدره وهو مصاب بشتى الامراض التي لا تؤمن معها الجراح إذا نجا صاحبها من الموت بفتك الرصاص، فما وجم ولا تردد ولا فكر لحظة فيما أصابه ، ولبث كا نه ينظر إلى مصاب أحد لا يعنيه ، والبقت فكر لحظة فيما أصابه ، ولبث كا نه ينظر إلى مصاب أحد لا يعنيه ، والبقت الى الوزراء الباكين حوله يقول لهم : هلاتحزنوا .. ولا تبتئسوا ... إذا مات سعد فهدأ سعد باق لا يموت اعملوا من بعدي و ثابروا على تحقيق سعيى هو لما قال بعض الوزراء . إن الله أرحم بمصر من أن تصاب بسوء ، عاد يقول ؛ وماذا في ذلك ؟ نحن ميتون . فلنمت نحن وليحي الوطن .

ونظر إلى جماهير الطلبة والشبان وهي تتدفع على باب الحجرة التي نقل إليها ، فو ثب على قدميه وجرحه لا يزال ينزف ، وناداهم بصوت جمير يضرم الحمية في النفوس « لا تكتئبوا ولا تهتموا . إلى الامام . دائماً إلى الأمام ! ثم قالها بالفرنسية En Avant ! ... En Avant ...

أما الجناية الثانية ـــ وهي التى اعتبرها سعد موجهة «ضده» كما قال عند سماع خبرها ــ فهي حادثه الاعتداء على « السردار» لي ستاك باشا بعد عودته من المفاوضة بنحو شهر واحد .

فقد عاد سعد من المفاوضات فوجد خصومه مجدين في محاربته بالشغب تارة والدسيسة تارة أخرى ، وسعى هؤلاء الخصوم بالوقيعة عند الآزهريين لأنهم يعلمون دن ماضي سعد انه هو صاحب الرأي قديماً فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعي التي تخرج القضاة الشرعيين ، وأن الآزهريين كانوا ينقمون من نشأة هذه المدرسة لانهم يطلبون أن تنحصر فيهم وظائف القضاء وما إليها من وظائف التعليم الديني و تعليم اللغة العربيسة قبل السهاح باجراء الاصلاح في برامج التعليم الازهرية ، وكانوا قد عرضوا على الوزارة السعدية مطالب لتحسين أحوالهم فألفت الوزارة لجنة خاصسة لدرسها والاشارة بما تراه فيها ، وعاد سعد من المفاوضات فاستثارهم خصومه مدخلين في روعهم أرب مدرسة القضاء عائدة وأن مطالبهم غير مجابة . غرجوا في الطرقات ينظاهرون ويهتفون ويعرضون بسعد في هتافهم مهددين متوعدين ، ونسوا أو نسي صغارهم ان أمر المعاهد الدينية بيد الملك لابيد متوعدين ، ونسوا أو نسي صغارهم ان أمر المعاهد الدينية بيد الملك لابيد الوزارة ماخير او في الرفض والقبول .

ثم تعاقبت أمثال هذه الدسانس والسعايات واجترأ بعض الموظفين على الخوض فيها والحض عليها لاعتقادهم أن الملك فؤاداً من جهة وأن الانجليز من جهة أخرى يرحبون باضعاف الوزارة السعدية وتنفير الناس منها ولا سيما رجال الدين والموظفين .

وكان يساعد على سريان التذمر بين طبقة الموظفين أن الوزارة فكرت في إصلاح نظام الدرجات والترقية والتعيين، فخشي جمهرة منهم أن يتبع ذلك نقص المرتبات أو الاستغناء عن بعض الوظائف، واستقال أحد الوزراء وهو محمد توفيق نسيم باشا المعروف بعلاقاته بالقصر الملكي فكان هذا وأشباهه من دواعي الظن بقرب أيام الوزارة وسهولة الخروج عليها والاساءة اليها.

وهكذا توالت الازمات والمشكلات والمساعي الظاهرة والحفية ، فبرم سعد بما يلقاه منكل ذلك وقدم استقالته إلى جلالة الملك في منتصف شهر نوفبر مبيناً لجلالته الإسباب الصريحة التي تدعوه إلى الاستقالة ، وفيها أن أناساً من كبار الموظفين المنسوبين إلى القصر يستخدمون اسم جلالته لمحاربة الوزارة في الحفاء . . . فقال له جلالته انه يئق به ويعتمد عليه ، ورغب في عدوله عن عزمه ، فاعتذر بأنه قد فرغ من النفكير في هذا الموضوع .

فقال الملك لنبق المسألة إذن إلى عد . وحدث في هذه الاثناء أن الشيوخ والنواب أوفدوا إلى جلالة الملك من يتوسل إليه أن لا يقبل الاستقالة ، وأوفدوا إلى سعد من يرجوه العدول عنها . فقبل أخيراً أن يستعفي من الاستعفاء كما قال ، ولكنه طلب إلى جلالة الملك توكيداً للتقـــة وقطعاً لدسائس الدساسين أن تدخل مسائل الأزهر والمعاهدالدينية ومناصب السلك المسياسي ومناصب القصر والرتب والنياشين في اختصاص مجلس الوزراء . ولكل طلبة منهذه الطلبات سبب من الحوادث التي مرت بالوزارة السعدية وبخاصة في الائيام الاجيرة .

فهو يريد أن تنظر الوزارة في مسائل الا زهر ليكون مسئولاً حقاً عن الاصلاح لا ليحرجه المحرجون بطلب الاصلاح ويمنعوه عمداً مبالغة في الاحراج، وهم يتظاهرون بصداقة الازهريين.

ويريد أن تنظر الوزارة في مناصب السلك السياسي لئلا يتمادى الوزراء المفوضون والسفراء في إحراجها مع الدول — كما حدث من بعضهم في أوائل قيام البرلمان — وهم آمنون ما يستحقون من جزاء.

ويريد أن تنظر الوزارة في مناصب القصر والانعام بالرتب والنياشين لأنه طلب اقصاء حسن نشأت باشا من وكالة الاوقاف فنقل إلى القصروجاء على أثر ذلك إلى شرفات مجلس النواب وهو يتشح بالوشاح الاكبر من نوط النيل، وقد أنعم به عليه بغير رأى الوزارة ·

فأجاب الملك سعداً إلى هذه الطلبات ، ووعده أن تضاف إلى صلب الدستور ، وأن يشرع في ذلك عقب رد الاستقالة إذا شا.

هذا في اليوم السادس عشر من نوفمبر ، وفي اليوم السابع عشر أعلن. سعد في مجلس النواب والشيوخ أنه « تشرف أمس بمقابلة جلالة الملك فأعرب له أنه متفق تمام الاتفاق مع الآمة ومجلس الشيوخ والنواب في الثقة بالوزارة ، وإنه أمام هذا الاجماع لايسعه قبول استعفاء الوزارة ، وبناء على هذا وعلى التصريحات التي لطفت من عب العمل عليه ومن عنائه ، لم ير بداً من سحب الاستقالة والعود إلى العمل في حدود صحته.»

سبق إلى بعض الظنون أن الوزارة سوف تستريح برهة بعد عودتها إلى العمل لتتفرغ لشئون الاصلاح التي شغلتها عنها الازمات السياسية ، ولكن لم يمض يوم واحد حتى وقع الاعتداء على حياة السردار « لي ستاك باشا » وهو خارج من وزارة الحربية ، ولسوء الحظ كان الرجل على نية السفر إلى السودان قبل ذلك بيوم ، ثم أرجأ سفره لحضور مأدبة أقيمت له في القاهرة ، فصادفته المنية على أيدى أولئك الجناة .

ولوشاءت السياسة البريطانية لعلمت أن جناية كهذه قد وقعت في العاصمة الانجليزية ـــ وهي قتل المارشال ولسون ـــ فلم يقل أحد إنها دليل على خلل الحكومة أو سوء النية أو التقصير في حفظ الامن والنظام .

ولوشا.ت لعلمت أن سعداً خليق أن يكره وقوع هذا الاعتداء أشد من كراهة الحكومة البريطانية ، لأنه اعتداء يصيبه هو ويصيب وزارته ويصيب الحكومة النيابية التي يمثلها ، ولا ينفعه في شي. بل ينفع خصومه من الانجلين والمصريين.

ولو شاءت لعلمت أنه قد أصيب باعتداء على حياته من جرا. المفاوضات قبل أن ينزع الجناة إلى إصابة حاكم السودان ·

ولو شأنت لعلمت أن حاكم السودان هو قائد الجيش المصري ولا مانع

يمنعه من « تقدير الظروف» وحماية حياته بما لديه من الحراس والجنود، وليس بالانصاف ولا بالميسور أن تطالب الوزارة السعدية بمناية أكبر من عناية الرجل بنفسه ، وفي البلاد « إدارة أوربية » للأمن والاستعلامات لا يفوتها الانتباه والتحذير .

ولكن السياسة البريطانية لم تشأ أن تعلم شيئًا من ذلك وهو معلوم غير مجهول، وكل ماشاءته أنها اغتنمت الفرصة كأنها كانت في انتظارها أوكانت تشفق أن تضيع منها، وهي قد كانت حقًا في انتظار فرصة تزعج بها الوزارة السعدية جهد ما استطاعت من إزعاج.

قال اللوردجورج لويد في الجزء الثاني من كتابه «مصرمنذ عهد كرومر»:

« تخلت وزارة مستر رامزي مكدونالد عن الحكم في نهاية أكتوبر
وخلفتها وزارة محافظة تولى فيها مستر أوستن شمبرلن وزارة الخارجية.
وكان مستر مكدونالد يفكر — بمعاونة المندوب البريطاني — في توجيه
تبليغ إلى الحكومة المصرية يسرد لها المخالفات المكررة التي خالفت بها
النظام المتبع أو الحالة الواقعة . فواصل مستر شمبرلن بحثه مع القاهرة في
الصيغة التي يفرغ فيها هذا التبليغ ، وكانت هذه المخالفات تزداد أثناء ذلك
وآخرها رفض زغلول في الثامن عشرمن نوفمبر بقاء وظيفة المستشار القضائي
وامتناعه من تجديد العقد للسر م . إيموس الذي كان يشغلها إذ ذاك.»

سنحت الفرصة إذن فينبغي أن لا تضيع ، وبلغ من التهافت على انتهازها أنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة إخفاء النية المبيتة وراءها ، فجاء في الانذار البريطاني أنهم يطلبون من الحكومة المصرية « أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الاطيان التي تزرع في الجزيرة ، فبدلاً من أن تكون ثلثمائة ألف فدان تكون غير معينة المقدار على نسبة ما تقتضيه الحاجة » . . . وجاء في ملحق الانذار « ان القوانين والشروط الخاصة بخدمة الموظفين الاجانب الذين لا يزالون في خدمة الحكومة المصرية

و تأديبهم وخروجهم من الخدمة ، يجب أن يعاد النظر فيها و تنقح طبقاً لرغبة الحكومة البريطانية » وإنه « إلى أن يتم الاتفاق بين الحكومة يلموضوع حماية مصالح الاجانب في مصر تحافظ الحكومة المصرية على مركز المستشار المالي ومركز المستشار القضائي ، وتحترم سلطتهما وإمتيازاتهما كما نص عليهما عند إلغاء الحماية ، وتحترم بالمثل مركز المكتب الاوروبي في وزارة الداخلية ، ومهام المالية كما حددت بالقرار الوزاري ، وتأخذ بعين الاعتبار المشورة التي يقدمها مديره العام في الامور الداخلة في اختصاصه.»

أما الطلبات الآخرى فمنها الاعتذار الوافي السكافي ، وقمع كل مظاهرة شعبية سياسية ، ودفع نصف مليون جنيه ، وإصدار الآوامر برجع الصباط المصريين والوحدات المصرية البحتة في الجيش المصري من السودان خلال أربع وعشرين ساعة . . . ومهد له في الطلبات بعبارة جاء فيها ان حكومة جلالة الملك « ترى أن هذا الاغتيال – الذي يعرض مصر بالحالة التي تحكم بها الآن إلى إزدراء الشعوب المتمدينة – هو النتيجة الطبيعية لحملة عدوانية على حقوق بريطانيا العظمى وعلى الرعايا البريطانيين في مصر والسودان » وعلم اللورد اللنبي أن أمنيته المرقوبة قد حانت آخر الآمر فاحتنى ماشاء مناهر التخويف والتشني والارهاب ، وذهب في ركب يتقدمه مئات من حاملي الرماح إلى مجلس الوزراء ، وأعلن وصوله بنفخ الأبواق وقعقعة السلاح ، فلم يتمالك سعد كعادته أن يلمح الجانب المضحك من هذه المبالغة في استغلال فاجعة المية ، وقال واللورد اللنبي يدخل عليه : « ماذا ؟ هل أعلنت الحرب؟! »

أما جواب الحكومة المصرية على الانذار فقد قبلت فيه ماله علاقة بالجريمة كالاعتذار ودفع التعويض واقتفاء أثر الجناة ومنع المظاهرات المخلة بالنظام ، ولم تقبل ماعدا ذلك من المطالب التي لاعلاقة لها بسبب الانذار ، فما هي إلا ساعات حتى أخذت البلاغات تتجاقب من اللورد اللنبي بأنه أمر

حكومة السودان أن تسرح الضباط المصريين وأن تطلق يدها في زراعة الجزيرة ، وانه سيتخذ ماشاء لحماية الأجانب ، وأنه سيحتل الجمارك ويتبع ذلك بضروب أخرى من النذر والقوارع .

وكانت الوزارة قد رفعت استقالتها إلى جلالة الملك فلما تعاقبت هذه التبليغات كتبت إلى جلالته عريضة تقول فيها انها « ازاء هذه التعديات المتتالية المضرة بالبلاد لايسع الوزارة إلا أن تلح على جلالته بأن تتفضل بالاسراع في قبول الاستقالة ، لانه ربما كان في هذه الاستقالة وفي ثبوتها ما يقي شر الاضرار المتوالية » فقبل جلالته الاستقالة وأعلن سعد في المجلسين قبولها، وعقب على ذلك بقوله: «كذلك أصرح لمكم أنا وزملائي بأننا مستعدون بكل إخلاص لأن نؤيد في مجلس النواب الذي نحن أعضاء بأننا مستعدون بكل إخلاص لأن نؤيد في بعلس النواب الذي نحن أعضاء فيه كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد ، ليس فينا عاطفة معارضة إلافيها يختص بالمصلحة العامة ، فاننا نخدم هذه المصلحة و نؤيدكل من يؤيد هذه المصلحة، وبذلك تم للسياسة البريطانية ما أرادته من إقصاء سعد ، وان لم يتم لهما هو أفضل لديها من الاستقالة العاجلة ، وهو قبول المطالب ثم معاودة الاحراج لاقصائه بعد حين .

* * *

و إن الانسان لا يدري بعد ذلك هل تعتبر السياسة الاستعارية هذه الحوادث من المصادفات السعيدة أو من الفواجع المحذورة 1

فقت لن الانجليز القابضين على الحرطوم و إنما قتل لأن الانجليز القابضين على الحكومة المصرية لم يبادروا إلى إنقاذه حقد أكسب السياسة الاستعمارية نصف السودان وهو القطر الذي يعدل القارات في الاتساع وخصوبة الموارد ولا تنال الدول مثله إلا بسفك دما. العشرات من القواد وعشرات الألوف من الجنود .

وقالت السياسة الاستعمارية يومئذ أنها لا تشارك مصراً في السودان

لأنها تدعي حقاً في ملكه أو السيادة عليه ، ولكنها تريد هذه الشركة توسلاً بها إلى منع سريان الامتيازات الأجنبية عليه ، وهي تسري على كل قطر تابع للدولة العثمانية ، وقد يكون في سريانها على السودان تعطيل لاصلاحه وتقييد لحرية المصريين في حكمه ... وفيما عدا ذلك لا مطمع للدولة البريطانية في الحسكم ولا في الاستغلال .

وباسم مصر وحقها احتجت انجلترا على فرنسا حين احتل القائد مرشان فاشوده لأن التعليمات قد صـــدرت « بتوطيد السلطة المصرية على ذلك الاقليم . »

وباسم مصر وحقها دفعت الخزانة المصرية أكثر من عشرين مليوناً من الجنيهات لتعميرالسودان وحواسته وتحصينه وتسديدالعجز في موارده 1

ثم جاء مقتل لي ستاك بعد مقتل غردون بنحو أربعين سنة فضيع على مصر كل مابذلته من مالها ودمها في العصور القديمة والحديثة ، ونقل ذلك حلالاً زلالاً سائعاً إلى أيدي السياسة الاستعمارية تتخذه فريعة إلى زرع ما تشاء من الأرض ، واقصاء جميع الموظفين المصريين ، وطرد الجيش المصري كله ، مع تمكيف الخزانة المصرية سبعمائة وخمسين ألف جنيه للدفاع عن السودان ! إن السياسة الاستعمارية لو راجعت نفسها لحارت كما نحار نحن فلم تدر هل هذه الحوادث من المصادفات السعيدة أو من البلاء المحذور !

* * *

ونعود إلى مصاعب الوزارة السعدية فنقول إن الشواغل والازمات لم تكن موقوفة على العلاقات المصرية الانجليزية وحدها وما يتفرع عليها . فان الوزارة السعدية لم تقم في الحكم أياماً حتى قابلتها مشكلة عسيرة مع الحكومة الايطالية ، وهي الحاح هذه الحكومة في تسليم عشرة من اللاجئين السياسيين من أهل طرابلس قدموا الى مصر واعتقلتهم الوزارة الابراهيمية قبل قيام الوزارة السعدية . وكانت حكومة موسليني تأبى أن تقنع بما دون

التسليم ، وثارت ثائرة الأمة المصرية لهذه المطاردة العنيفة لأناس لم يقترفوا من وزر إلا الدفاع عن حرية بلادهم كما يحق لـكل انسان ، بلكما يجب على كل انسان . واحتــــدمت النفوس غيظاً من هذا اللدد الغريب في ملاحقة اللاجئين بالعقاب بعد أن هجروا ديارهم وألقوا سلاحهم وذاقوا مرارة الحنية والهزيمة ، كا تما هم الواترون وايطاليا هي الموتورة المعتدى عليها التي لا ينبغى لها أن تنسى جزاء الوتر والعدوان .

والطرابلسيون بعد جيران المصريين واخوانهم في اللغة والدين وفي قضية الحرية والاستقلال، والوزارة السعدية لاتشعر إلا بهذا الشعور ولا يجمل بها وعلى رأسها زعيم المجاهدين الوطنيين في الشرق العربي أن تسلم بيديها أولئك الغرباء المساكين للبوت والبلاء. فرفضت تسليمهم وأصرت على الرفض كل الاصرار، وخشيت في الوقت نفسه أن يتفاقم الحلاف بينها وبين الحكومة الإيطالية تفاقماً يجر الى دخول الحكومة البريطانيسة في القضية ... لأنها مسئولة — كما تدعي — عن حماية الأجانب وعن علاقات مصر الخارجية حيث يؤذن الخلاف بتعريض مصر لاعتداء أو تهديد من إحدى الدول القوية !! فنوسط سعد في فض هذه المشكلة بحل لا يسخط الحكومة الإيطالية كل السخط وإن كان لا يرضي المصريين كل الرضا، واكتنى باطلاق اللاجئين المعتقلين ليبرحوا القطر إلى حيث يشاءون.

ولم ينته الحلاف مع ايطاليا بهذه المشكلة بل نشبت بعدها مشكلة أخرى لإ كراه الحكومة المصرية على ضم واحة جغبوب إلى البلاد الطرابلسية ، وقد استغرب الناس هذا التحرش بالوزارة السعدية من الحكومة الايطالية حتى بدر إلى ظنهم انها مغراة بذلك من أناس يتصلون بها ويجوز أن يحرضوها على خلق الازمات لاحراج سعد و تكبير المصاعب عليه ، وطال الاخذ والرد في هذه المشكلة ، حتى انتهت بالاتفاق بين قائد السلوم ومندوب الحكومة الايطالية على حد موقوت بين مصر وطرابلس تدخل به جغبوب

والسلوم في الأرض المصربة ، وسر عان ماعادت الحكومة الايطالية وحدها الى تغيير هذا الحد بغير مشاورة ولا استئذان !

يضاف الى هذه المشاكل كلها شواغل البرلمان الأول التي لابد منها ، فقد كان على الوزارة البرلمانية الأولى أن تعرض عليه جميع القوانين والمعاهدات التي حدثت بعد فض الجمعية التشريعية ، وكان عليها وعلى البرلمان أن يشتركا في ترتيب نظامه الداخلي وعلاقته بالوزارة ومصالح الحكومة ، وأن يشتركا في تعديل قانون الانتخاب على الوجه الذي يرضاه السعديون ، وهم لايرضون عن قانون الدرجتين .

والبرلمان هلكان يخلو من صعوباته ؟ وهلكانت الوزارة السعدية لا تحسب حسابه الالتستعين به على خصومها في جميع قراراته ومناقشاته ؟

كلا! فقد كانت لا ي الديمقراطية المصرية صعوباته ومساجلاته أيضاً مع البرلمان بمجلسيه من نواب وشيوخ، وكان يحتاج أحياناً إلى قوته كلها ايروض بها قوة هذا البرلمان. ولا نعني المعارضة وحسب فانها لم تكن تتجاوز عشر المجلسين في عدة الاعضاء، ولكننا نعني الاعضاء الوفديين وهم أنصار سعد وأبناؤه ومريدوه، وكانت تتألف منهم الهيئة الوفدية التي اكتمل تأليفها بعد انعقاد البرلمان بنحو شهرين لتنظيم المناقشات ومنع الاحتكاك بينها وبين الوزارة، وقال سعدفي خطابه لاعضائها من مجلس النواب: «النظام يتطلب من كل منكم أن ينزل عن جزء يسير من حريته حتى تجتمع الحرية كاملة من هذه الاجزاء للهيئة التي قبلتم العمل تحت لوائها، والحرية متوافرة من قبل في اختيار المهيئة التي تتضامنون معها واختيار النظام الذي تسير ون عليه فلا معنى للقول بأن الحرية تنعدم مع النظام . ان الحكومة منكم وأنتم عضد الحكومة، فيجب الحرية تنعدم مع النظام . ان الحكومة منكم وأنتم عضد الحكومة منظماً.»

ومع هذا لم تخل جلسات الشيوخ والنواب منمعارضة للحكومة في أمور

أصرت فيها الحكومة على رأيها وأصروا فيها على رأيهم ، فلم يرجعواعنه بعد طول المساجلة والجدال .

أودعت الحكومة القوانين التي صدرت قبل اجتماع البرلمان مكتب مجلس النواب وفيها قانون الاجتماعات المنظم لحق الاجتماع المباح بحكم الدستور في حدود القانون ، فنظر مجلس النواب هذا القانون في غيبة الوزارة دون أن يكون مدرجاً بجدول الاعمال ، وقرر الغاءه الغاء باتاً بلا تقييد ولا تعديل ... فجاء سعد في الجلسة التالية (٢ يوليو) ولاحظ على مبدأ نظر القوانين في غيبة الحكومة المصرية قائلاً إن : «المسألة التي أريد عرضها على حضراتكم هي انكم نظرتم قانون الاجتماعات مع انه غير وارد بجدول الاعمال ، ولم تكن الحكومة حاضرة فهل يجوز أن يتخذ مثل هذا القرار في غيبة الحكومة؟ هذا ما أردت طرحه على حضراتكم لابداء الرأي فيه ، غيبة الحكومة؟ هذا ما أردت طرحه على حضراتكم لابداء الرأي فيه ،

فقال أحد الأعضاء: « المجلس صاحب الحق المطلق في جدول أعماله فوضوع البحث هو: هل للمجلس إذ لم تكن الحكومة ممثلة أن يغير جدول أعماله قبل أن يخطرها بذلك أم لا. فيجب أن نقرر أولا أن الحكومة تعمل على تمثيل نفسها دائماً في المجلس لتتوقى مثل هذه المسائل ، والذي أفهمه أن مكتب المجلس كان يجدر به أن يخطر للحكومة من باب المجاملة ... »

فقال سعد: « ليست المسألة مسألة مجاملة . إني لاأقبل المجاملة في هذا الموحل ذلك في المسائل الشخصية . ولكني اعرض المسألة الآن رسميًا ، وليس هـذاحق الحكومة فقط بل حق كل عضو علم بجدول الاعمال ولم يحضر الجلسة ثم عدل جدول الاعمال ، فله أن يعترض وأولى بالحكومة ان تعترض على ذلك باعتبارها الطرف الآخر « طرفاً مهماً » . . . وان مصلحة المجلس تقضي باعلانها ، لانها اذا كانت لانقبل قرارا صدر في غيبتها فلها أن ترده للنجلس لا من باب المجاملة بل من باب الالزام »

واحتدت المناقشة طويلاً ثم اصرت الحكومة على رأيها وأصر المجلس

على رأيه ، وغاية ماسمح به ان تنتظر الحكومة الفرصة التي تسنح عند اعادة القانون في مجلس الشيوخ اذا اغاده الى مجلس النواب ، او تتقدم الى مجلس النواب بقانون اجتماعات جديد ، اما الالغاء فلا رجوع فيه .

وعرض القانون على مجلس الشيوخ فعدل بعض أحكامه ولا سيا في العقوبات ، وعلم وكيل الداخلية أن الحكومة ستنهزم في المناقشة فاستنجد بوزير الداخلية محمد توفيق نسيم باشا ، ووجد هذا أن لا قبل له بصد التيار فأرسل في طلب سعد باشا ، ودارت المناقشة بعد حضوره كا شد ماتكون بين خصمين متناجزين ، ثم سأل رئيس المجلس : ماهو رأي الحكومة النها ثي هذه التعديلات ؟

فقال سعد باشا: إن الحكومة لانزال عندرأيها.

وأخذت الاصوات فاذا المجلس يؤيد التعديلات ويخذل الحكومة ، ولم يكن سعد يتوقع هذا ولكنه اغتبط به بعد ذهاب سورة المناقشة وحمد الله « أن في مصر نواباً وشيوخاً لايقولون نعم نعم ولا لاكلما قالها الحاكم أو الزعم.»

هذه الصعوبات البرلمانية كانت تتعب الوزارة في بعض الأحايين، فاصطلحت فيها الوزارة والبرلمان على حد سوا. بين الفريقين: فأما المسائل التي يتأزم بها مركز الوزارة والبرلمان معاً فقد كان سعد يعتصم فيها بالثقة وكان البرلمان يجاريه فيها لانه يعلم أن ليس وراء قدرة الوزارة فيها قدرة قصرت في استخدامها . كذلك حدث في مسألة خطبة العرش وتفسير الأماني القومية ، وكذلك حدث في مسألة الجزية التركية التي رأى سعد أن يبطل التزام مصر بها ويودعها في الوقت نفسه احد المصارف انتظاراً للفصل فيها عافظة على سمعة البلاد المالية ، ورأى المجلس غير ذلك ثم ثاب إلى رأي سعد في ختام المناقشة ، وان لم يعرض سعد مسألة الثقة في هذه الجلسة .

وأما المسائل الآخرى فقد كان موقف سعد فيها كموقفه في قانون

الاجتماعات يدلي برأيه ويصغي إلى رأي النواب والشيوخ، ويعمل بما يقرون.

وبعد هذه الشواغل جميعها لاعجب اذاكان وقت الوزارة لم يتسع لانجاز اعمال الاصلاح التي كانت في نيتها وفي مقدورها . وهي لم تلبث في الحكم الاستسعة شهور تحسب منها أيام البطالة وايام السفر وأيام الاستشفاء والعلاج . فحسبها مع هذا جميعه انها استطاعتان تحقق معنى الحكومة الاول وهواطلاق الحرية للمحكومين في أوسع الحدود: فقد كان المصري يستمتع في عهدالوزارة السعدية بحرية واسعة لا يستمتع الانجليزي ولا الفرنسي بأوسع منها ، وكان الانصار والمعارضون في هذه الحرية على حد سواء . فمن قرأ ماكانت تكتبه الانصار والمعارضين عن سعد وآل سعد ووزارة سعد علم ان الحرية المنشودة المحف المعارضين عن سعد وآل سعد ووزارة سعد علم ان الحرية المنشودة المهاجمة والتجريح .

واستطاعت الوزارة السعدية أن تشرع في إصلاح ميناه السويس وفي مد السكك الحديد بالوجه البه ري والتمهيد لتوسيعها بين الاقصر وأسوان وفي إنشاء الطرق الهامة بالقاهرة كطريق الازهر وطريق الامير فاروق وما شابه ذلك من أعمال العمران ، وان تشرع في تعميم التعليم الاجباري حسبها تتهيأ له موارد الدولة، ولم تحجم عن تشييد الجامعة المصرية إلا لانها كانت تنهم من معنى الجامعة ان تجعلها شيئاً غير اجتماع المدارس العليا في صعيد واحد ، كما قال سعد في حديثه مع كاتب هذه السطور عند ما كان ناظراً للمعارف العمومية ، أو كما كال وهو رئيس للوزارة « إن الذي أفهمه أن الجامعة — بمعنى اجتماع المدارس العليا — موجودة الآن وهي وزارة المعارف ! » وهو يعنى أن الجامعة التي يريد انشاءها — وقد وضع حجرها المعارف يوم كان قاضياً بمحكمة الاستئناف — هى الجامعة التي تعلم الطلاب

الاستقلال بالبحث والتوسع في الاخصّاء ، ولا تكتني بالبرامج المعهودة في المدارس العالمة قبل إنشائها .

* *

ترى ماذا كان شعور سعد بسلطان الحكم الذي جلب عليه جميع هذه. المتاعب وحمله جميع هذه الأعباء وأحاطه بجميع هذه الدسائس والنكايات؟ أسرور؟ نعم لاشك أنه تقبل سلطان الحكم في باديء الأمر بشيء غير قليل منالسرور والرجاء. ولكنه سرور غيرسرور الضعيف المزهو بمرتبة رفعته أو ارتفع هو لها بين سائلها والمتطلعين اليها ، وإنما هو سرور الانتصار على الذين حسبوا أنهم حائلون بينه وبين هذا المكان عنوة وقهرآ فاذا هو يدركه بحوله وقدرته ولا يحتاج فيه إلى شفاعة شافع أو معونة معين . فهو شعور الظافر في الميدان والرابح في الرهان ، لاشعور الكسب أو المتعة بالعطاء ١ ولكنه سرعان مافقد حتى هذا السرور قبـل أن يستقيل ببضعة أيام ، فني الليلة التي استرد فيها استقالته كنت أتنــاول العشاء على مائدته مع بعض المدُّعوين ، وكانت الطرقات حول « بيت الأمة » تموج بالهاتفين والمهنئين ، وهو في موقف خليق أن يحسبه انتصاراً على الخصوم ونجاحاً فما طلب وفاتحة لعهد جديد . فتحولنا بالحديث الى الحكم ومتاعب الحكام الدستوريين والمستبدن على السوا. فقال رحمه الله وهو يزم شفتيه في امتعاض وأسف : إن أردتم الحقيقة ... أنا غير ملذوذ 1 » وهكذا حوافز الحياة : أقوى مافيها من عزاء للأقوياء العاملين انهم قادرون على النهوض بها وقادرون على احتمال صدماتها وعقابيلها ، ولولا ذلك لما ثابروا على رجائها ولا ثابروا على عنائها والعودة اليها ، اما سرورها فهبا. لا فرق فيه بين الاقوياء العاملين والضعفاء الحالمين.

الملك فؤاد وسعد

كان ميدان السياسية المصرية من لدن استقالة سعد الى عودة الحياة النيابية بعد أكثر من عام ميدان الملك احمد فؤاد وحده ، يعمل برأيه في توجيه السياسة العليا وتدبير المسائل العامة دون مشارك من أحد ، إلا ما اقتضى تدخلاً في بعض المسائل من ناحية الانجليز .

والملك فؤاد أقوى شخصية ملكية ظهرت على عرش مصر بعد حدة محمد على الكبير. واسع الاطلاع عظيم الحبرة نافذ التفكير في شئون السياسة ، تولى الملك وهو في أوائل الشيخوخة فقضى ست سنوات أو سبعاً لا تبدو منه حركة ولا يشعر الناس له بسيطرة في الحكومة أو في الحياة الشعبية ، فأخطأ الكثيرون فهم هذا السكوت أوهذا الانتظار وحسبوه ضعفاً وخولاً وقناعة بما وصل اليه من الملك بعد أن كان الوصول اليه في رأيه ورأي الآخرين حلماً من الاحلام.

لكنه في الحقيقة لم يكن ضعفاً ولا خمولاً وانماكان تدبيراً مقدراً وتأهباً مدخراً الى حين ، لأن السنوات الست أو السبع الأول من حكمه كانت بين حرب عظمى يترقب نهايتها إلى أي حال تصير ، وبين صراع قائم على القضية المصرية لاتؤمن فيه عاقبة المصادمة مع هذا الفريق أو ذاك ، قبل أن تنجلي الغاشية و تطمئن الأمور .

فلبث الملك احمد فؤاد يترقب ويتأهب في هذه السنوات، وطفق يجمع المعلومات ويستميل الانصار في فترة سكونه الطويل، فلم تنقض تلك السنوات حتى كان قد أحاط بكل كبيرة وصغيرة من دخائل الكبراء والسراة ورؤساء الحكومة ، وعرف من أين يستمالون ومن أين يرجون ويخافون ، وعرف

من هو صالح منهم للاستعانة به وفي أي مناسبة من المناسبات تجدي معونته وتستجاب الإشارة اليه ، فلما أعلن الاستقلال وجاء دورالدستور ، أصبحت هناك « سلطة » يريدها من وراء ذلك الصراع الذي لم يجهر بالاشتراك فيه ، وأصبح كامل الاهبة لاغتنام تلك السلطة بما جمع من معلومات واستمال من أنصار ، فقلب الوزارة الثروتية بتلك الضربة الماضية وهي تهم بانشاء الحياة النيابية وتحفيز للقبض على ناصية السياسة المصرية بتعديل الدستور و تقريب الكثرة وتوجيه الانتخابات الى حيث يريد . فحال بينه وبين ذلك أن الكثرة لم تستدرج على حسب المرام ، وان الانجليز لم ينسو الله الاقدام على اسقاط الوزارة الثروتية وهي وزارة التصريج وماير تبط به من مجرى السياسة المقبلة الى تمام الغرض المقصود . فعجلوا بأزمة الوزارة النسيمية وأفهموه جيداً أنهم لايريدون له السلطة المطلقة ولايزالون يستمسكون بقيود الدستور ، كراهة منهم للمزاحمة السلطة المطلقة ولايزالون يستمسكون بقيود الدستور ، كراهة منهم للمزاحمة في النفوذ لا حباً للشعب المصري وحقوقه ، وأملاً منهم في أن يجدوا من البرلمان قوة يقابلون بها قوة العرش عندالضرورة ، ومن العرش قوة يقابلون عما قوة العرش عندالضرورة ، ومن العرش قوة يقابلون

والآن قد حانت الفرصة واستقال سعد وهو الرجل الوحيد الذي يحول بينه وبين الانفراد بسلطان الدستور ، واتفقت رغبته ورغبة الدولة البريطانية ورغبة اللورد اللنبي في صد هذه القوة الكبيرة التي تشق طريقها بارادتها ولا تنتظر الاقوياء حتى يشقوا لها الطريق لتمضي فيمامضى الاتباع ، فقبض الملك فؤاد يبديه على أعنة السياسة المصرية ووطن العزم على الاستئثار بسلطان الحكومة ، وتحقيق الغاية التي تأهب لها منذ سنوات .

ولكن ما العمل في الدستور؟ إن الشعب يقدسه ، ولم يَرُله سيئات تسوّل له الزهد فيه ، وإن الانجليز يأبون الغاءه ولايسمحون للملك بالسلطان المطلق في الحكومة . فما العمل إذن في هذا الدستور؟ وما العمل مع بقائه في البرلمان والوزارة المسئولة أمام الشيوخ والنواب؟

يبقى الدستور حتى لايتذمر الشعب ولا يتنمر الانجليز ، ويكون النواب والشيوخ من أتباع الحاشية المختارين ، ومن أجل ذلك ينشأ في البلاد حزب اسمه حزب الاتحاد ، يدخل فيه كل من يريد الحظوة والجاه ويخشى الغضب والاعراض .

ولم حزب الاتحاد؟ لم يسمى بهذا الاسم دون سائر الأسماء؟ نعم . لأن « الاتحاد » يجمع الاحزاب والهيئات المتفرقات ، فالمقصود إذن أن تفنى في حزب الاتحاد جميع الاحزاب المصرية ، ولا يعود في البرلمان بعد فترة قصيرة أو طويلة نواب أو شيوخ من غير الاتحاديين المقربين ، ولا بأس في هذه الحالة بأن يدوم الدستور وأن تتسع حقوق مجلس الوزراء ويتقرر نظام التبعة الوزارية أمام البرلمان !

وأخــــذ حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكي يعمل مع الوزارة الجديدة ، على هذه الوتيرة . فلم تمض أسابيع حتى اضطر عشرات من النواب والشيوخ المقيدين بمصالح الحكومة الى اعتزال الوفد توطئة لدخول الحزب الجديد لأنهم كما كانوا يقولون يخلصون للعرش ويتهمون اخلاص سعد للسدة الملكية ، وانهالت على الوفد دعاية . التنفير والتشهير بكل مافي وسع الصحافة والخطابة والصنائع والاتباع .

وكان أناس بتساءلون فيم كل هذه الكراهية لسعد زغلول وهو صاحب اليد التي لاتنكر في تحسين مركز البلاد ومركز العرش كائناً ماكان مدى ذلك التحسين ؟ وفيم كل هذه الكراهية وهو أول رجل عود الجماهير أن تهتف باسم الملك فؤاد ؟

لايقول الانصار طبعاً إن هذا الرجل مكروه لانه يمثل قوة الدستور، ولكنهم يقولون تارة إنه طامع في الجمهورية ، وتارة أخرى إنه على صلة بالخديو عباس ، إلى أشباه ذلك من الاسباب.

فأما إن سعداً كان طامعاً في الجمهورية ، فذلك مالم يظهر منه بكلام ولا

ايحا. إلى أحد من المصريين أو الانجليز ، ثم لماذا يكون طمع سعد في الجمهورية مسوغاً للحكم بغير دستور والعمل لتحقيق ذلك منذ زمن طويل في حياة سعد وبعد مماته بسنوات ؟

وأما إن سعداً كان على صلة بالخـــديو السابق ، فالعلاقة بين الرجلين لا تسمح بهذا الفرض ولو من باب التخمين ، وما مصلحة سعد في تحويل الملك من فؤاد الى عباس وهو تحويل لاهوى له ولا فائدة فيه ؟ لقد عرض عليه الاتصال بالخديو السابق مرات ، فكان جوابه ما يعلمه أعضاء الوفد والوسطاء والمطلعون بمن لايزالون على قيد الحياة .

ولسنا نعتمد هنا على النفي القاطع الذي سمعناه من سعد وحسب وفيسه الكفاية كل الكفاية ، ولكننا نعتمد على لسان الحال الذي هو كما قيل أصدق من لسان المقال .

فكثيراً ماكنا نشاهـد الاستغراب من سعد كلما سمع بنبأ من أنباء الكراهية التي تنصب عليه وعلى أتباعه ، ومن ذاك أنه قال يوماً وقد بدا عليه الاستغراب الشديد : لعل مولانا يكرهني بالتوكيل لا بالاصالة 1 وهو يعني بذلك أن الكراهة الاصيلة إنما هي من حق الانجليز والانسان لايستغرب هذا الاستغراب أن يمني بالكراهيـة إذا كان قد أسلف من الاساءة مايستحق العداء والبغضاء .

على أن سعداً لم يكن منفرداً بالكراهية والغضب عند الملك فؤاد ولكنه كان صاحب النصيب الأوفى منه على قدر نصيبه من تمثيل قوة الدستور ، ولكل رجل غيره من رجالات السياسة المصرية الذين يوافقون سياسة الملك فؤاد نصيب على قدره من الجفاء والاعراض ، فعدلي ورشدي وثروت ومحمد محمود وزكي أبوالسعود وغيرهم من الوزراء والكبراء لم يكونوا محبوبين ولا مقربين في كثير من الاحايين ، لانهم ليسوا من الرجال الذين يعتمد عليهم في توجيه الدستور وتحريك دواليب الحكومة الى حيث يريد.

والحق أن رجلين قويين عنيدين كفؤاد وسعد ماكان من الميسور أن يعيشا في عصرواحد ويجتمعا في ميدان واحد دون أن ينشب بينهما النزاع على نحو من الانحاء ، ولوجاء فؤاد الى الملك بعد توطيد الدستورلكان من الجائز أن يحتمل الزعماء الاقوياء والوزراء المقتدرين العاملين معه في نطاق الحكومة النيابية . ولكنه جاء قبل استقرار الدستوربل قبل إنشائه فكان من العسير عليه النزول عن سلطانه ، وهو ما هو من دراية وكفاءة واعتداد بالنفس واستعلاء على من لايساوونه — في رأيه — في حقالقدرة أو حق السلطان .

روى أميل لدفج في كتابه عنأحاديث موسليني انه قال للملك فؤاد مرة إن الدكتاتورين يخافون. أما الملوك فيحبون.

فأسرع الملك فؤاد قائلًا : لكم وددت أن أكون الدكتاتور ١

وحدثني أميل لدفج حين لقيته في القاهرة بعد لقائه للملك فؤاد ، فسألني مارأيك فيمن يغلب غداً على مسرح السياسة المصرية ؟ قلت المستقبل للحرية بعد عراك طويل . قال : أرجو أن يكون ذلك ، وما أظن لكم خيراً عند هندرسون . أما الملك فؤاد فهو بحكم تربيته وماضيه لايستريح إلى قيودالدستور .

وقيــل إن شعار الملك فؤاذ كان كلمة « الصبر » يضعها أمامه في اطار جميل مكتوبة وحدها بغير تعقيب ولا زيادة .

وانها في الواقع لعنوان طبيعته كلها ، وأن أول معانيها لهو الصبر على من يكره ومايكره وعلاجهم بالمجاملة والمداراة معالدأب وانتهاز الفرص والعرفان بمواضع التجارب والمجاولات ومواقع الاقدام والاحجام .

ونحن إذ نعرف ماعنده من القدرة والعزيمة ، والرغبة في الحكم، والصبر على تحقيق الغاية لانحتاج الى مشقة كبيرة في تعليل الجفاء الذي كان بينه وبين سعد زغلول . لم يكن طموح فؤاد مقصوراً على ميدان السياسة المصرية في حدودها الداخلية ، بلكان يطمح الى إنشاء دولة كبرى تمتد الى الأقطار العربية ويحمل وهو على عرشها لقب الخلافة الاسلامية ، ويعتقد أن الانجليز لاينفرون من قيام الخلافة في دولة كالدولة المصرية . لأنهم يحالفونها وتحالفهم على سياسة شرقية فيها النفع والمبادلة الصالحة للفريقين .

ولو طال عمره لمضى في تحقيق هذا الأمل الى شوط بعيد ، ولعله كان يطمع أول الامر في الجاء بعض الممالك العربية التي تستمد العون من أموال مصر وخيراتها الى مبايعته بالخلافة والاعتراف له بها قبل الآخرين ، ويأتي بعدهم من الممالك من تقنعه الدولة البريطانية باتباع هذا السبيل.

لهذه المطامح كلها جمع المال واستكثر منه وبلغت ثروته بضعة عشر مليونآ من الجنيهات ، وقلما يعني هذه العناية بجمع المال من خلا ذهنه من طموح بعيد إلا أن الحساب الذي كان يختلُّ أبدًا في ميزان الملك فؤاد الدقيق انماهو حساب العاطفة ومالها من الأثر القهار في أطوار الجماعات والأفراد ، فلوكانت العلاقات السياسية والدوافع الشعبية قائمة كلهاعلى العقول والمصالح والمساومات لما اختل حساب الملك فؤاد قيدشعرة في جليل ولا دقيق من الأمور، ولكن العقول والمصالح والمساومات ليست كل شي. في كل مايجري على مسرح السياسة وإن كان شاغلوه من الشيوخ المحنكين والعقلاء المدربين . . . ولهذا طرأالاختلاف على بعض التقديرات التيءول عليها الملك فؤادأ كبر تعويل. وكأنماكان الملك الراحل طياراً ماهراً يحسب حساب الآلات والوقت والمسافة أدق حساب، ولكنه لا يعطى عوارض الاجوا. حقها من الحسبان والاهتمام ، فتقف به الطيارة دون الغاَّية كلما تغيرت الآجو ا. والأهو ا. . كان أناس يزعمون أن الملك فؤاداً كان يمضي مع نفوذ هذا ، ويتأثر بدسيسة ذاك ، وهم فما زعموا مخطئون جد مخطئين ، لآن هؤلاء الذين كانوا يذكرونهم بأسماتهم لم يكونوا مع الملك فؤاد إلا كالتلاميذ المقتدين الذين يتدربون على يديه ويستفيدون منارشاده ، وأقصى مايذهبون اليه أن يفهموا بعض المرامي البعيدة التي كان يرمي اليها الاستاذ الكبير ، وإن ما يحيط به هو في يوم واحد لا يحيطون به هم في سنىن .

والفضل في هذه القدرة العقلية البالغة هو قبل كل شي، فضل الملكة المطبوعة والفطرة الموروثة ، ثم يضاف اليها تعليم جيد ودراسة واسعة وتجربة سياسية وافية ، تارة في مصر وتارة في تركيا وتارة في ايطاليا والنمسا ، وهي تجربة شملت البيئات الملك والامارة ، وانتفعت بمعارف الوزراء .

وقد جاء وقت كان سعد يعتقد فيه أنه كسب المودة من قلب فؤاد وازال ما بنفسه من الموجدة عليه ، وذلك في الإسابيع القليلة بعدقيامه في الوزارة . وكان يغتبط بطول الجلسات التي يقضيها في الحديث معه بقصر عابدين، وأخرج الساعة مرة وهو عائد من هناك فقال : لقد طال الحديث خمسين دقيقة 1

في تلك الأيام كان الملك فؤاد ينزل من قصر القبة خصيصاً إلى قصر عابدين لئلا يجشم سعداً مشقة الصعود بقدم به حيث لا مصعد هناك ، وأمر بانشاء مصعد في القصر لتخفيف هذه المشقة عليه . ثم عاد سعد بعد تلك الأيام يقول : « لقد طواني الرجل ا ولمانه لقديرا»

ومن الصعب أن نحكم على طبيعة العلاقات بين الملك فؤاد وسعد من النظر إلى المواقف الرسمية أو المواقف الشخصية على انفراد . فانهما ليتناقضان أشد التناقض في الآونة الواحدة ، فيبلغ من وثام المواقف الرسمية أن يقول الملك فؤاد في رسالته البرقية إلى سعد عقب الاعتداء عليه : « ان صحتك أعز شي ، في الدولة » ويبلغ من جفاء المواقف الشخصية أن يشاع أن الملك فؤادا أمر بوقف التشريفات في العيد بعد حادث الاعتداء اذا عاش سعد . وأمر باجراتها حسب المعتاد إذا مات .

وأوجز ما يقال أن العلاقات بينهما على السواء في أيام المقاطعة وأيام المجاملة كانت علاقات ضرورة لا اختيار فيها لواحد من الاثنين.

من رئاسة الوزراء

إلى رئاسة النواب

فكر سعد في بقاء الدستور بعد ذهاب الوزارة فأعلن في خطابه الذي ألقاه على النواب تبليغًا للمجلس باستقالة الوزارة: « أنه مستعد مع أصدقائه الكرام من أعضاء هـذا المجلس لان يؤيدوا كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد.»

وأعلن مثل ذلك في ندائه إلى الامة باعتباره رئيسًا للوفد، وفي خطاب ألقاه على الجموع الذين وفدوا إلى بيت الامة بعد استقالته حيث قال: «انني مستعد لتأييد كل وزارة تأتي وتكون حائزة للرضاء العام ، عاملة على تحقيق أماني البلاد ، فان الموقف دقيق جداً وأنا واثق من أبي وأنا خارج الوزارة سأستطيع خدمة البلاد أكثر ألف مرة بما لوكنت داخلها . وتأكدوا أن الله معنا ، ولابد أن تفوز الامة في النهاية إن شاء الله.»

ولكن الغرض الأكبر في تلك الآيام لم يكن هو الحلاص من حادث السردار بوسيلة من الوسائل المرضية ، بل هو استغلال ذلك الحادث لتحطيم سعد ومن يواليه ، ولا سبيل إلى هذا التحطيم مع بقاء البرلمان وسريان أحكام الدستور.

وقد احتج البرلمان بمجلسيه إلى عصبة الآمم على استغلال الحكومة البريطانية لحادث السردار في اهتضام السودان وتمزيق الاستقلال المصري، فلم يجد هذا الاحتجاج صدى له بين أعضاء العصبة الامندوبي إيران والسويد وارغواي الامريكية، وتعلل مندوبو الدول الكبرى بان الاحتجاج لم يعرض على العصبة من قبل حكومة قائمة، لأن الوزارة السعدية كانت قد استقالت

والوزارة الزيورية التي تلتها لا تحب أن تحتج علىشي. من مطالب الانجليز ، ولا ترى للسألة حلاً مستطاعاً عندها الا الاذعان لما طلبوه .

واذعنت الوزارة الزيورية فعلاً لجميع المطالب البريطانية ، وأرسلت من مصر رسولاً إلى الضباط المصريين في السودان تأمرهم بالجلاء والعودة إلى بلادهم ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن العودة وتسليم السلاح حين بلغهم نائب الحاكم العام أمره باسم الحكومة البريطانية ، وردوا عليه بأنهم لا يطيعون غير ملك مصر وأوامر حكومتها ، فجاءهم هذا الامر من الوزارة مع رسول في طيارة بريطانية ، فأطاعوا راغمين وتمسكوا بالعودة حاملين السلاح والأعلام ، غير مخفورين يالجنود الانجليزية في طريقهم إلى الحدود والسلاح والأعلام ، غير مخفورين يالجنود الانجليزية في طريقهم إلى الحدود .

وقدترك زيور باشا رئيس الوزارة كل شي، للانجليز من جانب ولحسن نشأت باشا وكيل القصر الملكي من جانب ولاسهاعيل صدقى باشا وزير الداخلية فيها بتي له من شئون الوزارة ، فلا رأي له ولا برنامج ولا إرادة ، وسلمت الوزارة للانجليز في مسألة جغبوب بالصحراء الغربية ومسألة نهر الجاش في السودان ، وهما الهديتان اللتان ساومت عليها بريطانيا العظمى صديقتها إيطاليا على حساب الحقوق المصرية والسودانية ، وسلمت على الاجمال في كل ما أراده الانجليز واستباحوا به نصوص الدستور والقانون التي لا تقبل التأويل ، ومنها القبض على النواب وهم في كنف الحصانة البرلمانية قبل أن يعرض الأمر على مجلس النواب ، وجعلت شكوى النواب من عدوانها على الدستور والقانون و تفريطها في حقوق البلاد فريعة إلى حل المجلس و تعطيل البرلمان قبل أن تتقدم اليه .

ولم تعارض في مطلب من المطالب الانجليزية إلاالتوسع في زراعة القطن مالسودان ، لانه المطلب الذي فضح المناورة الاستعمارية وأحست الحكومة البريطانية أن اللورد اللنبي أخطأ خطأ فاحشاً في تضمينه انذاره النهائي إلى سعد زغلول ، وكان له دخل كبير في اقالة اللورد اللنبي بعد ذاك بشهور ، فاهتمت بمداراته واصلاحه وأوعزت إلى أحمد زيور باشا بالمراجعة فيه ، ولو لا ذلك لما تحرك هو لمراجعة أو استدراك ، لانه رجل أشهر ما اشتهر به قلة الاكتراث وفلسفة المعيشة الرخية وعلى الدنيا بعد ذلك السلام . فما كلف نفسه قط قراءة الصحف المعارضة أو الموالية ، وأعجب من ذلك أنه لم يكلف نفسه قراءة الدستور . . فاذا عرضت عليه حملة في إحدى الصحف على الوزارة قال : اغلقوها : اغلقوها . ونسي أن الدستور يمنع اغلاق الصحف بالوسائل الادارية ، وأن اغلاقها بهذه الوسائل مماتضيق عنه دائرة الاحتيال على النصوص ويعرض الحكومة للمطالبة بالتعويضات ، وكلما كرروا له التنبيه كرر هو النسيان ١

ولم يكتمل لوزارته في الحسكم شهران حتى كان «حزب الاتحاد» قد ظهر في عالم الوجود وظهرت له صحيفة عربية وصحيفة فرنسية بأموال ليست من أمواله على كل حال وأصبح معيار الترقية عند عمال الادارة عدد الاعضاء الذين ينضمون على أيديهم إلى حزب الاتحاد وينفضون من الهيئة الوفدية ، وأبيح لهم في ذلك كل ما يباح ، وتمادى بعضهم في حرب الدعاية لمذا الحزب ولغيره تمادياً يزري بشرف الانسان فضلاً عن شرف الموظف الأمين ، ومن أمثلة ما استباحوه في اضطهاد الوفديين فظائع الدقهلية التي عرفت بفظائع اخطاب وضجت منها أرجاء البلاد وألهبت في صدور المصريين كافة ذحو لالاينطني ملما أوار ولايرجى معها فلاح لحكومة من الحكومات ، وصدر فيها حكم القضاء على ملاحظ البوليس بالسجن خمس سنوات جزاء وصدر فيها حكم القضاء على ملاحظ البوليس بالسجن خمس سنوات جزاء الحوامل وقص شوارب الفلاحين بمقصات الحير ، واكراههم على التسمي الحوامل وقص شوارب الفلاحين بمقصات الحير ، واكراههم على التسمي بأسماء النساء ، واهراق الماء على الارض وتمريخ أنفسهم بأنفسهم في الوحل الذي صنعوه .

أما الانتخابات فقد كان الواجب أن تتم في ميعاد لا يتجاوز الشهرين على حسب نص الدستور ، وأن ينعقد المجلس الجديد في خلال الآيام العشرة

التالية ليوم الانتخاب، ولكن الوزارة تعللت بتعديل قانون الانتخاب وتنقيح الجداول للمطاولة في هذه المدة، فلم تحصل الانتخابات إلا في اليوم الثانى عشر من شهر مارس ولم ينعقد المجلس إلا في الثالث والعشرين منه ، ويكني لبيان الاساليب التي جرت عليها الانتخابات أن يعرف أن سعد زغلول أخفق في الانتخابات الثلاثينية ولم يظفر بخمسة عشر صو تاتجعله مندوباً ثلاثينياً في الحي الذي هو فيه 11 وعلى هذه الطريقة جرت الوزارة في تقسيم الدوائر حسما يروق مرشحيها وكتابة أسماء الناخبين وحذفها كما يملي أولئك المرشحون ، واقامة الحراس في الطرقات ليصدوا أناساً عن الصناديق ويدفعوا اليها بأناس أخرين ، وبعد هذا كله ظهرت النتيجة فاذا بسعد قد فاز بمائة وأحد عشر صوتاً في اليوم الأول ولا تزال في الدوائر بقية لم تظهر لها نتيجة . ثم أدَبَ النواب السعديون مأدبة لزعيمهم في فندق سميراميس فحضرها مائة وثلاثة عشر نائباً واعتذر ثلاثة بمرضهم مع تأييدهم للزعيم ، وفي هؤلا، وحدهم الكثرة اللازمة لاسقاط الوزارة المهزومة .

إلا أن الوزارة زعمت أنها هي الفائزة بالكثرة المطلقة وحسبت من أصواتها أصوات جميع الاحزاب الاخرى وهي حزب الاحرار الدستوريين وحزب الاتحاد والحزب الوطني مضافاً اليهم المستقلون وهم بطبيعة الحال لا يرجحون فريقاً على فريق إلا بعد اجتماع البرلمان والاقتراع على الثقة ، وبهذه الدعوى استقالت الوزارة لتتألف مرة أخرى من جميع الاحزاب وفاقاً لما ظهر لها من نتيجة الانتخاب ، وقال زيور باشا في خطابه إلى جلالة الملك : « لما كان البرلمان قد أوشك أن ينعقد فان الوزارة ستعلن خطتها السياسية عند تقدمها اليه ، وأني أتشرف بأن أعرض على سدتكم أسماء حضرات الوزراء الدين قبلوا معاونتي في هذه المهمة محتفظاً لنفسي بمنصب وزارة الخارجية ، وهم يحيى ابراهيم باشا لوزارة المالية واسماعيل صدقي باشا لوزارة الداخلية وموسى فؤاد باشا لوزارة الحربية ، وعبد العزيز فهمي بك لوزارة الحقائية وتوفيق

دوس بك لوزارة الزراعة ، واسماعيل سري باشا لوزارة الأشغال العمومية ويوسف قطاوي باشا لوزارة المواصلات وعلي ماهر بك لوزارة المعارف العمومية ومحمد على بك لوزارة الأوقاف.»

ومن هؤلاء الوزراء أربع من الأحرار الدستوريين ، وأربعة من الاتحاديين والبقية من المستقلين ، واحتفط زيور باشا لنفسه بوزارة الخارجية خلافاً للعرف الذي اطرد بالجمع بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية ، ودليلاً على أن وزير الداخلية لا يزال في هذه الوزارة منوطاً بمهمة خاصة في الاشراف على الانتخابات ، وتسخير الادارة في ضم الانصار وتشتيت الخصوم ، لا يضطلع بها كل وزير ولا يضطلع بها زيور باشا من باب أولى . وألحت الوزارة في دعواها إلى أن كان يوم انعقاد البرلمان وانتخاب رئيس مجلس النواب ، فلم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت باشا بأكثر من خمسة وثمانين صوتاً وبلغت أصوات سعد مائة وثلاثة وعشرين موتاً عدا صوته ، لانه انصرف قبل الاقتراع لانتخاب الرئيس .

وتأجلت الجلسة إلى المساء لاتمام انتخاب المكتب والوزارة في هذه الاثناء تعد المرسوم بحـــل مجلس النواب، للسبب الأول الذي حلته من أجله في السنة الماضية وهو الاصرار على تلك السياسة التيكانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها» 11.. وهو مناقض لنص الدستور الذي يحرم حله مرتين بسبب واحد.

وجاء المساء فدخل زيور باشا ومعه ثلة من الجنسد وقرأ المرسوم وانصرف، وكان يلتفت قبل تلاوته إلى منصة الرئاسة ليرى سعداً عليها وينعم هو وشركاؤه بما رتبوه من رؤيته نازلاً من المنصة بعد انتصار الصباح، ولكنه كان قد سمع بالمناورة قبل إنجازها ببضع دقائق فترك المنصة إلى حجرة الرئاسة ولم يعد إلا في أثناء تلاوة المرسوم.

غاية ما يقال في تلخيص الحرب الانتخابية في هذه المرة أنهاكانت حربًا

بين من استفادوا بحادثة السردار، ومن أصيبوا بهذه الحادثة ومنهم الأمة بحذافيرها ، فلا جرم أن تكون الأمة في الجانب الذي ينبغي أن تكون فيه ولا يعقل أن تنحاز إلى غيره . ومن خطأ اللورد اللنبي وحلفائه أنهم قدروا للانتخابات المصرية ما لا غير هذا الما لل

ويظهر أن إقالة اللورد اللنبي عقب الخطأ الفاحش الذي ارتكبه في الانذار النهائي كانت أمراً مبتوتاً فيه منذ أوائل العام ، ولكنهم أجلوه في الوزارة البريطانية ريثها تنجلي المعركة الانتخابية عن مصيرها ، خوفًا على أصدقائه الوزراء المصريين من الفشل والهزيمة من جراء تلك الاقالة أو الاستقالة ، وأملاً في الظفر من وراء الانتخابات بمجلسنيا في يساعده ويتوج سياسة التصريح — تصريح ٢٨ فبراير — بالنجاح . ولكن الانتخابات أسفرت عن خيبة جديدة وتقويض لسياسة الرجل لا أمل بعده في الترميم والتلفيق . فعادت الصحف الانجليزية تتحدث باستقالته وهو ينفيها في القاهرة ويوعز إلى الصحف الاحتلالية بتكذيبها . وتحققت الاشاعة بعد أسابيع ، فأبلغها اللورد اللنبي إلى جلالة الملك في التاسع عشر من شهر مايو ، وغادر البلاد بعد أيام .

* * *

إن السياسة المصرية - على التخصيص بين السياسات العالمية - لا تتغير لسبب واحد . ولكننا إذا أردنا أن نعرف لها قاعدة واحدة تشكر في جميع التغييرات الهامة فالأغلب أن الانجليز يشرعون في التغيير كلما انحصر النفوذ في ناحية واحدة سواء أكانت ناحية القصر أم ناحية الأمة . وعلى هذا غيروا سياسة الوفاق بعد ما تبين لهم في عهد السير الدون غورست أن نفوذ الحديوي عباس ينبسط في أنحاء الأمة والحكومة ، وغيروا سياسة الحكم الدستوري بعد ما تبين لهم أنه يقوي سعدًا ولا يضعفه كما كانوا يقدرون . وأنشأوا حكومة زيور وهم يظنون أنها حكومة متزنة يتعارض فيها نفوذ القصر

ونفوذ الأحرار الدستوريين . وأن هؤلاء جميعاً يسلطون نفوذهم على سعد زغلول. فلا يرجح جانب على جانب من نفوذ الآمة أو نفوذ القصر أو نفوذ الوزارة . . . فسرعان ما ظهر لهم أن تعطيل الدستور قد حصر النفوذ بأيدي القصر وهيأ له أن يستبقيه بين يديه في غياب الدستور وفي وجود الدستور وانكشف لهم ما وراء إنشاء حزب الاتحاد من المقاصد والتدبيرات . . . ان الانتخاب الأول بعد استقالة سعد قد اشترك فيه الاتحاديون والدستوريون من جماعة الوزراء . أما الانتخاب الثاني فلن يتسع لحزب غير الاتحاديين لأنهم سيوحدون فيهم جميع الاحزاب . !!

وبرزت هذه النية بعد تشكيل الوزارة الزيورية الثانية وانطلاق حسن نشأت باشا وكيل القصر الملكي في السيطرة على دواوين القاهرة وفروع الاقاليم. فكانت أوامره تصدر إلى المأمورين في المراكز مباشرة بغير وساطة الوزير أو المدير ، وكانت أوامر الوزراء تلغى ولا تطاع ، ولم يلبث الاشتراك أن أفضى إلى الاحتكاك بين الاحزاب وبين أشخاص الوزراء ، ثم سنحت الفرصة أخيراً للخلاص من الدستوريين بضربة واحدة ترمي إلى هدفين . فقد ألف الاستاذ على عبدالرزاق — وهو عالم ديني من أبناء بيوتهم الكبيرة — رسالة في الاسلام وأصول الحمرا أدحض بها القول القائل بوجوب الخلافة في الاسلام ، فاهتم الاتحاديون بتجريد هذا العالم من صفة العالمية لان تجريده يرضي القصر بما يقتص من رجل يعوق مسعاه إلى الخلافة ، ويرضيه من يرضي القصر بما يحرج الاحرار الدستوريين ويضطرهم إلى اعتزال الحكومة . يرضي التجريد واستقال الوزراء من الاحرار الدستوريين ، واستعـد فتم هذا التجريد واستقال الوزراء من الاحرار الدستوريين ، واستعـد الاتحاديون لخوض معركة الانتخاب منفردين .

فلما وصل السير — اللوردجورج لويدخلف اللورداللنبي — إلى مصر وصل وله وجهة مرسومة في السياسة المصرية لا يطول فيهـــا التردد والخياة النيابية والاضطراب. نفوذ القصريجب أن يقف عند حد محدود. والحياة النيابية

يجب ان تعود، ولكن هل تعود الحياة النيابية ليعود سعد زغلول إلى نفوذه الحكومي القديم ؟ كلا . بل تعود الحياة النيابية في برلمان مؤتلف من جميع الأحزاب . فيحول البرلمان دون انفراد القصر بالسلطان ، ويحول الائتلاف دون انفراد سعد بالوزارة والبرلمان . ولا ينحصر النفوذ في يد واحدة من أيدى المصريين ...

وفي الوقت الذي كانت فيه السياسة البريطانية تنجه إلى هذا الاتجاه كانت الأحزاب المصرية تشعر بالخطر الواحد يهددها جميعاً وتعلم أن لا نجاة لها بغير الائتلاف. فتحدث رجالها في توحيد الصفوف وتزاوروا لتقريب ما بينهم من شقة الخلاف، وأزف موعد انعقاد البرلمان بحكم الدستور في السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فعول الاعضاء على الاجتماع مدعوين أوغير مدعوين ، وأعلنت الوزارة أنها تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان أو في مكان آخر واحتلت دار النيابة بنحو ألفين من الجنود. ولكن النواب مكان آخر واحتلت دار النيابة بنحو ألفين من الجنود . ولكن النواب والشيوخ اجتمعوا في فندق الكنتنتال وبانوا من أجل ذلك في الفندق لكي لا يحال بينهم وبين دخوله في الصباح. ومن ظرائف زيور باشا أنه ـ وهو يسكن ذلك الفندق ـ لم يدر بماكان بجري فيه واستغر ب هذه الضجة هناك يسكن ذلك الفندق ـ لم يدر بماكان بجري فيه واستغر ب هذه الضجة هناك على خلاف المألوف !

وافتتحت الجلسة قبل الظهر فانتخب سعد رئيساً ثمم أصدر المجلسان قراراً بالاحتجاج على تصرفات الوزارة وعلى منع الاعضا. من الاجتماع في دار البرلمان بقوة السلاح، وباعتبار دور الانعقادموجودًا قانوناً واستمرار اجتماعات المجلس في المواعيد والأمكنة التي يتفق عليها الاعضا..»

ثم ندب الحاضرون وفيداً من حضرات فتح الله بركات باشا ومحمد محمود باشا وعبدالحميد سعيـد أفندي لرفع القرار إلى جلالة الملك وتبليغه إلى الوزارة .

أما الوزارة فقدكان كل ما وسعما بعد هذا الاجتماع أنهاكتبت إلى

مفتش الجيش العام تلفته إلى مسلك الضباط والجند الذين أدوا التحية العسكرية لسعد وهو يمر بمجلس النواب في طريقه من بيت الأمة إلى فندق الكنتنال.!

وقد اجتمع أصحاب السمو الامراء بعد اجتماع البرلمان واتفقوا على كتابة عريضة إلى جلالة الملك يؤيدون فيها إعادة الحياة النيابية اجابة اقرار الشيوخ والنواب.

وبين هـذه الما آزق التي لا تعيش معهـا وزارة في بلد مستقل لم ينقطع رجاء الوزارة الزيورية في التعمير وحكم البلاد بالدستور أو بغير الدستور بل راحت تشرع القوانين لفض الأحزاب وتمحو وتثبت في قانون الانتخاب ، وعندها أنها بخير ما دامت لا تسمع من الانجليز شراً ولا تحس منهم نفوراً ، والانجليز لم يسمعوها الشر ولم يشعروها النفور لأنهم كانوا ينتظرون منها الخدمة الأخيرة وهي تسليم جغبوب الى الحكومة الايطالية ، فسلمتها ووقعت المعاهدة في سادس ديسمبر ، وظنت أنهاقدا شترت البقاء من الانجليز بهذا الثمن الفادح ، ولم تدر أنها قد ختمت بيديها على كتاب موتها وكتبت وصيتها حين كتبت تلك الوثيقة -

فني اليوم السادس أمضيت المعاهدة وفي اليوم الثامن قابل اللورد جورج لويد جلالة الملك وطلب إلى جلالته اقصاء حسن نشأت باشا عن القصر، متذرعاً بما حام حول اسمه من الأقاويل في قضية مقتل السردار ، فأجيب إلى طلبه بعد ممانعة قصيرة الأجل، وأقصى نشأت باشا إلى وظيفة في السلك السياسى لم تكن مما يرتضيه .

وقد استمرالتحدي والنضال بين الوزارة والاحزاب فاجمعت الأحزاب على تجاهل قوانينها وأضرب العمد عن تنفيذ قانون الانتخاب وحكم القضاء ببراء تهم حين أحيلوا اليه بتهمة عصيان القوانين ومخالفة الأوامر . وازداد التقارب بين الاحزاب بهذه الوحدة بينها في محاربة الوزارة فكان أقوى مظاهرها

مأدبة النادي السعدي التي أدبها سعد للنواب والشيوخ على اختلاف أحزابهم «ليتم التعارف بينهم ويزول ما يكون في نفوس بعضهم لبعض من نفرة وجفاء ويحل مكانهما ما تقضي به روح التسامح من عطف وولا..»

مم أعلنت الأحزاب في أوائل السنة الجديدة (١٩٢٦) اجماعها على مقاطعة الانتخابات على غير القانون الذي تريده ، وخطا الزعاء خطوة أخرى في سبيل الوفاق فزار معظمهم بيت الأمة ورد لهم سعد الزيارة في بيوتهم ، واتفقوا على الدعوة إلى مؤتمر وطني يجمع الوزراء السابقين والشيوخ والنواب ورجال الأحزاب وأعضاء مجالس المديريات والمجالس المحلية وسائر الجماعات التمثيلية في القطر كله ، ليقنعوا الوزارة باجماع المرشحين على مقاطعة الانتخابات حسب قانونها الجديد . فعجلت الوزارة قبل انعقاد المؤتمر باجابة طاب الاحزاب (في ١٨ فبراير) وبلغته إلى المؤتمرين ، وقالت في بلاغها إنه « توخياً لحظة الاتفاق التي سلكتها الحكومة الحاضرة في أعمالها على الدوام وابتغاء التعجيل باجتماع البرلمان قرر مجلس الوزراء في مساء هذا اليوم أن يعرض مشروع مرسوم على حضرة صاحب الجلالة الملك للتصديق على يعرض مشروع مرسوم على حضرة صاحب الجلالة الملك للتصديق على المقانون الانتخابات الصادر في ١٨ ديسمبرسنة ١٩٧٥ واجراء إيقاف العمل بقانون الانتخابات الصادر في ١٨ ديسمبرسنة ١٩٧٥ واجراء الانتخابات على مقتضى القانون نمرة ٤ لسنة ١٩٧٤»

أما المؤتمر الوطني فقد التأم في اليوم التالي بمنزل محمد محمود باشا، وجلس سعد على منصة الخطابة وعلى يمينه عدلي وعلى يساره ثروت. ثم تكلم في الحالة العامة فلخصها تلخيصاً سريعاً منذاستقالت وزارته إلى قبول الوزارة الزيورية قانون الانتخاب المباشر الذي يرضاه الوفديون و لا ترضاه الاحزاب الاخرى ... وأشار إلى أن الوزارة عجات بقبوله لتوقع الشقاق بين الاحزاب قبل انعقاد المؤتمر ، فقال في ختام خطابه ليقضي على رجائها هذا : «اذاعو ابأن الانتخاب على أساس ذلك القانون أريد به إيقاع الشقاق بين الاحزاب المؤتلفة لتنحل على أساس ذلك القانون أريد به إيقاع الشقاق بين الاحزاب المؤتلفة لتنحل

رابطتهم و تنقسم وحدتهم ، ولكنهم واهمون في زعمهم لأن الاتحاد متين بين هذه الأحزاب.»

ثم دارت مناقشة طويلة في دخول الانتخابات أو عدم دخولها اعتماداً على أن المجلس القديم قائم والحل باطل ، فاتفق الحاضرون على دخولها ما عدا أربعة ، وتلي عليهم اقتراح فحواه المطالبة باقامة وزارة موثوق بها للاشراف عليها . ثم انفضت جلسة المؤتمر بعد تأليف لجنة من الاحزاب المختلفة لانفاذ القرارات وبحث المقترحات.

على أن الوزارة لم تستقل ولم يصر المؤتمرون على استقالتها لعلمهم بعجزها عن مقاومة الآحراب المؤتلفة في المعركة الانتخابية ، واكتفوا باستعجال يوم الانتخاب فصدر المرسوم بدعوة الناخبين في اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو لانتخاب أعضام مجلس النواب ... وليس في المرسوم موعد لانعقاد السلمان 1

وكانت الاحزاب قد تفاهمت مع الوفد المصري على الدوائر التي يتركها لها ولا يرشح فيها أحداً من أنصاره . فلماكان يوم الانتخاب أسفرت النتيجة عن انتخاب مائة وخمسة وستين وفديّاً وتسعة وعشرين حرَّا دستوريّاً وخمسة من الحزب الوطني وستةمن المستقلين وخمسة من الاتحاديين النح ...

* *

على هذا وجب أن يدعى سعد باشا لتأليف الوزارةالدستورية . ولكن الوزارة الزيورية لم تستقل ، وهي لم تعلن من قبل ذلك موعداً نعقاد البرلمان... فهل قصدت اغفاله لانه كان من الجائز عندها أو عند من أوعزوا اليها أن يحصل الانتخاب ولا يحصل الانعقاد أو يحصل ولكن بشروط ؟؟

تداولت الالسن أن زيورباشا فانح اللورد جورج لويدفي أمر الاستقالة بعد الانتخاب تواً فاستمهله بضعة أيام ريثها يتم الاتفاق على اختيار الحلف، وتحقق أن الانجليز يريدون عدلي يكن ولا يريدون سعد زغلول في رنا سة الوزارة ، وتقابل سعد وجورج لويدفي هذهالأثناء فسأله جورج لويد : هل ينضم عدلي إلى وزارتك إذا ألفتها ؟ قال سعد . أعتقد ذلك . فقال جورج لويد : « ولكن الاحساس الذي عندي لا يسمح لي بهذا الاعتقاد ! »

غير أن سعدًا هو زعيم الكثرة الغالبة على الرغم من تجاوزه عن بعض الدوائر في الانتخابات ، فكيف السبيل إلى منعه بمشيئة حكومة اجنبية أن يلي الوزارة الدستورية ؟

لاسبيل إلى ذلك لو جرت الأمور في حدود الصراحة، ولكن قضية الاغتيالات السياسية باقية ، ولا تزال فيها بقية صالحة للاستغلال · فلتكن هذه القضية إذن وسيلة امتناعه من تأليف الوزارة ، كما كانت قضية مثلها بالأمس وسيلة اعتزاله الوزارة وهو قائم فيها.

أصدرت محكمة الجنايات حكمها في قضية الاغتيالات السياسية اليوم الحنامس والعشرين من شهر مايو (١٩٢٦) فقضت « بالنسبة لمحمود أفندي عثمان مصطفى والحاج احمد جاد الله ، والدكتور احمد ماهر ، والاستاذ محمود فهمي النقراشي ، والاستاذ حسن كامل الشيشيني ، وعبد الحليم البيلي بك ببراءتهم من التهمة التي نسبت إليهم وبالافراج عنهم فوراً إلا إذا كانوا محبوسين رهن قضايا أخرى.»

وعلى ذلك يكون اتهام الوفد بتدبير هذه الجنايات باطلاً بحكم القضاء كما بطل من قبل ذلك اتهامه بتدبير مقتل السردار ، لأن الرجلين البارزين من رجال الوفد اللذين كانا بين المتهمين — وهما الاســـتاذان ماهر والنقراشي — قد برئا من التهمة ، ولم تعد للوفد صلة بهذه القضايا على جميع الاعتبارات .

إلا أن ما يبطل بحكم العقل أو يبطل بحكم القضاء قد تشاء السياسة أن لا تبطله فيكون لها الحـكم النافذ متى كان من ورائها الجيوش والأساطيل.

فبعد أسبوع من صدور الحـكم ــ أي بعد قيام مشكلة الوزارة ــ

كتب مستركرشو أحد القضاة الثلاثة الذين كانوا في محكمة الجنايات خطابا إلى وزير الحقانية استهله بقوله:

«آسف لاضطراري إلى إبلاغ معاليكم أنني - بعد مداولة مع زميلي دامت خمسة أيام - أجدني لا أستطيع الموافقة على الحمكم الصادر في قضية محمد فهمي على وآخرين إلا فيا يتعلق بمحمد فهمي على المحكوم باعدامه ، ومجمود فهمي النقراشي المحكوم ببراءته وعبد الحليم البيلي المحكوم ببراءته . فإن الأدلة على الاثنين الاخيرين كانت غير كافية ، أما باقي الحكم فهو لزميلي وعندي أن حكم البراءة في تهمة محمود عثمان مصطفى والحاج احمد جاد الله واحمد ماهر وحسن كامل الشيشيني يناقض وزن الأدلة إلى حد الاخلال بتنفيذ العدالة . وقد بلغت خطورة هذا الاخلال في رأيي وخطورة النتائج التي تنجم عنه حدًا جعلني أعتبر أن من واجبي الخروج في هذه الحالة على مبدأ المحافظة على سر المداولة وتوجهت بعد إصدار الحمكم إلى دار المندوب السامي فأطلعت فخامته على رأيي باعتباره حامياً للاجانب.»

ويرى من هذا الخطاب أن مستر كرشو خالف أمانة القضاء ، وأنه قاض واحد من ثلاثة قضاة ، وأنه نسي أنه قاض مصري لاشأن له بدعوى المندوب السامي في المسائل السياسية ، ومع هذا كان من رأي الحكومة البريطانية أن حكمه وحده هو الحكم الصحيح وأن ماعداه لغو لا يجوز الاستناد اليه . فكتب اللورد جورج لويد إلى زيور باشا بلاغاً يعلنه فيه : « بأن حكومته حسب النصيحة المقدمة إليها في الوقت الحاضر ترفض أن تعتبر الحكم دليلاً على براءة الاربعة المذكورين كاثنة ما كانت الاسباب التي بناه عليها القاضان المصريان.»

وسيلة صالحة ــ سواءكانت حسنة أو غير حسنة ــ لاستغلال القضايا في الازمات السياسية . فاذا ألف سعد الوزارة فهناك هذا البلاغ كفيل بخلق المشكلات وإكراه الوزارة على الاعتزال العاجل ، لآنه قد يؤدي إلى قبض السلطة البريطانية على « الأربعة المذكورين » وإعنات الحكومة الجديدة إعناتًا لاحيلة فيه إلا أن تطلق أولئك السجناء وهي لاقوة لها على إطلاقهم ، أو تستقيل .

هذا إذاألف سعد الوزارة . أما إذا ألفها غيره فلا ضرورة لاتخاذ عمل من الاعمال ولا خطر من الاخلال بتنفيذ العدالة وتبرئة الجناة : !

وهكذا كان. فان سعداً تنحى عن الوزارة وعدلي يكن ألفها ، فلم يسمع أحد بعد ذلك بخبر لذلك البلاغ ، أو ذلك الانذار ، ونفعت قضايا الاغتيال سياسة الاستعار نفعها السريع في إقصاء سعد زغلول عن الحكومة .

والواقع أن سعداً لم يكن يأبى أن يتولى عدبي تأليف الوزارة ، وأنه صرح بذلك لبعض أصحابه قبل الانتخابات وبعد الانتخابات ، ولكنه بعد الانباء التي نشرتها الصحف الانجليزية وصحف القصر في مصر بأنه مرغم على ذلك وأنه لن يتولى الوزارة أبد الآبدين لأن حزبه متهم في مقتل السردار وغيره من الانجليز أحب أن يكشف الرياء حول هذه المسألة كلها ، ولاسيا وقد صدر الحمكم ببراءة الاستاذين ماهر والنقراشي من كل تهمة . فاذا شاء الانجليز أن يقصوه عن الحمكم فليظهروا بعد ذلك بالسبب الصحيح من مقاصدهم السياسية المكشوفة ، لا بما يتعللون به من التعلات .

فلما حدثت الأزمة وانكشفت الحيلة كلما تنحى عن الوزارة ورجع إلى الرأي الذي ارتضاه أولاً وصارح به أصحابه وهو إسناد الوزارة إلى عدلى باشا واختيار أعضائها من النواب والشيو خ المؤتلفين.

والرأي عندنا في موقف سعد من تأليف الوزارة في هذه المرحلة أن ولايته الوزارة لم تكن ضرورة لازمة ولم يكن فيهاكذلك ضرر محذور على المصالح الوطنية لولا تلك الأزمة التي خلقها اللورد جورج لويد في آخر لحظة ، وعلى هذا لا ملامة عليه في طلها ولا في التنحى عنها

أما تأليف الوزارة العدلية الجديدة فكان على النحو الآتي:

عدلي يكن باشا للرئاسة والداخلية · وعبد الحالق ثروت باشا للخارجية ومحمد فتح بركات باشاللزراعة ، ومحمد الغرابلي باشا للاوقاف وأحمد محمد خشبة بك للحربية والبحرية ، ومحمد محمود باشا للمواصلات ، وأحمد زكي أبو السعود باشا للحقانية ، ومرقس حنا باشا للمالية ، وعلي الشمسي أفندي للمعارف العمومية ، وعثمان محرم بك للأشغال العمومية .

ومن تأليفها على هذا النحو يبدو لنا مقدار التساهل الذي ارتضاه سعد لرعاية الائتلاف ، إذ لم يكن في هذه الوزارة أكثر من خمسة وزراء على اتصال صحيح بالوفد ، والباقون كلهم من غير الوفديين . ولم يعهد بوزارة هامة إلى أحد من وزراء حزب الكثرة ، وهم أكثر من ثلاثة أرباع النواب .

وقد وصف سعد هذه الوزارة بأنها وزارة « اندماج Amalgam ation لا وزارة ائتلاف Coalition . كما شاع اسمها في الصحف وأروقة البرلمان، فدل بذلك على نظره البعيد و تفريقه الدقيق بين الأوضاع البرلمانية ، فان وزارة الائتلاف قد أقيلت اقالة بعد بضعة عشر شهراً لخروج حزب القلة منها ؛ وليس خروج القلة بالعذر الصالح لاقالة الوزارة لو كانت وزارة اندماج في حزب الكثرة النيابية .

投收数

رأيت سعداً في أوقات كثيرة منذ قيامه بالدعوة الوطنية ، فما أعرف وقتا تسرب فيه السأم والتعب إلى بنيته وإلى نفسه كما كان يتسرب أحياناً خلال الفترة من مقتل السردار إلى عودة الحياة النيابية .

كانت هذه الفترة أقل أوقاته حركة ولهذا كانت أكثرها سأماً وتعباً ، وكان قصارى ما اهتدى اليه خصومه من محاربته أن يحاصروه في بيت الامة بالجند والسلاح ويمنعوا وفود الناس اليه ، فكان يراقب الحالة على بعدد ولا يُملك النهوض لها بجهد من جهوده . . . وكان يؤلمه في الوقت نفسه أن

يستطيع الموظفون الاداريون كل مااجتر حوه من ارهاق الناس واستفزازهم دون أن ينالهم جزاؤهم الذي يستحقونه ، وفي أكثر الآيام كان يسأل : ما الذي يوغر صدور هؤلاء الموظفين على الآمة ؟ وما الذي يبغضهم في اپام الوزارة الشعبية ؟ وقد قلت له يوماً انهم تعودوا أن يكونوا طول حياتهم مأمورين وآمرين . ووزارة الشعب فرضت لهم حرية وفرضت للناس حرية فلاهم مأمورون ولاهم آمرون . ولو عرفوا أنها دائمة لخافوها وعلقوا رجاءهم برضائها . ولكنهم لا يحسبونها تدوم . . . قال لا يبعد أن يكون كذاك . فقد كنا نعامل هؤلاء الموظفين معاملة الشركاء في الحكومة ولا نعاملهم معاملة الآلات ، وكنا ننتظر منهم غيرة وطنية ولا ننتظر منهم طاعة عمياء . فوجدوا غير ما تعودوه .

وذات ليلة كان يسأل: ما الذي يبعث القوة في الشعب ؟ وكنا ثلاثة على مائدته: محامياً معروفاً والاستاذ عبد القادر حمزة وكاتب هذه السطور. فقال المحامى وظن أنه برضيه بما قال:

ياباشا كلمة منك تبعث فيه القوة ...كلمة منك تبث فيه الحياة الفتية ... واسترسل في مثل هذا الكلام .

فنظر اليه سعدهنيمة ثم قال: ماهذا ؟ أتريد أن تخطب؟ أتريدأن تتحمس؟ طيب: تفضل اخطب وتحمس. وانتظر من يسمع.

وكانت نفسه برمة جداً بمن يعبثون بهذا الموضوع لأنه كان مهموماً به لا يطيق الهزل فيه . بل كثيراً ماسمعته يتضجر في تلك الآيام من حب النكتة في الطبيعة المصرية ويقول : لولا إن المصريين يضحكون من زيور وغرائبه لما احتملوه هذا الزمن الطويل .

وفي أوائل هذه الفترة زرته بفندق « مينا هوس» وكان يأوي إليه أحياناً أيام الشتاء . فرأيته كثيرالتفكير كما يكون حين يلتبس عليه وجه العمل وطريق الحركة : وسألني وهو ينظر الى الصحف على مقربة منه : ماذا يقولون ؟ قلت: وماذا غير قولتهم المعهودة الإن سعداً ترك الميدان واستقال اا قال لو بقيت في الحـكم لقالوا إنه يخرب البلد تشبثاً بالمنصب هؤلاء لا يعتد لهم بكلام .

ثم نشط كعادته حين ينبعث الكلام في موضوع نضال بينه وبينخصومه ومضى يقول: وهذه الصحف الانجليزية ما بالها تمسي وتصبح وهي تلفط بزغلول؟ . . . إن زغلولاً يدبر إن زغلول . نعم ياهؤلاء انكم لن تستريحوا من زغلول.

وهكذا كان في هذه الفترة يسأم ويتعب ويخيل الى من رآه انه يهم بأن ينفص يديه . ثم يتحداه متحد فاذا هو واقف على قدميه لا يسره أن يستريح منه الخصوم .

رئاسة مجلس النواب

كانت رئاسة مظلوم باشا لمجلس النواب الأول مشهورة بضرب الجرس لحفط النظام . بحيث يصح أن يقال ان الجلسات _ مالم يحضرها رئيس الوزارة أو تحتدم فيها المناقشة لأمر يشغل النواب _ كانت مقسومة بين لغط الرئيس بدق الجرس ولغط النواب بالكلام .

وأذكر أن زميلنا الاستاذ محمود عزمي حرمه مجلس النواب تذكرته التي يحضر بها المجلس لما كان يكتبه عنه من القوارص والغمزات. فانتقل الى مجلس الشيوخ واستمر على نشر أخبار مجلس النواب وهو يزعم انه يتلق تلك الاخبار من طريق المكاشفة والتنويم إ فلقيته يوماً بمجلس الشيوخ وسألته أن ينا معجزة من معجزاته على سبيل المداعبة . . . فيذكر لناما يحري الساعة في المجلس الآخر ، فهام بنظره قليلاً كانما كان يستطلع الغيب وقال : مظاوم باشا يدق الجرس . . . اقلنا جميعاً : آمنا لك بالمكاشفة ما في ذلك جدال إ يدق الجرس . . . اقلنا جميعاً : آمنا لك بالمكاشفة ما في ذلك جدال الله المجلس في العهدين ان الجرس قد أصبح من الادوات النيابية الملغاة . وكان الإجانب والمصريون على السواء يقولون : ليس هنا مجلس ورئيس ، ولكنه معلم محبوب بين تلاميذ مطيعين .

ولم يكن سعد يستعين في حفظ النظام بنصوص القانون ولا بحق الرئاسة في منع الدكلام وفض المناقشات . انما كان يستعين بسلطان هو أشد رهبة من جميع النصوص والحقوق وهو سلطان العارضة القوية والفكاهة الحاضرة ، فكان العضو من الأعضاء يقول قولاً سديدًا أو يصمت . لانه يخشى إذا أطلق لسانه بغير السداد أن يستهدف على الأثر لجواب مفحم أو نكتة لاذعة من منصة الرئاسة .

حدث لما ذهب ثروت باشا إلى لندن لمصاحبة جلالة الملك والتماس الفرصة الملائمة لفتح باب المفاوضة في القضية المصرية أن عضواً من الاعضاء الذين يخالفون مبدأ المفاوضة من أساسه وجه استجواباً إلى نائب رئيس الوزارة يستوضح فيه موقف ثروت باشا في لندن ويحرج الوزارة احراجاً لاتملك الجواب فيه، لأن المفاوضة لم تكن هي الغرض الرسمي لسفر ثروت باشا وإنما كانت بغية متفقاً عليها بين ولاة الامريرجي أن تتاح لها الفرصة الملائمة بعد جس النبض واستطلاع الاحوال . فاذا قالت الوزارة — رداً على الاستجواب — إنها ستفاوض أو أنها لاتفاوض فليس في ذلك تسهيل لما كانت تنويه .

وألح كثير من الاعضاء على صاحب الاستجواب أن يلغي استجوابه فلم يفعل ولم يستمع وجنح إلى الاحراج والعناد وأشار الوزراء بالمطاولة والمراوغة في عرض الاستجواب فأبى عليهم سعد أن يخالف نظام المجلس، وقال لهم : بل يعرض الاستجواب ، ونعالجه بماريستحقه الاحراج والعناد وجاء الموعد المحدود و تلي الاستجواب ، وانتظر العضو المحترم جواب الوزارة وهو موقن بأنه قد وضعما في الفخ الذي لاخلاص منه بغير احباط المفاوضات . ولكنه لم يكد يتهيأ لسماع الجواب المأمول حتى فاجأه وزير الحربية — باتفاق سابق مع سعد — قائلاً : إن هذا الاستجواب موجه إلى شخص غير موجود .

وقال سعد: ماقول حضرة العضو المحترم في ذلك به في الواقع أنه لانائب لجلالة الملك ولا لرئيس مجلس الوزراء إ فسأل صاحب الاستجواب: أيؤخذ من ذلك أن الحكومة لا تريد أن تجيب ؟ فقال سيعد: ليست المسألة مسألة ارادة أو عدم ارادة وإني ألفت حضرة العضو فضلاً عما ذكرته الى أن الاستجواب يحتاج إلى ثمانية أيام حتى لو كان مستوفياً جميع الشروط، والدورة البرلمانية على وشك الانتهاء. فهل لايرى العضو المحترم أن تأجيله أولى؟

أما سر الغلطة في شكل الاستجواب فهو كما رأى القاري. انه كان موجهاً إلى « نائب رئيس الوزراء » ولم يصدر عند سفر ثروت باشا أمر رسمي بانابة أحد عنه في رئاسة الوزارة ! اكتفاء بأن يؤدي عمله في وزارة الداخلية أقدم الوزراء الموجودين عهداً بالمناصب الوزارية .

قال صاحبنا: كيف ؟ أليس هنا فلان باشا؟

فقال سعد: نعم . ولكنه ليس بنائب رئيس الوزراء ١

فتردد صاحبنا وصاح مذهولاً : إذن من نسأل؟

قال سعد: إسأل محامياً!

وقعد الرجل بين القهقهة والضجيج ، و تأجل الاستجواب الى موعد غير مسمى بموافقة العضو المحترم 1

و تناقش المجلس في قانون خلط الاقطان ، وفيه عقوبة مفروضة على من يخلطون صنفاً منها بصنف . فنهض أحد الاعضاء وقال :

ولكن ألا يتفق أن يسهو أحد فيحصل الخلط على غير قصد منه؟

فضحك سعد سحكته المعروفة وقال.: نعم ياحضرة العضو المحترم! يتفق! ولكن أتقدر حضرتك أن تقول لنا: كم كيساً من القطن تملأه وأنت ساه عن نفسك؟!

وبهذه الأجوبة الحاسمة وهذه الفكاهة السريعة ، كان يحفظ النظام في المجلس ومحفظ الالسنة في الأفواه فلا تنطق الابما يفيد .

واستطاع من ثم أن يقف في ميدان الفصل بين جميع السلطات وجميع المهيئات ، فيفصل بين الأعضاء من أنصاره ومعارضيه ، ويفصل بين المجلس والوزارة ، ويفصدل بين الوزارة والانجليز ، ويمشي بالوئام بين القصر والنواب والوزراء ، ويأخذ من كل لكل حسبا تتجه الحوادث ، وتتبدل الأحوال .

ومن أخطر الأزمات التي وقعت في أثناء رئاسته لمجلس النواب وعالجها بماله من النفوذ والحنكة أزمة الوزارة العدلية ، وأزمة ميزانية الأزهر ، والمخصصات الملكية ، وأزمة الجيش التي أثارها اللورد جورج لويد عقب الحملة التي حملها عليه مجلس النواب .

فأما أزمة الوزارة العدلية فقد نجمت من اقتراح اقترحه بعض النواب لشكر الوزارة على مساعدتها بنك مصر ثم قيل في الرد على هذا الاقتراح إن الشكر غير لازم لأنه من قبيل تحصيل الحاصـــل. فاغتنم عدلي باشا هذه المناسبة واستقال لأنه كان على ضجر وامتعاض من مطالب اللورد جورج لويد التي لا تجري على قانون ولا اتفاق ، وفي مقدمتها مطالبته الدائمة بتعيين موظفين من الانجليز.

وبذل سعد باشا زغلول جهده في اقامة وزارة أخرى سهي الوزارة الثروتية سوبذل أن يتسع الافق للدسائس والمناورات التي لاتنقطع في السياسة المصرية .

والذي نعتقده نحن أنأزمة الوزارة العدلية وافقت رضى من سعد في تلك الآونة لانه لم يستحسن من عدلي تهديده بالاستقالة اذا تعرض المجلس لتصر فه في مسألة كتاب « الشعر الجاهلي » للدكتورطه حسين ولم يكل اليه الرأي كله في هذا التصرف . وقد كان علي الشمسي باشا وزير المعارف من قبل الوفد وكان رأيه كرأي عدلي باشا في هذه المسألة على خلاف المظنون والمقدور ، فكان نصيبه أيضاً من المجلس تجريح قوانينه التي عرضها لتعديل برامج الدراسة وافهامه من ثم أن اضطرار وزير الى الاستقالة أمر غير عسير ، ولو دخل في حماية رئيس الوزراء وحسب له حساباً قبل حسابه لزعيمه .

وسلك سعد في مسألة ميزانية الازهر ومسألةالمخصصات الملكيةمسلك المجاملة للقصر مع المحافظة على نص الدستور . فقدكان كثير من النواب يلحون في وجوب عرض الميزانية الازهرية على المجلس وكان المجلس يكاد أن

يتخذ قراراً بتأييد هذا الطلب · فذكر لهم سعد أن الدستور ينص على أن المعاهد الدينية تنظم بقانون . فالاقتراح سابق لأوانه قبل وضع ذلك القانون . وفي مسألة المخصصات الملكية كان بعض الأعضاء ينسى الدستورويطالب الحكومة بنقصها في الميزانية وهو مالا يجوز لانه مخالف للمادة المائة والحادية والستين من الدستور ، فكان سعد يسمح للأعضاء بالمناقشة في هذه المسألة ويمنع الشطط فيها ، ويكتني بتوجيه المجلس إلى التماس تعديل المخصصات من جلالة الملك رعاية للاقتصاد . ويصبغ احترام النصوص التي لامحيص من جلالة الملك رعاية للاقتصاد . ويصبغ احترام النصوص التي لامحيص

أما أزمة الجيش فهي أعجب الأزمات وأدلها على العنت الذي يلقاه الساسة المصريون من ألاعيب السياسة البريطانية حيث تعمد الى خلق الأزمات. فكل ما حدث من أسباب هذه الأزمة أن لجنة الحربية في مجلس النواب اقترحت زيادة عدد الجيش وتحسين سلاحه ، وهو اقتراح قديم عرضه سبنكس باشا نفسه في عطلة الدستور وليس فيه خروج على حدود النيابة ولا سوابق الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية .

عنها بصيغة المجاملة على هذا المنوال

إلا أن المندوب السامي كان موتوراً من المجلس ومن الشعب لأنهم استنكروا منه أن يباشر عمله دون أن يقدم أوراقه كسائر السفراء والوزراء المفوضين، كا استنكر وارحلاته في الاقاليم واستقباله الاعيان والوجها ، والموظفين كأنه ملك يستقبل رعاياه ، وليس للمجلس بد من هذا الاستنكار لأن سكوته عنه أمر غير مفهوم إلا على معنى الاقرار والتفريط في أمانته الوطنية وأمانته الدستورية، ولكن اللورد جورج لويد لا يعرف عذراً لاحد في معارضة أهوائه وبدواته ، ولا يرى للمصريين - حكومة ونواباً وشعباً ومتطرفين ومعتدلين - إلا أن يذعنوا لتلك الاهواء والبدوات . . . فكظمها في صدره حتى سنحت مناسبة يذعنوا لتلك الاهواء والبدوات . . . وراح يمطر الحكومة المصرية باحتجاجاته الشفوية والكتابية ، ويطلب منها مالا طاقة لحكومة في الدنيا بقبوله وهو

مد خدمة سبنكس باشا ثلاث سنوات ومنحه رتبة الفريق وتخويله السيطرة على الضباط في الترقية والتعيين واتصاله المباشر بجلالة الملك وتعيين وكيل له ووكيل للوكيل من الانجليز إ وغير ذلك من المطالب التي أقلقت الحكومة والمجلس وأضاعت عليهما الوقت في غير طائل: فان خضعت الحكومة لهذا والا فالبوارج البريطانية على شواطيء الاسكندرية وأرواح الاجانب في خطرداهم وأن قالوا هم ونادى بعض سفرائهم بأنهم في أمان يعيشون بين المصريين معيشة الاخوان.

وقام وزير الخارجية البريطانية السير أوشتن شامبران بمجلس النواب البريطاني فقال في بيان أسباب الازمة « أن أنظار فريق من رجال السياسة في مصر اتجهت إلى الجيش منذ زمن وهم يرمون «أولاً» إلى زيادة الجيش الحالي، و «ثانياً» إلى اتخاذه سلاحاً في يد - بب سياسي. ولاريب أن هذه المساعي من المسائل التي تهم الحكومة البريطانية مباشرة ، لان الدفاع عن القناة من المصالح الجوهرية ، وحماية الاجانب من العهود التي قطعناها على أنفسنا.

الى أن قال: «والحكومة البريطانية على استعداد للشروع توا في فتح باب المفاوضات للوصول إلى هذه الغاية _ وهي الاتفاق على المسائل المختلف عليها ولكن علينا الى أن يتم ذلك الاتفاق أن نصر على بقاء الضمانات التي دلت الحبرة الماضية على أنها فعالة 1». نعم ... وعلى المصريين طبعاً أن يفهموا أنه لا سلامة من هذه الازمات حتى يساقوا سوقاً إلى المفاوضات 1

وبعد محال وجدال استقر الرأي على اجابة بعض المطالب وهي ترقية سبنكس باشا ومد خدمته وتعيين وكيل له ، وانتهت أزمة من تلك الازمات التي تخلق منها الهباء ويضاع فيها الوقت على ساسة المصريين ثم لا يسلمون بعدها من اللوم والاتهام بالتقصير في أعمال الانشاء والاصلاح 11 وقد بذل سعد من الجهد في تهدئة النواب والجمهور ما ليس يقدر على بذله سواه، وكان

موضع الملاحظة عليه من بعض أنصاره ـ ومنهم كاتب هـذه السطور ـ أنه يشتري الدستور بأغلى من ثمنه ويطيل المسالمة حيث لايرجى أن تقابل بمثلها أو يكف عن العدوان .

وكنت في أمثال هذه المناسبات أقول وأكتب في توكيد هذا المعنى كما قلت في أواخر مايو سنة ١٩٢٦ من مقال في صحيفة البلاغ :

« ويلوحون لنا بعهد كروم, والغاء الدستور وما عهد كرومر بشر من دستور كهذا لاينال المصريون منه إلا التبعات الجسام ، ولا يجنون منه إلا الأباطيل والأوهام . فأما أن نسلم للانجليز بكل زعم يزعمونه وكل مطلب يدعونه وإما أن ينسخوا الدستور ويعبثوا بالعلاقات بين الشعب والعرش والبرلمان . ثم ماذا نأخذ نحن من هذا الدستورالذي يسوموننا فيه هذا السوم الغشوم ؟ لاشيء على الاطلاق . نعم لا شيء الا الضرر والمحال مشفوعاً بالفرقة والانقسام .»

وانما ذكرت هذه الملاحظات لأذكر رد سعد عليها وحجته في ردها ، فقدكنت إذا حدثته فيما يلاحظ من فرط الحرص على الدستور أمام التهديد والوعيد يقول لي : « ليذهب الدستور حيث يذهب هذا حسن . ولكن يجب أن نذكر أن الانجليز قادرون على تضييع جهودنا كلها في طلب الدستور ، وانهم لولا رغبتهم فيه لضاع علينا ماسلف من جهود . يافلان الن في صلب الدستور كلمات لا تزال مكتوبة بخط موظف انجليزي في دار المنسدوب »

وحجته في موقفه من أزمة الجيش خاصة ان تضييع الدستور من أجلها عجلة لا تقضي بها الضرورة . ومتى كان القوم يشيرون الى المفاوضة بلسان وزيرهم فلا ضرر من ارجاء الخـلاف كله بضعة أشهر الى أن نتفق على قرار أو يذهب الدستور الى حيث يذهب كما تقول .

وعلى ضيق الوقت وغلبة الشواغل السياسية والأزمات المصطنعة قد السع المجال لأعمال شتى ومقترحات صالحة كالغاء السخرة وتعميم التعاون بين الفلاحين وفتح الطرق ودرس مشكلة العمال ، وما الى ذلك من مطالب الاصلاح الاجتماعية .

غير أننا لا نريد هنا أن نسرد سجلاً للأعمال والمقترحات التي أشرف عليها سعدفي أثنا رئاسته لمجلس النواب، فان هذه الأعمال والمقترحات قديشرف عليها كشيرون من رؤساء المجالس النيابية ثم لا يمتازون بقدرة غير معهودة في الرؤساء عامة . إلاأن الغاية التي مابعدها غاية في هذه الصناعة أن يستوى المرء فيها على مستوى الواجب كما يتخيله المتخيل ويصبو اليه المتأمل .

والمثل الأعلى في الرئاسة هو الرئيس الذي يملك القسدرة على القصد في أوقات المجلس والقصد في جهوده ، ويملك القدرة على حفظ نظامه بغير حاجة الى زواجره وقوانينه ، ويملك القدرة على تعليم أعضائه وهدايتهم الى أكبر ما يستطيعون من صواب وأقل ما يتعرضون له من خطأ ، ويكون معصيانته لحقوق مجلسه قائماً بالقسط بينه وبين جو انب الحكومة الأخرى ، مانعاً للصدام بينه وبين ما يحيط به من القوى والعراقيل ، فهذه القدرة استحقت بأسة سعد أن تحسب مزية من مزاياه وصفحة من صفحاته ، لا أن يكون مبلغها من الذكر استقصاء جزء من تاريخه والالمام بعام أو عامين من حياته .

زعامته وأثرها

يقول لنا علماء التوحيد إن المعجزة الكبرى لنبي من الأنبياء هي المعجزة التي تطابق خلائق الأمة المبعوث فيها . فموسى بعث بالعصا الساحرة في أمة المصابين والضعفاء ، ومحمد السحر والكهانة ، وعيسى بعث با تية الشفاء في أمة المصابين والضعفاء ، ومحمد بعث بالقرآن في أمة الفصاحة والبيان ، فلكل منهم معجزة تطابق أحوال قومه وتستمد الاقناع من معدنه وأصله .

فا أصدق ما يقول العلماء فيم رأيناه في عصرنا من سير الزعماء! فغاندي كان خير زعيم في الهند لأنه ناسك من أمة النساك ، ومصطفى كال باشا كان خير زعيم في الترك لانه جندي من أمة الجنود ، وسعد كان خير زعيم في مصر لأنه فلاح من أمة الفلاحين . وحسبك أن تعمد الى نموذج الفلاح المصري فتضاعف ما فيه من خلائقه وعاداته وخصائص بيئته لترى أمامك سعدا ماثلاً في عظمته المصرية ، قائماً على مرتق المثل الأعلى لتلك الخصائص القومية ، وليست آية أفصح من هذه الآية على صدق النهضة السعدية وجريانها مع طبائع الأمور .

وقد اجتمعت لسعد من مزاياه الشخصية ومن توفيقات العصر في حياته صفة الزعامة الواجبة على المصريين ، أو الزعامة الملائمة لأطوار النهضة الأخيرة في هذه الأمة .

فهو لأنه كان فلاحاً من أصحاب المراتب العالية قد استطاع أن يجمع حوله السواد والعلية من أبناء الفلاحين، وهم قوام الأمة المصرية.

و لانه كان صديقاً لقاسم أمين على رأيه في تهذيب المرأة قد استطاع أن يقود النهضة الأولى التي اشترك فيها الرجال والنساء وشملت الأمة كلمالانها شملت البيت كله . ولانه كان يطلب الاستقلال من النرككا يطلبه من الانجليز قد استطاع أن يمحو الفوارق الدينية والعصبية المذهبية في الحركة الوطنية ، لأن المسيحيين والاسرائيليين قد علموا أنهم شركا. في دعوة واحدة ، وليسوا مسوقين في حركة دينية يطلب دعاتها سيادة الترك لانهم مسلمون ، وانما الحق أن يطلبوا السيادة المستقلة لأنهم مصريون .

ولانه كان حاضر الفتوة وافر الحماسة في الشباب والكهولة والشيخوخة قد استطاع أن يقود الشبان المتلهبين كما يقود الشيوخ المحنكين، أو استطاع أن يجمع الجيلين في ثورة واحدة، وقلما يجتمعان.

قالت صحيفة التيمس في رثائه: « بما عهد في الزعماء الشرقين أنهم يعتزلون العمل قبل زملائهم الغربيين . إلا زغلولاً ، فانه احتفظ بنشاطه الغزير الى النهاية ، وليس بين التائرين المتطرفين في التاريخ الاعدد قليل بقيت له عقيدته السياسية في شدتها وعنفوانها بعد الحنسين ، ولكنه هو بلغ أقوى ما بلغ من السلطان على الجماهير عند ما ناهز الستين ، وكا نما كان تقدمه في السن يزيد من حماسة الشباب ونزواته ! على أن مفاجات طبيعته وأطوار حياته و تقلبه في تحصيل العلم بين الفقهاء العرب والاساتذة الفرنسيين ، ومضاء عزيمته وفصاحته وماكان من الاثر على تربية ذهنه لاناس بينهم من الاختلاف مثل مابين جمال الدين داعية الجامعة الاسلامية واللورد كروم ، كل هذا لا يكفي لتفسير قبضته الغريبة على شعب كثير التحول . فان وراء كل هذا لا يكفي وطنه ، ومغناطيسية شخصية تجذب اليه الالوف من التابعين .»

وقد أدى البحث في أصل سعد الى اختلاف الأقاويل بين قائل بزعم أنه من البدو وقائل يزعم أنه من المغاربة وقائل يزعم أنه ليس من هؤلاء ولا هؤلاء ، ولكنه يشبه الترك في بعض الملايح والأخلاق ، فليختلفوا ماشاءوا وليعزز كل منهم أقاويله بما شاء، فإن الحقيقة التي لا تقبل الجدل الكثير أن صفات سعد التي لاشك فيها هي أصلح الصفات لزعامة المصريين. وأن مزاياه الشخصية، وتوفيقات زمانه السياسية والاجتماعية قد جعلته الزعيم المصري الذي ليس بين معاصريه أحد أجدر منه وأولى بالزعامة ، وذلك وحده كفيل بتقرير مكانه كما قرره لنفسه وقررته الاحداث والتوفيقات

فهو في طبيعته العملية ، وفصاحته المقنعة ، وفكاهته المرتجلة ، وعزيمته الماضية ، وسماته المهيبة ، ومنزلته الرفيعة ، خير من ترشحه مصر لزعامتها من صميم تكوينها ، وإنه لأصل في زعامة الشعوب ليس بعده رسوخ ولا عمق في الأصول .

كان ساحراً للفلاح الساذج وابن البلد الظريف : سمعه فلاح من قنا في الاحتفال بعيد النيروز فبكى . ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود أن يبكي إلا لحادث يصيبه في آله أو ماله ، فطفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله : مابالي أبكي ؟ أمات أبي ؟ أمات أبي ؟ أغرقت مراكبي ؟ أأجدب زرعي ؟ وما لهذا الرجل يبكيني ؟ أساحر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدري ! ! ولكن الفلاح الساذج الحائر في بكائه قد بين لنا أو جز البيان أن سلطان سعد على النفوس المصرية حادث كحوادث القضاء والقدر أو هو من قبيل الحوادث التي تحرك تلك النفوس وتهزها في أعماقها ، أو هو من قبيل تلك العوامل التي ظن الفلاح الساذج أنها هي وحدها خليقة أن تسيل الدموع من عينيه .

وسمعه مصري من أبناء البلد يخطب في نادي «سيروس» ويضحك ضحكته العالية من خصومه. فما تمالك أن صاح: ياسلام ياباشا ا ضحكتك حلوة . حلوة جدّاً ، الله ا الله ا فما ترك سعد هذا التعقيب « البلدي » على ضحكته الساخرة أو الساحرة دون أن يشفعه بتعقيب من جنسه ، وهتف بالحاضرين في طلب السكوت كما يناسب المقام: "سمع . "سمع . مسمع . هس ا

* * *

فمواقف الخطابة أو مواقف الزعامة لم تكن عند هذا الزعيم إلا تيـــارأ

جارفاً ينبعث من قرارة وجدانه ، فيحتوى الحاضرين في غمراته ويردهم الى عنصرهم الأصيل فيشعرون على البديهة انهم وهذا الزعيم من موطن واحد في الشعور وموطن واحد في الارادة ، وموطن واحد في الجد والفكاهة ، غير أنه يقدر من حيث لايقدرون ، أو يقدر لهم وهم من ورائه تابعون .

والزعامة إذا بلغت هذا المبلغ من الاصالة كانت قوة مطبوعة — بل فرصة اللهة — لاتفريط فيها أمة ولو كان ديدنها التفريط . لأن الأمر في هذه الزعامات من وراء المشيئة والتدبير .

وقد يكون في الأمة عشرات أو مئات يقاربون ذلك الزعيم في جمسلة الصفات أو يفوقونه في بعض الصفات ، لكنهم لا يغنون عنه ولا يعوضونه وهو واحد وهم عشرات أو مئات . لأن الفضل في الزعامة للدرجة والنوع لا للعدد والكثرة ، والشأن هناكالشأن في درجات الجمال . لو اجتمع ألف وجه على اعتدال في المحاسن لما بلغت كلما في الأثر والفتنة ما يبلغه الوجه الواحد الفائق في حسنه ، ولالوم على القلوب إذا هي آثرت أن تفتتن بذلك الوجه الواحد أضعاف ما تفتنها تلك الوجوه الكثيرة ، ولالوم على الشعوب اذا هي آثرت أن تفتتن بتلك الزعامة الواحدة أضعاف ما تفتنها تلك الزعامات الشي ، لأن الطبيعة لا تحس إلا هكذا ولا يحسن بها ولا ينفعها أن تنحرف عن سوائها ، وكل احساس مطبوع فهو قوة مطبوعة نافعه في ايقاظ قوى الأفراد وقوى الشعوب ، ومتى كان سبب التأثير طبيعيناً فالتأثير لاجرم طبيعي لا اصطناع فيه ، وإنما الآفة الكبرى أن تكون الزعامة من توليد الاصطناع والمواربة والتمويه والتواطؤ على الغش والمغالطة والانتفاع ، فانها تكون حينئذ كالصحة التي تصطنعها المخدرات ايست من الصحة وليست من الشفاء ، ولكنها من السقام ،

لما نهض سعد بالدعوى الوطنية لم تكن مصر خالية بطبيعة الحال من أولئك المتحذلقين أحلاس القهوات الذين

يخطئون كل عمل ويخطئون كل رجل ويخطئون كل رأي ولا يحسبون الأمور في الدنيا تجري أبداً إلا على خلاف ما يحكمون ويستحسنون ... ثم لا يعرفون بعد ذلك انهم هم المخطئون .

كان هؤلا. المحكمون الأزليون يرون كل إنسان في مصر صالحاً للزعامة الا الزعيم القائم بها في حينها . لأن أصول الصناعة تقضي بذاك ، وإلا لم تكن هناك محكمون . . . ولم يكن هناك محكمون .

أفما كان زيد أولى بحل القضية المصرية لآنه مقرب من الانجلين؟ أفما كان عمرو أولى بمحلها لآنه مشهور بالمرونة؟ أفماكان فلان أولى مهم جميعاً لآنه خليفة فلان. ولعلهم لو طولبوا بالاتفاق فيها بينهم لما انتهوا إلى اتفاق، لأن الثرثرة لم تكن قط وسيلة الاتفاق. وأنماكانت وتكون أبداً وسيلة المحال والشقاق.

وأوجز ما يوصف به هؤلا. ـ على أحسن الظنون بهم ـ انهم كسماسرة الزواج : كل خطيب عندهم غير أهل لخطيبته وكل خطيبة عندهم غير أهل لخطيبها . الا ان يكون لهم نصيب في الوساطة والمهر والوليمة . وعندئذ يكون كل خطيب وخطيبة في الدنيا على ما يرام .

وإذا حاورتهم باصطلاح سماسرة الزواج فليس بالنادر أن يصيبوا من حيث يخطي. الازواج والاصهار. فهذا الفتى الممقوت خير من جميع الفتيان لانه يملك المستقبل وينتظر الميراث، وهذه الفتاة الدميمة السقيمة خير من جميع الفتيات لانها تدخل إلى بيت قرينها والوظيفة معها بجاه أبيها أو ذويها، وهذا الشيخ خير من جميع الشبان لانه غداً يموت، وهذه المرأة النصف لا تضارع في بيت القرين لانها تغنيه ولا تحاسبه على ما يبقيه ويفنيه: نصائح نافعة من حيث ينظر السمسار وأشباه السمسار، ولكن النصائح التي هي أنفع منها وأغلى هي النصائح التي يستمع إليها الناشيء الصغير بالهامه والناشئة

الصغيرة بالهامها ، لانها هي النصائح التي توحي بها الفطرة الخالدة وتنوط بها بقاء الحياة وتقدم الاحياء .

وهذا الالهام هو الذي استمعت اليه الامة المصرية ولم تستمع إلى حكمة السياسرة وأحلاس القهوات ، فما كانت تلبية سعد إلى ندائه سبيلاً إلى المنافع أو سبيلاً إلى الراحة والاطمئنان ، ولكنها كانت على نقيض ذلك مضيعة للمنفعة والوظيفة مجلبة للمحنة والبلاء . فطاعتها هي من قبيل الطاعة التي يلهمها الناشيء والناشئة لصوت الفطرة ودعاء السريرة ويخطيء من يسمعها في بعض الاحايين من الوجهة الدنيوية ، ويخطيء ألف مرة من يصم عنها أذنيه من وجهة الحياة الباقية والحمكة الخالدة ، وان كان خطأه لا يظهر له ولا للآخرين . لان الذي يفقد المكال لا يشعر بفقد الكال ، أو لا يعترف بخسارته كما يعترف فاقد الحنز والحطام .

وإذاظفرت الأمة بالزعيم الذي تكون طاعته من قبيل هذا الالهام فتلك هي الزعامة التي تنتظر الاجيال بعد الاجيال ، وتلك هي الفرصة التي يُخشى عليها الضياع . لأن الزعامة التي تكون طاعتها من قبيل الاهتداء بحكمة السياسرة واحلاس القهوات هي فرصة لن تضيع ، إذ هي فرصة موجودة كوجود المنافع وعلم الحساب في كل زمان .

هذا الالهام الفطري هو الآثر الآكبر لزعامة سعد زغلول ، وهو شيء لا يدخل في الاحصاء والآرقام ، ولكنه مع هذا شيء لا غنى عنه لـكل منفعة أو مصلحة يدركها الاحصاء وتحصرها الآرقام .

والزعم لا يحاسب في التاريخ بحساب الدفتر الذي يحمله الآجير فلا يعطى فيه درهما إلا بما يقابله من عمل في ساعات النهار ، ان الرجل الذي لا تظهر ما شره إلا بهـــــذا الحساب لهو أنقص الناس في صفات الزعامة وقيادة الشعوب ، لانه أذن يعمل بيديه كما يعمل الآخرون ويتلق جزاءه كما يتلقاه سائر الناس ويحاسب بمفرده ولا يحاسب بما يدعو الناس اليه ، وانما

يحاسب الزعيم حساب الشمس التي تشرق على الحقول أو حساب النهرالذي يحرى بين الاعشاب والاشجار . لا يضرب كلاهما فأساً ولا يغرس جذراً ولا يخط سطراً بهندسة ولا يبني جداراً على حوض أو خزان ، ولكن الضاربين بالفؤس جميعاً والغارسين للجذور جميعاً والعاملين في الهندسة والبناء جميعاً لا ينبتون سنبلة واحدة بغير الشمس والماء .

فاذا استطاع هذا الزعم أن يبث هذا الروح أو يوقظه أو يجمعه حواليه فكل ما تنشئه الأمة وهي مأخوذة بهذا الروح فهو من عمله وصنع يديه، أما إذا كان عمله كله هو ما يعمله بنفسه ويرسم عليه طابع يديه فما هو بزعيم. وسعد زغلول قد بث في مصر هذا الروح ، أو هو قدأ يقظه ،أوهو قد جمعه حواليه . فكل ما نهضت به الآمة من اشتغال بالصناعات أو مصارف الأموال أو شركات التجارة أو معاهد التعليم أو بجامع السياسة مما لم يكن فيها قبل تلك النهضة ففيه سهم لا ينكر لزعامة سعد زغلول

هذه الزعامة هي التي التي حولها المصريون فعلموا أنهم أمة ، وعلموا أنهم مسلمون ومسيحيون ولكنهم أمة ، وانهم رجال ونساء ولكنهم أمة ، وانهم شيب وشبان ولكنهم أمة ، وانهم حضريون وريفيون ولكنهم أمة ، فانبعثت اللائمة حياة ماثلة إلى جانب حياة كل فرد وكل طبقة وكل طائفة وكل جنس وكل دين ، ورأينا الايام التي نسي فيها اللص انه سارق ولم يذكر إلا انه مصري من المصريين ، ونسيت فيها البائسة الموصومة أنها متاع مهين ولم تذكر إلا انها مصرية تطالب بقضية ، وفهم حتى هؤلاء أن هنالك معنى من معاني الرفعة الانسانية يسمى الشرف ويسمى الحياء ، بل رأينا السنين التي لبث فيها المئات والألوف يسامون الحسار فيقبلون الحسار ولايقبلون المراء في العقيدة ، ويخيرون بين منفعة النفس ومنفعة الأمة التي يدينون بهافيختارون منفعة الأمة ولا يحفلون بمنفعة النفس ولا بمنافع الآل والبنين . وتلك منفعة الأمة ولا يحفلون بمنفعة النفس ولا بمنافع الآل والبنين . وتلك غنيمة قومية لا تدخل في حساب الارقام ، ولكن الآمة التي تهملها و تبخس قدرها لا تدخل هي نفسها في حساب .

وسرى قبس من روح الوحدة المصرية إلى كل امة في الشرق تعلم ان شأنها في طلب الحرية كشأن المصريين ، وأن حاجتها إلى الوحدة الوطنية كحاجة المصريين . فظهر الوفاق بين الطوائف في بلدان لم تعرف قط وفاقاً ولارغبة في وفاق ، وأصبح سعد زغلول علماً للنهضة الشرقية بأسرها لاللنهضة المصرية وحدها ، ورمزاً لدعوة الوحدة في كل بلد ممزق بين العصبيات الداخلية والمطامع الاجنبية .

روى موظف مصري أنه لتي المهاتما غاندى في لندن حين زارها لحضور المؤتمر الهندي فيها فجرى الحديث بينهما عن القضية المصرية واستطرد إلى ذكر سعد فقال المهاتما: « انني تتبعت سيرة هذا الرجل القدير من سنة ١٩١٩ إلى الآن، ولا يزال له في نفسي أثر عظيم، وأنا أعده قدوة وأراه بمثابة أستاذه قال الموظف المصري: ذلك تواضع منك ولا ريب. إن الأمة المصرية أربعة عشر مليوناً وأنت قد شملت حركتك ثلثمائة وخمسين مليوناً من الناس. قال المهاتما: «على هذا التقدير يكون سعد هو صاحب الفضل في السبق والابتداء. ثق أن الحركة الهندية سارت على أعقاب الحركة المصرية. إني والابتداء . ثق أن الحركة الهندية سارت على أعقاب الحركة المفدية ، فلا اقتديت بسعد في إعداد طبقة بعد طبقة من العاملين في القضية الهندية ، فلا أقتديت بسعد في إعداد طبقة بعد طبقة من العاملين في القضية الهندية ، فلا العنصرين ولكني لم أنجح بعد كما نجح فيه ان سعداً ليس لكم وحدكم ولكنه لنا أجمعين. «

وأياً كان نصيب هذه الرواية من الصحة فالحقيقة التي لا تحتاج إلى اثبات ولا استشهاد هي أن الوحدة المصرية سابقة لكل وحدة في دعوات الشرق الوطنية ، وأن الوحدة المصرية مدينة لسعد بمزاياه التي توافرت له أو توافرت حوله ، فجعلته دون غيره أصلح الزعماء للزعامة على جميع المصريين .

لقدكانت الزعامة بداهة فيه تقابلها التلبية البديهية من الجماهير . كان يدبر ويقدر ويأخذ الامور بالروية والنظر البعيد ولكنه لا يعول على التقدير والتدبير بعض تعويله على البداهة التي ترتجلها الشعوب في غير تكلف ولا استعصاء، وعنده أن العناية الآلهية تعمل في هذه البداهات المرتجلة ماليس يخطر على بال: ومن ثم كانت كلمته التي يرددها كلما اتجهت الحوادث في غير اتجاهها المنظور أو انفرجت الازمات من غير مظنة الفرج المقدور: انها العناية! انها العناية! ويرفع بصره إلى السهاء ولا يزيد .

أذكر في الآيام التي أعقبت عودته من المفاوضات مع مستر مكدونالد أننا زرناه وعنده الاستاذ حامد جودة المحامي يقترح عليه بعض الآراء.

فقال سعد بدعابته المعهودة : ياحامد . أنا ختمت العلم 1 فهاتوا العمل الناجع ، فلا حاجة بى إلى اقتراح .

ثم قال : ماذا تروننا صانعين في مواجهة الانجليز ؟

قال أحد الحاضرين: الإضراب العام يشترك فيه الموظفون حتى تجاب مطالب البلاد .

فسأل الباشا : وهل يقع هذا الاضراب ؟

فقال بعض الحاضرين يقع عامّاً وقال غيرهم يقع في بعض الجهات ، وخالفهم آخرون فقالوا انه لا ^رينتظر ولا يطول .

قال سعد: الدليل على أنه لا يقع ولا يصمد طويلاً إن وقع انكم مختلفون فيه ... ان هذه الحركات لا تأتي إلا عفواً. وقالها بالفرنسية «Spontanément» وعند ما يكون الجو مهيئاً لن تختلفوا فيها بل تجيبوا بلسان واحد: انها أمر واقع لاريب فيه .

ولتعويل سعدعلى هذه البداهة كان لا يكرب ذهنه كثيراً بهموم المستقبل و لا يزيد على أن يعطيها حقها من التفكير والروية ثم يدع البقية للمفاجاة أوللبداهة أوالعناية كما يقول. واطمئنانه إلى المستقبل من هذه الناحية كاطمئنان التاجر الغني الوطيد المكان الذي يعمل عمل الرجاء و لا يضيره أن تفاجئه السوق

بالهبوط أو الكساد ، لأنهاكيفها تقلبت واضطربت لن تجده إلا على استعداد للصعود والهبوط ، وغيره قد يطمئن إلى المستقبل همذا الاطمئنان فيضيع ويبور ، أما هو فالثروة التي لديه ضمان لا يعتريه خذلان ، فمن فضول الوهم أن يكرب نفسه طويلًا بالوساوس والهموم .

كان لقومه مدد من عزمه وكان لعزمه مدد من قومه ، وكانا كالشحنتين الكهربائيتين كلتاهما بمفردها في سكون. ولكنهما لايلتقيان حتى تندفع القوة الحكامنة التي لاتندفع على انفراد .

ولم يكن أقدر منه على الاتجاه والتوجيه ان لم يكن بوحي البداهة فبالكلام الذي يبلغ مبلغ البداهة من اخلاد سامعيه .

كانخصومه يدسون عليه في بيت الآمة أناساً من المشاغبين الذين لاخلاق لهم ليغطوا في مواقف التأثير والاحتدام ، فيفسدوا الخطاب عليه وعلى السامعين ، وكان الجمهور يحار في تأديب هؤلاء لآنه لا يدري هل يتركم فيفوته حظ السماع أو يحاوبهم فينقطع الخطاب . وتمادى سليط من هؤلاء يوماً فضاق الجمهور به فرعاً وأخذوا بتلاييبه وبهم اشفاق من ضياع الخطابة فهم يترددون ولا يدرون كيف يصنعون : هل يضربونه فيقع الاضطراب أو يرسلونه فيعود ويحتريء أمثاله السلطاء على مشبل عمله وكخطف البرق تبدر الكلمة من سعد فيكون فيها فصل الخطاب مع هذا السليط ومع من تحدثه نفسه من زملائه بركوب هذا المركب العسير ، ويقول سعد : لا يضرب في بيتي 1 ويترك مقام الخطابة 1 وكخطف البرق يفهم الجمهور مايريد وينقطع دابر هؤلاء السلطاء فلا يرجعون .

* * *

كتب سعد وهو في نحو العشرين من عمره في الوقائع المصرية _ صحيفة الحكومة _ يشهر بالاستبداد، ويحض الناس على دفعه ويستشهد بقول النبي عليه السلام: « إن النـاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن

يعمهم الله بعقاب من عنده » ويختم كتابته بقوله : « إن شريعتنا شريعة سمحة تأبى أن يتولى أمور ذويها من لا يراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة . وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعاً . ذلك هو الحق والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.»

ويروى عن السيد جمال الدين الأفغاني أنه أمر تلاميذه بالكتابة في موضوع الحرية فكان سعد وهو أصغر التلاميذ سناً أحسنهم كتابة في هذا الموضوع. فقال السيد: ان من علامة نشأة الحرية في هذه الامة أن لا يجيد الكتابة فيها إلا ناشيء كهذا الفتي ا

وحضَّرته أثناء الحرب العظمى يسمع قصيدة حافظ العمرية فما استعاد ولا صفق فيها لأبيات كما استعاد أبيات الشورى وصفق لها ، حتى مال إليه محمد محمود باشا يداعبه قائلاً : معلوم !... وكيل الجمعية التشريعية ا

فكراهة الاستبداد في طبعه.

وقيادة الشعوب في طبعه-

ولو لم يكن حبه الحرية مصلحة عامة وعقيدة راسخة لكان مصلحة خاصة تقوم عنده مقام العقيدة ، فهو يذود عن كبريائه حين يقضى للفلاح بحق الحرية ولا يرى فيه رأي الزملاء من حكام الترك الذين يقضون عليه بالخضوع ويقضون لانفسهم بالسيادة . ومن اتفقت له كراهة الاستبداد ، والقدرة على دفعه ، واستنهاض الشعب إلى صدع قيوده ، والشعور مع الشعب بعزته وهوانه ، فقد رشحته ارادة الغيب ولم ترشحه ارادة الناس للزعامة والاضطلاع بهذه الأمانة ، واصطلحت هداية الإلهام وهداية التفكير على تقديمه لهذا الأمر الكبير .

لقد وجدت الآمة المصرية نفسها على يدي سعد . ولم يكن لها قط وجود أكل من وجودها إلى جانب هذا الزعيم ، وهذا أثر لزعامته لاشك فيه ١ وهذا وحده في عالم السياسة أثر يعلو على جمنيع الآثار .

سعد وخصومه

من غير النادر أن يلام الزعيم على النقيضين في وقت واحد ومسألة واحدة: على التشدد والتسهل، وعلى الاقدام والاحجام، فيحسبه قوم مضيعاً للمصلحة لانه تشدد وغلا ويحسبه آخرون مضيعاً للمصلحة لانه تساهل وتهاون ... وغالباً ما يكون الزعيم الوطني هو الواقف في مفترق الصواب والخطأ عند ما يتناقض الخصمان .

وكان نصيب سعد من ضريبة الزعامة في هذه الحضلة كنصيب أكثر الزعاء ، فوهم المعتدلون انه متشدد تعوزه المرونة ، ووهم المتطرفون انه لين تعوزه الصلابة . والصواب انه لو تساهل كما أراد أولئك أو تشدد كما أراد هؤلاء « لتلاشى » بينهم في الوسط ولم يكن له عمله اللازم في الزعامة الوطنية ، وانما عليه أن يعمل عمله ولغيره أن يصف ذلك العمل بما يشاه فلا ضير في اختلاف الصفات إذا تحققت الأعمال .

كان المعتدلون يطلبون منه المرونة لانها هي وحدها سبيل الحلاص، ولقد كانوا مرنين يوم رحبوا بها أحسن ترحيب، وكانوا مرنين يوم قبلوا الحماية، وكانوا مرنين يوم الصحافة وكانوا مرنين يوم قبل الخاصة وكان هو على خلاف ماكانوا عليه لانه اشترط الغاء الحماية الغاء صريحاً بين مصر وانجلترا وبين مصر والدول. فاذا حكمنا « الواقع الحاصل» وهو الحمم الذي يحلو للمعتدلين أن يحكموه في جميع القضايا فهو المحلوب وهم المخطئون . . . لان الحماية قد الغيت وماكانوا يظنونها تلغى ، ولانه لم يكتف حين اكتفوا فعادوا يطلبون مثل ما طلب ، وانحرفوا عن طريق المرونة كارهين .

أما المتطرفون أعداء المفاوضات ـ ومنهم الفتى الذي أطلق الرصاص عليه ـ فهم قد حسبوا عليه مجرد قبوله الدخول في المفاوضة مع الانجليز تفريطاً في حقوق البلاد ، لأن القضية المصرية قضية دولية لاتنفرد بريطانيا العظمى فيها بصفة خاصة فلا يصح أن تحل بالاتفاق معها وحدها ، ولأن المفاوضات تضعف عزيمة الجهاد وتعلق آمال الشعب بالمحال ، فيركن إلى أمل لا يفيد . إذ كان من غير المعقول أن ينزل الانجليز عن منافعهم في مصر باختيارهم من أجل المفاوضات .

لكن الصحيح أن اعتمادنا على الصفة الدولية للقضية المصرية يضيعنا بل قد ضيعنا قبل ضياع المفاوضات... فلم تبسط القضية المصرية قط للبحث بين الدول بعد الحرب العظمى إلا اعترفت فيها الدول جميعاً بدعاوى الانجليز . سوا. في مؤتمرات السلام أو في غيرها من المجامع الدولية .

أما ان المفاوضات تضعف عزيمة الجهاد فالحقيقة أنها لا تخلق الضعف ان لم يكن موجوداً ولا تمنع الشعب أن يرفض نتائجها إذا كان قوياً لايرضى بالقليل. ومن الجائز أن يؤمن بنبذ المفاوضات إذا جرب الفشل فيها مرات عديدة. ولكن ليس من الجائز أن يؤمن بنبذها ويجمع على هذا الايمان قبل تجربتها ، ومن هنا ينشب الخلاف والضعف الوبيل.

نعم ان المفاوضة لايليق أن تكون هي وسيلة الشعب الوحيدة إلى الحرية ، ولكن لايليق كذلك أن تكون محرمة ذلك التحريم البات في جميع الاحوال والمناسبات ، وليس من الضروري أن ننتظر إلى المرحلة الاخيرة والمكسب الحاسم أو الجلاء التام حتى ندخل في مفاوضة مع الانجليز . فقد تكون المفاوضة لازمة لتصفية المكاسب السكبيرة والاخيرة ، والمعول في ذلك على مناسبات الاحوال وعلى اختبار الزعماء والسياسة ، الذين يجب أن يعملوا كما يعمل أصحاب الارادة والتفكير لاكما تعمل الآلات تحرم الشيء وتصمد على تحريمه في جميع الاوقات بغير تفرقة بن المناسبات والاحوال .

ولقد خالف سعد خصومه المعتدلين كما خالف خصومه المتطرفين، فلم يثبت انه مفتقر إلى الصلابة، ولكن ثبت من مخالفته اياهم انه زعيم يصلح للقيادة ويمضي في طريقه المستقيم أمامه، لأنه يعمل ما يوحيه اليه وحي الساعة وان أغضب أصحاب الآراء من الجانبين.

في بعض أحاديث سعدكان يقول إن العمل للبصلحة العامة « جذبة » تستولي على الانسان كجذبة الدراويش ، وانه لو شاور الفكر وحده لمما اشتغل بالمصلحة العامة ولفضل عليها الاشتغال لنفسه ولذويه ·

والحقيقة أن المداورين النفعيين الذين يفكرون في أنفسهم ولا تملكهم اللك « الجذبة » للصلحة العامة جديرون بالغبطة والنهنئة حتى من وجهة النظر إلى النتائج التاريخية والاعتبارات العامة التي ينالونها ، فانهم يفكرون في مصالحهم ولا يفكرون في غيرها إلا بمقدار ما يدارون أغراضهم ويدفعون التهمة عنهم ، وإذا وجدوا في بلد مصاب بالسيطرة الاجنبية عرفوا كيف يرضون القوة ويستقبلون قبلتها في كل حالة ويرتقون على يديها إلى المناصب ويقد رون بجاه المناصب على كسب الاشياع والاتباع . فيقال إنهم مصلحون وأنهم غيورون صادقون ! ولا ينالهم من الجزاء على خدمة القوة واغتنام وأنهم غيورون معادون ارتفعوا عن شأو الجهور فغضب عليهم الجمهور ، فيقال إنهم قوم ممتازون ارتفعوا عن شأو الجمهور فغضب عليهم الجمهور ، فيقال إنهم قوم ممتازون ارتفعوا عن شأو الجمهور فغضب عليهم الجمهور ، فاناهم ليسوا من قادة العامة والدهماء ولكنهم من الخاصة والعلية المنتقاة . فاذا والهم وسبب أسباب التعظيم .

وهناك من الطرف الآخر الزعماء أصحاب « الجذبة » يغضبون القوة فتقف لهم بالمرصاد وتسلط عليهم أشياعها واتباعها من المداورين والنفعيين وتتعمد القوة أن لا تعطيهم مطالبهم ومطالب أقوامهم إذا انهزمت أمامهم

بل تعطيها المداورين النفعيين لتزيدهم قدرة على خدمتها ومحاربة خصومها . فيقال إنهم هم الذين بلغوا تلك المطالب وما بأيديهم من حول ولا حيلة يبلغون بها مطلباً لولا معارضة الزعماء المناضلين .

يفعل هؤلا. الزعماء المناصلون ذلك فلا ينالهم من الجزاء إلا إعجاب الرأي العام وولاء الجماهير. ثم تنصرم الآيام والاعوام فيقال انهم قوم من قادة الجماهير التي تتبع كل ناعق. فاذا بالشيء الوحيد الذي نالوه وقد انقلب خسارة في ميزان التاريخ ، أو ميزان بعض التواريخ . وأقل ما هنالك أنهم يتساوون هم وجماعة المداورين في بعض المواذين .

والعجيب أن في فطرة النياس جميعاً أن يحسبوا المطامع على العظماء ولا يحسبوها على الصغار أو الأوساط . كا ثما هؤلاء الصغار والأوساط قديسون لا يعملون إلا للا خرين ، أو كا نهم مباح لهم أن يطمعوا وينتفعوا لجرد كونهم صغاراً وأوساطاً ينالون مطامعهم بالوسائل التي يقدر عليها جميع الناس ، ولا يحشمون من يقتدي بهم أن يكون على امتياز خارق في القدرة والخيلاق! ا

أليست المداورة إذن « رأياً سديداً » الى جانب جذبة المخدوعين؟ لقد وجدخصوم سعد ما يقولون عنه لقيادته الجماهير واضطلاعه بالهمم الكبار، لانهم لابدأن يقولوا، لا لأن ما يقولونه يصدر عن عقيدة منهم أو يستحق مؤونة الاصغاء .

فالرجل قاد الجماهير لآنه لايستطيع أن يقاوم دولة أجنبية وهو بمعزل عن جماهير قومه، وانما تعاب هذه القيادة إذا كان صاحبها لايحسن ماهوأرق منها وأحوج الى الكفاءة ، وتعاب إذا كان صاحبها يقود الجماهير بالغرائز الدنيئة والغواية الآثيمة ، ولا يقودهم بالحية والأريحية ليقدموا على التضحية والمشقية ، وتعاب إذا هبط اليهم الزعيم وتخلق بأخلاقهم ليملك مقادتهم ويزدلف اليهم ، وتعاب إذا كان ممدوحاً محموداً من الجماهيرأن تسكن وتستكين

وفي بلادها قضية بينهم وبين غاصبيهم . أما إذا كان صاحب القيادة مبجلاً متحلياً بالصفات التي يعجب بها العلية والسواد ، وكان متزن الكلام لاينطق بكلمة واحدة تستهوي العقول السخيفة ولاتقبلها العقول الراجحة الحصيفة ، وكان جانبه جانب التضحية والمشقة والمثل الاعلى ، ولم يكن جانب الغنائم والمارب والاسفاف الى الغوايات الوضيعة ، وكان واجباً على الجماهير أن تهتم وتقلق وتشرئب إلى أفق الرجاء وتنقاد لمن يحسن أن يقودها ، فهنالك يكون قائد الجماهير هبة من هبات السماء ، وتكون قيادة الجماهير واجباً تنحنى أمامه رموس الجماهير وغير الجماهير .

ومع هذا ظن بعض الصغار والأوساط أنهم يسامون الرجل لأنهم عاجزون عن هذه القيادة ، كانهم استطاعوها وزهدوا فيها ، أو كانهم وجود الحقراء من قادة الجماهير ينفي أن للأمم قواداً في الذروة العليا من المقدرة والكرامة .

^{}*

وتعود الناس في خلافات الأحزاب السياسية أن يسمعوا التهمة الواحدة تقال وتعاد من الجانبين أو من الجوانب الكثيرة . فكل حزب هو الحزب المخلص العامل النافع الرشيد ، وكل من عداه هو الحزب المغرض المتواكل الذي لا ينفع ولا يهتدي الى صواب . وإذا كانت الآونة من آونات الثورة واشتعال الخصومة وغليان الحقود فالخيانة والاجرام وسوء الدخيلة وقبح الصنيع تهمة أو تهم لا يسلم منها انسان مشترك في السياسة : يقولها هذاالفريق كا يقولها ذلك الفريق ، ويعلم أناس من المطلعين بطلانها أو صدقها في حينها الأقاويل المتضاربة والنقائض المتراكبة ، فيفصل فيها على طريقة الفصل بين المرأة الصادقة والمرأة الكاذبة في ادعاء الأمومة ، وهي شطر الحقيقة نصفين المرأة الصادقة والمرأة الكاذبة في ادعاء الأمومة ، وهي شطر الحقيقة نصفين شطراً لهذا وشطرا لذاك . فكلاهما مصيب وكلاهما معيب ، لأن الشأن في

كل سائس وكل زعيم أن يقول في خصومه وأن يقال فيه ، فلا حاجة إذن بالمؤرخين الى الفصل والانصاف ، ولا موجب إذن للندقيق والتحقيق.

لكن هذا الحكم لو أخذ على إطلاقه لظُلم فيه أناسكثيرون ، ونجا من العقاب العدل أناس كثيرون — وليس هذا هو المقصود من عبر الحوادث ودراسة العظماء والزعماء ، بل المقصود أن م يعطى كل إنسان حقه وأن لا يتساوى المصلحون والمفسدون .

إذ ليس من البعيد أن يصل الى الحسكم في أيام القلاقل والمنازعات الدامية رجال محت الون ما كرون نفعيون يدارون ظواهرهم وهم في باطن الأمر على أخبث ما يكون الحاكمون . بل الشأن في إبان القلاقل والمنازعات الدامية أن يكثر هذا الطراز من طلاب المغانم ورواد الفرص والعار فون باستغلال النقائص الانسانية والرذائل الحلقية في الشعوب المبتلاة بالنزاع والطغيان . ومتى وصل واحد من هؤلاء الى منصة الأحكام واستولى في يديه على أزمة النفع والضر والتقريب والاقصاء والوعد والوعيد فاي شيء أيسر لديه من خلق المادحين والقادحين ؟ يمدحونه وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويقدحون في خصومه وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويفالون في الكذب والصفاقة وهم يعلمون أنهم آمنون كاسبون ، وأن المستقبل كفيل بطمس المعالم و تبديل الظواهر والبواطن ، والمساواة بين التهم من هناوالتهم منهناك ، فلافرق بين أنصار المبدأ والمصلحة العامة وبين أنصار النذالة والمنافع القريبة . بل يرجح هؤلاء بلمنفعة التي غنموها ويبق نصيبهم من الحد والقدح كنصيب الآخرين .

ومن يضمن العواقب؟؟ فلعل أنصار المبدأ والمصلحة العامة يعجزون عن تحقيق آمالهم و تصديق وعودهم فينقلب الأمر عليهم و تسأم الأسماع الإصغاء إلى مبادئهم ودعاواهم ، فاذا هم هم الخاسرون في الرأي والخاسرون في فرص الحياة ، وإذا بالعبرة الخالصة من هذه المعمعة الخاسرة أن المبادي والفضائل لغو وعبث وضياع ، وان الضعة والآثرة العمياء حكمة وجد وغنيمة ، وبئس

ما يكون التاريخ وكتابة التاريخ انكان هذا خلاصة العناية به والبحث فيه . من الواجب عند النظر في سيرة كل زعيم وطني أن نذكر هذه الحقائق ولا نسهو عنها كلما نصبنا الميزان بينه وبين خصومه في عمل من الأعمال أو أو زعم من المزاعم أو مصائر فشل أو بوادر نجاح . ولا نقول إننا يجب أن نصدق حزبه في كل دعواه وأن نكذب مايقال فيه بلا استثناء ، وانما نقول إن الظلم البين في هذه الحالة هو شطر الحقيقة شطرين والحزوج من القضية بين بين ، لاننا لن نربح في ذلك إلا أن نقتل الحقيقة ونقتل العظمة ونحيي الحسة والحبث والمصانعة ، إذ نلحقها بالعظمة ونسوي بينها وبين الرفعة والطهارة والشجاعة في تقدير بني الانسان .

فالسيف الذي يقطع الحقيقة نصفين لا يجدى في انصاف سعد من خصومه كما أجدى في الانصاف بين المرأتين على طريقة سليمان الحكيم، ولا بدهنا من التفرقة بينه وبين خصومه على نمط غير هذا النمط و تقدير غير هذا التقدر.

لا ريب أن أناساً خاصموا سعداً للرأي والعقيدة ، ولم يخاصموه للمنفعة والضغينة ، ولكننا يجب أن نعلم أن حقوق الناس في العقيدة لا تتساوى ولا تتماثل ، ولا سيما إذا كانوا طلاب زعامة أو كانوا وزرا. وساسة يعملون في مصائر الشعوب .

فأنا أعتقد وأنت تعتقد وكل إنسان يعتقد ، ولكن الرجل الذي يعتقد وهو قادر قدرة الزعيم هو أولى بالاعتقاد وأحق به بمن ينافسونه ويناقضونه ولوكانوا مخلصين مؤمنين بما يعملون .

ورشدي وعدلي حين خالفا سعداً لم يخالفاه الا وهما يعتقدان انهما على صواب فيما رأياه وأن سعداً على خطأ فيما رآه ، ولكن ليس معنى ذلك ان الناس مطالبون بالتسوية بين الحزبين لأن الحزبين يعتقدان ما يدعوان اليه ، وانما الناس مطالبون بأن يعرفوا صاحب الزعامة الذي هو بها حقيق وعليها

قدير ، ولا يلامون بعد ذلك إذا فضلوا اعتقاداً على اعتقادو إخلاصاً على اخلاص.
وقد نال سعد من خصومه كما نال منه خصومه ، وقد تمادى كما تمادوا
مع اللدد في الخصومة ، والكن العذر في جانبه أظهر من العذر في جانب غيره
وكثيراً ما كان الابتداء منهم والرد على ذلك الابتداء ضرورة لا طاقة
مدفعها لانسان .

ولست أذكر من تماديه في اللدد ما هو أولى بالنقد والمؤاخذة من مثلين يحضر انني الآن ، ويتلخص فيهما كل مثل آخر على قلة هذه الأمثال·

فلما كان عدلي في لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية جرى حديث بين سعد ومندوب شركة روتر قال فيه:

« لا أعرف عن المفاوضات شيئاً غير ما أراه في الصحف، ولكني أعتقد من ظواهر الأمور أن كثيراً من الخداع يجري الآن، وان هناك محاولة لاظهار عدلي باشا في مظهر الرجل القوي الذي يقاوم فكرة الانجليز في بقاء جيش بأنحاء مختلفة من القطر المصري، وانه يشدد في أن يكون مقر هذا الجيش أما في منطقة القناة أو فيها يجاورها. وهذا خداع. لأن نقطة البحث الحقيقية ليست تنحصر في المكان الذي تعسكر فيه الجنود البريطانية ولكن في هل نقبل وجودهم عندنا على الاطلاق، وفوق ذلك لاحق لبريطانيا العظمى في وضع جنود بمنطقة القناة بمقتضى معاهدة الحياد. وقد اقترحت يوماً ما أن تعسكر الجنود البريطانية شرق القناة ، وأن يعطى شبه جزيرة سيناء لبريطانيا العظمى عدداً من السنين، ولكن الآمة لم تقبل هذا الرأي، وأنا طبعاً أوافقها على رأيها.»

وهذا كلام لا يقوله القائل إلا ذهابًا مع اللدد والنكاية ، لأن مفاوضات عدلي اذا أسفرت عن جلاء الجيش البريطاني عن القطر كله وبقائه الى أجل في ناحية مر . للقناة لاتستحق الرفض والاحباط ، ولا يصح ان تنتظر الامة المصرية في المفاوضات على يد عدلي أو على يد غيره مطلبًا أكبر من هذا

المطلب الذي يوشك ان تتفق عليه الآراء. ولكن الرجل السياسي اذا قال مثل هذا المقال في عناد الخصومة لا يأتي بعمل عجيب من الانسان ، ولاسيما اذا كان القتل والارهاق والمكابرة وتضييق الحناق وانتزاع ثمر الاعمال عنوة وقسراً وانتهاك الحرمات والامعان في النكاية « واصنع ماشئت» ... بعض ماكان يستهدف له في تلك الآونة من أولئك الخصوم .

والمثل الآخر ان سعداً كان يظاهر الحانقين على الاستاذ على عبد الرازق حين تعرض للتجريد من لقب العالمية لانه ألف كتاباً في الاسلام وأصول الحكم يخالف به بعض العلماء، وكان سعد يسوغ ذلك التجريد بكل ما أوتي من قرة المنطق والبرهان . قال يوماً وكنت اناقشه في ذلك : أوليس من حق كل طائفة من الناس ان تقبل فيها من تشاء و تقصي عنها من تشاء ؟ هب هؤلاء العلماء جماعة انشأ والهم نادياً وحكموا في يوم من الايام على واحدمن حظيرتهم بالاقصاء من هذه الحظيرة . أتراه يحق له ان يبق بينهم على الرغم منهم ولوكان مصيباً وكانواهم المخطئين ؟ قلت ياباشا : ليس من حق جماعة ان تحرم واحدًا منها حقوقه المصرية . لأن وظيفة القضاء التي يليها الاستاذ على عبد الرازق حق من حقوقه الوطنية التي لاسلطان عليها لغير القانون . ولوكان قصارى ولكنه يجرد من وظيفة القضاء بعد التجريد من لقب العالمية ، وليس هذا ولكنه يجرد من وظيفة القضاء بعد التجريد من لقب العالمية ، وليس هذا والحرج على التفكير .

فوافق كعادته حين تتضح لهالحجة ، وقال : أما ان كان الأمر هكذا فقد اختلف على هذا الوجه....

ولكنه ظل مع هذا يود لو تم التجريد ويستريح الى اخباره ولو لم يجادل فيه من وجهة الحق والشريعة ، لانه كان يقدر من ورائه شقاقاً بين حزب الاتحاد وحزب الاحرار الدستورين القائمين بالوزارة ، فسقوطاً للوزارة بعد ذلك ، فعودة الى الدستوروالحياة النيابية ، وفي انتظار هذه النتيجة كانرجاؤه في تحقيقها أغلب على نفسه من نصرة مظلوم يرى أنه هو وحزبه ظالمون من غير هذا الطريق ولا ازال أقول ان سعداً كان بغير هذا المسلك أجدر وأحرى ، ولسكني أقول كذلك انه مسلكان لم تظهر فيه بطولته فقد ظهرت فيه انسانيته التي لاتستغرب من انسان ، أو كما قلت حين هنأته باعتزال وزارة الحقانية أيام الحديو عباس .

ولئن هفوت فما اخالك مخطئاً الالتنفي عصمه الانسان ويلحق بهذين المثلين ماكان يجري احيانًا في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ من قبول طعون في الانتخاب لايصح أن تقبل أورفض طعون أخرى لا يصح ان ترفض ، وكنت اشفق ان يقع ذلك ، فاقترحت ان يكون الفصل في الطعون من عمل القضاء لامن عمل المجلسين ، اتقاء لطغيان الاحزاب وغلبة الاهواء ، ولكن سعدًا آثر ان يستبقي هذا الحق للمجلسين ، وهولم يشترك في قبول ما قبل أو رفض ما رفض من طعون ، ولكنه كان لا ينكر ماحدث ولا منعه عجود د .

على انه كان يسامح خصومه اكثر بما سامحوه، ويجاملهم اكثر بما جاملوه ، معانهم لميجتمع عليهم من العداوات مثل مااجتمع عليه ، ولم يصبهم من النحاص والتبعات . والترات مثل ما اصابه ، ولم ينهضوا بمثل مانهص به من النقائض والتبعات . وكان لا يألو جهداً في نزع ما بصدورهم من غل و تقريب ما بينه وبينهم من قطيعة . فلما عاد من باريس بعد النني الأول ذهب الى منزل صديقه علي شعراوي باشا يزوره و يصل ما انقطع من صداقته وولائه . وكانا قد افترقا في باريس على جفوه . فلم ينسه استقبال الامة برمتها أن يخف هو بالى استقبال ذلك الصديق القديم ، ولم يكن به من حاجة الى استرضائه و إزالة ما بنفسه غير الواجب القديم ، ولم يكن به من حاجة الى استرضائه و إزالة ما بنفسه غير الواجب وابراء الضمير . وكذلك اغتنم فرصة الائتلاف في سنة ١٩٢٦ وقام يوم الاحتفال بالثالث عشر من نو فمبر يثني على عبد العزيز فهمي « بك » ثالث

الثلاثة الذين ذهبوا الى دار الحماية في فجر الثورة ، وهم سعد وشعراوي وعبد العزيز ، وقال حين أثنى عليه انه هو أولى منه بفضل ذلك اليوم ، وماكانت به من حاجة سياسية الى استرضاء عبدالعزيز (بك) وقدر جعت الآمة بحميع احزابها اليه واعتزل عبد العزيزبك السياسة يومئذ وخرج من مضارها لا ينصر هذا ولا يخذل ذاك . وكثيرا ماكان يهم بهذا التقرب اوهذه المجاملة كلما وقعت النبوة بينه وبين صديق او زميل ،فيثنية عنها ما لتي قبلها من سوء اللقاء ورد المحاسنة بالجفاء .

وبما حسبوه عليه جوابه على عبد الخالق ثروث باشا بعد أن دعاه الى الاحتكام الى الامراء والوزراء فيما كان بينهما من عداء وثروت باشا رجل من طراز غير طراز رشدي وعدلي ، وخصومته لسعد غير تلك الخصومة واغراضه من الحكم غير تلك الاغراض، وجوابه نفسه الى سعد دليل على طريقته في الكيد مع اصطناع الطيبة والبراءة .

فقد كتب اليه بعد عودته من المننى يقول: «غير أنه وقد رفع الامراء صوتهم عالياً لضم الصفوف وتوحيد الكلمة رأيت ان بما يعين على تحقيق ما دعوا الأمة اليه تمحيص الحق واماطة اللسان عن واقع الحال والأعمال السياسية التي تمت على يدي. سواء ما كان منها سابقاً على تشكيل الوزارة بما أفضى الى تصريح ٢٨ فبراير أوجرى في عهدها كسياستها في رضع الدستور وموقفها في أمر تعويضات الموظفين الأجانب وتمثيل مصر في مؤتمر لوزان وقانون التضمينات ، وذلك بان نحتكم كلانا في أوجه الحلاف بيننا الى بحلس من الامراء يضمون اليهم رؤساء الوزارات والوزراء السابقين وأعضاء الهيئات النيابية وغيرهم من أولي الرأي في البلاد ، يدلي فيه كل منا بحجته ويبسط ما لديه من الأدلة والمستندات. واني لأرجو وأنتم لا تريدون إلا خير البلاد أن لا تجدوا ما يمنعكم من قبول هذا الاقتراح الذي يمهد سبيل خير البلاد أن لا تجدوا ما يمنعكم من قبول هذا الاقتراح الذي يمهد سبيل الوفاق والوئام ان شاء الله والسلام .»

كتب ثروت هذا فكل. ما فهمه « الطيبون الأبرياء » أنه رجل وديع سموح يعني ما يقول و يطلب السلام و الوئام ... لم يجن على سعد شيئًا و إنما سعد جنى عليه في شرعة المنصفين ، وها هو ذا يحتكم الى الامراء و الوزراء و يقبل حكم القضاة المنصفين ، وكل ما فهمه « الطيبون الأبرياء » ان الاحتكام على هذا النحو الغريب أمر معقول ناجع في فض المشكلات بين الأحزاب : يدع سعد برلمانه و انصاره و يقبل مع ثروت الى عشرين أو ثلاثين من الامراء و الوزراء يعرضان ما يعرضان من الشكايات و يبسطان الحوادث و الاسانيد و الاوراق ، و يقولان و يردان و ينتظر ان فصل القضاء ، فإما خرج سعد نازلاً عن تصريح ٢٨ فبراير وهو لا يملك النزول عن شيء في هذا المقام .

نعم. فهم الطيبون الأبريا. ذلك أو شاءوا أن يفهموه ولم يشاءوا ان يفهموا الغرض الذي لاخفا. به على أحد يريد النظر ويحب ان يفتح عينيه، وهو أن ثروت يوقع بين ســـعد والأمراء والوزراء ليقول: انظروا اليه يرفض اليدالمبسوطة اليه ويترفع على تضاء المخلصين ، وانظروا الي انا الرجل الوديع الودود أسالمه وأناجيه ولا التي منه غير الاعراض والاحجام.

فهي مكيدة جديدة وليست بيد مبسوطة ولا مودة معروضة ، ولم يكن في وسع سعد أن يقابلها بغير ما صنع وان يجيب عليها بغير ما أجاب حين قال . « . . . ما أنت بزعيم في الامة ولارئيس حزب منها ، حتى يكون هناك أهمية لخلافك أووفاقك ، ولكنك فرد اختبر ته السلطة الانجليزية فوجدت فيه آلة صالحة لترويج سياستها ضد بلاده ، فسلطته عليها فاذاقها عذاب الهون ، وسعى جهده في إسكات حركتها وباخضاع نهضتها بوسائل من الارهاق بلغت حد الاعدام ، ومن الاضلال وصلت الى الكذب والبهتان ، وكاد يصل بها الى تلك الغاية السيئة لولا عناية من الله ادركتها ولفتة من المليك اغائتها فأقصته عن منصة الحكم وانقذت البلاد من ذلك الخطر العظيم . وأصبحت

بعد ذلك فرداً لا يهم منك الا التحذير من ماضيك والاعتبار بحاضرك والاحتياط لقابلك. امامك المنابرالعامة فاعُلُها بان وجدت سميعاً ، والجرائد السيارة فاكتب بها ان وجدت قارئاً ، والنوادي الحاصة فتحدث اليها ان وجدت نصيراً . اما التجاؤكم الى الامراء فشرف ولكن لا يحوزه الاالاكفاء» وكخير لبني الانسان ألف مرة أن يكون الناس صرحاء على هذا الاسلوب من أن يكونوا طيبين على أسلوب ثروت في ذلك الخطاب .

ومن الحق أن نذكر أن خصومه كانوا يخاصمونه ومن ورائهم سطوة الدولة البريطانية وفي أيديهم سطوة الحكومة المصرية، ولا شاغل لهم بالليل والنهار الاأن يدبروالأحابيل وينصبو االشباك ولايدخروامن السطوتين وسعاً في سبيل تحطيمه واغتصاب سعيه واستثارته إلىأقصى حدود الاستثارة فأغربشي، بعد هذا أن يستغرب، المنصفون الطيبون، أن يحمل على خصومه وأن يقول عن بعضهم انهم «برادع الانجليز» وعن بعضهم أنهم بجرمون ، وما في هذه ولا تلك ما هو أشد من كلمة السيد المسيح حين خاطب الكتبة والفريسيين بقوله « يا أولاد الأفاعي » وهو هو مثال الصفح والاحسان. لكن «المنصفين الطبيبين» الذين لا يتحدرون لخصومه عليه – معاذ الله 1 _ قد استغربوا ما ليس بغريب ولم يرواحرجاً فيماكان يصنعه الخصوم لانهم صنعوه باسم الحكومة والنظام والقانون ، ورأوا حرجاً فيماكان يقوله لانه لايقوله باسم الحكومة والنظام والقانون 1 ترى ما ذا يرى المنصفون الطيبون لو انه جعل خصومه أولئك مجرمين حقاً بدلاً من أن يقول عهم إنهم مجرمون ؟ ترى ماذا يرون لو انه استطاع وهو في الوزارة أن يدينهم بسفكالدماء وتزوير الوثائق والتحريضعلىانتهاك القوانينوتعذيبالأبرياء وتلويث سمعة القضية الوطنية بالمذابحوالآثام؟ ماذا يرى المنصفونالطيبون لو انه جعل خصومه المجرمين مجرمين قانوناً ورسماً بدلاً منوصفهم بالاجرام بلفظ اللسان ؟ الا يكونون إذن مجرمين وتكون معاملتهم معاملة المجرمين

ونعتهم بنعوت المجرمين واجبًا مفروضاً على المجتمع الانساني يخطي. من يقصر في أدائه ؟ وإذا كان لم يستطع أن يدينهم لأن السطوة البريطانية تحميهم أيكون ذلك شفاعة لهم تشرفهم وملامة عليه تعيبه في نظر المنصفين الطيبين الخير لبني الانسان ألف مرة أن يدان الزعماء هـذه الادانة من أن يظفروا عند المنصفين الطيبين بالثناء والاعجاب ا

**

وقد رد سعد كثيراً مر ... الأيدي التي انبسطت اليه ولكنه كان يرد النفاق والغفلة ولا يرد الصدق والاخلاص . حضرته مرة وعنده فتح الله بركات باشا يعالج إقناعه باستقبال أناس خرجوا عليه ثم عادوا اليه لما أقبلت عليه الدولة وصلحت الامور.

قال يا فتح الله : إني لا أطيق أن يستغفلني هؤلاء الناس .

قال فتح الله. باشا: إنهم يا باشا يستغفرون ولا يستغفلون ا وما زال به حتى رضي باستقبالهم على مضض ، ولو أصر على اقصائهم لاحسن غاية الاحسان وله في كراهة النفاق و تبكيت المنافقين كلما عرضت لذلك مناسبات الحديث نوادر من حضور البديهة وصراحة القول قلما نجامنها مستحقو التبكيت. سأله أديب كبيركان من الخارجين عليه ثم عاد إلى تمليقه حين صارت الدولة اليه : أحق يا باشا انك كنت تقرأ صحيفة «كذا » في منفاك! و يعني الدولة اليه : أحق يا باشا انك كنت تقرأ صحيفة «كذا » في منفاك! و يعني صحيفة كانت تتهم بأصحابه و تنحي على حزبه و تفحش في كثير من الأباطيل. قال : نعم وخير ماكان يعجبني منها حديثها عن نادي المنافقين أوحزب المنافقين ا

وكان من عادته على المائدة إذا كثر عدد الحاضرين أن يوكل بكل صف صديقاً يعنى بمن يليه ، فسمع يومًا صديقًا من هؤلاء يسأل جاره على سبيل المداعبة أتأخذ مني أم تأخذ من فلان ؟ وكان ذلك الجارمن أقرباء سعد الذين يقبلون عليه في دولته كما يقبلون على خصومه إذا تغيرت الجدود . فسرعان ماأجاب سعد : دعه فهو بارع في الأكل على الجنبين 1

埃埃森

ولم تعرف لسعد خصومة عنيفة قبل ولاية الوزارة. فقد كان في القضاء مجبوباً مبجلاً بينزملائه وإخوانه، وبين المحامين وأصحاب القضايا والموظفين الذين كانت تربطهم به روابط العمل، وكان بحماً على الثقة به والاعجاب بفضله وسجاياه بين عارفيه وصحابته حتى المتنازعين الذين لا يتفقون على شيء في مذاهب السياسة وتقدير الرجال. أما بعد ولاية الوزارة فقدد انتقل إلى المجال الذي لا يسلم فيه من العداوة والاراجيف إلارجل لا يفكر ولا يعمل ولا يستحق صداقة الاصدقاء. وقد كان هو أول وزير حرك بركة الوزارة الراكدة وأقلق الهاجمين عليها فيما كانوا مستغرقين فيه من سباب عميق. فجعل زملاؤه ومنافسوه من طبقة الوزراء يتهمونه لا تهم لا يريدون أن يتهموا أنفسهم، ووصفوا إقدامه على ما يحجمون عنه بالطمع تارة وبالبلاهة تارة أخرى. وطاب لهم أن يسموه «أبا طويلة» لأن هذا اللقب يطلق في البيئات أخرى. وطاب لهم أن يسموه «أبا طويلة» لأن هذا اللقب يطلق في البيئات أولئك الضعفاء المهازيل يحجمون لا نهم حبناء، وكا نما كانوا أولئك الضعفاء المهازيل يحجمون لا نهم حبناء، وكا نما كانوا قادرين على مثل سعيه ولكنهم يأبونه قياماً بواجب الرصانة والدهاء.

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فلاجرم تضطرب حوله الآهوا. و تضطرم حوله العداوات والمنافسات، وأحجى أن يكون ذلك في بلاد تعددت فيها مناحي السلطة وأغراض الحاكمين. ودسائس طلاب الحظوة والغنيمة عند أصحاب السلطات المتفرقين المتنابذين وقلّا عرفت لسعد مع هذا مسخصومة في هذه الفترة كان هو جانيها والبادي. بالعدوان فيها ، ولو شا. أن يتجنب الخصومات ويحيد عن سبيلها لما استطاع لانه إذا نسي أنه عظيم لم ينس زملاؤه ومنافسوه عظمته وضا لتهم بالقياس اليه ، وقد يغتفر بعضهم عداوة بعض لانهم يملكون وسائل الغلب

وأسلحة الصراع فيما بينهم فلا يبأس أحدهم من بلوغ ماقد بلغه سواه: إن كان حامل لقب فغداً يحمل مثل لقبه بسعي مثل سعيه ، وإن كان محسوداً على وظيفة فغداً يدركه في تلك الوظيفة مع مضى الزمن أو مؤاتاة الاسباب والشفاعات. اما المزية التي لايدركونها ولا يطمعون في ادراكها فهي القوة التي من أجلها يُحسب لسعد حسابه و تعرض عليه من أجلها مودة الاقوياء الذين لا يحفلون بهم ولا ينتظرون منهم غير الخضوع والزلني والاستعطاف ، وذنب سعد في ذلك ذنب كل عظيم ، أما فضيلته في محاسبة خصومه فليست مما نراه في كل عظيم ، لان كثيراً من العظاء لا يقنعون بما كان يقنع به من نقمة أو عقاب أو عتاب .

ومقطع الحسكم في هذا الباب أن تسأل: كم زعيماً وطنيًا في العالم كان أقل خصومة وارفق في الملاحاة من سعد زغلول؟ فإن كان سعد من أقلهم خصومة وارفقهم ملاحاة فذلك حسبه من عذر وحسبه من ثناء... واذا هو لم يكن بطلاً في كل خصومة فعذره الواضح بل حجته القائمة انه لم يكن دائمًا في خصومة أبطال ، بل كان من خصومه من لا يستحقون صفح البطولة وسماحة الانفة ، ويرجع اللوم اليهم في ذلك وقلها يرجع اليه .

في أوقات قليلة كان يجري الحديث بين سعد وبيني في الشعر والادب والفنون: احادثه في ذلك اذاقصدت خدمة لآهل الفن استعين به على قضائها ، أو احادثه اذا فاتحني في بعض ارائي عن الآدباء المعاصرين أو الآقدمين أو عن مقالاتي الآدبية التي كنت انشرها يومًا من كل أسبوع ولا أكتب يومها في السياسة . وكنت اشعر اذا انقضى الحديث ولم اتجه بالقول اليه انه كان يراقبني طويلاً ولا يلبث ان يقول بين الجد والفكاهة : «يا فلان ، ما أحسبك إلا تعجب منا ومن خصوما تنا وانت فوق سحابك بين الشعر والخيال 1 » قلت له يوماً على اثر كلمة من هذه الكلات : الحق انني لااعجب من هذا

ياباشا لانه ليس بعجيب أن تكون للسياسة خصومات ، وأن يكون لهذه الخصومات أهلها والقادرون عليها . ولكن الحق أيضًا انني لا أنصر رأيًاعلى رأي رعاية للبرامج الحزبية أو المناوشات الموقوتة ، فانهاكما تقول يادولة الباشا لا تستغرق انسانًا مشتغلًا بالادب والحنيال . انما انصر الرأي على الرأي رعاية للقيم الانسانية العليا التي هي عندي أرفع من القيم الحزبية ، بل أرفع حتى من القيم الوطنية -

ولا أدري هل أعجبه ذلك أو لم يعجبه ، ولسكني اعلم ان الخصومات السياسية في عهد سعد لم تكن تعنيني الالأنهاكانت تمثل لي جانبين في أحدهما القوة المستقيمة والدعوى الصحيحة وفي الجانب الآخر الحيلة الملتوية والدعوى الزائفة أوالتقليدية على احسن ما توصف به من صفات.

ها هنا رجل قادر لم يكسب قدرته من المناصب والتقاليد وانما كسبها من خلقته و تكوينه وميراث آبائه واجداده ، وها هنا رجال يناضلونه من لا يعز وجودهم في كل زمان ومن يقضون الحياة في الزلني الى السادة الغالبين ينالون منهم المظاهر والمراسم الانهم منسوبون الى هذه الأسرة أو تلك بين طبقات الموظفين . ثم يخيل اليهم انهم عملوا كل ما عليهم لا كتساب العظمة و تسخير التاريخ ، و يسائلون أنفسهم مخلصين أوغير مناصين : ما هي العظمة الانسانية بعدما بلغناه وادركناه ؟ ومن هؤلاء أبطال الامم وأصحاب القيادة فيها ونحن في الذروة العليا من المراتب والألقاب ؟ يتبيغ الدم في العروق حين يصطدم الانسان بدعوى هؤلاء الادعياء ، و يتبيغ الدم في العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وماهو إلا نجاح في تزييف الدم في العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وماهو إلا نجاح في تزييف الدم في العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وماهو الانجاح في تزييف المدم في العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وماهو الانجاح في تزييف المدم في العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وماهو الانجاح في تزييف الموية على تموية على تموي

ومتى نظر الانسان الىسعد وخصومه هذه النظرة فانه لينصره لانه إنسان قبل ان ينصره لانه من حزبه أو من وطنه ، فان القيم الانسانية لهي الباقية الهادية من وراء ضلال المطامع والاضغان وحروب الاحزاب والأرطان .

سعدفي بيته

في ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطب سعد شريكة حياته السيدة الجليلة أم المصريين صفية زغلول كريمة المرحوم مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء في ذلك الحين، وفي شهر فبراير من السنة التالية احتفل بزواجه، إذ كان يومئذ في السادسة والثلاثين .

والسادسة والثلاثون ليست بالسن المبكرة للزواج بين المصريين . فقد جرت العادة _ ولا سما في تلك الآيام _ أن يفكر الآباء في تزويج أبنائهم وهم دون العشرين أو في العشرين على أقصى تقدير ، ولكن سعداً لم يكن ينظر الى الحيماة نظرة الفتيان الذين يعيشون معيشتهم الدارجة من الدراسة الى الزواج الى التجارة أو الوظيفة على نظام رتيب لا يطرأ عليه تبديل ولا تغيير . بل كان فتى يتطلع الى المجد والمستقبل من بداية حياته ، وكان رجلًا له رأي في المرأة وفيها ينبغى أن تكون عليه شريكة الحياة يخالف رأي السواد الغالب في تلك الأوقات وفي جميع الأوقات ۽ وحسبه منذلك أنه هو الذي أعارب قاسم أمين زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه في « تحرير المرأة » وتشجيعه على احتمال مالتي في سبيله من سخط وعنا. ،وكان فضلًا عن ذلك يتمَّا يتصرف في أمر زواجه كما يشا. هو لا كما يشا. الآبا. والأهلون . ولو عاش أبوه حتى بلغ سن الزواج في القرى لجاز أن يختلف تاريخ حياته من هذه الناحية بعض الاختلاف، ولكنه ترك لنفسه في هذا الأمر فأصبح في حل من اختيار الزمن واختيار القرينة كما يريد ، وأصبح في حل من الانتظار الى أن يدرك الشأو الذي يتيح له أن يتطلع الى قرينة توافقه في العقل والحلق وتجاريه في مضهار الحياة ، وقد كان فوق ذلك تلميذاً للسيد جمال الدىن الذي عاش عيشة المتبتلين واستطاب حياة الانفراد والجهاد

فلم يكن غريباً عنده أن يبتى الرجل الى الثلاثين أو ما بعد الثلاثين بغير زواج وكانت السيدة قرينته في الثامنية عشرة حين بنى بها ، أي فى السن المألوفة لزواج البنات بين الأسر التركية والبيوت المهذبة الى الآن وكان هذا الزواج من أسعد توفيقاته في جميع أدوار حياته ، لأنه وفق فيه الى قرينة هي نعم القرينة للرجل العظيم : كانت في سن بنته فتعلمت ما تتعلمه البنات من الآباء ، واطاعته طاعة الصغير للكبير الموقر المحبوب ، ولكنها عاشت معه حتى رئمته وتكفلت به تكفل الامهات بالبنين الذين هم في حاجة الى العطف والعناية والتدبير . ولم يرزقا الابناء في قرانهما الطويل فاستحالت عاطفة الالفة الزوجية الى عاطفة الامومة الحنون ، وامترجتا أحسن امتزاج .

وكان من دلائل نبوغ سعد وامتيازه على الجئيل الذي هو فيه انه أصهر الى بيت مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء . فقد كانت الاسر التركية جميعًا فضلاً عن الاسر الرفيعة من تلك الطبقة _ تترفع عن مصاهرة الفلاحين وسعد فلاح . وكانت تترفع عنه مصاهرة المحامين وسعد كان محاميًا في العهد الذي لم تسم فيه صناعة المحاماة الى ذاك المقام . فهصاهر ته لمصطفى فهمي باشا تدل على سعة في تفكير ذلك الوزير الكبير وطيبة في سريرته وسجاياه ، كما تدل على مكانة لسعد لم تكن لنظرائه في ذلك الجيل .

وقد وقع ذلك الزواج موقع الاستغراب عند كثيرين فزعموا أنه لم يكن ليوفق هذا التوفيق لولا وساطة الأميرة نازلي فاضل صديقة سعد وصاحبة المنزلة الرفيعة عن الساسة المثقفين . لكن الحقيقة التي سمعناها من الثقاة ان الأميرة لم تكن ترتاح الى هذا الزواج ولم تساعد على اتمامه ، بل لعلها ساعدت على نقضه وارجائه ، وانما كان قاسم أمين صديق سعد هو هاديه الى هذا التوفيق ، لما كان يعلم من شرط سعد في الزوجة الصالحة كلما تحدثًا في شأن المرأة والزواج ، وكثيرا ما كانا يتحدثان في هذا الموضوع .

وقد سئل سعد مرة - كما سمعت - في حقيقة ما يروى عن وساطة الأميرة نازلى في زواجه بالسيدة صفية . فابتسم وقال : لا . لم تكن الاميرة رحمها الله هي صاحبة هذا الفضل ولكنه كان قاسم أمين . . . ثم قال بعد صمت يسير : تلك أكبر مأثرة أذكرها لقاسم مدى الحياة .

ولم يرُق زواج سعد بصفية كثيرين من «عذال» الزواج الملازمين لكل بيئة شرقية إلى هــــذه الآيام . فلا يكاد يشرع في زواج حتى تكثر الآقاويل من هنا وهناك عن الزوج والزوجة وعن الاصهار والآباء . فأشاعوا فيما أشاعوا أن سعداً تزوج في شبابه من إحدى بنات بلده وأن له منها فرية في قيد الحياة ، وساعد على رواج هذه الاشاعة كبر سنه عن السن المألوفة لزواج الموسرين من أبناء الفلاحين . ولكنها أشاعة سمعت ما ينفيها نفياً قاطعاً ولم أسمع ما يؤيدها من أحد يعول له على كلام . وسألت العالم الفاضل المرحوم الشيخ محمد زيك بك الابياني فيها فاستبعدها جداً وقال : « إني أعتقد أنها غير صحيحة و يؤكد اعتقادي أن ابيانة قائمة على أسر ثلاث هي أسرة الزغاللة وأسرة زيد وأسرة حسام الدين ، فلو تزوج من بلدته لتزوج من إحدى هذه الآسر ولاشتهر ذلك . وبعيد جداً أن يتزوج من فتاة من المجهولات الإنساب الآنه كان عاراً شديداً بين أبناء الريف . وقد كان سعد مشغو فأ بتحصيل دروسه حتى في أجازات الصيف . فغير بعيد أن يتحصن طويلاً أيام الشباب .»

* * *

و تظل هذه الاشاعة تتردد حتى بعد الزواج ، ويتفق أن يشتغل سعد بالتحضير لشهادة الحقوق ودراسة اللغة الفرنسية عقيب زواجه بوقت قصير وأن يعكف على الدراسة في حجرة لا يدخلها أحد الى السحر أو مطلع الفجر في بعض الاحيان ، ويزور السيدة صفية صديقاتها وصويحباتها أثناء تلك الليالي فلا يرين سعداً حيث ينبغي أن يرينه في تلك الايام ، ويشاء الفضول أن تسألها بعضهن : أصحيح أن قرينك له بيت آخر وقرينة أخرى كما يقال ؟

والسيدة صفية إن لم تكن مته كمة بطبعها فقد تعلمت النهكم من ذلك الرجل الذي كان يتسلح بالفكاهة كماكان يتسلح بالجد في تزييف الاشاعات والأقاويل . . . فتقول السيدة : نعم . له زوجة أخرى ولكنها في هذا البيت . انظرن اسأريكن إياها وأسمعكن سرار سعد معها في هذه اللحظة . فيعجبن ويزداد بهن الاستطلاع والفضول والاستغراب من رضى السيدة بهذه المشاركة ، وينهضن معها الى حيث يكون سعد منكباً على الأوراق يقرؤها بصوت جهير على عادة الأزهريين ، والى جانبه سرير أعده للنوم إذا تأخر به الدرس الى هزيع الليل الاخير ، مخافة أن يزعج السيدة بعد هذا السهر الطويل .

- ـــ أسمعتن ؟
- ــ نعم . ولكن أين الزوجة .
- ـــ الزوجة هي هذه الأوراق، وهي هي الضرة التي سمعتنّ بها فما يقــال .

* * *

وجد سعد بعد زواجه البيت الذي يحتاج اليه أمثاله ويأوي اليه قلبه وعقله والعهد برجال العمل والكفاح جميعاً أن ينشدوا الدعة والسكينة في البيوت لافرق في ذلك بين ميـــدان الحرب وميدان العمل والطموح، فالجنود وأبناء الامم المتجندة عامة مشهورون بتوقير زوجاتهم ، والاطمئنان إلى تدبيرهن للمنازل ، واستقلالهن بكلمافيها من شئون .

اشتهر بذلك رجال التركوالفرس الاقدمين واليابان ، واشتهرت به عصور الفروسية في جميع الشعوب ·

وسعد في بيته كان هو المناصل المكافح في ساعة السلام . لا يسمع له صوت ولا يعرض لشأن من شئون المنزل . حتى استغربت أمره خائطة من الخائطات اللواتي يزرن بيت الامة . وبنات هذه الطبقة يعجبن دائمـــاً من الرجل بارتفاع صوته في الدار ، وعندهن أن صوت الرجل الجهير المسموع

الذي يرن بالزجر والنهر والدعاء والنداء هو فخر الزواج وهيبة البيوت ، فقالت يوماً للسيدة الجليلة أم المصربين: أين هو الباشا ياسيدتي؟ ألا يسمع له صوت ؟ ألا يحس له وجود؟ فقالت لها: بلى يسمع صوته في كل مكان .

وبلغ من ذلك أن الحدم كانوا لايرهبونه ولايتقونه ، وكانت أم المصريين تشكوهم اليه وتدعوه الى تخويفهم وزجرهم ، فكان يقول لها : هذا شانك ، فاصنعي بهم مابدالك ، وعاقبيهم بما تشائين إلا قطع العيش . فدون ذلك ويكنى العقاب والتأنيب .

وجرت معاملته الخدم على ذلك فلم يطرد من بيته أحداً دخل خدمته إلا لسرقة أو وقاحة لا تطاق . أما من بريء من السرقة والوقاحة فهو في أمان ولا يزال في أمان مدى الحياة . يتولاهم ببره ويوصي ببرهم بعد ماته ، وفي إحدى وصاياه يقول لام المصريين : « إذا حم القضاء وأدركتني الوفاة أرجو أن تصرفوا من تركتي مبلغ خمسمائة جنيه للحاج أحمد تابعي وخمسمائة الى محمد أحمد ومائة الى على الفراش إذا كانوا في خدمتنا عند حلول الاجل عواوصى للا نسة « فريدا » الوصيفة الالمانية بمبلغ خمسمائة جنيه ، كما أوصى لا خرين بمبالغ تقل أو تزيد على حسب طول الخدمة وحسن السلوك.

وعرف الحدم منه هذا العطف وهذه السماحة فكانوا يجترئون عليه ولا يتهيبون الصراحة في التحدث اليه: حدث مرة حين كان في قصر كارنارفون بانجلترا أن نظر تابعه الحاج أحمدالى تلك الدنيا العريضة والمجد الأثيل فوقع في روع التابع الساذج أن الانجليز يساومون سعداً بكل هذا ليركن اليهم في قضية البلاد . فصاح به وهو مشدوه: « ياباشا « اوع » للبلد ياباشا هذا شيء مهول » 11

قال سعد وهو يروي لنا هذه القصة . فضحكت وطمأنت الحاج أحمد ي

وقلت فى نفسي: إن قضية يخشى عليها هذه الحشية أمثال هذا الرجل الساذج لهى في حرز حريز.»

وربما تبسط في ملاحظة الخدم في احرج الاوقات ليدفع وحشتهم ويسري عنهم همومهم وأوجالهم ويداعب جهلهم كما يداعب الآب جهل الأطفال الصغار ، ومن نوادره في ذلك انه كان معهم عندنفيهم الى جزيرة مالطة خادم لحمد الباسل باشا اسمه حسن ، فلما وصلوا الى بورسعيد وايقن الخادم بالسفر البعيد اضطرب اشفاقاً على ابنائه و توجساً من هذه الغيبة المجهولة التي لا يعرف مداها و لا يدرى متى تقسم له الآوبة منها ، فقال سعد لحمد : ضاعف له ولهم أجرهم ليطمئن على رزقه ورزقهم ، ولما وصلوا الى مالطة والرجل لا يزال في جزع واضطراب قال سعد : أما المرتب فقد زيد وبلغ حد الرضى ا فلم يبق بالا القاب التكريم والتشريف ، ونحن هنا صالحون لتأليف بحلس وزراء فهلموا نجتمع و ننظر في أمر صاحبنا حسن بما يرضيه ! واجتمع المجلس و تعاهدوا من تلك اللحظة ان لا ينادوه إلا بيا حسن رتبة البكوية السنية ! ، وتعاهدوا من تلك اللحظة ان لا ينادوه إلا بيا حسن بك و لا يذكروه إلا باسم حسن بك و سر الرجل بالمنحة واعتقد انها منحة رسمية ، وظل معتزاً باللقب غيوراً عليه ، إلى أن مات .

وبهذه الملاطفة كسبقلوب الخدم واطمئنانهم إلى حلمه وقلة خشيتهم منهوا تقائم لزجره وعقابه . وهكذا كان من عجائب الطبائع الانسانية ان الرجل الذي كان يملأ صوته الدنيا لم يكن يسمع له صوت في بيته ، وان الرجل الذي كان يهابه الكبراء والأمراء لم يكن يهابه الخدم والاتباع .

华米华

ومضت السنوات ولم يرزق سعدنعمة الذرية . فكا ممان هذا الحرمان يزيد عطف الزوجين كل منهما إلى الآخر ولا ينقص منه ولا يكدره بأسف ظاهر ولا شجن دخيل ، فليس بين الازواج الممتعين بالابناء والاحفاد

من كان يحبزوجه أكثر من حب سعد لصفيه أو من كانت تحبروجها أكثر من حب صفية لسعد ، ولحدبه عليها وحرصه على سلامتها آثر السفر إلى أوروبا في الصيف الذي مات فيه محمد عبده رحمه الله . مع ولائه الشديد لذلك الصديق العظيم والاستاذ الكريم ، ووفائه المعروف لخاصة الصحب والاخوان ، لأن السيدة صفية كانت ذلك العام على حالة من المرض لا يؤمن فيها الاهمال ولا غنى فيها عن العناية والعلاج .

ولم يسمع عن سعد أنه كان يذكر الحرمان من البنين أمام أهله أو شريكة حياته . وإذا ذكره لها فانما يذكره في معرض التهوين والمؤاساة ، فكان يقول لها : لقد فاتنا النسل فاصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك و أبنائي . ونعم العوض الذي عوضنا الله .

ولدقة آلحس في نفسه من هذه الناحية كان يؤثر أن لا يمسها بكلام أو اشارة على مسمع من الازواج المحرومين: رأى يوماً إحدى قريباته تشتري تذكرة بريد عليها صورة طفل جميل. فقال لها: ما عساك أن تصنعي بها؟ قالت أرسلها إلى فلانة وأتمنى لها أن يرزقها الله طفلاً مثله في صباحته وجماله. قال: وهسل هناك ما يدعو الآن إلى ذلك الأمل؟ إن كان فابعثي بها، والا فير أن لا تثيري في قلبها هده الذكرى، فلعلها لا تظفر بالولد فتنقلب إلى حسرة وشقاء.

وإذا كان سعد لم ينعم بعطف الآبوة فقد كان عطفه على أهله وأقربائه مضرب الآمثال بين عارفيهم وعارفيه . بل لقد كان هذا العطف يبلغ به أحياناً مبلغ الضعف والتسليم ، فكان لآخيه أحمد فتحي سلطان عليه عظيم ، وكان لابن أخته فتح الله باشا دالة عليه لا يتعذر معها رجاء . و لما مات أخوه أحمد فتحي ووقف لشكر المحتفلين بتابينه أفحم أمام الجمع وهو الخطيب المنطيق ، ولبث هنيهة لا ينطق و لا يتحرك . ثم احتبس صوته وانفجرت عيناه بالدموع ولم يقو على المكلام ،

ولاحظ عليـه بعض الصحف انه يعين أقرباءه في المناصب الكبيرة ،

وتحدث اليه بعض الصحفيين فقال: « إنهم يدهشون لأني عينت في بعض المصالح رجالاً كان الانجليز قد اتخذوا ضدهم اجراءات يقولون إنها جنائية وقدكان الواجب ألا يروآ في عملي هذا غير انه أمر طبيعي ما دام على رأس الحكومة رجلكان الانجليز قد نفوه.»

قال الصحفي فقلت: ويلومونك أيضاً على انك عينت بعض أقاربك في وظائف عالمية فقال: أو كد لك ان لي أقارب كثيرين، كثيرين جدًّا في الغربية، وفي مناطق عديدة من أقاليم القطر، وأنا آسف جـــد الأسف لأنهم ليسوا على معرفة ولا كفاءة، والالكنت عينتهم في كل مكان، لتكون لنا بهم إدارة زغلولية حقيقة اسماً ومعنى ودماً . ثم ضحك الرئيس وواصل كلامه فقال:

« لما نفو بي نفو ا معي اثنين من اقرب اقربائي اليّ فهل نفيا لانهما من دمي ؟ أو لانهما كان يمثلان قوة حقيقية في خدمة القضية الوطنية ؟ سواء أكان هذا أم ذاك فواجي مرسوم يقضي بأن أضع هذين الرجلين الى جنبي ليقاسماني مسئو ليتي مادام قدقضي عليهما بان بكون حظهما من حظي . . . قل عني انني عند تساوي المعرفة والكفاءة أفضل قربي على غيره لاني بطبيعة الحال اثق بقريبي ثقة تامة في تنفيذ سياستي وجعل الحكم سائراً على وجهة نظري ، اليست على جميع مسؤلية الحكومة والادارة ؟ فهل تكون مسؤلية على الرئيس اذا لم تترك له حرية تامة في اختيار معاونيه ؟ وهل ألام على سوء الادارة اذا كنت مضطراً للاحتفاظ بجميع رؤساء المصالح الذين عينهم غيري ؟ لقد قلت لك ان انتقادات خصومي لم تؤثر في ، وسأواصل المهمة التي بدأت بها. »

قال الصحغي: قلت ويذكرون ايضًا انهناك سعديين مستائين .

فقال : قرأت هذا في جريدتك ولكن لم أصدقه ١١

ودع أنسعداً لم يعد في كلامه الانصاف ، ودع أن الكفاءة التي شهد بها لاقربائه قد شهدت بها وزارات غيرالوزارات السعدية ، ودع انه كان يستحق اللوم — لاالثناء — لو تخطى الأكفاء من رجاله لأنهم أقرباء، ودع ما في كلامه ذاك من التحدي والاغاظة الىكان يتعمدها في أمثالهذه الأحاديث.

دع هذا كله ويبق أن عطف سعد على أقربائه أمر مأثور مشهور ، وانه كان لا ينساهم حين ينبغي أن يذكرهم بالخير والمبرة . نعم وكان يذكرهم بما له كما يذكرهم بجاهه وسلطانه ، وقد ترك قليل ما بقي من ثروته لينفق منه بعد موته على الأقرباء الفقراء ، وكتب إلى الاستاذ محمد زيد بك رحمه الله عن الضياع التي كان يملكها سعد فقال ما يأتي بنصه :

« سلاماً و تعظيماً و احتراماً . و بعد فقد قلت لسياد تكم ان المغفور له سعد زغلول كان قد اشترى عزبتين بجوار دمنهور ثم باعهما . وازيد على هذا انه كان قد اشترى أيضا أرض المرحوم سيد احمد القاضي عمدة مطوبس بالاشتراك مع المرحوم سيد احمد بك زغلول ، ومساحة هذه الارض أربعائة فدان تقريباً و بيعت بالمزاد العلني لوفاء دين عليه (أي على العمدة) ولم يزل المرحوم سيد احمد بك زغلول يباشر ادار تها حتى توفي فانتقل نصيبه الى نجله سيد احمد بك زغلول الصغير وهي مملوكة له للات . وقد باع المغفور نه عبد الله بك زغلول رغبة منه في ترقية أفراد الاسرة ماديًا وأدبيًا ، وأشيع في وقتها انه نزل له عن نصيبه كما نزل له عن الاطيان التي ورثها من والده في ابيانه .»

والذي سمعته من مصدر آخر أنه أعطى من ملكه ستين فداناً لابن أخيه عبد الله بك زغلول لانه توسم فيه النجابة كما قال ، ثم أعطاه الأربعمائة الفدان التي ذكرها الاستاذ زيد بك ، وأنه أوصى بالثلث من جميع الاموال التي يتركها سواء كانت ثابتة أو منقولة الىكل من سعيد ورتيبة ولدي شقيقته . لكل منهما النصف أي نصف الثلث المذكور ، وذلك قبل ان يدرك الموت سعيداً في عنفوان صباه .

فالرجل كان يتخذ من ذوي قرابتهابنا. شملهم بأجملها تشملهم به الأبوة

من معونة واشفاق ، وكان عطفه في حياته الخاصة مقسوماً بين آله وشريكة حياته ، وقد أخلف أناس من أقاربه ظنونه بما جزوه من عقوق وكنود ، فاما في بيته فقد جوزي على عطفه الكريم أوفى الجزاء .

نعم. نعتقد نحن كما يعتقد جميع العارفين بمناقب السيدة الجليلة أم المصريين أنه قد استفاد من عشرتها في حياته العامة كما استفاد من عشرتها في حياته الخاصة فهي قد مهدت له النصر والرجاء في معترك النصال. وكان قلبها الكبير يعرف الحنو على مجد سعد كما يعرف الحنو على شخص سعد، فلم تكن تستسلم للجزع حين لا بدمن الجلدو الاقدام ولم تكن تضعف اشفاقًا على سلامة قرينها حين ينبغي ان تقوى اشفاقًا على السنين.

يوم جاءها سعد يقول لها في فجر الثورة : ياصفية ؟ انني وضعت رأسي على يدي هذه . وبسط لها يمناه ـ كان جوابها : وضع رأسي هذة على يسراك ويوم جاءها الرسل ينقلون لها ما يعانيه سعد في منفاه بسيشل ويبالغون في سوء ما يعانيه ويسألونها أرب تستعطفه على نفسه وعليها وترجوه أن يعتزل السياسة ليضمن العودة الى بلاده وبيته ـ كان جوابها : ان كانت حياة النهضة في بقاء سعد بمنفاه فبقاؤه في ذلك المنفي هو الذي اتمناه .

ويوم تحدثت إلى دار الحماية بعد نفيه إلى سيشل كانت تحادثهم باللغة العربية وتأبى أن تتكلم بغيرها وهي تحسن الفرنسية والانجليزية ، وكانت تتطلب اللحاق به إلى الجزائر السحيقة وهم لا يجيبون . ثم بدا لها انها استطاعت أن تخلف سعدا في إذكا. روح الامة وشحذ عزائمها فابت إلا البقاء بعد أن عادوا يأبون عليهاالبقا. ويسمحون لها بالذهاب إلى حيث تشاء ، وكانت يوم يومئذ أكبر عطفاً على قرينها وأيقظ عيناً على مجده وخلوده مماكانت يوم استطارها الاشفاق إلى موافاته ، وأنساها ما يكون عليه بيت الامة و تكون عليه الديار المصرية كلها بعد غيامها وغيابه .

ومواقفها من هذا القبيل لا تحصى في هذا المقام. لكن موقفين اثنين منها فيهما الكفاية للدلالة على المعين الغزير الذي كان يأوي اليه سعد من نبل نفسها ورجاحة لبها وسرعة تصرفها في مقابلة كل حالة بما يناسبها ويستدعيها ، فهي التي أنكرت أن يحمل سعد في نعش تناط به الأوسمة والانواط وعلامات المناصب الرفيعة ، وأبت إلا أن يدفن وهو «سعد زغلول» وحسب كاسيعيش في ذكريات التاريخ وهو «سعد زغلول» .

ذلك موقف جليل من زوجة في ساعة الفراق الآخير.

وموقف آخر يشف عما عندها من روح الفكاهة في رد الاساءة بما تستدعيه من سخر وتقريع . ذلك يوم أن تسور بعض المحققين دارها ولم ينتظروا حتى يفتح لهم الباب بل هبطوا الدارعلى سلم جاءوا بهالهذه المفاجأة ... فقد أصرت بعد ذلك أن لا تفتح لهم الباب ليخرجوا ووقفت في حديقة الدار تنظر اليهم وهم يصعدون على السلم متعثرين ، وتقول لهم : من جاء من الحيطان فليذهب من الحيطان . أما الباب فانما يفتح لمن يأتون البيوت من الأبواب .

هذه اللباقة وتلك النبالة كانت ولا شك مصدر عون كبير في الحياة العامة والحياة الحاصة للزعيم العظيم .

* * *

وان من دلائل العظمة في سعد — ولا شك — ان استحق الحب في حياته وبعد مماته من هذه النفس الكريمة وهذه الفطنة الألمعية وهذا القلب الكبير ، بل استحق الطاعة فيما لاطاعة فيه بين النساءالعصريات حتى للزوج المحبوب والاب الموقر ، وهو مخالفة الزي الشائع والعرف المصطلح عليه ، فان للزي سلطاناً فوق كل سلطان وللزينة حكماً يصعب نقضه بغير مضاضة واستكراه ، لان نقضه لا يفيد ترك الزينة وحسب فهذا خطب يسير وخسار لا يضير . ولكنه يفيدأ حياناً معنى التعرض للزوجة في خصائص أمر هاو المشاركة

لها فى منظرها وملامح وجهها ، وهو شي. إذا فهمته الزوجة على هــذا المعنى فسرعان ما تنكره وتتمرد عليه ، ومع هذا كانت السيدة صفية تعـلم أن سعداً لا يرضى عرب المساحيق النبي كانت ولا تزال شائعة بين السيدات فأخذت نفسها باجتناب هذه المساحيق طوال الحياة ، ولم تبال أن تظهر بغيرها بين صديقات وقريبات كلهن يجارين العرف ويلتزمن شعائر الازياء.

وكانت تنسى في معيشتها الزوجية كل تفرقة في الحقوق والمعاملات التي كثيرًا ما ينفصل فيها الازواج والآباء والابناء ، فكانا كأنهماشخص واحد له مورد واحد وحساب واحد ، ولم ينفصل حسابها من حسابه الا بعد ما تكررت حوادث النبي والمصادرة لاموال الوفد وأموال سعد ، وخيف من ضياع حقوقها وهي وحدها في مصر تحتاج الى مال معروف لها ليس ينازعها فيه منازع أو يلتبس حسابه بحساب غيره ، ولو لاذلك لنسيت مدى العمر أن لها وجوداً مستقلاً في المال كما نسيت أن لها وجوداً مستقلاً في العطف والعناية ولعله مما يستحق الاثبات في تاريخ سعد ، لانه قلما يخطر على البال ، ان خرانته لم تكن تحتوي يوم نفيه الأول أكثر من خمسين جنبها ويوم نفيه الأول أكثر من خمسين جنبها ويوم نفيه الثاني أكثر من جنيه واحد الان سعداً لم يكن حريصاً على المال وليس الاشتغال به من شهوات نفسه وهموم فكره ، وقد أسلفنا أنه لم يقبل في قضية من قضاياه أيام المحاماة أكثر من خمسائة جنيه على كثرة المتنافسين على توكيله واستعداد معظمهم لارضائه ، وان غالى في الطلب والاشتراط .

ومما يذكر عن زهده في المال أنه لم يقاض في طلب حقوقه أحداً في مستأجري أرضه أو أرض حرمه والفقراء منهم بصفة خاصة . فاذا أبطأ أحدهم في سداد ماعليه وعلمأنه معذور أمهله زمناً وربما نزلله عن بعضحقه ، وقد يتجاوز عن ثلث الاجرة أو نصفها اذا كانت السنة من سنوات العسر والكساد ، وكان تصرفه هذا مع المستأجرين مثلا اقتدى به أصحاب الحقوق راضين أو كارهين في سنة ١٩٢٦.

ولم يتردد في بيع ضيعة كانت باقية له باقليم البحيرة في بداية الحركة الوطنية ، لأنه اراد ان ينفق على نفسه وعلى الاعمال التي يعملها باسمه فيأيام جهاده ، ولا يكلف خزانة الوفد درهماً بما جمعه الوفد باسم القضية الوطنية . وكذلك اتفق مزاج الزوجين في قلة الاشتغال بالمال الا بالقددر الضروري المعقول .

وكانت السيدة صفية — وهي ربيبة البيت العامر بالخدم والاتباع — تأبى ان تكل شأنا من شئون سعد في بيته الى خادم أو خادمة ولو كان من اتفه الشئون، فكانت لا تأنف من الاشراف على تنظيم الاثاث وطهو الطعام ولا سيما بعد أن أصيب بالاسقام التي تستدعي العناية الخاصة باعداد طعامه، وجعلت همها الاكبر أن يجد البيت — في كل حين وفي كل حالة على النظام الذي يحبه والتدبير الذي يستريح إليه ، فلم يسأل هو قط عن عمل من أعمال المنزل ولم تغفل هي قط عن عمل من هذه الاعمال ، وبذلك كان الزواج لسعد «سكناً » بالمعنى الرحيب الذي اراده القرآن الكريم ، وسهل على سعد ان يتعب في ميدان الكفاح لانه قد سهل عليه ان يسة يح في البيت .

ومن المشهور عنه انه كان لا يغير نظام معيشته في بيته أقل تغيير على تعاقب السنين الالطاري. غير منظور ، فني نحوالساعة السادسة الى السادسة والنصف يستيقظ فيتناول القهوة ثم يستحم ويتناول طعام الافطار . ويأخذ بعد ذلك في حلاقة ذقنه بيده وهو يستمع الى ما يقرأ له من الصحف والرسائل ، ثم يهبط الى مكتبه قريباً من الساعة العاشرة فيلبث به قليلاً ان كان على نية الرياضة أو يبقى فيه الى الساعة الواحدة ان كان على موعد من عمل أو مقابلة زائرين ، وفي اكثر الاحيان يركب سيارته مع صاحب من أصحابه أو مساعد من مساعديه الى الجيزة أو الزمالك أو حدائق القبة أو القناطر الخيرية للرياضة والترويح عن الخاطر ، وقد يتمشى هنالك نحو نصف القناطر الخيرية للرياضة والترويح عن الخاطر ، وقد يتمشى هنالك نحو نصف

ساعة اذا صفا الجو واعتدل الهواء . ثم يعود الى البيت ليتناول الغداء فيما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، ولا يأكل على انفراد بل يرسل احياناً في طلب اناس من اصحابه ومعارفه ان لم يجد في بيت الآمة من يجالسه على المائدة ، وحديثه على الطعام من امتع ما يكون الحسديث: بين ذكريات الماضي وحوادث الحاضر والتعليق على الأحوال والاشخاص ، فاذا فرغ من غسدائه لبث على المائدة نحو نصف ساعة يشرب القهوة ويستطرد في الحديث ، وينام ساعة أو ساعة ونصفاً ثم يقرأ صحف المساء ورسائله ويهبط الى مكتبه حوالي الساعة الخامسة ، فيخرج للرياضة أو يبق للعمل واستقبال الزائرين الى ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، اذ يتناول العشاء مع من يدعوهم من الحاضرين ، ويقضي ساعة في العشاء والحديث . ثم يستريح لحظة ويأخذ في القراءة الى الساعة الواحدة وهي موعد نومه في اكثر الأوقات . ويكفيه في النوم من اربع الى خمس ساعات.

هذا في غير أيام الوظيفة ، أما أيام العمل في الوزارة أو القضاء فكان يلاحظ مواعيد الديوان قبل كل شيء ، ثم ينظم أوقاته في غير تلك الموعيد على نحو ماتقدم ، وقد يأخذ نفسه بمواعيد العمل حتى حين يتطوع به في غير ذواوين الحكومة . فلها كان يتولى رقابة الجامعة قبل ان تلحق بالحكومة كان يثابر على الحضور والانصراف كل يوم في موعد محدود ، ويندر ان يغيره لقلة العمل في موسم الاجازات .

ولم تكن له صنوف خاصة من الطعام يجتبيها ويستكثر منها. لكنه كان كسائر المصريين يحب الملوخية الخضراء في أوانها، وكان كسائر ابناء الاقليم الرشيدي يحب الارز ويميل الى الافتنان في طبخه، ومن خلائقه التي تدل على ملكات نفسه اكثر من دلالتها على ذوق الطعام انه لم يقطع الارز والحلوى قط عن مائدته بعد أصابته بداء السكر، وكان يلذله ان يراها تؤكل وان لم يكن من الآكلين، وتلك خصلة سعدية فيها مثال من قوة الارادة

المطبوعة بلا كلفة ، وفيها تفسير لمعنى الانانية أوالشخصية فيه . . . لا ينسى مايشتهيه ولكن يكفيه من اشتهائه ان يستمتع به الآخرون باذنه وعلى يديه .

وكان يحب العنب والبرتقال، ولعمله كان يحب كروم العنب ومروج البرتقال أكثر من حبه الفاكه لمذاقها وغذائها. فاذا رأى تلك الكروم والمروج قال في لهجة الشاعر المغتبط بمنظر الوفر والجزالة: هذه بلاد غنية أو همدنه تربة خصيبة، وسره أن يلمح الخصوبة ممثلة في دوالي العنب وأشجار البرتقال.

ومن عنايته بضيوفه انه كان يأكل من الأصناف التي تطبخ لهم وان لم تكن به رغبة فيها أذكر انه لحظ يوما أن ضيفاً من ضيوفه القبط في مسجد وصيف كان يحجم عن معظم الأصناف فسأله : ما بالك لاتأكل معنا يافلان؟ قال انه الصيام يا باشا . . . قال وماذا تشتهي أن تأكل في الصيام؟ قال الفول و « البيسارة » وما اليها فأمر الطاهي أن يصنع له ما يطلبه من هذه الأصناف كل يوم . وجي م بالبيسارة في اليوم التالي فتناول منها وأمر الخادم أن يطوف بها علينا ، لئلا يشعر ضيفه بعزلة الانفراد .

ولم أره قط يدخن أو يشرب خراً. الا انه كان يتعاطى كأساً من الكونياك اذا اجهدته الخطابة أو أحس ضعفاً في نبضه ، واذا لعب الورق جعل للعبه حداً يقف عنده ولا يتجاوزه باغراء كائناً ماكان ، وقد كان يدخن في صباه ويستكاثر من التدخين ، ثمنهى عنه بعد اصابته بالربو وهو في القضاء . فامتنع عنه بتة ولم يعد اليه ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة لا يقرب التبغ ولا يطيقه حتى ادركته الوفاة .

沙牧草

والآنوقد مضت تسع سنواتعلىوفاةسعد يزورالزائر بيتهأو بيتالامة فيرىكل ما فيه على العهد به أيام حياته : كل صورة في مكانها وكل كرسي في مكانه ، وصاحبة الدار قد جعلت من الوفاء لذكراه أمانة كأمانة الشعائر الدينية ، تزور ضريحه كل صباح ولا تغير من البيت شيئًا تعوده ووقعت عليه عيناه ، ولا تلقى أحدًا لم تلقه اذ هو في عالم الاحياء ، وكأنها لاتزال تعيش باذنه بعد الممات كماكانت تعيش باذنه أيام الحياة .

واضطرتني دواعي البحث عن تاريخ الزعيم العظيم الى سؤال السيدة الجليلة عن بعض ما تعلمه وتذكره من أحواله وعاداته ، فما استرسلت في الحديث هنيمة استرجع فيها بعض الذكريات التي أسأل عنها وأستقصي أنباءها وحقائقها حتى غلب عليها الشجن وعز عليها التمالك وفاضت عبراتها كأنها تبكيه ساعة وفاته ، وهذا بعد ثماني سنوات من يوم الوفاة .

ان سعداً لَعظيم لانه استحق هذا الحب العظيم ، وانه لمن العظهاء الذين انتصروا في الحياة لأنهم وجدوا من البيت حصناً منيعاً لا تقتحمه الطوارق وان جازت جدرانه وشغلت اركانه ، لأنه حصن في عالم الروح قبل أن يكون حصناً في عالم الحجر والتراب ، وان أمثال هؤلاء العظماء لسعداء ، وانهم لظافرون .

شخصيته وأخلاقه

سعد زغلول قوةنفس وقوة بدن. من الزعماء الذين اثبتواصدق القائلين ان متانة البنيان شرط لازم لمن ينهضون بقيادة الأمم ويضطلمون باعباء السياسة ومصاعب الأمور. تعاورته الاسقام في شيخو خته ولكنها لم تسلبه ماركب فيه من الجلدو الصلابة ومكافحة الأسقام كاكان يكافح الخطوب؛ وعلى الرغم من الربو و تصلب الشرايين وضغط الدم وداء السكر وداء الزلال بقي الشيخ المكين قادراً على عمله ماضياً فيه نشيطاً اليه في انبساط نفس و تجدد اقبال. تراه فترى من النظرة الاولى انك على مقربة من رجل متاز في الصورة كامتيازه في الطبيعة ، وطلعته تذكرك على الفور طلعة الاسد في بأسه و نبله وجلالة محياه ، وليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالاسد في قسماته ومهابته من وجهسعد زغلول.

له قامة مديدة ووجه أقرب الى البياض ورأس مستطيل في غير ضخامة ، وجبين يميل الى السعة وينحدر قليلاً الى الأعلى ، وعينان ثاقبتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ، يطبقهما أحياناً عندالحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كانه سهم نافذ أو إيحاء منوم جبار ، وله صدغان ناتئان وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدة بن كا يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ، وذقنه من تحت ذلك بارزة في غير حدة ولا استعراض كثير ، تتمم ملامح البروز في ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كائنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين وصدر فسيح أقعس واسع التجويف . . . وقد نفذ الرصاص عن قرب إلى ذلك الصدر وصاحبه مصاب بتلك الأدواء فاندمل الجرح بعد أيام و تألبت أسقام الشيخوخة وسكرات بتلك الأدواء فاندمل الجرح بعد أيام و تألبت أسقام الشيخوخة وسكرات الموت ونبضه لم يزل موزوناً سلياً الى ما قبل الموت بساعات معدودات ،

فاذا كان في ذلك علامة على الطبع كما فيه علامة على البنية فلا شك أنها علامة على طبع من أقوى الطباع .

أول ماتطالعك من رؤية سعدمهابة بالغة تملاً ماحوله من فضا. ، ويكون في المجلس من يكون فيه من كبار أو صغار ، ومن أقويا. أو ضعفا. ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطرلك وأنت تغشاه ان في المجلس أحداً غير سعد زغلول .

يحس ذلك أعداؤه كما يحسه أصدقاؤه ويلقاه من يدخل للتحدي والمناوأة كما يلقاه من يدخل للتحية والولاء. وقد حضرنا يوماً وفي المجلس وزير كان من ألدخصوم سعد وأشدهم إمعاناً في الاساءة اليه وإلى أنصاره وتحريضاً لمرموسيه على حربه واستباحة العنت له والتضييق عليه. وكان يقول للموظفين: افعلوا مابدا لمكم ولا تخافوا عاقبة ولا حساباً فانا الملهم لكم بكل ما تفعلون. فاذا به وهو بين يدي سعد كالتلميذ الخائف بين يدي الاستاذ المخيف، وإذا به يخف الى طرف الكرسي ولا يتمكن في مجلسه كلما اتجه اليه سعد بسؤال أوكلام. فالتفت حافظ ابراهيم رحمه الله الينا وقال ياعجباً: اليس هذا هو الملهم؟ فأين ذهب الالهام؟

وتحدث عبد الحليم عاضم باشا صاحب مصنع الطرابيش في قها عن مهابة سعد بين زملائه فقال وهو يظهر الغرابة : والله ما أدري بماذا يسحر الناس هذا الرجل ؟ لقد رأيت عدلي باشا معه في باريس ، ورأيت خادمًا يناوله رسالة من البريد . فابقاها في يده ولم يقرأها حتى قام . وليس في قراءة رسالة ما يتحرج منه حتى امثال عدلي باشا من أصحاب الكياسة المشهورة .

وكان بعض خصومه في مجلس النواب يعتمدون على نائب منهم سليط اللسان جري على المهاجمة في غير هذا المقام ، فكان اذا دخل المجلس مستعداً بالحجج والردود متحفزاً للتحدي والمناجزة لم يزد على ان يفوه ببضع كلمات متقطعات ثم يجلس وهو لا يدري ما يقول . فكان اصحابه يتلقونه اذا خرج ويسألونه مستثيرين ومحرضين: اين ما وعدت ؟ واين ما اعددت ؟ فلا يحجم ان

بقول في صراحة صاحبالعذر الظاهر الذي لا يضيره هذا الاعتراف: «كل استعداد لا يفيد مع هذه الشخصية الطاغية 1 »

ومن الواضح ان صاحب هذه الشخصية لن يكون الارجل صراع وجلاد قبل كل شي. شجاعاً في الحق كما وصفه اللورد كرومر ، أو عظيما يضرب ضربات قوية ويتلق مثلها كما قالت صحيفة التيمس في تأبينه ، أومقداماً يرد العسدوان بمثله كما قال الكولنل الجود El good في كتابه مصر والجيش . . . وقد تم له ماليس يتم لجيع المناضلين من عزة النفس وشدة المراس ومضاء العزيمة وجرأة العمل والصراحة في القول ، فهو لايدس ولا يطيق الرياء .

ومن هوى الصدق في نفسه ما يحقق بيت أبي الطيب اذ يقول: ومن هوى الصدق في نفسى وعادته تركت لون مشيبي غير مخضوب

وانه من كراهته للرياء ليكرهه حتى في الطلاء، ويؤذيه ان يرى سيدة تتجاوز الحد في طلائها وزينتها المصطنعة فلا ينسى ان يكشف هذا الضرب المألوف من الرياء بضرب من الصراحة يناسبه ويلاقيه وان يكن غيرها من مألوف . . . يرى السيدة التي تفرط في تدميم وجهها فيلتفت الى غيرها من الحاضرات ويقول لها يافلانة إ مالك قد أكثرت اليوممن الاصباغ ؟ فتفهم المقصودة أنها هي المعنية بهذا الكلام . وتقول : لا ياباشا إ أناالتي أكثرت من الاصباغ وليست فلانة إ فيقول متجاهلاً : أصحيح ؟ لقد حسبتها هي سامحها الله ا

ومن طرائفه في فضل الصراحة والاستقامة ـ حتى عندغير المستقيمين نادرة قصها علي في ساعة كان فيها مستريح الحاطر وادع الفؤاد ، على أثر اجتماع المؤتمر الوطني سنة ١٩٢٦ وتقرير الانتخاب المباشروانتصار سياسة الصراحة والاستقامة على سياسة اللف والمرونة . وذاك أني قابلته يومذاك مهنئا فسألني سؤاله المعتاد : ما أخبارك ؟ وما قولك اليوم ؟

قلت: كلما أخبار خير يادولة الرئيس. شيء لم يكن في الحسبان. قال دولته متهالاً: أو ليس كذلك؟ ثم أظهر ثقته بعناية الله. وهي العناية التي كان يطمئن اليها في كل حال و يعتقد انهما تلحظه و تلحظ الامة في جهادها الشريف. وقال إنها نتيجة لو توسلنا اليها بغير وسميلة القصد الصريح لما للغناها.

وتبسط المكلام كعادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الكبيرة فقال: إن استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم . أذكر اني كنت في مكتبي أيام المحاماة وإذا بسيدة في زي نساء البيو تات تدخل المكتب وتحييني تحية الآدب والاحتشام ، فأشرت اليها بالجلوس والتفت اليها بعد أن فرغت من عمل الحاضرين وسألتها: من السيدة التي شرفتني بهذه الزيارة ؟ قالت محسوبتك ع . اسكندر اسم امرأة من أصحاب البيوت المريبة المشهورة في ذلك الحين ، فما سمعت الامم حتى ثارت ثائرتي وعجبت الموكيل كيف سمح لها بالدخول وعجبت لها كيف المختار تني هي لقضيتها أو للمسألة التي قصدتني لأجلها ، وخاطبتها بكلام قارص لم أرع فيه حق الأنوثة ، فلم تحر جواباً و تركني أقول ماأريد . حتى إذا هدأت ثائرتي وسكت قالت أتسمح هذا شهادة الك لا عليك . إذ لو كنت أنت من معارفي لما صدقوا انني أثق مك بك وأأتمنك على المصالح . ولو لا إنك مستقيم لما جئتك اليوم ، و إلا فان زواري المحامين كثيرون لم أفكر في واحد منهم لانني أعرفهم و فكرت فيك لانني لا أعرفهم و فكرت فيك

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أريباً ولباقة معجبة ، وسرتني هذه الشهادة بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة .

* * *

ولاشتهاره بالصراحة تعرض فيهـا لكل ما يتعرض له المشهور بصفة

من الصفات ، إذ ينسب الناس اليه ماحصل ومالم يحصل ومايحسن لديه ومالا يحسن كعادتهم في كل شهرة وكل مشهور . وكانت تنمى اليه بعض هذه الروايات فتضايقه لآنه — كما يقول — لا يحب أن يكون قول الحق سبباً لآن يقال فيه غير الحق ، ويهتم بتصحيح ماينمى اليه أحياناً ولا سيما ما يؤخذ منه أنه يضع الصراحة في غير موضع ، أو يذهب بها مع الغلواء في غير موجب .

من ذلك حكايتهم التي يتناقلونها عن المناقشة بينه وبين الحديو عباس في مسألة « القضاء الشرعي » وقد أسلفنا تصحيحها بلسانه .

وشاعت اشاعات كهذه عن محادثات جرت بينه وبين صاحب الجلالة الملك فؤاد في مسألة الكبراء أنصار الوفد ومسألة الأعضاء المعينين بمجلس الشيوخ. فكل الحقيقة فيها كما سمعت منه أن صاحب الجلالة الملك ذكر له مرة إن أحمد مظلوم باشا لا يزور القصر منذ عهد بعيد. فقال دولته: ذلك ياصاحب الجلالة لأنه استأذن في مقابلة جلالتكم فقيل له إنكم لا تستقبلونه ياصاحب الجلالة لأنه استأذن في مقابلة جلالتكم فقيل له إنكم لا تستقبلونه حتى يكتب براءة من الوفد. فقال جلالة الملك: إني لاأعلم هذا. قال الزعيم: إن هذا ماسمعه مظلوم باشا من بعض موظني الديوان.

أما مسألة الاعضاء المعينين في مجلس الشيوخ فقد شرحها شاهد عيان كما حضرها ورآها بعينه وهو البارون « فان دن بوش » البلجيكي الذي كان نائباً عموميًا للمحاكم المختلطة أيام الوزارة السعدية . ثم استقال وألف عن ذكرياته المصرية كتاباً أسماه « عشرون سنة في مصر » . فانه قد دعي لاستشارته في حق التعيين هل يكون بواسطة الوزارة أو يكون بغير واسطتها لانه رجل شريعة من أهل البلجيك ، والدستور المصري ملحوظ في قواعده نظام شريعة من أهل البلجيك ، والدستور المصري ملحوظ في قواعده نظام تلك البلاد . فقال البارون : « دخلت الى مكتب الملك وكان ظاهر التأثر يقلب في يده مقطعاً للورق بحركة عصية ، وكان زغلول باشا جالساً قبالته وهو مالك لنفسه يتكلم في تؤدة وهدوه .

« ودار الحديث اماي . وادركت توا فحواه وخطره ، فمن ناحية ملك نشأ على التقاليد الشرقية من تقرير سلطانه الشخصي يجاهد ليحتفظ بفلذة من ذلك السلطان ، ومن ناحية أخرى رئيس وزارة عنيد في غيرته على كرامة الحقوق التي كفلها له الدستور ، وقد لمحت وراء ادب الخطاب صراعاً بينهما يجب تسكينه من غير ابطاء ، حذراً من بادرة لاتلبث أن تنقلب الى كارثة .

« واخذ الحديث يحمى وطيسه فقال زغلول: « لو استفتينا الأمه ؟ » قال فان دن بوش: « و تطلعت في هذه اللحظة من الشرفة الواسعة الزجاجية إلى رحبة عابدين و رملها المذهب تحت و هج الشمس ، والناس غادون الى اعمالهم هادئين والصبية هنا و هناك يلعبون . فقلت في نفسي : كلمة و احدة من هذا الرجل السياسي و مصر كلها اليوم معه أرواحاً وأجساداً فاذا بهذه الحياة الوادعة الباسمة الماثلة لناظري الآن وقد استحالت لمرأى العين ميداناً يعيث فيه الشعب جاعماً لا يكبحه عنان.

«غير أن صوت زغلول ارتفع قائلاً: أتسمح يامولاي بأن يفتي حضرة النائب العمومي في الخلاف وأن تكون فتواه فصلاً في الموضوع ؟ فتأمل جلالته هنيهة ثم ارتضى مسلماً وقال « نعم ! »

وهذا هو الحديث كما رواه شاهده بلا مبالغة ولا تحريف . ليس فيه كلمة لا يقولها للملك وزير دستوري يدافع عن رأي كرأي سعد زغلول . فاذا كانت هيبة سعد ومكانته قد جعلتا لحمديثه « تأثيراً » في نفس الملك لا كتأثير غيره من الوزرا. فليس ذلك ذنبه ولاهو بالامرالذي يحاسب عليه وليس من قبيل هذا مااستعظمه اللورد جورج لويد من حديث سعد

معه في المقابلة الأولى ، ولكنه شيء قد يذكر في هذا الصدد ليدل على اختلاف الروايات والتقديرات فيما يحمد ومالا يحمد من القول الصريح .

زعم اللورد لويد أن زغلولاً فاجأه بالصلف والكبرياء في أول خطّاب وأول لقــام ، وكل ماجرى في ذلك اليوم أن سعداً لتي اللورد بعد صدور الحسكم ببراءة الاستاذين ماهر والنقراشي فسأله مازحاً: ألا تخاف مني ؟ فقال اللورد ولم ياباشا أخاف ؟ قال . لانهم يحسبونني زعيم سفاحين ! . . . وبعد استطراد قليل سأله اللورد : ماذا في نيتك نحو انجلترا والاجانب ؟

فأجاب سعد: انها نية الصداقة لجميع الأجانب حتى الانجايز . فعاد اللورد يقول : أحسب أنك تعنى مصادقتهم جميعاً والانجليز على الخصوص .

أي ان اللورد يطلب منه أن يشهد على نفسه بأنه لا يحسن التعبير عما يعنيه وانه يلغي زعامته الوطنية التي تقوم على قضية بينه وبين الانجليز لا على مودة خاصة بين الطرفين ، فليس بغريب في هذه الحالة أن لا يقبل الرجل ما يسومه اللورد وأن يردد قوله الأول بشيء من التوكيد: بل حتى الانجليز اهنا لجأ اللورد الى تهديده الدائم قائلاً. اذا سمحت فسأ بلغ ذلك الى حكومتي الانهى بذلك الحديث في هذا الموضوع .

أفرأيت إذن ذلك الصلف الذي وقع فيه سعد زغلول؟ إن السؤال الفكاهي طبيعي في مثل ذلك اللقاء عقب تلك البراءة وعقب ماكان من قطيعة واتهام . وطبيعي كذلك أن يعني سعد أنه يريد صداقة الآجانب جميعاً حتى الانجليز الذين بينهم وبين المصريين قضية ونزاع على الاستقلال . ولكن غير الطبيعي أن يفرض اللورد على الزعم الوطني أن يميز الانجليز بالصداقة الخاصة لانهم احتلوا بلاده . . . فالم يكن اللورد لويد يحسب الصلف حقاً من حقوقه فلا صلف هناك ولاوجة للاستغراب .

* *

وصفوة القول أن سعد زغلول كان مثلاً في الصراحة والجرأة وطبيعة الكفاح ، ولكن الذين يفهمون أنه كان لذلك يحمل سلاح الصراحة ليضرب به ذات اليمين وذات الشمال يخطئون فهمه ولا ينصفونه . إنماكانت صراحته وسيلة لابداء الحق والاعراب عن الرأي وكشف رذيلة الرياء ودفع مذلة الحنوع . فأما الصراحة التي هي لغو يؤذي ولا يفيد فليست هي من شأنه وليست هي من الخلال التي يتسم بها طبع مثل طبعه .

كذلك يخطي. فهمهو لا ينصفه من يعلم أنه رجل كفاح فيحسب أنه لذلك لا يحسن غير مصارعة الخصوم واقتحام المعارك وأثارة الشحناء . فتلك صورة لاتشبه سعد زغلول ولاتمت إليه بقرابة ، وإيما كان الرجل مناضلاً لأنه كان حيّاً جيّاش الطبيعة على مقربة من الميدان الذي يدعوه إلى النضال ، وهو — لأنه حي جياش الطبيعة — لم يكن أصلح منه للعطف والصداقة وحسن المودة والأنس بالناس والارتياح إلى المعاشرة ، وقد حفظ قلبه الكبير ما أودعته الفطرة من ذخيرة العطف الزاخر إلى آخر أيام الحياة ، فذا تأثرت نفسه بحالة مفرحة أو يحزنة فكثيراً ما تغرورق عيناه أو تنهملان بالدمع الغزير . وكان في مجالسه الخاصة من أقدر الناس على مؤانسة الجلساء بالحديث الشائق والفكاهة الحاضرة والحدب المطبوع ، وأكبر ماكان يشكو منه أطباؤه أنهكان لا يمنع لقاء الناس ولا ينقطع عن محادثة الجلساء عند اشتداد المرض عليه لأنه مطبوع على أن يتصل بالناس كما هو مطبوع على أن يقودهم في ميدان النضال ، والطبعان فيه شي، واحد أوهما شيئان متجاوران

وهذا المناصل المكافح طول الحياة لم يكن أبغض إليه من رؤية العنف ولا مشاهدة الحزن والمحزونين . ذهب بعد الافراج عنه في جبل طارق ليشهد صراع الثيران على الأرض الاسبانية فلم يطقما رآه من تعذيب هذه الحيوانات وانصرف بعد فترة وجيزة وهو يتأفف من هذا اللعب الممقوت وعرف عنه ذووه أنه لا يطيق أن يرى البكاء لأنه يؤذيه ويستبكيه ، فكان يقول لهم : لا تبكوا أحداً أمامي وإذا مت فخذوا ثاركم مني ولا تبكوني اومن عادته أن لا يظهر أمام الناس في موقف يخشى فيه من جيشان نفسه وغلبة دموع من على المستقبل أم المصريين على المرسى في جبل طارق واكتنى بأن ينتظرها في حجرة الاستقبال . مخافة أن تجيش نفسه لهذا اللقاء بعد ذلك الفراق فلا يملك الدموع على مشهد من الناظرين .

شبهه مستر جورج يونج في كتابه « مصر » بابراهيم لنكولن الزعيم

الأمريكي الكبير المعروف بالطيبة والقوة والمزاح. والتشبيه قريب في كثير من الوجوه بين هاتين « الشخصيتين » العظيمتين . فكلاهما فلاح وكلاهما مناضل وكلاهما طيب القلب صريح اللسان لا صبرله على سفساف المجاملات وكلاهما يمزح ويتنادر ويحب الحياة . إلا أننا لا نعرف لسعد زغلول خشونات في المعاملة والمكلام كخشونات لنكولن ، ولا نعرف للزعيم الأمريكي العظيم حظاً من ملكة الحديث ولا من ملكة الفكاهة الحاضرة كلخط الموفور الذي كان لسعد زغلول من هاتين الملكتين .

تسمع سعداً محدثاً فلا تسأم ولا تزال بين أزواد من الخبرة وصدق الملاحظة وطرائف الذكريات تشتاق أن تسمعها لذاتها ولو لم يكن المحدث سعد زغلول الذي يعنيك أن تعرف كل مالديه لتعرف كل ما ينطوي عليه هذا الزعيم المبجل المحبوب، وهو يجد غاية الجد في أحاديثه وذكرياته دون أن تلمح فيها شيئاً من فيهقة العالم أو لجاجة الشيخ في تقرير آرائه وتجاربه على سامعيه، ومن عادته في الحديث أن يقرن الحوادث الكبيرة الحاضرة بالذكريات الماضية أو الملاحظات العارضة أو الإمثال الشعبية التي يحفظ منها الشيء الكثير.

دخلت عليمه يوماً والبحث دائر بين الاحزاب على تقسيم دوائر الانتخاب. فسألني: أتعرف يافلان حكاية « فطير وإلا أرمي روحي ! » فعلمت ما ورا. هذا المشل من استطراد إلى الحالة الحاضرة . ولكني قلت : كلا يا دولة الرئيس لا أعرفه ، ولعلى أعرفه اليوم 1

قال إذن فاعلم أن بدوياً من البدو الذين تروى عنهم الحكايات ضاقت به الدنيا وستم الفاقة فخرج من محلة قومه يضرب في الارض إلى أن نزل بمحلة أخرى لقوم من الاعراب، فأضافوه ثم برموا به وتجاهلوه ، وسوّل له الضيق أن يبخع نفسه فعمد إلى مأذنة الجامع الذي في البلدة فصعد إليها وهم بأن يلق نفسه منها ، وأنه ليفعل وإذا بيد تجذبه وقائل يناديه : ما خطبك ياهذا ؟

وماذا بك أن تصم الجامعالشريف هذه الوصمة ؟ فقال الجوع . إنه الجوع ... لقد جعت في بلدكم وضاق بي العيش فلم يبق إلا أن أموت .

فكبر الامر على القوم وتنادوا فيما بينهم أن أدركوا الرجل وأنقذوا المحلة من وصمه هذا العار: أيموت رجل من الجوع بين العرب؟ أيوصم مسجد الصلاة عندهم بهذه الفضيحة؟ لأهون عليهم أن يكرموه من أن يهونوا على أنفسهم هذا الهوان.

قال الباشا . وطاب المقام لصاحبنا وكثر الفطير عنده ، وعرف كيف ينذر القوم بسوء العاقبة كلما تثاقلوا عنه وضنوا عليه بالضيافة ، فأقرب شيء إليه أن يقصد إلى المسجد ويصعد إلى المئذنة ويصيح بالقوم صياح المؤذن للصلاة : « فطير ياعرب وإلا أرمي روحي ، فطير وإلا أرمي روحي ، فطير والم أرمي روحي ، فطير النذير حتى يجيئه الفطير ا

قال الباشا: وهؤلاء أصحابنا السياسيون الأجلاء. لا تسمع منهم كل يوم إلا طلبًا لكراسي البرلمان يفرضونه علينا وإلا أنذرونا بخراب البلد وخيانة القضية إ وعلينا نحن أن نعطي الفطير وأن نحمي المسجد من العار ا

وبشره يوماً أحد أصحاب الرؤى والأحلام بنجاح الوفد في الانتخابات فقال رحمه الله : وماذا عليه ؟ إن أخفقنا لم نر له وجها وأن نجحنا جاءنا يطلب البشارة . وحكى لنا حكاية جرت للشيخ جمال الدين الافغاني في سفينة خيف عليها الغرق العاجل . قال الرئيس : « أخبرنا الشيخ أنه لما رأى الصبية والنساء وضعاف القلوب في السفينة يضطربون ويهلعون ذهب يؤكد لهم أشد التوكيد أن سفيتهم لن تغرق في تلك السفرة ويقسم لهم أنها لناجية بلا مراء . قال الشيخ : وكان الركب يظنون في القداسة ويرونني بالعامة الخضراء فيحسبونني من دراويش الهند الذين يكشفون الغيوب ويطلعون على أسرار المستقبل . والمسألة بعد مسألة حساب ، فان غرقت السفينة لم أجدمنهم من يكذبني ، وان سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل .

ومن عادته أيضاً في أحاديثه أن يتبع الأحكام الاجتماعية الخطيرة بملاحظات صغيرة تدل عليها. قال مرة: إن آفتنا الكبرى أن لانحمل تبعاتنا وأن نحاسب غيرنا على واجباتهم ولانحاسب أنفسنا على واجباتنا. ثم استطرد قائلا : منسذ نحو ثلاثين سنة دعونا بفراش مشهور طلبنا إليه أن يقيم سرادق عرس وأوصيناه أن يفرغ من إقامته قبل المساء . وفي عصارى اليوم مررنا بالمكان فاذ بالسرادق أكوام من الاخشاب والكراسي والثريات والمصاييح ولاسرادق إلا العمدان مفرقة هنا وهناك لاتؤذن بالانتهاء قبل أيام . . . ما الخبر ؟ الخبر أن العال اختلفوا في التنظيم والتقسيم فراح كل عامل منهم يشير على غيره بما يعمل و ينتظر هو تنفيذ الاشارة ا واضع الكراسي يقول أنه لا يدري كيف يصفها قبل أن تقام العمدان فيأمر من يقيم العمدان بأن يقيمها حسبا يأمره و يملي عليه ! ومعلق الثريات في خلاف مع الاثنين يقول إن الكراسي ينبغي أن تصف هنا والعمدان يجب أن تقام هناك ، ولو أقبل كل على عمله لانتهوا جميعاً واستطاعوا أن يفضوا فيا بينهم هذا الخلاف .

وقال مرة أخرى ان الحرية تتقدم في بلادنا . لقد كنا نحضر الولائم الرسمية قبل سنين فكنا نرى المدعوين من الوجهاء والموظفين يأخذون من الطبق الذي يأخذ منه الأمير أو الوزير ويعرضون عن الطبق الذي يعرض عنه ، أما اليوم فهم يسمحون لانفسهم بذوق في الطعام يخالف أذواق الأمراء والوزراء هذا فضل كبير . وهذ تقدم غير يسير .

وله أسلوب من الحديث في تقريب القضايا البعيدة التي لا رابطة بينها يذكرك بقدرة الفارس الماهر الذي يقود عشرين جواداً بزمام واحد.

كان في انجلترا يدعو إلى القضية المصرية ، وكان من همه أن يقرب بين موقف الانجليز وموقف المصريين من هذه القضية . ولكن كيف يتقاربان وهما جد نقيضين : لالغة ولا جنس ولا دين ولاوحدة في المطالبالسياسية ولا تضامن في الاحاسيس القومية . غير أنه استطاع بجملة واحدة أن يجمع

بين مصر وانجلترا بشعور واحد في قضية الاستقلال . فقال لبعض محدثيه من الصحفيين : « لو استحضرنا روح يوليوس قيصر لانبأنا أنه لم يتعب في إخضاع الانجليز والمصريين ١ »

وهذا التقريب البعيدولا شك لمحة من لمحات الالهام .

وقال مرة أخرى وإن كان التقريب هنا لا يحتاج إلى مثل ذلك المجهود: إننا أبناء أكبر دولة في العالم القديم وأنتم معشر الانجليز أبناء أكبر دولة في العالم الحديث.

وبهذه القدرة على الحديث يقول مايريد ، بل يعمل مايريد .

* 4

أما فكاهة سعد فهي حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذة أو رد مكيدة أو إلزام حجة أوصرف حادثة مؤلمة بكلمة مضحكة ، فهي تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح ، وهي مؤنة تصلح حيناً لمساجلة الاصدقاء كا تصلح حيناً لمناجزة الاعداء .

أنبأه صحفي انجليزي أن اللورد جورج لويد صاحب الازماث المعروفة يقول: إن صحة سعد باشا تتقدم على الازمات ... فقال سعد للصحفي: قل له « ربنا يطوّل عمره ! »

وكانت صحيفة البلاغ تنشر أسئلتها التي تستند إلى أوراق ومراسلات خاصة يتبادلها بعض الموظفين وبعص زعماء حزب الاتحاد. فأشيع يوماً ان قضية دبرت لاضطرار صاحب البلاغ إلى التصريح باسم الرجل الذي ينقل اليه تلك الأوراق. ثم زرنا ليلة الاشاعة بيت الآمة فسأل الرئيس الاستاذعبدالقادر حزة متهمكاً: ما العمل ؟ ها أنت ذا تسأل عن «سر مهنة » فما ذا تجيب ؟ ثم قال: ما رأيك إذا كنت أنت تأخذ هذه الاوراق من رئيس حزب الاتحاد نفسه ؟ ألا يصدقونك ؟ ومضى يقص علينا قصة وقعت له أيام المحاماة حين كان يتولى الدفاع عن موظف فصلته نظارة الحقانية بغير حق قال الباشا

وكانت النظارة مخطئة في فصله . وأقى قـلم قضاياها باستحقاقه التعويض ووصلت اليناهذه الفتوى فاعتمد ناعليها في الدفاع . وقد حضر عن نظارة الحقانية رجل كانت فيه خفة وحذلقة فترك موضوع القضية وأراد أن يوجه إلي تهمة المحصول على ورقة سرية أو بعبارة أخرى تهمة السرقة ا وكان رئيس المحكمة رجلاً ظريفا فسألني وهو يتظاهر بالحيرة : ما العمل يا فلان؟ ان مندوب الحقانية يتهمك فهل أنت مستعد للجواب؟ قلت نعم : قال من أين لك هذه الورقة ؟ هل أنت مستعد لذكر اسم الموظف الذي أعطاك إياها ؟ قلت نعم بعد استئذان حضرة المندوب ال. فصاح المندوب يرجو الرئيس أن يسألني لاجيب في الحال ويبادر باتخاذ الاجراءات قلت : إذن هو حضرة المندوب نفسه الذي أعطاني هذه الورقة جزاه الله خيراً قال الباشا : فوقع الرجل في حيص بيص . وخاف أن يبلغ الامر النظارة فتصدق التهمة ويلحقه العقاب ، فعاد يتزلف و يتملص ونحن نطاول في قضية الورقة ولا نيد أن نصرفها ، فاذا هو المتهم ونحن المطلوب منا السماح .

هذا نوع من فكاهة الزعيم الكبير أو من الكيد الظريف الذي يسلطه على من يريد أن يحرجه فاذا هو داخل في الشبكة التي كان يريدأن يدخله فيها وجاءه جماعة من الازهريين فطلبوا اليه أن يتوسط في ارسال بعثة منهم إلى أوربا أسوة بطلاب المدارس العليا ، فضحك وأجابهم مداعباً : وإلى أين نرسلكم ؟ إلى الفاتيكان ؟

وهذا نوع آخرلا فرق فيه بين النكتة اللاذعة والحجة الصادعة . فهي نوعمن المنطق المختصر الذي اشتهر به سعد في نقاشه ، وكانه يقول في سلسلة من القضايا المنطقية المسلمة : إن طلاب البعثات يرسلون إلى أوربا لاتمام الدراسة في معاهدها ، وأنتم طلاب علوم دينية ، فأنتم تريدون إتمام دروسكم العالية في معاهدأورابا ، وليس في أوربا من معهد للعلوم الدينية غير الفاتيكان أو مايشبه الفاتيكان . فأنتم إذا تطلبون الذهاب إلى الفاتيكان للتخصص في دروس الاسلام .

وجاءه عمدة من أنصاره في ابان احتدام الخلاف بين الوفد والحكومة فشكا اليه انهم فصلوه ولم يجن ذنباً بعسد أن قضى سبعة عشر عاماً في العمدية. قال سعد: وهلذنب أكبر منذاك ؟؟ أولم تسمع يابك بعدر الرجل الذي طلق امرأته بعد عشرة طويلة في صفاء ووثام ؟؟ طلقها فراحت تشكوه وتعتب عليه إما ذنبي يا فلان؟ أبعد خمس وعشرين سنة تعمل هذه العملة؟ قال لها: مهلاً يا أم فلان هداك الله . وهلذنب أكبر من خمس وعشرين سنة في عيشة لا تتغير؟

ولما وصل أصحابه منفيين إلى مالطة جلسوا ذات مساء يتذكرون حالة أسراتهم وما تعانيه أزواجهم من هذه المباغتة التي لا يعلن ما وراءها · فقال سعد هلا أشير عليكم بمشورة تقلب وجدهن سروراً بنفيكم وتنسبهن غيابكم وحضو ركم ؟؟ أكتبوا اليهن انكم قد تزوجتم في مالطة وسكنتم إلى الاقامة فيها . فلا يتمنين لدكم بعدها الاطول الغياب.

وهكذا كانت فكاهته كلها أو معظمها من النوع البري السليم الذي لا أذى فيه ولا ضغينة ، ولا يعـــدو أن يكون « مقلباً » أو مناوشة يضحك بها الغالب والمغلوب.

على انه إذا تحدث عن خصم كريه لم يبال أن يرسمه بالفكاهة رسمه الهذلي. الذي ينطبق عليه أو يرد عليه شيئاً من عداوته وأذاه . قال في حديث عن خصومه : إني أطيق هذا وذاك ولوكانا من خصومي . أمافلان أخزاه الله فلا يطاق . انه كالمخاط لاتدري ماذا به تصنع ؟ تمسحه فتشمئز و تتركه فتشمئز ، فهو مقزز على الحالتين .

وقيل إن صحفيًا بمن يحملون عليه مريض · فسأل : ماذاأصابه ؟ قالوا عسر هضم ومغص معوي ... قال لعله بلع مقالة من مقالاته !

وربما حكمت « النكتة» فلم يدعها دون أن يلتقطها ولوكانت مربكة في مبادرتها الاولى: جلس عنده يوسف وهبه باشا وهو بمكتبه في رئاسة مجلس

النواب فلم يستقربه المقام حتى دخل عريان أفندي يوسف سعد يعرض بعض الأوراق وهوالشاب الذي ألتى القنبلة على وهبة باشا يوم كان رئيساً للوزارة ثم أفرج عنه ووظف بمجلس النواب. فضحك سعد لهذه المصادفة وسأل: ألا تعرف هذا يا باشا ؟ فتأمله وهبة باشا وكان فيه ضعف نظر وغروب تفكير ثم قال: لا أحسبني عرفته اقال سعد: عجباً أوهكذا تنسى أصدقا ملك بهدنه السرعة ؟ فأكدوهبة باشا انه لا يعرفه وسأل: من هو يا ترى هذا الصديق ؟ قال عريان يوسف ياباشا . أنسيته ؟.. فاضطرب الباشا اضطرا با يسيرا وتمتم كالمستغيث: الله يهديه ويكفينا شره.

وقد شاعت الاشاعات التي لا تحصى عن استبداد سعد برأيه وغضبه في حديثه وقلة صبره على مناقشيه . فالذي أعرفه عرب هذه الاشاعات انها في جوهرها خرافة من الخرافات . فانسعداً لم يكن يكره المناقشة بل كان يطلبها ويستدعها وينفر من الجلساء الذين لا عمل لهم غير التسليم والنامين ، وكان كلاعب السيف البارع يحب المبارزة لذاتها ولو لم ينتصر فيها على قرينه ، وشعوره بالتسليم إذا لزمته الحجة أمام من هو أصغرمنه كشعور الآب الذي يعلم ابنه المصارعة فيغلبه ابنه في بعض الاحايين : هو شعور اغتباط لا شعور استياء . وليس من النادرأن يسلم الحجة علانية ولو كان القائل بهامن خصومه ، كا حدث مثلاً حين انتقد الكاتب الصحني المعروف الاستاذ محمود عزمي اشتراك الرئيس في المناقشات وهو على منصة الرئاسة بمجلس النواب ، فانه كان يترك المنصة بعدها كلما خطر له الاشتراك في المناقشات ، وما يسلم علانية يسلمه في مجالسه الخاصة عن طيبة وارتياح .

وقد لازمت سعداً سنوات ووافقته كثيراً وخالفته كثيراً كما يعلم القراء فلا أذكر يوماً انه طلب مني أو طلب من غيري أمامي أن نكتب في رأي بغير ما نراه ، وانما كان أسلوبه في هذه الحالة أن يفتح باب المناقشة

فيما يريد الكتابة فيه ، فان خالفناه وأقنعناه لم يطاب مناكتابة ولم يلمح إلى طلبها أقل تلميح ، وكثيرًا ماكان يتلطف فيقول : أنت جبار المنطق يافلان ... وهذا هو اللقب الذي تفضل فاطلقه على كاتب هذه السطور .

وإن وافقناه ورأينا رأيه قال: حبذا لو وقف القراء على جلية هــــذا الموضوع، وهذاغايةما كنانسمعمن طلبه الـكتابة في موضوع من الموضوعات. كذلك لم يحدث قط انه طلب الينــا الكف عن الكتابة في مسألة من المسائل ولو جلبت عليه الأزمات وأوقعت النزاع بينه وبين ذوي السلطان.

ومن ذاك اننا كتبنا مع الكاتبين عن زيارة اللورد جورج لويد للمنيا واستقباله في الأقاليم استقبال أصحاب العروش. واشتدت الحملة على اللورد من جراء هسمنده الزيارات حتى اشترك فيها مجلس النواب على اختلاف الاحزاب ، فبلغ الحنق باللورد أن يخلق بعدها أزمة يستحضر من جرائها سفن الاسطول إلى الاسكندرية ليزيل ما أصاب هيبته من تلك الحملات. كل ذلك وسعد لايشير اليناو لا إلى غيرنا بكلمة ولا ايحاء. وظل كذلك حتى انقضت الازمة ومضى على انقضائها أسابيع ودخلت عليه يوماً فقال : أتدري ماذا صنعتم لنا يافلان ؟ 1 إن اللورد جورج يتهمنا بأننا كنا الموعزين أتدري ماذا صنعتم لنا يافلان ؟ 1 إن اللورد جورج يتهمنا بأننا كنا الموعزين ألم الصحافة وحملة مجلس النواب على زياراته للاقاليم . . . أما أنا فأقول له :

ولقيته بعد خطبة العرش الأولى وكان حساس النفسمن ناحية الحلاف عليها لأنه أول خلاف تعرض فيه نفوذه الشعبي للامتحان، وكان الوفديون وغير الوفديين مختلفين في شأنها يكتفي بعضهم بما قيل ويطلب بعضهم المزيد من الايضاح، وكان في المجلس فتح الله بركات باشا والاستاذ محمود فهمي النقراشي والاستاذ عبدالقادر حمزة. فسألنى دولته:

ما رأيك فيما يقال عن خطبة العرش؟

قلت رأيي يا دولة الرئيس إنهاكان يمكن أن تكونأوضح مما هي عليه. قال : وهل لا ينطبق هذا علىكلكلام؟

قلت : بلى . ولكن إذا تساوى الوضوح وغيره في جميع الاعتبارات فرأ بي يا دولة الرئيس أن الوضوح أولى بالتفضيل .

فلبث رحمه الله نصف ساعة يناقشني في رأيي بلا ضجر ولا استياء، ومضت فترة بعد ذلك، وانتقل الـكلام إلى شأن آخر فأصغى إليّ أحسن إصغاء. ثم سألني: ولماذا تحاسبني أنا في هذا ولست أنا المستول عنه؟

قلت : لأن دولتك وكيل الأمة والمسئول عن عمل الآخرين ا

فضحك رحمه الله طويلاً. ثم قال : لو حاسبني كل فرد في الامة حسابك يافلان لعجزت عن اعباء هذه الوكالة .

قلت وفي نفسي غضب أغالبه: ياباشا . . ولكن ليسكل فرد في الأمة عباس العقاد ... صدقت.

إنما كان يضجر سعد من المناقشة في حالة واحدة لم أشاهده غاضباً في سواها . فقد علمت عادته في تبسيط المسائل وتفصيل وجوهها وتقريبها من البداهة بالبرهان الصادع والعبارة الجلية ، فاذا حادثه من لم يتعود هذا النسق من البحث أو من يضمر غرضاً غير الاقتناع بالحجة الظاهرة بدا عليه الضجر و تكدر من ضياع الوقت في غير طائل ، وما أحسب غيره كان يكون أصبر منه أو أقل ضجراً في أمثال هذه الأحوال . فكل المناطقة الكبار يناقشون و يجادلون ولكنهم يفرضون التسليم والاذعان في بعض الأمور . وما ذا يصنع الرجل الذي يرى على بعد ميل مع الرجل الذي لايرى ما تحت قدميه ؟ انه ليفرض عليه التسليم شاء أو لم يشاً . وذلك هو الواجب ، وذلك هو المنطق القويم ،

وكل شخصية عظيمة من قادة الأمم عرضة لمظنة متشابهة في جميع الازمان وهي مظنة الانانية أوالاثرة. لأن الانانيسة والاعتداد بالنفس خصلتان متساويتان في رأى النظر القريب.

وسعد زغلول لم يكن بالمستثنى من هذه المظنة العامة ، فان خصومه كانوا لا يلحون في وصفه بشيء كما يلحون في وصفه بالافراط في الاثرة ، وقلة الاكتراث للا خرين.

إن سعداً لم ينس خدمه فضلاً عن أن ينسى واجب الوفاء الاصدقائه . وقد نقل من سيشل الى جبل طارق وهو في حالة أحرى أن تشغله بنفسه ، فكان أول مافكر فيه بجبل طارق كتابة بيان سلمه الى حاكمها فصل فيه ما يعانيه أصحابه بسيشل وحاجتهم الى العناية والانتقال من تلك الجزيرة ، وكان أول مافكر فيه بعد الافراج عنه أن يطلب من الدكتور حامد محوداعادة الكرة في كتابة عريضة من نواب الانجليز الى حكومتهم ، للافراج عن أولئك الاصحاب .

هذه أريحية مشكورة إلا أنها غير نادرة في ذوي المرورة. انما النادر حقاً أن يأخذ الرجل نفسه بواجب النجدة لمن كانوا أصدقاء له ثم ضربت بينه وبينهم ضربات الآيام وطالت بينه وبينهم القطيعة . وإحدى ما شرسعد في هذا الباب أنه سمع من بعض جلسائه أن منزل الاستاذ الهلباوي بك المحامي الكبير يعرض للبيع في المزاد ، ولم يخطر لمحدثه أنه يلقي عليه خبراً يكدره أو يشق عليه . ولكنه ماعتم أن رآه بادي الحزن مشغول البال ثم التفت الى فتح الله بركات باشا وهو يقول: إن السكوت عن هذه المسألة لا يليق ا وأمر بأن يؤخذ من ماله الف جنيه لتفريج هذه الضائقة وابقاء المنزل في حوزة صديقه القديم . فاستمهله فتح الله باشا ريما يتحرى الامر لئلا يكون في هذا التدخل تعطيل لمصلحة فتح الله باشا ريما يتحرى الامر لئلا يكون في هذا التدخل تعطيل لمصلحة مقصودة أو تسوية مالية يجهونها . وعلم الهلباوي بك أثناء البحث في هذه

المسألة بمايريده سعد فأرسل اليه يشكره ويبلغه إنه دبر للأمر تدييره واستعد لاتقا. ضرره .

ومن المحامين القدما. رجل لم تكن بينه وبين سعد علاقة غير علاقه المعرفة ولكنه بلغ الشيخوخة وقعدتبه الفاقة فرتب له سعد أربعين جنها يرسلها اليه في كل شهر إلى أن توفاه الله .

وما من منصف يرمي رجاً كهذا بالأنانية المحدودة والأرة المذمومة وبعد فنحن نعتقدان الأثرة والايثار يتلاقيان في كل عمل عظيم ، لان العمل العظيم يشتمل بطبيعته على مصالح الألوف بل الملايين من الناس . فلا فرق في نتائجه بين الأثرة والايثار مادام الحير فيه عاماً شائعاً لا ينفرد به صانعه ولا ينفرد به ذووه ، فاذا كان المقصود بالآثرة عند سعد أنه كان يهتم بأعماله ويغار على تحقيق مطالبه وآرائه وأنه لا يقبل من الآخرين أن يحبطوا سعيه وينتصروا عليه فالآثرة هنا صفة لا تضير . أما إن كان المقصود بها أن أعمال سعد تنفعه ولا تنفع غيره و تنحصر في شخصه ولا تتجاوزه إلى قومه فذلك هو الكذب الصراح ، واما أن كان المقصود بها ان سعداً كان يعني نفسه من الجهود والضحايا في سبيل عمله ، ويذهب مذهب الآنانية الضعيفة في الضن براحته وصغائر شئونه فذلك أيضاً كذب صراح ، ومادامت الانانية لا تمنع براحته وصغائر شئونه فذلك أيضاً كذب صراح ، ومادامت الانانية لا تمنع ما الخير وأن يبذل الضحية فهي والايثار صنوان والانانية منا والغيرية تتلاقيان.

الا أن الخطأ الذي يقع فيه أصدقا. سعدكما يقع فيه خصومه هو الخلط بين طبيعة النضال فيه وطبيعة التمرد أو الثورة .

طبيعة النضال في سعد على أتمها وأندرها ، وهي ان شئت ضرورة حيوية في بنيته أوضرورة «فزيولوجية» يعيش بها الجسم ويلتمس فيهاعلاجه وشفاءه واستعادة نشاطه ، وما من زائر حميم من زوار بيت الامة إلا وهو يذكر كيف كان يرى سعداً في الشتاء وهو ملتف بالدثر والكوفيات من عنقه الى

قدمه وكيف يراه بعد هنهة اذا استطرد الجدل الى أمر يمسه ويمس خصومه ولقد تزحزحت الكوفية حتى انحلت ، وتزحزح الدثار حتى سقط وانبرى الرجلكائه فتى في ميعة العمر يتوثب بحمية الشباب ولا يبالي ما يفعل الشتاء ولا ما يقول الاطباء.

وليس بالمجدي أن يمنعة الأطباء أن يعمل ويتكلم إذا دفعته طبيعته الى العمل والكلام، فانه ليصدق من وحيما ما ليس يصدق من وحي الطب ووحي التفكير، وأنها لتصيب حيث لا يصيب هذا ولاذاك. وقد حدث مرة - في الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١ - أن أطباءه رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطراً على حياته إن هو أجهد نفسه أو خطب في ذلك اليوم. ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله ولا يؤديه عنه غيره. فنيتكلم إذن وليبطل كلام الطب ونصيحة الزوج الرؤم ورجاء الأصدقاء وقد تكلمكا شاء وحي الطبيعة واعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات فاذا الخطبة من أجود ما قال وأفعل ما ارتجل. وماذا حدث ؟ هل تحقق الخطر ؟ هل تعب وأعيى ؟ هل اقتصر الأمر على السلامة ؟ لا . . . عولج مما كان يشكوه من وصب وعاد كا قوى ماكان.

وإنك لتبصره في أيام الازمات والاخطار فتبصر الحوت في بحره والطائر في سمائة: لاكرب ولا وجوم حين يكون هناك مراس ونضال، وانما الكرب والوجوم حين يكون الفراغ والسكون.

تلك طبيعة النضال على أتمها وأندرها . أما طبيعة التمرد والثورة فشي آخر. طبيعة النضال لاتناقض المحافظة على العرف الشائع، بل كثيراً ما يكون الجنود في ميدان القتال وفي ميدان الرأي محافظين جد المحافظة وهم شجعان مستبسلون . أما طبيعة التمرد فتناقض المحافظة كل المناقضة ، ولا يندر أن تنشأ من الضعف والاختلال كما تنشأ من القوة والاستواء .

وإن كثيراً من أصدقاء سعد ليحسبونه من الثوار المتمردين ولا يخطر

لهم على بال أنه من المحافظين الواقعيين، وعذرهم في هذا الحسبان قريب مفهوم، وإلا فأي شي. أقرب الى الثورة والتمرد من خليقة الرجل المفطور على المقاومة وهو يقود أمة تغضب وتثور ؟ إن الذي يصفه بالتمرد لا يقرر إلا واقعاً يؤيده العيان ولا يحتاج الى استقصا.

لكن الواقع إن سعداً كان في قرارة نفسه من المحافظين لا من المتمردين وإن كان يثور على الظالمين ويحب الثائرين كما قال في بعض الاحاديث، فلم يبنز دعو ته قط إلا على أساس القو اعد المصطلح عليها بين الناس ، وهي قواعد الحرية والمساواة وانصاف الضعفاء واحترام الدساتير ، ومقالاته التي كان يحمل بها على وزارة خصومه وينشرها بعنوان : « ثورة الوزارة على الدستور » ليست لعباً بالالفاظ ولا احتيالاً على التعبير ولكنها عقيدة تشف عن سليقة ، وعنوان يترجم عن ايمان ، فهو في ثورته على الوزارة انما يطلب شيئاً تعترف به الوزارة ولكنها تغالط فيه ، أو هو بعبارة أخرى ثائر على ثائرين .

وليست هذه خليقة المتمردين المطبوعين على التمرد والانتقاض ، فان هؤلاء يهدمون قواعد مؤسسة مصطلحاً عليها ، ويقيمون في مكانها قواعد أخرى لايعترف بها أحد غيرهم في بداية الدعوة اليها . ولم نعرف لسعد قط دعوة من هذا القبيل ، ولا نستثني من ذلك رأياً من الآراء ، ولا ميلاً من الميول حتى مشايعته للسفور ومناصرته لقاسم أمين . فانه قد كان يعيش في جو سفور ويقابل النساء السافرات فلم يزد على مجاراة الواقع الذي هو فيه ، ولم يكن من طبعه الرياء وأن يعمل الشيء ويظهر بنقيضه أمام الناس.

وانه لعملي واقعيحتى في ثورته وهجّومه. وكل ماهنالك أنه يبدو متمرداً نظرياً لمن هم أضعف منه عزماً وأقل منه طاقة ،كالرجل الذي لايستطيع أن يحمل الأرطال يحسب المصارع الذي يتحدث عن حمل القناطير ضارباً في أوهام الخيال. لكنه في الحقيقة وأقعي مثله لا يختلف عنه إلا بالعزيمة والاقتدار.

لقد كان سعد يثور على أفراد خالفوا القواعد المقررة فهو غير الثائرين على قواعد مقررة يؤمن بها جميع الأفراد . وما أحسب ثورته على الدولة البريطانية وتحديه لسلطانها تحليقاً منه في جو النظريات ولا جهلاً منه بوقائع العمليات . كلا إ فانماكان يثور على الظلم الذي يلحقه به وبالامة أذناب تلك الدولة وآلاتها من الانجليز والمصريين ، ويأبى أن يحني رأسه لاولئك الأذناب والآلات ، ويعلم انه قادر على مكافحتهم في الميدان الذي يناوثونه فيه ، وان الثبات أمامهم أجدى وأصلح من التسليم .

وتتمثل الطبيعة العملية الواقعية التي انطوى عليها هذا الزعيم العظيم في كثير من أعماله وكثير من شواغله وتصرفاته: أوضحها وأقربها إلى الفهم عنايته بتحصيل «شهادة الحقوق» في سن الكهولة مع أنها لا تزيده علماً ولا تدل على كفاءة ولا تزيد على قصاصة ورق بالقياس اليه. ولكنها وسم معترف به شائع بين أقرائه فلا مناص له إذن من تحصيله. ولو رجل غيره من أصحاب الطبائع النظرية كان في مقامه لما جشم نفسه هذا العناء من أجل الاصطلاح والشيوع، ولا غنى نفسه باحتقار الاصطلاح والمصطلحين عليه لكنه يكون حينئذ رجاكم غير سعد زغلول، ويكون شاعراً أو متصوفاً أو كنه يكون حينئذ رجاكم غير سعد زغلول، ويكون شاعراً أو متصوفاً أو عالماً بين الكتب وليس زعيم مخلوقاً لقيادة الشعوب: يعنيه أن يقنع عالماً بين الكتب وليس زعيم مخلوقاً لقيادة الشعوب: يعنيه أن يقنع الآخرين ولا يكتني باقناع نفسه، وأن يرى الأمور كما يراها الناس بعين الواقع. ولا يكتني برؤيتها كما هي في عالم النظر والتجريد، ويعيش بين الأحياء ولا يعيش بين الأفكار والأوراق.

وربما شابه هذا في الدلالة على طبيعته العملية الواقعية انه أراد أن يكون لزملائه في وزارته الأولى ماكان لسائر الوزراء قبلهم من الرتب والألقاب. وكنت قد اقترحت أن يظل الوزراء بألقابهم التي دخلوا بها الوزارة ، لأن الجماهير ينبغي أن تتعود توقير العظماء لجهادهم لا لعناوينهم ، ولتمثيلهم اياها واخلاصهم في خدمتها لا لما يحماونه من الملابس والشارات ، ولأن الوزراء

في عهد الحكومة النيابية غير الوزراء في عهد النظام القديم · فقد كان الوزير في العهد القديم لا يستوزر إلا بعد الترقي في الرتب والألقاب إلى أرفع المناصب الحكومية و هو منصب الوزارة . فاذا حصل على الباشوية وما يرافقهامن الأوسمة والأنواط فذلك هو الترقي الطبيعي الذي لاحيلة فيه . أما الوزير الدستوري فاليوم وزير وغدا غير وزير ، وربما دخل الديوان ولم تسبق له قط خدمة في الحكومة ولاعلاقة بالمظاهر الحكومية . فلا وجه إذن للتقيد بالنظام القديم في تلقيب الوزراء ، ولا نتيجة لذلك إلا تثبيت النظام القديم الذي لا يحسن أن يدوم ·

فلما اقترحت ذلك لم يقع اقتراحي عند سعد موقع الارتياح ، وقال : أتريدون أن يكون وزراؤنا نحن وحدنا بدعة بين الوزراء؟

فهو في جميع أعماله وتصرفاته ثائر لأسباب عملية أو محافظ لأسباب عملية . والثائر والمحافظ لهذه الأسباب على حد سوا.

أو هو واقعي ولكن دائرة الواقع عنده واسعة لا تنحصر في القريب الصغير من الشئون ، ومبادئه مبادي. الواقع لا مبادي النظريات ، ويقينه يقين الواقعيين لا يقين المثاليين ، وإنما أكبر أسباب الشك عند الناس في المبادي. والعقائد هو عدم القدرة على تنفيذها والاضطلاع بأعبائها ، فاذا كان سعد زغلول قليل الشك فذاك لأنه عظيم القدرة ، لا لأنه يؤمن على طريقة المثاليين .

و تقدير سعد للرجال لا يرجع إلى مقياس غير الآثر المحسوس والعمل المشهود . فقيمة الرجل عنده هي قدرته على إثبات شأنه وتقرير وجوده . ويوشك أن يكون اعتبار المراسم والتقاليد في هذا التقديرهوالمقياس الراجح على غيره من المقاييس ،

* *

وقد كان من رأى دائماً أن سعد زغلول لو لم يشتهر بالصراحة والجرأة

لاشتهر بالدها. والحيطة ، لأن معرفته بالرجال وحيلته في علاج المشكلات لا يفوتهما كثيرون بمن اشتهروا بالدها. وقامت شهرتهم عليه . ولا تناقض بين هذا وبين مافطر عليه من طبيعة المناضلة والصراع . لأن الحيطة نقيض الهوج وليست نقيض الشجاعة والنضال . بل كثيراً ما تكون الحيطة من أسلحة المناضل المقدام في نضاله ، لأنها داخلة في طبيعة الحرب والغلاب .

وربما غلا سعد في الحيطة إلى حد يحير عارفيه ويحسبونه لغزاً يضطربون في تعليله . وقد سئلهو في ذلك يوماً فقال كما أسلفنا في فصل سابق أنه ورث الحيطة من أمه والاقدام من أبيه .

لقدكان سعد منطقيًا بتكوينه ولا غرابة في حيطة المنطقي ولوكان أقوى الاقوياء . بل لا غرابة في نبذه الحيطة أحياناً لانه لا ينبذها إلا في جالة اضطرار ، وعند ما ينبذ المنطقي الحيطة لانه لا يملك إلا نبذها يكون منطقيًا مقبولاً حتى في المجازفة واهمال التدبير إلى حين ، وإلا فالى أي شيء يهديه المنطق غير ذاك 11

ومهما تختلف التفسيرات والتأويلات فالأمر الذي لا نحسبه قابلاً للخلاف هوجلاء طبيعة سعد جلاء لاغموض فيه ولا إبهام ولا شذوذ عن النمط القويم . فلم تكن في هذه الطبيعة أسرار ولا ألغاز ولا سراديب ، وكل شيء فيها معروف أو ميسور العرفان ، وقوته كقوة الجيش الكبير الذي تستطيع أن تراه بعينيك والذي يخطيء فيه من يخطيء بالمقدار لا بالكنه والعنصر : يجوز أن يكون مائة ألف ويجوزأن يكون مائة وخمسين ، ولكن لا يجوز أن يكون شيئاً مجهولاً في عالم الحساب وعالم التعبئة والاستطلاع ... لذلك لم يتصوف قط ولاجنح إلى التصوف في شبابه أو كهولته مع أنه حضر

على جمال الدين الآفغاني وصاحب الشيخ محمد عبده وكلاهما تصوفا ودرسا التصوف أيام الشباب، لآن التصوف لا يتطرق إلى الطبائع التي تخلو من الحفاء، وإنما يتطرق الى كل طبيعة بعضها ممروف وبعضها مجهول، أوبعضها مفهوم وبعضها متروك للحدس والتخمين، وليس في طبيعة سعد شيء منذاك

ومن شـاء مسباراً لطبيعة هذا الرجل الصريح في تكوينه وفي كلامه فسباره الصادق هو منطق الحيوية الجياشة القوية حيثما كانت وحيثما كان. كل ما وافق هذه الحيوية فهو من صفاته ، وكل ماناقضها وخرج عليها فليس من صفاته ، وكل خصلة في سعد فردها إلى نفس منطقية قوية تحب ما تحب و تكره ما تكره الاسباب لا تستعصى على تفسير .

سل عن حبه للصراحة وكراهته للرياء تجد أنهما كانا عنده ضرباً من منطق الاحياء الاقوياء ، لأن المنطق السليم يقول ان الانسان يداري رأيه لجبن أو جهل ، وليس القوي بحبان وليس المنطقي بجاهل . فلا محيص له من الصراحة وبغض الرياء .

المنطق يقول أن سكوت العارف عن الرياء الذي يعرفه إرغام وإذلال ... والفطرة القوية الجياشة لا تذعن للارغام والاذلال ، ففي كل لحظة بحتري فيها الرجل على قول صريح إنما يعمل — على غير قصد منه — بقضية منطقية لاالتواء فيها ، وكانه يسأل نفسه : لماذا يسومني هذا أو ذاك أن أرضى بكذبه ولا أسومه أن يرضى بصدقي و فلا يعرف جواباً يلائم المنطق السليم ويلائم القوة الحية الا الصراحة والانفة من تعاطى الرياء أو قبول الرياء . وفكاهاته كلها لو راجعتها لخرجت من كل واحدة منها بقضية منطقية مستقيمة المقدمات والنتائج ، وإقدامه كله إقدام يطرد مع منطق الاقوياء وإن لم يطرد مع منطق الصعفاء ، إذ الجائز في المنطق عند القوي غير جائز في المنطق عند الضعيف ، لان سداد الرأى أن يهرب الانسان من القوة الغالبة المنطق عند الضعيف ، لان سداد الرأى أن يهرب الانسان من القوة الغالبة

إذا كان ضعيفاً ، وليس هذا عند القوي القادر على الغلبة والآنف من الضيم بسداد .

*

وجملة ما يقال في هذه الشخصية الكبرى أنها شخصية رجل جدير بالاكبار جدير بالحب والولاء ، شخصية إنسان مهيب محبوب في مواقف الزعامة والنضال وفي مواقف المزاملة والمؤاخاة ·

لقد أحبه الشعب حب التقديس وهتف بحياته المسوقون إلى الموت وهم على مصاريع المشانق وفي غياهب السجون ، وشوهد اثنتان من السيدات تتعاتبان في المعرض الزراعي عتاباً أليهاً لأن إحداهما حظيت بتقبيل يده ولم تخبر صاحبتها بنيتها لتحظى هي أيضاً مثل هذه الحظوة . إلا أن أناساً من الزعماء والساسة قد ظفروا بمشـل هذا الحب من الجماهير دون أن تؤثر عنهم تلك المناقب الانسانية والعواطف القلبية التي تستحق الحب الحالص والمودة الكريمة . فاذا قلنالمان سعداً كان جديراً بالحبكا كان جديراً بالمهابة فنحن لا نعني حب الزعامة وحده بل نعني معه حب النفوس القريبة الحميمة نفوس الأصدقاء والأكفاء ، وحسب سعد من ذلك حب رجل كقاسم أمين فوسيدة كام المصريين . فقد كان قاسم مثلاً نادراً في نزاهة الرأي ولطف الحس وعزة النفس ودقة التعبير وكان يكتب إلى سعد حين أهدى اليه كتابه في تحرير المرأة :

« إلى صديق سعد زغلول:

« فيك وجدّت قلباً يحب ، وعقلاً يفتكر ، وإرادة تعمل ، أنت الذي مثلت لي المودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كاما شقاء ، وان فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها .

« من هذا أمكنني أن أحكم ان هذه المودة تمنح ساعات أحلى اذا كانت بين رجل وزوجته . ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لأعلنه لابناء وطنى رجالاً ونساء ي وان القلب الذي يجد فيه رجل كقاسم أمين هذه و الصداقة الحــلوة هه لهو ولا شك قلب منطو على رحمة ومودة تفوقان مايرى علىصاحبه منشدة ومهابه ، وان كانت المهابة يستحقها منه ألوف ، والمحبة لايستحقها منه إلا أفرادأ فذاذ .

أما السيدة الجليلة أم المصريين فما الذي يلجئها الى محبة سعد إلا أنه يستحق المحبة ? لاهي فقديرة فأغناها ، ولاهي خاملة فرفع نسبها ، ولاهي جاهلة فتجهل ما ينبغي لها من المعاملة ، ولاهي أم فيقال إن الأواصر البنوية هي التي تلجئها الى فبول مالا يقبل من الازواج . فلولم يكن سعد أهلاً للحب الخالص والمودة الكريمة لما استحق منها في حياته وبعد مماته ذلك الولاء النبيل الذي يقل مثله بين زوجات مدينات لازواجهن بكل شرف ونعمة .

ومن شهادة ثروت باشا له وهويؤبنه باسم الحكومة مايدل على ان عذوبة النفس فيه صفة من الظهور والاصالة بحيث لاينساها الانسان بعد العداء الشديد وهوغير مطالب بذكرها لوكان يريد أن يتخطاها ... قال ثروت باشا : ه أما الصديق وعهدي بصداقته طويل فقد ألفيت منه طول هذه المدة خير مايجد الصديق لدى الصديق : طيب أخاء ، وصدق عهد في المشهد والمغيب مايجد الصديق لدى الصديق : طيب أخاء ، وصدق عهد في المشهد والمغيب ووفاء على القرب والبعد ، وصراحة في غير جفاء ، واخلاص نصح وسداد رأى في المشورة . وما أنس لا أنس سعداً محدثاً فقد كان متاعاً لا يمل وذخراً لا يبلى . في المشورة ، وحلو فكاهة ، ولطف مدخل ، وبراعة تنقل ، وسحر حديث ، فاذا جادل أو ساجل فهو البحر تدفقاً واندفاعاً ، هذا الى خصوبة في الفكر ومتانة في التدليل كان فيها لا يجارى .»

وقد تدل على شخصية سعد أكبر من هـذه الدلالة آرا. اناس من غير جنسه ومن غـير وطنه ومن غير منحاه في السياسة مثل كرومر الانجليزي ومورتن هول الامريكي ومابل جايار الانجليزية وآني فيفانتي الايطالية .

فكرومر هوالقائل فيه : انه علمه كيف يحترمه . وهي كلمة لايقولها كرومر

في مصرى صغير ، ولا يقولها في مصرى كبير الا اذاكان من الكبر بحيث لا تنكر مزاياه .

ومورتون هول سفير الولايات المتحدة الأول في مصر يقول عنــه في كتابه «مصر ، ماضها وحاضرها ومستقبلها » :

ه اظن انه من المتفق عليه أنه لا يكمل تاريخ مصر الحاضرة بغير الاشارة الى رجل من أكبر ابنائها شجاعة ووطنية وطيبة وحكمة وأعنى به المرحوم سعد زغلول. فأما انه كان أنسانًا من البشر له نصيب من ضعف البشرية الذي لا يخلو منه انسان فذلك أمر لا يحفل أحدبنقضه و تفنيده ، ولكننا نستطيع ان نرى ان هذه الما خذ القليلة التي لا غنى له عنها في مظهره و مسعاه انما كانت من مآخذ الرؤس ولم تكن من مآخذ القلوب.

« وان زوجته الرؤم المهذبة وسائر من لازموه في بيته لهم شهود على انه كان زوجاً دائم الحب والعطف والرحمة ، وقد كان على هذا النحو صديقاً صادقاً وفياً لا يسهل عليه ان يصدق ان أخاً وثق به وأئتمنه ينقلب الى نقيض الثقة والامانة . فاذا أصابته هذه المحنة كما حدث من قليل منهم بين ألوف الاصدقاء المعجبين به فهو أبداً على أستعداد لأن يبسط يده اليهم بالغفران والطيبة ، ولم أرقط بين من رأيت من مسيحيين أو مسلمين أو يهود من كان أوفى نصيباً من هذه السجية التي هي اعظم السجايا » (١)

وقالت السيدة مابل جايار تصف لقاءه الأول في زيارة لأسرتها بالقاهرة « لم أعرفه قبل ذاك ، فكان الآثر الأول منصرفاً بطبيعة الحال الى ملامحه ومرآه . وهي ملامح لم تكن من دواعي تمليقه قبل أن تسبغ عليها السن جلالها ووقارها . الا أن الآثر الذي لايقل عن ذاك ولايزال حيثاً في ذكراي هو الآثر الذي يقع في النفس من مسلكه المستقيم وقلة اصطباره على

⁽¹⁾ Egypt P. ast, Present, and future. By Dr. Morton Howell

صغائر المجاملات التي تعود ناأن نقرنها بالآداب الشرقية . فقد كان مسلكه خالياً كل الحلو من الكلفة والتصنع ، وقد تقدمنا في جلالة وهيبة الى حجرة المائدة عناراً لنفسه المكان الذي رأى باعتباره الضيف المميز أنه هو المكان الذي يليق به الى جانب صاحبة الدار . وبدأ الحديث في غير ماتردد بيقين الرجل الذي يعلم أن لديه مايقال وما يسمع ، وكنا قد تفاهمنا من قبل فيا بيننا على اجتناب مواضع الجدل والمناقشات السياسية لاعتقادنا أن زغلو لأ يفضل أن يمتنع عن ابداء الآراء التي لاتروق مضيفيه ، ولكنه سرعان مأرانا خطأنا و تطرق هو نفسه الى الموضوع بصراحة تامة لم تدع لنا شكأ في نفوره من الحكم البريطاني ، أو لم تدع لنا شكاً في العزيمة الصارمة التي انظوى عليها ذلك الضعيف الكبير.» (١)

وقالت الكاتبة الإيطالية آني فيفانتي في كتابها أرض كليوباترة هيبدولي الزعيم المصري كاكنت أعرفه تماماً في باريس منذ خمس سنوات مضت ،فلا العظمة ولا الاضطهاد ولا سلطان الحكم ولا النبي ولا السجن ولا الهتاف باسمه ولا الدس عليه ولا شيء بما جرى في هذه السنوات الخمس استطاع أن يحدث أقل تغيير في ذلك الوجه العبوس المائل الى السمرة أو يقلل من عظمة تلك القامة الطويلة النحيلة او أن يضعف نور هاتين العينين القاسيتين الغارقتين تحت جبينه واللتين يشعر الناظراليه أن نظراتهما تخترق صميم احشائه و تبحث عن طيات نفسه واعماق فؤاده . ولقد حياني تحية شعرية هادئة نطق بها دون ابتسام بصوت كانه ينبعث من بعيد ، فتحركت لها نفسي وأثرت في أثراً كبيراً ، فاردت اذذاك أن أعبر له بكل قوتي عن عظم اخلاصي وأن أعرب له عن إعجابي وابثه كل آلامي وأسني لذلك الحظ القاسي الذي اصابه وأصاب وطنه فلم أستطع ، وكائه فهم ذلك مني وعرف مايحيش في صدري

⁽¹⁾ A. Lisetime in Egypet 1879-1935 By mnabel Gaillard

ويدور في خاطرى فرد على سكوتي هذا بابتسامة مشرقة نادرة تهللت على وجهه المتألم الذي هجره الابتسام . . . » (١)

هذه الآثار التيكانت تقع من نفوس ناظريه من الرجال والنساء الآجانب هي الآية على مكان تلك الشخصية بمعزل عن عبادة الجماهير ، أو بمعزل عن العصبية الوطنية ، فلو كان سعد في غير مصر ، لبرز فيها بروزه في مصر ، ولاستحق المحبة والمهابة ولو لم ينهض للقيادة التي تذكي النخوة وتجمع أهواء الشعوب .

ومن الاضافة اللازمة هنا لتمام العلم بجوانب هذه الشخصية الرحيبة أن نقرنها بالخصائص الذهنية التي كانت أظهر من غيرها في هذا الرجل العظيم . فهي الحصائص التي توائم هسنده الطبيعة وتجري بجراها من الانتظام والاستقامة والوضوح والنفاذ: قياس سليم وفطنة جيدة ، وملاحظة صادقة وذاكرة واعية يقظى، لا يخطي قياسه الأمور ولايرى شيئاً إلا أحسن ملاحظته وأحسن فهم الدلالة التي يدل عليها ، وقد ينتهي من قراءة مئات الصفحات ويذكر تفصيلات الوقائع الهامة منها ، وقد يمر به الاسم فيذكر ما يتصل به من الذكريات قبل عشرات السنين ... قرأ التحقيقات في قضية السردار وهي تستغرق آلاف الأوراق فحضرته بعد ذلك وهو يصحح للمحامين فيها ما يسردونه عن بعض الشهادات ، وقدمت له يوماً رجلاً من قرية سلوى ما يسردونه عن بعض الشهادات ، وقدمت له يوماً رجلاً من قرية سلوى هذا كان صاحب قضية اشترك سعد في دفاعها قبل نيف وعشرين سنة ، ولم يحدث بعدها ما يذكره بها الاذلك اللقاء .

هي على الاجمال شخصية تكثر فيها الأنوار وتقل الظلال ، والأنوار التي تنبعث منها خليقة أن تريك سطوة البرق كما تريك صفاء الربيع .

⁽¹⁾ Terra Di Cleopatra, annie Vivanzi ترجه الاستاذ طه فوزي

ثقافة سعد

كان سعد عمليًا في ثقافته كما كان عمليًا في مساعيه وأخلاقه ، فسكانت مكتبته مكتبة الازهري القانوني الوزير ، لأنه نشأ في الازهر ، وجنح بعد ذلك إلى دراسة القانون . وانتظم بعد ذلك في سلك الوزراء ورجال السياسة فالكتب التي في مكتبته كلها هي كتب فقه ديني أو فقه مدني أو فقه دستوري أو كتب تجمع بين هذه الاغراض بجامعة الاشتراك في دراسة الشريعة والاجتماع .

واذا قرأ كتاباً في غير هدذه المباحث فغالباً ماتدعوه إلى قراءته حركة علية تحوم حول ذلك الكتاب وتتصل بالسياسة أو بأمر من أمور الواقع الذي يشغل الأذهان. فقرأ كتاب « الاسلام وأصول الحمكم » للاستاذ علي عبد الرازق حين ثارت حوله ضجة المعارضين وآذنت هذه الضجة باسقاط الوزارة من جراء الأزمة التي استحكمت بين الاتحاديين والأحرار الدستوريين، ومنهم الاستاذعلي عبد الرازق. وقرأ كتاب « الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين حين ثارت حوله مثل تلك الضجة وآذنت بمثل تلك النتيجة ؛ وكان يقرأ في أيامه الاخيرة مطبوعات دار الكتب التي تهدى اليه، تجديداً لمادة اللغة التي كان يشعر أن السياسة شغلته عنها منذ زمن بعيد.

درس بعض التراجم الشرقية وبعض التراجم الغربية ، ولكنه كان يرجع في حكمه على الرجال إلى اختبارات عامة ومبادي. بحملة قلما تتناول التفصيلات أو المزاياغير المحسوسة . مثالذلك ماقاله لمسيو «جايار» الذي كان يعنى بجمع آثار نابليون في القاهرة : «ومن هو نابليون النه جزار» وما قاله عن عدلي وقد عرض الحاضرون لطريقته في علاج المسائل الشعبية فقال سعد: «ان عدلي يكن ارستقراطي والاستقراطي يأخذ ولا يعطي . . »

وقلت له مرة ان الناس يقيسون عظمة السياسي بعظمة الدولة التي يخدمها وهذا قياس خاطي. فربما كان في دويلة من دويلات البلقان وزير أورئيس وزارة أكبر وادرى بالعلاقات الدولية من جراي أو مكدونالد ... قال أصبت . الحق يقال انني ماشعرت وأنا أحادث مكدونالد الا ان الرجل واحد من أمثال أو لئك المفتشين الانجليز أو المستشارين الذين نراهم عندنا في الدواوين ... وقد يكون الجانب المحسوس من مكدونالد في السياسة والمراسم الشخصية كما قال سعد . أما الجانب الذي نعرفه من كتبه و محاولات حياته الأولى فهو صفحة اخرى بغير نزاع .

* * *

واللغات التي كان يعرفها هي الفرنسية فالالمانية فالانجليزية، ولدراسة كل لغة من هذه اللغات سبب من أسباب الواقع وداعمن الدواعي العملية. فاما الفرنسية فقد تعلمها لأنها ضرورية لدارسة القانون، واما الألمانية فقد تعلمها لانه كان يتردد على البلاد الألمانية في رحلة الصيف، وأما الانجليزية فقد شرع في تعلمها منذ سنة ١٩١٩ وجدد اهتمامة بها في سيشل لانها لغة لازمة في علاج المفاوضات والعلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا العظمى.

ورأيت في مكتبته بمسجد وصيف كتاب « المانيا الحديثة و تطوراتها ». لهنري لختنبرجر

« L'allemagne moderne, son Ivolution par Henri Liehtenberger >

قرأه حين شغل الحديث عن المانيا ونهضتها ومطامعها اذهان العالم المتحضر في أبان الحرب العظمى ، ورأيت في تلك المكتبة كتابًا عن أصل الاعتقاد بالله للاستاذ سرتيانج أستاذ الفلسفة بالمعهد الكاثوليكي بباريس .

Les Sources de La Groyance en Dieu, Par Sertillangeo Proffesseur de philosophie a L institut cat holique de Paris وخطر ليأن أسأله في موضوعه ـ وكان الحديث يدور احدى الليالي على

اثبات وجود الله ـ فعلمت انه اقتناه ليقابل بين أدلة علماء الدين المسلمين وادلة علماء الغربيين من المتدينين وغير المتدينين على اثبات وجود الآله ، واستطرد الحديث في شعاب هذا الموضوع فكانت خلاصة رأيه وهو يرفع أصبعه الى السماء انه يؤمن بالعناية الآلهية ، وتلك كانت عادته كلما جد في السياسة المصرية طاري، لا يقع في حسبان . فكان يقول ه انها العناية » أو يقول : « ياما أنت كريم يارب » ويشير الى السماء .

وأعجب قراءاته طرآ قراءته للامير كروبتكينومذهبه في الفوضى والغاء الحكومة وأين سعد من هدنه الأودية السحيقة في أطراف الفلوات الاجتماعية ؟؟ يبد أنك حين تستطلع الامر ترى أنه لم يقرأه الاعجباً من أن يكون في الدنيا من يخرجون على النظام هذا الخروج، وتشوفًا الى الحجج العقلية التي يؤيدون بها مذهبًا لا يلوح عليه أنه قابل للتأييد، فهو اطلاع التشوف والامتحان والاستنكار، وليس هذا الاطلاع بالذي ينفي المحافظة العملية في التفكير.

* * *

و بعد فان أو جز ماتوصف به ثقافة سعد أنها ثقافة رجل خطيب بطبعه و تكوين فكره و ملكاته . اذا اتصل بالناس صلة التفاهم والارشاد فانما يتصل بهم من طريق التأثير الشخصي و المخاطبة اللسانية ، و لهذا كانت موضوعات درسه كلها من الموضوعات التي تنفع فيها الخطب والمحادثات الشفوية ، ولم يتفرغ قط للتأليف في بحث من البحوث التي يحسنها خيراً من احسان بعض الكاتبين فيها ، لانه كان « شخصية » تؤثر في شخصيات ، ولم يكن دارساً يؤثر من طريق الاقلام والاوراق .

نعم بانه وقف وهو دون العشرين على تصحيح كتاب لم يتم طبعه وهو كتاب الاخلاق لابن مسكويه ، ونعم إنه تفرغ حينًا لترتيب آيات القرآن على حسب الشواهد والموضوعات ، ولكنه لم يؤلف كتابًا مفصلاً فيما يعلمه ويحيط به من الدراسات القانونية أو الاجتماعية ، ولعله تفرغ لترتيب آيات القرآن على حسب شواهدها وموضوعاتها ليستعين بها في مواقف الخطابة عند الاحتجاح والاستشهاد.

وقد خطر له في سنة ١٨٨٦ وهو محامأن ينشي صحيفة باسم العدالة لدرس المباحث القانونية من الوجهة النظرية، ولكن هذه الصحيفة لم تظهر وماكان ظهورها ليصرفها إلى الدراسات النظرية البحت ، وفيها مجال واسع للدراسات العملية كنشر الأحكام والوقائع والمرافعات .

وهو اذا لم يخطب تحدث كانه يخطب ، وفضل الاملاء على الكتابة لأن الاملاء ضرب من الخطابة ، فهو خطيب حيث يكتب على الطرس وحيث يلتى على الاسماع ·

سألني مرة : هل تخطب يافلان ?

قلت: قد تعودت القاء الدرس في التاريخ وأدب اللغة ، وفي الالقامشيء من الخطابة .

قال : نعم - ولكن الخطابة تبادل ، والقاء الدروس يأني من ناحية المعلم ولا يشاركه فيه تلاميذه ، إلا أن تكون مشاركتهم بسرعة الفهم وحسن الاصغاء وهنا ذكرت أن سعداً كان أكثر ما يتدفق في خطبه عند ما يتعدى

وهما و رف ال سعد الشعور إلى المجاذبة بالكلام. فاذا سئل ونوقش التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام. فاذا سئل ونوقش قليلاً تفتح في القول وأخذ من طوالع الملتفين به ما يوحي اليه فنون المقال المناسب لذلك المقام ، وكان أسرع ما يكون إلى الافاضة إذا تكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التعبير والالقاء ، فاذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلها و تأهب للسكلام كما يتأهب الفرس الكريم للايفاض في بجال السباق .

وقال لم. وقد دخلت عليه يومًا على أثر أيام توالت فيها خطبه وجهوده : أسمنا مما عندك ؟

قلت : إنما جئت أسمع من الرئيس.

قال: ولكن الرثيس يريد أن يكون اليوم سامعاً . ثم ضحك وقال :

لا المغني يحقّ أن يطلب الطرب ولا الخطيب يحق له أن يطلب السكلام ، أليس كذلك ؟ وأخذ يتحدث عن الكاتب والخطيب ومزاج كل منهما فقال : أن السكاتب تناسبه العزلة ويخاطب قراءه من وراء حجاب فلا يراهم ولا يرونه ، أما الخطيب فالاجتماع ميدانه ولرؤيته السامعين أثر في نفسه يستجيشه ويبيب بملكته .

ثم قال : ان الكتابة أصبحت تتعبني اكثر من الكلام . قلت ياباشا ان بياناتك خطب مكتوبة . قال نعم . اذا أمليتها كانت كالخطب واذا كتبتها استحضرت موقف الخطابة .

على ان الامر الجدير بالملاحظة في خطب سعد وبياناته أنك تقرأ خطبه فتجد فيها دقة علمية لاتجدها في أقوال الخطباء، وتقرأ بياناته فتجد فيها رنة بيانية لا يعنى بها في خطبه ، وتعليل ذلك عندي ان محضره المهيب الجذاب يغنيه في موقف الخطابة عن الرنة الحماسية فيحرص على التدقيق، وأنه يحب أن يودع بياناته روح الخطابة على البعد ، فيكون الخطيب فيسمه أيقظ من الكاتب والمتحدث.

فهو يعنى بالدقة حين يخطب، ويعنى بالنغمة حين يكتب، ولايفوته التمحيص في الحالتين .

كتبت الآنسة النابغة « مي زيادة » تحية جميلة في ذكرى من ذكريات سعد عنوانها: « ذكرى جبار الوادي » قالت فيها عن سعد الخطيب:

« سمعت سعداً متكلماً على المنبر فأدركت ثمة كيف الوجه العادي يصبح أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان فتجرفها جرف العاصفة الأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكثيف المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلي البصر حساماً استل من غمده وتشيع النظرات أنصالاً تشق الصدور»

مم قالت ــ وهنا موضع المــلاحظة من هذه التحية ــ « وكيف يشذ

خطيب عن جميع أصول الخطابة ولا تصمد جميع بياناته للتحليل والتمحيص وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضي يتقاذفه ويلهوبه وأنت من نشو تك لاتفيق , وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزمجر خلاله العواصف لتنجلي فيه ارادة شعب يقول : أنا . . . إني موجود . . .

والآثر النفسي لخطابة سعد هو الآثر النفسي الذي وصفته الآنسة وصف النفس الحساسة والطبع المجيب ، لكني لا أرى مسوغاً ظاهراً من خطبه الكثيرة لقولها « ان بياناته لاتصمد للتحليل والتمحيص»... كلخطب سعد وبياناته تصمد للتحليل والتمحيص ولا تبدو عليها صفة واحدة كما تبدو عليها هذه الصفة الشائعة في كل ما يقول.

وأنى لأقلب الآن أمامي بمجموعة منخطبه السياسية في أعنف أيام النضال الحزبي ثم أتعمد أن أختار أقواها حماسة وغضباً فلا أجدواحدة منهاتشذعن تلك الصفة الشائعة في جميع خطبه وأحاديثه ومسامراته.

وهذه خطبة له في أيام النزاع على المفاوضات يقول فيها :

« الثقة التي شرفتني الأمة بها لا يمكن أن تنعدم كما قلت لوفدكم بالأمس إلا في واحدة من حالتين : إحداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحاية ، وإني أعيذها من هذا الخبال . والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأما ، فبدلاً من أن يسعى للاستقلال سعى في غيره وعمل لسواه ، وفي هذه الحالة لايصح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالاعدام ويكون حكمها من أعدل الاحكام ، وإنى أبيح دمي إذا رأيتم مني انحرافاً عن قصدكم أو تسامحاً في حقوقكم أو خروجاً عن حدود المهمة التي عاهدتكم على القيام بها ، وماعدلت ولن أعدل عنها مادام في عرق ينبض أو نفس يتردد ، واني أحارب كل شخص يسير ضد هذه الحطة ويضع العقبات في طريقها مهما كانت رابطته معنا

وحاله من الصداقة لنا . واقد قاطعت كثيراً من أصدقائي لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصاً على التمسك بحقوق الآمة . فكل من رأيت فيه تهاوناً في السعي وتواكلاً في العمل أو تسايحاً في الحق وأعيتني الحيلة في اصلاح شأنه قطعت بيني وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها ... أفعل ذلك غير آسف ، لأن حقوق الأمة لاتقبل مجاملة ولامسايرة لصاحب.»

فهذه خطبة متوهجة مرتجلة في ساعة لم تكن فيها دعوة الخطابة منظورة ولا مرجحة ، وكلها كما يرى القاري و كلام على العقاب و قطع الصلات و تحدي الخصوم و فأي حشو فيها ؟ وأي عبارة من عباراتها لا تثبت على التمحيص والتحليل ؟ بل أي عبارة لا تصلح أن تسكون نصاً من نصوص القانون أو حكمة من حكم السلوك ؟ فيها ولا شك توكيد وجزم واشتداد ولكن ليس فيها مخالفة للمنطق وأصول التحرير والتمحيص وحى حين عرض لقطع الصلات وهو معنى تنطلق فيه الألسنة ويقل الاحتراس لم ينس أن يقول: هو أعيتني الحيلة في اصلاح شأنه » شرطاً لقطع تلك الصلات بعد أن يتهاون المتهاون ويتواكل المتواكل ويتسامح المتسامح ، وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث: التهاون والتواكل والتسامح لها معنى لا تؤديه الكلمتان الآخريان الثلاث: التهاون والتواكل والتسامح لها معنى لا تؤديه الكلمتان الآخريان كانه في معرض التقسيم والتفصيل لا في معرض الانذار والوعيد . واننا لنسمع اليوم زعماء الأمم ينذرون خصومهم فاذا البطش والفتك والسحق والتحطيم وماقارب ذلك من الايعاد والارعاد جزاء عاجل لكل من اشتبت فيه نظرة أو حامت حوله غيرة أو زلت به عشرة .

بل حتى حين تكلم عن سحب الثقة وخيانة الأمانة لم ينس أن يتم فيها الشروط القانونية التي لابد منها في تقرير الجزاء ، فلا يكني أن يقصر الوكيل في أداء الأمانة ليستوجب الحكم عليه بالاعدام ، بل يجب أن يقصر في أدائها و يعمل لغيرها .

وقس على ذلك كل خطبة ، وكل حديث ، وكل وعد أو وعيد ، وأقول

ذلك عن يقين الاختبار . لأنني سمعت سعداً خطيباً ومتحدثاً وسمـيراً ومناقشاً فلا أذكر في كل ما سمعت شذوذاً عن قاعدة التدقيق المحسكم في كل ماقال .

وكان من عاداته أن يقطع الكلمات أحيانًا في أثناء الخطابة ، فينطق بها متفرقة بين كل كلمة وما بعدها فترة وجيزة ، كأن يقول مثلاً :

« ولقد قاطعت كثيراً من أصدقائي » لأنه لابريد أن يفوه إلا بالكلمة المعنية دون سواها على سهولة الفيض بالكلمات عنده .

ولوأن خطيباً غيره قطع الكلمات ذلك التقطيع لجاز أن يفتر في حضرته اقبال السامعين ، ولكن سعداً كان يرسل في نفوس سامعيه تياراً من السحر والجاذبية يصل ما انقطع من الكلمات ويعلق الاسماع بشفتيه كيفما أبطأ أو أسرع وكيفما وصل أو قطع ، وتلك هي مزيته « الشخصية » على كل من سمعتهم من الخطباء ، ومن فتنة هذه المزية الشخصية للناس في أيامه أن نطقه بحرف القاف — وكان ينطقه بين القاف والكاف — غلب على ألسنتهم فأهملوا النفخيم ليلفظوا بهذا الحرف كما يلفظ به سعد زغلول.

نعم هي مزية شخصية وليست مزية فنية يستفيدها كل مستفيد . وقد صدقت الكاتبة الفضلي حين قالت « انه كان يشذ أحيانًا عن جميع أصول الخطابة » و ينتزع مع ذلك قلوب سامعيه .

نعم. انك لاتقنع من كل خطيب بوقفة سعد الساكنة الني قلما ينقل فيها قدماً أو يتحول عن مكان أو يستعين بايماء غير مد الدراع أو رفعها في الحين بعد الحين. ولكنك تقنع من الشيخ المهيب بهذا السكون فيزيدك روعة وتبجيلاً و يغنيك بالنظرة الماضية والطلعة الحية عن الافراط في حركات الخطباء الشبان.

وكذلك لاتقنع من كل خطيب بذلك الصوت الذي لاجهد فيه ولا

اكثار من التنويع والتنغيم، ولكن و المزية الشخصية » في صوت سعدانه صوت رفيق لين الوقع على الاسماع يخنى فيه الجهد ويظهر الارتفاع الذي يعم أجزاء المكان ولوكان من أرحب ميادين الخطابة، فهو صوت مرتفع لا شك في ارتفاعه . . . إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدر بالقول لم تر أوداجاً تنتفخ ولا ملامح تلتوى و تتغضن ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت فأحسست بالقدرة التي تلازم السهولة ، وبالسيطرة التي تملك الاسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع لخطيب .

وكذلك لا تعجبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة والأحكام المسببة والقضا بالمقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت في نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت بك عظمته اطمئنان الطود الأعظم ، فهنالك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الاحكام المسببة أحكاماً مسببة ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هي عاصفة جارفة كا قوى ما تكون المبالغة في اجتراف السامع ، وكا مضى ما تكون المبالغة في اجتراف والتعليل ، لانها قطعة من نفس قوية انتقلت اليك فنقلت معها القوة كما هي في جوانح صاحبها ، فلاحاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجامين .

هذا شأنه في الخطابة وهذا شأنه في الحديث ، واني لآذكر اني سمعته يصف اجتماعاً واحداً ثلاث مرات في جلسة واحدة ، فكدت أعتقد أنه كان يحفظ الوصف لقلة الاختلاف في ألفاظه الجوهرية ،

كان ذلك يوم انعقاد المؤتمر البرلماني في الكنتنتال لعهد الوزارة الزيورية، وذهبت الى بيت الامة فسمعت سعداً يصف ماكان في اجتماع ذلك اليوم لبعض مهنئيه . ثم انصرف الزائرون وجاء بعدهم آخرون ، واستبقاني يومئذ للعشاء فحضرت فوجاً بعد فوج من زائريه ، وسمعته يعيد وصف الاجتماع وماحدث قبله وفي أثنائه و بعده ثلاث مرات .

ثم جا. محام من أعضاء الوفدكان في الاجتماع فقال له سعد مازحاً: « والله اني مكسوف من العقاد . فقد أسمعته حديثاً واحداً ثلاث مرات ، فتولَّ أنت شرح ما رأيت.»

فيا هو إلا أن شرع ذلك المحامي في شرحه حتى استوقفه سعد مرة بعد مرة . مراجعة لبعض الكلمات أو ترتيباً لبعض الوقائع ، وتوخياً في كل أولئك للتدقيق وسرد الاموركما حدثت بلاتصرف أو تحريف ، فقال المحامي : يظهر ياباشا ان من حظ الزائرين أن يسمعوا منك الحديث مرة ، ومن حظ العقاد أن يسمعه أربع مرات .

وإذا كان كبار المحامين — رجال الفصاحة والدقة الفقهية — لايسلمون من ملاحظاته في سرد وصف لاينشر ولا ينبني على الخطأ فيه ضرر يذكر فللقاري. أن يقيس على ذلك تمحيصه للكلام في الخطب والاحاديث. وأنما عذر الآنسة مي فيما وهمت أنها لم تسمع سعداً إلا قليلاً وأن الخطباء الذين يستهوون الجماهير دون أن ينسوا التحليل والتمحيص قليلون ، لان الاسنهواء بالمبالغة والتهويل كثير . أما الاستهواء مع التزام المنطق ووزن الكلام فلن يتاح إلا لخطباء لهم مثل ما لسعد من سحر المحضر وهيبة المنظر وقوة الروح المغناطيسية ، وهم أقل من القليل

* * *

حدثنا الشيخ محمد زيد بك رحمه الله عن بعض نوادر سعد أيام الطفولة فقال انه — أي الشيخ زيد — كان قريناً لفتحي زغلول في المكتب ، وكان سعد قد ذهب إلى القاهرة ليحضر الدروس: في الجامع الازهر ، فكان إذا عاد في اجازة الصيف امتحن تلاميذ المكتب في قراءة القرآن وطلب اليهم أن يشكلوا أو اخر الكلمات ولا يقفوا عليها بالسكون .

قال الشيخ زيد: وأذكر من امتحانه لنا في قراءة القرآن هذه الآية خاصة: « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فأنه كان يسألنا لمــاذا هذه الضمة على نون اليقين فلا ندري ، وكنا نعجز عن وضع الحركات على الحروف الأخيرة إلا أن نرجع اليها في المصحف الشريف . لأننا كنا نحفظ القرآن ولا نفقه قواعد الاعراب .

والذين سمعوا سعداً يخطب يعرفون من هذه الحكاية كيف تتأصل خواطر الطفولة و تتمكن في طبائع العقل وخصائص التعبير بعد ذلك بأزمان طويلة فان سعداً كان في خطابته يعرب أو اخر الكلمات ولا يسكنها على عادة الفريق الأكبر من خطبا العربية ، ولا شك أن عادته هذه من عادته تلك أيام الطفولة ، ولا شك أيضا أن العادتين معا ترجعان إلى طبيعته الأصيلة التي تمتزج بجميع أحواله وعاداته ، وهي الكشف عن الرياء وحب الامتياز فقد علم أن الذين يسكنون أو اخر الحروف يفعلون ذلك جهلاً بحركاتها في الاعراب ، ويبتغون السلامة في التسكين اعتماداً على القاعدة المشهورة : هسكن تسلم »... اعلم هذا فلم يشأ أن يفلتوا بهذه الحيلة وأن يعتصموامنه بهذا الرياء ، وأحب مع غلمة أن يعلم هؤلاء الصبيان انه لم يذهب إلى القاهرة عبثاً وانه قد عاد منها بشيء يعرفه هو ولا يعرفونه : وهو قو اعدالا عراب .. فظهر هناسعد زغلول في خاطرة الطفولة كماكان يظهر في كل مرحلة من مراحل العمر وكل ميدان من عيادين المنافسة : وأي عمل من اعهال سعد زغلول الكبير أو سعد زغلول الصغير لم يكن باعثه حب الامتياز وكراهة الرياء ؟

على أننا نعود فنقول إن سعداً الخطيب هو سعدكله في الحقيقة بجميع عاداته وأطواره وخلائقه وملكاته في فا من خصلة ولاملكة إلاومردها إلى الخطابة أو هي واجدة لها مظهراً من المظاهر في الخطابة : قوة العارضة وجلاء البرهان في المحاماة والسياسة والقدرة على الاقناع أو القدرة على التأثير وقيادة الجماهير... كل أو لئك هو سعد الخطيب سواء تمكلم في القوم أو لم يتكلم . وينبغي أن نوسع نطاق الحطابة على هذا الاعتبار إلى أبعد مداه وهو القدرة على التأثير كيفما كان هذا التأثير ، فعلى هذا الاعتبار يدخل في معنى الخطيب معنى الزعيم أومعنى

القائد الغالب على من دونه من الأصحاب والأعداء

* * *

وكان سعديقرأ الشعر ويأتي في خطبه وأحاديثه بأبيات أوشطرات يترنم بها ويستشهد بمدلولها . ومنها قول المعري:

هذا كلام له خبي معناه ليست لكم عقول ومنها بيت عبدالله بن الزبير يريد مالـكاً الاشتر:

أقتلوني ومالـــكاً واقتلوا مالـكاً معي

ومنها قول البارودي:

خلقت عيو فألاأرى لابن حرة عليَّ يدآ أغضي لها حين يغضب ومنها هذه الشطرة لعدي بن زيدالعبادي

« لُو بغير الماء حلقي شرقً ٌ (١)

وكان يقرأ المتنبي ويحفظ له أبياناً كثيرة ويستشهد بها في بعض الأحاديث ويذكر أقوال المتنبي ويعزوها اليه إذا استشهد بهاأحد أمامه . ولكنه على الجملة لم يكن يتكلم كثيراً فى الشعر والشعراء، وهمس لي مرة كا نه يمزح: كلام في سرك . أنا ليس لي في الشعر » وقال مرة أخرى « إنما أحب الشعر الواضح المبين . أما الشعر الذي يحوجني الى التنجيم فلا أستطيبه » وكان يرى أن شعر الحكمة أفضل الشعر وأعلاه ، ولهذا يفضل المتنبي على سائر الشعراء.

رأيته مرة في عباءة محرة كان يلبسها أيام كان طالباً بالازهر واحتفظ بها على سبيل الذكرى يعاود لبسها في الشتاء بالمنزل من حين إلى حين. فحطر لي أن أسأله: ألم يحاول قط وهو في الازهر أن ينظم الشعر على عادة الطلاب الازهريين في ذلك الزمان؟ فلم يحبني جواباً مباشراً ولكنه قال: إنهم قبضوا عليه بعد الثورة العرابية واتهموه بالاشتراك في جماعة سرية هي جماعة الانتقام التي زعموا انها تألفت لقتل أعداء الثورة والشهود على رجالها، ولم يكن عند

⁽١) بقية البيت : كنت كالنصان بالما. اعتصاري

محافظ العاصمة من دليـــل على التهمة الا بشـطرة من بيت وجدها مكتوبة بغير خطي على غلاف كتاب : وهي « لي في ضمير الدهر سر ظاهر » ؟... فكان المحافظ يقول ما هوهذا السر أن لم تكن فيه أشارة إلى جماعة سرية ؟... وهذا ما صنعته بنا شطرة واحدة لم ننظمها فكيف بالشعر لو نظمناه ؟

وحضرته يومًا في مسجد وصيف يستمع إلى شيخ من أبناء إقليمه ينشده قصيدة في مدحه من الشعر الذي لا يغبط الممدوح عليه • فاصغى اليه حتى فرغ من انشاده ثم قالله: إنهم يقولون يا شيخ فلان إن الفاضي يعمل قاضي... فهل سمعتهم قالوا إنه يعمل شاعر ؟ . . . ولا أدري هل هذا رأيه في المديح الردي، وحده أو هو رأيه في كل مديح .

أما الكتابة فسعد يعد فيها من الروادالذين سبقوا المعاصرين باربعين أو خمسين سنة إلى أسلوب الكتابة الحديثة و نعني به الاسلوب السهل الدقيق الحالص من قيود السجع والفضول، وأثره في تجديد الاسلوب العربي منذ اشتغاله بالوقائع المصرية قبـــل الثورة العرابية أثر جدير بالتنويه في تاريخ الادب العربي الحديث.

وهو يستسهل الشائع أحياناً فيخالف القواعد الصرفية والنحوية وتزداد هذه المخالفة في كتاباته الآخيرة على كتاباته الأولى أيام التحصيل والدراسة ، غير انه يدقق في اختيار كلماته ما استطاع التوفيق في تدقيقه بين أحسكام الفصاحة ومفهوم الجمهور ، وأغرب ما وردفي كلامه الحديث كلمة «الامعات» ولكنها أصبحت من المألوفات بعد ما تناقلتها الأفواه وتسال عن معناها جميرة القراء ،

ومن أمثلة الاستسهال للشائع كلمة « يمكن له » التي كانت ترد في بعض خطبه ورسالاته ، وقوله في خطابه الى الدكتور حامد محمود: «انكسرت سنة في طقم أسنان عاطف بك » وقوله في ذلك الخطاب: تخصص لكل واحد من إخواني في الشهر ثلاثين جنيه تقريباً » وقوله فيه : ولما

وصلت الى السفينة استقبلني كومندانها على السلم » الى أمثال ذلك مما يقل في بعض الخطب والرسائل ويكثر في بعضها على حسب حالته من الارتياح وتوخي الافهام ، وربما استحسن الكلام بالعامية في بعض الخطب بعد الشروع في الكلام بالفصحى ، فيقول لسامعيه مازحاً « إن هذا « النحوي » يتعبني أحياناً فتعالو انتحدث كانتحدث في كلساعة » ولكنه لم يكن قط ينسى الاحتفال بصياغة بياناته الهامة ، فيرتقي بها الى غاية الوسع من الايقاع والبلاغة ، وينقحها و يعيد كتابتها ثلاث مرات أو أربعاً في بعض الاحيان .

وله في الآدب والنقد آراء الذهن السديد الذي يتجه الى القصد القويم بغير عناء كثير: جرى الحسديث في أساليب بعض الكتاب في يوم عيد والمجلس حافل بالآدباء والفضلاء فقال رحمه الله « انني أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فاذا هي جمل مفهومة لابأس بها في الصياغة ، ولكني أتتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ، ولا أعرف مكان احداها مما تقدمها أولحق بها ، فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق ولا يبيعون بالجملة ؟»

قال الشيخ المنفلوطي وكان حاضراً: يغلب ياباشا أن يشيع هذا الأسلوب بين الصحفيين الذين يكلفون مل الفراغ ، ولا تتيسر لهم المادة في كل موضوع .

فابتسم الباشا وقال الشيخ: انك ياأستاذ تشكلم عن الصحفيين وهناو احد منهم ، ثم التفت الي وقال: مارأيك يافلان؟ قلت: هو مايقوله الشيخ المنفلوطي مع استدراك طفيف.

قال: ماهو؟ قلت ان هذا الأسلوب هو أسلوب كل من يتصدى لمل، فراغ لا يستطيع ملاه سواء كتب في الصحافة أو في غير الصحافة . . . وعاد الشيخ المنفلوطي فقال: ان « العقاد » لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء . قال الباشا: أو كذلك؟ ثم تفضل بوصف موجز لأسلوب كاتب هذه السطور ليس من حقنا أن نرويه .

واستطرد الكلام الى الايجاز والاطناب فقال الباشا: ان الايجاز متعب ولكن الاطناب مريح، لأن القلم يسترسل فيه غير مقيد ولا ممنوع. وقص علينا قصة رجل كتب الى صديق له رسالة مسهبة ثم ختمها بقوله: « اعذر ني من التطويل فليس لدى وقت للابجاز » . . .

وعقب عليها بقوله: ان هذا الاعتذار قد يبدو عجيباً لمن لم يمارس الكتابة أما الذين مارسوها فهم يعلمون صعوبة الإيجاز وسهولة التطويل.

وجا. ذكر المحسنات والشغف بها فقال رحمه الله: إن المحسنات حلية والشأن فيها كالشأن في كل حلية . ينبغى أن تكون في الكتابة بمقدار وإلا صرفت الفكر عنها وعن الكتابة . وعندي ان المقال الذي كله محسنات كالحلة التي كله المسلح للبس ولا للزينة .

وكنا عنده يوماً وفي المجلس صروف وحافظ ومكرّم فجاء ذكر كتاب حـــديث فقال الباشا : إن عيبصاحبه كثرة الاستعارة . ثم قال ما أظن صاحبه يريد ما يقول ، لأن الذهن الذي يملك معناه يملك عبارته بغير حاجة كثيرة إلى المجاز .

قلت يا ياشا إن الاستعارة ما برحت دليل الفاقة في المال وفي اللغة.

قال هذا معنى حسن . ولذلك أنت لاتستعير ا ومضى يقول : إنني أفهم الاستعارة للتوضيح والتمكين ، ولكني لا أفهم أن تكون هي قوام الكلام كله . لأن الذهن يطلب الاستعارة ليستعين بها على التحديد ، فاذاوصل إلى التحديدكان في غنى عن الاستعارة وعرب المجاز ، وكان يقول هذا الرأي وأساجله في إتمام بعض جمله لاننا متفقان عليه جد الاتفاق .

ولما كتبت الفصلين اللذين ظهرا في «المراجعات» عن المنفلوطي وفرقت بين الكاتب والمنشي. ووفعت منزلة الكتاب على منزلة المنشئين ناقشني في هذا التفريق وهذه التسمية فقال: إن الانشاء ـ فيما يبدوله ـ هو أعلى من الكتابة الآنه خلق وابداع ولا يشترط في الكتابة أن تكون كذلك . فالمنشيء كاتب

وزيادة والكاتب قدياتي بشي، من عنده وقدياتي ببضاعة غيره. قلت إنماعنيت الاصطلاح ولم أعن الآصل في وضع اللغة ، والانشاء عندناهو تمرين التلاميذ على صف الكلام و تنميق الألفاظ فهو بهذا المعنى دون الكتابة في مراتب الأدب ، والذي ينشي. يحفل بلفظه و تنضيده أما الذي يكتب فلديه معناه يفرغه في القالب الذي يؤديه س فاجاب دولته : ما أحوج الاصطلاح إذن إلى تغيير أو تفسير .

ولك أن تقول على الاجمال أن آراءه في النقد الأدبي من هـذا القبيل كانت كا قوم ما تكون آراء رجل لا ينقطع للنقد ولا يتوفر على الصناعة الأدبية . فهي آرا، قوامها الذوق السائد والقياس المعقول ، وجانب الملاحظة على نظائر هذه الآراء .

ويسأل سائل في هذاالسياق ، هلكانسعد مشغوفاً بفن من الفنون الجميلة ؟ فأقول إنه كان يميل إلى السماع ولسكن لا إلى حد الشغف ، وميله إلى الغناء أقرب إلى جيل عبده الحمولي ومحمد عثمان وسلامة حجازي دون من تبعهم من المعاصرين.

أما التصوير فكان يحسبه من وجاهات الأمم المترفة كوجاهة الرجل الغني بالأثاث الفاخر والسمت الجميل. ولم يقتن صورة فنية من صور المناظر الطبيعية أو صور المعاني الرمزية ، ولا أذكر أنني سمعته يتحدث عن الصور والتماثيل تحدث المشغول بهذه الأمور . فني مكتبه وحجر استقباله صور شمسية له ولصهره مصطنى فهمي باشا وللسيدة قرينته وأخيه وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ولورد كرومر وبسمارك وغيرهم من الأصحاب والمعارف المصريين والأسجانب ، وليس فيهما غير ذلك رسوم أو نقوش من أعمال الفنانين ،

وهو على هذا كان سريع التلبية الى تشجيع الفنون الجميسلة اذا فاتحه في ذلك أحد المعجبين بها من أصـــدقائه وأنصاره ، وقد أسدى اليها في أيام وزارته ورئاسته لمجلس النواب أيادي مشكورات ·

فلا الفنون الجيلة كانت من شواغل طبعه ، ولا هي كانت من نقائض طبعه . انماكان مصروفًا عنها الى ما فطر عليه وجذبته الحوادث اليه بغير هيام و بغير نفور .

الوفاة

كان فصل الانتقال في الشتاء الى الربيع متعباً لسعد . فلزم الراحة نحو ثلاثة أسابيع من شهر ابريل ، ونصح له الاطباء بتبديل الهواء في الصعيد فأمضى في النيل ثلاثة أيام عادبعدها الى القاهرة ليستأنف عمله في بيت الامة و في مجلس النواب، وكان يجاهد نفسه ليثابر على حضور الجلسات ومراقبة الخلاف عن كثب ، بين دار المندوب البريطاني والحكومة المصرية _ ومعها مجلس النواب _ فيما يطرأ من الازمات الدائمة التي يفتاً يثيرها اللورد جورج لويد وفي مقدمتها أزمة الجيش .

وازداد شعوره بجهد العمل يومًا بعد يوم قبيل انتهاء الدورة البرلمانية فكان يحضر حينًا ويغيب حينًا ويعاني مشقة بالغة في متابعة الأعمال البرلمانية وغير البرلمانية، وكثير منها كان يجري وراء الستار، وهو الذي يجهده ويضنيه ولا ينشط الى الحوض في دخائله وخوافيه .

وقبل اليوم الآخير للدورة البرلمانية استجم في المنزل ليستطيع أن يشهد الجلسة الآخيرة ويلتي فيها كلمة الحتام التي تعودها منــه النواب . غير أنه لم يقو على التحضير كدأبه في المناسبات الرسمية واجتزأ بكلمة قال في مطلعها :

«حاولت عند اقتراب انتهاءهذا الدور أن أعد خطبة كما فعلت في الدور السابق ، ولكنني لم أتمكن منذلك لضعف في صحتي » وختمها قائلاً :

« لقد كست أود أن أتحدث إليكم كثيراً ، ولكنني أشعر أنني تعبت وأتعبتكم ، ولاأريدأن أجعل احداً بمل مني . ولكنني قبل أن أختم كلامي أرجو منكم حينها تغادرون هذا المكان أن لا تنسوا وظائفكم . . . لاتنسوا أنكم نواب دائماً ليحدوكم هذا العلم الى البحث عن آمال مواطنيكم واحتياجاتهم

ورغباتهم · لكي تبدوها للحكومة مباشرة أو بطريق هذا المجلس في الدورة القادمة ان شاء الله ·

« والآن استودعكم الله جميعًا وأسأله لـكم الصحة والعافية، وأرجو أن أراكم قريبًا وأن يهبني الله جل وعلا من القـوة ما يعينني على مشاركتكم في خدمة البلاد حتى نصل مها الى مانوده جميعًا.»

وغادرالقاهرة بعد يوم الى بساتين بركات في بلبيس فوصل اليها مساء يوم الاحد السابع عشر من شهر يولية ، وقضى بهاعشرة أيام في سكون ورياضة وادعة استرد بها كثيراً من نشاطه وانشراح صدره ، وأعرب عن اغتباطه بهذه الرحلة يوم سفره من البساتين بالتبرع لفقرائها بمائة جنيه من ماله تذكاراً لهذه الزيارة ، ثم برحها الى مصطافه في مسجد وصيف .

وكان قد ظهر على أذنه الينى احمرار خفيف لم يؤلمه في بادي الأم ولكنه شعر بالآلم منه بعد أيام حيث كان بمسجد وصيف . وأخذ هذا الآلم يضايقه في الثاني عشر من شهر أغسطس فظن بعض الآطباء أنه التهاب أو « اكزيما » وعالجه على هذا الاعتبار . وفي الخامس عشر منه انتشر الاحمرار وانتقل الى جلد الرأس وأخذت الحرارة في الارتفاع فدعي الدكتور وديع لبنان لفحصه فقرر أنه الحمرة وانه من الواجب أن ينتقل سعد الى القاهرة الآن أو يبقى بمسجد وصيف الى انتهاء العلاج ، ثم دعي الدكتور احمد شفيق صهر السيدة الجليلة أم معهما الدكتور حامد محمود والدكتور احمد شفيق صهر السيدة الجليلة أم المصريين . وكانا يترددان على مسجد وصيف في زيارة الرئيس ، فتبين من خصهم جميعاً أن الرئيس مصاب بداء الحمرة ، و بدأوا علاجه على هذا الاعتبار ، فقنوه بالمصل المقاوم لهذا الداء ، والأرجح أن الاصابة بالحرة طارئة ، وان الاحمرار الاول كان من أثر التهاب او اكزيما سهلت نفاذ جراثيم الحرة في الجسم بغير الى الجلد ، لأن المعروف عرب هذه الجراثيم أنها لا تمكث في الجسم بغير فعل أربعة أسابيع .

ثم حسنت حاله في اليومين التاليين وعادت الحرارة المالهبوط، فاستحسن الاطباء الحاضرون نقله الى القاهرة ليكون بها على مقربة من وسائل العلاج واختلف المقيمون بمسجد وصيف يومئذ في الانتقال أو استمرار العلاج بمسجد وصيف الى أن يتم الشفاء أو تهدأ سورة الداء . فأما الموافقون على الانتقال الى العاصمة فقد فضلوها لما يتوافر فيها من وسائل العلاج الحاضرة التي لا تتوافر في الريف ، وأما الذين كرهوا هذا الانتقال فقد استكثروا ما فيه من الجهد على شيخ مريض ، ولم يروا صعوبة في اقامة الاطباء بمسجد ما فيه من الجهد على شيخ مريض ، ولم يروا صعوبة في اقامة الاطباء بمسجد والعلاج ، وخشوا أن ينزعج الشعب لهذه المفاجأة وأن يدخل في روع والعلاج ، وخشوا أن ينزعج الشعب لهذه المفاجأة وأن يدخل في روع والقرية بعد ُ أنق هوا الم وأبعد من الصنجيج والحركة وأصلح من المدينة للعلاج . وكان كاتب هذه السطور على هذا الرأي فأبدى لاخوانه ما يعن له من

الاسباب، ثم استأذن في العودة إلى القاهرة . • الاسباب، ثم استأذن في العودة إلى القاهرة .

وصعد بعض المعارضين في الانتقال إلى الطبقة العلياحيث يلقون الرئيس ويلحون في رجائه أن يؤجل هذه النقلة ولو بضعة أيام ، وان لا يجشم نفسه تعبآ قبل تمام الشفاء ، فتبسم رحمه الله قائلاً : إني معكم لا أرى ضرورة للسفر . ولكن الكثرة ليست معنا فهل نخرج على النظام ؟ ه

وصحت نيته على السفر صباح الجمعة التاسع عشر من شهر أغسطس، وكاتما أراد أن يغلب المرض بالعزيمة فأبى أن يعتمد على أحد في نزوله، ورفض أن يحمل الى الباخرة على كرسي يجره الحدم. وقال: اما المشي واما الركوب كما يركب الناس. ١ وجيء بمركبة صغيرة بجرها جواد واحد فركبها الى الباخرة وأبى أن يعتمد هناك على أحد في صعوده الى المقصورة.

سارت الباخرة على هينة وهو لا يشكو شيئًا الا المضايقـــة من العرق الغزير في المقصورة المقفله . لأن الجو جو الفيضان في شهر أغسطس

والرطوبة فيه كثيرة · فاضطر الى تغيير قميصه مرات ولكنه وصل الى القاهرة وهو مستريح وكان أول سؤال له عند ما قاربها : أراني في صحة جيدة فلماذا إذن هذه العودة ؟ كا نما خامره الشك أن تكون العودة لخطورة الحال ، وهولم يعلم بجقيقة مرضه الى أن أدركته الوفاة .

وأصدر الأطباء بياناً للناس عقيب الوصول قالوا فيه: « ان الالتهاب الذي أصاب صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا في أذنه ثم في رأسه قد زال بحمد الله مع الحمى التي نشأت عنه ، ودولته الآن في دور النقاهة ولكنه يحتاج الى الراحة التامة ، ويمكنه أن يفارق غرفته ويقابل زواره بعد قليل من الأيام ان شاء الله.»

واطرد التحسن الى يوم الاثنين، وصمدت البنية المكينة لمغالبة الداء الوبيل تلك الآيام. الى ان كانت ليلة الاثنين فاستيقظ حول الساعة الثانية بعد نصف الليل وهويعاني ألما في المعدة، ثم ذرعه القيى. واشتد به التعب وارتفعت الحرارة حتى بلغت في الصباح أربعين وخطين، وعاده الاطباء فأوجسوا أن يكون ذلك علامة على سريان الجراثيم وسرعة فعلها في البنية، وداخلهم الرجاء أن يكون ذلك طارئا عارضاً في الامعاء، فعالجوه علاجاً يقاوم سموم الداء ويخفف هذا الطاريء المفروض، ولكن الحرارة لم تهبط عن الحادية والاربعين، وارتفعت في صباح الثلاثاء الى الحادية والاربعين وثلاثة خطوط... وسألته السيدة صفية، والدكتور حامد محمود والدكتور أحمد شفيق عنده يعودانه: كيف أنت ياسعد؟ فنظر اليهم في هدوء وتسليم وقال: « أناانتهيت» وكانت آخر مافاه به رحمه الله.

واستمرت الحرارة في الارتفاع حتى بلغت الحـادية والاربعين وسبعة خطوط ، ولوحظ احتباس البول فحقنه الاطباء بمادة الجلوكوز .

ثم ضعف النبض دفعةواحدة بعد انتظامه في جميع الادوار الماضية فغلب اليأس على الرجاء، وعاده الاطباء للمرة الاخيرة في التاسعة والدقيقة الخامسة

والأربعين، ونزلوا الى المكتب لكتابة تقريرهم الآخير. وانهم لكذلك إذ دعي فتح الله بركات باشا الى غرفة خاله وهو يجود بنفسه في غيبوبة لم تنقطع منذ الصباح. فاشر أبت الاعناق وأمسك الناس أنفاسهم ينتظرون. وما هي إلا دقائق معدودات حتى عاد فتح الله باشا الى المكتب يمشي كالشبح الهائم شاحب الوجه مذهول العينين. ولم يجرؤ أحد على سؤاله مخافة أن يكون الجواب المحذور، ولكنهم علقوا أنظارهم جميعاً بعينيه ولبثوا شاخصين الجواب المحذور، وليكنهم علقوا أنظارهم جميعاً بعينيه ولبثوا شاخصين المنظرون. دقيقة واحدة أو دقيقتين، ولكنهما كانتا من أزمان الآبد في روع الشاخصين المنظرين. وفي تلك اللحظة ارتفع صوت ناحب عند الشرقة المطلة على المكتب، فضرب فتح الله باشا يديه على ركبتيه، وجلس وهو في جمود الأموات.

ومضت ثوان أخرى ، مضت والناس في سكون عميق مرهوب ، وكان كل مافي بيت الامة وكل ماحوله على أعمق ما يكون السكون ، لاصدى في المنزل ولا في الطريق طوال اليومين الماضيين ، حذراً من ازعاج المريض العظيم المأمول الشفاء . فلما ارتفع الصوت الناحب وجم الحاضرون ثواني قلائل ، كا نما كانوا يستطيلون الأمل المدبر ، أو كا نما كانوا بين تصديق وتكذيب . ثم انفجروا صيحة واحدة بالنشيج والعجيح ، فلم يكن أرهب من ذلك السكون إلا هذا الضجيح الذي اتصل صداه في لحظات معدودات بكل مكان في القاهره ، وكل مكان في أرجاء البلاد .

كان الارتياع أشبه الأشيا. يوصف ماأصاب الناس من ذلك النبأ الهائل، لأن الأذهان لم تتمهد لسباعه بلتمهدت لسباع نقيضه ، وكان كل نبأ منظوراً في تلك المرحلة من مراحل السياسة المصرية الأموت سعد زغلول باشا : الدستور قائم لا يعلم مامصيره ، والمفاوضات على القضية المصرية ماضية لا يعسلم ما مصيرها ، والمساعي كثيرة ، والفروض أكثر ، وسعد وحده هو ميزان ما مصيرها ، والمساعي كثيرة ، والفروض . على أن الناس بغتوا

بالروعة في غير تفكير ولا انتباه لحقيقة مايروع ، يستوي منهـم من يكترث للسياسة ومن لا يكترث لها أقل اكتراث . فني تلك الليلة دخل الى مسرح من مسارح اللهو في القاهرة ناع يسير بالنبأ المخيف حيث ساقه قدماه : مسرح من مسارح القصف والغناء لا يقصده الرواد إلا للهو والمجون ، وتوسط الجميع ثم وقف وصاح وهو لايدري لم يحمل النعي الى ذلك المكان : « أيها الاخوان . البقية في حياتكم ا الباشا مات » فما لفظ بها حتى صرخت المغنية وألقت بالعود من يديها وولت كا نما هي هاربة ، ووجم الحاضرون هنيهة ثم تسللوا مجتمعين ومتفرقين .

أما رجال الحكومة — ومنهم أنصاره وحلفاؤه — فقد علموا أن أقصى ما يستطاع في تشييع سعد زغلول قليل ، فتشاو زنؤا فيها يصنع لتشييعه بما ينبغي له من التجلة والولاء . وصدرت الأوامر بأن يحمل النعش على مدفع في رعاية الضباط والجنود ، وأن تطلق المدافع أثناء الطريق ، وخطر لبعضهم أن تكون شعائر الجنازة « رسمية » من جميع الوجوه ، حتى ما يكسى به النعش من الأوسمة والانواط والشارات . وبرزت هنا حرم الفقيد بعظمة في الجنان لا تجمل بأحد كما تجمل بقرينة سعد زغلول . فأبت أن يكون لنعش الفقيد غطاء غير راية البلاد ، وأن يزينه وسام غير جلال الموت ، أو جلال الخلود .

وأصبحت القاهرة في يوم التشييع على حال نصفها هناكما وصفناها وفي حي الساعة في ذلك اليوم المشهود . فقد كتبنا بعد عودتنا من تشييعه نقول :

« من نسيج الأحلام ومن تعلات الغرور هذه الحياة ، ينتقل المر. فيهامن منظر الى منظر ومن حادث الى حادث كما ينتقل النائم من رؤية الى رؤية ومن أضغاث أحلام الى أضغاث أحلام . فالقاهرة التي شهدت يوم سعد منذ ست سنوات هي القاهرة التي شهدت يوم سعد منذ يومين ، والجموع التي توافت للقائه الأول هي الجموع التي توفت لوداعه الأخير ، ولكن شتان داع وداع

وشتان لقا. ووداع . وما أبعد البون بين المشهدين حتى في حلم الحالمين وأوهام الواهمـــــين .

أصبح الناس يوم الاربعاء وأكثرهم لايعلمون من أنباء الرئيس الفقيد إلا أنه قضى النهار متعبًا كما يتعب كل مريض في بعض أدوار السقام . وكما كان يعتربه التعب رحمه الله في بعض ساعاته ثم ينصل منه ويعود إلىجهاده محصد العزيمة مستجمع المضاء . وقد كان من خوارق حب هذه الآمة سعدًا وشعورها بحاجتها اليه ولزومه لها أنها كانت تقدركل شيء وتنتظركل شيء إلا أن رجلاً في نحو السبعين أضناه الجهاد والألم واصطلحت عليه الاسقام والعلل يمكن أن تدركه الوفاة وينفذ فيه قضاء الموت في كلمولود ... فاذا وسوس للناسهذا الخاطر مرة فيبعض ساعات الاشفاق والحذر أخطروه فيأذهانهم ليستهولوه ويستبعدوه ويطردوه إلى ناحية سحبقية منالفكر لاتقبل المناقشة والتفكير . وسلموا أن الموت جائز على سعدكما جاز على الأبطال والعظاء من قبل. ولكن كما يسلمون القضايا العقلية لاكما يسلم الانسان أمراً له وقع وأثر في عالم الحقيقة . فلما شاع في مساء الأربعاء أن الرئيس يعاني من مرضه بعض العنا. غلب الأمل على النفوس في هذه المرة غلبته علمها في كل مرة . ولم يشأ أحد أن يتوجس من هذا التغير في حالة المريض العزيز شرًّا أو يتوقع من ورائه النهاية المحذورة . إلا الذين كانوا على مقربة من سرير السقام فقد أخذ الروع يتسرب اليهم منصباحيوم الثلاثاءوخالط رجاءهم جزع الخطب الداهم وشك المزعزع المستغيث . ولكن حتى هؤلاء ظلوا يرجون في وجه اليأس ويعرضون عن شبح الموت متغاضين أو متجاهلين . فلما انتشر النبأ المشئوم صباحاً بوغت به الناس وتلقوه بين مصدق ومكذب وهم لايعلمون كيف يصدقون وكيف يكذبون. وعز حتى على الذين سلموا واستسلموا للحقيقة التي لامناص منها أن يوطنوا قلوبهم واخلادهم علىهذا التسليم بعد أن وطنوا له العقول. فانسعدًا مل. تلك القلوب والاخلاد يعمرها ذكره ويتردد فها كلامه وعمله . ومن أصعب الصعب على النفس أن تصدق أو تقبل أن إنساناً ينقضي ويموت وهي تحسه هذا الاحساس وتمتلي، به هذا الامتلاء . فالعقل في تحليله وتعليله يقبل هذا ولا ينكره . أما النفس المهيجة فلها منطق غير هذا المنطق وفي أعمالها صوت غير هذا الصوت ، يقول لها أبداً إن الحياة التي تعمرها بالمحبة والاعجاب لا تموت ، ولن تموت .

وأخذ الناس يتجمعون ويتفرقون بغير وجهة وعلى غيرهدى ، ثم عرفوا لهم وجهة يتجهون اليها حين قارب موعد التشييع وآن أوان الشروع في تنظيم الجنازة . ففريق منهم وجد مكانه على جوانب الطريق من بيت الامة إلى القبر الذي يوشك أن ينزله صاحب ذلك البيت ورافع مناره وقبلة زواره .

وفريق قصد إلى بيت الأمة ليشترك في تشييع الجنازة أو ليتزود النظرة الأخيرة من الرفات المسجى في نعشه . وما اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر حتى كانت القاهرة كلها ومن قدم اليها من الأقاليم محشورة بين البيت والمقبرة ... بين دار سعد وقبر سعد . فلا يتحرك السائر في تلك الطريق إلا اندفاعاً وزحاماً ولا تقطع مسافة الدقائق منها إلا في الساعات . ثم كانت اللحظة المرقوبة المرهوبة ؛ لحظة ينزل فيها الفقيد الراحل من بيته إلى غير عودة ... لحظة يفارق فيها سعد البيت الذي ردته اليه الأمة كلما أبعدته عنه قوة الاقوياء وشدة الاشداء ، وهاهي ذي تنقله منه بأيديها إلى حيث شاء أقوى الاقوياء وأشد الاشداء .

أفاق الناس. سعد يبرح داره إسعد يفارقهم إلى غير لقاء.. يا للهول القاصم ويا للفزع الأكبر ... كا تما نسوا هذا .كا تما كانوا في حاجة إلى مذكر به فوق ماهم فيه من كا بة وذهول.

عادت الحقيقة اليهم جائحة فادحة في صورة ذلك النعش الآخضر ينحدر من بيت الاثمة في تؤدة وسكون ، نعش سعد وفيه سعد . لاشك في ذلك ولا مراء . فيالها من لحظة تطيش فيها العقول ويذهب فيها حلم الحليم وصبر الصبور ، صيحة واحدة لافرق فيها بين رجل وامرأة ولا بين شيخ وغلام . أحزمهم في تلك اللحظة من ذَكَر الله وصاح لاحول ولا قوة إلا بالله . وما يقولها وهو يفقه لها معنى ويتأسى فيها بأسوة ، وإنما هي كلمة مقولة في هذا المقام ، تنبعث من الأفواه عفواً فتختلط بالصياح الممزق والا نين الصارخ المذبوح . .

يُم سار النعش تتعالى الا صواتحوله ويتصاعد النواح. وياعجباً لمنطق العواطف في موقف الحزن والبلاء: اختلف المشيعون بعد فترة فسكن منهم من سكن واتصل الضجيج بين الآخرين : فأما الذين وقفوا على جوانب الطرقات فقدكانوا يتلقون النعش ويودعونه بالتفجع والعويل لأنهم علموا أنه الوداع الذي ما بعــــده وداع والفراق الذي مَا بعده لقاء . وأمَّا الذين مشوا خلف النعش فقد علتهم السكينة وطواهم رواق واسع من الصمت والوجوم ، فلا همس ولا ركز إلا خفقات الأقــــدام وزفرات الألم المكتوم. أتراهم أنسوا بالفقيد الذي ما يزال بينهــــم فنأى عنهم هاجس الفراق وعاودتهـــم طا نينة اليقين بالقرب من سعد إلى حين ؟ هو ذاك فيما أخال. فانهم ما انقطعت عنهم هذه الطمأنينة المختلسة عند جامع قيسون وما شهدوا النعش يتحرك من مكانه ليذكرهم باقتراب مغيبه حتى ثارتالثائرة الهاجعة وتدفقت الجماهير كالسيل الجارف إلى الفقيد المنذر بالرحيل : هذا سعد بين أيديهم فلماذا يسلمونه للموت ؟ ولماذا يفرطون فيه هذا التفريط ؟ لا عقل هنا ولا تدبر ولا نصيحة ولا اصغا... هذا سعد ونحن نريد سعداً فمن الذي يحول بيننا وبين ما نريد؟ هذا سعد ونحن نريد سعداً فلماذا نرسله بأيديناإلى ذلك المكان السحيق ؟ كذلك تفكر العواطف المجنونة إذا عصفت بالعقل محنة الحزن الآليم . وأقسم ما ثاب هؤلا. الهاجمون الى أماكنهم لأنهم ثابوا الى الرشاد، وإنما رَجعوا عن بغيتهم كما يرجعالسيل صدمه السد القوي المتين . رجعوا لأن الشرط نافحوهم هنا لك حتىءجزوا وتقهقروا ، فأمدهم الجيش بكل قوته التي رابطت حول ذلك المكان. ثم عدنا إلى المدينة . إلى القاهرة بغير سعد ، إلى القاهرة اليتيمة . فوالله للقاهرة في تلك الليلة أشبه بوحشة القبر من ذلك الضريح الذي تلق الآنس والطها نينة في رفات الفقيد المتروك ، ووالله لقد كانت الاسماع يطرقها كل صوت فاذا هو بكا . ونحيب . وقد كانت السيارات الذاهبة الآيبة تهتف بأبواقها في وسط تلك الوحشة فكا تما هو نعيب متصل ، ينطق به قلب يشعر ولسان مشلول عن المقال .»

اللقاء الأول

واللقاء الائخبر

لقيت « سعد زغلول » أول مرة صباح يوم الخيس الحادي والعشرين. من شهر مايوسنة ١٩٠٨ بمكتبه في وزارة المعارف العمومية يوم ان كانت في ديوانها المعروف بدرب الجماميز .

وكنت يومئذ أعمل في تحرير صحيفة الدستور ، وهي زميلة اللواء لسان حال الحزب الوطني الذي كان يو الي الحملة على سعد وينتقد سياسته في وزارة المعارف أشد انتقاد. وكنت في التاسعة عشرة أي في سن الجيل الناشيء الذي استولى عليه «اللواء» وجعله من قر ائه وجنده ومصدقي مدحه وهجائه ، ولكني كنت أعجب بسعد وأرجو لمصر خيراً كثيراً على يديه ، ولا يسيغ طبعي أن يكون مثل هذا الرجل ممن يخون عهده و ينسى واجبه وينقاد على غير بصيرة لأمر الموظفين الانجليز في الوزارة ، كماكان يقال عنه في ذلك الحين .

وزادني ثقة بهأنه كان من أصحاب « الاستاذ الامام » الشيخ محمد عبده وكنت لآثاره متبعاً وبسيرته جد معجب. فلما اشتدت الحلة عليه وشاعت شيوعها بين قرائها أخذتني حمية الشباب ورأيت من الحق على أن أدفعها عنه وأمهد لاظهار الحقيقة بما في وسعي ، فلم أجد أفضل من حديث مع الباشا مدعوم بالوثائق والبراهين التي تدفع اللبس وترفع الغشاوة عن نظر السواد ، وقلت في مقدمة ذلك الحديث حين نشرته : «أصبحوا _ أي القراء _ يتساءلون عن الضجة القائمة حول التعليم ومبلغها من الصدق والاخلاص ، لأن عليها يتوقف مستقبل أبنائهم وذريتهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشدون ، لذلك أردت أن أرجع إلى رجل اعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد

وأرى أن في قولهخير حاسم لهــــذا النزاع الذي استطار شرره واستفحل ضرره . . . ذلك الرجل هو سعد زغلول باشا ناظر المعارف.»

ولم أكن رأيت الرجل قبل ذلك ولا نظرت إلى صورة له لأن الصحف اليومية لم تكن قد تعودت نشر الصور لمشاهير الرجال في تلك الآيام . وكل ما كنت أعرفه عن شخصه هو ماسمعت عن عدله في القضاء ووصل أثر من آثاره إلى بادتي اسوان في قضية من القضايا انشق لها البلد قسمين ووضح فيها الحق لكل ذي عينين ، وما سمعت عن مبادئه الحرة في إبان الثورة العرابية وهو بعد في مقتبل الشباب ، وعن ملازمته الشيخ عمد عبده وجمال الدين الأفغاني ، ووفائه لهذين الامامين الكبيرين .

فغدوت إلى مكتبه في موعد الحديث وأنا أصوره لنفسي في الصورة الحثمانية لم التي تطابق ماسمعت وعلمت من خلاله . والعجيب أن الصورة الجثمانية لم تخطيء الظن في الكثير من هيئته وسمته ، إلا انني كنت أتخيله ملنحيًا وهو لم يكن كذلك ولا أحسبه أرسل لحيته في ماضي حياته ، وأحسبني تخيلت ذلك لانني استبعدت أن يتتلمذ لجمال الدين ومحمد عبده ولا يرسل لحيته كما كانا رسلانها ، وهو من الازهريين .

فلما دخلت المكتب استقبلني واقفاً وأشار إلى كرسى أمامه فجلس وجلست. وسألني: أعرفت الشيخ محمد عبده؟ قلت نعم ! قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته. قال. هل رأيته؟ قلت رأيته مرتين. قال أين؟ أفي الازهر؟ قلت لا. بل في اسوان. قدمني اليه أستاذي فناقشني في علومي المدرسية و بعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة.

قال: ماذا سمعت منه؟

قلت : انه التفت إلى الاستاذ وقال وهو ير بتعلى كتني « ماأجدر هذا أن يكون كاتباً بعد » ثم أوصاني أن لا أقنع من العلم بوظيفة الحكومة. فتبسم الباشا وقال : أرى أن نبوءة الامام تتجقق . واستطرد إلى كلام عن الشيخ يثنى عليه ويحمد مناقبه ، وانما سألني الباشا ذلك السؤال لأنني ذكرت في الحظاب الذي طلبت فيه محادثته انني أكبر جماعة الامام أن يضل لها قصد في الوطنية ، وان كثرت حولها النمائم والوشايات.

ثم جرى الحديث في موضوعات شتى . ولكنه كان حديثين نشر أحدهما والآخر لم ينشر ، لأنه ورد عرضاً في أثناء الـكلام ولم يكن هو المقصود بالمحادثة ، ولأن الباشا نبهي الى مواضع منه لا يحب أن تذاع في الصحف ، واذكر الآن من كلماته التي لم أنشرها أنه أثنى على مصطفى كامل ووصفه بالجد والاخلاص ، ولكنه أنكر الضجة التي قامت بعده ووصفها بأنها «كفورة القازوزة لا تلبث أن تعلو حتى تهبط» . . .

وجاءت مناسبة في عرض الحديث فعلمت انه يلقى مشقة في تغيير عادات الموظفين الاجانب والوطنيين على السوا. ، فالاجانب تعودوا أن يستأثروا بكل شيء والوطنيون تعودوا أن يسلموا في كل شيء ، وربما منحهم السلطة وهم يتهيبوناستعمالها ويرجعون بها الى الأجانب عن رغبة وطواعية ، ومن حوادث العناء الذي لقيه من الموظفين الاجانب أن مدير المكتبة الحديوية _ وكان ألمانياً _ أبي أن يمتثل أمراً أصدره اليه فكرر الباشا الأم فتشبث المدير بالاباء: وأرسل اليه الباشا انذاراً كالذي يرسل الى صغار الموظفين فكبر على الرجل أن يعامل هذه المعاملة ولجأ الى الوكالة البريطانية لأنه كان أشبه شي. بموظف دولي في الحكومة المصرية . اذكان منصبه يحفظ للألمان كما تحفظ ادارة المتحف المصري للفرنسيين باتفاق عرفي متفاهم عليه ، وكان الرجل من أصدقا البلاط الالماني وله دالة على الأسرة الامبراطورية في برلين... فتعقدت المسألة وأبدت الوكالةالبريطانية رغبتها في سحب الانذار ، فكان جوابالباشاانه يخير المدير بين أحد أمرين: قبول الانذار أو الاستقالة ، وانه لايستطيع أن يعمل في نظارته اذا لم تنته المسألة بأحد هذين الأمرين. فأذعن المدير وعدل في تصرفاته بعدها عن دعوى الاستقلال بالمكتبة والعمل فيها كما يشاء هو لاكما تشاء النظارة . وإذا سألت نفسي الساعة عن الأثر الذي تركته في خلدى تلك المقابلة الأولى فأنا أذكر انني خرجت من عنده وأنا أشعر أنني كنت أمام رجل مفتوح النفس كبير العزيمة يحب الانصاف للناس ويحب الانصاف لنفسه كذاك ، ولهذا يسوءه النقد ويحسن عنده وقع الاعتراف بالفضل . غيرأن النقد يناله في موضع قوة لا موضع ضعف : يسوءه لأنه يعطله لا لأنه يزعجه ، أو يسوءه لانه يشعر بالغضب من الكذب والعدوان لا لانه يشعر بالفقر الى الثناء ، وقد يسهل عليه أن يصنع الحير ولا يلتي جزاءه ، فأما أن يصنع الحير ويغتصب منه صنيعه اغتصاباً واقتداراً فذاك الذي لا يقره ولا يسكن اليه . لانه يجعله خاضعاً لرحمة أعدائه ويلس في ضميره مكان العدل والانصاف ، ومكان القدرة على مكافحة البغي والاعتساف .

وقد لمحت منه سروراً لا يخنى ولا هو حاول أن يخفيه عندما عـلم أنني أعرف له فضله وأنني قادم اليه بباعث من الاعتراف بذلك الفضل لاجلو عنه التهم وانفض عنه الاكاذيب، وهي اريحية مألوفة في كثير من العاملين الذين يمتحنون بنكران ذوي الاغراض.

خرجت ذلك اليوم وفي نفسى صورة وافية للمصلح الذي كنت أعجب به على غير رؤية . فعرفت سعداً رجلاً مهيب الطلعة قوي العارضة فصيح العبارة يملأ الناظرين والسامعين ثقة وتوكيداً ويشعرهم بقدرته ويشعر هو بتلك القدرة ويعتد بها مفطوراً على ذلك في غير صلف ولاتكلف ، وتسمع حجته الدامغة في صوته الشجى فتجد للمنطق عذوبة الفن وسلاسة التلحين ، بل تسمع سليقة الرجل كلها تتحدث اليك عن يقين لا ينتهى عندك الا الى يقين . فهو في كلامه وعمله شي ، متسق منسجم كامل تقبله جملة أو تدعه جملة ولا تحس عنده بنشوز أو تردد ، وقد كان عند ما قابلته المرة الأولى يمشي إلى الخسين من عمره ، ولكنني لو سمهوت عن العيان لحظة لحسبته في عشرة الثلاثين

ودارت الأيام دورتها واعتزل سعد الحكومة ورشح نفسه للجمعية التشريعية وتجرد لقيادة الحركة البوطنية ونني من مصر وعاد اليها ثم نني منها مرة أخرى وعاد من المنفى ، فلم ألقه في خلال ذلك كله الا مرتين : الأولى حين خطر لي أن أنتظم في بعثات الجامعة المصرية وأردت أن يكون الامتحان مباطًا لجميع الطالبين ، والثانية حين قدمت اليه ديواني الثالث الذي أهديته اليه فأما في المرة الأولى فقد رفض طلبي ، وأنا أعتقد أن رفضه لم يكن حتما لزاماً لانني لم أطلب إلا أن أدخل الامتحان مع المتحنين ثم أنتظم في البعثات الجامعية إذا كنت من الناجحين ، فأبى سعد إلا أن تكون لدي الشهادة المشروطة قبل الامتحان . قلت : أولو كانت هذه الشهادة غير ضرورية للنجاح ؟ المشروطة قبل الامتحان . قلل في وسعنا أن نرشح الشهادة أبي ننظم بها الطلاب في تلك الجامعة ؟

غير أن رفضه لطلبي لم يمنعني أن أبادر إلى نصرته بما استطعت يوم تجرد لقيادة الآمة في القضية القومية . فقد كنت يومئذ أقضي الشتاء بأسوان مستشفيًا لا أقوى على الكتابة في الصحف ولا على الاشتراك في الحركة ، فرأيت أن لا يفو تني تسجيل المشاركة فيها بما استطعت ؛ وأهديت اليه الديوان الذي طبعته في الصيف ، ثم قدمته اليه قبل عوذتي إلى أسوان ، وكانت هذه كما أسلفت هي المقابلة الثانية قبل اتصال الصداقة السياسية بيني وبينه .

ثم اتصلت المقابلات بيننا من سنة ١٩٧٤ اتصالا لاتقطعه إلا فترات قليله من سفر أو مرض أو نحو ذلك . فما تغيرت الصورة الأولى إلا بما أضاءها من وهج الحركة الوطنية وفخار الفداء وحماسة الاعجاب والاجماع من المعجبين .

وكان اللقاء الآخير في مسجد وصيف قبيل الوفاة بأيام .

ذهبت إلى مسجد وصيف لأول مرة فى ذلك العام ، فراقني منها أول ما ماقاربتها هوا. صاف جميل لا كالجواء الرطب الذي يهب على شواطىء البحر ولا كالهواء الجاف الذي يهب علينا في صحراء مصر الجديدة : قوام بين هذا وذاك ، فيه لين وفيه جفاف ، أو هو كما كان سعد « هواء حنون » .

وراقني أكثر من ذاك مايوحيه اليك المكان من شعور العزلة والسكينة: يخيل اليك أنك في واحة معزولة بين آفاق بعيدة . نعم في واحة لا تحيط بها رمال ولا نجود ووهاد ، بل مروج فيح لاينتهي الطرف إلى مداها من حيثا نظر اليها . فهي محجوبة وراء الجسر والاشجار تحس أنك سكنت منها إلى مكان خاص منفرد وان لم تنقطع عماحولها . وتحس أنك محوط فيها بجو من الحب والعطف بجعلها كالقب لة الميممة من جميع الانحاء ، وكنا نقاربها فيقابلنا الفلاحون بالتحية على غير معرفة كأنما كل ماهنالك وكل من هنالك قرابة العلاحون بالتحية على غير معرفة كأنما كل ماهنالك حين تعبر بهم سيارة يحمعها حب صاحب المكان ، وما تحيته من هنالك حين تعبر بهم سيارة تحضي إلى تلك الوجهة إلا الهتاف « ليحي سعد » . . . فنسمعها و نرددها لهم باسمين .

والفلاحون على مسافات بعيدة من الضيعة يعنون بالطريق فيتطوعون برشها وتنظيمها تخفيفاً على زوار الزعيم المحبوب ؛ وقد رأيت أطفالهم هناك لا يكاد أحدهم يبلغ العاشرة وهو سارح بجاموسته أو بقرته يلمح الزائرين فيرفع صدره فخوراً ويمد عنقه هاتفاً : «ليحيى سعد» 1 مرة واحدة ... كانما هي اصطلاح التحية . ولا يلهيه عنها اجفال الدواب من السيارات .

ولم نعجب حين علمنا أنهذه القرية والقرى المجاورة لها أقل بلاد الريف شقاقًا وجريمة ، لشعور أهلها بحرمة ذلك الحرم الذي يحبونه ويبجلونه.

فاذا انتهيت إلى الضيعة نفسها وإلى منزل الرئيس فيها فأنت تجت جناح وارف ظليل ، وأنت عند المنزل الذي يستريح اليه النزيل : هنالك ينبوع المحبة الفياضة الذي تجتمع حوله الجداول . فـكل ما في البيت حنان ورعاية

وطما نينة ، يسهر عليها ذلك القلب الكبير قلب السيدة الجليلة التي سميت بحق أم المصريين.

والمنزل من طبقتين ، يقيم الرئيس في الطبقة العليا ويستقبل زائريه و يتناول طعامه في الطبقة الأرضية . وعلى مقربة من المنزل دار للضيافة تتسع لخسة أو ستة من الضيوف الذين يستبقيهم للمبيت. ويطل كلاهما على حديقة المنزل وبستانه وفيهما الازهار ودوالي العنب وأشجار الثمار.

وكان الرئيس قد استعد للراحة صيف ذلك العام لأنه عانى في أوائل الصيف ضعفاً لازمه ثلاثة أسابيع ، ولتي نصباً في رئاسة بجلس النواب إلى ختام دورته السنوية ، فأعدد نفسه في المصيف لراحة مستحقة بعد ذلك العناء الطويل في مثل سنه ، ولا سيميا وهي راحة قصيرة الأمد في انتظار ما تأتي به المفاوضات بين ثروت وشمبرلين ، وما يعقب المفاوضات منجمد جهيد في حالتي الفشل أو النجاح ، ولم يتهيأ لسعد قبل ذلك العام أن يهدأ في المصيف منذ بدأت الحركة الوطنية في اعقاب الحرب العظمى ، لأنه كان يقضى الصيف بين نفي أو معركة انتخابية أو مناضلة حزبية أو سفر للمفاوضات.

فأما وقد جاء الصيف مرة والوزارة المؤتلفة قائمة والبرلمان المؤتلف موجود والمفاوضات لاتزال في دور التمييد فلا بأس بالراحة والاستجام واغتنام الفرصة العابرة التي قلما تتاح .

وعلى هذا أمر الرئيس أن لايلقاه إلا من يدعوهم اليه أو يأذن لهم في الزيارة. واستثنى من ذلك الفلاحين أصحاب المظالم، و بخاصة من كانت لهم شكايات عن القطن والآرز والماء، لأن الصحف لغطت بحديثها وألتى بعضها اللوم على وزير الاشغال، وهومن الوزراء الوفديين وله صداقة حميمة بأحد المقربين إلى سعد من خاصة أقربائه، وكان سعد يعلم أن ذلك القريب يحمي الوزير ويلطف شكايات الشاكين من أعماله. فأحب أن لا يحجب عنه أحد من أصحاب تلك الشكايات.

إلا ان حافظا (١) رحمه الله كان يستبيح لنفسه من الجرأة والفكاهة معًا أن يمنع حتى هؤلاء أو يوصيهم باجتناب الحديث في القطن والارز والماء بين يدي الرئيس ، ويقول لهم : ان لم تعجبكم هذه الفدادين العطشي التي تشكون منها فهاتوها الينا نحن لانجد فدانًا واحداً ريان أو عطشان فاحمدوا الله واذا أفلت إلى حضرة الرئيس واحد من هؤلاء المتحدثين عن القطن والارز والماء نظر اليه حافظ في غيظ وحرد كأنه الكاهن النيور يحمي عرابه من الواغلين ، وحاول جهده أن يقطع عليه الحديث أو يستعجله إلى الانصراف.

جاء مسجد وصيف وكيل اقليم من الاقاليم البحرية فطفق «سعد» يسأله عن مناوبات الريوما يقال عن مظالم الآرز وزرادة الثلث وما اليها، وطفق الرجل يشرح الحالة بشيء من المبالغة والاطناب، ونظر حافظ إلى الرئيس فاذا به يتجهم و ينقبض و يوشك أرف يثور بأولئك الذين يحجبون عنه الحقائق أو يموهونها ثورة لا تحمد عقباها علمهم ولا عليه .

فاستدار حافظ من الباب الآخر وقال للوُّكيل: أنت تقوم حالاً ! ..

فارتاع الرجل وظن أنه أخطأ في حق الرئيس ، ورجح عنده هذا الظن أنه رأى تجهم الرئيس وانقباضه فأيقن أنه لم يعرف من خلائقه وعاداته مايعرفه مجالسوه ، وفي مقدمتهم حافظ ابراهيم .

وهم الرجل بالنهوض والانصراف ولكنه رأى الرئيس يعيد عليه السؤال وينتظر الجواب. فارتبك أيما ارتباك، ولبث لايدري أيقعد أم ينهض، وحافظ من ورائه لايرحمه ولا يني عنه، ويقول له مرة أخرى في لهجة الجزم والوعيد:

قلت لك يجب أن تقوم حالاً إ

فتمتم المسكن بضع كلمات واستأذن للانصراف.

قال سعد بعد انصرافه: عجبًا ما خطب الرجل؟ انه كان يتكلم حسنًا . فماذا دهاه؟

⁽١) حافظ ابراهيم الشاعر المعروف -

قال حافظ: دهاه مغص فجائي ، وهو يعتذر لمولانا الرئيس! وكاثما كانسعد قد تنبه لخروج حافظ ورجوعه فقال : جزاك الله ياحافظ. ما أظن هذا المغص الا من . . . توليد الخيال ١

وكانت المتعة الكبرى في رياضات مسجد وصيف تلك المناوشات التي لاتنقطع بين حافظ والدكتور محجوب ثابت، الطبيب المعروف وعضو بجلس النو ا**ب**

ومن المعلوم أرب الدكتور محجوباً كان يومئذ مشغولاً بأمرين اثنين لاينفصلان: أحدهما وزارة الصحة التي يتمناها ويعتقد أن الانجلىز يتوعدون بالشر اذا تولاها ، لأنه من المطالبين الملحين في المطالبة بالسودان.

والأمر الآخر زوجة غنية شابة من بيتعريق. أو كما قالحافظ:

يرغى ويزيد بالقافات تحسبها قصف المدافع في أفق البساتين من كل قاف كأن الله صورها منمارج النار تصوير الشياطين قد خصه الله بالقافات يعلكها واختص سيحانه بالكاف والنون تغيب عنه الحجي حينًا وتحضره حينًا فيخلط مختلاً بموزون لا يامن السامع المسكين وثبته من كردفان الى أعلى فلسطين بينا تراه ينادي الناس في حلب إذا به يتحدى القوم في الصين ولم يكن ذاك عن طيش و لا خبل لكنها عبقريات الاساطين طوراً وزيراً مشاعاً في وزارته يصرّف الأمر في كل الدواوين وتارة زوح عطبول خدلجة حسنا. تملك آلاف الفدادين يعفى من المهر لمكراماً للحيته وما أظلته من دنيا ومن دين

ولبلية الدكتور محجوب شغله الله بالوزارة والزواج في الوقت الذي كان فيه حافظ ابراهيم بمسجد وصيف ، فما من يوم ينقضي ولا ليلة الا على رسالة مختلقة من الزوجة المنظورة ، أو شرط لها تشترطه في هندام الدكتور أومنام يحتاج الم تفسير ، أو أشاعة تترامى عن الوزارة الموعودة ، والدكتور فيكل ذلك يقول : ما بيننا ياسيدي وبين الوزارة الازأرة من زأرات سعد فاذا الانجليز ينثنون عن عنادهم صاغرين .

فيقول سعد: حسن. ولكن لماذا أزأر يادكتور؟

وكل زائر جديد يصل الى مسجد وصيف فهو مشترك طوعاً أو كرهاًفي مناورة مبتكرة يبتلي بها الدكتور.

جا. يوماً الدكتورنجيب اسكندر من القاهرة -- وكان البطريق قد تو في قبل ذلك بأسابيع - فالتف به الضيوف وقالوا له: اسمع يادكتور: انك لم تحضر الى مسجد وصيف للسؤال عن الباشا ولكنك حضرت لدعاء الدكتور محجوب الى مرافقة الوفد المسافر الى الحبشة لاستفتاء أهلها في اختيار البطريق الجديد 1

قال الدكتورنجيب : ما هذا الـكلام ؟ الدكتور محجوب عضو في وفد قبطى لاختيار البطريق ؟

ونزل سعد بعد ساعة فاذا بالدكتور نجيب يمثل الرواية أحسن تمثيل. قال: ياباشا، إني قادم لاستشارة دولتنكم في أمر يتعلق بالدكتور محجوب. فاشرأب الدكتور محجوب وهمس متثاقلا: ماهو ياسيدي؟

فأجابه الدكتور نجيب: السفرالي الحبشة 1

قال الدكتور محجوب : وهل فرغنا ياسيدي من السودان حتى نشغل أنفسنا بالحبشة ؟

قال الدكتور نجيب: انما تسافر لسؤال الاحباش عن رأيهم في اختيار البطريق الجديد.

فرد عليه الدكتور محجوب متبرماً : ولماذا لا تسافر أنت وأنت بهذه المهمة أولى ؟

قال الدكتور نجيب: هكذا وقع الاختيار.

فحنق الدكتور محجوب وزبجر قائلاً: دعونا من هذا العبث ... دعونا في الجد الذي نحن فيه ، وخشي المتآمرون أن تفشل المناورة فخطر لخبيث منهم أن يستفز الدكتور الى الحرص على المهمة والمبادرة بقبولها فقال:

ومع ذلك يا باشا لا أظن الدكتور محجوباً يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

فالتفت اليه الدكتور غاضبًا وقال: ماذا ؟ ماذا تقول ياسيدي ؟ لاأصلح لهذه المهمة ؟ أتقول انني لا أصلح لماذا ياسيدي لماذا ؟

فقال الخبيث : لأنك تتحدت عن السودان فتوقعنا في أزمة مع الحكومة الانجليزية .

فصاح به الدكتور : ياسيدي نمسك عن ذكر السودان ، ونشكلم عن المدارس والتعليم .

قال : إذن تكون الطامة اكبر . أليس العرف قد جرى بالتمهيد بالمدارس والتعليم لفتح مناطق النفوذ السياسية ؟

فعاد الدكتور يقول: ونمسك بإولدي عن المدارس والتعليم أيضا، ونتكلم عن الصحة ·

قال الباشا : وهل ضروري يا دكتور أن تتكلم ؟ أنت ذاهب للاستفتاء في اختيار البطريق . فلماذا لا تقصر عملك على ماأنت ذاهب لأجله ?

ثم قال ضاحكاً : أراك قد قبلت ورضيت وعهدنا بك منذ لحظة أنك أييت ونفرت.

قال الدكتور: لأجل خاطرك يا باشا نقبل والله كل شيء . . . نقبل ياباشا نقبل . . . ومن يصلح لها غيرنا . . . لقد شربت القهوة في دير السلطان أيام الحلاف عليه بين القبط والاحباش. فأنا ابن بجدتها الولاجل خاطرك ياباشا نذهب الى أقصى مكان ،

وفض الباشا الحوار في هذه المهمة الخطيرة بقوله: الآن قدانحلت المشكلة وحرمت المهمة على غيرك ما دمث قد شربت القهوة في دير السلطان . . . لم لم تقل ذلك من البداية ياد كتور ع

وحدّث بعضهم صباح يوم أنهرأى الدكتور في منامه على ناقة ورأى رجلاً يرفع اليه ورقة وهو ينحني ليأخذها ، ووراءه جحفل كبير من الحمير.

فقال الباشا: أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين . . . فن هنا يعلم تفسير الأحلام ؟

قال حافظ: أنا أفسرها وأبشر الدكتور سلفاً.

قال الدكتور : وفم البشارة ياسيدي ؟

قال حافط: بالوزارة فهي الناقة، وبأمر التعيين فهوالورقة التي تنحني لتأخذها!

فسأل أحد الحاضرين : بقي شيء ياحافظ قد نسيته . فما هذا الجحفل الكبير من الحمير الذي كان وراء الناقة ·

فلم يتردد حافظ أن قال: وهل في تفسير ذلك مشقة ؟ هم ولا ريب... ناخبون.

وعلى هذا النمط كان ضيوف الرئيس يُزْجون أوقاتهم في ذلك الجو الرائق وتلك العزلة السعيدة. فاذا فرغ الرئيس من رسائله وتوجيهاته فأما الأحاديث والذكريات وأما هذه المناوشات أو المخترعات التي لا يسلم منها أحد ولا يأمن على سهوة أن تصيبه قرعتها ويدور عليه دورها. وليس الرئيس بمستثنى من قضائها إذا لزم الأمر وحكمت القافية كما يقولون ، فني ضحوة من الضحوات ذهب فريق من الضيوف مع الرئيس الى الساقية التي يجلس اليها في أثناء الرياضة اليومية وتخلف فريق آخر في حجرة المكتب التي فيها التلفون ينتظرون رسالة هامة فلها عاد الرئيس تلقاه أحدهم التي فيها التلفون ينتظرون رسالة هامة فلها عاد الرئيس تلقاه أحدهم

في جد ورصانة وقال: يادولة الباشا وفد من القاهره يستأذنون في السفر الى دولتكم.

قال: هل كتبت أسماءهم؟

قال: نعم. ومضى بتلو من ورقة في يده: فلان وفلان وفلان وفلان وفلان. جاعة يستثقلهم الرئيس لوخامة أرواحهم وكثافة حسهم وشدة فضولهم. فيا هو الا أن سمى الاسم الثالث منهم حتى صاح به: على رسلك! هؤلاء لا تحملهم بقعة واحدة من الارض، ولاأدري كيف يجتمعون حتى على اللسان!

وكان نظام المعيشة في مسجد وصيف يجري على وتيرة واحدة: يستيقظ الرئيس باكراً ويتناول طعام الافطار في الطبقة العليا ثم ينزل الى مكتبه حوالي الساعة التاسعة فيجلس فيه ريثها يراجع بريد الصباح · ثم يخرج للرياضة فيركب حماراً خاصاً معداً له يستريح الى مشيته أو خطوته كما كان يقول رحمه الله . فيجول في الغيطان نحو ساعة ومعه واحد أو اثنان من الصحاب يركبان الخيل أو الحمير أحياناً ، وأحياناً ، مشيان .

فان لم يجد نشاطاً للركوب تمشى مع بعض الصحاب الى الساقية التي في جوار المنزل، فيجلس هناك ساعة أو نحو ذلك يقضيها في الحديث و تذاكر الشئون العامة، ثم يعودماشياً فيصل الى المنزل حوالي الساعة الحادية عشرة ويجلس في استقبال الزائرين الى نحو الساعة الثانية وهي موعد الغداء، ومن عادة الرئيس أن يتناوله مع ضيوفه وأن يقضي على المائدة ساعة على الأقل يتنقل خلالها من حديث الى حديث ومن موضوع إلى موضوع يلاحظ فيها جميعاً أن تناسب أذواق الزائرين وأن يشتركوا فيها جميعاً بما لهم من خبرة فيها أو رغبة ، فاذا فرغ من الطعام تناول القهوة وودع ضيوفه ليقيل في الطبقة العليا الى ما بعد الساعة الحامسة بقليل، ثم ينزل إلى المكتب ليراجع بويد المساء، ثم يخرج للرياضة مرة أخرى مشياً على الأقدام، ويعودالى حيث بويد المساء، ثم يخرج للرياضة مرة أخرى مشياً على الأقدام، ويعودالى حيث

يجلس عادة ما بين حجرة المكتب وحجرة المائدة في طرقة مجاورة للحديقة هي في الغالب أصلح الآماكن هناك لتاقي الهواء الطلق من وراء المروج ، ويقضي هنيهة في استقبال الزائرين ثم يحين موعدالعشاء في نحو الثامنة فيتناوله كذلك مع الضيوف وهو يسامرهم بأمتع الآحاديث وأطيب الفكاهاث ، وينتقل الى الطرقة أو الى المكتب اذا برد هواء الليل ، فيلبث هنا لك حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ولا يطيل السهرة الى ما بعد ذلك الا فيها ندر وأكثر ماكان يقضي السهرة في استعراض الأعمال السهلة أو التعقيب على الحوادث والآشخاص ، ويستطرد أحيانا الى الذكريات والملاحظات بأسلوب يمزج فيه الجد بالفكاهة ويتوخى فيه راحة السامعين، ويتعمد أحيانا أن يسألهم ويجاذبهم أطراف الأحاديث ليستدرجهم الى الكلام ويستطلع ماعندهم من الآراء والخواطر . فاذا حان موعد نومه ودعهم وتمنى لهم رقاداً هنيئاً وليلة سعيدة . وصعد الى الطبقة العليا وذهبوا هم إلى دار الضيافة ينامون أو يلبثون بعد ذلك ماشاء وا من وقت يلعبون النرد ويسمرون .

* * *

وصلنا إلى مسجد وصيف عصارى يوم الخيس الحادي عشر من شهر أغسطس. فاستقبلنا الرئيس في الطرقة ورحب بنا وأوصانا أن نستعد للبقاء في مسجد وصيف فترة طويلة ، فقلت : يا باشا ذلك ما نتمنى . لولا أنني أتيت على نية المبيت ليلة واحدة فلم أحضر معي ما يلزمني من الدواء والملابس ، فأما وقد أنالني الرئيس شرف ضيافته فأنا أعود إلى القاهرة غداً وأرجع منها متأهباً للاقامة في مسجد وصيف بقية الصيف ان شاء دولة الرئيس . قال : لا تمزح . اني أحسبك في حاجة إلى هذه الراحة في هذا الهواء وحسبك كداً لذهنك و نصباً لجسدك طوال العام .

فشكرت لدولته دعوته واهتمامه ، وأمضيت المساء والسهرة على أطيب ما يكون السمر وأطيب ما يكون الأوان وأطيب ما يكون الهواء : تارة

عدثنا عن المصطافين الذين يذهبون إلى أوروبا لانفاق ماجمعوه من بلادهم كأنهم يؤدون الاتاوة المضروبة عليهم ، أو المصطافين الذين يذهبون اليها مرغمين كأنهم في سخرة مفروضة عليهم وعلى أبناء طبقتهم لا حيلة لهم في أنائهم ولا لذة لهم في قضائها ، فيعيشون في شظف وعسر ليعوضوا على أنفسهم نفقات رحلتهم ، ثم يرجعون وما استفادوا من الرحلة سلوة ولا نفعاً ، ولا عرفوا من الديار التي طافوا بها أكثر مما يعرفون وهم بعيدون منها . وتارة يحدثنا عن انتخاب البطريق وما اصطلح عليه العرف في انتخاب البطارق الأقدمين وما اشتهروا به من النسك والانزواء عن العالمين ، وتارة أخرى يسألنا رأينا في هذا وعهدنا بذاك وما يقال عن هذا الأمر وما يشاع عن ذلك البلد ليشرك كل منا في حديث يرضاه ويستريح اليه . وكانت الليلة قراء والسكينة في الأرض وفي السهاء ، وبعض الحاضرين من طلاب المناوشات يقول للرئيس كلما رآني أسرح النظر في المروج والفضاء واستقبل المواء « الحنون » الذي لا نستمتع به في القاهرة ولا الاسكندرية : العقاد ينظم قصيدة ؛ والباشا يقول وهو ضاحك : حسبه المنا ليس معنا . العقاد ينظم قصيدة ؛ والباشا يقول وهو ضاحك : حسبه المناه . فلا تزيدوه شياطين ؛

· وصعد الباشا وأوينا نحن إلى حجراتنا فنام من نام ولبث الآخرون يلعبون أو يفسون في تدبير المكاثد والمناوشات!

ثم استيقظنا مبكرين لنشاط النفس وجودة الهواء ، وجاءنا من قبل المنزل من ينبئنا بنزول الباشا إلى المكتب · فذهبنا اليه وحييناه تحية الصباح فكان أول ما سألنا عنه بعد التحية : كيف كان مبيتنا وماذا نقترح من الطعام في يومنا ؟ وعلمت أنها كانت عادته رحمه الله مع جميع ضيوفه الذين يعلم أنهم لا يأكلون كل طعام ، وأنهم يلتزمون نظامًا خاصاً في المعيشة والغذاء .

وقبل الرياضة الصباحية دعانا الرئيس وزميلًا لنا من ضيوفه فقضينا ساعة في الطرقة يستعرض لنا بعض المواقف ويصف بعض الجماعات

المصرية . ثم نهضنا للرياضة مشيًّا الى الساقية فالتفت الرئيس في أول الطريق وسأل :

ألم يأت فلان بعد ؟

وفلان هذا ثر ثارغريب الأطوار يستطاب حديثه وتملح بدواته . فقال أحدنا :كلا . يا باشا ، ولا نحسبه يأتي ، لأنه لا يزال عاتباً على الببغاء ا

أما البيغاء هذه فلها قصة ظريفة مع ذلك الثرثار ، وهي في الآصل هدية إلى الرئيس أهداها اليه بعض مروّضي الطيور لآنها تعلمت الهتاف باسمه لطول المرانة من جهة ، ولطول ما سمعت من هذا الهتاف في المظاهرات من جهة أخرى . فكانت بين لحظة وأخرى تنطق هاتفة ه يحيى سعد . يحيى سعد » وتشفع ذلك أحياناً بالوثب والرقص الموزون كلما صفق لها المصفقون على نغمة الهتاف فنقلها أصحابنا ه أولاً » إلى دار الضيافة ثم أخذوا في تعليمها اسم ذلك الثرثار بتلقينها اياه في الصباح والمساء وكلما عبروا بها أثناء النهار ، فطرب الرجل لهذه الشهرة التي بلغت إلى مسامع الطير . وظل يأنس اليها ويروضها على ترديد اسمه ، ويفرح بتنغيمها اياه تارة تمده وتارة تقتضبه اليها ويروضها على ترديد اسمه ، ويفرح بتنغيمها اياه تارة تمده وتارة تقتضبه التحية يحسبها لها لها من الببغاء تخصه به دون سواه . حتى كان يوم فاذا هي تناديه باسمه و تشفعه بلقب لايسره . فقفز من المفاجأة وهم أن يبطش بها من الغضب الرئيس أو يودع الصحاب .

قيل لنا حين حضرنا ــ ولم نكن قد شهدنا شيئاً من هذا ــ أنه قد أقسم لا يعودنأو تعتذر الببغاء من هذه الزلة وتمسك عن التطاول الذي اجترأت يه على مكانته وفضله 1

فسأل الرئيس: اأو لا تزال الببغاء مصرة على رفض الاعتذار. فقالوا جميعاً :كل الاصرار ، قال الرئيس: لا عجب، بيغاء تعتب على ببغاء!

وبلغنا الساقية فجلسنا قليلاً ، ولحق بنا من الزوار من كان يعجلهم الوقت عن الانتظار ، فأنشده بعضهم قصيدة وبلغه بعضهم تحية من الطلاب المصريين في باريس ، وأوشكت الضحوة أن تنقضي على خير لولاخبر حملته الصحف عن التعيينات القضائية سمع به الرئيس فتكدر أيما كدر ، وزاد في غضبه انه لم يسمع بشيء مر . تمهيدات هذه التعيينات كأنماكان أنصاره في الوزارة يتعمدون اخفاءها ليضطر إلى قبولها بعدوقوعها ، مع علمهم باعتراضه الشديد على بعضها . فرجع الرئيس إلى المكتب منقبضاً وأمر باستدعاء وزير الحقانية في الاسكندرية على التلفون ليسأله عن خبيئة هذه المناورة المسيئة . ففهم منه أن الامر قد عرض على جميع الوزراء الوفديين فأقروه ولم يلاحظوا شيئا عليه ، فوقع ذلك في نفسه موقعاً ألياً وأتعبه في حالة المرض التي كان فيها بين النقاهة والاعياء . ولم ننتفع بحديث الرئيس بقية اليوم حتى ودعته بين النقاهة والاعياء . ولم ننتفع بحديث الرئيس بقية اليوم حتى ودعته مستأذناً في الاماب .

وأتيت القاهرة وفي نيتى أن أرجع منها إلى مسجد وصيف آخر الاسبوع بعد ترتيب العمل والاستعداد للا جازة بضعة أسابيع. فلم يمض السبت حتى طلبني الرئيس صباح الاحد على التلفون وقال لي إنه ينتظرني مساء ذلك اليوم، فشكر لدولته واستمهلته إلى الاثنين. فاذن، وأمر كاتبه أن يكرر تذكيري بالموعد مساء الاحد. وماكنت في حاجة إلى التذكير والتكرير، ولكنه لطف الرئيس رحمه الله وإيناسه لضيوفه ومدعويه.

ووصلت إلى مسجد وصيف مساء الاثنين فلقيت إخواننا بين باب الحديقة وباب دار الضيافة وقد بدا عليهم شيء من الوجوم فسألتهم : ما بالكم هنا في هذا الأوان ؟ قالوا : إن الباشا متعب قليلاً فهو عاكف في المنزل ونحن مبتعدون من نوافذ الحجرة التي ينام فيها لئلا يرتفع اليه صدى من ضوضاء الحديث. ولم تمض دقائق معدودات حتى أقبلت الآنسة المهذبة « فريدا »

تحييني باسم الرئيس وتبلغني أسفه لآنه لا يستقبلني هذا المساء، ورجاءه أن يراني في الصباح

وفي تلك الليلة أنبأنا الدكتور حامد محمود ان المرض لا يخلومن خطورة ولكن بنية الباشاالة وية كفيلة بالتغلب عليه ، وانه يحتاج الى الراحة والاقلال من الحركة والكلام والاشتغال بمرهقات السياسة والمشاكل العامة . فقضينا الليلة نتفاءل ونتشاء م ونحن على غير هدى من هذا ولا ذاك ، وجاء الصباح فسألنا فقيل لنا : إن الحالة أحسن . ولكن الحاجة الى الراحة والعكوف بالمنزل لا تزال .

وكان أول ما تلقيناه بعد تناول الافطار تحية من الرئيس واعتذاراً من احتجابه عنا ، ووعداً بأن يرانا قريباً حسيها يستطيع أو حسيها يأذن الطبيب ثم جاءتني الآنسة فريدا تدعوني الى لقائه ، فلم أنس ولا أحسبني أنسى ذلك الشعور الذي خامر بي وأنا أخطو خطواتي المتئدة المتقاربة الى حجرة نومه . فانني أحسست أنني في حضرة القدر الذي لا يكشف ما أضمر . وعنده الرجاء العظيم ، وعنده كذلك الخوف العظيم ، ونحن منه بين ستارين لا ندري أيهما الرجاء وأيهما الخوف ، وأيهما ينشره وأيهما يطويه .

واقتربت من الحجرة وأنا أعلم أن الحديث يتعبه وانه أتعب ما يمكون له إذا خاض في السياسة ومشاكل الحكومة . ووجدته راقدا فييته فرد التحية معتذراً لاضطراره إلى قلة الحركة . وأسرعت بابتداء الكلام لأعفيه من مشقة الحديث ، وطرقت كل موضوع عن الجو وعن الصحة وعن المصيف وعن الصحاب الا السياسة وما إليها فاني اجتنبتها أبعد اجتناب ، وطفقت أسرع في وصل كل حديث بما قبله على خلاف عادتي لكي لا يتكلم مم ألجأ إلى مقاطعته فاسومه بذاك . وقد تسمع الآنسة فريداصوته بين فترة وأخرى فتظهر وتناديه بلهجة المستعطف المترفق : يا باشا . لاكلام الاكلام . . فيصمت حتى تخرج مم يقول : إن على يابني هنا رقيبين لا يرحمان . إذا أمر الطبيب

لم ياذنا لشفتي أن تفترا بكلام ولا للهواء أن ينفذ من هذه الأبواب... « وأقول له إن رقيبيك يامولاي لايرحمان لأنهما يرحمان

وعلى الرغم من هذا استطرد الكلام إلى أنباء الصحف والحكومة وجاء ذكر الخصوم والاصدقاء فقال رحمه الله : « ليس لي يابني خصوم أحسب حسابهم انما آ فتي كلما من الاصدقاء . ثم تمثل قائلاً : « لو بغير الماء حلقي شرقً » وكررها مرتين .

ثم أمر باستدعاء فخري عبدالنور بك فسأله عن زملائه وعمن وصل من الزائرين . فافاض برواياته المعبودة ومخترعاته الحاضرة والباشا بين سامع وناعس . حتى أحسسنا انه يغفو فاوماً بعضلنا إلى بعض بالسكوت ، وخرجنا متمهلين .

وكان ذلك هو اللقاء الأخير .

تخليد الذكرى

توفي سعد والوزارة التي في الحكم وزارة الائتلاف التي يؤيدها الوفديون وحلفاؤهم من الاحزاب الاخرى ، فقامت الوزارة بواجها في تشييع جثمان سعد إلى قبره الموقوت بصحرا. الامام ، وأمرت بنقل الجثمان على مدفع واطلاق سبع عشرة طلقة في أثناء سير الجنازة ، واشتركت هي والمجلسان النيابيان وعلية الشعب وسواده في تشييع الجنازة عصر اليوم التالي لوفاته ، وعلى الرغم من القيظ وأجازات الصيف وغياب الكثيرين في الأقاليم والبلاد الخارجية كان المشتركون من أهل القاهرة والذين استطاعوا إدراك موعد الجنازة من أهل الأقاليم يعدون بعشرات الألوف.

وأمرت الوزارة بشراء بيت الأمة وحسبانه من أملاك الدولة لصيانة آثار سعد الباقية فيه ، وأمرت كذلك بتشييد ضريح إلى جانب بيت الأمة ينقل اليه الجثمان بعد الفراغ من بنائه ، و بصنع تمثالين يقام أحدهما في القاهرة والآخر في الاسكندرية .

وبلغت الاكتتابات الشعبية لتخليد ذكرى الزعيم نحو عشرين الف جنيه ثم وقفت عند هذا القدر اكتفاء بما أقامته الحكومة الممثلة للشعب من الذكريات

ولما تم بناء الضريح كانت الوزارة القائمة _ أوكان الحكم كله _ حكم خصومة لسعد والسعديين . فتباطأت الوزارة في نقل الجثمان ثم حولت الضريح إلى مقبرة لبعض الملوك الفراعنة الأقدمين ، وتعللت لذلك بأن السيدة الجليلة قرينة سعد رفضت أن ينقل رفاته إلى الضريح إذا كان في النية تحويله إلى مقبرة عامة له ولبعض الوزراء الآخرين ، ولكنها حيلة سياسية لاتخنى ، لأن الوزارة عطلت اقامة التمثالين كما حالت دون نقل الجثمان الى الضريح .

وفي عهد الملك فاروق الأول عادت الحياة النيابية على أساس الدستور القديم وقامت في الحدكم وزارة وفدية فسمح بنقل الرفات إلى الضريح بعد وفاة سعد بتسع سنوات في يوم الجمعة التاسع عشرمن شهريو نيو سنة ١٩٣٦، وكان كثير من أصدقاء سعد يخشون أن تكون الجثة قد سرقت من مدفتها ليحال بينها وبين الضريح المشيد لمثواها في يوم من الأيام مهما تتعاقب الدول والوزارات ، ولكنها وجدت في مدفنها النتي سليمة من عوارض الفناء لم يصبها إلا جفاف وضمور يسير.

والضريح الذي استقرفيه رفات الزعيم العظيم بنية لائقة بتخليد ذكراه ، لانها بنية مصرية توافرت فيها البساطة والفخامة وأخذت من الطراز المصري القديم مالا تناقض بينه وبين الاصول الاسلامية . أما التمثالان فلا يوحيان شيئاً من الشهائل الانسانية والقوة النفسية والاريحية الحلقية التي بهاكان سعد عظياً وبهاكان مستحقاً للتخليد . وكل ما فيهما من سعد شبه مادي لم يوفق فيه الاستاذ محمود مختار رحمه الله حتى إلى إختيار أحسن الصور الشمسية وأقرب الملامح إلى المعاني النفسية .

وتزداد النفس شعوراً بيبوسة المعاني المفرغة في التمثال عند ماتنظر إلى ذلك المعطف الطويل المفرغ على القامة المديدة بلا حركة ولا ثنية كائه خارج من عند الكواه. وبما لاشك فيه أن تمثيل رجل كسعد في المعدن أو الرخام أو الصخرليس بالامر اليسير، فهو أصعب من تمثيل العسكريين لان ملامح القوة العسكرية ليست بالعسيرة التصوير، وهو أصعب من تمثيل الفلاسفة والشعراء لأن ملامح الحالمين والمثالين ليست كذلك بالعسيرة التصوير. إنما العسير في تصويره تلك المعاني والاخلاق التي تراها في جميع الناس ولا تراها في انسان واحد بهذا المقدار، فاذا صورتها كما تراها في جميع الناس خرجت عادية لا تحمل سمات العظمة التي يتسم بها صاحبها الفريد، وإذا عمدت إلى إظهار الفرق بين صاحبها وسائر الناس بتكبير

المقدار كانت المسألة مسألة احجام لا مسألة معان وأخلاق وملكات. لهذا أخفق محمود مختار مع اصابته في كثير من التماثيل الآخرى ، وأخفق من قبله « يورفتش » صاحب التمثال النصني الذي نقله عن سعد وهو مريض معتكف في الطبقة العليا من بيت الامة ، فلم يكن فيه إلا الشبه المادي دون المشابه النفسية التي تظهر بالدراسة والاختبار .

والسبيل إلى اصلاح التمثالين أن يتولى إصلاحهما رجل يدرس سعداً دراسة نفسية ويعلم من أخباره ونوادره ما يوحي اليه جوانب العظمة في ذلك الانسان الذي تختلف فيه القوة من قوة العسكريين وقوة الفلاسفة والشعراء ، فيترجم الفرق بينه وبين سائر الناس بلغة الشعور والبداهة لا بلغة المقدار والمظاهر المادية . وعسى أن يتم هذا الاصلاح قبل اقامة التمثالين حيث يستقبلان أنظار التاريخ .

ولهذه المناسبة في تخليد ذكرى سعد ، وفي ختام هـذا الكتاب الذي أودي به واجب الوفاء لذكراه ـ أرى كما رأى كثير من القراء أن أختمه با خر ما نظمت في تحية سعد زغلول ، وهو القصيدة التي نشرتها يوم نقل رفاته إلى الضريح قبل صدور هذا الكتاب بشهر واحد :

فاز سعد

وأصابالنصر روحاً ورفاتا رده الشعب الها واستماتا كانلايرضي على الشعب افتياتا تخش بعد اليوم ياسعد شتاتا

عرف النفي حياةً ومماتا كلما أقصـــوه عن دارٍ له كيف يجزيه افتياتاً وهو مَن أصبحت دارك مثواك فلا حبذا الخلد ثمــارآ للذي غرس المجد ونمّاه نبــــاتا

غير أن الكعبة الكبرى مقام فيجوار البيتأو سفحالامام فبنو مصر حجيج وزحام مثلما يبغيه حج واســتلام فالقَ في قبرك خلداً كلما مرّ عام تبعته ألف عام

كل أرض للمصلي مسجد هكذا قبرك مرفوع الذرى أرضمصرحيث أمسيت بها غير أن الذكر يبغي منسكًا

جيرة الأحياء أولى بالذي بعث الدنيا حياة لن تبيــد مدد من ذلك الميت مديد جزتموه، وهو منكم مستعيد تلك ياســـعد مغانيك فما في سواها يسكن اللحد شهيد

معشر الاحيا. أنتم لكم ُ مستعيدين رجاء كلما

اعبر القــــاهرة اليوم كما كنت تلقاها جموعاً ونظاماً ســاعة في أرضها عابرة بين آباد طـــوال تترامي ساعة من عالم الفردوس لا تشبه الساعات بدماً وختاما

كل من شاهدها زيد بها من معانيك جلالاً ودواما قل لهم أبلغ ما قلت لهم أنها الواعظ صمتاً وكلاما

جردواالاسياف من أغمادها ذاك ومالنطر لاوم الحداد ارفعوا الرايات في آفاقها أين ومالموت من يوم المعادج لايلاً قي الخلد بالحزن ولا يكتسى الفتح بجلباب السواد ذاك يوم ماتمناه العـــدى بل تمنـــاه ولا. ووداد فانفضُو االحزن بعيداً واهتفوا فاز سعد وهو في القبر رماد

الفراعـين الأولى أجليتهم لَمَّنوا لو أجازوك الطريق أنت أضفيت على أوطانهم سعة ، وهيمنالأسر مضيق أنت أيقظت لهم تاريخهم وهو في نومته لا يستفيق فضلك اللاحق أحيا فضلهم فاستوىمنه طريف وعريق آية في الحق لا ينسخها فيمدىالدهر عدو أوصديق

وانظروه كيف حالت دونه غيرٌ شتى ، وما حال القضاء ليس للمجد من الخلد نجاء

يابني مصر اجعلوا نقلتــه رمز إحياء وعزم ومضاء المنحَّون تنحوا جانبــــاً آخر الأمر، وسعد في البناء کل ذی حق سیعطی حقه كل ماعارض سعياً باقياً عرضٌ فان ٍ وزور ورياء

ترمز الشمس (١) إلى نقلته بسفور غالب بعد حجاب صرعت ليلين صحاً فروت عنحضور ناصع بعد غياب

⁽١) اشارة إلى كسوف الشمس صباح ذلك البوم.

هوأيضاً قد طوى ليل الردى وطوى ليل الغواشي والكذاب أثر الفجر إذا انجاب لنا عنضحاه بعد لاي وغلاب

دان ياسـعد لك الذكر بما شيد الباني وما خط الزبور قىدر نادى فلبتـــه على موعدالذكرى صخور وسطور أنا بان ِ لك في ملك النهي منزلاً يبقى ولاتبقى الصخور مر أسانيدك آساس له ومن الحق له حسن ونور إن أنل شأوك فيــه إنني بالذي شــيدت منه لفخور

ختية الوادى بسعد فاقتدوا إن تخيرتم له خـير وفا. أذكروه بالذي يعمله منكم العامل في غير ونا. واذكروه بالذي امتاز به من مزاياه الايبّات الوضاء هكذا يخلد سعد بينكم بماثيـل حيــــاة وروا. كل ما يعظم من أعمالكم هو تخليد لذكرى العظماء

عباس فمود العقاد

فهرست

الصفحة	• •
	الموضوع

11	. •
لناسلناس	الطبيعة المصرية في أوهام ا
41	الطبيعة المصرية في حقيقته
£0	أصل سعد
٠٧	جيل سعد
ov	بيئة سعد ونشأته
ل الوزارة	سعد من الثورة العرابية إل
90	في طريق الوزارة
1.1	سنة ١٩٠٦
١٠٤	وزارة المعارف
111	سعد الوزير
144	وزير الحقانية
زارتي المعارف والحقانية	ملاحظات على سعد في و
187	الحركة الدستورية
107	الوزير المصري في المعاش

	في ميدان الانتخاب
177	ي الجمعية التشريعية في خمسة أشهر
١٨٣	قبيل الحرب
147	الحرب العظمي
198	تأليف الوفد المصرى
4.0	بدء العمل
444	القارعة
277	الثورة
727	من القاهرة إلى مالطة إلى باريس
409	تأليف الوفد الأول
477	موقَّف الوَّزارة الْرشدية
274	برِنَامج الوِفْدُ والاَمتيازات
777	الوفد في أوروبا
444	من سفر الوفد إلى لجنة ملنر
414	المفاوضة في لندن
	في مصر أثناء المفاوضة
451	بعد عودة الأعضاء
400	الوزارة العدلية
421	العودة
	الخلاف على المفاوضة
4 77	القطيعة بين سعد والوزارة
444	فشل المفاوضات الرسمية
	النفيّ
٤١٧	تصریح ۲۸ فبرایر
273	من المُنفَى إلى الوزارة
	في رئاسة الوزارة
£ Y0	الملك فؤاد وسعد
£AY	من رئاسة الوزارة إلى رئاسة النواب

१९९							 								-						•'	ب	وار	الن	ر	ر	مجا	ة	اس	ز
٥.٨	•				 	-						•													ما	ٔثر	وأ	ىتە	عاه	زد
٥١٨																														
٥٣٥																														
001																														
٥٨١		•																								٦	ببع	. Ā	ناف	ئة
091			•																									اة	وف	از
۲۰۸							 							•				ر.	ک	.5	11	ياء	للة	وا	ل	ٔو ا	الأ	اء	ﻠﻘ	Ĵį
747						•				•														ر.	5	.ک	الذ	J	فلي	تم
٦٣٠	•	•		•				•	•		•		•							•							مد	س	از	ف
744																								.U	دو	-1	~	ح	ص	تا

* * *

والمنابع و برايا الكتاب الليباني بي وترين الكتاب البياني مروت برا الكتاب اللياني ومروت براياكتاب اللياني ومروت براياكتاب ي . بيروب باراله الكتاب المناحج ميروت مار الكتام اللمائع حيروت مار الكتاب اللبائع ميروت مار الكتاب اللبائعي ميروت مار الكتاب المرابعة بار الكتاب اللمائية. ميروت و از الكتاب اللمائي ميروت و باز الكتاب اللمائي ميروت و از الكتاب اللبائية و يروت و از الكتاب اللبائية و يروت و از الكتاب اللبائية و يروت و و از الكتاب اللبائية و يروت و از الكتاب اللبائية و از الكتاب ت مارالكتاب اللماني مي وت مارالكتاب اللمناني مي وت مارالكتاب اللماني مي وت مارالكتاب اللبناني مي وت أمار الكتاب اللبناني مي وت مارالكتاب اللبناني مي وت مي مروث مار الکناب السابی خبروت مارالکتاب اللخانی میروث مارالکتاب اللخانی خبروث مارالکتاب اللخانی خبروث مارالکتاب اللخانی خبروث مارالکتاب اللخانی میروث م سجوت دار الكتاب الأماني مجروت مار الكتاب اللماني مجروت بأر الكتاب اللماني مجروت بار الكتاب اللماني مروث مار الكتاب الليتاب وسمروت مار الكتاب اللياني سيروت مار الكتاب الليتاني سيروت مار الكتاب الليتاني سيروت مار الكتاب الليتاني الليتاني سيروت مار الكتاب الليتاني سيروت مار الكتاب الليتاني سيروت مار الكتاب الليتاني -االنابج. نبروت بارالكتاب اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج. نبروت دارالكتاب اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج. نبروت الراكتاب اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج اللبانج. نبروت بارالكتاب اللبانج اللبانج اللبانج اللبانج اللبان نادالساني - مروت ما رالکتاب الليماني سيروث مار الکتاب الليماني ميروث مار الکتاب الكتاب اللنائثي تبروت مار الكتاب اللباني ممروث بار الكتاب اللباني عبروت بار الكتاب اللباني مهروت بارالك مارالکتا دالسانی میروت دارالکتات الساحت بیروت دارالکتات الساخی میروت دارالکتات السانی میرود دارالکتات الساخی میرود دارالکتات دارالکتات الساخی دارالکتات الکتاب دارالکتات دارالک يجوت مار الكتاب اللنائج عجوب ماز الكتاب اللبنانج معروت مار الكتاب اللبنانج عبروت مار الكتاب اللبنانج عبروت بار الكتاب اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت بار الكتاب اللبنانج عبروت بار الكتاب اللبنانج عبروت بار الكتاب اللبنانج عبروت الكتاب اللبنانج عبروت بار الكتاب اللبنانج عبروت الكتاب اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت الكتاب اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت الكتاب اللبنانج عبروت اللبنانج عبروت اللبنانج اللبنانج عبروت اللبنانج اللبنانج عبروت اللبنانج الل محروث مارالكتاب اللمائح. محروث مارالكتاب اللبائح. بعروث مارالكتاب اللبائح. محروث مارالكتاب اللمائح. بعروث مارالكتاب اللمائح. بعروث مارالكتاب اللمائح. بعروث مارالكتاب اللمائح. بعروث مارالكتاب اللمائح. بالنباني ميروت مارالكتاب اللباني عبروت مار الكتاب اللباني ميروت مارالكتاب اللباني ميروت مارالكتاب اللباني عبروت الرالكتاب اللباني عبروت اللباني عبروت اللباني عبروت الرالكتاب اللباني عبروت اللباني اللباني عبروت اللباني عبرو كتاب اللبنائي عيروت بارالكتاب اللبنائج عيروث بارالكتاب اللبائج عيروث بارالكتاب اللبنائي عيروث بارالكتاب اللبنائي بعيروث وارالكتاب اللبنائي وعيروت وارالكتا رالكتاب الليماني ببروت بار الكتاب الليماني بيروث بار ال بارالكناب الليابي بهوت مارالكتاب الاجاني بهوت بارالكتاب اللبياني بهروت بارالكتاب اللباني بهروث بارالكتاب اللباني بهروت بارالكتاب اللباني بهروت والكتاب اللباني واللباني والكتاب اللباني واللباني واللبان ور مساولات المساولات معاديه و المساولات و المساولات و المساولات المساولات و المساولات و المساولات و المساولات ود ماراكتان الساهد بيروت ماراكتان الساهد موروت ماراكتان الساعد بيروت مارالكتان الشاغة عيروت مارالكتان بالساع ميروت مارالكتان الساعد ميروت مارالكتان و المساولات يج مورت بارالكتاب اللحائج سروت بارالكتاب اللجائج مروت بارالكتاب اللحائج سروت بارالكتاب اللج ميروت بارالكتاب اللجائح مروت والكتاب اللجائح لماني مروت مار الكتاب اللساني ممروت مار الكتاب اللباني عروت مار الكتاب اللباني عروت والمساني مروت والمساني مروت والمساني مروت والمساني وال باللمه عبروث بارالكتاب النشي بيروث بارالكتاب اللماني بيروث مارالكتاب النشي بيروث بارالكتاب اللماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب اللماني بيروث بارالكتاب اللماني بيروث بارالكتاب اللماني بيروث بارالكتاب الماني بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث باراكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بارالكتاب الماني بارالكتاب الماني بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني بيروث بارالكتاب الماني با كتاب اللباني . ميروث بار الكتاب اللبانج . ميروث بار الكتاب اللباني . ميروث بار اللكتاب اللباني . ميروث بار الكتاب اللباني . ميروث بار اللكتاب اللباني . ميروث بار الللباني . ميروث با رالكناب اللبناني غيروت مار الكتاب المناني عيروت بار الكتاب اللبناني باللبناني عيروت بار الكتاب اللبناني باللبناني باللبنان . بارالکتاب اللمانی بیروت مارالکتاب اللمانی بیروث مارالکتاب اللمانی بیروث بارالکتاب اللمانی بارالکتاب اللمانی بیروث بارالکتاب اللمانی بارالکتاب الانی بارالکتاب اللمانی بارالکتاب اللمانی بارالکتاب اللمانی بارالکتاب اللمانی بارالکتاب اللمانی بارالکتاب المانی بارالکتاب الانی بارالکتاب المانی بارالکتاب المان وت بارالكتاب اللمائي بيروت بارالكتاب اللمائي بيروت بارالكتاب اللبنائي بيروت بارالكتاب اللمائي بيروت بارالكتاب المائي بيروت بارالكتاب المائي بيروت بارالكتاب اللمائي بيروت بارالكتاب اللمائي بيروت بارالكتاب المائي بيروت بيروت بارالكتاب المائي بيروت باراكتاب المائي باراكتاب المائي بيروت باراكتاب المائي بيروت باراكتاب المائي بيروت باراكتاب المائي باراكتاب ال . بروث دار الكتاب اللحاب . ميروث دار الكتاب اللحاب . بيروث دار الكتاب اللجاب . ميروث دار الكتاب اللحاب . بيروث دار الكتاب اللحاب . بيروث دار الكتاب اللحاب . نج بيروث دار الكناداللبناني ي سروت بارالكتاب اللبائي بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بالروت بارالكتاب اللباني بيروت بيروت بارالكتاب اللباني بيروت باراكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني بارالكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني اني تبروت بارالكتاب اللمامي ميروت بارالكتاب اللمائي ميروت بارالكتاب اللمائي ميروت بارالكتاب اللمائي ميروت بارالكتاب اللمائي ميروت بارالكتاب كناب البنائي بيروت دار الكتاب اللمائي ميروت دار الكتاب اللمائي بيروت دار الكتاب اللبائي بيروت دار الكتاب اللبنائي اللبنائي اللبنائي بيروت دار الكتاب اللبنائي اللبنائي بيروت دار الكتاب اللبنائي بيروت دار الكتاب اللبنائي بيروت دار الكتاب اللبنائي ارالكناب النمائي بيروث باز الكناب اللبائي عيوث باز الكتاب اللبنائي ميروث باز الكتاب اللبنائي بيروث واز الكتاب اللبنائي والكتاب اللبنائي واللبنائي والكتاب اللبنائي والكتاب اللبنائي والكتاب اللبنائي والكتاب الكتاب اللبنائي والكتاب الكتاب الكتاب الكتاب اللبنائي والكتاب اللبنائي والكتاب الكتاب الكتاب اللبنائي والكتاب الكتاب اللبنائي والكتاب الكتاب اللبنائي والكتاب الكتاب ا . دارالكتاب اللسانج . بيروث مارالكتاب الأعلم ـ بيروث بارالكتاب اللبانج . بيروث باللبانج . بيروث بارالكتاب اللبانج . بيروث باراكتاب اللبانج . بيروث بارالكتاب اللبانج . بيروث ب وذ دارالكتاب اللمائج ميروث بارالكتاب اللمائي مروث بارالكتاب اللمائي ميروث بارالكتاب اللبائي ميروث بارالكتاب اللمائي ميروث بارالكتاب اللمائي ميروث وارالكتاب اللمائي مبروت بار الكتاب النشي ميروت بار الكتاب السابي مبروت بار الكتاب اللبياني ٠١، الكتاب اللياني ـ بيروت برارالكتاب اللياني ـ بيروت برارالكتاب اللياني ـ بيروت برار الكتاب اللياني نع ـ بيروت دار الكتاب الساني ـ بيروت بار الكتاب اللجاني ـ بيروت بار الكتاب "كتاب اللبناني تبروت بارالكتاب اللبناني تبروت بارالكتاب اللبناني تبروت بارالكتاب اللبنان 40, محتاب اللسابي . تبروت بار الكتاب اللبايد . تيروت بار الكتاب اللباني . تيروت جار الكتاب اللم ادالاحاني تبروت مار الكتادالليناني مبروت دارالكتاب اللياني ميره كتاب اللبناني ـ أُخِروتُ دار الكتاب اللجاني . أُخِروتُ دار الكتاب اللَّبناني ـ أُخِروتِ دار الكِتاب 3 كناداللىناني مبروت دار الكتاداللىناني ميروت دار الكتادالليناني الكناب السَّاني ـ مُبروتُ را راكتاب اللِّناني ـ مُبروتُ دار الكتاب اللَّناني ـ مُبروت مار الك ا، الکتاب اللحات مروت دار الکتاب اللحات عروت دار الکتاب اللہ ت دار الکتاب اللحات عروت دار الکتاب اللحات عروت دار الکتاب ار الكِناب اللَّيَّابِ دُيْرُوبُ بِار الكُتابِ اللَّيَابِ . مَبِرُوبُ بِار الكِتَابِ اللَّمَانِيَ . ميروث بِار دار الکتاب اللبانی درود در انسان انسانی دیرون دار الکتاب البانی دیرون دار الکتاب اللبانی دیروت دار الکتاب اللبانی میرون دار الکتاب اللبانی دیرون وت دار الکتاب اللبانی دیروت دار الکتاب اللبانی بیروت دار الکتاب اللبانی دیرون بروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني تيروت بيار الذ ـ بيروت دار الكتاداللماني. تبروت دار الكتاب اللماني. تبروت دار - محوت دار الکتاب النبانی ـ ـ محوت بار الکتاب اللبانی ـ محروت بار الکتاب اللبانی ـ - ، اني تبروت بار الكتاب اللبائي تبروت بار الكتاب اللباني تبيروت ب عنج بجروت دارالكتاداللبنانج تبروث بارالكتاباللبانج تبروت بارالكتاباللياب اللمائج. بغروت بارالكتاب اللماني ميروت بارالكتاب اللماني ميرور ساللياني ميروت دارالكناب اللياني ميروت دارالكتاب اللياني ميروت دارالكتاب اا تاداللسائم أحيروت بارالكتاب اللبائي أميروت بارالكتاب اللبناني أحيروا كناداللحاني مبروث بارالكتاداللحاني ببروت بارالكناداللخاني مبروت بارالكتا لكتاب اللساني . سروت برار الكتاب اللساني - سروت مار الكتاب اللساني - سرو، روت دار الکتاباللتانی میروت دار الکتاباللیانی میروث دار الکتاباللیانی میروت دار ال ـ ارالكناب اللبائم ، تُنزوتُ دار الكتاب اللبائي ُ تيروتُ دار الكتاب اللبائي - تيرو، حـ ُ بيروتُ دارالكتاب اللياني بيروتُ دارالكتاب اللياني . بيروت دارالكتاب الليناني - بيروت م ـ دار الكتاب اللحاب . بحروت دار الكتاب اللحاني . بحروت دار الكتاب اللحاني ـ محروت دار الكناب اللياني ميروث مار الكتاب اللياني ميروث مار الكتاب اللياني ميروث مار الكتاب الليابي ميرود روث دار الكتاب الليام عبروت دارالكتاب الليام عبروث دار الكتاب الليامي ويستري مروت دار الكتاب الليام عبروث دار الكتاب الليام عبروث دار الكتاب الليام عبروث دار الكتاب الليام عبروث والكتاب الليام والكتاب الكتاب والكتاب الليام والكتاب والكتاب والكتاب والكتاب والكتاب الليام والكتاب وال . مبروث بار الكتاب السامج . مبروث بار الكتاب اللسامج . امي مروث دار الكتاب اللجامي بيروث دار الكتاب اللجامي مروث دار الكتاب اللجامي ميروث دار الكتاب اللجام اللجام الكتاب اللجام الكتاب اللجام الكتاب اللجام الكتاب اللجام الكتاب اللجام الكتاب الكتاب اللجام الكتاب اللجام الكتاب الكتاب اللجام الكتاب الكتاب الكتاب الكتاب الكتاب الكتاب اللجام الكتاب الكت السابع. ميروت بار الكتاب الكتاب السابع. ميروت بار الكتاب السابع. ميروت بار الكتاب ئاب السابح. عبروت باز الكناب اللبابح. بهروت باز الكناب لكناد اللمائد . شروث باز الكناد النائم . بيروث دار الكناد اللمائي . بيروث دار الكناد اللمائي . بيروث باز الك ار الكتاب اللياني مروث بار الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني بار الكتاب الكتاب اللياني بار الكتاب اللياني بار الكتاب اللياني بار الكتاب الكتاب اللياني بار الكتاب اللياني بار الكتاب اللياني بار الكتاب الكتاب اللياني بار الكتاب الكتاب اللياني بار الكتاب الكتاب اللياني بار الكتاب ت بارالكناب اللياني ميروث بارالكتاب اللجاني ميروث بارالكتاب اللياني ميروث بروت بار الكتاب السامي مروت بار الكتاب السامي ميروث بار الكتاب السامي ميروث بار الكتاب السامي ميروث بار الكتاب اللسامي ميروث بار الكتاب الكتاب اللسامي ميروث بار الكتاب اللسامي ميروث بار الكتاب اللسامي ميروث بار الكتاب اللسامي ميروث بار الكتاب اللسامي اللسامي باروث بار الكتاب اللسامي باروث ب وهروت برا الكتاب اللبائح ، بيروت بيروت ، ب مروت دار الكتاب اللياس بيروت مار الكتاب اللياس بيروت بار الكتاب اللياس بيروت بار الكتاب اللياس بيروب بيروب بار الكتاب اللياس بيروب اني ميرون دارالكتاب السامي ميروث بارالكتاب السامج ميروث دارالكتاب السامح ميروث دارالكتاب اللسامج ميروث دارالكتاب اللسامج ميروث دارالك الكتاب اللياني مروث بار الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني الكتاب اللياني ميروث بار الكتاب اللياني اللياني الكتاب اللياني اللياني الكتاب اللياني اللياني اللياني الكتاب اللياني الكتاب اللياني اللياني الكتاب اللياني اللي مارالكتاب اللبائي ميروث بارالكتاب اللبائج عيروث مارالكتاب اللبائج ميروث بارالكتاب اللبائج ميروث بارالكتاب اللبائج ميروث يت بار الكتاب اللياني بيروت وارالكتاب اللياني بروث بار الكتاب اللياني بيروت بيروت بيروت بيروت بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بيروت بيروت بيروت بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت ب عروت دار الكناب النامج ـ بيروت دار الكناب اللبامج ـ بيروت ـ دار الكناب اللبامج ـ دار الكناب اللبام ـ دار الكناب اللبامج ـ دار الكناب اللبام ـ دار الكناب اللبام ـ دار الكناب اللبامج ـ دار الكناب اللبام ـ دار الكناب اللبامج ـ دار الكناب اللبامج ـ دار الكناب اللبام ـ دار ال ي. محروث مار الكتاب اللنائم. محروث مار الكتاب اللمائم. غامج بيروت دارالكتاب اللبتانج بمروث دار الكتاب اللبنامح بيروث دار الكتاب اللبامج بمروث دارالكتاب اللبامح بمروث دارالكتاب اللبامح بمروث دارالكتاب اللبامح بمروث دارالكتاب اللبامح بمروث والاستانج بمروث والاستانج والمحتاب اللبامح والمحتاب والمحتاب اللبامح والمحتاب اللبامح والمحتاب اللبامح والمحتاب اللبامح والمحتاب والمحتاب اللبامح والمحتاب والمحتاب اللبامح والمحتاب المحتاب اللبامح والمحتاب المحتاب المحتاب المحتاب اللبامح والمحتاب المحتاب اللبامح والمحتاب المحتاب اللبامح والمحتاب المحتاب ج. مبروت بارالكناب الليانج. مبروت بارالكناب الليانج. مبروت بيار الكناب الليانج. مبروت بارالكناب الليانج. مبروت بيار الكتاب الكتاب الليانج. مبروت بيار الكتاب الكتاب الليانج. مبروت بيار الكتاب الليانج. مبروت بيار الكتاب الكتاب الليانج. مبروت بيار الكتاب الليانج. مبروت بيار الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الليانج. مبروت الكتاب الكت معروث دار الكتاب السامة بيروث دار الكتاب السامة بيروث دار الكتاب السامة بيروث دار الكتاب اللسامة بيروث دار الكتاب السامة بيروث دار الكتاب المرام المرام الكتاب الك الكتاب السامح . مروت دار الكتاب السامح . مروث دار الكتاب بارالكتاب اللبائي بيروث بدار الكتاب اللبائي بيروث بدار الكتاب اللبائي بيروث بارالكتاب الكتاب الكتاب اللبائي بيروث بارالكتاب اللبائي بارالكتاب اللبائي بيروث بارالكتاب اللبائي بارالكتاب اللبائي بارالكتاب اللبائي بارائي بارا يت بار الكتاب السابح. تبروت بار الكتاب السابح. تبروت برا الكتاب اللسابح. تبروت بار الكتاب اللسابح. تبروت بار الكتاب اللسابح.

عرود دار الكتاد اللمائد بيروت دار الكتاد اللمائد بيروت دار الكتاد اللمائج بيروت دار الكتاد اللمائد بيروت دار الكتاد اللم

_اللبا في بعروت مارالكتاب اللغامي ميروت مارالكتاب اللعامي ميروت مارات سب بي بحروت مراندسيسمين بهروت در مصيب سمين بهروت در بصف سمين بهروت ما را الكتاب اللياني بهروت ما را الكتاب الل كتاب اللهاني بهروت مار الكتاب اللهاني بهروت مار الكتاب اللهاني بهروت مار الكتاب اللهاني بهروت اللهاني بهروت مار الكتاب اللهاني بهروت الكتاب اللهاني بهروت اللهاني بهروت الكتاب الكتاب الكتاب اللهاني بهروت اللهاني بهروت الكتاب الكتاب الكتاب الكتاب الكتاب اللهاني بهروت الكتاب الكتاب اللهاني بهروت الكتاب ب دور تصديبهمي موروت در تنصيبهمي موروت در تصديبهمي موروت در تصديبهمي موروت در تصديبهمي موروت در تصديبه موروت در تصديبهمي موروت در تصديبهمي موروت در تصديبهمي موروت دار الكتاب اللمائم على موروت داروت على داروت على موروت داروت على موروت داروت على موروت داروت على موروت داروت على داروت داروت على داروت ع وب معروضية والمستعدي ميروب معروضية والمستعدية والمستعدية والمستعدة ميروب ما مستعدة ميروب مراسسعو ميروب ما والصدائمة والمستعد ميروب مروب مار الكتاب اللماني ميروث مار الكتاب اللماني ميروب مار الكتاب اللماني ميروث مار الكتاب اللماني ميروث مار الكتاب اللماني ميروث ت ميروت مرا الكتاب اللبغاني عيوت مار الكتاب اللبغاني ميروت مار الكتاب اللبغاني ميروت مار الكتاب اللبغاني عيروت من عيروت م سدي جروب بار مصاب سبعي جي مار سعد سبوب مي در سعاد سبوب بين دار الصناب المساور على المساور سسعني ديروب دير سعب بسعود ميروب مر بنصب بسعيد ميروب در بنصب بسعيد عروب دير بنصب سيعيد ميروب در بنصف سيعيد ميرو گنام اللماني ميروت مار الكتاب اللماني ميروت دار الكتاب الميروت داركتاب الميروت الميروت داركتاب الميروت داركتاب الميروت داركتاب الميروت داركتاب الميروت الميروت داركتاب الميروت دا ار الكتاب الليناني ميروت مار الكتاب اللياني ميروت مار الكتاب اللياني ميروت مار الكتاب الليناني ميروت مار الكتاب اللياني ميروت ميروت ميروت ميروت مار الكتاب اللياني ميروت ميرو سر مصوب سعود مرود مير سعيد مرود من سعب سعيد مرود من سعيد ميرود من سعيد سعود مرود من سعيد مرود من سعيد مرود سرن ــ مار الكتاب اللياني ميرود مار الكتاب الساني ميرود مار الكتاب اللياس ميرود مار الكتاب اللياس ميرود مار الكتاب الساني ميرود مار الكتاب اللياس ميرود ميرود ميرود ميرود مار الكتاب اللياس ميرود م ب در سد بسعب مرود در مصداسمی میرود در مصداسمی میرود در مصداسمی میرود در سد اسعی میرود در سداسمی میرود دار انتخا عروت دار الکتاب اللیغانی میرود دار الکتاب اللیغانی میرود دار الکتاب اللیغی میرود میرود دار الکتاب اللیغی میرود دار الکتاب الکتاب اللیغی میرود دار الکتاب الیغی می و حيوت سرست سعني ميروت سرست سيعني ميروت سرست سعيب عيوت سرست سعيد ميروت سرست سعني ميروت سرست سعني ميروت سرست سعن ماني ميروت سار الكتاب اللغاني عيروت سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني عيروت سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني عيروت سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني ميروت سار الكتاب اللباني ال . اللي تاب اللي تاب اللي تابي وت دار الکتاب اللي انج ميروث دار الکتاب اللي به ميروث دار الکتاب الکتاب اللي به ميروث دار الکتاب اللي به م الكتاب الأخلاج عروت مارالكتاب اللحاج عروت مارالكتاب اللحاء عروت مروت مارالكتاب اللحاء عروت الكتاب اللحاء عروت مارالكتاب اللحاء عروت الكتاب الكتاب اللحاء عروت الكتاب اللحاء عروت الكتاب الكتاب اللحاء عروت الكتاب اللحاء عروت الكتاب اللحاء عروت الكتاب سيسوس معجديروت سرسيس سسعيد بيروت سرسيسسعيد بيروت سرسيسوسي ديروت سرسيس سيسوس ميروت سرسيسسيسيسي ديروت سرسيس سيسوس مار الکتاب اللمانی جيروت سار الکتاب السانج ديروت سار الکتاب اللماند بيروت سار الکتاب اللمانی جيروت سار الکتاب اللمانی ديروت سار الکتاب المانی ديروت سار الکتاب اللمانی ديروت سار الکتاب المانی ديروت سار ديروت سار ديروت سار الکتاب المانی ديروت سار ديروت ديروت ديروت ديروت سار الکتاب المانی ديروت سار الکتاب المانی ديروت سار الکتاب المانی ديروت سار الکتاب المانی ديروت دي يت دار الكتاب الليناني ميروت دار الكتاب اللياسي ميروت دارا يت در تصعيد تشميح ميروت دار تنصيب شخيب ميروت دار تنصيب تسميح ميروت دار تنصيب ميروت دار تنصيب تسميح ميروت دار تنصيب تسميح ميروت دار تنصيب تسميح ميروت دار الكتاب اللمائح ميروت دار الكتاب الميروت دار الكتاب اللمائح ديروت دار الكتاب المائح ديروت دار الكتاب اللمائح ديروت دار الكتاب اللمائح ديروت دار الكتاب المائح ديروت ديروت دار الكتاب المائح ديروت دار الكتاب المائح ديروت داركتاب المائح ديروت ديروت داركتاب المائح ديروت وب سرستس سبعته حروف مارست سعوب حروف مارست و الكتاب اللعامي عروف من الكتاب اللعامي حروف مار الكتاب اللعامي مروف معروف مار الكتاب اللعامي حروف مار الكتاب اللعامي حروف مار الكتاب اللعامي عروف مار الكتاب اللعامي حروف مار الكتاب اللعامي عروف مار الكتاب اللعامي حروف مار الكتاب اللعامي عروف مار الكتاب اللعام عروف مار الكتاب اللعام عروف مار الكتاب اللعام العروف العروف الكتاب اللعام عروف العروف الع ب حروب در رفضه دروب در سعد سعوب عروب در سعدستون عروب در سعوبسطون عروب الكتاب المابع عروب در سعوب عروب در مصوب على دروب دار الكتاب اللماني محروث دار الكتاب اللماني محروث دار الكتاب اللماني عمروث دار الكتاب اللماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب اللماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الكتاب اللماني محروث دار الكتاب الماني ماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الماني محروث دار الكتاب الماني الماني الماني الكتاب الماني دارات الماني دار الكتاب الماني الماني دارات الماني دارات الكتاب الماني دارات الماني ب النظري مهوت بار الكتاب النظري ميروت دار الكتاب اللطريق ميروت بار الكتاب اللطري اللطر و من من من المنافع من المنافع المنافع المنافع من المنافع من المنافع المنافع المنافع من المنافع المنافع من المن كتاب الليناني مروت مار الكتاب اللياني مروت مارك اللياني مروت مارك الكتاب اللياني مروت مارك اللياني مروت مارك الكتاب اللياني مروت مارك الكتاب اللياني ر الكتاب اللبنائي ميروت مار الكتاب اللمني ميروت سسسسببدي مرود در نصيب سنسي ميرود در تنصيب ميرود در تصمستني ميرود در تصسيمين ميرود در تصديمين ميرود در تصدير المنظومين دار الکتاد اللماني ميرود دار الکتاب اللماني ميرود دار و دار الکتاداللمانی میروت دار الا مروت مار الكتاب اللينامج عبروت مار الكتاب اللينامج معروت مار الكتاب الليامج عبروت مار الكتاب اللينامج عبروت مار الكتاب اللينامج معروت معروت مار الكتاب اللينامج معروت معروت معروت معروت معروت اللينامج معروت معروت معروت الكتاب اللينامج معروت اللينامج معروت معروت الكتاب اللينامج معروت اللينامج معروت الكتاب اللينامج معروت اللينامج معروت الكتاب اللينامج معروت الكتاب اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج معروت الكتاب اللينامج معروت اللينامج معروت الكتاب اللينامج معروت الكتاب اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج معروت اللينامج اللينامج اللينامج اللينامج اللينامج اللينامج اللينامج اللينام اني محوت دار الكتاب اللياني عبروت دار الكتاب اللياني عبروت دار الكتاب اللياني مجروت دار الكتاب المجروت دار الكتاب الياني مجروت دار الكتاب العرب الكتاب الكتاب المجروت دار الكتاب المجروت داراني مجروت دار الكتاب المجروت داراني مجروت داراني داراني مجروت داراني داراني داراني مجروت داراني دا - بيروت دار الكتاب المنابح ـ بيروت دار مكتب سعوج ـ بيروت دار الكتاب اللبانج ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبانج ـ ديروت ـ دار الكتاب اللبانج ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبانج ـ ديروت ـ دار الكتاب ـ ديروت ـ من سعود من الكتاب السابع ميروت مار الكتاب السابع ميروت مار الكتاب السابع ميروت مار الكتاب اللسابع ميروت مار الكتاب السابع ميروت مير الاکتاب الاعلام علی می در الکتاب الاعلام علی می ود در سعی می ود در الکتاب الاعلام علی می ود دار الکتاب الاعلام - ار الکتاب الاعلام علی علی می ود دار الکتاب الاعلام می ود دار الکتاب الاعلام عبرود دار الاعلام عبرود دار الکتاب الاعلام ت الكتاب اللباني مروت بالراكتاب اللباني مروت برانست السعيد ميروت بالراكتاب اللباني ميروت الراكتاب اللباني ميروت بالراكتاب اللباني الل — «رب الكتاب اللينامي من ويود من الكتاب الليامي من ويود من الكتاب الليامي من ويود ما والكتاب الليامي من ويد مار جروت مار الكتاب اللينامي من وت مار الكتاب الليامي من ويود مار الكتاب الليامي من ويود من الكتاب الليامي من وت مار الكتاب الليامي من ويود ما ت دار الكتاب اللحانج. مروث مار الكتاب اللحانج. مبروث مار الكتاب اللحانج. مبروت - اللبر . . بيروت دار الكتاب اللحابي - بيروت دار الكتاب اللبحاني - بيروت بدار الكتاب اللبحاني - بيروت ، ت بارالگتاب اللساني بيروت بارالگتاب اللياني بيروت بارالگتاب اللياني بيرو 14. ح. سروت دار الکتاب اللحائی - محروت دار الکتاب اللحائی. صروت دار الکتاب اللحائی. غانی. صروت دار الکتاب اللحائی. صروت دار الکتاب اللحائی. صروت دار الکتاب اللحائی. ـ اللحائی. صروت دار الکتاب اللحائی. صروت دار الکتاب اللحائی. صروت دار الکتاب اللہ: ت بارالکتاب اللیتانی میروت دار الکتاب اللیتانی تیروت بار الکتاب اللیتانی ـ ٧, وت دارالكتاب اللمائي ببروت دارالكتاب اللمائي ببيروث دارالكتاب اللبيان على حيروت دار الكتاب اللطاب حيروت دار الكتاب اللطاني حيروت دار الكتاء مروت دار الكتاب السابح . ميروت بار الكتاب اللسابح . ميروث بار الكتاب ال نتات اللمائم . ميروت دار الكتاب اللمائم . ميروت دار الكتاب اللمائم . ميروت دار ال - بعروت ما را اكتاب اللحامي معروت أدار الكتاب اللحامي عن أدار الكتاب المجاني المجانية والمحالية المالي المحالية المالية المحالية المحال ـار الكتاب الليماني ـ مَبْروت بـ از الكتاب الليماني ـ مَبْروت بـ از الكتاب الليماني ـ مَبْروت بـ ا ت بار الكتاب الليتاني . بين وت بيار الكتاب الليتاني . ثير وت بيار الكتاب الليتاني . ثير وث اللياني بيروت بارالكتاب اللياني بيروت بارالكتاب اللياني بيروت بار بروت دار الكتاب الليناني نبروت دار الكتاب اللياني . نيروت دار الكتاب اللياني ـ بير عناداللحامج ببروت دارالكتاب اللحامي ببروت دارالكناب اللحامج ببروت ي بيروت بار الكتاب اللبياني ببروت برا الكتاب اللبياني بيروث بار الكتاب اللبياني . _ار الكتاب اللسامي ميروث مار الكتاب اللسامي ميروث مار الكتاب اللساني مير ي. ـ مروت دار الكتاب الليناني. ـ ميروت دار الكتاب اللياني ـ ميروت دا، الكتاب اللياني وت مارالكتاب اللباني بيروث مارالكتاب اللباني بيروث بارالكتاب اللباني _اللغامي-تبروت دارالكتاب اللغام تتبروت دارالكتاب اللغامي تمبروت دارالكتاب اللغاب بح ميروت مار الكتاب اللمانج ميروت بار الكتاب اللمانج ميروث مار الكتاب اللما على غيروت دارالكناداللحانج عبروت وارالكناداللعاني غيروت دارالكتاداللعاد عناداللسامح مبروت مار الكتاداللسامح مبروت مارالكتاداللسامف حبروت مارالكنادا تصديب محروب ما ربيحيد سميد موروب مرزيد سميد موروب ما ربيجيد سميد موروب ما ربيجيد المكان المامي موروب مرزيد ما ربيجيد ما راكته اللمانية موروب ما راكتاب اللمامي موروب ما راكتاب اللمام موروب ما راكتاب اللمامي موروب ما راكتاب اللمام يت ما راكتاب اللماني موروب م يت مار الكتاب الليناس ميروت ب المنابع الم ر الكتاب اللبناني معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب اللبناني معروت مار الكتاب اللماني معروت معروت معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب الماني معروت معروت مار الكتاب اللماني معروت مار الكتاب اللماني معروت معروت معروت الماني معروت معروت معروت المعروت المعروت الماني معروت الماني معروت الماني المعروت الماني ر مستسب و میرود در سخت سبود در سخت معرود در سخت میرود در سخت به در است. سخوج میرود در سخت سخوج میرود در نصب سخت ـ مار اکتاب اللخارج میرود دار اکتاب اللخات میرود دار اکتاب اللحات میرود دار الکتاب اللحات میرود ـ – در سحت سحت محروت در سحت سعد محروت در مصد سجعت محروت در سحت سعت محروت در سحت سعت محروت در مصدست سعت محروت در روت دار الکتات اللحائی محروت دار الکتات اللحائ رود سريمديسيود بيرود بيرود سريميد بيرود سريمديسيود بيرود در يصديسيون بيرود بيريميدين بيرود بيرود بيرود بيرود بر - بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني بيروث بارالكتاب اللباني بيروت بارالكتاب اللباني ميرود بارالكتاب اللباني بيرود بيرود بارالكتاب اللباني بيرود هني ميروت دار الدعب اسمعي ميروت مارا الدعب السمعي ميروت مارا الدعب السمعي ميروت دار الدعب اسمعي ميروت دار الدع اللماني ميروت دار الكتاب الميروت دار الكتاب الماني ميروت دار الكتاب الماني ميروت دار الكتاب الميروت داروت داروت داروت داروت الميروت داروت دا سيدين مروت در سيدين مروت در سيدين و سرسيدين در سيدين و در سيدين و در سيدين دروت در سيدين مروت در سيدين مروت در اکتاب السانح ، مروت دار الکتاب الکتاب السانح ، مروت دار الک سر مستند و برود در مستند برود در مستونست و برود در مستند و برود در مستند و برود در مستند و برود در مستند و برود و برود و در مستند و برود و در الكنام اللماني و برود و دار الكنام الماني و دار الكنام الماني و دار الكنام الماني و دار و دار الكنام الماني و دار الكنام الماني و دار الكنام الماني و دار و دار الكنام الماني و دار الكنام الماني و دار و د حروب در الکتاب للبناند ، بروت بار الکتاب اللبناند ، بروت ب معجب بي ود در بيديستمنج عيروت دار بيديد سنمنج عيروت مر بيديستمنج عيروت در بيديستمنج عيروت در بيديستمنج عيروت در ومديستمنج عيروت در ومديستمنج عيروت والكتاب اللعام ـ اللماني ميروت مار الكتاب اللمانج عيروت دار الكتاب اللمانج عيروت والكتاب اللمانج ميروت ميروت والكتاب اللمانج عيروت والكتاب اللمانج ميروت والكتاب اللمانج عيروت والكتاب اللمانج والكتاب اللمانج والكتاب اللمانج والكتاب اللمانج والكتاب اللمانج والكتاب اللمانج واللمانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والكتاب المانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والكتاب المانج والكتاب المانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والكتاب المانج والكتاب المانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والمانج والكتاب المانج والمانج والكتاب والكتاب المانج والمانج والكتاب والكتاب المانج والمانج والم سياستون عروب در سنسيستون مروب در سيديستون مروب در سيدستون عروب در سيستون عروب در بيدمتسعوب عروب در نصوب سون عر الكنات السام عروب دار الكناب السامي مروت دار الكناب السامي مروت دار الكناب الليامي عروب دار الكناب الليامي مروت دار الكناب الليامي الليامي مروت دار الكناب الليامي مروت دار الكناب الليامي مروت دار الكناب الليامي مروت دار الكناب الليامي الليام سحه سمود. مرود در سحم. سعود مرود در دستسعوب مرود در سحم. سموب مرود در سحم. سعوب مرود در سحم. سعوب مرود در سحم. دار الکتاب اللخام مرود دار الکتاب اللحام ، مرود در انصب سعند خبروت در مصور سعنی خبروت دار تصف سعنی خبروت در سعند خبروت در است دستی دروت در انصاب معروت به خبروت وت دار الکتات اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الد وت دار الکتاب اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الکتاب اللمای خبروت دار الد يوت من مستحد مروت من مصورت من مصدرت مروت من مصدرت والمستحد مروت من مصدرت والمستحدة على من المستحد مروت من العا من وقد من الكتاب اللباني عبروت مار الكتاب اللباني من وقد من الكتاب اللباني عبروت من الكتاب اللباني من وقد من اللباني من وقد من اللباني من وقد من الكتاب اللباني من وقد من الكتاب اللباني من وقد من اللباني من وقد من اللباني من وقد من الكتاب اللباني من وقد من الكتاب اللباني من وقد من وقد من اللباني من وقد من وقد من اللباني اللباني من وقد من اللباني من وقد من وقد من اللباني من وقد من اللباني من وقد من و . مروب در سد. سديد بيرود در مديستميد. بيروب در بعسم سيد جمرون در سيد سيد بيروب در سيد سيد در الكتاب الليم بيرو نح مروث مار الكتاب الليامي مروث دار الكتاب الليامي مروث دار الكتاب الليم بيروث مار الكتاب الليم بيروث دار الكتاب الليم بيروث دار الكتاب الليم بيروث مار الكتاب الليم بيروث مار الكتاب الليم بيروث مار الكتاب الليم بيروث مار الكتاب الليم بيروث من مروث من الليم بيروث مار الكتاب الليم بيروث من الليم بيروث ب ب مروت در الکتاب النظائي مروت دار الکتاب النظائي مروت دار الکتاب النظائي مروت دار الکتاب اللطائي ميروت دار الکتاب الکتاب اللطائي ميروت دار الکتاب اللطائي ميروت دار الکتاب اللطائي ميروت دار الکتاب اللطائي داران ميروت دار الکتاب الطائي داران ميروت داران داران ميروت داران دارا سي برود. ابر الشاعج عبروت دار الكتاب اللباعج عبروت دار الكتاب اللباعد عبروت دار الكتاب الكتاب اللباعد عبروت دار الكتاب ا موسعت مروب سر مصوسعت بروب در تصميمي مروب در سيب سعد مروب در تصويب سعد مروب در تصويب سعيد مروب در تصويب سعيد مرو كتاب اللياس بروت باز الكتاب اللياس مروث باز الكتاب اللياس مروث ويروث باز الكتاب اللياس مروث باز الكتاب اللياس مروث ويروث باز الكتاب اللياس مروث ويروث ار الکتاب السائع، محروت دار الکتاب ال ت دار الکتاب اللحانی، میروت مار الکتاب اللحانی، میروت دار الکتاب الکتاب اللحانی، میروت دار الکتاب الکتاب الکتاب اللحانی، میروت دار الکتاب اللحانی، م بروت مار الكتاب الطخف بيروت مار الكتاب اللطح عروت اللطح عروت اللطح عروت الكتاب اللطح عروت الكتاب اللطح عروت الكتاب اللطح عروت الكتاب اللطح عروت اللطح ب سريسيد سوخيروب در نصوبيسيد چروب در نصب سيده جروب در الصياسية جروب در الكتاب الليامي عروب دار الكتاب الكتاب الليامي عروب دار الكتاب الليامي عروب دارك دارك الليامي عروب دارك دارك دارك الكتاب عروب د - عروب در سحب سحد عروب در مصدوست عبروب در مصدوب عبروت در الکتاب الساح عروب در الکتاب الساح عبروت دار الکتاب الی در الساح عبروت دار الکتاب الساح عبروت دار السا الباني. الباني. محروث دار الكتاب اللباني يروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروث بار الكتاب اللياني بيروت بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بيروت بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بار الكتاب اللياني بيروت بير ب الكتاب الشابح مروت دار الكتاب اللسابح دار اللسابح دار اللساب مار الکتاب اللبائد، مروث دار الکتاب اللباند، مروت بار الکتاب اللباند،

سحس بسعند، نيروب در سحس سعند عروب در سجس سعند عروب در سحس سعند عنوب متر تصمسعت عروب در بصف نعيب حروب سراسطة 1. الاعتار اللياند عم وت دار الكتاب اللياند عروت دار الكتاب اللياند عروب مروب دار الكتاب اللياند عروب ال

The Complete Horis of ABBAS MAHMOUD AL. AAKAD

Volume XVIII

DAR AL-KITAB ALLUBNANI